

كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء التاسع

دار الشعب  
١٩٤٤م - ١٩٨١م



## الآفة الثالثة

### الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة . فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه ، وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعنى ، أو أكثر مما يعنى ، فهو ترك الأولى ، ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعنى ، لا يؤمن عليه الخوض في الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ، ولا يمدو كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أو الخوض في الباطل .

وأواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنها . فلذلك لا نخلص منها إلا بالاعتصار على ما يعنى من مهات الدين والدنيا . وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها ، وهو يستحقها . فقد قال بلال بن الحارث ، <sup>(١)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يُظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فِيكَتُبُ اللَّهِ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يُظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فِيكَتُبُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكان علقمة يقول : كم من كلام ممننيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنْ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ بُضْحِكَ بِهَا جُلْسَاءَهُ يَهْوَى بِهَا أَبْعَدَ مِنَ الثَّرِيَاءِ » وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقى لها بالا ، يهوى بها في جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة

### ﴿ الآفة الثالثة الخوض في الباطل ﴾

- ( ١ ) حديث بلال بن الحارث أن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله - الحديث : هت وقال حسن صحيح  
 ( ٢ ) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يصحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا : ابن أبي الدنيا من حديث  
 أبي هريرة بسند حسن وللشيخين أن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين  
 خريفا في البار . لفظت وقال حسن غريب

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَكْثَرُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضًا فِي الْبَاطِلِ » وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ <sup>(١)</sup> ) وبقوله تعالى ( فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ <sup>(٢)</sup> ) وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة. أكثرهم كلاماً في معصية الله: وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمر بجلس لهم فيقول لهم، توضعوا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث فهذا هو الخوض في الباطل، وهو وراء ماسياتي من النبوة والهمة والفحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها، أو تدبر للتوصل إليها، من غير حاجة دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم، وكل ذلك باطل، والخوض فيه خوض في الباطل، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه

## الآفة الرابعة

### المراء والجدال

وذلك منهى عنه. قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا تُمَارِ أَحَاكَ وَلَا تُمَارِخُهُ وَلَا تَعِدَّهُ مَوْعِدًا فَتُخْلَفُهُ » وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « ذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ لَا تَفْهَمُ حِكْمَتَهُ وَلَا تُؤْمِنُ فِتْنَتَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقُّ بَنِي لَهُ يَبْتَ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنِي لَهُ يَبْتَ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ » وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت

(١) حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم حوصاً في الباطل: ابن أبي الدنيا من حديث قتاده مرسلًا ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح  
(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)

(٢) حديث لا تمار أحاك ولا تمارخه ولا تعده موعداً فتلخفه: ت من حديث ابن عباس وقد تقدم  
(٣) حديث ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته: طب من حديث أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس ابن مالك ووائله بن الأسع بأسناد ضعيف دون قوله لا تفهم حكمته ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود

(٤) حديث من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة - الحديث: تقدم في العم

(١) الدرر: ٤٥؛ (٢) النساء: ١٤٠



(١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ مَا عَهَدَ إِلَى رَبِّي وَنَهَانِي عَنْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَشُرْبِ الْخُبْرِ مُلَاحَاةُ الرَّجَالِ » وقال أيضا (٢) « مَا ضَلَّ قَوْمٌ يَمُدُّونَ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَّا أَوْثَانًا الْجَدَلُ » وقال أيضا (٣) « لَا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا » وقال أيضا (٤) « سِتٌّ مِنْ كُنَّ فِيهِ بَلَغَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ الصِّيَامُ فِي الصَّيْفِ وَضَرْبُ أَعْدَاءِ اللَّهِ بِالسَّيْفِ وَتَعْجِيلُ الصَّلَاةِ فِي الْيَوْمِ الدَّجَنِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمُضِيبَاتِ وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَهُوَ صَادِقٌ »

وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن ، فإنك لا تستطيعهم ، ولكن عليك بالسنة وقال عمر بن العزيز رحمه الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات ، أكثر التقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء ، فإنه ساعة جهل العالم ، وعندها يتنقى الشيطان زلته . وقيل ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال . وقال مالك بن أنس رحمه الله عليه . ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضا المراء يقسى القلوب ، ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه يابني لا تجادل العاصياء فيمقتوك . وقال بلان بن ساعد ، إذا رأيت الرجل لجوجا ، مماريا معجبا برأيه ، فقد تمت خسارته . وقال سفيان . لو خالفت أخي في رمانة ، فقتال حلوة ، وقلت حامضة . لسعى بي إلى السلطان . وقال أيضا ، صاف من شئت ، ثم أغضبه بالمراء ، فليرمينك بداهية تمنحك العيش . وقال ابن أبي ليلى ، لا أمارى صاحبي ، فأما أن أكذبه ، وأما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء ، كفى بك إثما أن لا تزال مماريا .

(١) حديث أم سلمة ان أول ما عهد الى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال

ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني والبيهقي بسند ضعيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل

من حديث عروة بن رويم

(٢) حديث ما ضل قوم الأوثان الجدال : من حديث أبي أمامة وصححه وزاد بعدهدى كانوا عليه وتقدم

في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف

(٣) حديث لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وان كان محقا : ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة

بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ لا يؤمن التمدح حتى يترك الكذب في المزاح والرامون كان صادقا

(٤) حديث ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان - الحديث : وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمي

من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف بلفظ ست خصال من الخير - الحديث :

بملاحاة الرجال : مقالهم وخصامتهم يقال . لاحت ملاحاة وبلحا . إذا نازعته

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « تَكْفِيرُ كُلِّ لِحَاءٍ رَكْعَتَانِ » وقال عمر رضي الله عنه ،  
لا تتعلم العلم ثلاث ، ولا تتركه ثلاث . لا تتعلمه لتمازى به ، ولا لتباهى به ، ولا لتراثنى به  
ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام ، من كثر  
كذبه ، ذهب جماله . ومن لاحى الرجال ، سقطت مروءته . ومن كثر همه ، سقم  
جسمه . ومن ساء خلقه ، عذب نفسه

وقيل ليمون بن مهران ، مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لا أشاريه ولا أماريه  
وما ورد في ذم المرء والجدال أكثر من أن يحصى

وحد المرء هو كل اعتراض على كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ، إما فى اللفظ ، وإما فى  
المعنى ، وإما فى قصد المتكلم . وترك المرء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته  
فإن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمر الدين ، فاسكت عنه  
والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه ، بإظهار خلل فيه من جهة النحو ، أو من  
جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك  
يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله  
وأما فى المعنى ، فبأن يقول ليس كما تقول ، وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا  
وأما فى قصده ، فبأن يقول هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما  
أنت فيه صاحب غرض . وما يجرى مجراه . وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ، ربما  
خص باسم الجدال ، وهو أيضاً مذموم . بل الواجب السكوت ، أو السؤال فى معرض  
الاستفادة ، لا على وجه العناد والنكارة أو التلطف فى التعريف لافى معرض الطعن  
وأما المجادلة ، فعبارة عن قصد إغغام الغير ، وتعجيزه وتنقصيه بالقدح فى كلامه ، وسبته  
إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك . أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مسكروها عند  
المجادل ، يجب أن يكون هو المظهر له خطأه ، ليبين به فضل نفسه ، ونقص صاحبه . ولا نجاة  
من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأتى به لو سكت عنه .

(١) حديث تكفير كل لحاء ركعتان: الطبرانى من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه  
وهما شهوتان باطنتان للنفس ، قويتان لها  
أما إظهار الفضل ، فهو من قبيل تزكية النفس ، وهى من مقتضى ما فى العبد من طغيان  
دعوى العلو والكبرياء ، وهى من صفات الربوبية  
وأما تنقيص الآخر ، فهو من مقتضى طبع السبعية ، فإنه يقتضى أن يعزق  
غيره ، ويقصمه ويصدمه ويؤذيه

وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان . وإنما قوتهما المرء والجدال . فالمواطب على المرء  
والجدال مقوله هذه الصفات المهلكة . وهذا مجاوز حد الكراهة ، بل هو معصية مهما حصل  
فيه إيذاء الغير ، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهيج الغضب ، وحمل المعارض عليه على أن  
يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدم فى قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار  
بين المتبارين ، كما يثور الهراش بين الكلبين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه  
بما هو أعلم نكايته ، وأقوى فى إخمائه وإلجائه

وأما علاجه . فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على  
تنقيص غيره ، كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغضب . فإن  
علاج كل علة بإماطة سببها ، وسبب المرء والجدال ما ذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة  
وطبعاً ، حتى يتمكن من النفس ، ويعسر الصبر عنه

روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه ، قال لداود الطائى . لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد  
نفسى بترك الجدال . فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ، ولا تتكلم . قال ففعلت ذلك  
فما رأيت مجاهدة أشد علىّ منها . وهو كما قال ، لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على  
كشفه ، تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ  
وَهُوَ مُحِقٌّ بِبَنِي اللَّهِ لَهُ يَتَنَفَّى إِلَى الْجَنَّةِ » لشدة ذلك على النفس .

وأكثر ما يغلب ذلك فى المذاهب والعقائد ، فإن المرء طبع ، فإذا ظن أن له عليه ثوابا  
اشتد عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغى للإنسان  
أن يكف لسانه عن أهل القبلة . وإذا رأى مبتدعا تلتطف فى نصحه فى خلوة ، لا بطريق

الجدال . فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التليس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا . فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتؤكد . فإذا عرف أن النصيح لا ينفع ، اشتغل بنفسه وتركه . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « رَحِمَ اللَّهُ مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ إِلَّا بِأَحْسَنِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ » وقال هشام بن عروة . كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات . وكل من اعتاد المجادلة مدة ، وأثنى الناس عليه ، ووجد نفسه بسببه غزا وقبولا ، قويت فيه هذه المهلكات ، ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب ، والكبر ، والرياء ، وحب الجاه ، والتعزز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها ، فكيف بمجموعها !

## الآفة الخامسة

### الخصومة

وهي أيضا مذمومة . وهي وراء الجدال والمرء . فالمرء طعن في كلام الغير ، بإظهار خال فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار مزينة الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج في الكلام ، ليستوفي به مال أو حق مقصود . وذلك تارة يكون ابتداء ، وتارة يكون اعتراضا . والمرء لا يكون إلا باعتراف على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضی الله عنها ، <sup>(١)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخِصْمُ » وقال أبو هريرة ، <sup>(٢)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ جَادَلَ فِي خُصُومَةٍ بغيرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ »

(١) حديث رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه : ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ رحم الله امرأ كف لسانه عن إعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا

( الآفة الخامسة الخصومة ) :

(٢) حديث عائشة ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم : صح وقد تقدم  
(٣) حديث أبي هريرة من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع : ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب والترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعف الجمهور

وقال بعضهم ، إياك والخصومة ، فإنها تحق الدين . ويقال ماخاصم ورع قط في الدين وقال ابن قتيبة ، مرّ بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة ، فقال مايجلسك ههنا ؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي . فقال إن لأبيك عندي يدا ، وأنى أريد أن أجزيك بها . وإني والله مارأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة . قال فقلت لأنصرف . فقال لي خصمي ، مالك ؟ قلت لأخاصمك . قال إنك عرفت أن الحق لي . قلت لا ، ولكن أكرم نفسي عن هذا . قال فإني لأطلب منك شيئا هو لك فإن قلت : فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه ، أو في حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ؟ وكيف تدم خصومته

فاعلم أن هذا الدم يتناول الذي يخاصم بالباطل ، والذي يخاصم بغير علم ، مثل وكيل القاضى ، فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أى جانب ، هو يتوكل في الخصومة من أى جانب كان ، فيخاصم بغير علم . ويتناول الذي يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة ، بل يظهر اللدد في الخصومة ، على قصد التسلط ، أو على قصد الإيذاء

ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ، ليس يحتاج إليها في نصرته الحاجة ، وإظهار الحق . ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد ، لقهو الخصم وكسره ، مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال . وفي الناس من يصرح به ويقول ، إنما قصدى عناده وكسر عرضه ، وإني إن أخذت منه هذا المال ربعا رميت به في بئر ولا أبالي . وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج ، وهو مذموم جدا .

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع ، من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج ، على قدر الحاجة ، ومن غير قصد عناد وإيذاء ، ففعله ليس مجرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا . فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متمذرا ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب . وإذا هاج الغضب نسب المتنازع فيه ، وبقي الحقد بن المتخاصم بن . حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويجوز بمسرة ، ويطلق اللسان في عرسه . فمن بدأ بالخصومة فتد تمرض لهدم المحذورات . وأقل ما فيه تسويش ساطر . حتى أنه في سائرته تشعل بمساءة خصمه ، فلا يبقى الأمر على حد الواجب .

فانحصورة مبدأ كل شر ، وكذا المرء والجدال . فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة ، وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ، ولا تدم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه ، لأن عنده ما يكفيه ، فيكون تاركا للأولى ، ولا يكون آثما . نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمرء والجدال طيب الكلام ، وما ورد فيه من الثواب إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض ، الذي حاصله إما تجهيل ، وإما تكذيب . فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه ، فقد جهله أو كذبه ، فيفوت به طيب الكلام

وقال صلى الله عليه وسلم «يَمَكِّنُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ طَيْبُ الْكَلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ» وقد قال الله تعالى ( وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا <sup>(١)</sup> ) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، من سلم عليك من خلق الله ، فاررد عليه السلام وإن كان مجوسيا ، إن الله تعالى يقول ( وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا <sup>(٢)</sup> ) وقال ابن عباس أيضا لو قال لى فرعون خيرا لرددت عليه . وقال أنس <sup>(٣)</sup> ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ فِي الْجَنَّةِ لَعْرَافًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَالْآنَ الْكَلَامَ »

وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير ، فقال مر بسلام . فقيل ياروح الله أتقول هذا الخنزير ؟ فقال أكره أن أعود لساني الشر . وقال نبينا عليه السلام <sup>(٤)</sup> « الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » وقال <sup>(٥)</sup> « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِي كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » وقال عمر رضي الله عنه ، البرشى هين ، وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء ، الكلام اللين يفسل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء ، كل كلام لا يسخطرك

( ١ ) حديث يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله

من حديث هني أبي شريح ناسناد جيد وحب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

( ٢ ) حديث أنس ان في الجنة لعراف يرى ظاهرها من باطنها - الحديث : ت وقد تقدم

( ٣ ) حديث الكلمة الطيبة صدقة : من حديث أبي هريرة

( ٤ ) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة - الحديث : متفق عليه من حديث عدى ابن حاتم وقد تقدم

(١) البقرة: ٨٣ (٢) النساء: ٨٦

إلا أنك ترضى به جليسا ، فلا تكن به عليه بخيلا ، فإنه لما يعرضك منه ثواب المصنفين وهذا كله في فضل الكلام الطيب ، وتضاده الخسومة ، والمرء ، والجدال ، والجاج فإنه الكلام المستكره الموحش ، المؤذي للقلب ، المنقص للدين ، المبيح للغيب ، الموغر للصدر ، نسأل الله حسن التوفيق عنه وكرمه

## الآفة السادسة

### التعمر في الكلام

بالتشويق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشديدات والمقدمات ، وما جرت به عادة المتفصحين ، المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ، ومن التكلف المعقوت ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا وَتَقِيَاءُ أُمَّتِي بُرَاءٌ مِنَ التَّكْلِيفِ » وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(١)</sup> إِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَى وَابْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا الزَّانِرُونَ الْمُتَقَبِّهُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ فِي الْكَلَامِ » وقالت فاطمة رضى الله عنها ،<sup>(٢)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُوا بِالنِّعَمِ يَا كُلُّونَ الْوَانَ الطَّعَامِ وَيَلْبَسُونَ الْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « أَهْلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » ثلاث صرات . والتنطع هو العمق والاستقصاء .

وقال عمر رضى الله عنه ، إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمرو بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة . فتكلم بين يدي حاجته بكلام . فقال له سعد ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول<sup>(٤)</sup> « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَخَلَّلُونَ الْكَلَامَ بِالسِّنِّهِمْ كَمَا تَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ الْكَلَامَ بِالسِّنِّهَا ،

### ( الآفة السادسة الفرع في الكلام والتشويق )

- ( ١ ) حديث ابن أبي عمير إلى الله وأبعدكم منى مجلسا الزانرون المتقبهون المتشديقون أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند من حديث جابر وحسنه بلفظ ان أبغضكم الى
- ( ٢ ) حديث فاطمة شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم - الحديث : وفيه يتشديقون ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب
- ( ٣ ) حديث أهلك المتطعون م من حديث ابن مسعود
- ( ٤ ) حديث سعد يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كاتخل البقرة الكلام بلسانها رواه أحمد

وكأنه أنكسر عليه ما قدمه على الكلام ، من التشبيب ، والمقدمة المصنوعة التكافؤ وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك النفاصيح الخارج عن حد العادة ، وكذلك السجع في المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وحلم بغيره في الجنين ، فقال بعض قوم الجاني ، <sup>(١)</sup> كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك بطل ! فقال « أَسَجُّمًا كَسَجِّجِ الأَعْرَابِ » وأنكر ذلك ، لأن أثر التكافؤ والتصنع بين عليه . بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم

ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة ، والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتثقيقها ، وقبضها وبسطها ، فارشاقة اللفظ تأثير فيه ، فهو لائق به . فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات ، فلا يليق بها السجع والتشديق ، والاشتغال به من التكافؤ المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة ، والتميز بالبراعة ، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ، ويزجر عنه

## الآفة السابعة

الفحش والسب وبداءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ، ومصدره الخبث واللؤم . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ » <sup>(٣)</sup> ومنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال « لَا تَسُبُّوا هَؤُلَاءَ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ »

(١) حديثه كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث : من حديث المغيرة بن شعبه وأبي هريرة وأصلهما عند محمد أيضا ( الآفة السابعة الفحش والسب وبداءة اللسان )

(٢) حديث إياكم والفحش - الحديث : ن في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن جبان من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث النهي عن سب قتلى بدر من المشركين - الحديث : ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورحاله ثقات والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح ان رجلا وقع في آب للعباس كان في الجاهلية ولطمه - الحديث : وفيه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحيانا



بِمَا تَمُولُونَ وَتُؤْذُونَ الْأَحْيَاءَ إِلَّا إِنْ الْبَدَاءُ لَكُمْ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(١)</sup> «إِنَّ أَلْسِنَةَ الْمُؤْمِنِ  
بِالطَّعَانِ وَاللَّعَانِ وَالْفَاحِشِ وَالْأَبْدِيِّ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(٢)</sup> «الْجَنَّةُ  
حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشٍ أَنْ يَدْخُلَهَا» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(٣)</sup> «أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ  
فِي النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْأَذَى يَسْمَعُونَ: بَيْنَ الْأَحْمِيمِ وَالْحَجِيمِ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ رَجُلٌ  
يَسِيلُ قُوَّهُ قَيْحًا وَدَمًا فَيُقَالُ لَهُ مَا بَالُ الْأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بَيْنَا مِنَ الْأَذَى فَيَقُولُ إِنَّ الْأَبْعَدَ  
كَانَ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ قَذَعَةٍ خَيْبَةٍ فَيَسْتَلْذِهَا كَمَا يَسْتَلْذِي الرَّفَثَ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
لِعَائِشَةَ<sup>(٤)</sup> «يَاعَائِشَةُ لَوْ كَانَ الْفَحْشُ رَجُلًا لَكَانَ رَجُلٌ سَوًّا»

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> «الْبَدَاءُ وَاللِّيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ شُعْبِ النَّفَاقِ»  
فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح، حتى ينتهي  
إلى حد التكلف، ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين، وفي صفات الله تعالى، فإن القاء ذلك  
بمجملا إلى أسمع العوام أولى من المبالغة في بيانه، إذ قد يشور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس  
فإذا أجملت بادر القلوب إلى القبول ولم تضطرب. ولكن ذكره مقرونا بالبذاء، يشبه  
أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحى الإنسان من بيانه، فإن الأولى في مثله  
الإغماض والتغافل، دون الكشف والبيان

وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ الصَّيَّاحَ فِي الْأَسْوَاقِ»

(١) حديث ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البدي: ت باسناد صحيح من حديث ابن مسعود

وقال حسن عريب والحاكم وصححه وروى موفوفا قال الدار فطى في العلل والوفوف أصح

(٢) حديث الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها: ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى - الحديث: وفيه ان الأبعد كان ينظر الى كل

كلمة حيثة فيسئلها كبا سئل الرفث ابن أبي الدنيا من حديث شى بن مائع واختلف في حجة

فذكره أبو نعيم في الصحاح وذكره نخ في التابعين

(٤) حديث يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوء: ابن أبي الدنيا من رواية ابن طهينة عن أبي النصر

عن أبي سلمة عنها

(٥) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق: ت وحسنه وك وصححه على شرطهما من حديث أبي امامة وقد تقدم

(٦) حديث ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الاسواق: ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف

وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد ان الله لا يحب الفاحش المتفحش واستاده جيد

وقال جابر بن سمرة<sup>(١)</sup>، كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي أمامي . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْفُحْشَ وَالْتَفَاحِشَ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلَامًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا »

وقال ابراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفى جوف كلب . وقال الأحنف بن قيس ، ألا أخبركم بأدوا الداء ، اللسان البذي ، والخلق الدني . فهذه مذمة الفحش

فأما حده وحقيقته ، فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة . وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به . فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكونون عنها ، ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقارنها ويتعلق بها . وقال ابن عباس ، إن الله حيي كريم ، يعفو ويكنو . كنى باللمس عن الجماع . فاللمس ، واللمس ، والدخول ، والصحبة ، كنايةات عن الوقاع . وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة ، يستتبع ذكرها ، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير . وهذه العبارات متفاوتة في الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بمادة البلاد ، وأوائلها مكروهة ، وأواخرها محظورة ، وبينهما درجات يتردد فيها . وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول ، والغائط أولى من لفظ التنوط والخراء وغيرها . وإن هذا أيضا مما يخفى ، وكل ما يخفى يستحيا منه ، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة ، فإنه فحش

وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء ، فلا يقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال قيل في الحجر ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد ، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود ، والتصريح فيها يفضى إلى الفحش

وكذلك من به عيوب يستحيا منها ، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها ، كالبرص ، والقرع ، والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه ، وما يجري مجراه . فالتصريح بذلك داخل في الفحش . وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون ، كان عمر بن عبد العزيز

(١) حديث جابر بن سمرة أن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء مسالحدديث: أحمد وابن أبي الدنيا باسناد صحيح

يتحفظ في منطقته ، فنخرج نحت إبطنه خراج ، فأتيناه نسأله لئرى ما يقول ، فقلنا  
من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد .

والباعث على الفحش إما قصد الإبداء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل  
الخبث واللؤم ، ومن عادتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> أوصنى  
فقال « عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِنْ أَمْرٌ وَعَيْرُكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ فَلَا تُعِيرَهُ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ  
فِيهِ يَكُنْ وَبِأَلِّهِ عَلَيْهِ وَأَجْرُهُ لَكَ وَلَا تَسْبِنْ شَيْئًا » قال فما سببت شيئا بعمده

وقال عياض بن حمار<sup>(٢)</sup> قلت يارسول الله ، إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني  
هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « الْمُنْسَابَانِ شَيْطَانَانِ يَتَعَاوَيَانِ وَيَتَهَارَجَانِ » وقال  
صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>  
« الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِيَ الْمَظْلُومُ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup>  
« مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ » وفي رواية « مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَسْبَ الرَّجُلُ  
وَالِدَيْهِ » قالوا يارسول الله ، كيف يسب الرجل والديه ؟ قال « يَسْبُ أَبَا الرَّجُلِ قَيْسَبُ الْآخِرُ أَبَاهُ »

## الآفة الثامنة

### اللعن

إما لحیوان أو جماد أو إنسان . وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث قال اعرابي أوصنى فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشيء تعلمه فيك فلا تعيره بشيء

تعلمه فيه - الحديث : أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري المهجيمي قبل اسمه جابر

ابن سليم وقيل سليم بن جابر

( ٢ ) حديث عياض بن حمار قلت يارسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل على من بأس أن أنتصر

منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاران : د الطيالسي واصله عند أحمد

( ٣ ) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر : متفق عليه من حديث ابن مسعود

( ٤ ) حديث المستبان ما قالا فعلى البادي حتى يعتدي المظلوم : م من حديث أبي هريرة وقال مالم يعتد

( ٥ ) حديث ملعون من سب والديه وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه - الحديث :

أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد وانفق الشيخان

على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

«الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ بِالْعَمَانِ» وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا بِنَعْصِيهِ وَلَا بِنَجْبَتِهِ» وقال حذيفة، ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول وقال عمران بن حصين<sup>(٢)</sup> بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضحرت منها، فلعنتها. فقال صلى الله عليه وسلم «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» قال فكأنني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس، لا يتعرض لها احد وقال أبو الدرداء، ما لعن أحد الأرض إلا قالت، لعن الله أعصانا لله. وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> أبا بكر وهو يلحن بعض رقيقه، فالتفت إليه وقال «يَا أَبَا بَكْرٍ أَصِدِّيقِينَ وَلَعَانِينَ! كَلَّا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» مرتين أو ثلاثا، فأعق أبو بكر يومئذ رقيقه، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لا أعود وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>، «إِنَّ اللَّعَانِينَ لَا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وقال أنس<sup>(٥)</sup>، كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلحن بعيره، فقال صلى الله عليه وسلم «يَاعْبُدَ اللَّهُ لَا تَسِرْ مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُونٍ» وقال ذلك إنكارا عليه

واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل، وهو الكفر والظلم، أن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين

#### ( الآفة الثامنة اللعن )

- ( ١ ) حديث المؤمن ليس بالعمان : تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا بالعمان - الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا
- ( ٢ ) حديث لا تلاعنوا بلعنة الله - الحديث : ت د من حديث سمرة بن جندب قال ت حسن صحيح
- ( ٣ ) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضحرت منها فلعنتها - الحديث : رواه م
- ( ٤ ) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلحن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال يا أبا بكر لعانين وصديقين - الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت وشيحه بشار ابن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه
- ( ٥ ) حديث إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة : م من حديث أبي الدرداء
- ( ٦ ) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلحن بعيره فقال يا عبدا لله لا تسر معنا على بعير ملعون ابن أبي الدنيا باسناد جيد

وينبغي أن يتبع فيه لمفظ الشرع، فإن في اللعنة خطرا، لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبدى للمعون، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طلع الله عليه والصفات المقتضية لللعن ثلاثة، الكفر، والبدعة، والفسق. وللعن في كل واحدة ثلاثة مراتب الأولى: اللعن بالوصف الأعم، كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين، والفسقة الثانية: اللعن بأوصاف أخص منه، كقولك لعنة الله على اليهود، والنصارى، والمجوس، وعلى القدرية، والخوارج، والروافض، وأعلى الزناة، والظلمة، وآكلى الربا، وكل ذلك جائز، ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر، لأن معرفة البدعة غامضة، ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام، لأن ذلك يستدعى المعارضة بمثله، ويشير نزاعا بين الناس وفسادا الثالثة: اللعن للشخص المعين، وهذا فيه خطر. كقولك زيد لعنة الله، وهو كافر، أو فاسق، أو مبتدع والتفصيل فيه، أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا، فتجوز لعنته. كقولك فرعون لعنة الله، وأبو جهل لعنة الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا. أما شخص بعينه في زماننا، كقولك زيد لعنة الله، وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر. فإنه ربما يسلم؛ فيموت مقربا عند الله، فكيف يحكم بكونه ملعونا؟ فإن قلت. يلعن لكونه كافرا في الحال، كما يقال لامسلم رحمه الله لكونه مساهبا في الحال، وإن كان يتصور أن يرتد

فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله، أى ثبته الله على الإسلام، الذى هو سبب الرحمة. وعلى الطاعة. ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة. فإن هذا سؤال للكفر، وهو في نفسه كفر. بل الجائز أن يقال، لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام. وذلك غيب لا يدري، والمطلق متردد بين الجهتين، ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر، فهو في زيد الفاسق، أو زيد المبتدع أولى. فلعن الأعيان فيه خطر، لأن الأعيان تنقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قوما باللعن، فكان يقول في دعائه على قريش، <sup>(١)</sup> «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعُتْبَةَ بنِ رَيْبَعَةَ» وذكر جماعة

(١) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعُتْبَةَ بنِ رَيْبَعَةَ وذكر جماعة. متفق عليه من حديث ابن مسعود

فما على الكثرة بار حتى نُز من لم يعلم عاقبته كان يلعبه فنهى عنه .<sup>(١)</sup> إذ روى أنه كان يعلم الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا ، فنزل قوله تعالى ( لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ )<sup>(٢)</sup> يعني أنهم ربما يأسون ، فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر ، جاز لعنه ، و جاز ذمه ، إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يخبر ، كما روى<sup>(٣)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مرء به ، وهو يريد الطائف . فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يا رسول الله ، هذا قبر رجل كان أطعم للطعام ، وأضرب للهام من أبي قحافة . فقال أبو بكر ، يكلمنى هذا يا رسول الله يمثل هذا الكلام ! فقال صلى الله عليه وسلم « اكْفُفْ عَنِّ أَبِي بَكْرٍ » فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال « يَا أَبَا بَكْرٍ إِذَا ذَكَرْتُمُ الْكُفَّارَ فَعَمِّمُوا فَإِنَّكُمْ إِذَا خَصَصْتُمْ غَضِبَ الْأَنْبَاءَ لِلْآبَاءِ » فكف الناس عن ذلك

<sup>(٤)</sup> وشرب نعيان الخمر ، فخد مرآت في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال بعض الصحابة ، لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ

( ١ ) حديث أنه كان يعلم الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء . فقال بعض الصحابة ، لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ »  
 ( ٢ ) ثلاثين صباحا - الحديث : وفي رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان - الحديث : ولهما من حديث أبي هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه - الحديث : وفيه اللهم العن لحيان ورعلا - الحديث : وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء لفظ م

( ٣ ) حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مرء به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه - الحديث : د في الراصيل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه باسعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يحاهد الله ورسوله - الحديث : وفيه فاداسيتهم الشركين فسبهم جميعا  
 ( ٤ ) حديث شرب نعيان الخمر فخد مرآت في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكن عونًا للشيطان على أخيك وفي رواية لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله ابن عبد البرقي الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار

عَلَىٰ أُخَيْكَ ، وفي رواية « لَا تَقُلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » قهاه عن ذلك . وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز

وعلى الجملة ، ففي لعن الأشخاص خطر ، فيجتنب . ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً . فضلاً عن غيره

فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد ، لأنه قاتل الحسين أو أمره ،

قلنا : هذا لم يثبت أصلاً ، فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت ، فضلاً عن اللعنة ، لأنه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم علياً ، وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهم ، فإن ذلك ثبت متواتراً . فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْكَفْرِ وَلَا يَرْمِيهِ بِالْفُسْقِ إِلَّا أَرْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَا شَهِدَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ بِالْكَفْرِ إِلَّا بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَافِرًا أَفْهَوْا كَمَا قَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا فَقَدْ كَفَرَ بِتَكْفِيرِهِ إِيَّاهُ » وهذا معناه أن يكفروه وهو يعلم أنه مسلم . فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها ، كان مخطئاً لا كافراً . وقال معاذ <sup>(٣)</sup> قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِمًا أَوْ تَعْصِيَّ إِمَامًا عَادِلًا »

والتعرض للاموات أشد . قال مسروق ، دخلت على عائشة رضي الله عنها ؛ فقالت ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي . قالت رحمه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله

من رواية محمد بن عمرو بن حرم مرسلًا ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدًا وكناه عبد الملك والنخاري من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يقلب حماراً وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلده في الشرب فأتى به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلغوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه لا تعينوا عليه الشيطان وفي رواية لا تكونوا عون الشيطان على أخيك

( ١ ) حديث لا يرمى رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك : متفق عليه والسياق للنخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق

( ٢ ) حديث ما شهد رجلاً على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافراً فهو كافراً وقد كفر بتكفيره إياه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف

( ٣ ) حديث معاذ أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصي إماماً عادلاً : أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل

صلى الله عليه وسلم (١) « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال عليه  
 « السلام » (٢) « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا بِهِ الْأَحْيَاءَ » وقال عليه السلام (٣) « أَيُّهَا النَّاسُ  
 احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي وَأَصْهَارِي وَلَا تَسُبُّوهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ  
 فَادُّكُرُوا مِنْهُ خَيْرًا »

فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الأمر بقتله لعنه الله  
 قلنا الصواب أن يقال ، قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله . لأنه يحتمل أن يموت  
 بعد التوبة . فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله وهو كافر ،  
 ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا . ولا يجوز أن يلعن . والقتل كبيرة ، ولا تنتهي إلى رتبة  
 الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق ، كان فيه خطر . وليس في السكوت خطر ، فهو أولى  
 وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة ، وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعان . فلا ينبغي أن  
 يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفة بأوصافهم دون الأشخاص  
 المعينين . فلاشتغال بذكر الله أولى ، فإن لم يكن ، ففي السكوت سلامة . قال مكى بن إبراهيم ،  
 كنا عند ابن عون ، فذكروا بلال بن أبي بردة ، فجمعوا يلعنونه ويقعون فيه . وابن عون ساكت .  
 فقالوا يا ابن عون ، إنما نذكرك لما ارتكب منك ، فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة .  
 لا إله إلا الله ، ولعن الله فلانا . فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله ، أحب إلي من أن يخرج من العن  
 الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « أوصني ، فقال « أوصيك أن لا تكون لعمانا »

( ١ ) حديث عائشة لا تسبوا الاموات فانهم قد افضوا . إلى ما قدموا . اخذ ذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند  
 ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة

( ٢ ) حديث لا تسبوا الاموات فتؤذوا الاحياء . الترمذي من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا ان بعضهم  
 أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم

( ٣ ) حديث أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهارى ولا تسبهم أيها الناس إذ مات الميت فاذا ذكروا  
 منه خيرا : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الانصارى احفظوني في أصحابي  
 وأصهارى واسناده ضعيف وللشيعين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة لا تسبوا أصحابي  
 ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم  
 وللنسائي من حديث عائشة لا تذكر موتاكم إلا بخير واسناده جيد

( ٤ ) حديث قال رجل أوصني قال أوصيك أن لا تكون لعمانا : أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني  
 من حديث جرير بن مزور الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم



وقال ابن عمر ، إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لمان ، وقال بعضهم ، لعن المؤمن يعدل قتله . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا ، لو قلت إنه مرفوع لم أبال . وعن أبي قتادة ، قال <sup>(١)</sup> كان يقال من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله . وقد نقل ذلك حديثا سرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر ، حتى الدعاء على الظالم . كقول الإنسان مثلا لا صحح الله جسمه ، ولا سامه الله ، وما يجري مجراه . فإن ذلك مذموم . وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الْمَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى بُكَافَتْهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

## الآفة التاسعة

### الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل ، فلا تعيده أما الشعر ، فكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح . إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر ، فكرهه ، فقيل له في ذلك ، فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر ، فقال اجعل مكان هذا ذكرا ، فإن ذكر الله خير من الشعر .

وعلى الجملة : فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام ، إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لِحِكْمَةٌ » نعم مقصود الشعر المدح ، والذم ، والتشبيب ، وقد يدخله الكذب . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> حسان بن ثابت

( ١ ) حديث لعن المؤمن كقوله : متفق عليه من حديث ثابت بن الصحاح .

( ٢ ) حديث ان المظالم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة : لم أفب له على أصل . ولترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف من دعا على من ظلمه فقد انتصر

﴿ الآفة التاسعة الغناء والشعر ﴾

( ٣ ) حديث لأن يمتلي جوف أحدكم قَيْحًا حتى يريه خير من أن يمتلي شعرا : مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص وانفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد

( ٤ ) حديث ان من الشعر لحكمة : تقدم في العلم وفي آداب السماع

( ٥ ) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين : متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان

أهجم وجبريل معك

الانصاري بهجاء الكفار . والنوسع في المدح ، فإنه وإن كان كاذبا ، فإنه لا يلتحق  
في التحريم بالكذب . كقول الشاعر

ولو لم يكن في كفه غير روجه  
لجاء بها فليشوق الله سائله

فإن هذا عبارة عن توصف بشهادة السخاء . فإن لم يكن صاحبه سخيا ، كان كاذبا . وإن  
كان سخيا . فالمبالغة من صنعة الشعر ، فلا يقصد منه أن يمتقد صورته . وقد أنشدت أبيات  
بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو تتبعته ، لوجد فيها مثل ذلك ، فلم يمنع منه  
قالت عائشة رضي الله عنها : <sup>(١)</sup> ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، وكنت  
جالسة أغزل فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نورا ، قالت فهبت ،  
فنظر إلي فقال « مالك بهت ؟ » فقلت يارسول الله ، نظرت إليك ، فجعل جبينك يعرق  
وجعل عرقك يتولد نورا ، ولوراك أبو كبير الهذلي ، لعلم أنك أحق بشعره . قال « وما  
يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي ؟ » قلت يقول هذين البيتين

ومبرأ من كل غير حيضة      وفساد مرضعة وداء مغيل  
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه      برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقام إلى ، وقبل ما بين عيني ، وقال « جزألك  
الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسروري منك » <sup>(٢)</sup> ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
الغنم يوم حنين ، أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص ، فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره

(١) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه

يعرق وجعل عرقه يتولد نورا - الحديث : وفيه انشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي

ومبرأ من كل غير حيضة      وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه      برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث : رواه البيهقي في دلائل النبوة

(٢) حديث لما قسم الغنم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره

وما كنت بدر ولا حابس      يسودان مرداس في جمع

وما كنت دون امرئ منهما      ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقضوا عن لسانه - الحديث : مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى

رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأفرع

ابن حابس كل انسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

وما كان بدر ولا حابس . يسودان مرداس في مجمع  
وما كنت دون امرىء منها . ومن تضع اليوم لا يرفع  
فقال صلى الله عليه وسلم « افطعوا عني لسانه » فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه  
حتى اختار مائة من الإبل ، ثم رجع وهو من أرضى الناس . فقال له صلى الله عليه وسلم  
« أتقول في الشعر ؟ » فجعل يعتذر إليه ويقول ، بأبي أنت وأمي ، إني لأجد للشعر ديبا  
على لساني كديب النمل ، ثم يقرصني كما يقرص النمل ، فلا أجد بدا من قول الشعر . فتبسم  
صلى الله عليه وسلم وقال « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين »

## الآفة العاشرة

### المزاح

وأصله مذموم منهي عنه ، إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم  
(١) « لا تمأر أخاك ولا تمازجه »

فإن قلت : المازاة فيها إيذاء ، لأن فيها تكذيبا للأخ والصديق ، أو تجهيلا له ، وأما المزاح  
فطائفة ، وفيه البساط وطيب قلب ، فلم ينهي عنه ؟  
فاعلم . أن المنهي عنه الإفراط فيه ، أو المداومة عليه  
أما المداومة ، فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه ، واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة  
وأما الإفراط فيه ، فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تيمت القلب ، وتورث  
الضعف في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فإيخلو عن هذه الأمور فلا يذم ،

أنجعل نهى وهب البسيد بين عيبة والأفرع  
وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع  
وما كنت دون امرىء منها . ومن تضع اليوم لا يرفع  
قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزادني رواية وأعطى علقمة بن علانة مائة وأما زيادة  
أقطعوا عني لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة  
( الآفة العاشرة المزاح )

( ١ ) حديث لا تمأر أخاك ولا تمازجه: الترمذي وقد تقدم

نحو روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(١)</sup> « إِنِّي لَأَمْزُحٌ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا . وأما غيره إذا فتح باب المزاح ، كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلْسَاءَهُ يَهْوَى بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ التُّرَيَّا »

وقال عمر رضی الله عنه ، من كثر ضحكك ، قلت هيئته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا »

وقال رجل لأخيه يا أخي ، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال : نعم ، قال . فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال : لا قال . فقيم الضحك؟ قيل فما رئي ضاحكا حتى مات ، وقال يوسف بن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل : أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك . ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين . وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول ، أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ! وقال ابن عباس ، من أذنب ذنبا وهو يضحك ، دخل النار وهو يبكي . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ، ألسنته تعجب من بكائه؟ قيل بلى ، قال . فالذي يضحك في الدنيا ولا يدرى إلى ماذا يصير هو أعجب منه فهذه آفة الضحك . والمذموم منه أن يستغرق ضحكا . والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ، ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> قال القاسم مولى معاوية <sup>(٥)</sup> أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على قلوب له صعب

(١) حديث أنى امزح ولا أقول إلا حقا : تقدم

(٢) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها بعد من التريا : تقدم

(٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : متفق عليه من حديث أنس وعائشة

(٤) حديث كان ضحكه التبسم : تقدم

(٥) حديث القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوب له صعب فلم يجعل

كلنا دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله فيرهبه وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه

فسلم ، فجعل كعادنا من النبي صلى الله عليه وسلم يسأله ، يقر به ، ثم يعيد لأصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه . ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله قتيلا يارسول الله ، إن الأعرابي قد صرعه قلوبسه ، وقد هلك . فقال : « كَذَبُكُمْ وَأَفْوَاهُكُمْ مَلَأَى مِنْ دَمِهِ »<sup>(١)</sup> وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار ، فقد قال عمر رضي الله عنه ، من مزح استخف به وقال محمد بن المنكدر ، قالت لى أمى ، يا بنى لا تمازح الصبيان فتنون عندهم . وقال سعيد ابن العاص لابنه ، يا بنى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيا فيجتريء عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، اتقوا الله وإياكم والمزاح ، فإنه يورث الضغينة ، ويجر إلى القبيح . تحدثوا بالقرءان ، وتجالسوا به ، فإن ثقل نايكم فحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضي الله عنه . أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟ قالوا لا . قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق . وقيل لكل شيء بذور ، وبذور العداوة المزاح . ويقال المزاح مسلبة للنهى ، مقطعة للأصدقاء .

فإن قلت . قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه فأقول . إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على التدور فلا حرج عليك فيه . ولكن من الغلط العظيم ، أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ، ويفرط فيه ، ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو كمن يدور نهاره مع الزوج ، ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن<sup>(٢)</sup> لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد . وهو خطأ . إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار . فلا ينبغي أن يغفل عن هذا

<sup>(١)</sup> ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله قتيلا يارسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوبسه فهلك

قال نعم وأفواهكم ملأى من دمه : ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل

(١) حديث أذنه لعائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد : تقدم

نعم روى أبو هريرة (١) أنهم قالوا يا رسول الله، إنك تداعبنا، فقال «إني وإن دأببتكم لأقول إلا حقا» وقال عطاء (٢) إن رجلا سأل ابن عباس، أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح؟ فقال نعم. قال فما كان مزاحه؟ قال كان مزاحه: إنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا، فقال لها «الْبَسِيهِ وَأَحْمَدِي، وَجَرِي مِنْهُ ذَيْلًا كَذِيلِ الْعُرُوسِ»، وقال أنس، إن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) كان من أفكاه الناس مع نسائه. وروى (٤) أنه كان كثير التبسم. وعن الحسن (٥) قال، أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها صلى الله عليه وسلم «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ» فبكت فقال «إِنَّكَ لَسَيِّئَةٌ عَجُوزٌ يَوْمِيذٍ» قال الله تعالى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا) (١)

وقال زيد بن أسلم (٦) إن امرأة يقال لها أم أيمن، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت، إن زوجي يدعوك. قال «وَمَنْ هُوَ؟ أَهُوَ الَّذِي بَعَيْتَهُ بِيَاضٍ؟» قالت والله ما بعيت به بياض. فقال «بَلَىٰ إِنَّ بَعَيْتَهُ بِيَاضًا» فقالت لا والله. فقال صلى الله عليه وسلم «مَا مِنْ نَحْمَةٍ إِلَّا وَبَعَيْتَهُ بِيَاضٍ» وأراد به البياض المحيط بالحدقة. وجاءت امرأة أخرى فقالت يا رسول الله، أحملي على بعير. فقال «بَلْ نَحْمَلُكَ عَلَىٰ ابْنِ الْبَعِيرِ» فقالت ما أصنع به؟ إنه لا يحملني. فقال صلى الله عليه وسلم «مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا وَهُوَ ابْنُ بَعِيرٍ» فكان يمزح به

(١) حديث أبي هريرة قالوا إنك تداعبنا قال أني وإن دأببتكم فلا أقول إلا حقا: الترمذي وحسنه

(٢) حديث عطاء بن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال ابن عباس نعم - الحديث:

فذكر منه قوله لامرأة من نسائه البسية واحمدى وجرى منه ذيل كذيل العروس لم أقف عليه

(٣) حديث أنس كان من أفكاه الناس: تقدم

(٤) حديث أنه كان كثير التبسم

(٥) حديث الحسن لا يدخل الجنة عجوز: الترمذي في الشرائع هكذا مر سلا وأستده ابن الجوزي في الوفاء

من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجي يدعوك أهو الذي بعيت به بياض - الحديث: الزبير

ابن بكار في كتاب الفكاهة والزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف

(٧) حديث قوله لامرأة استحملته نحمك على ابن البعير - الحديث: ابوداود والترمذي وصححه من حديث

أنس بلفظ أنا حملك على ولد الناقة

وقال أنس ، كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير<sup>(١)</sup> وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتبهم ويقول « يَا أَبَا عَمِيرٍ مَا فَعَلَ النَّعِيرُ » لغير كان يلعب به وهو فرخ المصفور ، وقالت عائشة رضى الله عنها<sup>(٢)</sup> ، خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال « تَعَالِي حَتَّى أَسَاقِكَ » فشددت درعى على بطنى ، ثم خططنا خطأ ، فقمنا عليه واستبقنا ، فسبقنى . وقال « هَذِهِ مَكَانُ ذِي الْمَجَازِ » وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز ، وأنا جارية قد بعثنى أبى بشيء ، فقال أعطينيهِ ، فأبيت وسعيت ، وسعى فى أثرى ، فلم يدر كنى . وقالت أيضا<sup>(٣)</sup> ، سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال « هَذِهِ بَنِيكَ » وقالت أيضا رضى الله عنها<sup>(٤)</sup> ، كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسودة بنت زمعة ، فصنعت حريرة وجئت به ، فقلت لسودة كلى . فقالت لا أحبه ، فقلت والله لتأكلن أولاً لطنخ به وجهك ، فقالت ما أنا بذائقته . فأخذت يدي من الصحفة شيئاً منه . فلطخت به وجهها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها . فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد منى . فتناولت من الصحفة شيئاً ، فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك

وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى ،<sup>(٥)</sup> كان رجلاً دميماً قبيحاً ، فلما يابمه النبي صلى الله عليه وسلم ، قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الجمراء ، وذلك قبل أن تنزل

( ١ ) حديث أنس أبا عمير ما فعل النعير : متفق عليه وسعد في أخلاق النبوة

( ٢ ) حديث عائشة في سابقته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز : لم أجده أصلاً ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر

( ٣ ) حديث عائشة سابقنى فسبقته : النسائى وابن ماجه وقد تقدم في النكاح

( ٤ ) حديث عائشة في لطنخ وجه سودة بحريرة ولطنخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى باسناد جيد

( ٥ ) حديث أن الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الجمراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميماً : الزبير بن بكار في الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسل أو معضلاً وللدارقطنى نحو هذه القصة مع عينه ابن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة

آيه الخجاب ، أفلا أنزل لك عن إحدائنا فنزوجها ؟ وعائشة جالسة تسمع فقالت ، أهي أحسن أم أنت ؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه ، لأنه كان ديباً

وروى علقمة عن أبي سلمة <sup>(١)</sup> ، أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلغ لسانه للحسن بن علي عليهما السلام ، فيرى الصبي لسانه ، فيهش له . فقال له عيينة بن بدر الفزاري ، والله ليكونن لي الابن قد تزوج ، وبقل وجهه ، وما قبلته قط . فقال صلى الله عليه وسلم « **إِنَّ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ** » فأكثر هذه المطايات منقولة مع النساء والصبيان . وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم ، من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> مرة لصهيب وبه رمد ، وهو يأكل تمرًا « **أَنَا كُلُّ التَّمْرِ وَأَنْتَ رَمِدٌ؟** » فقال : إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله . فتبسم صلى الله عليه وسلم . قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه .

وروى <sup>(٣)</sup> أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة . فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « **يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا لَكَ مَعَ النَّسْوَةِ؟** » فقال يفتلن صغيراً لجل لى شرود . قال فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ، ثم عاد

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلغ لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيهش إليه فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن رجلاً فد خرج وجهه وما قبلته قط فقال ان من لا يرحم لا يرحم : أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عبيدة ابن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده وحكى الخطيب في المبهات قول ابن في قائل ذلك أحدها انه عيينة بن حصن والثاني انه الأفرع بن حابس وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ان الأفرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال ان لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم

(٢) حديث قال لصهيب وبه رمد أنا كل التمر وأنت رمد فقال إنما آكل على الشق الآخر فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم : ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات

(٣) حديث ان خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن صغيراً لجل لى شرود . الحديث : الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو





عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءَ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ (١) ومعنى  
 السخرية الاستهانة والتحقير ، والتنبية على العيوب والنقائص ، على وجه يضحك منه .  
 وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة  
 المستهزأ به ، لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها ، (١) حاكيت  
 إنسانا ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم « والله ما أحب أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا »  
 وقال ابن عباس في قوله تعالى : ( يَا وَيلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة  
 إلا أحصاها ) (٢) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا  
 إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمعة (٣) أنه  
 قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فوعظهم في ضحكهم من الضرطة  
 فقال « علام يضحك أحدكم بما يفعل ! » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المستهزئين  
 بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم هلم هلم فيجيء بكره به وغمه فإذا أتاه  
 أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم هلم هلم فيجيء بكره به وغمه فإذا أتاه أغلق  
 دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه »  
 وقال معاذ بن جبل ؛ (٤) قال النبي صلى الله عليه وسلم « من عير أخاه بذنب قد تاب  
 منه لم يمت حتى يعمله » وكل هذا يرجع إلى استحقاق الغير ، والضحك عليه استهانة به  
 واستصغار له . وعليه نبه قوله تعالى ( عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ) (٣) أي لاستحقاقه  
 استصغارا ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به .

( ١ ) حديث عائشة حكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم ما يسرنى اى حاكيت اسانا ولى  
 كذ وكذا : أبو داود والترمذى وصحه

( ٢ ) حديث عبد الله بن زمعة وعظهم في الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم بما يفعل : متفق عليه

( ٣ ) حديث ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم هلم هلم فيجيء بكره به وغمه فإذا جاء أغلق

دونه - الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسل ورويناه في ثمانيات الجيب

من رواية أبي هدية أحد المالكين عن أنس

( ٤ ) حديث معاذ بن جبل من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله : الترمذى دون قوله قد تاب منه وقال

حسن عريب وليس اسناده معتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه

(١) الحجرات : ١١ (٢) الكهف : ٤٩ (٣) الحجرات : ١١

فاما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح . وقد سبق ما ينم منه وما يدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخطط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوسة ، كالضحك على خطئه ، وعلى صنفته ، أو على صورته وخلقه إذا كان قصيرا ، أو ناقص العيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها

## الآفة الثانية عشرة

### إفشاء السر

وهو منهي عنه ، لما فيه من الإيذاء ، والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ التفتَ فِيهِ أمانةٌ » وقال <sup>(٢)</sup> « مطلقا » الحديثُ بينكم أمانةٌ » وقال الحسن . إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك ويروي أن معاوية رضي الله عنه ، أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا . فقال لأبيه ، يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا ، وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك . قال فلا تحدثني به ، فإن من كتم سره كان الخيار إليه ؛ ومن أفشاه كان الخيار عليه . قال . فقلت يا أبت ، وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يا بني ، ولكن أحب أن لا تدل لسانك بأحاديث السر . قال : فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال . يا وليد ، أعتقت أبوك من رق الخطأ فأفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولو لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة ، فأغنى عن الإعادة

## الآفة الثالثة عشرة

### الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء ، فيصير الوعد خلفا ، وذلك

﴿ الآفة الثانية عشرة إفشاء السر ﴾

( ١ ) حديث اداحدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة: أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر

( ٢ ) حديث الحديث بينكم أمانة : ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسل

( الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب )

من أمارات النفاق قال الله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ <sup>(١)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْعِدَّةُ عَطِيَّةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « الْوَأَىُّ مِثْلُ الدِّينِ أَوْ أَفْضَلُ » والوَأَىُّ الوعد . وقد أتى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام ، في كتابه العزيز ؛ فقال ( إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ <sup>(٤)</sup> ) قيل إنه وعد إنسانا في موضع ، فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي . فبقي اسمعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره .

ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال ، إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد ، فو الله لا ألقى الله بثلاث النفاق ، أشهدكم أنى قد زوجته ابنتي <sup>(٥)</sup> وعن عبد الله بن أبي الخنساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك ، فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال « يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتِ عَلَيَّ أَنَاهِيْنَا مِنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ » وقيل لإبراهيم الرجل يواعد الرجل الميماد فلا يجيء . قال . ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> إذا وعد وعدا قال « عَسَى » وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله ، وهو الأولى ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد ، فلا بد من الوفاء ، إلا أن يتعذر . فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي ، فهذا هو النفاق .

وقال أبو هريرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٧)</sup> « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مَنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ »

( ١ ) حديث العدة عطية : الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والحرائط في مكارم الأخلاق

من حديث الحسن مرسلا

( ٢ ) حديث الوأى مثل الدين أو أفضل : ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلا وقال الوأى

يعنى الوعد ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف

( ٣ ) حديث عبد الله بن أبي الخنساء بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك

فحب يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه فقال يا بنى قد شققى على أنا هبها . منذ

ثلاث انتظرى : رواه أبو داود وأخلف في أسناده وقال ابن مهدي ما اتلن إبراهيم

ابن طهمان إلا أخطأ فيه

( ٤ ) حديث كان إذا وعد وعدا قال عسى : لم أحده أصلا

( ٥ ) حديث أبي هريرة ثلاث من كن فيه فهو منافق - الحديث : وفيه إذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم

( ١ ) المأثدة : ( ٢ ) مريم : ٥٤

وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَرْتَعُ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَّعِيَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف ، أو ترك الوفاء عن غير عذر . فأما من عزم على الوفاء ، فعن له عذر منعه من الوفاء ، لم يكن منافقا ، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق .

ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا ، كما يحترز من حقيقته . ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاضرة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> ، كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما ، فأنى بثلاثة من السبي ، فأعطى اثنين وبقى واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول . ألا ترى أثر الرحي بيدي ؟ فذكر مواعده لأبي الهيثم ، فجعل يقول « كَيْفَ بِنَوْعِي لِأَبِي الْهَيْثَمِ » فأثره به على فاطمة ، لما كان قد سبق من مواعده له ، مع أنها كانت تدير الرحي بيدها الضعيفة .

<sup>(٣)</sup> ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بجنين ، فوقف عليه رجل من الناس ، فقال إن لى عندك موعدا يا رسول الله ، قال « صَدَقْتَ فَأَحْتَكِمَ مَا شِئْتَ » فقال أحكم ثمانين ضائية وراعيها . قال « هِيَ لَكَ » وقال « اَحْتَكِمْتَ بِسِيرًا وَلصَاحِبَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ كَانَتْ أَحْزَمَ مِنْكَ وَأَجْزَلَ حُكْمًا مِنْكَ حِينَ حَكَمَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَتْ حُكْمِي أَنْ تَرُدَّنِي شَابَةً وَأَدْخُلَ مَعَكَ الْجَنَّةَ »

(١) حديث عبد الله بن عمرو اربع من كن فيه كان منافقا - الحديث منفق عليه

(٢) حديث كان وعد ابا الهيثم بن التيهان خادما فأنى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه - الحديث : وفيه فجعل يقول كيف بنوعى لأبى الهيثم فأثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة

(٣) حديث انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بجنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ما شئت - الحديث : وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك - الحديث : ابن حبان والحاكم فى المستدرک من حديث أبى موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر

قيل فكان الناس يضمفون ما احتكم به حتى جعل مثلاً ، فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعي  
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَيْسَ الْخُلْفُ أَنْ يَعْدَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ وَفِي نَيْتِهِ أَنْ بَنِي »  
وفي لفظ آخر « إِذَا وَعَدَ الرَّجُلُ أَخَاهُ وَفِي نَيْتِهِ أَنْ بَنِي فَلَمْ يَجِدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »

## الآفة الرابعة عشرة

### الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب : وفواحش العيوب . قال اسماعيل بن واسط ، سمعت أبا بكر  
الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال . (٢) ، قام فينا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ، ثم بكى وقال « إِبَاءُكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ  
مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ » وقال أبو أمامة . (٣) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ  
الْكَذِبَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النِّفَاقِ » وقال الحسن . كان يقال إن من النفاق اختلاف السر  
والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب  
وقال عليه السلام (٤) « كَبُرَتْ خِيَانَةٌ أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ

(١) حديث ليس الخلف ان يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يني وفي لفظ آخر إذا وعد الرجل أخاه وفي  
نيته أن يني فلم يجد فلا اثم عليه : أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ  
الثانى الا أنها قالاً فليرف

( الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين )

(٢) حديث أبى بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال  
اياكم والكذب - الحديث : ابن ماجه والنسائى فى اليوم والاييلة وجعله المصنف من رواية  
اسماعيل بن أوسط عن أبى بكر وانما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن  
(٣) حديث أبى أمامة ان الكذب باب من ابواب النفاق : ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى  
الوجهى ضعيف جدا ويغنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن  
فيه كان منافقا قال فى كل منهما وإذا حدث كذب وهما فى الصحيحين وقد تقدم فى الآفة التى قبلها  
(٤) حديث كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثا هولاك به مصدق وأنت له كاذب : البخارى فى كتاب الأدب  
المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن اسيد وضعفه ابن عدى ورواه احمد والطبرانى من  
حديث النواس بن سمعان باسناد جيد

به كاذب» وقال ابن مسعود ، قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »

<sup>(٢)</sup> ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاه ويتحالفان ، يقول أحدهما والله لأتقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر . والله لأزيدك على كذا وكذا . فر بالشاة وقد اشتراها أحدهما . فقال « أَوْجَبَ أَحَدُهُمَا بِالْإِيمِ وَالْكَفَّارَةِ » وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « الْكَذِبُ يُتَقَصُّ الرِّزْقَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إِنَّ الشَّجَارَ هُمُ الْفُجَّارُ » فقيل يارسول الله ، أليس قد أجل الله البيع ؟ قال « نَعَمْ وَلَكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ فَيَأْتُمُونَ وَيُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> ، « ثَلَاثَةٌ تَفَرُّ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الْمَنَانُ بَعْطِيَّتِهِ وَالْمُنْفِقُ سَلْعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> « مَا حَلَفَ خَالِفٌ بِاللَّهِ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إِلَّا كَانَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال أبو ذر <sup>(٧)</sup> ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ رَجُلٌ كَانَ فِي فِتْنَةٍ فَنَصَبَ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ »

( ١ ) حديث ابن مسعود لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا: متفق عليه

( ٢ ) حديث مر برجلين يتبايعان شاه ويتحالفان - الحديث : وفيه فقال اوجب احدهما بالائم والكفارة

ابو الفتح الازدي في كتاب الاسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي وهكذا رويناه في اعمالي  
ابن سمعون وناسخ ذكره البخارى هكذا في التاريخ وقال ابو حاتم هو عبد الله بن ناسخ

( ٣ ) حديث السكذب يتقص الرزق : أبو الشيخ في طبقات الاصبهانين من حديث أبي هريرة ورويناه

كذلك في مشيخة القاضي أنى بكر واسناده ضعيف

( ٤ ) حديث ان النجارهم الفجار - الحديث : وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد

والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل

( ٥ ) حديث ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم المنان بعبتيته واللتفق سلعتة بالخلف الكاذب

والسبل ازاره : مسلم من حديث أبي ذر

( ٦ ) حديث ما حلف خالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكته في قلبه إلى يوم القيامة

الترمذي والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس

( ٧ ) حديث أبي ذر ثلاثة يحبهم الله - الحديث وفيه وثلاثة يشنؤهم انه التاجر أو البائع الخلاق أحمد واللفظ له

وفيه ابن الاحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ اخر باسناد جيد والنسائي من

حديث أبي هريرة أربعة يفضهم الله البياع الخلاف - الحديث : واسناده جيد

وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارٌ سَوْءٌ يُؤْذِيهِ فَصَبَرَ عَلَىٰ آذَاهُ حَتَّىٰ يَفْرُقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَنَنَ وَرَجُلٌ كَانَ مَعَهُ قَوْمٌ فِي سَفَرٍ أَوْ سَرِيَّةٍ فَأَطَالُوا السَّرِيَّ حَتَّىٰ أَعْجَبَهُمْ أَنْ يَمْسُوا الْأَرْضَ فَزَلُّوا قَتَنَحَىٰ يُصَلِّي حَتَّىٰ يُوقِفَ أَصْحَابَهُ لِلرَّحِيلِ . وَثَلَاثَةٌ يَشْنُوهُمْ اللَّهُ التَّاجِرُ أَوْ الْبِيَاعُ الْخَلَافُ وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالْبَخِيلُ الْمُنَانُ « وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(١)</sup> « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « رَأَيْتُ كَانَ رَجُلًا جَاءَنِي فَقَالَ لِي قُمْ فَكُنْتُ مَعَهُ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَائِمٌ وَالْآخَرُ جَالِسٌ يُبَدِّ الْقَائِمُ كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُلْقِمُهُ فِي شِدْقِ الْجَالِسِ فَيَجْذِبُهُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ كَاهِلَهُ ثُمَّ يَجْذِبُهُ فَيُلْقِمُهُ الْجَانِبَ الْآخَرَ فَيَمْدُهُ فَإِذَا مَدَّهُ رَجَعَ الْآخَرُ كَمَا كَانَ قُلْتُ لِلَّذِي أَقَامَنِي مَا هَذَا ؟ فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ كَذَّابٌ يُعَذِّبُ فِي قَبْرِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وعن عبد الله بن جراد قال ، <sup>(٣)</sup> سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله ، هل يزني المؤمن ؟ قال « قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ » قال يانبي الله ، هل يكذب المؤمن قال لا . ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى ( إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِّبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ <sup>(٤)</sup> ) وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> يدعو فيقول في دعائه « اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ وَفَرِّجِي مِنِّي الزَّنَا وَلسَانِي مِنَ الْكُذِّبِ »

(١) حديث ويلى الذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويلى له ويلى له: أبو داود الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهزبن حكيم عن أبيه عن جده

(٢) حديث رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم ففتمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس يبد القائم كلوب من حديد يلقيه فى شدة الجالس - الحديث : البخارى من حديث سمرة ابن جندب فى حديث طويل

(٣) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن قال قد يكون من ذلك قال هل يكذب قال لا - الحديث : ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصر على الكذب وجعل السائل أبا الدرءاه

(٤) حديث أبى سعيد اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجى من الزنا ولساني من الكذب هكذا وقع فى نسخ الأحياء عن ابن سعيد وانما هو عن أم سعيد كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا وزاد وعملى من البرياء وعينى من الحياة واسناده ضعيف



وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ سَيِّخُ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » وقال عبد الله بن عامر، <sup>(٢)</sup> جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير، فذهبت لألعب، فقالت أمي، يا عبد الله، تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟ » قالت تمار فقال « أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي لَكُنْتِ عَلَيْكَ كَذْبَةً » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لَوْ أَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَيَّ نَعِمًا عَدَدَ هَذَا الْحَصَى لَقَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بِخَيْلًا وَلَا كَذَابًا وَلَا جَبَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم، وكان متكئا، <sup>(٤)</sup> « أَلَا أُنبئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ الْأَشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدِينَ » ثم قعد وقال « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ » وقال ابن عمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ فَيَتَّبَعُهُ الْمَلِكُ عَنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتْنٍ مَا جَاءَ بِهِ » وقال أنس <sup>(٦)</sup> قال النبي صلى الله عليه وسلم « تَقَبَّلُوا إِلَيَّ بِيَسْتٍ أُنْقَبِلَ لَكُمْ بِالْحِنَّةِ » فقالوا وما هن؟ قال « إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفْ وَإِذَا اتُّمِّنَ فَلَا يَحْنُ وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَحَفِظُوا فُرُوجَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ »

( ١ ) حديث ثلاثه لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم - الحديث : وفيه والامام الكذاب مسلم من حديث أبي هريرة

( ٢ ) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب

فقالت أمي يا عبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت ان تعطيه قالت تمار فقال ان لم فعلي

كنت عليك كذبة رواه أبو داود وفيه من لم بسم وقال الحاكم ان عبد الله بن عامر رواه

في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه قلت وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود

ورجالهما ثقات الا أن الرهري لم يسمع من أبي هريرة

( ٣ ) حديث لو أفاء الله على نعمة عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا: رواه

مسلم وتقدم في أخلاق النبوة

( ٤ ) حديث ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - الحديث : وفيه ألا وقول الرومر متفق عليه من حديث أبي بكر

( ٥ ) حديث ابن عمر ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعه الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به

الترمذي وقال حسن غريب

( ٦ ) حديث أنس تقبلوا إلى بستان قبل لكم بالحنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب - الحديث : الحاكم في

المستدرک والحرائط في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان وضعه أحمد والنسائي ووثقه ابن

معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ كَحَلًّا وَنَمُوقًا وَنَشُوقًا أَمَّا لَمُوقُهُ فَأَلْكَذِبُ وَأَمَّا نَشُوقُهُ فَالْفَغْصَبُ وَأَمَّا كَحَلُّهُ فَالنَّوْمُ »

وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال <sup>(٢)</sup> ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامي هذا فيكم ، فقال « أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلَوْهُمْ ثُمَّ يَفْشُوا الْكَذِبَ حَتَّى يُخَافَ الرَّجُلُ عَلَى الْيَمِينِ وَلَمْ يُسْتَخْلَفْ وَيَشْهَدْ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ » وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِأَنَّهُ لَيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ أَمْرِيءٍ مُسْلِمٍ بِنَعْبِ حَقِّ لِقَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> ، أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبتها . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> « كُلُّ خَصَلَةٍ يُطْبَعُ أَوْ يَطْوَى عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ »

وقالت عائشة رضي الله عنها <sup>(٧)</sup> ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب ، فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها .

(١) حديث أن للشيطان كحلا وناموقا - الحديث: الطبراني وأبو يعين من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث خطب عمر بالجالية - الحديث : وفيه ثم يفشو الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر

(٣) حديث من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين مسلم في مقدمة صحيحة من حديث سمرة بن جندب

(٤) حديث من حلف على يمين ما أتى ليقطع بها مال امرئ مسلم - الحديث : منفق عليه من حديث ابن مسعود

(٥) حديث أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبتها : ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل

(٦) حديث على كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن الا الخيانة والكذب : ابن أبي شيبة في الصنف من حديث أبي امامة ورواه ابن عدي في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن

عمر أيضا وأبي امامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد بن عمرو وموقوفه والوقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في العلال

(٧) حديث ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد

كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث

الله متبئا توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه

ابن الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح

وقال موسى عليه السلام : يارب ، أي عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزني فرجه . وقال لقمان لابنه يابني ، إياك والكذب ، فإنه شهى كلحم المصفور ، عما قليل يقلاه صاحبه .

وقال عليه السلام في مدح الصدق <sup>(١)</sup> « أُرْبِعُ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا يَضُرُّكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا صِدْقُ الْحَدِيثِ وَحِفْظُ الْأَمَانَةِ وَحُسْنُ خُلُقٍ وَعِفَّةٌ طُعْمَةٌ » وقال أبو بكر رضى الله عنه <sup>(٢)</sup> في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامي هذا عام أول ؛ ثم بكى وقال « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ » وقال معاذ . قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَبَدْلِ السَّلَامِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ »

وأما الآثار فقد قال علي رضى الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه . ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى . وقال عمر رضى الله عنه ، أجبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسما فإذا رأيناكم فاجبكم إلينا أحسنكم خلقا فإذا اخترناكم فاجبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة وعن ميمون بن أبي شبيب قال ، جلست أكتب كتابا ، فأتيت على حرف إن أنا كتبت زينت الكتاب وكنت قد كذبت ، فمزمت على تركه فنوديت من جانب البيت ( يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ <sup>(١)</sup> ) وقال الشعبي ما أدرى أيهما أبعث غورافي النار ، الكذاب أو البخيل . وقال ابن السكك ، ما أراني أو جر على ترك الكذب ، لأني إنما أدعه أنفة

(١) حديث أربيع إذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا صدق الحديث .. الحديث : الحاكم

والحرائطي في مكارم الاخلاق من حديث عبد الله بن عمر وفيه ابن طيمعة

(٢) حديث أبي بكر عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة ابن ماجة والنسائي في اليوم والليلة وقد

تقدم بعضه في أول هذا النوع

(٣) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث : أبو نعيم في الحلية وقد تقدم

وقيل لخالد بن صبيح: أيسى الرجل كاذبا بكذبة واحدة؟ قال نعم. وقال مالك بن دينار، قرأت في بعض الكتب، ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله، فإن كان صادقا صدق، وإن كان كاذبا قرضت شفتاه بتقاريض من نار، كلما قرضتا نبتتا. وقال مالك بن دينار، الصدق والكذب يعتركان في القلب، حتى يخرج أحدهما صاحبه. وكلم عمر ابن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء، فقال له كذبت. فقال عمر، والله ما كذبت منهذ علمت أن الكذب يشين صاحبه

## بيان

ما يخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره. فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلا، وقد يتعلق به ضرر غيره. وربما جهل فيه منفعة ومصلحة. فالكذب محصل لذلك الجهل، فيكون مأذونا فيه، وربما كان واجبا، قال ميمون بن مهران، الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، رأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله، فدخل دارا، فأنهى إليك فقال رأيت فلانا؟ ما كنت قائلا؟ ألسنت تقول لم أره، وما تصدق به؟ وهذا الكذب واجب

فتقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد. فكل مقصود محمود، يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب فيه حرام. وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك المقصد مباح، وواجب إن كان المقصود واجبا. كأن عصمة دم المسلم واجبة، فهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب، أو إصلاح ذات البين، أو استمالة قلب المجنى عليه إلا بالكذب، فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما يمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه، فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا للضرورة.

والذي يدل على الاستثناء، ماروى عن أم كلثوم قالت<sup>(١)</sup>، ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب، إلا في ثلاث، الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها. وقالت أيضا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَعَى خَيْرًا» وقالت أسماء بنت يزيد<sup>(٣)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كُلُّ الْكُذِّبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا الرَّجُلُ كَذَّبَ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا»

وروى عن أبي كاهل<sup>(٤)</sup> قال وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما. فاقميت. أحدهما فقلت مالك ولتلان؟ فقد سمعته يحسن عليك الثناء. ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك، حتى أنه طلحا. ثم قلت أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال «يَا أَبَا كَاهِلٍ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ» أي ولولوا بالكذب وقال عطاء بن يسار<sup>(٥)</sup> قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم، أ كذب على أهلي؟ قال «لَا خَيْرَ فِي الْكُذِّبِ» قال أعدها وأقول لها؟ قال «لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ»

وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلى، وكان في خلافة عمر رضى الله عنه، كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن. فطارت له في الناس من ذلك أحد وثمة يكرهها. فلما علم بذلك، أخذ بيد عبد الله بن الأرقم، حتى أتى به إلى منزله. ثم قال لامرأته، أنشدك بالله هل تبصنيني؟ قالت لا تنشدني

(١) حديث أم كلثوم ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: مسلم وقد تقدم

(٢) حديث أم كلثوم أيضا ليس بكذاب من أصلح بين الناس - الحديث: منفق عليه وقد تقدم والذي قبله عند مسلم بعض هذا

(٣) حديث أسماء بنت يزيد كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا الرجل كذب بين رجلين يصلح بينهما: أحمد زيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه

(٤) حديث أبي كاهل وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام - الحديث: وفيه ياأبا كاهل أصلح بين الناس رواه الطبرانى ولم يصح

(٥) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أ كذب على أهلي قال لا خير في المكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك: ابن عبد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

قال فإني أنشدك الله . قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلمهن . فاسأل ابن الأرقم . فسأله فأخبره . فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة ، فجاءت هي وعمتها . فقال أنت التي تحدثين لزوجك أنك تفضينه ، فتالت إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى ، إنه ناسدني فتخرجت أن أ كذب ، فأ كذب بأمر المؤمنين؟ قال نعم ، فأ كذبي ، فإن كانت إحدا كن لا تحب أحدا فلا تحده بذلك فإن أقل البيوت الذي يبني على الحب ؛ ولكن الناس يتعاضرون بالإسلام والأحساب

(١) وعن النواس بن سميان الكلابي ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَالِي أَرَاكُمْ تَتَهَافَتُونَ فِي الْكُذِبِ تَهَافَتَ الْفَرَّاشِ فِي النَّارِ كُلُّ الْكُذِبِ يُكْتَبُ عَلَيَّ ابْنِ آدَمَ لَا مَحَالَةَ إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدَعَةٌ أَوْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ شَخْنًا فَيُصْلِحُ بَيْنَهُمَا أَوْ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ يُرْضِيهَا » وقال ثوبان . الكذب كله إثم ، إلا ما نفع به مسلما ، أو دفع عنه ضررا . وقال علي رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلأن آخر من السماء أحب إلي من أن أ كذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم ، فالحرب خدعة

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها ، إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره

أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ، فله أن ينكره . أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبتها ، فله أن ينكر ذلك ، فيقول ما زنت وما سرت وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلَيْسَتْ بِسِتْرِ اللَّهِ » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه ، وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه ، وإن كان كاذبا

(١) حديث النواس بن سميان مَالِي أَرَاكُمْ تَتَهَافَتُونَ فِي الْكُذِبِ تَهَافَتَ الْفَرَّاشِ فِي النَّارِ كُلُّ الْكُذِبِ يُكْتَبُ عَلَيَّ ابْنِ آدَمَ  
مكسوب - الحديث : أبو بكر بن لال في مكارم الاخلاق بلفظ تنبا يعون إلى قوله في النار دون ما بعده فرواه الطبراني وفيها شهر بن حوشب

(٢) حديث من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليست بستر الله : الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستر الله واسناده حسن

وأما عرض غيره ، فبأن يُسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره . وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه . وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه ، فيعدها في الحال تطيباً لقلبها . أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد ، فلا بأس به .

ولكن الحد فيه ، أن الكذب محذور . ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ، ويزن بالميزان القسط . فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق ، أشد وقعا في الشرع من الكذب ، فله الكذب . وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران ، بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الليل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة . فإن شك في كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم ، فيرجع إليه . ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ، ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه . وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب . فأما إذا تعلق بعرض غيره ، فلا يجوز المسامحة لحق الغير ، والإضرار به . وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم . ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فوائدها محذورا ، حتى أن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفخر به ، وتكذب لأجل مراعاة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء <sup>(١)</sup> ، سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ، إن لي ضرة ، وإني أتكدر من زوجي بما لم يفعل ، أضرارها بذلك . فهل على شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « ائْتَسِعْ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ » ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ تَطَعَمَ بِمَا لَا يَطْعَمُ أَوْ قَالَ لِي وَلَيْسَ لَهُ أَوْ أُعْطِيَ وَلَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذي لا يتثبت به إذ عرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لأدري . وهذا حرام

( ١ ) حديث أسماء قالت امرأة ان لي ضرة واني أتكدر من زوجي بما لم يفعل - الحديث : متفق عليه وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق

( ٢ ) حديث من تطعم بما لا يطعم وقال لي وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة : لم أجده بهذا اللفظ

ومما يلتحق بالنساء الصبيان . فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعد ، أو وعيد ، أو تخويف كاذب ، كان ذلك مباحا . نعم رويناه في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ، ويحاسب عليه ، ويطلب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعنى عنه ، لأنه إنما يبيح بقصد الإصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه و غرضه الذي هو مستغن عنه ، وإنما يتعمل ظاهرا بالإصلاح ، فلهذا يكتب وكل من أتى بكذبة ، فقد وقع في خطر الاجتهاد ، ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أم في الشرع من الصدق أم لا . وذلك غامض جداً . والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه ، كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح . وهو خطأ محض ، إذ قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ كَذَبَ عَلَى مَتَعَمَّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ، ولا ضرورة . إذ في الصدق مندوحة عن الكذب . فمما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها .

وقول القائل إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء ، نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين

## بيان

### الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف : أن في المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضي الله عنه :  
 أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب ! وروى ذلك عن ابن عباس وغيره .

( ١ ) حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار : منفق عليه من طرق وقد تقدم في العلم



وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب . فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة ، فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون ومثال التعريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد ، فاستبطأه . فتعلل بمرض وقال : مارفت جني مذ فارقت الأمير إلا مارفتني الله . وقال إبراهيم ، إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب ، فقل إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء . فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع ، وعنده للإيهام

وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه . فلما رجع ، قالت له امرأته ، ماجئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشيء ، فقال : كان عندي ضاغط . قالت : كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه ، فبعت عمر معك ضاغطا ! وقامت بذلك بين نسائها ، واشتكت عمر . فلما بلغه ذلك ، دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا ؟ قال لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك . فضحك عمر رضي الله عنه ، وأعطاه شيئا ، فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعني رقبيا ، وأراد به الله تعالى

وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرا ، بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار ، قال للجارية ، قولي له أطلبه في المسجد ، ولا تقولي ليس ههنا ، كيلا يكون كذبا . وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه ، خط دائرة ، وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا

وهذا كله في موضع الحاجة . فأما في غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا ، فهو مكروه على الجملة . كما روى عبد الله بن عتبة قال ، دخلت مع أبي علي عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه ، فخرجت وعلي ثوب ، فجعل الناس يقولون ، هذا كساكه أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه . فتهاه عن ذلك ، لأن فيه تقرير لهم على ظن كاذب ، لأجل غرض المفاخرة ، وهذا غرض باطل لا فائدة فيه . نعم : المعارض تباح لغرض خفيف ، كتطبيب

قلب النير بالمزاح ، كقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ » وقوله للأخرى  
الذى فى عين زوجك بياض ، والأخرى نحمك على ولد البعير ، وما أشبهه  
وأما الكذب الصريح ، كما فعله نعيان الأنصارى مع عثمان ، فى قصة الضير ، إذ قال  
له إنه نعيان ، وكما يمتاده الناس من ملاعبة الحمقى ، بتزويرهم بأن امرأة قدر غبت فى تزويجك  
فإن كان فيه ضرر يؤدى إلى إيداء قلب ، فهو حرام . وإن لم يكن إلا لمطابقتة ، فلا يوصف  
صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا يَكْمُلُ  
لِلْمَرْءِ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَحَتَّى يَجْتَنِبَ الْكُذْبَ فِي مِزَاجِهِ »  
وأما قوله عليه السلام <sup>(٣)</sup> « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا النَّاسَ يَهْوَى  
بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثَّرِيَاءِ » أراد به ما فيه غيبة مسلم ، أو إيداء قلب ، دون محض المزاح  
ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ، ما جرت به العادة فى المبالغة ، كقوله طلبتك  
كذا وكذا مرة ، وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها ، بل تفهيم  
المبالغة . فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا . وإن كان طلبه مرات لا يعتاد  
مثلا فى الكثرة ، لا يأثم ، وإن لم تبلغ مائة . وبينهما درجات ، يتعرض مطلق  
اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب

ومما يعتاد الكذب فيه ، ويتساهل به ، أن يقال كل الطعام ، فيقول لا أشتهي . وذلك  
منهى عنه ، وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد : <sup>(٤)</sup> قالت أسماء بنت  
عميس ، كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هياتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث لا يدخل الجنة عجزوز وحديث فى عين زوجك بياض وحديث نحمك على ولد البعير : تقدمت  
اللائحة فى الآفة العاشرة

(٢) حديث لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يمتنع الكذب فى مزاجه  
ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أبى مليكة النمارى وقال فيه نظر وللشيخين  
من حديث أس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقطنى فى المؤلف والمختلف من  
حديث أبى هريرة لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى مزاجه قال أحمد بن حنبل منكر  
(٣) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا : تقدم فى الآفة الثالثة  
(٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التى هياتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله  
عليه وسلم - الحديث : وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا ابن أبى الدنيا فى الصمت والطربانى

ومعى نسوة ، قالت فو الله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن ، فشرب ، ثم ناوله عائسة ، قالت فاستحيت الجارية ، فقلت لاتردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولى سواحبك ، فقلن لانستهيه . فقال « لَا تَجْمَعْنَ جُوعًا وَكَذِبًا » قالت فقلت يارسول الله ، إن قالت إحدانا لشيء تشبهيه لا أشتهيه ، أيعد ذلك كذبا ؟ قال « إِنَّ الْكَذِبَ لَيْسَ كَذِبًا حَتَّى تُكْتَبَ الْكُذِبِيَّةُ كُذِبِيَّةً »

وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب ، قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسبب ترمص ، حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له لو مسحت عينيك ، فيقول وأين قول الطبيب لا تمس عينيك ، فأقول لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره ، فيكذب ولا يشعر .

وعن خوات التيمى قال جاءت أخت الربيع بن خثم عائدة لابن له ، فانكبت عليه ، فقالت كيف أنت يا بنى ؟ فجلس الربيع وقال أترضعتيه ؟ قالت لا . قال ما عليك لو قلت يا ابن أخى فصدقت ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله ، أن يقول العبد إن الله يعلم لما لا يعلم

ورعا يكذب في حكاية المنام ، والأثم فيه عظيم ، إذ قال عليه السلام <sup>(١)</sup> « إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفُرْيَةِ أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ يَرَى عَيْنَيْهِ فِي الْمَنَامِ مَا لَمْ يَرَ أَوْ يَقُولَ عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ » وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « مَنْ كَذَبَ فِي حُلْمٍ كَلَّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ بَيْنَهُمَا أَبَدًا »

في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة لكن في طقات الاصهايين لأبي الشيخ من رواية عطاء

ابن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زفنا الى النبي صلى الله عليه وسلم بعض سائمه الحديث : فإذا كانت غير عائشه ممن تزوجها بعد خبير فلا مانع من ذلك

( ١ ) حديث ان من أعظم الفري أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول على ما لم أقول : البخارى من حديث وائله بن الاسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفري أن يرى عينيه ما لم تريا

( ٢ ) حديث من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين البخارى من حديث ابن عباس

## الآفة الخامسة عشرة

### الغيبة

والتظر فيها طويل ، فلندكر أولا مذمة الغيبة ، وما ورد فيها من سواهد الشرع  
ومد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه ، وشبه صاحبها بأكل لحم الميتة ، فقال تعالى  
(وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ<sup>(١)</sup>)  
وقال عليه السلام<sup>(٢)</sup> « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ » والغيبة تتناول  
العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو برزعة ، قال عليه السلام<sup>(٣)</sup> « لَا تَحَاسَدُوا  
وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَنَاجَسُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »  
وعن جابر وأبي سعيد<sup>(٤)</sup> قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكُمْ وَالْغَيْبَةَ  
فَإِنَّ الْغَيْبَةَ أَسَدٌ مِنَ الزَّنَا فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدِيرٌ نِي وَيُنُوبُ فَيَتُوبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ وَإِنْ صَاحِبَ  
النِّيَّةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفَرَ لَهُ صَاحِبُهُ » وقال أنس<sup>(٥)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
« مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرَى بِي عَلَى أَقْوَامٍ يَخْمَشُونَ وَجُوهَهُمْ بِأَطْفَارِهِمْ فَقُلْتُ يَا جَبْرِيلُ مَنْ  
هَؤُلَاءِ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ » وقال سليم بن جابر<sup>(٥)</sup> ، أتيت  
النبي عليه الصلاة والسلام ، فقلت علمني خيرا أنتفع به . فقال « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ  
أَنْ تَصُبَّ مِنْ دَوْلَكِ فِي إِيَّاءِ الْمُسْتَقِيِّ وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ وَإِنْ أَدْبَرَ فَلَا تَغْتَابْتَهُ »

### ﴿ الآفة الخامسة عشرة الغيبة ﴾

- (١) حديث كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه : مسلم من حديث أبي هريرة  
(٢) حديث أبي هريرة لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يتغاب بعضكم بعضا كونوا عباد الله اخوانا : يمتفق عليه من حديث  
أبي هريرة وأنس دون قوله ولا يغتب بعضكم بعضا وقد تقدم في آداب الصحبة  
(٣) حديث جابر وأبي سعيد اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا . الحديث : ابن ابى الدنيا في الصمت  
وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير  
(٤) حديث أنس مررت ليلة أسرى بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم . الحديث : أبو داود  
مسندا ومرصلا والسند أصح  
(٥) حديث سليم بن جابر أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمني خيرا ينفعني الله به . الحديث :  
أحمد في المسند وابن ابى الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد وإذا أدبر فلا  
يغتابه وفي اسادها ضعف

وقال البراء<sup>(١)</sup> خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن ، فقال « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لَا تَعْنَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام ، من مات تائباً من النبوة ، فهو آخر من يدخل الجنة . ومن مات مصراً عليها ، فهو أول من يدخل النار .

وقال أنس ،<sup>(٢)</sup> أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم ، فقال « لَا يُفْطِرَنَّ حَدٌّ حَتَّى آذَنَ لَهُ » فصام الناس ، حتى إذا أمسوا ، جعل الرجل يحيىء فيقول يا رسول الله ظلت صائماً فآذن لي لأفطر ، فيأذنه . والرجل ، والرجل ، حتى جاء رجل فقال ، يا رسول الله فتانان من أهلك ظلتا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك ، فآذن لهما أن يفطرا . فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ثم عاوده ، فأعرض عنه ثم عاوده ، فقال « إِنَّهُمَا لَمْ يَصُومَا وَكَيْفَ يَصُومُ مَنْ ظَلَّ نَهَارَهُ يَأْكُلُ لَحْمَ النَّاسِ إِذْ هَبَّ قَرْمُهَا إِنْ كَانَتْ صَائِتَيْنِ أَنْ تَسْتَقِيَا ، فَرَجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَخْبِرْهُمَا ، فَاسْتَقَاءَا ، فَقَاءَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عِلْقَةً مِنْ دَمٍ . فَرَجِعْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبِرْهُ ، فَقَالَ « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ بَقِيَتَا فِي بُطُونِهِمَا لَأَكَلْتَهُمَا النَّارُ » وفي رواية ، أنه لما أعرض عنه . جاء بعد ذلك وقال ، يا رسول الله ، والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال صلى الله عليه وسلم ،<sup>(٣)</sup> « ائْتُونِي بِهِمَا » فجاءتا . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقده ، فقال لأحدهما قبيء . فقالت من قبيح ودم وصدید ، حتى ملأت القدح . وقال للأخرى قبيء فقالت كذلك . فقال إن هاتين صامنا عما أحل الله لهما ،

(١) حديث البراء يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تعنابوا المسلمين - الحديث : ابن ابى الدنيا

هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي بررة باسناد جيد

(٢) حديث أنس امر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام

الناس - الحديث : في ذكر المرأتين اللتين اعتانوا في صباهما فقالت كل واحدة منهما علفه

من دم : ابن ابى الدنيا في المسند وابن رجب في التلخيص من رواه إمام الرقاش عن يونس بن يعقوب

(٣) حديث المرأتين المذكورين وقال لهما إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وافطرتا على ما حرم الله

عليهما - الحديث : أحمد من حديث حميد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبيه رجاء

لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المجهول

وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جاءت إحداهما إلى الأخرى ، فجعلتا تأكلان لحوم الناس وقال أنس .<sup>(١)</sup> خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه ، فقال . إن الدرهم يسببه الرجل من الربا ، أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل : وأربنى الربا عرض المسلم

وقال جابر<sup>(٢)</sup> ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ، فأتى على قبرين يعذب صاحباهما . فقال « إِنَّهُمَا يَمْدَبَانِ وَمَا يَمْدَبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَتَّابُ النَّاسِ وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِرُهُ مِنْ بَوْلِهِ » فدعا بجر يده رطبة أو جريدتين ، فكسرها ، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر . وقال « أَمَا إِنَّهُ سَيَبُورُنُ مِنْ عَذَابِهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ أَوْ مَالَمُ يَبْسَا » ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> ما عزا في الزنا ، قال رجل لصاحبه ، هذا أقص كما يقصص الكلب . فر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة ، فقال ، « إِنَّهُمَا مِنْهَا » فقالا يا رسول الله ، نهش جيفة ! فقال « مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَتَيْنِ مِنْ هَذِهِ »

وكان الصحابة رضى الله عنهم ، يتلاقون بالبشر ، ولا يفتابون عند النبية . ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة<sup>(٤)</sup> من أكل لحم أخيه في الدنيا ، قرب إليه لحمه في الآخرة . وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله ، فينضج ويكاح . وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدتين عند باب من أبواب المسجد ،

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه - الحديث : وفيه واربنى الربا عرض الرجل للمسلم

ابن أبي الدنيا بسد ضعيف

(٢) حديث جابر كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أمانها ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يتتاب الناس - الحديث : ابن أبي الدنيا في الصحة وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب باسناد حمد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه العيمة بدل النبية وللطالبي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكر بن خنوص باسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق المرجوم عدا أفقص كما يقصص الكلب فر بجيفة فقال

انهم شامها - الحديث : أبو داود واللساني من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد

(٤) حديث أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته

حيا - الحديث : ابن مردويه في التفسير ، فوثقا وموغزفا وفيه محمد بن اسحاق رواه بالبعثة

فر بهما رجل كان مختثا فترك ذلك ، فقالا لقد بقي فيه منه شيء ، وأقيمت الصلاة ، فدخلوا ، فصليا مع الناس ، فحاك في أنفسهما ما قالوا فأتيا عطاء فسألاه ، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائعين . وعن مجاهد ، أنه قال في ( وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ مُّزْمَةٌ <sup>(١)</sup> )  
 الهمزة الطعان في الناس ، والهمزة الذي يأكل لحوم الناس . وقال قتادة ، ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث . ثلث من الغيبة ، وثلث من النيمة ، وثلث من البول . وقال الحسن ، والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم ، أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس ، إذا أردت أن تذكر غيوب صاحبك ، فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة ، يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول ، ابن آدم ، إنك لن تصيب حقيقة الأيمان حتى لا تصيب الناس بعبه هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب ، فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك ، كان شغلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار ، مر عيسى عليه السلام ، ومعه الخواريون . بحيفة كلب . فقال الخواريون ، ما أنتن ربيع هذا الكلب ! فقال عليه الصلاة والسلام ، ما أشد بياض أسنانه . كأنه صلى الله عليه وسلم نهما عن غيبة الكلب ونبههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر ، فقال له إياك والغيبة ، فإنها إدام كلاب الناس وقال عمر رضي الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء . وإياكم وذكر الناس فإنه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

## بيان

### معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه ، أو في خلقه . أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه ، وداره ، وودابته أما البدن ، فكذلك المشمش ، والحول ، والقصر ، والطول ، والسواد ،

والصفرة ؛ وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب ، فبأن تقول  
 أبوه نبطي ، أو هندی ، أو قاسق ، أو خيس ، أو إسكاف ، أو زبال ، أو شيء مما يكرهه  
 كيفما كان . وأما الخلق ، فبأن تقول : هوسى الخلق ؛ بخيل ، متكبر مرء . شديد  
 الغضب ، جبان ، عاجز ، ضعيف القلب ، متهور ، وما يجري مجراه . وأما في أفعاله المتعلقة  
 بالدين ، فكقولك هو سارق ، أو كذاب ، أو شارب خمر ، أو خائن ، أو ظالم ، أو متهاون بالصلاة ،  
 أو الزكاة ، أو لا يحسن الركوع ، أو السجود ، أو لا يحترز من النجاسات ، أو ليس باراً بالديه ،  
 أو لا يضع الزكاة موضعها ، أو لا يحسن قسمتها ، أو لا يحرس صومه عن الرفث ، والغيبة ،  
 والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا ، فكقولك إنه قليل الأدب ، متهاون  
 بالناس ، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً ، أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام ،  
 كثير الأكل ، نؤم ، ينام في غير وقت النوم ، ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه ،  
 فكقولك إنه واسع الكم ، طويل الذيل ، وسخ الثياب

وقال قوم : لا غيبة في الدين ، لأنه ذم ما ذمه الله تعالى ، فذكره بالمعاصي ، وذمه بها يجوز ،  
 بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ذكرت له امرأة ، وكثرة صلاحها وصومها ،  
 ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال « هِيَ فِي النَّارِ » <sup>(٢)</sup> وذكرت عنده امرأة أخرى  
 بأنها بخيلة ، فقال « فَمَا خَيْرُهَا إِذَا » فهذا فاسد ، لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى  
 تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول  
 صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه ، إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب  
 لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة . وكل هذا ، وإن كان صادقا  
 فيه ، فهو به مغتاب ، عاص لربه ، وآكل لحم أخيه ، بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم  
<sup>(٣)</sup> قال « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ »

(١) حديث ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاحها لكن تؤذى جيرانها يقال هي في النار : ابن حبان

والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال فما خيرها إذا : البخاري في مكارم الاخلاق . من حديث

أبي جعفر محمد بن علي مرسله ورواه في أمالي ابن شعوب هكذا .

(٣) حديث هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه : الحديث :

مسلم من حديث أبي هريرة



قيل رأيت إن كان في أخى ما أقوله ، قال « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته وإن لم يكن فيه فقد بهتته » وقال معاذ بن جبل ، <sup>(١)</sup> ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ، فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتكم أخاكم » قالوا يارسول الله ، قلنا ما فيه . قال « إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتتموه » وعن حذيفة ، عن عائشة رضي الله عنها ، <sup>(٢)</sup> أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة ، فقالت إنها قصيرة . فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتيها » وقال الحسن ، ذكر الغير ثلاثة ، الغيبة ، والبهتان ، والإفك . وكل في كتاب الله عز وجل فالغيبة أن تقول ما ليس فيه . والبهتان أن تقول ما بلغك . وذكر ابن سيرين رجلا فقال ، ذاك الرجل الأسود ، ثم قال ، أستغفر الله ، إني أراي قد اغتبتته وذكر ابن سيرين ، إبراهيم النخعي ، فوضع يده على عينه ، ولم يقل الأعور . وقالت عائشة <sup>(٣)</sup> لا يفتان أحدكم أحدا ، فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إن هذه لطويلة الذيل ، فقال لي « الفِطِي الفِطِي » فلفظت مضغة لحم

## بيان

أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان ، إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك ، وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالنصريح ، والفعل فيه كالقول ، والإشارة ، والإيعاء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة والحركة ، وكل ما يفهم المقصود ، فهو داخل في الغيبة ، وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها <sup>(٤)</sup> ، دخلت علينا امرأة ، فلما ولت ، أو مات بيدي أنها قصيرة ، فقال عليه السلام « اغتبتيها »

(١) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه - الحديث : الطبراني بسند ضعيف

(٢) حديث عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال اغتبتيها : رواه احمد واصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو في الصمت لابن أبي

الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند احمد و أبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب

(٣) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفِطِي فلفظت مضعة من لحم

ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي استاده « امرأة لا أعرفها »

(٤) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أي قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتيها ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية الحسن بن علي بن فضال عن عائشة وحسان وثقه ابن حبان وباقهم تمام

ومن ذلك المحاكاة، كأن يشي، تعارفاً، أو كما يشي، وهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. ولما رأى صلى الله عليه وسلم عائشة حاكمت امرأة قال (١) « مَا بَسْرُنِي أَنِّي حَاكَيْتُ إِنْسَانًا وَلِي كَذًا وَكَذَا »،

وكذلك الغيبة بالكتابة، فإن القلم أحد اللسانين. وذكر المصنف شخصاً معيناً، وتهجين كلامه في الكتاب غيبة، إلا أن يقترب به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره، كما سيأتي بيانه وأما قوله. قال قوم كذا، فليس ذلك غيبة. إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حياً وإما ميتاً ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً، لأن المحذور نفيهم، دون ما به التفهيم. فأما إذا لم يفهم عينه جاز كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: (٢) « إِذَا كَرِهَ مِنْ إِنْسَانٍ شَيْئًا، قَالَ « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا » فَكَانَ لَا يَعْنِي. وقولك بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعى العلم: إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص، فهي غيبة

وأخبت أنواع الغيبة غيبة القراء المرآئين. فإنهم يفهمون المقصود، على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة، ويفهمون المقصود. ولا يدرون يحلمهم أنهم جمعوا بين فاحشتين، الغيبة والرياء. وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان، فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام. أو يقول: نعوذ بالله من فلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها. وإنما فصدته أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء. وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته. فيقول ما أحسن أحوال فلان، ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فنور، وابني بما يتلى به كلنا، وهو فلة الصبر. فيذكر نفسه، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك، ويمدح نفسه بالنسبة بالصالحين: بأن يذم نفسه. فيكون مغتاباً ومرائياً، ومزكياً نفسه. فيجمع بين ثلاث فواحش، وهو بجهله، يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة. ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل: إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم، ويحبط عملاهم، ويضحك عليهم، ويستخر منهم

(١) حديث ما سرتني أني حكيت ولي كذا وكذا: تقدم في الآفة الحادية عشرة

(٢) حديث كان إذا كره من إنسان شيئاً قال ما بال أقوام يعاونون كذا وكذا - الحديث: أبو داود من

حديث عائشة دون قوله وكان لا يعيره ورحاله رجال الصحيح

ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان ، فلا يتنبه له بعض الحاضرين ، فيقول سبحانه الله ما أعجب هذا ، حتى يصنعى إليه ، ويعلم ما يقول . فيذكر الله تعالى ، ويستعمل اسمه آله له في تحقيق خبثه ، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره ، جهلامنه وغرورا . وكذلك يقول ، ساءنى ما جرى على صديقتنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه . فيكون كاذبا في دعوى الاغتم ؛ وفي إظهار الدعاء له . بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته . ولو كان يهتم به لا غم أيضا بانظار ما يكرهه . وكذلك يقول ، ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة ، تاب الله علينا وعايه . فهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفي قصده . وهو جهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهدوا ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة عن سبيل التعجب . فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المعتاب في الغيبة ؛ فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق . فيقول ، عجب ، ما علمت أنه كذلك ، ما عرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه . فإن كل ذلك تصديق للمعتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المعتاب ، قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « المُسْتَمِعُ أَحَدُ الْمُعْتَابِينَ » وقد روى عن أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، <sup>(٢)</sup> أن أحدهما قال لصاحبه ، إن فلانا لنؤم ، ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لياً كلاً به الخبز . فقال صلى الله عليه وسلم « قَدْ ائْتَدَمْتُمَا » فقالا مانعاه . قال « بَلَى إِنَّكُمْ أَكَلْتُمَا مِنْ لَحْمِ أَخِيكُمْ » فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما ، والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما ، افحص الرجل كما يفحص الكلب <sup>(٣)</sup> « انْهَسًا مِنْ هَذِهِ الْجَيْفَةِ » فجمع بينهما . فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة ، إلا أن ينكر بلسانه ، أو بقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، فلم يفعل

(١) حديث المستمع أحدا المعتابين: الطبراني من حديث ابن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف

(٢) حديث ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه ان فلانا لنؤم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال قد ائتممتما فقالا ما نعلم فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما: أبو العباس الدغولي في

الآداب من زواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحوه

(٣) حديث انهسا من هذه الميتة قاله للرجلين اللذين قال أحدهما افحص كما يفحص الكلب : تقدم

قبل هذا ياتى عشر حديثا

لزمه . وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشتة لذلك بقلبه ، فذلك نفاق ، ولا يخرج منه إلا ثم ما لم يكرهه بقلبه . ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أو يشير بحاجبه وجبينه فإن ذلك استحقاق للمذكور ، بل ينبغي أن يعظم ذلك ، فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ أَذَلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤْسِ الْخَلَائِقِ » وقال أبو الدرداء ، <sup>(٢)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ رَدَّ عَنْ عَرِضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْ عَرِضِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أيضا <sup>(٣)</sup> « مَنْ ذَبَّ عَنْ عَرِضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَمْتَقَهُ مِنَ النَّارِ » وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة ، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة ، أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسامحة ، فلا تطول بإعادتها

## بيان

### الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة ، أما الثمانية فالأول : أن يشفى الفيظ ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه ، يشقى بذكر مساويه ، فيسبق اللسان إليه بالطبع ، إن لم يكن ثم دين وازع . وقد يمنع تشفى الفيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن ، فيصير حقا ثابتا ، فيكون سببا دائما لذكر المساوي . فالخذ والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة

( ١ ) حديث من أدل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤس

الخلائق : الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة

( ٢ ) حديث أبي الدرداء من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة

ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ

رد الله عن وجه النار يوم القيامة وفي رواية له كان له حجبا من النار وكلاهما ضعيف

( ٣ ) حديث من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار : أحمد والطبراني من

رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد

الثاني : موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس ، استثقلوه ، ونفروا عنه ، فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة في الصحبة . وقد ينضب رفقائه ، فيحتاج إلى أن بغضب لغضبهم ، إظهارا للمساهمة في السراء والضراء ، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوى

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ، ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة ، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ، ويطعن فيه ليستقط أثر شهادته ، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقا ، ليكذب عليه بعده ، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول ، ما من عادتي الكذب ، فإنني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله ، فكان كما قلت

الرابع : أن ينسب إلى شيء ، فيريد أن يتبرأ منه ، فيذكر الذي فعله ، وكان من حقه أن يبرىء نفسه ، ولا يذكر الذي فعل ، فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له في الفعل ، ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول فلان جاهل ، وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه ، فيقدح فيه لذلك

السادس : الحسد ، وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ، ويحبونه ، ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس ، حتى يكفوا عن كرامته ، والثناء عليه ، لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه ، وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعي جنابة من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق السابغ : اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وترجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره

فما يضحك الناس على سبيل الحكاية ، ومنشؤه التكبر والعجب ،

النامن . السفره والاستهزاء . إستحقاراله ، فإن ذلك قد يجرى في الحضور ويجرى أيضا في الغيبة . ومنشؤه التكبر ، واستعصار المستهزأ به  
 وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة ، فهي أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خباها الشيطان في معرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر  
 الاول : أن تنبئ من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ، فإنه قد يكون به صادقا ، ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه ، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه ، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل ، تعجبت من فلان كيف يجب جاريته وهي قبيحة ، وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل

الثاني : الرحمة ، وهو أن يتم سبب ما ينتلي به ، فيقول مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ، ويليه النعم عن الخذر من ذكر اسمه ، فيذكره فيصير به مغتابا ، فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاعتماد ممكن دون ذكر اسمه ، فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبتل به ثواب اعتمائه وترحمه

الثالث : الغضب لله تعالى ، فإنه قد بغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه ، فيظهر غضبه ، ويذكر اسمه . وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يظهره على غيره . أو يستر اسمه ، ولا يذكره بالسوء

فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام . فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة ، والغضب إذا كان لله تعالى ، كان عذرا في ذكر الاسم ، وهو خطأ . بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة ، لامندوحة فيها عن ذكر الاسم ، كما سيأتي ذكره

روى عن عامر بن وائلة ،<sup>(١)</sup> أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام . فلما جاوزهم ، قال رجل منهم ، إني لأبغض هذا في الله تعالى

(١) حديث عامر بن وائلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم إني لأبغض هذا في الله - الحديث : بطوله وفيه فقال قم فلعله خير منك : أحمد بإسناد صحيح

فقال أهل المجلس ، لبئس ماقلت ، والله لننبئنه . ثم قالوا يا فلان ، لرجل منهم ، ثم فأدركه وأخبره بما قال . فأدركه رسولهم . فأخبره . فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى له ما قال ، وسأله أن يدعو له ، فدعاه وسأله . فقال قد قلت ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم « لِمَ تَبْعُهُ » فقال أنا جاره ، وأنا به خابر . والله ما رأيت يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة . قال فاسأله يا رسول الله ، هل رأيت آخرتها عن وقتها ؟ أو أسأت الوضوء لها ؟ أو الركوع أو السجود فيها ؟ فاسأله فقال لا . فقال والله ما رأيت يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر . قال فاسأله يا رسول الله ، هل رأيت قط أفطرت فيه ؟ أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه . فقال والله ما رأيت يعطى سائلا ولا مسكينا قط ، ولا رأيت ينفق شيئا من ماله في سبيل الله ، إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر . قال فاسأله هل رأيت نقصت منها ؟ أو ما كست فيها طالبها الذي يسألها ؟ فسأله فقال لا . فقال صلى الله عليه وسلم للرجل « فَمَ فَلَعَلَّ خَيْرٌ مِنْكَ »

## بيان

العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها ، إنما تعالج بمعجون العلم والعمل . وإنما علاج كل غلة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة . والآخر على التفصيل . أما على الجملة ، فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيته ، بهذه الأخبار التي رويها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه ، بدلا عما استباحه من عرضه . فإن لم تكن له حسنات ، نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ، ومشببه عنده بآكل الميتة . بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنقل إليه سيئة واحدة بمن اغتابه ، فيحصل بها الرجحان ، ويدخل بها النار . وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك

بمد المخاصمة والمطالبة ، والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ما النارُ في اليبسِ بأشْرَعَ مِنَ الْعَيْبَةِ فِي حَسَنَاتِ الْعَبْدِ »

وروى أن رجلا قال للحسن : لفتى أنك تغتابني فقال ما بلغ من قدرك عندي أنى أحكمك في حساني . فمها آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة ، لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه ، فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه . وذكر قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ » ومهما وجد عيبا ، فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ، ويذم غيره . بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه ، في التنزه عن ذلك العيب ، كعجزه . وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره . وإن كان أمرا خلقيا ، فالذم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم ياقبيح الوجه ، قال ما كان خالق وجهي إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه ، فليشكر الله تعالى ، ولا يلوث نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب . بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب ، جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب . وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيته ، كتألمه بغيته غيره له . فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب ، فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جميلة أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة ، فإن علاج العلة يقطع سببها وقد قدمنا الأسباب

أما الغضب فيعالجه بما سيأتى في كتاب آفات الغضب ، وهو أن يقول إني إذا أمضيت غضبي عليه ، ففعل الله تعالى يمضى غضبه علي بسبب الغيبة ، إذ منى عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت بزجره . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنْ جَلِبْتُمْ بَابَايَا بَدَخُلْ مِنْهُ إِلَّا مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ اتَّقَى رَبَّهُ كَلَّ لِسَانَهُ وَلَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ »

(١) حديث ما النار في اليبس بأشْرَعَ مِنَ الْعَيْبَةِ فِي حَسَنَاتِ الْعَبْدِ: لم أجده أصلا

(٢) حديث طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ: البزار من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث ان جلبنتم بابا يادخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله: البزار وابن أبي الدنيا وابن عدي والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٤) حديث من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه: أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه في الأربعين البدائية للسلفي



وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعْضِيَهُ دَعَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤْسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ» ، وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين ، يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب ، فلا أحقك فيمن أحق وأما الموافقة ، فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك ، إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توفّر غيرك ، وتحقر مولاك ، فتترك رضاه لرضام ، إلا أن يكون غضبك لله تعالى . وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقاءك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب ، وهي الغيبة وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الحيانة ، حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق ، أشد من التعرض لمقت المخلوقين . وأنت بالغبية متعرض لسخط الله يقينا ، ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ، فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم ، وتهلك في الآخرة وتحسر حسناتك بالحقيقة . ويحصل لك ذم الله تعالى تقدا ، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة ، وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذر كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله ، فهذا جهل . لأنك تعتذر بالاعتداء بمن لا يجوز الاعتداء به . فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به ، كائنا من كان . ولو دخل غيرك النار ، وأنت تقدر على أن لا تدخلها ، لم توافقه . ولو وافقه لسفه عقلك . ففيما ذكرته غيبة ، وزيادة معصية ، أضفتها إلى ما اعتذرت عنه ، وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل ، فهي أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالمعذر ، وصرحت بالمعذر ، وقالت العنز أ كيس مني ، وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أنا أفعل ، لكنك تضحك من جهلها . وحالك مثل حالها . ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك

وأما قصدك المباهاة وتركية النفس ، بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك ، فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر .

(١) حديث من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه - الحديث : أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس

وربما نقص اعتقادهم فيك ، إذا عرفوك بثلب الناس ، فتكون قد بعثت ما عند الخالق يقينا ،  
 بما عند الخالقين وهما ، ولو حصل لك من الخلقين اعتقاد الفضل ، لكانوا لا يفتنون عنك من الله شيئا  
 وأما النية لأجل الحسد ، فهو يجمع بين نياتين . لأنك مسدته على نعمة الله نيا ، وكنت  
 في الدنيا ممذبا بالحسد ، فما قدمت بذلك ، حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا  
 نفسك في الدنيا ، فصرت أيضا خاسرا في الآخرة ، لتجمع بين النكالين . فقد قصدت  
 محسودك ، فأصبحت نفسك ، وأهديت إليه حسناتك ، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك ،  
 إذ لا تضره غيبتك وتضرك ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك ، أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك  
 وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقد حك ، سبب انتشار  
 فضل محسودك ، كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس ، بإخزاء نفسك عند الله تعالى ،  
 وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام . فلو تفكرت في حسرتك ، وجناتك ،  
 وخجلتك ، وخزيك يوم القيامة ، يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار ،  
 لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك . ولو عرفت حالك ، لكنت أولى أن تضحك منك ،  
 فأنك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملائم  
 الناس ، ويسوقك تحت سيئاته ، كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزئا بك ، وقرحا بخزيك ،  
 ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك ، وتسلمه على الانتقام منك

وأما الرحمة له على إيمه ، فهو حسن ، ولكن حسدك ابليس ، فأضلك ، واستنطقك بما ينقل  
 من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم ، فيخرج عن كونه  
 مرحوما ، وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك  
 وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب النية ، وإنما الشيطان حبيب إليك النية ، ليحبط  
 أجر غضبك ، وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالنية

وأما التعجب إذا أخرجك إلى النية ، فتعجب من نفسك أنت « كيف أهكت

نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه ، وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك  
الله سترك ، كما هتكت بالتعجب ستر أخيك .

فإذاً علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان .  
فمن قوى إيمانه بجميع ذلك ، انكف لسانه عن الغيبة لاحالة

## بيان

### تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك  
عساوى الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك . ولست أعنى به إلا عقد  
القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو مغفوع عنه بل الشك  
أيضا مغفوع عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل  
إليه القلب . فقد قال الله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ  
الظَّنِّ إِثْمٌ <sup>(١)</sup> ) . وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس  
لك أن تعتقد في غيرك سواً إلا إذا انكشف لك ، ببيان لا يقبل التأويل ، فعند ذلك لا يمكنك  
إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في  
قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه ، فإنه أفسق الفساق . وقد قال الله  
تعالى . ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَالَةٍ <sup>(٢)</sup> )  
فلا يجوز تصديق إيليس : وإن كان ثم تخيلة تدل على فساد ، واحتمل خسلافه ، لم يجوز أن  
تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به .  
حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر ، لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون  
قد قضمض بالخمر ومجها ، وما شربها ، أو حمل عليه قهرا . فكل ذلك لاحالة دلالة محتملة

<sup>(١)</sup> الم الحجرات ١٢٣ ، <sup>(٢)</sup> الحجرات ٦٠

فلا يجوز تصديقاً بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يُظنَّ به ظنَّ السوء » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته ، أو بينة عادلة . فإذا لم يكن كذلك ، وخطر لك وسواس سوء الظن ، فينبغي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مآلته منه يحتمل الخير والشر

فإن قلت . فماذا يعرف عقد الظن ، والشكوك تختلج ، والنفس تحدث فنقول : أمانة عقد سوء الظن ، أن يتغير القلب معه عما كان ، فينفر عنه نفورا ما ، ويستنقله ، ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه ، والاعتماد بسببه ، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « ثلاث في المؤمن وله منهن نخرج فخرجه من سوء الظن أن لا يُحَقَّقَهُ » أي لا يحقِّقه في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب ، فبتغيره إلى النفرة والكراهة . وأما في الجوارح ، فبالعمل بعوجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى خيلة مساءة الناس ، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك ، وسرعة فهمك ، وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بفرور الشيطان وظلمته . وأما إذ أخبرك به عدل ، قال ظنك إلى تصديقه ، كنت معذورا . لأنك لو كذبتك لكنت جانيا على هذا العدل . إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد . وتسىء بالآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتغنت ، فتنطرق التهمة بسببه <sup>(٣)</sup> ، فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة . ورد شهادة العدو . فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا ، فلا تصدقه ولا تكذبه .

( ١ ) حديث . إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يُظنَّ به ظنَّ السوء : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس

بسند ضعيف ولا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر

( ٢ ) حديث ثلاث في المؤمن وله منهن نخرج : الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف

( ٣ ) حديث رد الشرع شهادة لواله العدل وشهادة العدو : الترمذي من حديث عائشة وضعفه لا تجوز شهادة

خاتن ولا خاتنة ولا مجاود حدا ولا ذى عمر لأخيه وفيه ولا ظن في ولاء ولا قرابة ولأبي داود

وابن ماجه باسنا جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الغمر على أخيه

ولكن تقول في نفسك ، المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى ، وكان امره محجوباً عنى ، وقد بقى كما كان ، لم ينكشف لى شىء من أمره

وقد يكون الرجل ظهراً العدالة ، ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس ، وذكر مساويهم . فهذا قد يظن انه عدل ، وليس بمدل . فإن المعتاب فاسق . وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته . إلا أن الناس لكثرة الاعتقاد تساهلوا فى أمر الغيبة ، ولم يكثرثوا بتناول أعراض الخلق

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته ، وتدعوله بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ، ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك الخاطر السوء ، خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة ، فانصحهُ فى السر ، ولا يخذ عنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه . وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه ، لينظر إليك بعين التعظيم ، وتنظر إليه بعين الاستحقار ، وترفع عليه بأبداء الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك . وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك ، أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الإغاثة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضاً منهى عنه . قال الله تعالى ( وَلَا تَجَسَّسُوا <sup>(١)</sup> ) فالغيبية وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس ، أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك السر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف وحكم التجسس وحقيقته

## بيان

### الأعذار المخصصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهى ستة أمور :

(١) الحجرات : ١٢٠

الاول : التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم . إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا » وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « مَطَّلُ الظَّالِمِ » وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « لِي الْوَاجِدُ يَحِلُّ عُقُوبَتَهُ وَعِرْضُهُ »

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضي الله عنه، فسلم عليه، فلم يرد السلام. فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه، فذكر له ذلك فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك، ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه، أن أبا جندل قد عاقر الحجر بالشام. كتب إليه، بسم الله الرحمن الرحيم ( حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ <sup>(٤)</sup> ) الآية فتاب . ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك، فينتفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره . وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح . فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما

الثالث : الاستفتاء ، كما يقول للمفتي ، ظماني أبي ، أو زوجتي ، أو أخي ، فكيف طرقتي في الخلاص . والأسلم التعريض ، بأن يقول ، ما قولك في رجل ظلمه أبوه ، أو أخوه ، أو زوجته . ولكن التعيين مباح بهذا القدر ، لما روى عن هند بنت عتبة ، أنها قالت <sup>(٥)</sup> للنبي صلى الله عليه وسلم ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، أفاخذ من غير علمه ؟ فقال « خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ » فذكرت الشح ، والظلم لها بولودها ، ولم يزرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء

الرابع . تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه ، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك

(١) حديث لصاحب الحق مقال متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث مطلق النبي ظلم متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث لى الواجد يحل عرضه وعقوبته أبوداود والنسائي وابن ماجه من حديث النيرى بإسناد صحيح

(٤) حديث ان هندا قالت ان أبا سفيان رجل شحيح منقذ عليه من حديث عائشة

(٥) غافر : ١ و ٣

الخوف عليه من سراية البدعة والافتقار لآدمه . وبذلك موع بالمرور . يزيد . يقول الحمد هو الباعث ، ويابس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق . وكذلك من اشترى مملوكا ، وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالنسق ، أو بغيب آخر فأن تذكر ذلك ، فإن في سكونك ضرر المشتري ، وفي ذكرك ضرر البعد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد ، فله الطعن فيه إن علم مطعنا وكذلك المستشار في التزويج ، وإبداع الأمانة ، له أن يذكر ما يرفعه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوبيعة . فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله لانفسك ، فهو الواجب ، وفيه الكفاية . وإن علم أنه لا يزوج إلا بالتصريح بعبه ، فله أن يسرح به . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أُرْعَوْنَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ أُمَّتِكُمْ حَتَّى يَعْرِفَهُ النَّاسُ إِذْ كُرُوهُ بِمَا فِيهِ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ » وكانوا يقولون ، ثلاثة لا غيبة لهم ، الإمام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه

الخامس . أن يكون الإنسان معروفا باسم يعرب عن عبه ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا يتم على من يقول ، روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، وما يجرمه مجراه . فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه ، بعد أن قد صار مشهورا به . نعم إن وجد عنه معدلا ، وأمكنه التعريف بعبارة أخرى ، فهو أولى . ولذلك يقال للأعمى البصير ، عدولا عن اسم النقص السادس . أن يكون مجاهرا بالنسق ، كالخنث ، وصاحب الماخور ، والمجاهر بشرب الخمر ، ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهره ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به . فإذا ذكرت فيه ما يتظاهره به ، فلا يتم عليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ » وقال عمر رضي الله عنه

(١) حديث أترعون عن ذكر الفاجر اهكوه متى عرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في السمعت

(٢) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ابن عدى وأبو الشيخ في كتاب ثواب الاعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

ليس لهاجر حرمة . وأراد به انجاءهم بفسقته دون المستتر . إذ المستتر . لا بد من مراعاة  
 حرمة . وقال الصلت بن طريف ، قلت للحسن ، الرجل الفاسق المعلن بفجوره ، ذكرى له  
 بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لأغبية لهم صاحب الهوى ، والفاسق  
 المعلن بفسقته ؛ والإمام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به  
 فكيف يكرهون ذلك ، وهم يقصدون إظهاره . نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم  
 وقال عوف ، دخلت على ابن سيرين ، فتناولت عنده الحجاج . فقال ، إن الله حكيم عدل  
 ينتقم للحجاج ممن اغتابه ، كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه . وإناك إذا لقيت الله تعالى غدا ،  
 كان أصغر ذنب أصبته ، أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج

## بيان

### كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج به من  
 حق الله سبحانه . ثم يستحل المغتاب ، ليحله ، فيخرج من مظالمته . وينبني أن يستحله  
 وهو حزين ، متأسف ، نادم على فعله إذ المرئي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفي  
 الباطن لا يكون نادما ، فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن ، يكفيه الاستغفار  
 دون الاستحلال . وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال ، قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم <sup>(١)</sup> « كَفَّارَةٌ مَنِ اغْتَابَتْهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ » وقال مجاهد ، كفارة أكلك لحم  
 أخيك أن تثنى عليه ، وتدعوه بخير

وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة ، قال أن تمشي إلى صاحبك فتقول له ، كذبت  
 فيما قلت ، وظلمتك ، وأسأت . فإن شئت أخذت بحقك ، وإن شئت عفوت . وهذا هو الأصح  
 وقول القائل ، البرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال ، كلام  
 ضعيف ، إذ قد وجب في المرض حد القذف ، وتثبت المطالبة به

( ١ ) حديث كفارة من اغتابته أن تستغفر له ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث

أنس بسند ضعيف



بل في الحديث الصحيح ، ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال <sup>(١)</sup> « مَنْ كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عَرَضٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَسْتَحْلِلْهَا مِنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ هُنَالِكَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَبَّاتِ صَاحِبِهِ فَرِيدَتْ عَلَى سَيِّئَاتِهِ » وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرسى إنها طويصة الذيل ، قد اغتبتبها فاستحلها

فإذا لا بد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا ، فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ، ويكثر من الحسنات

فإن قلت . فالتحليل هل يجب ؟ فأقول لا . لأنه تبرع ، والتبرع فضل وليس بواجب . ولكنه مستحسن . وسبيل المعتذر ، أن يبالح في الثناء عليه ، والنودد إليه ، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فإن لم يطيب قلبه ، كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له ، يقابل بها سيئة النية في القيامة وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب ، لأحطل من ظلمي . وقال ابن سيرين إنى لم أحرما عليه فأحلها له إن الله حرم النية عليه ، وما كنت لأخلل ما حرم الله أبدا . فإن قلت . فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْلِلَهَا » وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن

فقول : المراد به المفو عن المظلمة ، لأن يتقلب الحرام حلالا . وما قاله ابن سيرين ، حسن في التحليل قبل النية فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره النية

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعَرَضِي عَلَى النَّاسِ » فكيف يتصدق بالعرض ؟ ومن تصدق به فهل يباح تناوله ؟ فإن كان لا تنفذ صدقته ، فما معنى الحث عليه

( ١ ) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليستحلها - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

( ٢ ) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى تصدقت بعرضي على الناس

البراز وابن السني في اليوم والليلة والعقيل في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن

عبد البر من حديث ثابت . مرسلا عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة قلت وانما هو رجل ممن كان

قبله كما عهد البراز والعقيل .

فتقول معناه أني لا أطلب مظامة في القيامة منه ، ولا أخافه . وإلا فلا تصير الغيبة حللا به ، ولا تسقط المظامة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب . إلا أنه وعد ، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم ، فإن رجع وخصم ، كان القياس كسائر الحقوق أزاله ذلك . بل صرح النقباء أن من أباح القذف ، لم يسقط حقه من حد القاذف . ومظامة الآخرة مثل مظامة الدنيا وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن ، إذا جثت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، نودوا ليقيم من كان له أجر على الله . فلا يقوم إلا السافون عن الناس في الدنيا . وقد قال الله تعالى ( خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ <sup>(١)</sup> ) فقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا الْعَفْوُ ؟ » فقال ، إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عن ظالمك ، وتصل من قطعك ، وتعطي من حرمك . وروى عن الحسن ، أن رجلا قال له إن فلانا قد اغتابك . فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال قد بلغني أنك أهديت إلى من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها . فاعذرني ، فإنني لا أقدر أن أكافئك على التمام

## الآفة السادسة عشرة

### النميمة

قال الله تعالى ( هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنِيمٍ <sup>(٣)</sup> ) ثم قال ( عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ <sup>(٤)</sup> ) قال عبد الله ابن المبارك . الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث . وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة ، دل على أنه ولد زنا ، استنباطاً من قوله عز وجل ( عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ) والزنيم هو الدعوى . وقال تعالى ( وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمُزَةٌ <sup>(٥)</sup> ) قيل الهمزة التمام وقال تعالى ( حَمَّالَةَ الْحَطَبِ <sup>(٦)</sup> ) قيل إنها كانت غمامة ، حمالة للحديث . وقال تعالى ( فَخَا تَنَاهَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا <sup>(٧)</sup> ) قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيغان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون

(١) حديث نزول خذ العفو الآية فقال يا جبريل ما هذا فقال ان الله يأمرك أن تعفو عن ظالمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك تقدم في رياضة النفس

(١) الاعراف : ١٩٩ (٢) و القلم : ١١ و ١٣ (٣) الهمزة : ١ (٤) المسد : ٤ (٥) التحريم : ١٠

وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لا يدخل الجنة نائم » ، وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة فتات » ، والفتات هو النمام . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألقون ويؤلقون وإن أبقضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الإخوان الملتبسون للبراء العورات » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا بلى . قال « المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب » وقال أبو ذر ، <sup>(٤)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة » وقال أبو الدرداء <sup>(٥)</sup> ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بري ليشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يديه بها يوم القيامة في النار » وقال أبو هريرة ، <sup>(٦)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » ويقال إن ثلث عذاب القبر من النميمة وعن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٧)</sup> « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت سعدت من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس لا يسكنك مذم من نمر ولا مصر على الزنا ولا فتات وهو النمام

( ١ ) حديث لا يدخل الجنة نائم وفي حديث آخر فتات متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم

( ٢ ) حديث أبو هريرة وأحسبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الطبراني في الأوسط والصغير وتقدم في آداب الصحة

( ٣ ) حديث ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤون بالنميمة الحديث أحمد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم

( ٤ ) حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في معارج الأخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث ( ٥ ) حديث أبي الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بري ليشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يديه بها يوم القيامة في النار ابن أبي الدنيا موقوفاً على أبي الدرداء ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعاً من حديثه وقد تقدم

( ٦ ) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسر أسقطه ابن أبي الدنيا من الأسناد

( ٧ ) حديث ابن عمر إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت سعدت من دخلني قال الجبار وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية فذكر منها ولافتات وهو النمام لم أجده هكذا تمامه ولأحمد لا يدخل الجنة

وَلَا دِيُوثٌ وَلَا شُرَاطِيُّ وَلَا تُخَنَّثُ وَلَا قَاطِعٌ رَاحِمٍ وَلَا الَّذِي يَقُولُ عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ إِنْ لَمْ  
أَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ لَمْ يَفِ بِهِ «

وروى كعب الأحبار ، أن بني إسرائيل أصابهم حقط ، فاستسقى موسى عليه السلام مرات  
فما سقوا . فأوحى الله تعالى إليه ، إني لا أستجيب لك ولن معك وفيكم نمام ، قد أصر على  
النيمة . فقال موسى ، يارب من هو ؟ دلني عليه حتى أخرج من بيننا . قال يا موسى ، أنها كم  
عن النيمة وأكون نماما ! فتأبوا جميعا ، فسقوا . ويقال اتبع رجل حكيم سبعمائة فرسخ  
في سبع كلمات . فلما قدم عليه ، قال إني جئت لك للذي آتاك الله تعالى من العلم ، أخبرني عن  
السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار  
وما أحر منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل  
منه ؟ فقال له الحكيم ، البهتان على البريء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ؟  
والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى القريب إذالم  
تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم

## بيان

حد النيمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النيمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول  
فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا . وليست النيمة مختصة به . بل حدها كشف ما يكره كشفه  
سواء كرهه المنقول عنه ، أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول  
أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو بالأيماء . وسواء كان المنقول من الأعمال ، أو من الأقوال ،  
وسواء كان ذلك عميا ونقصا في المنقول عنه ، أو لم يكن . بل حقيقة النيمة إفشاء السر ،

ناب لوالديه وذي يوثك وللنساء من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل الحية حمام ولا يثنى  
ولام من حمر وللشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ولها من حديث جابر بن عظيم  
لا يدخل الجنة قاطع وذكر صاحب المردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي ،  
تري فتزيت فقالت طوبى لمن دخلني ورضي عنه الهى فقال الله عز وجل لا سكنك نخنت ولا نائمة

وهتك الستر عما يكره كسبه . بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكرهه ، فينبغي أن يسكت عنه ، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، مراعاة لحق المشهود له . فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه ، فذكره فهو نعمة ، وإفشاء للسر فإن كان ما ينم به تقصا وعيبا في المحكي عنه ، كما قد جمع بين النية والنية فالباعث على النعمة أما إرادة السوء المحكي عنه ، أو إظهار الحب للمحكي له ، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل

وكل من حملت إليه النعمة ، وقيل له إن فلانا قال فيك كذا ، أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك ، أو في ممالأة عدوك ، أو تقييح حالك ، أو ما يجري مجراه ، فعليه ستة أمور الأول . أن لا يصدقه لأن التمام فاسق ، وهو مردود الشهادة ، قال الله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَاهَلِهِ <sup>(١)</sup> ) الثاني . أن ينهأ عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى ( وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ <sup>(٢)</sup> )

الثالث . أن يبغضه في الله تعالى ، فإنه يبغض عند الله تعالى ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى الرابع . أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى ( اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ <sup>(٣)</sup> )

الخامس . أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقيق اتباعا لقوله تعالى ( وَلَا تَجَسَّسُوا <sup>(٤)</sup> )

السادس . أن لا ترضى لنفسك ما نهيت التمام عنه ، ولا تحكي نيمته ، فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا ، فتكون به نماما ومغتابا ، وقد تكون قد أتيت ماعنه نهيت وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أنه دخل عليه رجل ، فذكر له عن رجل شيئا . فقال له عمر ، إن شئت نظرنا في أمرك ، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية ( إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا <sup>(٥)</sup> ) وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية ( هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنِيمٍ <sup>(٦)</sup> ) وإن شئت عفونا عنك . فقال الغفوي بأمير المؤمنين لأعود إليه أبدا

(١) الحجرات : ٦ (٢) لقمان : ١٧ (٣) و (٤) الحجرات : ١٢ (٥) الحجرات : ٦ (٦) القلم : ١١

وذكر أن حكيمًا من الحكماء زاره بعض إخوانه ، فأخبره بحبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم ، قد أبطأت في الزيارة ، وأتيت بثلاث جنائيات . بغضت أخي إلى ، وشغلت قلبي الفارغ ، وآهمت نفسك الأمينة . وروى أن سليمان بن عبد الملك ، كان جالسًا وعنده الزهري ، فجاءه رجل ، فقال له سليمان ، بلغني إنك وقعت في وقت كذا وكذا ، فقال الرجل ما فعلت ولا قلت . فقال سليمان ، إن الذي أخبرني صادق . فقال له الزهري ، لا يكون النمام صادقًا . فقال سليمان صدقت . ثم قال للرجل اذهب بسلام

وقال الحسن . من نم اليك ، نم عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ، ولا يوثق بقوله ، ولا بصداقته . وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة ، والغدر والخيانة ، والنيل والحسد والنفاق ، والإفساد بين الناس والخديعة . وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض

وقال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ<sup>(١)</sup>) والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لَشَرِّهِ » والنمام منهم . وقال<sup>(٣)</sup> « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » قيل وما القاطع . قال « قَاطِعٌ بَيْنَ النَّاسِ » وهو النمام ، وقيل قاطع الرحم

وروى عن علي رضي الله عنه ، أن رجلا سعى إليه برجل ، فقال يا هذا ، نحن نسأل عما قلت ، فإن كنت صادفًا مقتناك ، وإن كنت كاذبًا عاقبتناك ، وإن شئت أن نقيلك أفلناك . فقال أفلني يا أمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظي ، أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال كثرة الكلام ، وإفشاء السر ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر ، وكان أميرًا بلغني أن فلانا أعلم الأمير أنني ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قل فأخبرني بما قال لك . حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسي بلساني ، وحسبي أنني لم أصدقته فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال

(١) حديث ابن من شَرَّ الناس من اتقاه الناس لشَرِّه: متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث لا يدخل الجنة قاطع: متفق عليه من حديث جبير بن مطعم

(٣) الشورى : ٤٢

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ، ما ظنكم تقوم بحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير ، نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبره ، كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعي ، فلو كان صادقا في قوله لكأن لثيما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة

والسعاية هي النيمة ، إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة » يعني ليس بولد حلال ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك ، فاستأذنه في الكلام ، وقال إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام ، فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته . فقال قل . فقال يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دينك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما تتمنك الله عليه ، ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياهم ، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا ، وفي الأمانة تضييما ، والأعراض قطعا وانها كما أعلی قربهم البنى والنيمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقية ، وأنت مسؤل عما أجموا ، وليسوا المسؤولين عما أجمت ، فلا تصلح دينهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدينا غيره

وسمى رجل بزياد الأعجم ، إلى سليمان بن عبد الملك ، فجمع بينهما للموافقة . فأقبل زياد على الرجل وقال

فأنت امرؤ ما تتمنك خاليا      نغنت واما قلت قولاً بلا علم  
فأنت من الأمر الذي كان بيننا      بمنزلة بين الحيانة والإثم

(١) حديث الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة: الحاكم من حديث أبي موسى من سمي بالناس فهو لغير رشدة أوفيه شيء منها وقال له أسانيد هذا أمثلها قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال - والحديث : لأصل له وقد ذكر ابن جبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ لا يسى على الناس الأولاد بنى والأمين فيه عرق منه وزاد بين سهل وبين بلال ، ابن أبي بردة أبا الوليد القرشي

وقال رجل لعروين عبيد ، أن الأسوارى ما يزال يذكرك في قصصه بشر . فقال له عمرو ، يا هذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل ، حيث نقلت إلينا حديثه . ولا أديت حتى ، حين اعلمتني عن أخى ما أكره . ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا ، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين

ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة ، نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرة وقوعه على ظهرها . السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة . فإن كنت أجريتها مجرى النصح ، فخير منك فيها أفضل من الریح . ومعاذ الله أن تقبل مهتوكا في مستور . ولولا أنك في خفارة شيتك ، لقالناك بما يقتضيه فعلك في مثلك . فتوق ياملعون العيب ، فإن الله يعلم بالغيب . الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال عمره الله ، والساعي لعنه الله

وقال لقمان لابنه ، يا بني ، أوصيك بخلال ، إن تمسكت بهن لم ترل سيدا . ابسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم والليليم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع ، أو سماع باع يريد فسادك ، ويروم خداعك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .

وقال بعضهم : النيمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق ، وهي أثناف الذل . وقال بعضهم لو صح ما نقله المنام إليك ، لكان هو المجترى ، بالشم عليك ، والمنقول عنه أولى بجهلك ، لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة ، فشر النمام عظيم ، ينبغى أن يتوقى . قال حماد ابن سامة : باع رجل عبدا ، وقال للمشترى : ما فيه عيب إلا النيمة . قال قدرصيت . فاشتراه فكث الغلام أياما ، ثم قال لزوجة مولاه ، إن سيدى لا يحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسيقى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات ، حتى أسجره عليها ، فيحبك . ثم قال للزوج ، إن امرأتك أخذت خيلا ، وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك . فتناوم لها ، فجاءت المرأة بالموسى ، فظن أنها تريد قتله ، فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين . فنسأل الله حسن التوفيق



## الآفة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه

وقلما يخاو عنه من يشاهد متعادين . وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر ، <sup>(١)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال أبو هريرة ، <sup>(٢)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَجِدُونَ مِنْ شَرِّ عِبَادِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بِحَدِيثٍ وَهَوْلَاءَ بِحَدِيثٍ » وفى لفظ آخر « الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بِوَجْهِ وَهَوْلَاءَ بِوَجْهِ »

وقال أبو هريرة : لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة ، بطلت الأمانة ، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « أَبْغَضُ خَلِيقَةَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكَذَّابُونَ وَالْمُسْتَكْبِرُونَ وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الْبِنَصَاءَ لِإِخْوَانِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ فَإِذَا لَقَوْهُمْ تَمَلَّقُوا لَهُمْ وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَانُوا بَطْطَاءً وَإِذَا دُعُوا إِلَى الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ كَانُوا سِرَاعًا » . وقال ابن مسعود ، لا يكون أحدكم إمامة . قالوا وما الإمامة ؟ قال الذى يجرى مع كل ربح . واتفقوا على أن ملاقاته الإثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات كثيرة ، وهذه من جملتها وقد روى أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة . فقال له عمر ، يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تصل عليه فقال يا أمير المؤمنين ، إنه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال اللهم لا ، ولا أو من منها أحدا بعدك

( الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين )

( ١ ) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة : البخارى فى كتاب الادب

المفرد وأبو داود بسند حسن

( ٢ ) حديث أبو هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين - الحديث : متفق عليه بلفظ تجد

من شر الناس لفظ البخارى وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

( ٣ ) حديث أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البينصاء لإخوانهم

فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم - الحديث : لم أقف له على أصل

فإن قلت :بماذا يصير الرجل ذا لسانين ؛ وما حد ذلك ؟  
فأقول . إذا دخل على متعادين ، وجامل كل واحد منهما ، وكان صادقا فيه ، لم يكن منافقا ، ولا ذا لسانين . فإن الواحد قد يصادق متعادين . ولكن صداقة ضعيفة ، لا تنتهي إلى حد الأخوة . إذ لو تحققت الصداقة ، لاقتضت معاداة الأعداء ، كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة . نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر ، فهو ذو لسانين وهو شر من النيمة ، إذ يصير تماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وإن لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه . فهذا ذو لسانين . وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أتى على كل واحد منهما في معاداته . وكذلك إذا أتى على أحدهما ، وكان إذا خرج من عنده يذمه ، فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعادين ، ويثنى عليه في غيبته ، وفي حضوره ، وبين يدي عدوه . قيل لابن عمر رضي الله عنهما ، <sup>(١)</sup> إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا نفاق مهمل كان مستغنيا عن الدخول على الأمير ، وعن الثناء عليه . فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن ، فهو نفاق ، لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك . فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل ، وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والنسي ، وأثنى ، فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُبْنِيَانِ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُبْنِي الْمَاءُ الْبَقْلَ» لأنه يحوج إلى الأمراء ذاك مراعاتهم ومراآتهم . فأما إذا ابتلى به لضرورة ، وخاف إن لم يثن ، فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز قال أبو الدرداء رضي الله عنه ، إنا لنكشر في وجوه أقوام ،

(١) حديث قيل لابن عمر لانا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك نفاقا

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبراني من طرق

(٢) حديث حب الجاه والمال يبنيان النفاق في القلب كما يبني الماء البقل: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

من حديث أبي هريرة يستد ضيف الا انه قال حب الغناء وقال الشعب مكان البقل

وإن قالوا بالتلعنهم وقالت عائشة رضي الله عنها ،<sup>(١)</sup> استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنتوا له فبئس رجل العشييرة هو » ثم لما دخل ألان له القول . فأما خرج قلت يا رسول الله ، قلت فيه ما قلت ، ثم ألت له القول ! فقال « يا عائشة إن شر الناس الذي يُكْرَمُ اتقاءً شره » ولكن هذا ورد في الإقبال ، وفي الكشر والتبسم . فأما الثناء ، فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة ، أو إكراه يباح الكذب بعثله ، كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ، ولا التصديق ، ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك ، فهو منافق . بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فسكت بلسانه ، وينكر بقلبه

## الآفة الثامنة عشرة

### المدح

وهو مهى عنه في بعض المواضع . أما النتم ، فهو الغيبة والوقيمة ، وقد ذكرنا حكمها . والمدح يدخله ست آفات ، أربع في المدح ، واثنان في المدوح . فأما المدح : فالأولى . أنه قد يفرط ، فينتهى به إلى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤس الأشهاد ، بعثه الله يوم القيامة يتثر بلسانه الثانية : أنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضرا له ، ولا معتقدا لجميع ما يقوله : فيصير به مرأيا منافقا .

الثالثة : إنه قد يقول ما لا يتحققه ، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه . روى<sup>(٢)</sup> أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه السلام « وَيَحْتَكُ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعْتَهَا مَا أَفْلَحَ » ثم قال « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ لَا يَدَّ مَادِحًا أَخَاهُ فَلْيَقُلْ أَحْسَبُ فُلَانًا وَلَا أَزْكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا حَسِبُهُ اللَّهُ إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ »

( ١ ) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنتوا له فبئس رجل العشييرة . الحديث : وفيه ان شر الناس الذي يكرم اتقاء شره . انتهى . من سبق عليه . وقد تقدم في الآفة التي قبلها .  
( الآفة الثامنة عشرة المدح )

( ٢ ) حديث ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبي بكر بنحوه وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظه الصنف

وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة، التي نعرف بالأدلة، كقوله إنه متق وورع، وزاهد، وخير، وما يجرى مجراه. فأما إذا قال رأيتَه يصلي بالليل، ويتصدق، ويحج، فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله إنه عدل، رضا، فإن ذلك خفي، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه. إلا بعد خبرة باطنة. سمع عمر رضي الله عنه رجلا يثنى على رجل، فقال أسأفرت معه؟ قال لا. قال: أخالطه في المباينة والمعاملة؟ قال لا. قال: فأنت جاره صباحه ومساءه؟ قال لا. فقال: والله الذي لا إله إلا هو لأراك تعرفه

الرابعة: أنه قد يفرح المدوح وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مَدِحَ الْفَاسِقُ» وقال الحسن. من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه. والظالم الفاسق ينبغي أن يذم لينتم، ولا يمدح ليفرح. وأما المدوح فيضره من وجهين:

أحدهما. أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا، وهما مهلكان. قال الحسن رضي الله عنه. كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة، والناس حوله، إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل هذا سيد ريعة. فسمعها عمر ومن حوله، وسمعها الجارود. فلما دنا منه، خفقه بالدرة. فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال مالي ولك أما لقد سمعتها؟ قال سمعتها. قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحييت أن أطأ طيء منك.

الثاني: هو أنه إذا أثبت عليه بالخير فرح به وفتن، ورضي عن نفسه. ومن أعجب بنفسه قل تشمره. وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً. فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه، ظن أنه قد أدرك. ولهذا قال عليه السلام «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ» وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> «إِذَا مَدَحْتَ أَخَاكَ فِي وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرُتَ عَلَى حَلْقِهِ مُوسَى وَمِيسَا» وقال أيضا لمن مدح رجلا<sup>(٣)</sup> «عَقَرْتَ الرَّجُلَ عَقْرَكَ اللَّهُ»

(١) حديث ان الله يغضب اذا مدح الفاسق: ابن أبي الدنيا في الصمت والبيق في الشعب من حديث أنس وفيه

أبو خلف خادم أنس ضعيف ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عدي بلفظ اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش قال الذهبي في الميزان منكر وقد تقدم في آداب الكسب

(٢) حديث اذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على حلقه موسى وميضا: ابن المبارك في الزهد والرقائق

من رواية يحيى بن جابر مرسلا

(٣) حديث عقرت الرجل عقرك الله: قاله لمن مدح رجلا لم أجده أصلا

وقال مطرف، ما سمعت قطائنا ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي . وقال زياد بن أبي مسلم،  
ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة ، إلا تراءى له الشيطان . ولكن المؤمن يراجع .  
فقال ابن المبارك، لقد صدق كلاهما . أما ما ذكره زياد، فذلك قلب العوام . وأما ما ذكره مطرف،  
فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَوْ مَشَى رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ يَسْكُنُ  
مَرْهَفٍ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يُشَيَّ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ » وقال عمر رضي الله عنه : المدح هو  
الذبح . وذلك لأن المذبح هو الذي يفتقر عن العمل . والمدح يوجب انتقور . أو لأن  
المدح يورث العجب والكبر ، وهما مهلكان كالذبح ، فلذلك شبهه به .

فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المدح والمدوح ، لم يكن به بأس . بل ربما تأن  
مندوبا إليه ولذلك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال <sup>(٢)</sup> « لَوْ وُزِنَ  
إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ الْعَالَمِ لَرَجِحَ » وقال في عمر <sup>(٣)</sup> « لَوْ لَمْ أُبْعَثْ لُبَعْتٌ يَا عُمَرُ »  
وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبسيرة وكان راضيا  
الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا . بل مدح الرجل نفسه فيبيع  
لما فيه من الكبر والتفاخر . إذ قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « أَنَا سَيِّدُ آدَمَ وَلَا فَخْرَ »  
أى لست أقول هذا تفاخرا ، كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره  
صلى الله عليه وسلم كان بالله ، وبالقرب من الله ، لا بولد آدم وتقدمه عليهم . فكان  
المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه ، ربه يفرح . لا بتقدمه على بعض رعاياه  
وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه . قال صلى الله  
عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « وَجَبَتْ » لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد إن لبني آدم جلساء

( ١ ) حديث لومني رجل يسكن مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه . لم أجده أيضا

( ٢ ) حديث لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح : تقدم في العلم

( ٣ ) حديث لو لم أبعث لبعثت يا عمر : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكر  
 والمعروف حديث عفة بن عامر لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب رواه الترمذي وحسنه

( ٤ ) حديث أناسيد ولد آدم ولا فخر : الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث  
 جابر وقال صحيح الاسناد وله من حديث عبادة بن الصامت أناسيد الناس يوم القيامة ولا فخر

ولسلم من حديث أبي هريرة أناسيد ولد آدم يوم القيامة

( ٥ ) حديث وجبت قاله لما أثنوا على بعض الموتى : متفق عليه من حديث أنس

من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير ، قالت للملائكة ولك بمثله . وإذا ذكره بسوء ، قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك ، واحمد الله الذي ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

## بيان

### ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب ، وآفة الفتور ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما في خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح . ولو انكشف له جميع أسراره ، وما يجري على خواطره ، لكف المادح عن مدحه

وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَحْشُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ الدَّارِحِينَ » وقال سفيان بن عيينة ، لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين : فقال اللهم إن هؤلاء لا يعرفونني ، وأنت تعرفني . وقال آخر لما أثنى عليه ، اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك ، وأنا أشهدك على مقتك . وقال علي رضي الله عنه لما أثنى عليه ، اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه ، فقال أتهلكني وتهلك نفسك ؛ وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال أنا دون ماقلت ، وفوق ما في نفسك

## الآفة التاسعة عشرة

### الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام

لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين . فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء . فمن قصر في علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل . لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله ما قال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أحشوا في وجوه الدارحين التراب: مسلم من حديث المعداد .

(١) « لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ وَلَكِنْ لِيَقُولَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ » وذلك لأن في العطف المطلق تشريفاً وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، (٢) جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكلمه في بعض الأمر ، فقال ماشاء الله وشئت . فقال صلى الله عليه وسلم « اجعلتني لله عبدلاً بل ماشاء الله وحده » وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ، فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال د قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع

وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان ، ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال ، اللهم أعتقنا من النار ، وكان يقول العتق يكون بعد الورد . وكانوا يستجيرون من النار ، ويتعوذون من النار وقال رجل : اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة « إن الله يعنى المؤمنين عن شفاعة محمد ، وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين

وقال ابراهيم ، إذا قال الرجل للرجل يا حمار ، يا خنزير ، قبل له يوم القيامة ، حماراً يا بنى خلقته ا خنزيراً يا بنى خلقته ؟ . وعن ابن عباس رضى الله عنها إن أحدكم ليسرك حتى يشرك بكلمه ، فيقول لولاه لسرقنا الليلة

وقال عمر رضى الله عنه ، (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْهَىكُمْ أَنْ تَخْلِفُوا بِآبَائِكُمْ مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » قال عمر رضى الله عنه . فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا تُسْمُوا الْعِنَبَ كَرَمًا »

( الآفة التاسعة عشرة في الفقه عن دقائق الخطأ )

( ١ ) حديث حذيفة لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت - الحديث : أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح

( ٢ ) حديث ابن عباس جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت

فقال جعلتني لله عبداً لله وحده النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه

( ٣ ) حديث خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما

فقد غوى - الحديث : مسلم من حديث عدى بن حاتم

( ٤ ) حديث عمران الله ينهاكم أن تخلفوا بأبائكم : متفق عليه

( ٥ ) حديث لا تسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم : متفق عليه من حديث أبي هريرة

## إِنَّمَا الْكَرَمُ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ

• وقال أبو هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلَا أُمَّتِي كَلُّكُمْ عَيْدُ اللَّهِ وَكُلُّ تَسَانُكُمُ إِمَاءُ اللَّهِ وَلَيُقَلَّ عَلَامِي وَجَارِ بَيْتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي وَلَا يَقُولُ الْمَلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبِّي وَلَيُقَلَّ سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي فَكُلُّكُمْ عَيْدُ اللَّهِ وَالرَّبُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا تَقُولُوا لِلْفَاسِقِ سَيِّدَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ اسْتَخَطَمَ رَبَّكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ قَالَ أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا »

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حصره. ومن تأمل جميع ما أورده من آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم. وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ صَمَتَ نَجًا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب، وهي على طريق التكلم، فإن سكت سلم من الكل. وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه: إلا أن يوافق لسان فصيح، وعلم غزير، وورع حافظ؛ ومراقبة لازمة، ويقلل من الكلام، فعساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر. فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فتم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين

## الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن. إلا أن ذلك ثقيل على النفوس، والفضول خفيف على القلب. والعامي يفرح بالخوض في العلم. إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يجب إليه ذلك: حتى يتكلم في العلم بما هو كافر، وهو لا يدري

(١) حديث لا تقولوا للمنافق سيدنا - الحديث: أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح

(٢) حديث من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال - الحديث: النسائي وابن ماجه من حديث

بريدة باسناد صحيح

(٣) حديث من صمت نجا: الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان

( الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى )



وكل كبيرة يرتكبها العاصي ، فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم : لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم : يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر . وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك ، وهو موجب للمقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ، ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم . فإنه بالإضافة إليه عاصي ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ذَرُونِي مَا تَرَكَتُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُمْكُمْ بِهِ فَأَتَوْا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

وقال أنس : <sup>(٢)</sup> سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سَلُونِي وَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ » فقام إليه رجل ؛ فقال يارسول الله من أنى ؟ فقال « أَبُوكَ حَذَافَةُ » فقام إليه شابان أخوان ، فقالا يارسول الله ، من أبونا ؟ فقال « أَبُو كَيْمَا الَّذِي تُدْعَىٰان إِلَيْهِ » ثم قام إليه رجل آخر ، فقال يارسول الله ، أنى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال « لَا بَلْ فِي النَّارِ » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا . فقام إليه عمر رضى الله عنه ، فقال رضينا بالله ربا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا . فقال « اجْلِسْ يَا عَمْرُ رَحِمَكَ اللَّهُ إِنَّكَ مَا عَلِمْتَ لَمْ وَفَّقْ » وفى الحديث <sup>(٣)</sup> نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل ، والقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « يُوشِكُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَهَنْ خَلَقَ اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ قَسُّوْا (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ

(١) حديث ذرونى ما تركتكم فاما هلك من كان قبلكم بسؤالهم - الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال

سألوني فلا تسألوني عن شئ ، إلا أنبأتكم به - الحديث : متفق عليه مقتصر على سؤال عد الله

بن حذافة وفول عمر ولمسلم من حديث أبى موسى فقام اخر فقال من أبى فقال أبوك سالمولى شية

(٣) حديث النهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال متفق عليه من حديث العيرة بن شعبة

(٤) حديث يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق - الحديث : متفق عليه من حديث

أبى هريرة وقد تقسم

اللَّهُ الصَّمَدُ<sup>(١)</sup> حَتَّى تَخْتَبُوا السُّورَةَ ثُمَّ لِيَنْفُلْ أَحَدُكُمْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلَيْسْتَ عِذُّ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » وقال جابر<sup>(٢)</sup> ، ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال

وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام ، تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال ( فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا<sup>(٣)</sup> ) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر ، وقال ( لَا تَوَأْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا<sup>(٤)</sup> ) فلما لم يصر حتى سأل ثلاثا قال ( هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ<sup>(٥)</sup> ) وفارقه

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم في حروف القرآن ، بضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا ، فلم يشتغل بشيء منها ، وضع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ، فاستحق بذلك العقوبة لامحالة . فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أم حديثه ، وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى . والله تعالى أعلم

( ١ ) حديث حار ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال رواه البزار باسناد جيد

( ٢ ) الصمد : ٢٠١ ، ( ٢ ، ٣ ، ٤ ) الكهف : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨

کتاب ذم الغضب والمقد والمسد

## كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يتكل على غضوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون . ثم حفهم بالمكاره والذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ، وامتحن به حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ، فقال ( مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ <sup>(١)</sup> ) . والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرصيين ، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى بركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد . فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، وإها لمستكنة في طلي الفؤاد ، استكنان الحجر تحت الرماد . ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كما منتزاج الحجر النار من الحديد . وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فن استفزته نار الغضب ، فقد قويت فيه قرابة الشيطان ، حيث قال ( خَلَقْتِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ <sup>(٢)</sup> ) فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستعمار ، والحركة والاضطراب . ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك ، وفسد من فسد ، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد . وإذا كان الحقد والحسد والغضب بما يسوق العبد إلى مواطن العطب ،

(١) يس : ٥٠ ، ٥٩ : (٢) الاعراف : ١٣ :

فأوجه إلى معرفة معاطبه ومساوئه ، لا يذو ذلك ، وثيقه ، ويميله عن القلب إن كان ينفيه ،  
ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه ، فإن من لا يعرف الشريع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة  
لا تكفيه ، ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه  
ونحن نذكر ذم الغضب ، وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ، وجمعها بيان ذم الغضب ،  
ثم بيان حقيقة الغضب ، ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ، ثم بيان الأسباب  
المبيجة للغضب ، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم بيان فضيلة كظم النيط ، ثم  
بيان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ، ثم القول في  
معنى الحقد ونتأجه ، وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول في ذم الحسد ، وفي حقيقته وأسبابه  
ومعالجته ، وغاية الواجب في إزائته ، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال ، والأقران ،  
والأخوة ، وبنى العم ، والأقارب . وتأكده وقتله في غيرهم وضعفه ، ثم بيان الدواء الذي به  
ينقى مرض الحسد عن القلب ، ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب ، وبالله التوفيق

## بيان

### ذم الغضب

قال الله تعالى : ( إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ  
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ <sup>(١)</sup> ) الآية ، ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن  
الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة . وروى أبو هريرة  
<sup>(٢)</sup> أن رجلا قال يارسول الله ، مرني بعمل وأقل . قال « لَا تَغْضَبْ » ثم أعاد عليه فقال  
« لَا تَغْضَبْ » وقال ابن عمر <sup>(٣)</sup> قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « قل لي قولاً وأقله  
لعل أعتقه . فقال « لَا تَغْضَبْ » فأعدت عليه مرتين ، كل ذلك يرجع إلى لا تغضب .

( كتاب الغضب والحقد والحسد )

( ١ ) حديث أبي هريرة أن رجلا قال يارسول الله مرني بعمل وأقل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال

لا تغضب : رواه البخاري

( ٢ ) حديث ابن عمر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولاً وأقله . الحديث : نحوه أبو يعلى بإسناد حسن

( ٣ ) الفتح : ٤٦

وعن عبد الله بن عمرو<sup>(١)</sup> ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا ينقذني من غضب الله ؟ قال « لَا تَغْضَبُ » وقال ابن مسعود<sup>(٢)</sup> ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا تَعْدُونَ الصَّرْعَةَ فَيَكُمُّ ؟ » قلنا الذي لا تصرعه الرجال . قال « لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وقال أبو هريرة<sup>(٣)</sup> قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةَ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وقال ابن عمر<sup>(٤)</sup> قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا)<sup>(٥)</sup> قال السيد الذي لا يغلبه الغضب . وقال أبو الدرداء<sup>(٦)</sup> ، قلت يا رسول الله ، دلي على عمل يدخلني الجنة . قال « لَا تَغْضَبُ » وقال يحيى لعيسى عليهما السلام ، لا تغضب ، قال : لا أستطيع أن لا أغضب ، إنما أنا بشر . قال لا تقتن مالا ، قال هذا عسى وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> « الْغَضَبُ يُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الصَّبْرُ الْعَسَلَ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٧)</sup> « مَا غَضِبَ أَحَدٌ إِلَّا أَشْفَى عَلَى جَهَنَّمَ » وقال له رجل<sup>(٨)</sup> ، أى شيء أشد قال « غَضَبُ اللَّهِ » قال فما يبعدني عن غضب الله ؟ قال « لَا تَغْضَبُ »

( ١ ) حديث عبد الله بن عمرو سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب

الطبراني في معارج الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد باسناد حسن وهو عند أحمد وان عبد الله

ابن عمرو وهو السائل

( ٢ ) حديث ابن مسعود ما تعدون الصرعة - الحديث : رواد مسلم

( ٣ ) حديث أبو هريرة وليس الشديد بالصرعة - الحديث : متفق عليه

( ٤ ) حديث ابن عمر من كف غضبه ستر الله عورته : ابن أبي الدنيا في كتاب العفو ودم الغضب وفي الصمت

وتقدم في آفات اللسان

( ٥ ) حديث أبي الدرداء دلي على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب : ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير

والاوسط باسناد حسن

( ٦ ) حديث الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل : الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية

بهر بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف

( ٧ ) حديث ما غضب أحد الأتقى على جهنم : البراء وابن عدي من حديث ابن عباس للنار باب لا يدخله إلا من شق

غيطه بمعصية الله واستاده ضعيف وتقديم في آفات اللسان

( ٨ ) حديث قال رجل أى شيء أشد على قال غضب الله قال فما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب : أحمد

من حديث عبد الله بن عمرو بالشرط الأخير منه وقد تقدم نحوه بسبب أحاديث

الآثار . قال الحسن : يا ابن آدم ، كلما غضبت وثبت ، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار . وعن ذى القرنين ، أنه لقي ملكاً من الملائكة ، فقال علمني علماً أزداد به إيماناً و يقيناً ، قال لا تغضب ، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة . وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك . وكن سهلاً لنا للقريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً

وعن وهب بن منبه ، أن راهباً كان في صومعته ، فأراد الشيطان أن يضله ، فلم يستطع فجاءه حتى ناداه ، فقال له افتح فم يجيبه ، فقال افتح . فإني إن ذهبت ندمت . فلم يلتفت إليه . فقال إني أنا المسيح قال الراهب ، وإن كنت المسيح . ، فما أصنع بك ؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ؟ ووعدتنا القيامة ؟ فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك . فقال إني الشيطان ، وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ، فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك . فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال : فولى مدبراً . فقال الراهب ألا تسمع ؟ قال بلى . قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم ؟ قال الحدة . إن الرجل إذا كان حديداً ، قلبناه كما يقرب الصبيان الكرة وقال خيشمة ، الشيطان يقول ، كيف يغلبني ابن آدم ، وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه ،

وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه . وقال جعفر بن محمد ، الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار ، رأس الحق الحدة ، وقائده الغضب . ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه وقال مجاهد ، قال إبليس ، ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث . إذا سكر أحدم أخذنا بمنزلة فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا . وإذا غضب قال بما لا يعلم ، وعمل بما يندم . وبخله بما في يديه ، وغميه بما لا يقدر عليه . وقيل لحكيم ، ما أملك فلاناً لنفسه قال إذا اتدله الشهوة . ولا يصبره الهوى ، ولا يغلبه الغضب ، وقال بعضهم إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبد الله بن مسعود ، انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه . وأمانته عند طعمه ، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ، وما علمك بأمانته إذا لم يطعم وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله ، أن لا تعاقب عند غضبك على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخبره فعاقبه على قدر ذنبه . ولا تجاوز به خمسة عشرة سوطاً . وقال علي بن زيد ، أغلظ

رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول ، فأطرفي عمر زمانا طويلا ، ثم قال أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان ، فأنا لك منك اليوم ما تناله مني غدا . وقال بعضهم لابنه ، يا بني ، لا يثبت العقل عند الغضب ، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة .

فأقل الناس غضبا أعقلهم . فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للآخرة كان حاما وعلما . فقد قيل الغضب عدو العقل ، والغضب غول العقل . وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب قال في خطبته ، أفلح منكم من حفظ من الطمع ، والهوى ، والغضب . وقال بعضهم ، من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجميل في فاقة ، وإحسان في قدرة ، وتحمل في رفاقة ، وصبر في شدة ، ولا يغلبه الغضب ، ولا يجمع به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظالم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ، ولا يبذر ، ولا يسرف ، ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء .

وقيل لعبد الله بن المبارك ، أجل لنا حسن الخلق في كلمة . فقال ترك الغضب وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه ، من يتكفل لي أن لا يغضب ، فيكون معي في درجتي ، ويكون بعدى خليفة . فقال شاب من القوم ، أنا . ثم أعاد عليه ، فقال الشاب أنا أوفى به فلما مات كان في منزلته بعده ، وهو ذو الكفل . سمي به لأنه تكفل بالغضب ، ووفى به . وقال وهب ابن منبه ، للكفر أربعة أركان ، الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع

## بيان

### حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان ، بأسباب في داخل بدنه ، وأسباب خارجه عنه ، أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ، ويدفع عنه الهلاك ، إلى أجل معلوم سماه في كتابه . أما السبب الداخلى ، فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة . وتجففها ، وتبخرها ،



حتى تصير أجزاءها خازنا تتساعد منها ، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء ، يجبر ما انحل  
ويخرج من أجزائها ، لفسد الحيوان . فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان ، وخلق في الحيوان  
شهوة تبعثه على تناول الغذاء ، كالموكل به في جبر ما انكسر ، وسد ما تنلم ، ليكون ذلك  
حافظا له من الهلاك بهذا السبب

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان ، فكالسيف ، والسنان ، وسائر المهلكات  
التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه ، فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله  
طبيعة الغضب من النار ، وغرزها في الإنسان ، وعجنها بطينته ، فهما صد عن غرض من  
أغراضه ، ومقصود من مقاصده ، اشتعلت نار الغضب ، وثارت به ثوراناً يغلي به دم القلب  
وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار ، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في  
القدر . فلذلك ينصب إلى الوجه ، فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها ، تحكى لون  
ماوراءها من حمرة الدم ، كما تحكى الزجاجة لون ما فيها . وإنما ينسط الدم إذا غضب على من دونه ،  
واستشعر القدرة عليه . فإن صدر العضب على من فوقه ، وكان معه بأس من الانتقام ، تولد  
منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، وصار حزنا . ولذلك يصفر اللون . وإن كان  
الغضب على نظير يشك فيه ، تردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب  
واجتملة ففوة الغضب محلها القلب ، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام . وإنما  
تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذبات قبل وقوعها ، وإلى التشفى والانتقام بعد  
وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها ، وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة ، من التفريط ، والإفراط  
والاعتدال . أما التفريط ، فيفقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم . وهو الذي  
يقال فيه إنه لاجمية له . ولذلك قال الشافعي رحمه الله ، من استغضب فلم ينضب فهو حمار  
فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا ، فهو ناقص جدا . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي  
صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية ، فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ<sup>(١)</sup>) وقال لنبيه  
صلى الله عليه وسلم (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ<sup>(٢)</sup>) الآية . وإنما الغلظة والشدة

(١) الفتح : ٢٩ (٢) التحريم : ٩

من آثار قوة الحمية، وهو الغضب . وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة ، حتى يخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ، ولا اختياراً ، بل يصير في صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية ، وأمور اعتيادية . فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب ، حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان . ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب ، لأن الغضب من النار ، كما قال صلى الله عليه وسلم ،

« وَإِنَّمَا بُرُودَةُ الْمَزَاجِ تُطْفِئُهُ وَتُكْسِرُ سَوْرَتَهُ »

وأما الأسباب الاعتيادية ، فهو أن يخالط قومًا يتبجحون بتشفي الغيظ ، وطاعة الغضب وبسبون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم أنا الذي لأصبر على المكر والحال ولا أحتمل من أحد أمرًا ، ومعناه لا عقل في ولا حلم . ثم يذكره في معرض الفخر بجعله فن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب ، وحب التشبه بالقوم ، فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب ، وقوى اضطرابها ، أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع ، بل زاده ذلك غضبا . وإذا استضاء بنور عقله ، وراجع نفسه ، لم يقدر . إذ ينطفىء نور العقل ، وينمحي في الحال بدخان الغضب . فإن معدن الفكر الدماغ . ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ ، يستولى على معادن الفكر . وربما يتعدى إلى معادن الحس ، فتظلم عينه ، حتى لا يرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار ، فاسود جوهه ، وحى مستقره ، وامتلأ بالدخان جوانبه ، وكان فيه سراج ضعيف فانمحي ، أو انطفأ نوره ، فلا تثبت فيه قدم ، ولا يسمع فيه كلام ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغي أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق . فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب ، فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظًا ، كما تقوى النار في الكهف فينشق ، وتهد أعاليه على أسفله وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة المسككة ، الجامعة لأجزائه . فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالْحَقِيقَةُ

( ١ ) حديث النصب من النار : الترمذي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف الغضب جمره في قلب ابن آدم ولا يبي داود

من حديث عطية السعدي ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار

فالسفينة في ملتطم الأمواج ، عند اضطراب الرياح في لججة البحر ، أحسن حالا ، وأرجى سلامة ، من النفس المضطربة غيظا . إذ في السفينة من يَحْتال لتسكينها وتديبها ، وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب ، فهو صاحب السفينة ، وقد سقطت حيلته ، إذ أعماه الغضب وأصمه ومن آثار هذا الغضب في الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمّر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الحلقة . ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته ، اسكن غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته . وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن . وإنما قبحت صورة الباطن أولا ، ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فتمس الثمرة بالثمرة . فهذا أثره في الجسد وأما أثره في اللسان ، فأنطلاقه بالشتم والفتش من الكلام ، الذي يستحي منه ذو العقل ، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب . وذلك مع تخطيط النظم ، واضطراب اللفظ وأما أثره على الأعضاء ، فالضرب ، والتهمج ، والتمزيق ، والقتل ، والجرح عند التمكن من غير مبالاة . فإن هرب منه المغضوب عليه ، أو فاته بسبب ، وعجز عن التشنق ، رجع الغضب على صاحبه ، فزق ثوب نفسه ، ويلطم نفسه ، وقد يضرب يده على الأرض ، ويعدو وعدو الواله السكران ، والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعا ، لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ، ويعتريه مثل النشبة ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصة مثلا على الأرض ، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها ، ويتعاطى أفعال المجانين ، فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ، ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ، كأنه يخاطب جاهلا ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ، ويقابلها بذلك وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه ، فالخقد ، والحسد ، وإضمار السوء ، والشماتة بالمسآت ، والحزن بالسرور ، والعزم على إفشاء السر ، وهتك الستر ، والاستهزاء ، وغير ذلك من القبائح . فهذه ثمرة الغضب المفرط . وأما ثمرة الحمية الضعيفة ، فقلة الأنفة مما يؤنف منه ، من التعرض للحرم ، والزوجة ، والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس ، والقهاء ، وهو أيضا مذموم . إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم ، وهو خنوثة

قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إن سعداً لغيره وأنا أشدُّ بين سعدٍ وإن الله أعزُّ مني » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها ، وضعت الصيانة في نساءها .

ومن ضعف الغضب الخور ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « خيرٌ أمتي أحداؤها » يعني في الدين . وقال تعالى ( وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ <sup>(١)</sup> ) بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة .

ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم . وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال <sup>(٣)</sup> « خيرٌ للأُمورِ أوساطُها » . فمن مال غضبه إلى الفتور ، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضم في غير محله . فينبغي أن يعالج نفسه ، حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط ، حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش ، فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم ، وهو أرق من الشعرة ، وأحد من السيف . فإن عجز عنه ، فليطلب القرب منه قال تعالى ( وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمِئَلَّةِ <sup>(٢)</sup> ) فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ، ينبغى أن يأتي بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض ، وبعض الخير أرفع من بعض

فهذه حقيقة الغضب ودرجاته ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه ، إنه على ما يشاء قدير

(١) حديث ان سعد الغيور - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث الغيرة

• بنحوه وتقدم في النكاح

(٢) حديث خير أمتي أحداؤها: الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وزاد

الدين اذا غضبوا رجعوا

(٣) حديث خير الامور اوساطها: البيهقي في الشعب مرسلًا وقد تقدم

(١) النور : ٢ (٢) النساء : ١٢٩

## بيان

الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكفاية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد. وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج، وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير. وكلا الرأيين ضعيف. بل الحق فيه ما نذكره، وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً، فلا يخلو من النيط والغضب. وما دام يوافقه شيء، ويخالفه آخر، فلا بد من أن يحب ما يوافقه، ويكره ما يخالفه: والغضب يتبع ذلك. فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة، وإذا قصد بكمروه غضب لا محالة. إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام

الأول: ما هو ضرورة في حق الكفاية، كالقوت، والمسكن، والملبس، وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح، فلا بد وأن يغضب. وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه، أو أريق ماؤه الذي لعطشه. فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها، ومن غيظ على من يتعرض لها

القسم الثاني: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق، كالجاه، والمال الكثير، والغلمان والدواب. فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة، والجهل بتقاصد الأمور، حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكتران، ويفضب على من يسرفهما، وإن كان مستغنيا عنهما في القوت. فهذا الجنس مما يتصور أن ينقك الإنسان عن أصل النيط عليه. فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه، فهدمها ظالم، فيجوز أن لا يغضب. إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا، فيزهد في الزيادة على الحاجة، فلا يغضب بأخذها، فإنه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها، وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري، كالجاه، والصيت، والتصدر في المجالس، والمباهاة في العلم. فمن غلب هذا الحب عليه، فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل. ومن لا يحب ذلك

فلا يبالي ولو جلس في صف النعال ، فلا يفضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكارهه ، فأكثر غضبه . وكلما كانت الإيرادات والشهوات أكثر ، كان صاحبها أخط رتبة وأنقص . لأن الحاجة صفة تنقص . فهما أكثرت كثر النقص . والجاهل أبدا جبهه في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته ، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب النعم والحزن ، حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديئة ، ومخالطة قرناء السوء ، إلى أن يفضب لو قيل له إنك لا تحسن اللعب بالطيور ، واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير ، وتناول الطعام الكثير ، وما يجري مجراه من الرذائل . فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري ، لأن جبهه ليس بضروري

القسم الثالث : ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض . الكتاب مثلا في حق العالم ، لأنه مضطر إليه فيجبهه ، فيغضب على من يحرقه وينرقه . وكذلك أدوات الصناعات في حق المكتسب ، الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها . فإن ما هو وسيلة إلى الضروري والمحبوب يصير ضروريا ومحوبا . وهذا يختلف بالأشخاص . وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله <sup>(١)</sup> « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ بِمُعَايٍ فِي بَدَنِهِ وَلَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِزِّهَا » ومن كان بصيرا بحقائق الأمور ، وسلم له هذه الثلاثة ، يتصور ، أن لا يفضب في غيرها

فهذه ثلاثة أقسام ، فلنذكر غاية الرياضة في كل واحد منها

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ، ولكن لكي يقدر على أن لا يطبع الغضب ، ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستجبه الشرع ، ويستحسنه العقل . وذلك ممكن بالمجاهدة ، وتكليف الحلم والاحتمال مدة ، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا . فأما قمع أصل الغيظ من القلب ، فذلك ليس مقتضى الطبع ، وهو غير ممكن . نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه ، حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن . وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه . ولكن ذلك شديد جدا . وهذا حكم القسم الثالث أيضا

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه معافي في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها: الترمذي .

وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله بحذا فيرها قال الترمذي حسن غريب

لأن ما صار ضروريا في حق شخص ، فلا يمنعه من الفيظ استغناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به ، وتضعف هيجانه في الباطن ، حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه .  
 وأما القسم الثاني : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه ، إذ يمكن إخراج حبه من القلب . وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ، ومستقره الآخرة ، وإن الدنيا معبر يمر عليها ، ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره فيزهد في الدنيا ، ويخجو حبها عن قلبه . ولو كان للإنسان قلب لا يحبه . لا يغضب إذا ضربه غيره . فالغضب تبع للحب . فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع أصل الغضب ، وهو نادر جدا . وقد تنتهي إلى المنع من استعمال الغضب ، والعمل بموجبه ، وهو أهون .

فإن قلت: الضرورى من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب . فمن له شاة مثلا وهى قوته ، فانت ، لا يغضب على أحد ، وإن كان يحصل فيه كراهة . وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ، ولا يغضب على الفصاد والحجام . فمن غلب عليه التوحيد ، حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه . فلا يغضب على أحد من خلقه ، إذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته ، كالقلم فى يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبتة لم يغضب على القلم . فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته ، كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل ، فيندفع الغضب بغلبة التوحيد ، ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله ، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخير . وربما تكون الخير فى مرضه ، وجوعه ، وجرحه وقتله ، فلا يغضب ، كما لا يغضب على الفصاد والحجام ، لأنه يرى أن الخير فيه . فنقول هذا على هذا الوجه غير محال . ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد ، إنما تكون كالبرق الخاطف ، تغلب فى أحوال مختطفة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط ، رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه . ولو تصور ذلك على الدوام لبشر ، لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> فإنه كان يغضب

( ١ ) حديث كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه: مسلم من حديث جابر كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه وللحاكم كان اذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وقد تقدم فى أخلاق النبوة

حتى تحمر وجنتاه ، حتى قال <sup>(١)</sup> « اللهم أنا بشر أعضب كما يفضب البشر فأيتما مسلم سبته أو لعنته أو ضربته فأجعلها مني صلاة عليه وزكاة وقربه تفر به بها إليك يوم القيامة » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، <sup>(٢)</sup> يارسول الله ، أكتب عنك كل ماقلت في الغضب والرضا ، فقال « أكتب فوالذي بعثني بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . فلم يقل إني لا أعضب . ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق ، أي لأعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضي الله عنها مرة ، فقال لهارسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مالك جاءك شيطانك » فقالت ومالك شيطان ؟ قال « بلى ولكني دعوت الله فأعانتني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير » ولم يقل لاشيطان لي وأراد شيطان الغضب ، لكن قال لا يحملني على الشر . وقال علي رضي الله عنه ، <sup>(٤)</sup> كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضب الدنيا . فإذا أغضبه الحق ، لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتصر له فكان يفضب على الحق ، وإن كان غضبه الله ، فهو التفات إلى الوسائط على الجملة

بل كل من يفضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته ، التي لا بد له في دينه منها ، فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانتكاف عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري ، إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه ، فلا يكون في القلب متسع للغضب ، لاشتغاله بغيره ، فإن استفرق القلب ببعض المهمات ، يمنع الاحساس بما عداه ، وهذا كما أن سامان لما شتم قال ، إن خفت موازيتي فأنا شر مما تقول ، وإن ثقلت موازيتي لم يضرنني ما تقول فقد كان همه مصروفاً إلى الآخرة ، فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال با هذا ، قد سمع الله كلامك ، وإن دون الجنة عقبة ، إن قطعها لم يضرنني ما تقول ،

(١) حديث اللهم أنا بشر أعضب كما يفضب البشر - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أعضب كما يفضب البشر وقال جلده بدل ضربته وفي رواية اللهم أنا محمد بشر يفضب كما يفضب البشر وأصله متفق عليه وتقدم . ومسلم من حديث أنس أنما أنا بشر أرضي كما يرضى البشر وأعضب كما يفضب البشر ولأبي يعلى من حديث أبي سعيد أوضربه

(٢) حديث عبد الله بن عمرو يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت في الغضب والرضا قال أكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق وأشار إلى لسانه : أبو داود بنحوه

(٣) حديث غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك - الحديث : مسلم من حديث عائشة

(٤) حديث علي كان لا يفضب الدنيا - الحديث : الترمذي في الشرائع وقد تقدم



وإن لم أقطعها فإنا شر مما تقول ، وسب رجل أبا بكر رضى الله عنه ، فقال ماستر الله عنك أكثر . فكأنه كان مشغولاً بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ، ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان . وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار ، يا مراثنى . فقال ما عرفنى غيرك . فكأنه كان مشغولاً بأن ينقى عن نفسه آفة الرياء ، ومنكرا على نفسه ما يلقى الشيطان إليه ، فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال ، إن كنت صادقاً فغفر الله لى ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك فهذه الأقاويل دالة فى الظاهر على أنهم لم يغضبوا ، لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم . ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ، ولكنهم لم يشتغلوا به ، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم . فإذا اشتغال القلب ببعض المهمات ، لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند قوات بعض المحاب . فإذا يتصور فقد النفيظ : إما باشتغال القلب بهم : أو بغلبة نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث ، وهو أن يعلم أن الله يجب منه أن لا يعتاظ ، فيطنىء شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال فى أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب ، وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها ، كما سيأتى فى كتاب ذم الدنيا . ومن أخرج حب المزاي عن القلب ، تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه ، يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ، ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه ، إنه على كل شىء قدير ، والحمد لله وحده .

## بيان

### الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها ، وإزالة أسبابها . فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام . أى شىء أشد؟ قال غضب الله . قال فابقر ب من غضب الله؟ قال أن تغضب ، قال فما يبدى الغضب وما ينبته؟ قال عيسى الكبر ، والفخر ، والتعزز ، والحمية والأسباب المهيجة للغضب : هى الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزاء والتعبير والمارة . والمضادة ، والفدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهى بأجمعها أخلاق

رديئة مذمومة شرعا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلا يد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها . فينبغي أن تمت الزهو بالتواضع ، وتمت العجب بمعرفتك بنفسك ، كما سيأتى بيانه في كتاب الكبر والعجب ، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد ، وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتا ، فبنو آدم جنس واحد ، وإنما الفخر بالفضائل ، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل ، وهى أصلها ورأسها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك . فلم تقتخر وأنت من جنس عبدك ، من حيث البنية والنسب ، والأعضاء الظاهرة والباطنة

وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية ، التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزاء فتزيله بالتكريم عن إيذاء الناس ، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعبير فبالحذر عن القول القبيح ، وصيانة النفس عن مر الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة ، طلبا لمز الاستغناء ، وترفها عن ذل الحاجة . وكل خلق من هذه الأخلاق ، وصفة من هذه الصفات ، يقتدر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة . وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبورها . ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة ، حتى تصير بالمعادة مألوفا هيئة على النفس . فإذا انمحت عن النفس ، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال ، تسميتهم الغضب شجاعة ، ورجولية ، وعزة نفس ، وكبرهمة ، وتلقيبه بالألقاب المحموده ، غباوة وجهلا ، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأ كذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر ، فى معرض المدح بالشجاعة . والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهبغ الغضب إلى القلب بسببه . وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل ، بل هو مرض قلب ، ونقصان عقل ، وهو لضعف النفس ونقصانها . وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح ، والمرأة أسرع غضبا من الرجل ، والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا

من صاحب الفضائل . فالرذل بفضب لشهوته إذا فانه الائمة ، وابخاه إذا فانه الحبة ، حتى أنه يفضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » بل ينبى أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحس منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء ، والحكماء والعلماء ، وأكابر الملوك الفضلاء و ضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك ؟ والجهلة والأغبياء ، الذين لا عقول لهم ، ولا فضل فيهم

## بيان

### علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب ؛ وقطع لأسبابه حتى لا يهيج . فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبيت ، حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم . وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمجمون العلم والعمل . أما العلم فهو ستة أمور الأول : أن يتفكر في الأخبار التي سنورهاها ، في فضل كظم الغيظ . والعفو ، والحلم ، والاحتمال ، فيرغب في ثوابه ، فتمننه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التنسي والانتقام وينطقى عنه غيظه . قال مالك بن أوس بن الحدثان ، غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين ( خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ <sup>(١)</sup> ) فكان عمر يقول ( خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ <sup>(٢)</sup> ) فكان يتأمل في الآية ، وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلى عليه ، كشر التدبر فيه ، فتدبر فيه ، وخلي الرجل . وأمر عمر ابن عبد العزيز بضرب رجل ، ثم قرأ قوله تعالى ( وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ <sup>(٣)</sup> ) فقال لنلامه خل عنه الثاني : أن يخوف نفسه بعقاب الله ، وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبى عليه ، لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو ، فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة ، يا ابن آدم ، أذكرنى حين

( ١ ) حديث ليس الشديد بالصرعة تقدم قلبه

(١) و(٢) الاعراف : ١٩٩ (٢) آل عمران : ١٣٤

تغضب ، أذكر له حين أغضب ، فلما أشتك فيمن أشتك . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيحا إلى حاجة ، فأبطأ عليه ، فلما جاء قال <sup>(١)</sup> « لَوْلَا الْقِصَاصُ لَأَوْجَعْتُكَ » أي القصاص في القيامة . وقيل ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها أرحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمر العدو لمقابلته ، والسعي في هدم أغراضه ، والشهامة بمصائبه ، وهو لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا ، إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب ، وليس هذا من أعمال الآخرة ، ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة ، يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل ، وما يعينه على الآخرة ، فيكون مثابا عليه

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري ، والسبع العادي ، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب ، للأنبياء والأولياء ، والعلماء والحكماء ، ويخبر نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عاداتهم لتمثيل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء ، إن كان قد بقي معه مسكة من عقل

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعو إلى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وأن يكون له سبب . مثل قول الشيطان له ، إن هذا يحمل منك على العجز ، وصغر النفس والدلة ، والمهانة ، وتصير حقيرا في أعين الناس . فيقول لنفسه ، ما أعجبتك ! تأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح ، إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منه ! وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبين ! فهما كظم الغيظ . فينبغي أن يكظمه الله ، وذلك يعظمه عند الله فإله وللناس ، وذلك من ظلمه يوم القيامة أشد من ذل لو انتقم الآن . أفلا يجب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة ليقيم من أجره على الله . فلا يقوم إلا من عفا . فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغى أن يقرره على قلبه .

( ١ ) حديث لولا القصاص لأوجعتك ؛ أبو يعلى من حديث أم سنانة بسنده ضعيف

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله ، لا على وفق مراده. فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله؟ وبوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه وأما العمل ، فإن تقول بلسانك أعود بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> أن يقال عند الغيظ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> إذا غضبت عائشة ، أخذ بأنفها وقال : يَا عُوَيْشُ قُولِي لِلَّهِمَّ رَبِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَأَذِيبْ غَيْظَ قَلْبِي وَأَجِرْنِي مِنْ مُضْلَلَاتِ الْفِتَنِ » فيستحب أن تقول ذلك

فإن لم يزل بذلك ، فاجلس إن كنت قائماً ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التي منها خلقت ، لتعرف بذلك ذل نفسك . واطلب بالجاوس والاضطجاع السكون ، فإن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوَقَدُ فِي الْقَلْبِ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الثِّفَاحِ أَوْ دَاجِيهِ وَحُمْرَةِ عَيْنَيْهِ ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ قَائِمًا فَلْيَجْلِسْ وَإِنْ كَانَ جَالِسًا فَلْيَمْ »

فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن الناز لا يطفئها إلا الماء فقهة قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ بِمَاءٍ فَإِنَّمَا الْغَضَبُ مِنَ النَّارِ » وفي رواية « إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ »

( ١ ) حديث الامر بالتموذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ: متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانفخت أوداجه - الحديث : وفيه لوقال أعود بالله من الشيطان الرجيم لانه عنه ما يجهه فقالوا له ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تموذ بالله من الشيطان الرجيم - الحديث :

( ٢ ) حديث كان اذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي - الحديث : ابن السني في اليوم والليلة من حديثها وتقدم في الأذكار والتهنئات

( ٣ ) حديث ان الغضب جمرة توقد في القلب - الحديث : الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله توقد وقد ستم وزواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب

( ٤ ) حديث اذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد - الحديث : أبو داود ومن حديث عطية السعدي دون قوله بالماء البارد وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها للمصنف وقد تقدم

بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ» وقال ابن عباس<sup>(١)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 « إِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ » وقال أبو هريرة<sup>(٢)</sup> ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا  
 غضب وهو قائم جالس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب غضبه . وقال أبو سعيد  
 الخدري ، قال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ أَلَّا  
 تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةٍ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أَوْ دَاجِهِ قَنَّ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَلْصِقْ خَدَّهُ بِالْأَرْضِ ،  
 وكان هذا إشارة إلى السجود ، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب  
 لتستشعر به النفس الذل ، وترايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب

وروى أن عمر غضب يوماً؛ فدعا بعماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان، وهذا  
 يذهب الغضب . وقال عروة بن محمد ، لما استعملت على اليمن ، قال لي أبي ، أوليت ؟ قلت  
 نعم . قال فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك ، وإلى الأرض تحتك ، ثم عظم خالقهما  
 وروى أن أباذر قال لرجل يا ابن الحمراء ؛ في خصومة بينهما . فبلغ ذلك رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ، فقال<sup>(٤)</sup> « يَا أَبَا ذَرٍّ بَلَّغْنِي أَنَّكَ الْيَوْمَ عَيَّرْتَ أَخَاكَ بِأُمَّهِ »  
 فقال نعم . فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه ، فذكر ذلك لرسول الله

( ١ ) حديث ابن عباس اذا غضبت فاسكت : احمد وابن ابى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقى فى شعب

الايمن وفيه ليث بن ابي سليم

( ٢ ) حديث ابي هريرة كان اذا غضب وهو قائم جلس وادا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه

ابى ابى الدنيا وفيه من لم يسم ولا احمد باسناد جيد فى اثناء حديث فيه وكان ابو ذر قائما جلس

ثم اضطجع فقبل له لم تجلس ثم اضطجعت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا اذا غضب

احدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والاضطجع والرفوع عند ابي داود وفيه

عنده اضطجع سقط منه ابو الاسود

( ٣ ) حديث ابي سعيد انا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم - الحديث : الترمذى وقال حسن

( ٤ ) حديث ابي ذر انا قال لرجل يا ابنا الحمراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم - الحديث :

وفيه فقال يا اباذر ارفع رأسك فانظر . - الحديث : وفيه ثم قال اذا غضبت الى آخره ابن ابى الدنيا

فى العفو ودم الغضب باسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال كان بينى وبين رجل من اخوانى

كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا اباذر إنك

إمرؤ فيك جاهلية ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمرو ولا أسود

الآن فضله بتقوى ورجاله ثقات

صلى الله عليه وسلم فقال « يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانظُرْ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ لَسْتَ بِأَفْضَلَ مِنْ  
أَحْمَرَ فِيهَا وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلُهُ بِعَمَلٍ » ثم قال « إِذَا غَضِبْتَ فَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فَاقْمُدْ  
وَإِنْ كُنْتَ قَاعِدًا فَانْكَبْ وَإِنْ كُنْتَ مُتَكِنًا فَانطَجِعْ »

وقال المعتز بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم ، يغضب فيشتد غضبه . فكتب ثلاث  
صحائف ، وأعطى كل صحيفة رجلا . وقال للأول . إذا غضبت فأعطني هذه . وقال للثاني  
إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه . وقال للثالث . إذا ذهب غضبي فأعطني هذه . فاشتد  
غضبه يوما ، فأعطى الصحيفة الأولى ، فإذا فيها ، ما أنت وهذا الغضب ، إنك لست بالله  
إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا . فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية ، فإذا  
فيها ، ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء . فأعطى الثالثة ، فإذا فيها ، خذ الناس بحق  
الله ، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك . أى لا تعطل الحدود . وغضب المهدي على رجل ، فقال  
شبيب لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال خلوا سبيله

## فضيلة

### كظم الغيظ

قال الله تعالى ( وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ <sup>(١)</sup> ) وذكر ذلك في معرض المدح ، وقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ وَمَنْ اعْتَذَرَ إِلَى رَبِّهِ قَبِلَ  
اللَّهُ عُذْرَهُ وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « أَشَدُّكُمْ  
مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَأَحْلَمَكُمْ مَنْ عَفَا عِنْدَ الْقُدْرَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم

### ﴿ فضيلة كظم الغيظ ﴾

( ١ ) حديث من كف غضبه كف الله عنه عذابه - الحديث : الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظه  
من حديث أنس بإسناد ضعيف ولا بن أبي الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وقاه الله عذابه  
- الحديث : وقد تقدم في آفات اللسان

( ٢ ) حديث أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة : ابن أبي الدنيا من حديث علي  
بسند ضعيف والبيهقي في الشعب بالشرط الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلًا بإسناد  
جيد وللبرار والطبراني في مكارم الأخلاق واللفظه من حديث أشدكم أملككم لنفسه عنه  
الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه

(١) « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُخْصِيَهُ لِأَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا » وفي رواية « مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا » وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « مَا جَرَعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَكْثَمَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى » وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، (٣) قال صلى الله عليه وسلم « إِنْ لَجَّهْمَ بَابًا لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ شَقِيَ غَيْظَهُ مَعْصِيَةَ اللَّهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ وَمَا كَظَمَهَا عَبْدٌ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤْسِ الْخَلَائِقِ وَ يُخَيِّرُهُ مِنْ أَى الْحُورِ شَاءَ »

الآثار: قال عمر رضي الله عنه . من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه . يا بني ، لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك . وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شرا كثير ، واجتمع سفيان الثوري ، وأبو خزينة اليربوعي ، والفضيل ابن عياض ، فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضي الله عنه ، والله ما تقضى بالعدل ، ولا تعطى الجزل . فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه ، فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، ألا تسمع أن الله تعالى

- (١) حديث من كظم غيظا ولو شاء أن يخصيه أمضاه ملاء الله قلبه يوم القيامة رضا وفي رواية أمنا وإيمانا ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبوداود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ورواها ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم
- (٢) حديث ابن عمر ماجرع رجل جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله: ابن ماجه
- (٣) حديث ابن عباس إن لجهنم بابا لا يدخل منه الا من شق غيظه بمعصية الله: تقدم في آفات اللسان
- (٤) حديث مامن جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملاء الله قلبه . إيمانا: ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلف من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذي لم يسم وقد تقدم
- (٥) حديث من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء: تقدم في آفات اللسان



يقول . ( خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْجَاهِلِينَ <sup>(١)</sup> ) فهذا من الجاهلين . فقال عمر صدقت . فكأنما كانت نارا فأطفئت . وقال محمد بن كعب . ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاه في الباطل ، وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجاء رجل إلى سلمان ، فقال يا عبد الله أوصني . قال : لا تغضب ، قال لا أقدر . قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

## بيان

### فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم ، أي تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة . ولكن إذا تعود ذلك ، مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ . وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلانه ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداءه التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْتَّحْلُمِ وَالْحِلْمُ بِالْتَّحْلُمِ وَمَنْ يَتَّخِرَ الْخَيْرَ يُنْقِطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ » وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقته التحلم أولا وتكلفه ، كما أن اكتساب العلم طريقته التعلم وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « اَطْلُبُوا الْعِلْمَ وَأَطْلُبُوا مَعَ الْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ لِيُنْوَ الْإِيمَانُ نُعْمَانًا وَلِيَنْ تَعْلَمُونَ مِنْهُ وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ حِلْمَكُمْ » وأشار بهذا إلى أن التكبر والتعجب ، هو الذي يهيج

### ( فضيلة الحلم )

( ١ ) حديث إنما العلم بالتعلم والحلم بالنحلم - الحديث : الطبراني والدارقطني في العلل من حديث أبي الررداء بسند ضعيف

( ٢ ) حديث أبي هريرة اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم - الحديث : ابن السني في رياضة المعلمين بسند ضعيف

الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْعِلْمِ وَزَيِّنِي بِالْحِلْمِ ، وَأَكْرِمْنِي بِالتَّقْوَى وَجَمِّلْنِي بِالْمَأْفِيَةِ » وقال أبو هريرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « ابْتَغُوا الرِّقْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ » قالوا وما هي يا رسول الله ؟ قال « تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَحْلُمُ عَمَّنْ جَهَلَ عَلَيْكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « خَمْسٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ الْحَيَاءُ وَالْحِلْمُ وَالْحِجَامَةُ وَالسُّوَالُكَ وَالنَّعْطُ » وقال على كرم الله وجهه ، <sup>(٤)</sup> قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ لَيُذْرِكُ بِالْحِلْمِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَإِنَّهُ لَيَكْتَبُ جِبَارًا عَنِيدًا وَلَا يَمْلِكُ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِهِ » وقال أبو هريرة ، <sup>(٥)</sup> إن رجلا قال يا رسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيثون إلي ، ويجهلون علي وأحلم عنهم . قال « إِنَّ كَانَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسْفَهُمُ الْمُلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » الملل يعني به الرمل .

<sup>(٦)</sup> وقال رجل من المسلمين ، اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأصاب رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة . فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أني قد غفرت له

( ١ ) حديث كان من دعائه اللهم اغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملي بالعافية: لم أجد له أصلا

( ٢ ) حديث ابتغوا الرقعة عند الله قالوا وما هي قال تصل من قطعك - الحديث : الحاكم والبيهقي وقد تقدم

( ٣ ) حديث خمس من سنن المرسلين العلم والحياء والسواك والنعطر: أبو بكر بن أبي عاصم في الثاني والآحاد والترمذي الحكيم في نوادر الاصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن

جده وللترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح

( ٤ ) حديث على ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم - الحديث : الطبراني في الأوسط بسند ضعيف

( ٥ ) حديث أبي هريرة ان رجلا قال يا رسول الله ان لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيثون

الي ويجهلون علي وأحلم عنهم - الحديث رواه مسلم

( ٦ ) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأصاب رجل أصاب من عرضي شيئا

فهو صدقة عليه - الحديث : أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد

ابن أبي عيسى بن جبر عن ابيه عن جده بإسنادين زاد البيهقي عن علي بن زيد وعليه هو

الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث . وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب انه رواه ابن عيينة

عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه

أبا ضمضم قلت وليس بابي ضمضم انما هو علي بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم

• تسفههم الملل : يعني تجعل وجوههم كلون الرماد

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمَّضِمٌ؟ » قالوا وما أبو ضمضم؟ قال « رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ إِذَا أَصْبَحَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي تَسَدَّدْتُ الْيَوْمَ بِعِرْضِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي » . وقيل في قوله تعالى ( رَبَّائِينَ <sup>(٢)</sup> ) أى حملاء علماء .

وعن الحسن في قوله تعالى ( وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا <sup>(٣)</sup> ) قال حملاء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبي رباح ( يَعْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا <sup>(٤)</sup> ) أى حملاء . وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل ( وَكَلَّأَ <sup>(٥)</sup> ) قال الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد ( وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا <sup>(٦)</sup> ) أى إذا أوذوا صفحوا <sup>(٧)</sup> . وروى أن ابن مسعود مر بلغو ممرضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَصْبَحَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَمْسَى كَرِيمًا » ثم تلا إبراهيم ابن ميسرة ، وهو الرواية ، قوله تعالى ( وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا <sup>(٨)</sup> ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٩)</sup> « اللَّهُمَّ لَا يَدْرِكُنِي وَلَا أَدْرِكُهُ زَمَانٌ لَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ الْعَلِيمَ وَلَا يَسْتَحْيُونَ فِيهِ مِنَ الْجَلِيمِ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْعَجَمِ وَالسِّنْدُ مِنْ أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١٠)</sup> « لَيْلِي مِثْلِي مِنْكُمْ ذُرُوءُ الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيُ مِثْلُ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ » . وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج ، فأباح راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه السلام <sup>(١١)</sup> « إِنَّ فِيكَ يَا أَشْجُ خَلْقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ »

( ١ ) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كابي ضمضم - الحديث : تقدم في آفات اللسان .

( ٢ ) حديث ابن مسعود مر بلغو ممرضاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً ابن المبارك في البر والصلة

( ٣ ) حديث اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الجليم - الحديث : أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف

( ٤ ) حديث ليلتي منكم أولوا الأحلام والنهى - الحديث : مسلم من حديث ابن مسعود قوله ولا تخلفوا فتختلف قلوبكم فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود

( ٥ ) حديث يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة - الحديث : حقه عليه

(١) آل عمران : ٧٩ ، (٢) الفرقان : ٦٣ ، (٣) آل عمران : ٤٦ ، (٤) الفرقان : ٧٧

قال ماها بآبي أنت وأمي يارسول الله؟ قال « الْحَلْمُ وَالْأَنَاةُ » فقال خلتان تخلفتهما أو خلقان جبلت عليهما؟ فقال « بَلْ خُلُقَانِ جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يجبهما الله ورسوله . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَلِيمَ الْحَمِيَّ ، أَلْتَعْنِي أَلْتَعَفُّ أَبَا أَلْيَالِ النَّقِيِّ وَيَنْغِضُ الْفَاحِشَ الْبِدِيَّ السَّائِلَ الْمَلْحِفَ أَلْتَعْنِي »

وقال ابن عباس ، <sup>(٢)</sup> قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلَا تَمْتَدُّوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ تَقْوَى تَحْجُزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحِلْمٌ يَكْفِي بِهِ السَّقِيَّةَ وَخُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرٌ فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَتَلْقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ لَهُمْ إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ نَحْنُ أَهْلُ الْفَضْلِ فَيَقُولُونَ لَهُمْ مَا كَانَ فَضْلُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا ظَلَمْنَا صَبْرًا وَإِذَا أُسِيءَ إِلَيْنَا عَفْوًا وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حُمْنًا فَيَقَالُ لَهُمْ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ »

الآثار: قال عمر رضي الله عنه . تعلموا العلم ، وتعلموا العلم السكينة والحلم . وقال علي رضي الله عنه . ليس الخير إن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حاكمك وأن لا تباهي الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى ، وقال الحسن اطلبوا العلم ، وزينوه بالوقار والحلم . وقال إكثم بن صيفي : دعامة العقل الحلم ، وجماع الأمر الصبر . وقال ابو الدرداء : أدركت الناس ورقا لاشوك فيه ، فأصبحوا شوكا لا ورق فيه ، إن عرفتهم نقسوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . قالوا كيف نصنع ؟ قال تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك . وقال علي رضي الله عنه : إن أول ما عوض الحليم من حلمه ، أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى ، لا يبلغ العبد مبلغ الرأى ،

(١) حديث ان الله يحب الحليم النقي المتعفف - الحديث : الطبراني من حديث سعد أن الله

يحب العبد النقي النقي الحفي

(٢) حديث ابن عباس ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعدن بشيء من عمله أبو نعيم في كتاب الإيجاز

بإسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بإسنادين وقد هدم في آداب الصحبة

(٣) حديث اذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس - الحديث : وفيه اذا جهل علينا حلنا

اليهني في شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال البيهقي في إسناده ضعفه

حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته . ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم . وقال معاوية لعمر و ابن الأهم ، أى الرجال أشجع ؟ قال من رده جهله بحلمه . قال أى الرجال أسخى قال من بذل ديناه لصالح دينه . وقال أنس بن مالك ، فى قوله تعالى ( فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ <sup>(١)</sup> ) إلى قوله ( عَظِيمٌ <sup>(٢)</sup> ) هو الرجل يشتمه أخوه ، فيقول إن كنت كاذبا فغفر الله لك ، وإن كنت صادقا فغفر الله لى .

وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة ، فحلم على ، فاستعبدنى بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس ، بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال يا أمير المؤمنين ، كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطى سائلهم ، وأسمى فى حوائجهم . فمن فعل فى قومى فهو مثلى ، ومن جاوزنى فهو أفضل منى ، ومن قصر عنى فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضى الله عنها ، فلما فرغ ، قال يا عكرمة ، هل للرجل حاجة فنقضها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز ، أشهد أنك من الفاسقين . فقال ليس تقبل شهادتك .

وعن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم ، أنه سبه رجل ، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم ، جمع له خمس خصال محمودة ، الحلم ، وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل ، وحمته على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى مدح بعد الذم . اشترى جميع ذلك بشىء من الدنيا يسير . وقال رجل لجعفر بن محمد ، إنه قد وقع بينى وبين قوم منازعة فى أمر ، وإنى أريد أن أتركه ، فأخبنى أن يقال لى إن تركك له ذل . فقال جعفر : إنما الدليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد ، كان يقال من أساء فأحسن إليه ، فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته . وقال الأحنف بن قيس ، لست بحليم ، ولكننى أتحملم . وقال وهب بن منبه ، من برحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يغلب ، ومن يعجل يحظى ، ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المرء يشتم ، ومن لا يكره الشرايئم ، ومن يكره الشر يعصم ، ومن يتبع وصية الله يحفظ ، ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله ينج ، ومن لا يسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله

يخذل ، ومن يستمن بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار ، بأفنى أنك ذكرتني بسوء  
قال أنت إذا أكرم على من نفسي . إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي . وقال بعض  
العلماء ، الحلم أرفع من العقل ، لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء ، والله  
لأسينك سباً يدخل معاك في قبرك ، فقال معك يدخل لأمي . ومرة المسيح بن مريم عليه الصلاة  
والسلام يقوم من اليهود ، فقالوا له شراء فقال لهم خيراً . فقيل له إنهم يقولون شراء ، وأنت تقول خيراً  
فقال كل ينفق مما عنده . وقال لقمان ، ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة ، لا يعرف الحليم  
إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه

ودخل على بعض الحكماء صديق له ، فقدم إليه طعاماً ، فخرجت امرأة الحكيم ، وكانت  
سيدة اللقي ، فرفعت المائدة ، وأقبلت على شتم الحكيم . فخرج الصديق مغضباً . فتنبه  
الحكيم وتأن له ، تذكرك يوم كنا في منزلك نطعم ، فسقطت دجاجة على المائدة ، فأفسدت  
ما حلينا إياهم ينضب أحد منا . قال نعم . قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة . فسرى  
عن الرجل غضبه وانصرف ، وقال صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجلاً  
قدم حكيماً وأوجعه ، فلم ينسب . فقيل له في ذلك . فقال أفتة مقام حجر تعزرت به . فذبحت الغضب  
وتأله نمرود الوراق

والألم نفسي الصريح عن كل مذنب	وإن كثرت منه على الجرائم
وبالناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ومشروف ومثل مقاوم
ثنا نقي فوقه فأعرف فاره	وأبغ فيه الحق والحق لازم
وأنا الذي دوني إن قال صنت عن	إجابته عرضي وإن لام لائم
وأنا الذي . على نيات زل أوهفا	تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

## بيان

القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

بما أن الظلم . نذر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله . فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة  
والمؤامرات بالحسد ، ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصي وإنما القصاص  
والإدانة على قدر ما ورد الشرع به ، وقد فصلناه في الفقه . وأما السب فلا يقابل بمثله ،

إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنْ امْرُؤٌ عَيْرَكَ بِنَا فِيكَ فَلَا تُمَيِّرُهُ بِنَا فِيهِ »  
وقال « الْمُسْتَبَانَ مَا قَالَا فَوَوْ عَلَى الْبَادِيءِ مَا لَمْ يَتَّعِدِ الْمَظْلُومُ » وقال <sup>(٢)</sup> « الْمُسْتَبَانَ  
شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ » وشتم رجل <sup>(٣)</sup> أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو ساكت ، فلما  
ابتدأ ينتصر منه ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل أبو بكر ، إنك كنت ساكتا  
لما شتمني فلما تكلمت قمت ؟ قال « لِأَنَّ الْمَلِكَ كَانَ يُحِبُّ عَنْكَ فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ ذَهَبَ الْمَلِكُ  
وَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسِ فِي مَجْلِسِ فِيهِ الشَّيْطَانُ »

وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ، وإعماهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن  
مقابلة التعبير بمثله نهى تنزيهه ، والأفضل تركه ، ولكنه لا يعصى به . والذي يرخص فيه ،  
أن تقول من أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود ، وهل أنت  
إلا من بنى هذيل ؟ وقال ابن مسعود وهل أنت إلا من بنى أمية ؟ ومثل قوله يأحمق .  
قال مطرف ، كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه ، إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض  
وقال ابن عمر <sup>(٤)</sup> في حديث طويل ، حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى  
وكذلك قوله يا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل ، فقد آذاه بما ليس بكذب  
وكذلك قوله ياسيء الخلق ، ياصفيق الوجه ، يانلابا للأعراض ، وكان ذلك فيه .  
وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، وأخزأك  
الله وانتقم منك . فإنا البيمة ، والغيبة ، والكذب ، وسب الوالدين ، فحرام بالاتفاق  
لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالدًا عند سعد ، فقال سعد  
منه ، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا . يعنى أن يأثم بعضنا في بعض . فلم يسمع السوء ، فكيف  
يجوز له أن يقوله . . والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام ، كالنسبة إلى الزنا

( ١ ) حديث إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه : أحمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم

( ٢ ) حديث المستبان شيطانان يتهاتران : تقدم

( ٣ ) حديث شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتداء ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم  
- الحديث : أبو داود من حديث أبي هريرة موصلا ومرسلا قال البخاري المرسل أصح

( ٤ ) حديث ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كأنهم حمقى في ذات الله عز وجل : تقدم في العلم

والفحش والسب ، ما روت عائشة رضی الله عنها ؛ <sup>(١)</sup> أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت يا رسول الله ؛ أرسلني إليك أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم ، فقال « يَا بِنْتَهُ أَحْبَبِينَ مَا أَحَبُّ ؟ » قالت نعم . قال « فَأَجِبِي هَذِهِ » فرجعت إليهن ، فأخبرتهن بذلك ، فقلن ما أغنيت عنا شيئاً . فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت وهي التي كانت تساميني في الحب ، فجاءت فقالت ، بنت أبي بكر ، وبنت أبي بكر ، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة ، أتتظن أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب ، فأذن لي . فسببتها حتى جف لساني . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كَلَّا إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ » يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط . وقولها سببتها ليس المراد به الفحش ، بل هو الجواب عن كلامها بالحق ، ومقابلتها بالصدق

وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْمُسْتَبَانَ مَا قَالَا فَقَلَى الْبَادِيءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَتَعَدَّى الْمَظْلُومُ » فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدى . فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء ، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ، ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجره إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن أصل الجواب ، لعله أيسر من الشروع في الجواب ، والوقوف على حد الشرع فيه . ولكن من الناس من لا يتقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ؛ ولكن يعود سريعاً ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام والناس في الغضب أربعة ، فبعضهم كالحلفاء ، سريع الوقود سريع الخمود . وبعضهم كالغضا ، بطيء الوقود بطيء الخمود ، وهذا هو بطيء الوقود سريع الخمود ، وهو الأحمق ، ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة . وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وهذا هو شرهم . وفي الخبر <sup>(٣)</sup> « الْمُؤْمِنُ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الرَّضَا » فهذا بتلك . وقال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان .

( ١ ) حديث عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت يا رسول الله أرسلني أزواجك

يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة - الحديث : رواه مسلم

( ٢ ) حديث المستبان ما قالا وعلى البادية - الحديث : رواه مسلم وقد تقدم

( ٣ ) حديث المزني سريع الغضب سريع الرضى : تقدم



وقد قال أبو سعيد الخدري<sup>(١)</sup>، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى فَمِنْهُمْ بَطِيءٌ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْغَيْءِ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْغَيْءِ، فَتِلْكَ بَيْنَكَ وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْغَيْءِ، أَلَا وَإِنَّ خَيْرَهُمُ الْبَطِيءُ الْغَضَبِ السَّرِيعُ الْغَيْءِ وَشَرَّهُمُ السَّرِيعُ الْغَضَبِ الْبَطِيءُ الْغَيْءِ »

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان، وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظا عليه، فيكون متشعبا لغيظه، ومريحا نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحب حظ. فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه. ورأى عمر رضی الله عنه سكران : فأراد أن يأخذه ويمزره، فشتمه السكران . فرجع عمر . فقيل له يا أمير المؤمنين ، لما شتمك تركته ؟ قال لأنه أغضبني ولو عززته لكان ذلك لغضبي لنفسى ، ولم أحب أن أضرب مساما حمية لنفسى . وقال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه ، لو لا أنك أغضبتى لما قببتك

## القول

في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه ، فصار حقدًا . ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استئقاله ، والبغضة له ، والنفاق عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى . وقد قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقَّودٍ » فالْحَقْدُ تَمَرَّةُ الْغَضَبِ وَالْحَقْدُ يَمُرُّ ثَمَانِيَةَ أَمْوَرٍ : الأول : الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عنه ، فتغتم بنعمة إن أصابها ، وتسر بمصيبة إن نزلت به . وهذا من فعل المنافقين ، وسيأتي ذمهم إن شاء الله تعالى الثاني : أن تريد على إضرار الحسد في الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء الثالث . أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه ؛ وإن طلبك وأقبل عليك

( ١ ) حديث أبي سعيد الخدري ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات - الحديث : نفهم

( ٢ ) حديث المؤمن ليس بحقدود : تقدم في العلم

الرابع : وهو دونه ، أن تعرض عنه استصغاراله  
الخامس : أن تتكلم فيه بما لا يحل ، من كذب ، وغيبة ، وإفشاء سر ، وهتك ستر ، وغيره  
السادس : أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه  
السابع : إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه  
الثامن : أن تمنه حقه من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظامة ، وكل ذلك حرام  
وأقل درجات الحقد أن تحتز من الآفات الثمانية المذكورة ، ولا تخرج بسبب الحقد  
إلى ما تعصى الله به ، ولكن تستثقله في الباطن ، ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع  
عما كنت تطوع به من البشاشة ، والرفق ، والعناية ، والقيام بحاجاته ، والمجالسة معه على  
ذكر الله تعالى ، والمعاونة على المنفعة له . أو تبرك الدعاء له ، والثناء عليه ، أو التحريض على بره  
ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ، ويحول بينك وبين فضل عظيم ، وثواب  
جزيل . وإن كان لا يعرضك لعقاب الله <sup>(١)</sup> . ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق  
على مسطح ، وكان قريبه ، لكونه تكلم في واقعة الإفك ، نزل قوله تعالى ( وَلَا يَأْتَلِ  
أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ <sup>(١)</sup> ) إلى قوله ( أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ <sup>(٢)</sup> ) فقال أبو بكر  
نعم نحب ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه . والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه  
أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس ، وارتغاما للشيطان ، فذلك مقام الصديقين ، وهو من  
فضائل أعمال المقربين . فالله يحقود ثلاثة أحوال عند القدرة

أحدهما . أن يستوفي حقه الذي يستحقه ، من غير زيادة ونقصان وهو العدل

الثاني : أن يحسن إليه بالمعروف والصلة ، وذلك هو الفضل .

الثالث . أن يظلمه بما لا يستحقه ، وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني  
هو اختيار الصديقين ، والأول هو منتهى درجات الصالحين ، ولذا ذكر الآن فضيلة المعروف والإحسان

(١) حديث الحلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح بل قوله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الآية : مسموع

عليه من حديث عائشة

(١) و (٢) البور : ٢٢

## فضيلة

### الغفو والإحسان

اعلم أن معنى الغفو أن يستحق حقاً ، فيسقطه ويبريء عنه ، من فصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه ، قال الله تعالى ( خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ <sup>(١)</sup> ) وقال الله تعالى ( وَأَنْ تَعْمُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى <sup>(٢)</sup> )

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ثَلَاثٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كُنْتُ جَلَاظًا خَلَفْتُ عَلَيْهِنَّ مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا وَلَا عَفَارِجُلُ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَنْتَهِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ قَعْرِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « التَّوَاضُّعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمْ اللَّهُ وَالْعَفْوُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عِزًّا فَاعْفُوا يُعِزَّكُمْ اللَّهُ وَالصَّدَقَةُ لَا تَزِيدُ أَمْوَالَ الْإِنْسَانِ إِلَّا كَثْرَةً فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ » . وقالت عائشة رضيت الله عنها <sup>(٣)</sup> « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ، ما لم ينتهك من محارم الله . فإذا انتهك من محارم الله شيء ، كان أشدَّهم في ذلك غضبا . وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إتاما . وقال عقبة ، لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فأبتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذيدي . فقال <sup>(٤)</sup> « يَا عَقْبَةُ أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث ثلاث والذي نفسى بيده ان كنت حالنا لكانت عليهن ما نقصت صدقة من مال - الحديث :

الترمذى من حديث أبي كبشة الأنبارى ومسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله - الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور

الديلمى في مستند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط - الحديث :

الترمذى في الثبائلى وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم

(٤) حديث عقبة بن عامر لعقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك - الحديث

ابن ابى الدنيا والطبرانى في معارج الأهل والأحلاق والبيهقى في المشبه بأسناد ضعيف وقد تقدم

(١) « قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ عَلَيْكَ ؟ قَالَ الَّذِي إِذَا قَدَرَ عَفَا » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس ، قال الذي يعفو إذا قدر ، فاعفوا يعزكم الله وحاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس ، وأراد أن يأخذه عظمته . فقال له صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ الْمَظْلُومِينَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فأبى أن يأخذه حين سمع الحديث . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ دَعَا عَلَيَّ مِنْ ظَلَمَةٍ فَقَدِ انْتَصَرَ » وعن أنس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « إِذَا بَعَثَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ثَلَاثَةَ أَسْوَاتٍ يَا مُعْتَرِ الْمُوَحِّدِينَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ فَلْيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ » وعن أبي هريرة (٤) « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ ، طَافَ بِالْبَيْتِ ، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ فَقَالَ « مَا تَقُولُونَ وَمَا تَتَّظُنُونَ ؟ » فَقَالُوا نَقُولُ أَخٌ وَابْنُ عَمٍّ ، حَلِيمٌ رَحِيمٌ . قَالُوا ذَلِكَ ثَلَاثًا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ » (لَا تَشْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (٥)

(١) حديث قال موسى لرب أي عبادك أعز عليك قال الذي إذا قدر عفا: الحرائط في مكارم الأخلاق

من حديث أبي هريرة - وفيه ابن لميعة

(٢) حديث ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة وفي أوله قصة ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية

أبي صالح الخنفي مرسلًا

(٣) حديث أنس إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى من تحت العرش ثلاثة أصوات

يا معتر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض: أبو سعيد أحمد بن إبراهيم

النعري في كتاب البصرة والتذكرة بلفظ ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد

ان الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فتد وهبته لكم وبقيت التبعات فواهبوها وادخلوا الجنة

برحمتي واسناده ضعيف ورواه الطبراني في الاوسط بلفظ نادى مناد يا أهل الجمع تاركوا المظالم

بيكم ونوابكم على وله من حديث أم هانئ. ينادى مناد يا أهل النوحيد ليعف بعضكم

عن بعض وعلى النواب

(٤) حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلّى ركعتين ثم أتى

الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ما تقولون - الحديث: رواه ابن الجوزي في الوفا. من طريق

ابن أبي الدنيا وفيه ضعف

قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور ، فدخلوا في الإسلام . وعن سهيل بن عمرو قال <sup>(١)</sup> لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وضع يديه على باب الكعبة ، والناس حوله فقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعدنه ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم قال « يامعشر قريش ما تقولون وما تظنون ؟ » قال قلت يا رسول الله ، تقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم ، وقد قدرت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال أخى يوسف » ( لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ) <sup>(٢)</sup>

وعن أنس قال <sup>(٣)</sup> ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخلك الجنة » قيل ومن ذا الذى له أجر ؟ قال « العاقون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب » وقال ابن مسعود <sup>(٤)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو » ثم قرأ ( وليعفووا وليصفحوا ) <sup>(٥)</sup> الآية . وقال جابر <sup>(٦)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الخور العين حيث شاء من أذى ديننا خفيًا وقرأ في دبر كل صلاة ( قل هو الله أحد ) <sup>(٧)</sup> عشر مرات وعفا عن قاتله » قال أبو بكر ، أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال « أو إحداهن »

(١) حدث سهيل بن عمرو لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة

الحديث : بنحوه لم أجده

(٢) حديث أنس إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخلك الجنة قيل من ذا الذى أجره على الله

قال العاقون عن الناس - الحديث : الطبرانى فى مكارم الأخلاق وفيه العفا بن يسار

ولا يتابع على حديثه

(٣) حديث ابن مسعود لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو - الحديث : أحمد

والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصلوة

(٤) حديث جابر ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء - الحديث : الطبرانى

فى الأوسط وفى الدعاء يسند ضعيف

(١) يوسف : ٩٢ (٢) النور : ٢٣ (٣) الصمد : ١

الآثار : قال ابراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرغمه . وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له بموت وقال بعضهم ، إذا أراد الله أن يتعف عبدا ، قيص له من يظلمه . ودخل رجل على عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ، فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ، ويقع فيه . فقال له عمر إنك إن تلتى الله ومظلمتك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة إن ظلمت تدعو على من ظلمك ، فإن الله تعالى يقول ، إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخر تكا إلى يوم القيامة فيسمعك عفوئ وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظلمه : كل الظالم إلى ظلمه ، فإنه أسرع إليه من دعائك عليه ، إلا أن يتداركه بعمل ، وقرن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال ، بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة ، فينادي من كان له عند الله شيء فليقم ، فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال ، أتى النعمان بن المنذر برجلين ، قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما ، فمفا عنه ، والآخر أذنب ذنبا خفيفا ، فمافيه وقال

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها  
ولقد تماقبت في اليسير وليس ذلك لجسها  
إلا يعرف حلالها ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال ، وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر . قال فكنت عنده ، إذ أتني برجل فأمر بهتله . فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر . فقلت يا أمير المؤمنين ، ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن ، قال وما هو ، قلت سمعته يقول ، إذا كان يوم القيامة ، جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد ، حيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر . فيقوم مناد فينادي ، من له عند الله يد فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا . فقال والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه . فقال تخيلنا عنه

وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكثكم الفرصة . فإذا أمكنكم فمليكم بالصبر والإفضال . وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك . فقال للراهب ، أرايت ذا القرنين ،

أكان نبيا؟ فقال لا . ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه . كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لغد . وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم خلم ، حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم خلم ، حتى إذا قدر عفا وقال زياد ، القدرة تذهب الحفيظة ، يعنى الحقد والغضب . وأتى هشام برجل ابغاه عنه أمر ، فلما أقيم بين يديه ، جعل يتكلم بحجته . فقال له هشام ، وتكلم أيضا؟ فقال الرجل يا أمير المؤمنين ، قال الله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا<sup>(١)</sup>) أفجادل الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلاما؟ قال هشام ، بلى ويحك تكلم

وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين ، فقال له اقطعه فإنه من أعدائنا . فقال بل أستر عليه ، لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود فى السوق يبتاع طعاما ، فابتاع ، ثم طلب الدرهم ، وكانت فى عمامته ، فوجدها قد حلت : فقال لقد جلست وإني لمى . فاجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون ، اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها ، اللهم افعل به كذا فقال عبد الله ، اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها . وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل ، ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان ، جلس إلى فى المسجد الحرام ، ثم قام ليطوف ، فسرقته دنانير كانت معه ، فجعل يبكي فقلت أعلى الدنانير تبكى؟ فقال لا . ولكن مثلتى وإياه بين يدي الله عز وجل ، فأشرف على إدحاض حجته فبكائى رحمة له . وقال مالك بن دينار ، أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا . وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف . فدخلنا معه عليه . فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام ، وما صنع به إخوته من بيعهم إياه ، وطردهم له فى الحب . فقال باعوا أخاهم ، وأحزنوا أباهم . وذكر مالتى من كيد النساء ومن الحبس ، ثم قال ، أيها الأمير ، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم ، ورفع ذكره ، وأعلى كلمته . وجعله على خزائن الأرض . فإذا صنع حين أكمل له أمره؟ وجمع أهله؟ قال (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ<sup>(٢)</sup>) يعرض للحكم بالعضو عن أصحابه . قال الحكم ، فأنا أقول (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ<sup>(٣)</sup>) ولولم أجد إلا توبى هذا لو أريتكم تحتته .

(١) النحل : ١١١ (٣٠٢) يوسف : ٩٢

وكتب ابن المقفع إلى صديق له، يسأله العفو عن بعض إخوانه، فلان هارب من زلته إلى عفوك. لاند منك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما . إلا ازداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى بن الأشعث ، فقال لرجاء بن حيوة ، ماترى؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر ، فأعط الله ما يحب من العفو . فففاعهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج ، فأفلت منه ، فأخذ أخاه له ، فقال له إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك فقال أرايت إن جئت بك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلي؟ قال نعم . قال فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم ، وأقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى . ثم تلا (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى<sup>(١)</sup>) فقال زياد، خلوا سبيله؟ هذا رجل قد لقت حجته : وقيل مكتوب في الأنجيل ، من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان

## فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ، ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة . وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه ، بحيث يدهش عن التفكير ، ويمنع من التثبت . فالرفق في الأمور ثمرة لا يشعرها إلا حسن الخلق . ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة : وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق ، وبالغ فيه . فقال<sup>(١)</sup> « يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ مَنْ أَعْطَى حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ حَرَّمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ حَرَّمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ »

### ﴿ فضيلة الرفق ﴾

(١) حديث ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة - الحديث : أحمد والعميلي في الصعاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضعه عن القاسم عن عائشة وفي الصحيحين من حديثها ياعائشة ان الله يحب الرفق في الامر كله

(٢) حديث اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق : أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة



وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ اللَّهَ لَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْخُرْقِ وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفْقَ وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرَّفْقَ إِلَّا حُرْمُوا بِحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ». وقالت عائشة رضى الله عنها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « يَا عَائِشَةُ ارْفُقِي فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ كَرَامَةً دَلَّهْمُ عَلَى بَابِ الرَّفْقِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ يُحْرِمِ الرَّفْقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « أَيُّمَا وَالٍ وَوَيْيَ قَرَفَقَ وَلَا نَ رَفَقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « تَذَرُونَ مَنْ يُحْرِمُ عَلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ كُلُّ هَيْئٍ لَيْسَ سَهْلٍ قَرِيبٍ » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « الرَّفْقُ يُغْنِي عَنِ الْخُرْقِ سُؤْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٨) « التَّائِي مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَاةُ مِنَ الشَّيْطَانِ ». وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال ، (٩) « يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ فَارْفُقُوا بِهِ » فاجابته فقال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْفُقُ بِرَسُولِهِ »

( ١ ) حديث ان الله يعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق - الحديث : الطبرانى فى الكبير من حديث

جرير باسناد ضعيف

( ٢ ) حديث ان الله رقيق يحب الرفق - الحديث : مسلم من حديث عائشة

( ٣ ) حديث يا عائشة ارفقى ان الله اذا اراد باهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق : احمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبى داود يا عائشة ارفقى

( ٤ ) حديث من يحرم الرفق يحرم الخير كله : مسلم من حديث جرير دون قوله كله فهى عند أبى داود

( ٥ ) حديث أيما وال ولى فلان ورفق ورفق الله به يوم القيامة : مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه وولى من أمرأتى شيئا فرفق بهم فارفق به

( ٦ ) حديث تدرؤن على من يحرم النار على كل هين لين سهل قريب : الترمذى من حديث ابن مسعود وتقدم فى آداب الصحبة

( ٧ ) حديث الرفق عن و الخرق سُؤْمٌ : الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن مسعود والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

( ٨ ) حديث التائى من الله والعجاة من الشيطان : أبوى على من حديث أنس ورواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة من الله وقد تقدم

( ٩ ) حديث أتاه رجل فقال يا رسول الله ان الله قد بارك بجمع المسلمين فىك - الحديث وفيه فاذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فأمضه - الحديث : ابن المبارك فى الزهد والرقائق من حديث أبى جعفر هو المسعى عبد الله بن مسعود الهاشمى ضعيف جدا ولأبى نعيم فى كتاب الايجاز من رواية اسماعيل الانصارى عن أبىه عن جده اذا هممت بأمر فأجلس فتدبر عاقبته واسناده ضعيف

أو ثلاثاً، ثم أقبل عليه فقال « هَلْ أَنْتَ مُسْتَوِصٌ » مرتين أو ثلاثاً. قال نعم . قال « إِذَا أُرِدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ سَوِيًّا فَاتَّه » وعن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ' « يَا عَائِشَةُ عَلَيْكَ بِالرَّفِيقِ فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ »

الآثار : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن جماعة من رعيته اشتكروا من عماله ، فأمرهم أن يوافوه . فلما أتوه ، قام حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ، أيها الناس ، أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا ، النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير . أيتها الرعاة ، إن للرعية عليكم حقا ، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعر ، من حلم إمام ورفقه . وایس جهل أبنض إلى الله ولا أعم ؛ من جهل إمام وخرقه . واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهرينه ، يرزق العافية من هودونه . وقال وهب بن منبه ، الرفق ثمن الحلم . وفي الخبر موقوفا ومرفوعا (٢) « الْعِلْمُ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ وَالْحِلْمُ وَزِيرُهُ وَالْعَمَلُ دَلِيلُهُ وَالْعَمَلُ قِيَمُهُ وَالرَّفْقُ وَالذُّهُ وَاللَّيْنُ أَخُوهُ وَالصَّبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ » وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزيد العلم ، وما أحسن العلم يزيد العمل وما أحسن العمل يزيد الرفق . وما أضعف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو ابن الماص لابنه عبد الله ، ما الرفق ؟ قال . أن تكون ذا أناة فتلاين الولاية . قال فالخرق ؟ قال . معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه ، تدرون ما الرفق ؟ قالوا قل يا أبا محمد قال : أن تضع الأمور مواضعها ، الشدة في موضعها ، واللين في موضعه ، والسيف في موضعه والوسط في موضعه . وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين ، والفظاظة بالرفق كما قيل .  
ووضع الندي في موضع السياف بالاعلا مضر كوضع السياف في موضع الندي

( ١ ) حديث عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه . الحديث : رواه مسلم

( ٢ ) حديث العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعمل دليله والعمل قائمه والرفق والده أبو الشيخ في كتاب الثواب وفضائل الاعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه الفصاعى في مسنده اشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف

فالمحمود وسط بين العنف واللين ، كما في سائر الأخلاق : ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل ، كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر . فلذلك كثرت بناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في محله حسنا ، كما أن الرفق في محله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو أنذ من الزبد بالشهد ، وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، روي أن عمرو بن العاص ، كتب إلى معاوية يماثبه في الثاني ، فكتب إليه معاوية

أما بعد . فإن التفهم في الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب ، أو كاد أن يكون مصيبا . وإن العجل مخطيء ، أو كاد أن يكون مخطئا . وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق . ومن لا ينعمه التجارب لا يدرك المعالي . وعن أبي عون الأنصارى ، قال ما تكلم الناس بكلمة صعبة ، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفي . لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه ، فإن مع كل إنسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا ، إلا اعتلوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن . المؤمن وقاف متأن ، وليس كحاطب ليل .

فهذاثناء أهل العلم على الرفق ، وذلك لأنه محمود ، ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على التسدور . وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطى كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة ، أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق ، فإن النجح معه في الأكثر

## القول

في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

## بيان

ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الختد ، والختد من نتائج الغضب ، فهو فرع فرع ، والغضب أصل أصله . ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى . وقد ورد في ذم

الحسد خاصة أخبار كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْحَسَدُ يَا كُلُّ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته <sup>(٢)</sup> « لَا تَحْسَدُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »

وقال أنس ، <sup>(٣)</sup> كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال ، فسلم . فلما كان الغد : قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . فطلع ذلك الرجل . وقاله في اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص : فقال له ، إني لاحيت أبي ، فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا . فإن رأيت ابن ترويني إليك حتى تحصى الثلاث فعلت . فقال نعم . فبات عنده ثلاث ليال ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال غير أني ما سمعته يقول إلا خيرا . فلما مضت الثلاث ، وكدت أن أحتقر عمله ، قلت يا عبد الله ، لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عمالك ، فلم أرك تعمل عملا كثيرا . فما الذي بلغ بك ذلك ؟ فقال ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعائي فقال . ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا ، على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله ، فقلت له هي التي بلغت بك : وهي التي لا نطق

( القول في دم الحسد )

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب : أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم

(٢) حديث لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا - الحديث : متفق عليه وقد تقدم

(٣) حديث أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة - الحديث بطوله وفيه أن ذلك الرجل قال لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله : رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البراء وصحى الرجل في رواية له سعدا ونيفا ابنت هزيمة

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ثلاث لا ينجو منهن أخذ الظن والطيره والحسد وسأحدنكم بالخروج من ذلك إذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض وإذا حسدت فلا تبغ » وفي رواية « ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقيل من ينجو منهن » فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضاء هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا إلا أن تبئكم بما ثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إنه سيصيب أمتي داء الأمم ، قالوا وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر والتكابر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون ألبني ثم أخرج » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « لا تظهر الشهامة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك » . وروى أن موسى عليه السلام ، لما تعجل إلى ربه تعالى ، رأى في ظل العرش رجلاً ، فقبضه بمكانه . فقال إن هذا الكريم على ربه . فسأل

( ١ ) حديث ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطعن والحسد - الحديث : وفي رواية وقيل من ينجو منهن ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى ابن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف والظناني من حديث حارثة بن العمان نحوه وتقدم في آفات اللسان

( ٢ ) حديث دب إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء - الحديث : الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير ( ٣ ) حديث كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر : أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ كادت الحاجة أن تكون كفراً وفيه ضعف أيضاً

( ٤ ) حديث أنه سيصيب أمتي داء الأمم قبلكم قالوا وما داء الأمم قال الأشر والبطر - الحديث : ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حد

( ٥ ) حديث لا تظهر الشهامة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك : الترمذي من حديث وثالة بن الأسقع وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا في رحمه الله

ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره ، وقال أحدثك من عماله بثلاث . كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعق والديه ، ولا يمشی بالنميمة . وقال زكريا عليه السلام .  
 قال الله تعالى ، الحاسد عدو لنعمتي ، منسخط لقضائي ، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي  
 وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ يَكْتُرَ فِيهِمُ الْمَالُ  
 فَيَحْسَدُونَ وَيَقْتُلُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكَيْفَانِ  
 فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنَّ لِنِعْمِ اللَّهِ أَعْدَاءً » فقيل ومن  
 هم ؟ فقال « الَّذِينَ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم  
<sup>(٤)</sup> « سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بَيْسَتَةٌ » قيل يا رسول الله من هم ؟ قال « الْأَمْرَاءُ بِالْجُورِ وَالْعَرَبُ  
 بِالنَّصَبِ وَاللُّهُمَاءُ فِي بُرْجِ الْكِبْرِ وَالشُّجَارُ بِالْحِيَانَةِ وَأَهْلُ الرُّسْتَقِ بِالْجَهْلِ وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ »  
 والآثار : قال بعض السلف ، أول خطيئة كانت هي الحسد . حسد إبليس آدم عليه السلام  
 على رتبته ، فأبى أن يسجد له ، فعمله الحسد على المصيبة . وحكى أن عون بن عبد الله ،  
 دخل على الفضل بن المهلب ، وكان يومئذ على واسط . فقال إني أريد أن أعظك بشيء .  
 فقال وما هو ؟ قال إياك والكبر ، فإنه أول ذنب عصى الله به ، ثم قرأ ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

( ١ ) حديث ما أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون : ابن أبي الدنيا في كتاب  
 ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله . أبو حاتم وفي الصحيحين  
 من حديث أبي سعيدان ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها  
 ولها من حديث عمرو بن عوف البدرى والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط  
 عليكم الدنيا الحديث ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو إذا فتحت عليكم فارس والروم  
 الحديث وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث ولأحمد والبراز من حديث عمر  
 لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة

( ٢ ) حديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود : ابن أبي الدنيا والطبراني من  
 حديث معاذ بن سند ضعيف

( ٣ ) حديث إن نعم الله أعدله قيل ومن أولئك قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله : الطبراني  
 في الأوسط من حديث ابن عباس إن لأهل النعم حسادا فاحذروهم

( ٤ ) حديث ستة يدخلون النار قبل الحساب ستة قيل يا رسول الله ومن هم قال الأمراء بالجور . الحديث :  
 وفيه والعلماء بالحسد أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بن مالك ضعيفين

اسجدوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ (١) الآية . وإياك والحرس ، فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض ، يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها ، فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ (أهبطوا منها) (٢) إلى آخر الآية . وإياك والحسد ، فإننا نزل ابن آدم إناؤه حين حسده ، ثم قرأ (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبِيًّا أُتِيَ آدَمَ بِالنُّوحِ) (٣) الآية . وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسكت . وإذا ذكر القدر فأسكت . وإذا ذكرت النجوم فأسكت

وقال بكر بن عبد الله . كأن رجل ينشئ بعض الملوك ، فيقوم بخذاء الملك : فيقول أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسمى سيكفيك إساءته . حسده رجل على ذلك المقام والكلام ، فسعى به إلى الملك ، فقال إن هذا الذي يقوم بخذائك ويقول ما يقول ، زعم أن الملك أنجز . فقال له الملك ، وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر . فقال له انصرف حتى أنظر . فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله ، فأطعمه طعاما فيه ثوم . فخرج الرجل من عنده ، وقام بخذاء الملك على عادته . فقال أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسمى سيكفيك إساءته . فقال له الملك ادن مني . فدنا منه ، فوضع يده على فيه تخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم . فقال الملك في نفسه ، ما أرى فلانا إلا قد صدق . قال وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة . فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله ، إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه ، واسلخه ، واحش جلدته تبنا ، وبعث به إلى ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقبه الرجل الذي سعى به ، فقال ما هذا الكتاب ؟ قال خط الملك لي بصلة . فقال هبه لي . فقال هو لك . فأخذه ومضى به إلى العامل ، فقال العامل ، في كتابك أن أذبحك وأسلخك . قال إن الكتاب ليس هو لي ، فأنه الله في أمري حتى تراجع الملك . فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه ، وسلخه ، وحش جلدته تبنا ، وبعث به . ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله فعجب الملك ، وقال ما فعل الكتاب ؟ فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له . قال الملك ، إنه ذكر لي أنك تهتم أني أنجز . قال ما قلت ذلك . قال فلم وضعت يدك على فيك قال لأنه أطعمني طعاما فيه ثوم فكرهت أن نسمة . قال صدقت ارجع إلى مكانك ، فقد كفي المسمى إساءته

(١) البقرة : ٣٤ (٢) البقرة : ٣٨ (٣) المائدة : ٢٧

وقال ابن سيرين رحمه الله . ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة ؟ وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ! وقال رجل للحسن ، هل يحسد المؤمن ؟ قال ما أنساك بنى يعقوب ، نعم ، ولكن غمها في صدرك ، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا ، وقال أبو الدرداء ، ما أكثر عبد ذكّر الموت إلا قلّ فرحه ، وقل حسده ، وقال معاوية ، كل الناس أقدر على رضاه ، إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها ، ولذلك قيل

كل المداوات قد ترجى إيمانها \* إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ ، وحسد الحسود ما يلقي . وقال أعرابي : ما رأيت ظالماً أشبه مظلوماً من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك تقمة عليه . وقال الحسن يا ابن آدم ، لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه ، فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك ، فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم ، الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً . ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبنضا . ولا ينال من الخلق إلا جزعاً ونهماً . ولا ينال عند النزع إلا شدة وهو لا . ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة وتكالا

## بيان

حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة . فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة ، فلك فيها حالتان إحداها : أن تكره تلك النعمة ، وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسداً . فالحسد حده كراهة النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ، ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة . وقد تختص باسم المنافسة . وقد تسمى المنافسة حسداً ، والحسد منافسة ، وبوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حرج في الأسماء بعد فهم المعاني . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَمُوتُونَ وَالمُنافِقُونَ يَحْسَدُونَ »



فأما الأول: فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستمين بها على تهيج الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخلق، فلا بضرك كراحتك لها، وحببتك زوالها فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد. ولو أمنت فسادها، لم يعمك بنعمته. ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تريد على كراحتك لراحة مسلم، من غير أن يكون لك منه مضرة، وإلى هذا أشار القرآن بقوله ( **إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تَصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا** )<sup>(١)</sup> وهذا الفرخ شامة، والحسد والشامة يتلازمان.

وقال تعالى ( **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ** )<sup>(٢)</sup> فأخبر تعالى أن جهنم زوال نعمة الإيمان حسد. وقال عز وجل ( **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** )<sup>(٣)</sup> وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام، وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى ( **إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَوْطَرِحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** )<sup>(٤)</sup> فلما كرهوا حب أبيهم له، وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه، فغيبوه عنه. وقال تعالى ( **وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا** )<sup>(٥)</sup> أى لا تضيق صدورهم به ولا يفتنون: فأننى عليهم بعدم الحسد

وقال تعالى في معرض الإنكار ( **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** )<sup>(٦)</sup> وقال تعالى ( **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** )<sup>(٧)</sup> إلى قوله ( **إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** )<sup>(٨)</sup> قيل في التفسير حسدا، وقال تعالى ( **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** )<sup>(٩)</sup> فأنزل الله العلم ليجمهم، ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم

(١) حديث المؤمن يغبط والنافق يحسد: لم أجد له أصلا مرفوعا وإنما هو من قول النخيل بن عياض

كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد

(٢) آل عمران: ١٢٠ (٣) البقرة: ١٠٩ (٤) النساء: ٨٩ (٥) يوسف: ٨ (٦) الحشر: ٩ (٧) النساء: ٤٥

(٨) و (٨) البقرة: ٢١٣ (٩) الشورى: ١٤

أن يتألفوا بالعلم ، فتحاسدوا واختلفوا ، إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة ، وقبول القول ، فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس <sup>(١)</sup> كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا قاتلوا قوما ، قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله ، وبالكتاب الذي تنزله ، إلا ما نصرتنا . فكانوا ينصرون . فاما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسماعيل عليه السلام عرفوه ، وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى ( وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ <sup>(١)</sup> ) إلى قوله ( أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَنِيًّا <sup>(٢)</sup> ) أي حسدا . وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم ، <sup>(٢)</sup> جاءه أبي وعمي من عندك يوما ، فقال أبي لعمي ما تقول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى . قال فما ترى ؟ قال أزي معاداته أيام الحياة . فهذا حكم الحسد في التحريم

وأما المنافسة ، فليست بجرام . بل هي إما واجبة ، وإما مندوبة ، وإما مباحة . وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة ، والمنافسة بدل الحسد . قال قثم بن العباس ، <sup>(٣)</sup> لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة ، قال لعلي

#### ( بيان حقيقة الحسد وحكمه )

( ١ ) حديث ابن عباس قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله - الحديث : في نزول قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا : ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره نحوه وهو منقطع

( ٢ ) حديث قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاءه أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى - الحديث : ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضا ( ٣ ) حديث قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قال لعلي - الحديث : هكذا وقع للمصنف انه قثم والفضل وانما هو الفضل والمطلب بن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال اجتمع ربيعة ابن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس اتيا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه فذكر - الحديث :

(١) البقرة: ٨٩ (٢) البقرة: ٩٠

حين قال لها لا تنديبا إليه ، فإنه لا يؤمر كما عليها ، فقالا له ما هذا منك إلا نفاسة . والله  
لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك ، أي هذا منك حسد ، وما حسدناك على تزويج  
إياك فاطمة ، والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة . والذي يدل على إباحة المنافسة ، قوله تعالى  
( وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ <sup>(٢)</sup> )  
وإنما المتنافسة عند خوف الفوت ، وهو كالعبدین يتسابقان إلى خدمة مولاهما ، إذ يجزع  
كل واحد أن يسبقه صاحبه ، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها . فكيف وقد صرح  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال <sup>(١)</sup> « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا  
فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلْكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ »  
ثم فسرد ذلك في حديث أبي كبشة الأنباري فقال <sup>(٢)</sup> « مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ رَجُلٍ آتَاهُ  
اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَيَقُولُ رَبُّ  
لَوْ أَنَّ لِي مَالًا مِثْلَ مَالِ فُلَانٍ لَّكُنْتُ أَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ عَمَلِهِ فَهَمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ » وهذا  
منه يجب لأن يكون له مثل ماله ، فيعمل مثل ما يعمل ، من غير حب زوال النعمة عنه قال  
« وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي مَعَاصِي اللَّهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا  
وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَيَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَالِ فُلَانٍ لَّكُنْتُ أُنْفِقُهُ فِي مِثْلِ مَا أُنْفِقُهُ فِيهِ مِنْ  
الْمَعَاصِي فَهَمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ » فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية  
لامن جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله

فإذ الأخرج على من يغبط غيره في نعمة ، ويشتهي لنفسه مثلها ، مهما لم يجب زوالها  
عنه ، ولم يسكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة ، كالإيمان  
والصلاة ، والزكاة ، فهذه المنافسة واجبة . وهو أن يجب أن يكون مثله ، لأنه إذا لم يكن  
يجب ذلك فيكون راضياً بالمعصية ، وذلك حرام . وإن كانت النعمة من الفضائل ، كالنفاق

(١) حديث لا حسد إلا في اثنتين - الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم في العلم

(٢) حديث أبي كبشة عن هذه الأمة مطلق أربعة رجال آتاه الله مالا - الحديث : رواه ابن ماجه

والترمذي وقال صحيح

(١) اللطفيين : ٣٦ (٢) الحديث : ١٢

الأموال في المكارم والصدقات ، فالمنافسة فيها مندوب إليها . وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح ، فالمنافسة فيها مباحة . وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته ، واللحوق به في النعمة ، وليس فيها كراهية النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المنعم عليه ، والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه . وهو يكره أحد الوجهين ، وهو تخلف نفسه ، ويحب مساواته له . ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات نعم ذلك ينقص من الفضائل ، ويناقض الزهد ، والتوكل ، والرضا ، ويحجب عن المقامات الرفيعة ، ولكنه لا يوجب المصيان

وهنا دقيقة غامضة ، وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة ، وهو يكره تخلفه ونقصانه ، فلا محالة يجب زوال النقصان وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فإذا انسد أحد الطريقين ، فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود ، كان ذلك أشنى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره . وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه ، فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ، ورد إلى اختياره ، لسعى في إزالة النعمة عنه ، فهو حسود حسدا مذموما . وإن كان تدمه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعنى عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده ، مهما كان كارها لذلك من نفسه بعبقه ودينه : ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم «<sup>(١)</sup> ثَلَاثٌ لَا يَنْفَكُ الْمُؤْمِنُ عَنْهُنَّ الْحَسَدُ وَالظَّنُّ وَالطَّيْرَةُ » ثم قال «<sup>(٢)</sup> وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ إِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْتَغِ » أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به . وبعيد أن يكون الإنسان يريد اللحاق بأخيه في النعمة ، فيعجز عنها ، ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة . إذ يجب لا محالة ترجيحها له على دوامها . فهذا الحسد من المناقصة يزاحم الحسد الحرام ، فينبغي أن يحتاط فيه ، فإنه موضع الخطر . ومامن إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحذور إن لم يكن قوى الإيمان ، رزين التقوى ومهما كان محرکه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره ، جره ذلك إلى الحسد المذموم

(١) حديث ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة - الحديث : تقدم غيره مرة

وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى ينزل هو إلى مساواته ، إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لارخصة فيه أصلا ، بل هو حرام ، سواء كان في مقاصد الدين ، أو مقاصد الدنيا ، ولكن يعنى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه حقيقة الحسد وأحكامه ، وأما مراتبه فأربع

الأولى : أن يجب زوال النعمة عنه : وإن كان ذلك لا ينتقل إليه . وهذا غاية الخبث الثانية : أن يجب زوال النعمة إليه ، لرغبته في تلك النعمة ، مثل رغبته في دار حسنة ، أو امرأة جميلة ، أو ولاية نافذة ، أو سعة نالها غيره ، وهو يجب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها

الثالثة : أن يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها . فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينها

الرابعة . أن يشتهى لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يجب زوالها عنه . وهذا الأخير هو المفوعنه إن كان في الدنيا . والمندوب إليه إن كان في الدين . والثالثة فيها مذموم وغير مذموم . والثانية أخف من الثالثة والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة الثانية حسدا فيه تجوز وتوسع ، ولكنه مذموم لقوله تعالى ( وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ <sup>(١)</sup> ) فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم

## بيان

### أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة ، فسببها حب ما فيه المنافسة . فإن كان ذلك أمر الدنيا ، فسببه حب الله تعالى وحب طاعته . وإن كان دنيويا ، فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها . وإيمانظرنا الآن في الحسد المذموم ، ومداخله كثيرة جدا ؛ ولكن يحصر جملة سبعة أبواب ، المداوة ، والتعزز ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها . فإنه إن عمل يكره النعمة على غيره ، إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير

وهذا لا يختص بالأمثال ، بل يحسد الحسيس الملك ، بمعنى أنه يجب زوال نعمته ، لكونه مفضاله بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه ، وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتعزز وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ، ويمتنع ذلك عليه لنعمته. وهو المراد بالتكبر وإما أن تكون النعمة عظيمة ، والمنصب عظيماً ، فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة ، وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته ، بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه . وإما أن يكون يجب الرياسة التي تنبئ على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب ، بل تلجئ النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ، ولا بد من شرح هذه الأسباب

السبب الأول : العداوة والبغضاء . وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب ، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه ، وغضب عليه ، ورسخ في نفسه الحقد . والحقد يقتضي التشنى والانتقام ، فإن عجز البغض عن أن يتشنى بنفسه ، أحب أن يتشنى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى : فربما أصابت عدوه بلية فرح بها ، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه ، وأنها لأجله . وربما أصابته نعمة ، ساء ذلك ؛ لأنه ضد مراده . وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله ؛ حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه ، بل أنتم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما . وإنما غاية التقى أن لا ينسى ، وأن يكره ذلك من نفسه . فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن . وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة ، إذ قال تعالى ( وَإِذَا تَقَوْمُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنَّ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُومُكُمْ <sup>(١)</sup> ) الآية . وكذلك قال تعالى ( وَذُورًا مَاعَتَمْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا عَنَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ <sup>(٢)</sup> ) . والحسد بسبب البغض وربما يقضى إلى التنازع والتقاتل ، واستغراق العمر في إزالة النعمة بالليل ، والسعاية ، وهتك الستر ، وما يجري مجراه

(١) آل عمران : ١١٩ ، ١٢٠ . (٢) آل عمران : ١١٨

السبب الثاني : التعزز . وهو أن يشغل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية ، أو علما ، أو مالا ، يخاف أن يتكبر عليه ، وهو لا يطيق تكبره ، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر ، بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضى بمساواته مثلا ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه

السبب الثالث : الكبر . وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ، ويستصغره ويستخدمه ، ويتوقع منه الانقياد له ، والمتابعة في أغراضه . فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ، ويترفع عن متابعتها ، أو ربما يتشوف إلى مساواته ، أو إلى أن يرتفع عليه ، فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسداً كثيراً لكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم ! وكيف نطأطأ رءوسنا<sup>(١)</sup> فقالوا ( لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ<sup>(٢)</sup> ) أي كان لا يشغل علينا أن يتواضع له ، وتبعه إذا كان عظيماً . وقال تعالى يصف قول قريش ( أَهْوَأُ لَاءَ مَنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ يَّبِينَا<sup>(٣)</sup> ) كالأستحقار لهم والأنفة منهم

السبب الرابع : التعجب . كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة ، إذ قالوا ( مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا<sup>(٤)</sup> ) وقالوا ( أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا<sup>(٥)</sup> ) ( وَ لَئِن أُطْعِمُ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّا نَكْفُرُ إِذَا تَخَاسَرُونَا<sup>(٦)</sup> ) فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة ، والوحي ، والقرب من الله تعالى ، بشر مثلمهم . فحسدوهم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم ، جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلمهم في الخلقة ، لاعن قصد تكبر ، وطلب رياسة ، وتقدم عداوة ، أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين ( أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا<sup>(٧)</sup> ) وقالوا ( لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةَ<sup>(٨)</sup> )

( بيان أسباب الحسد والمنافسة )

- ( ١ ) حديث سبب نزول قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . ذكره ابن اسحاق في السيرة وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال أنزل على محمد وأتركوا لنا كبير قريش وسيدنا ويترك أبو مسعود عمرو بن عبد المطلب سيد ثقيف فنحن عطاء القريتين فنزل الله فيها بلغى هذه الآية ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قال مسعود بن عمرو وفي رواية لابن مردويه جيب بن عبد المطلب وهو ضعيف

( ٢ ) الزخرف : ٢١ ( ٣ ) الانعام : ٥٣ ( ٤ ) يس : ١٥ ( ٥ ) المؤمنون : ٧ ( ٦ ) المؤمنون : ٣٤ ( ٧ ) الاحزاب : ٤٤ ( ٨ ) الفرقان : ٣١

وقال تعالى ( أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ <sup>(١)</sup> ) الآية

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد . وذلك يختص بمنزاحين على مقصود واحد . فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده . ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزام على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الأخوة في التزام على نيل المنزلة في قلب الأبوين ، للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال . وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه : للتوصل به إلى المال والجاه . وكذلك تحاسد الواعظين المتزامين على أهل بلدة واحدة ، إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم . وكذلك تحاسد المالمين المتزامين على طائفة من المتفهمة محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة ، وطلب الجاه لنفسه ، من غير توصل به إلى مقصود وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظر في فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستغزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه ، وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك ، وأحب موته ، أو زوال النعمة عنه ، التي بها يشاركه في المنزلة ، من شجاعة ، أو علم ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو جمال ، أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ، ويفرح بسبب تفرده . وليس السبب في هذا عداوة ، ولا تمزاً ، ولا تكبراً على المحسود ، ولا خوفاً من فوات مقصود ، سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس ، للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به ، خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم ، مهما نسخ علمهم

السبب السابع : خبت النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ، وتكبر ، ولا طلب مال ، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى ، فما



أنعم الله به عليه ، يشق ذلك عليه . وإذا وصف له اضطراب أمور الناس ، وإدبارهم ، وفوات مقاصدهم ، وتنقص عيشهم ، فرح به . فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه . ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره . فهذا يبخل بنعمة الله تعالى ، على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة . وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ، ورذالة في الطبع ، عليه وقعت الجبلة ، ومعالجته شديدة . لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب ، أسبابه عارضة يتصور زوالها ، فيطمع في إزالتها . وهذا خبث في الجبلة ، لا عن سبب عارض فتمسر إزالته ، إذ يستحيل في العادة إزالته . فهذه هي أسباب الحسد ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب ، أو أكثرها ، أو جميعها في شخص واحد ، فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينهتك حجاب المجاملة ، وتظهر المداوة بالكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب . ولما يتجرد سبب واحد منها .

## بيان

السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والأخوة وبنى العم والأقارب

وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتنتظر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ، ولأنه يتكبر ، ولأنه عدو ، ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط ، يجتمعون بسببها في مجالس المحادثات ، ويتواردون على الأغراض : فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض ، نفر طبعه عنه ، وأبغضه ، وثبت الحقد في قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ، ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه ، وتترادف جملة من هذه الأسباب . إذ لارابطة بين شخصين في بلدين متباعدتين ، فلا يكون بينهما

محاسدة . وكذلك في محلتين . نعم إذا تجاورا في مسكن ، أو سوق ، أو مدرسة ، أو مسجد توأردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما ، فيثور من التنافض التنافر والتباغض ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد . ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز ، لا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة .

ويحسد الرجل أخاه وابن عمه ، أكثر مما يحسد الأجنبي . والمرأة تحسد ضرتههاوسرية زوجها ، أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته : لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف ، فلا يتزاحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ، ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر . إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز . ثم مزاحمة البزاز المجاور له ، أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق . فلا جرم يكون حسده للجار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم ، لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ، وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم العالم . ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقير والطبيب لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص

فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعين بل متناسين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه ، وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه ، فإنه يحسد كل من هو في العالم ، وإن بعد ، ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين . أما الآخرة فلا تضيق فيها . وإنما مثال الآخرة نعمة العلم ، فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته ، وملائكته ، وأنبيائه ، وملكوته سمواته وأرضه ، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا ، لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين ، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته ، ويلتذبه ، ولا تنقص لذته واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس ، وثمره الاستفادة والإفادة فذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى ، وهو بحر واسع

لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضا فيما عند الله تعالى ، لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه ، وليس فيها مسانعة ومزاحمة ، ولا يضيق بهض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأنس بكثرتهم

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال ، والجاه ، تحاسدوا ، لأن المال أعيان وأجسام ، إذ أوفعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر . ومعنى الجاه ملك القلوب . ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم ، انصرف عن تعظيم الآخر ، أو نقص عنه لاجتماعه ، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بعرفة الله تعالى ؛ لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها ، وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال ، أن المال لا يحل في يدهم لم يرتحل عن اليد الأخرى . والعلم في قلب العالم مستقر ، ويحل في قلب غيره بتعليمه ، من غير أن يرتحل من قلبه . والمال أجسام وأعيان ، ولها نهاية : فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض ، لم يبق بعده مال يملكه غيره . والعلم لانهاية له ولا يتصور استيعابه . فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسمائه ، صار ذلك ألد عنده من كل نعيم ، ولم يكن ممنوعاً منه ، ولا مزاحمياً فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام ، أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة . فإن نعيم المعارف وجمته معرفته ، التي هي صفة ذاته ، يأمن زوالها ، وهو أبداً يحيى ثمارها . فهو بروحه وقلبه معتد بها كنه علمه ، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل قطفها دانية . فهو وإن غمض العين الظاهرة ، فروحه أبداً ترتع في جنة عالية ، ورياض زاهرة . فإن فرض كثرة في المعارف ، لم يكونوا متحاسدين ، بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ( وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ <sup>(١)</sup> ) فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا . فإذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ، ومشاهدة المحبوب في المقبي ! فإذا لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة ، لأن الجنة لامضايقة فيها . ولا مزاحمة ، ولا إنزال إلا بعرفة الله تعالى ، التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضا . فأهل الجنة بالضرورة برآء

من الحسد في الدنيا والآخرة جميعا . بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين ، إلى مضيق سجين . ولذلك وسم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى ، وعرد وعصى فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ، ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ، ويتحاسدون على رؤية البساتين ، التي هي جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأقطار وأفية بجميع الأبصار ، فلم يكن فيها تراحم ولا تحاسدا أصلا فإليك إن كنت بصيرا ، وعلى نفسك مشفقا ، أن تطلب نعمة لازمة فيها ، ولذة لا كدر لها ، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، ومعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضا . فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله تعالى ، ولم تجد لذتها ، وقر عينك رأيك ، وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور ، إذ العنين لا يشاق إلى لذة الوقاع ، والصبي لا يشاق إلى لذة الملك فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمختنين . فكذلك لذة المعرفة ، يختص بإدراكها الرجال (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله<sup>(١)</sup>) ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشاق ، ومن لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين (ومن يمش عن ذكر الرحمن نقبض له شيطانا فهو له قرين<sup>(٢)</sup>)

## بيان

الدواء الذي ينقي مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد ، هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ،

وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك، فارت الحسد لا محالة .

أما كونه ضررا عليك في الدين . فهو أنك بالجسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي أقامه في ملكه مخفى حكته ، فاستكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدقة التوحيد ، وفدى في عين الإيمان ، وناهيك بها جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين : وتركت نصيحتة ، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلياء وزوال النعم . وهذه خبائث في القلب ، تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتحورها كما يحور الليل النهار

وأما كونه ضررا عليك في الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا ، أو تعذب به ولا تزال في كمد وغم ، إذ أعدائك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموما ، محروما ، متشعب القلب ، ضيق الصدر ، قد نزل بك ما يشتهي الأعداء لك ، وتشتهي لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتجزت في الحال محتك وغمك تقدا ، ومع هذا فلا تزال النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب ، لكان مقتضى الفطنة . إن كنت عاقلا ، أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته ، مع عدم النفع . فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ! فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله .

بل مع ضرر يحتمله ، وألم يقاسيه ، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح . لأن النعمة لا تزال عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة ، فلا بد أن يدوم إلى أجل معلوم ، قدره الله سبحانه ، فلا حيلة في دفعه . بل كل شيء عنده بمقدار ، ولكل أجل كتاب . ولذلك شكاني من الأنبياء ، من امرأة ظالمة مستولية على الخلق ، فأوحى الله إليه فر من قدامها ، حتى تنقضى أيامها . أي ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره ، فاصبر حتى تنقضى المدة التي سبق القضاء

لبدوام إقبالها فيها . ومهما لم تنزل النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا . ولا يكون عليه إثم في الآخرة . ولعلك تقول لبيت النعمة كانت تنزل عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل ، فإنه بلاء تشبيهه أو لا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو بحسبك ، فلو كانت النعمة تنزل بالحسد ، لم يبق لله تعالى عليك نعمة ، ولا على أحد من الخلق ، ولا نعمة الإيمان أيضا ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى ( وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ )<sup>(١)</sup> إذ ما يريد المحسود لا يكون . نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره ، فإن إرادة الكفر كفر فمن اشتبهى أن تنزل النعمة عن المحسود بالحسد ، فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار ، وكذا سائر النعم .

وإن اشتبهت أن تنزل النعمة عن الخلق بحسبك ولا تنزل عنك بحسد غيرك ، فهذا غاية الجهل والغباوة . فإن كل واحد من جمى الحساد أيضا ، يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ، ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك فى أن لم تنزل النعمة بالحسد ، مما يجب عليك شكرها ، وأنت يجهلك تكرها

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا ، فواضح . أما منفعته فى الدين ، فهو أنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل ، بالغيبة ، والقدح فيه ، وهتك ستره ، وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهديها إليه : أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك ، حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا ، محروما عن النعمة ، كما حرمت فى الدنيا عن النعمة . فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تنزل . نعم كان لله عليه نعمة ، إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه ، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة ، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعته فى الدنيا ، فهو أن أم أغراض الخلق مساءة الأعداء ، وغمهم ، وشقاوتهم ، وكونهم معذبين ، مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد . وغاية أمانى أعدائك ، أن يكونوا فى نعمة ، وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم . وقد فعلت بنفسك

(١) البقرة : ١٠٩

ما هو مرادهم . ولذلك لا يشتهي عدوك موتك ، بل يشتهي أن تطول حياتك ، وذلك  
 في عذاب الحسد ، لتنظر إلى نعمة الله عليه ، فينقطع قلبك حسداً . ولذلك قيل  
 لامات أعدائك بل خلدرا حتى يروا فيك الذي يكمد  
 لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من محسد

ففرح عدوك بعمك وحسدك ، أعظم من فرحه بنعمته . ولو علم خلاصك من ألم الحسد  
 وعذابه . لكان ذلك أعظم صيبة وبلية عنده . فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد ، إلا كما يشتهي عدوك  
 فإذا تأملت هذا ، عرفت أنك عدو نفسك ، وصديق عدوك ، إذ تماطيت ما تضربت  
 به في الدنيا والآخرة ، وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة ، وصرت مذموماً عند الخالق  
 والخالق ، شقياً في الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة ، شئت أم أبيت باقية .

ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك ، حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على ابليس  
 الذي هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروماً من نعمة العلم ، والورع ، والجاه ، والمال ،  
 الذي اختص به عدوك عنك ، خاف أن تحب ذلك له ، فتشاركه في الثواب بسبب المحبة ،  
 لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير ، ومن فاته الحاق بدرجته الأكبر في الدين  
 لم يفته ثواب الحب لهم ، مهما أحب ذلك . فخاف ابليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده  
 من صلاح دينه ودنياه ، فتفوز بثواب الحب ، فيغضه إليك ، حتى لا تلحقه بجبك ، كما لم  
 تلحقه بعملك . وقد قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله <sup>(١)</sup> الرجل يحب  
 التوم ولما يلحق بهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب » وقام أعرابي  
 إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقال <sup>(٢)</sup> يارسول الله ، متى الساعة ؟ فقال  
 « مَا أَعَدَدْتَ لَهَا ؟ » قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله  
 فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس ، فافرح المسلمون بعد إسلامهم  
 كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بنيتهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس ، فنحن  
 نحب رسول الله ، وأبا بكر ، وعمر ، ولا نعمل مثل عملهم ، ونرجو أن نكون نعمهم

(١) حديث الرجل يحب التوم ولما يلحق بهم فقال هو مع من أحب : منفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث سؤال الأعرابي متى الساعة فقال ما أعددت لها الحديث : منفق عليه من حديث أنس

وقال أبو موسى ،<sup>(١)</sup> قلت يا رسول الله ، الرجل يحب المصلين ولا يصلي ، ويحب الصوم ولا يصوم حتى عد أشياء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « هُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال رجل لعمر بن عبد العزيز ، إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالماً فكن عالماً فإن لم تستطع أن تكون عالماً فسكن متعلماً ، فإن لم تستطع أن تكون متعلماً فأحبهم فإن لم تستطع فلا تبغضهم . فقال سبحانه الله ، لقد جعل الله لنا مخرجاً

فانظر الآن ، كيف حسدك إبليس ، فقوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك ، وحملك على الكراهة ، حتى أمت . وكيف لا ، وعساك تحاسد رجلاً من أهل العلم ، وتحب أن يخطيء في دين الله تعالى ، وينكشف خطؤه ليفتضح ، وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم ، أو يعرض حتى لا يعلم ولا يتعلم ، وأي إثم يزيد على ذلك ! فليتك إذ فاتك اللحاق به ، ثم اغتمت بسببه ، سامت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث<sup>(٢)</sup> « أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ الْمُحْسِنُ وَالْمُحِبُّ لَهُ وَالْكَافُّ عَنْهُ » أي من يكف عنه الأذى ، والحسد ، والبغض ، والكراهة . فانظر كيف أبعثك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة ، حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في هدوك ، بل على نفسك :

بل لو كشفت بحالك في يقظة أو منام رأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرى مبهماً إلى عدوه ليصيب مقتله ، فلا يصيبه ، بل يرجع إلى حدقته البيني ، فيقلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ثانية ، فيرمى أشد من الأولى ، فيرجع إلى عينه الأخرى ، فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيعود ثالثة ، فيعود على رأسه فيشجبه ، وعدوه سالم في كل حال ، وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداؤه حوله يفرحون به ، ويضحكون عليه . وهذا حال الحسود ؛ وسخرية الشيطان منه

( ١ ) حديث أبي موسى قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي - الحديث : وفيه هو مع من أحب

متفق عليه من حديث بلطف آخر مختصراً الرجل يحب الصوم ولو لم يلهق بهم قال الله مع من أحب

( ٢ ) حديث أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحِبُّ له والكَافُّ عنه : لم أجده له أصلاً .



بل حالك في الحسد أقيح من هذا ، لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين ، ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة ، والحسد يعود بالإثم ، والإثم لا يفوت بالموت ، ولعله يسوقه إلى غضب الله ، وإلى النار . فلا تذهب عينه في الدنيا ، خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار ، فيقلعها لهيب النار ، فانظر كيف انتقم الله من الحاسد ، إذ أراد زوال النعمة عن المحسود ، فلم يزلها عنه ، ثم أزالها عن الحاسد ، إذ السلامة من الإثم نعمة ، والسلامة من النعم والكمد نعمة ، وقد زالتا عنه ، تصديقا لقوله تعالى ( وَلَا يَحِقُّ الْمُكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ <sup>(١)</sup> ) وربما يتلى بمين ما يشتميه لعدوه ، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويتلى بمثلها ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها ، ما عنيت لعثمان شيئا إلا نزل بي ، حتى لو عنيت له القتل لقتلت

فهذا إثم الحسد نفسه ، فكيف ما يجر إليه الحسد من الاختلاف ، وجحود الحق ، وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء ، وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة فهذه هي الأدوية العامة ، فهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف ، وقلب حاضر ، انطفاة نار الحسد من قلبه ، وعلم أنه مهلك نفسه ، ومفرح عدوه ، ومسخط ربه ، ومنفص عيشه وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يحكم الحسد ، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فيبغى أن يكلف نفسه تقيضه . فإن بعثه الحسد على القدح في محسوده ، كلف لسانه المدح له ، والثناء عليه . وإن حمّله على التكبير عليه ، أزم نفسه التواضع له ، والاعتذار إليه . وإن بعثه على كف الإنعام عليه ، أزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه . فهما فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود ، طاب قلبه وأحبه . ومهما ظهر حبه ، عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع ، والثناء ، والمدح ، وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه . ويستترقه ، ويستعطفه ، ويحمّله على مقابلة ذلك بالإحسان . ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول ، فيطيب قلبه ، ويصير ما تكلفه أو لا طبعا آخرا . ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له ، لو تواضعت وأثنيت عليه ، حملك الندو على العجز ، أو على النفاق أو الخوف ، وأن ذلك مذلة ومهانة . وذلك من خدع الشيطان ومكائده . بل المجاملة تكلفا كانت أو طبعا ، تكسر سورة العداوة من الجانبين ، وتقل مرغوبها ، وتعود القلوب

التألف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد ، وغم التباغض  
فهذه هي أدوية الحسد ، وهي نافعة جدا ، إلا أنها مُمرّة على القلوب جدا . ولكن النفع  
في الدواء المر ، فمن لم يصبر على حرارة الدواء ، لم ينل حلاوة الشفاء . وإنما تهون حرارة  
هذا الدواء ، أعنى التواضع للأعداء ، والتقرب إليهم بالمدح والثناء ، بقوة العلم بالمعاني التي  
ذكرناها ، وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى ، وحب ما أحبه ، وعزة النفس وترفعها  
عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل . وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ  
لا مطمع في أن يكون ما يريد . وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا  
الذل إلا بأحد أمرين ، إما بأن يكون ما تريد ، أو بأن تريد ما يكون . والأول ليس إليك  
ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة  
ممكّن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي .

فأما الدواء المفصل ، فهو تتبع أسباب الحسد ، من الكبر وغيره ، وعزة النفس ، وشدة  
الحرص على ما لا ينبغي . وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى  
فإنها مواد هذا المرض ، ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة . فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما  
ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ، ويطول الجهد في تسكينه  
مع بقاء مواده . فإنه مادام محبا للجاه ، فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلب  
الناس دونه ، ويعمه ذلك لاحتماله . وإنما غاية أن يهون النعم على نفسه ، ولا يظهر بلسانه  
ويده ، فأما الخلو عنه رأسا فلا يمكنه ، والله الموفق

## بيان

القدر الواجب في نفى الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبا . فإذا تيسرت  
له نعمة ، فلا يمكنك أن لا تكرهها له ، حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله  
بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له . ولكن  
إن قوى ذلك فيك ، حتى نعمتك على إظهار الحسد بقول أو فعل ، بحيث يعرف ذلك

من ظاهرِك بأفعالِك الاختيارية ، فأنت حسود عاص بحسَدِك . وإن كُففت ظاهرِك بالكلية إلا أنك يباطنك تحب زوال النعمة ، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة ، فأنت أيضا حسود عاص . لأن الحسد صفة القلب لاصفة الفعل . قال الله تعالى ( وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا <sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( وَذُؤا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً <sup>(٢)</sup> ) وقال ( إِنَّ تَمَسَّكُمْ بَحْسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ <sup>(٣)</sup> ) . أما الفعل ، فهو غيبة وكذب ، وهو عمل صادر عن الحسد ، وليس هو عين الحسد . بل عمل الحسد دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظامة يجب الاستحلال منها ، بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح .

فأما إذا كُففت ظاهرِك ، وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع ، من حب زوال النعمة ، حتى كأنك تحقت نفسك على ما في طبعها ، فتكون تلك الكراهة من جهة العقل ، في مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أدبت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارِك في أغلب الأحوال أكثر من هذا

فأما تغيير الطبع ، ليستوى عنده المؤذى والمحسن ، ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة ، أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ، مادام ملتفتنا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى ، مثل السكران الواله . فقد ينتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة ، وهي عين الرحمة . ويرى الكل عباد الله ، وأفعالهم أفعالا لله ، ويراهم مسخرين . وذلك إن كان ، فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ، ويمود العدو إلى منازعته ، أعنى الشيطان ، فإنه ينازع بالوسوسة . فهما قابل ذلك بكراهته ، وألزم قلبه هذه الحالة ، فقد أدى ما كلفه .

وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يَأْتُم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه ، لما روى عن الحسن ، أنه سئل عن الحسد فقال ، غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده . وروى عنه موقوفا

(١) الحشر : ٩ ( ) النساء : ٨ (٢) آل عمران : ١٣٥

ومرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاثة لا يخلو منهن المؤمن ولا منهن مخرج»  
فخرجه من الحسد أن لا يبغى .

والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه ، من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل ،  
في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو . وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع  
ما ورد من الأخبار في ذم الحسد ، يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم . ثم الحسد عبارة عن صفة  
القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذا كونه آثماً بمجرد  
حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد . وإلا ظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات  
والأخبار ، ومن حيث المعنى . إذ يبعد أن يعنى عن العبد في إرادته إساءة مسلم ، وإشماله  
بالقلب على ذلك من غير كراهة . وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال  
أحدها : أن تحب مسأئهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك ، وميل قلبك إليه بعقلك ،  
وتمقت نفسك عليه ، وتود لو كانت لك خيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه  
قطعا ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه

الثاني : أن تحب ذلك ، وتظهر الفرح بمسأئته ، إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو  
الحسد المحظور قطعا

الثالث : وهو بين الطرفين ، أن تحسد بالقلب ، من غير مقت لنفسك على حسدك ،  
ومن غير إنكار منك على قلبك ، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه ،  
وهذا في محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلو عن إثم ، بقدر قوة ذلك الحب وضعفه ،

والله تعالى أعلم

والحمد لله رب العالمين ، وجيبنا الله ونعم الوكيل

كتاب ذم الدنيا

## كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتها ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها ، حتى نظروا في شواهدا وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها ، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ، ولا يبق مرجوها بخوفها ، ولا يسلم طالعها من كسوفها . ولكنها في صورة امرأة مليحة ، تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصلها . ثم هي فرارة عن طلابها ، شحيحة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها . إن أحسنت ساعة ، أساءت سنة . وإن أساءت مرة ، جمعتها سنة . فدوائر إقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيتها خاسرة بائرة ، وآفاتنا على التوالي لصدور طلابها راشقة ، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة فكل مغرور بها إلى الذل مصيره ، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره . شأنها الهرب من طالبها ، والطلب لها ربها . ومن خدمها فاتته ، ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ، ولا ينفك سرورها عن المنغصات سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم . فهي خداعة مكاراة طيارة فرارة ، لاتزال تزين لطلابها ، حتى إذا صاروا من أحببها ، كثرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها ، وكشفت لهم عن مكنون عجايبها ، فأذاقتهم قوائل سماها ورشقتهم بصوائب سهامها ، بينما أصحابها منها في سرور وإنعام ، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد . إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس ، جعلته حصيدا كأن لم يفن بالأمس . تمنى أصحابها سرورا ، وتعدم غزورا ، حتى يأملون كثيرا ، ويبنون قصورا ، فتصبح قصورهم قبورا ،

وجمعهم بورا ، وسعيهم هباء منشورا ، ودعائهم ثبورا ، وهذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا  
والصلاة على محمد عبده ورسوله ، المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا ، وسراجا منيرا ، وعلى  
من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا . وعلى الظالمين نصيرا ، وسلم تسليما كثيرا  
أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله ، وعدوة لأوليائه الله ، وعدوة لأعداء الله  
أما عداوتها لله ، فإنها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها  
وأما عداوتها لأوليائه الله عز وجل ، فإنها تزينت لهم بزینتها ، وعمتهم بزهرتها ونضارتها  
حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها

وأما عداوتها لأعداء الله ، فإنها استدرجتهم بكمها وكيدها ، فاقتنصتهم بشبكتها ،  
حتى وثقوا بها ، وعولوا عليها ، فخرلثهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجتثوا منها حسرة تقطع  
دونها الأكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد ، فهم على فرانها يتحسرون ، ومن مكايدها  
يستغيثون ولا يغاثون ، بل يقال لهم اخسوا فيها ولا تكلمون ( أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا  
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ )<sup>(١)</sup>  
وإذا عظمت غوائل الدنيا وشروورها ، فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا ، وما هي ،  
وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ، وما مدخل غرورها وشروورها ، فإن من لا يعرف الشر  
لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم الدنيا ، وأمثلتها وحقيقتها ، وتفصيل معانيها  
وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله  
بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى ، وهو المعين على ما يرتضيه

## بيان

### ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكث القراء ان مشتغل على ذم الدنيا ، وصرف  
الخلق عنها ، ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك  
فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القراء ان لظهورها ، وإنما نورد بعض الاخبار الواردة فيها

(١) القرينة: ٤٦

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> مر على شاة ميتة ، فقال  
« أَتَرُونَ هَذِهِ الشَّاةَ هَيَّئَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ » قالوا من هو أنها ألقوها : قال « وَالَّذِي  
تَفْسِي يَدِيهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ عَلَى أَهْلِهَا وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ  
عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَأْسَى كَأَفْرَأَمِنَهَا شَرَّ بَتَمَاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « الدُّنْيَا  
سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ  
مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ اللَّهُ مِنْهَا » وقال أبو موسى الأشعري<sup>(٤)</sup> قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَّ بِأَخْرَجَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَّ بِدُنْيَاهُ فَأَبْرُوا  
مَا بَيْنِي عَلَى مَا بَيْنِي » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »

<sup>(٦)</sup> وقال زيد بن أرقم ، كنا مع أبي بكر الصديق رضی الله عنه ، فدعا بشراب ، فأثني بقاء  
وعسل . فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، وسكتوا وما سكت . ثم عاد وبكى  
حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسأله . قال ثم مسح عينيه ، فقالوا يا خليفة رسول الله  
ما أبكاك ؟ قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت يده يدفع عن نفسه شيئا ولم أرمعه  
أحدًا . فقلت يا رسول الله ، ما الذي تدفع عن نفسك ؟ قال « هَذِهِ الدُّنْيَا مَثَلْتُ لِي فَقُلْتُ »

### ﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

( ١ ) حديث مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على صاحبها - الحديث : ابن ماجه والحاكم وصحیح

استاده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذی وقال حسن صحیح ورواه الترمذی  
وابن ماجه من حديث الستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر

( ٢ ) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبي هريرة

( ٣ ) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها : الترمذی وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد الاذکر الله

وما والاہ وعالم ومتعلم

( ٤ ) حديث أبي موسى الأشعري من أحب دنياه أضرب آخريته - الحديث : أحمد والبخاري والطبرانی

وابن حبان والحاكم وصححه

( ٥ ) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة : ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه

من رواية الحسن مرسلًا

( ٦ ) حديث زيد بن أرقم كنا مع أبي بكر فدعا بشراب فأثني بقاء وعسل فلما أدناه من فيه بكى - الحديث :

وفيه كت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يده يدفع عن نفسه شيئا - الحديث : البرار

بسند ضعيف نحوه والحاكم وصححه استاده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بالقطعة



لَهَا إِلَيْكَ عَنِّي ثُمَّ رَجَعَتْ فَقَالَتْ إِنَّكَ إِنْ أَفَلْتِ مِثِّي لَمْ يُفَلِتْ مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ »  
 وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يَا عَجَبًا كُلُّ الْمَجْجِبِ لِلْمُصَدِّقِ بَدَارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَسْتَعِي  
 لِدَارِ الْغُرُورِ » وروى <sup>(٢)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة ، فقال « هَلُمُّوا  
 إِلَى الدُّنْيَا » وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة ، وعظاما قد نخرت ، فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا »  
 وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخاق مثل تلك الخرق ، وأن الأجسام التي ترى بها  
 ستصير عظاما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوةٌ خَصْرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ  
 مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ إِنْ بَنَيْتُمْ بُنْيَانًا لِمَا بَسَطَ اللَّهُ لَكُمْ الدُّنْيَا وَمَهَّدَتْ  
 تَأْهُوَانِي الحِلْيَةَ وَالنِّسَاءَ وَالطَّيِّبَ وَالثِّيَابَ »

وقال عيسى عليه السلام ؛ لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيدا . اكنزوا كنزكم عند من  
 لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة  
 وقال عليه أفضل الصلاة والسلام ، يامعشر الحواريين ، إني قد كبيت لكم الدنيا على وجهها  
 فلا تنعشوها بعدى . فإن من خبت الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبت الله نيا أن الآخرة لا تترك  
 إلا بتركها ، ألافهرو الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة  
 ماعة أورت أهلها حزنا طويلا . وقال أيضا ، بطحت لكم الدنيا ، وجلستم على ظهرها ، فلا ينازعكم  
 فيها الملوك والنساء . فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا ، فإنهم لن يمرضوا لكم ما تركتموهم وديانهم .  
 وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضا ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة  
 تطلبه الدنيا ، حتى يستكمل فيها رزقه . وطالب الدنيا تطلبه الآخرة ، حتى يجي الموت فيأخذ بعنقه

( ١ ) حديث يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسمى لدار الغرور : ابن أبي الدنيا من حديث  
 أبي جرير مرسل

( ٢ ) حديث أنه وقف على مزبلة فقال هلموا إلى الدنيا - الحديث : ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا واليهيقي في شعب

الايمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسل وفيه بهية بن الوليد وقد عتمته وهو مدلس

( ٣ ) حديث ان الدنيا حاوة خصرة وان الله مستخلفكم فيها فانظر كيف تعملون - الحديث : الترمذي وابن ماجه

من حديث أبي شعيبه حين قوله ان بنى اسراييل الخ والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا

من حديث الحسن مرسل بالزيادة التي في آخره

وقال موسى بن يسار<sup>(١)</sup> . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنَّهُ مُنْذُ خَلَقَهَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا » وروى أن سليمان ابن داود عليهما السلام ، مرفى موكبه والطير تطله ، والجن والإنس عن يمينه وشماله ، قال فربما بد من بنى اسرائيل ، فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال فسمع سليمان وقال ، لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فإن ما أعطى ابن داود يذهب ، والتسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْبَيْتَ أَوْ لَبَيْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَقْبَيْتَ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَمَالٌ مَنْ لَامَالَ لَهُ وَهَلَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعْقَلَ لَهُ وَعَلَيْهَا يُعَادَى مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَعَلَيْهَا يَحْسُدُ مَنْ لَا فِقْهَ لَهُ وَهَلَا يَسْعَى مَنْ لَا يَقِينُ لَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبْرُ هَمِّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَالزَّمَّ اللَّهُ قَلْبَهُ أَرْبَعِ خِصَالٍ هَمًّا لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَبَدًا وَشُغْلًا لَا يَتَفَرَّغُ مِنْهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ أَبَدًا وَأَمَلًا لَا يَبْلُغُ مُتْنَهَاءَ أَبَدًا » وقال أبو هريرة ،<sup>(٥)</sup> قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَا أُرِيكَ الدُّنْيَا جَمِيعًا بِمَا فِيهَا ؟ » فقلت بلى يا رسول الله . فأخذ بيدي ، وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيهارءوس أناس ، وعذرات ، وخرق ، وعظام ، ثم قال « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هَذِهِ

( ١ ) حديث موسى بن يسار ان الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها

ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا والبيهق في الشعب من طريقه وهو مرسل

( ٢ ) حديث ألهاكم الكثرة يقول ابن آدم مالى مالى - الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن الشيخ

( ٣ ) حديث الدنيا دار من لادار له - الحديث : أحمد من حديث عائشة مقتصر على هذا وعلى قوله ولها يجمع

من لا عقل له دون بقية وزاد ابن أبي الدنيا والبيهق في الشعب من طريقه ومال من لا مال له واسناده جيد

( ٤ ) حديث من أصبح والدنيا أكبر همهم فليس من الله في شيء ، وألزم الله قلبه أربع خصال - الحديث :

الطبرانى فى الأوسط من حديث أبي ذر دون قوله وألزم الله قلبه الخ وكذلك رواه ابن أبي الدنيا

من حديث أنس باسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب

الفرديوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف

( ٥ ) حديث أبي هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأتى بى واديا من أودية

المدينة فإذا مزبلة - الحديث : لم أجده أصلا

الرؤوس كانت تحرّص كحِرِّصِكُمْ وَتَأْمَلُ كَأَمَانِكُمْ ثُمَّ هِيَ الْيَوْمَ عِظَامٌ بِلَا جِلْدٍ ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ زَمَادًا وَهَذِهِ الْعَذْرَاتُ هِيَ الْوَأْنُ أُطْعِمْتِهِنَّ اِكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اِكْتَسَبُوهَا ثُمَّ قَذَفُوهَا فِي بُطُونِهِمْ فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامُونَهَا وَهَذِهِ الْحِرَقُ الْبَالِيَةُ كَانَتْ وَيَأْسَهُمْ وَلِيَأْسَهُمْ فَأَصْبَحَتْ وَالرِّيَّاحُ تُصَفِّقُهَا وَهَذِهِ الْعِظَامُ عِظَامُ ذَوَابِهِم الَّتِي كَانُوا يَنْتَجِمُونَ عَلَيْهَا أَطْرَافَ الْبِلَادِ فَمَنْ كَانَ بَأْكِيًّا عَلَى الدُّنْيَا فَلْيَتَبَكَّ « قال فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا و يروى أن الله عز وجل ، لما أهبط آدم إلى الأرض ، قال له ابن للخراب ، ولد للفناء وقال داود بن هلال ، مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام ، يادنيا ما هونك على الأبرار الذين تصنعت و تزينت لهم ، إني قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك ، وما خلقتهم خلقا أهون على منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير ، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدوى لأحد ، ولا يدوم لك أحد ، وإن يخجل بك صاحبك وشرح عليك . طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا ، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة . طوبى لهم و ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلى من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم ، والملائكة حافون بهم ، حتى يبلغهم ما يرجون من رحمتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «الدُّنْيَا مَوْقُوفَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا وَتَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا رَبِّ اجْعَلْنِي لِأَذَى أَوْ لِيَأْسِكِ الْيَوْمَ نَصِيْبًا فَيَقُولُ اسْكُنِي يَا لَأَشَى إِنْ لَمْ أَرْضَكَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَرْضًا لَهُمْ الْيَوْمَ » . وروى في أخبار آدم عليه السلام ، أنه لما أكل من الشجرة ، تحركت معدته لخروج السقل ، ولم يكن ذلك مجعولا في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة . فلذلك نهى عن أكلها . قال فجعل يدور في الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه ، فقال له قل له أي شيء تريد ؟ قال آدم ، أريد أن أضع ما في بطني من الأذى فقيل للملك قل له في أي مكان تريد أن تضعه ؟ على الفرش ؟ أم على السرير ؟ أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ أهبط إلى الدنيا

( ١ ) حديث الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها - الحديث : تقدم بعضه من رواية

موسى بن يسار من سلا ولم أجد باقية

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَيَجِيئنَ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْمَاهُمْ كَجِبَالِ تِهَامَةَ فَيُؤْمَرُونَ إِلَى النَّارِ » قالوا يا رسول الله ، مصلين ؟ قال « نَعَمْ كَانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُذُونَ هِنَةَ مِنَ اللَّيْلِ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَتَبَّوْا عَلَيْهِ »

وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه <sup>(٢)</sup> « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ فَلْيَتَزَوَّدِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ وَالَّذِي تَفْسَى بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ » .

وقال عيسى عليه السلام ، لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام ، قال لنوح عليه السلام ، يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال كدار لها بابان ، دخلت من أحدها وخرجت من الآخر . وقيل لعيسى عليه السلام ، لو أخذت بيتا يكتنك ، قال يكفيننا خلقان من كان قبلنا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت » وعن الحسن قال <sup>(٤)</sup> خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجمعه بصيراً إلا إنه من رغب في الدنيا وطال أملة فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أملة أعطاه الله علماً يغير تعلمه وهدى هداية إلا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم »

( ١ ) حديث ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهمامة فيؤمرهم إلى النار - الحديث : أبو نعيم في الحلية

من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضا

( ٢ ) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قدمضى - الحديث : البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع

( ٣ ) حديث احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت : ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية

أبي الدرداء الرهاوى مرسلا وقال البيهقي ان بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة

قال الذهبي لا يدري من أبو الدرداء قال وهذا منكر لا أصل له

( ٤ ) حديث الحسن هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى - الحديث : ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب

من طريقه هكذا مرسلا وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم

اُمْلِكُ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجْبِيرِ وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْفَقْرِ وَالبُخْلِ وَلَا الْمَحَبَّةَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى  
 إِلَّا قَنَ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ مِنْكُمْ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى وَصَبَرَ عَلَى الْبِقْضَاءِ  
 وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَصَبَرَ عَلَى الدُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى  
 أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صِدِّيقًا . وروى أن عيسى عليه السلام ، اشتد عليه المطر  
 والرعد والبرق يوما ، فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه ، فوقعت عينه على خيمة من بعيد ، فأتاها  
 فإذا فيها امرأة ، فجاد عنها ، فإذا هو بكهف في جبل ، فأتاه ، فإذا فيه أسد . فوضع يده  
 عليه وقال ، إلهي جعلت لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لي مأوى . فأوحى الله تعالى إليه ،  
 مأواك في مستقر رحمتي ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها يدي ، ولأطعمن في  
 عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمر الدنيا ، ولأمرن مناديا ينادي أين الزاهد في الدنيا  
 زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى بن مريم . وقال عيسى بن مريم عليه السلام ، ويل  
 لصاحب الدنيا ، كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتفتره ويأمنها ، ويثق بها وتخذله . وويل  
 للمعتزين ، كيف أرتهم ما يكرهون ، وفارتهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون . وويل لمن  
 الدنيا همه ، والخطايا عمله ، كيف يفتضح غدا بذنبه . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ،  
 يا موسى ، مالك ولد دار الظالمين ؛ إنها ليست لك بدار ، أخرج منها همك ، وفارقها بمقلك ، فبئست  
 الدار هي ، إلا لتامل بعمل فيها ، فنمت الدار هي . يا موسى ، إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم  
 وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ، بعث أبا عبيدة بن الجراح ، فجاءه مال  
 من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فعرضوا له ، فتبسم  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، ثم قال « أَطُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنْ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ ؟ »  
 قالوا أجل يا رسول الله . قال « فَأَبَشِّرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ  
 وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بَسِطْتُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا

(١) حديث بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاءه مال من البحر ين فسمعت الانصار بقدوم أبي عبيدة متفق عليه

من حديث عمرو بن عوف البدرى

كَمَا تَنَافَسُوها فَهَلِكْكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ» وقال أبو سعيد الخدري، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ» فقيل ما بركات الأرض؟ قال «زَهْرَةُ الدُّنْيَا» وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «لَا تَشْفَعُوا قُدُوبَكُمْ بِذِكْرِ الدُّنْيَا» فهي عن ذكرها، فضلا عن إصابة عيها

وقال عمار بن سعيد: مر عيسى عليه السلام بقرية، فإذا أهلها موتى في الآفنية والطرق فقال يامعشر الحواريين، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا. فقالوا يا روح الله، وددنا أن لو علمنا خبرهم. فسأل الله تعالى، فأوحى إليه، إذا كان الليل فنادهم بجيبوك. فلما كان الليل، أشرف على نثر، ثم نادى يا أهل القرية، فأجابه مجيب لبيك يا روح الله. فقال ما حالكم وما قصتكم؟ قال بتنا في عافية، وأصبحنا في الهاوية. قال وكيف ذلك؟ قال بحبنا الدنيا، وطاعتنا أهل المعاصي. قال وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها، وإذا أدبرت حزنا وبكيننا عليها. قال فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال لأنهم ملجمون بلجم من نار، بأيدي ملائكة غلاظ شداد. قال فكيف أجبتني أنت من بينهم؟ قال لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفيع جهنم، لا أدري أنجو منها أم أكبكب فيها. فقال المسيح للحواريين، لا تاكل خبز الشعير بالملح الجريش، ولبس المسوح، والنوم على المزابل، كثير مع عافية الدنيا والآخرة وقال أنس <sup>(٣)</sup>: كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم المضيئة لا تسبق. فجاء أعرابي بناقته فسبقها، فشق ذلك على المسامين، فقال صلى الله عليه وسلم «إِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ» وقال عيسى عليه السلام، من الذي يبني على موج البحر دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا. وقيل لعيسى عليه السلام علمنا عاما واحدا يحبنا الله عليه. قال ابتغوا الدنيا يحبكم الله تعالى.

(١) حديث أبي سعيد أن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض - الحديث: متفق عليه

(٢) حديث لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا البهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثي مرسلا

(٣) حديث أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم المضيئة لا تسبق - الحديث: وفيه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا الا وضعه البخاري

وقال أبو الدرداء (١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أُنِّمْتُ لَصَحَّحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَّيْتُمْ كَثِيرًا وَلَهَانَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلَا تَرْتَمُوا الْآخِرَةَ » ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه ، لو تعلمون ما أعلم ، لخرجتم إلى الصدقات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتكم أموالكم لأحارس لها ، ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل ، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرت ما كالدنيا لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبتها . مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ، ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البر لتحابتم . مالكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ، ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويمينه على أمر آخرته . ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم . لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا ، لآثرتم طلب الآخرة ، لأنها أملك لأموالكم . فإن قلتم حب العاجلة غالب ، فإننا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها ، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف ، في طلب أمر لعلكم لا تدركونه ، فيئس القوم أنتم ، ما حققت إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فاثبتونا لنبيين لكم ، ولتريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم . والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فمذركم . إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم ، وتأخذون بالحزم في أموركم . مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه ، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب ، وتقيمونها فيها المآثم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ، ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ، ولا يتغير حالكم . إني لأرى الله قد تبرأ منكم يلقي بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره ، مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله . فاصطحبتم على الفل ، ونبئت مراعيكم على الدمن ، وتصافيتم على رفض الأجل

( ١ ) حديث أبي الدرداء ، لو تعلمون ما أعلم لصححتكم قليلا ولبكيتكم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولا ترم الآخرة

الطبراني دون قوله ولهانت الخ وزاد لخرجتم إلى الصدقات - الحديث : وزاد الترمذي وابن ماجه

من حديث أبي ذر وماتلذتم بالنساء على الفرش وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة

ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم ، وألحقني بمن أحب رؤيته ، ولو كان حيا لم يصابركم .  
فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم ، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على  
نفسى وعليكم . وقال عيسى عليه السلام ، يامعشر الجواريين ، ارضوا بدنىء الدنيا مع  
سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا . وفي معناه قيل  
أرى رجلا بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا فى العيش بالدون  
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام ، ياطالب الدنيا لتبر ، تركك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله  
عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَتَأْتِيَنَّكُمْ بَعْدِي دُنْيَا تَأْكُلُ إِيمَانَكُمْ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وأوحى  
الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، ياموسى لا تركنن إلى حب الدنيا ، فلن تأتيني بكبيرة  
هي أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ، ورجع وهو يبكى . فقال موسى ،  
يارب عبدك يبكى من مخافتك . فقال يابن عمران ، لو سال دماغه مع دموع عينيه ، ورفع  
يديه حتى يسقطا ، لم أغفر له وهو يحب الدنيا

الآثار : قال على رضى الله عنه ، من جمع فيه ست خصال ، لم يدع للجنة مطبلا . ولا عن النار  
مهريا . أولها من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف  
الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما  
كانت الدنيا عندهم وديمة ، فأدوها إلى من اتتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا  
رحمه الله ، من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره

وقال لقمان عليه السلام لابنه ، يابنى ، إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن  
سفينةك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشرعها التوكل على الله  
عز وجل ، لملك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل ، طالت فكرتى فى هذه الآية  
( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا  
صَعِيدًا جُرُزًا <sup>(١)</sup> ) وقال بعض الحكماء ، إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا ، إلا وقد كان

( ١ ) حديث لثابت بن كيسان ، يمدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب لم أجده له أصلا



له أهل قبلك ، وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا ، إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك في أكله ، وصم عن الدنيا ، وأفطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار . وقيل لبعض الرهبان ، كيف ترى الدهر ؟ قال يخلق الأبدان ، ويمجد الآمال ويقرب المنية ، ويبعد الأمنية . قيل فما حال أهلها ؟ قال من ظفر به تعب ، ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمرى عن قليل يلومها  
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها تكدر ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعجة زائلة أو بلية نازلة ، أو منية قاضية . وقال بعضهم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها ، قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها ، لم يمط منها شيئاً إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها ، لم يمط منها شيئاً إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبي حازم ، أشكو إليك حب الدنيا ، وليست لي بدار . فقال انظر ما آتاك الله عز وجل منها ، فلا تأخذها إلا من حله ، ولا تضعه إلا في حقه ، ولا يضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا ، لأنه لو أخذ نفسه بذلك لأتعبه ، حتى يتبرم بالدنيا ، ويطلب الخروج منها . وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئاً ، فيجىء في طلبه فيأخذك . وقال الفضيل . لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبق ، لسكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبق ، على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى ، على ذهب يبق ! وقال أبو حازم ، إياكم والدنيا ، فإنه بلغني أنه يوقف المبيد يوم القيامة ، إذا كان معظماً للدنيا ، فيقال هذا عظم ما حقره الله . وقال ابن مسعود ، ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف ، وماله عارية . فالضيف مر تجل ، والعارية مردودة ، وفي ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا يبد يوماً أنت ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا ، فأقبلوا على ذمها ، فقالت اسكتوا عن ذكرها ، فلو لا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، إلا من أحب شيئاً أكثر من ذكره .

وقيل لإبراهيم بن آدم كيف أنت؟ فقال:

برقع دينا بنا بتزيق ديننا  
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع  
فطوبى لعبد آثر الله ربه  
وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضا في ذلك

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره  
ونال من الدنيا سرورا وأنما  
كعبان بنى بنيانه فأقامه  
فلما استوى ما قد بناه تهدهما

وقيل أيضا في ذلك

هب الدنيا تساق إليك عفوا  
أليس مصير ذاك إلى انتقال  
وما دنياك إلا مثل فيء  
أظلك ثم آذنت بالزوال

وقال لقمان لابنه، يا بني، بع دنياك بأخرتك تربيها جميعا. ولا تبع أخرتك بدنياك تخسرهما جميعا. وقال مطرف بن الشخير، لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رباشهم ولكن انظر إلى سرعة طعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس، إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. وقال بعضهم، الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاشر الكلاب. وفي ذلك قيل

يا خاطب الدنيا إلى نفسها  
تنح عن خطبتها تسلم  
إن التي تحطب غدارة  
قريبة العرس من المآتم

وقال أبو الدرداء، من هوان الدنيا على الله أنه لا يمضى إلا فيها، ولا ينال ما عنده

إلا بتركها. وفي ذلك قيل

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت  
له عن عدو في ثياب صديق

وقيل أيضا

ياراقه الليل مسرورا بأوله  
إن الجوارث قد يطرقن أسحارا  
أفنى القرون التي كانت منغمة  
كر الجديدين إقبالا وإدبارا  
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك  
قد كان في الدهر نفاعا وضرارا  
يا من يمانق دنيا لابقاء لها  
عسى ويصبح في دنياه مسفارا

هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تماق في الفردوس أبكارا  
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه ، لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أنت إبليس جنوده فقالوا ، قد بعث نبي وأخرجت أمة . قال يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم . قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان ؛ وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث ، أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، وإمساكه عن حقه . والشركة من هذا نبع . وقال رجل لعلي كرم الله وجهه ، يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا . قال وما أصف لك من دار من ضح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ؛ وفي حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال ، أطول أم أقصر ؟ فقيل قصر ، فقال حلالها حساب ، وحرامها عذاب

وقال مالك بن دينار ، اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ، يعني الدنيا . وقال أبو سليمان الداراني ، إذا كانت الآخرة في القلب ، جاءت الدنيا تراحمها . فإذا كانت الدنيا في القلب ، لم تراحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة ، وهذا تشديد عظيم ونرجوان يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال ، الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب ، فأيهما غلب كان الآخر تبعه . وقال مالك بن دينار ، بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه ، حيث قال ، الدنيا والآخرة ضرتان ، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن ، والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبألون أشرفت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا . وقال رجل للحسن ، ما تقول في رجل آتاه الله مالا ، فهو يتصدق منه ، ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيش فيه ، يعني يتنعم . فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ، وبقدر ذلك ليوم فقره .

وقال الفضيل ، لو أن الدنيا يخطفها عرضة على جلاله ، لا أحاسب عليها في الآخرة . لكنت أتقدرها ، كما يتقدر أخذكم الخليفة . إذا مر بها أن تصيب ثوبه . وقيل ، لما قدم عمر رضي الله عنه الشام : فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بجبل ، فسلم وسأله

ثم أتى منزله فلم يرفيه إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر رضي الله عنه ، لو اتخذت متاعا فقال يا أمير المؤمنين ، إن هذا يبلغنا المقييل . وقال سفيان ، خذ من الدنيا لبدنك ، وخذ من الآخرة لقلبك ، وقال الحسن ، والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا وقال وهب . قرأت في بعض الكتب ، الدنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الجهال ، لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه ، يا بني ، إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها ، واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها ، أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود ، إذا رأيت العبد تزداد دنياه ، وتنقص آخرته وهو به راض ، فذلك المغبون ، الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر

وقال عمرو بن العاص على المنبر ، <sup>(١)</sup> والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم . والله ما صر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له . وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ( فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ) من قال ذا ؟ قاله من خلقها ، ومن هو أعلم بها . إياكم وما شغل من الدنيا ، فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل ، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا ، مسكين ابن آدم ، رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، إن أخذته من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به . ابن آدم يستقل ماله ، ولا يستقله عمله . يفرح بمصيبته في دينه ، ويحز من مصيبته في دنياه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز ، سلام عليك ، أما بعد . فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قدمات . فأجابه عمر ، سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض ، الدخول في الدنيا هين ، ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم ، عجبا لمن يعرف أن الموت حق ، كيف يفرح ! وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ! وعجبا لمن رأى قلب الدنيا بأهلها ، كيف يطمئن إليها ! وعجبا لمن يعلم

(١) حديث عمرو بن العاص والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم . الحديث : الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان نحوه .

أن القدر حق ، كيف ينصب ! وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران ، عمره مائت سنة . فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال سنيات بلاء ، وسنيات رخاء . يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ، ويهلك هالك . فلولا المولود لباد الخلق ، ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له سل ماشئت . قال : عمر مضى فترده ، وأجل حضر فتدفعه . قال لا أملك ذلك . قال لا حاجة لي إليك وقال داود الطائي رحمه الله ، يا ابن آدم ، فرحت يباوغ أملك ، وإعما بلغت باقتضاء أجلك . ثم سوفت بعملك ، كأن منفعته لنفرك . وقال بشر ، من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم ، ما في الدنيا شيء يسرك ، إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث ، أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد : قد نلت الغنى . فقال إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا .

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا ، إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار ، اصطلحنا على حب الدنيا ، فلا يأمر بعضنا بعضا ، ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعري أى عذاب الله يتزل علينا . وقال أبو حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن ، أهينوا الدنيا ، فوالله ما هي لأحد بأهنا منها لمن أهانها . وقال أيضا ، إذا أراد الله بعبده خيرا ، أعطاه من الدنيا عطية ، ثم يمسك فإذا نقدا عاد عليه . وإذا هان عليه عبد ، بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول في دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك ، أمسك الدنيا عني . وقال محمد بن النكدر : رأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجاهد في سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة ، فيقال إن هذا عظم في عينه ما صنره الله ، وصغر في عينه ما عظمه الله ، كيف ترى يكون حاله ؟ فن منا ليس هكذا ؟ الدنيا عظيمة عنده ، مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا

وقال أبو حازم ، اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها لغولنا ، وأما مؤنة الدنيا ، فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها ، إلا وجدت فاجرا قدسبك إليه .

وقال أبو هريرة، الدنيا موقوفة بين السماء والأرض، كالشن البالي، تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها، يارب، يارب، لم تبغضني؟ فيقول لها اسكتي يا لاشيء. وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا، والذنوب في القلب قد احتوشته؟ فتى يصل الخير إليه؟ وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشيء من الدنيا، فقد أخطأ الحكمة. ومن جعل شهوته تحت قدميه، فرق الشيطان من ظله. ومن غلب عامسه هواه، فهو الغالب. وقيل لبشر، مات فلان. فقال جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ضيع نفسه. قيل له إنه كان يفعل ويفعل، وذكروا أبوابا من البر، فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا؟

وقال بعضهم، الدنيا تبغض إلينا نفسها، ونحن نحبها. فكيف لو تحببت إلينا. وقيل حكيم، الدنيا لمن هي؟ قال لمن تركها. فقيل الآخرة لمن هي؟ قال لمن طلبها. وقال حكيم، الدنيا دار خراب، وأخر ب منها قلب من يعمرها. والجنة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد، كان الشافعي، رحمه الله، من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظ أخاله في الله، وخوفه بالله، يقال يا أخي، إن الدنيا دحض مزلة، وداز مذلّة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر. شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف الإكثار فيها إعمار، والإعسار فيها إيسار، فافزع إلى الله، وارض برزق الله لا تتسلف من دار فئائك إلى دار بقائك، فإن عيشك في زائل، ووجدار مائل. أكثر من عمك، وأقصر من أملك وقال إبراهيم بن آدم لرجل: أدرم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال دينار في اليقظة. فقال كذبت، لأن الذي تحبه في الدنيا، كأنك تحبه في المنام. والذي لا تحبه في الآخرة، كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن اسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون إليك عنا يا خنزيرة. فلو وجدوا لها إسما أقبح من هذا سموها به. وقال كعب، لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها. وقال يحيى بن معاذ الرازي، رحمه الله المقلام ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضا، الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنحك لما يلبيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها. وقال بكر بن عبد الله، من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا، كان كقطن النار بالنار. وقال بندار، إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد، فاعلم أنهم في سخرة الشيطان

وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقتة نيرانها ، بمعنى الحرص ، حتى يصير رمادا . ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها ، فصار سبيكة ذهب ينتفع به . ومن أقبل على الله عز وجل ، أحرقتة نيران التوحيد ، فصار جوهر الأجل لقيمه .  
وقال على كرم الله وجهه ، إنما الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومركوب ، ومنكوح ، ومشوم . فأشرف المطعومات العسل ، وهو مذقة ذباب . وأشرف المشروبات الماء ، ويستوى فيه البر والفاجر . وأشرف اللبوسات الحرير ، وهو نسج دودة . وأشرف المركوبات الفرس ، وعليه يقتل الرجال . وأشرف المنكوحات المرأة ، وهي مبال في مبال . وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ، ويراد أبيض شيء منها . وأشرف المشمومات المسك ، وهو دم

## بيان

المواعظ في ذم الدنيا وصفها

قال بعضهم ، يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرت لكم بغرورها وقتنتكم بأمانيتها ، وتزينت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة . فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت . فانظروا إليها بعين الحقيقة ، فإنها دار كثير بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها بيل ، وملكها يفتى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت . فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتهبوا من رقدتكم ، قبل أن يقال فلان غليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ، ولا يرجي لك الشفاء . ثم يقال فلان أوصى ، ولما له أحصى . ثم يقال قد ثقل لسانه ، فما يكلم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه . وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنفك ، وثبتت بفتك ، وطمخت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجج لسانك ، ويكي إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ، ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطق . ثم حل بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك

إخوانك ، وأحضرت أ كفانك ففسلوك ، وكفنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسادك  
وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك

وقال بعضهم لبعض الملوك ، إن أحق الناس بدم الدنيا وقلها من بسط له فيها ، وأعطى  
حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تمدو على ماله فتجتاحه ، أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتي سلطانه  
قهرمه ، من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فلتسقمه ، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين  
أحبابه فالدينا أحق بالدم ، هي الآخذة ماتعطى . الراجعة فيما تهب . بينا هي تضحك  
صاحبها ، إذ أضحكت منه غيره . وبيننا هي تبكي له ، إذ أبكت عليه . وبيننا هي تبسط  
كفها بالإعطاء ، إذ بسطتها بالاسترداد . فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم ، وتمفره بالتراب  
غدا . سواء عليها ذهاب مذهب ، وبقاء ما بقى ، مجد في الباقي من الذاهب خلفا ، وترضى  
بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصري ، إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن  
الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة ، فاحذر  
يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها . لها في كل حين قتل ، تدل من  
أعزها ، وتفقر من جمعها . هي كالسم يأكله من لا يعرفه ، وفيه حتفه . فكن فيها كالمداوى  
جراحه ، يحمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء ، مخافة طول الداء .  
فاحذر هذه الدار الندارة ، الختالة الخداعة ، التي قد ترينت بخدعها ، وقتت بنورها ،  
ورحلت بآمالها ، وسوفت بخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب  
عليها والهمة ، والنفوس لها عاشقة . وهي لأزواجها كلهم قالية . فلا الباقي بالماضي معتبر ،  
ولا الآخر بالأول مزدجر ، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر . فعاشق  
لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ، ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه ، حتى زلت به قدمه ،  
فعمظت ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه ، وحسرات  
الفوت بفضته . وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ، ولم يروح نفسه من التمس ، فخرج  
بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فاحذر يا أمير المؤمنين ، وكن أسرما تكون فيها ، أحذر  
ما تكون لها . فإن صاحب الدنيا كلما اطمان منها إلى سرور شخصته إلى مكروه . السار  
في أهلها غار ، والنافع فيها غدار ضار . وقد وصل إلى خاتمها بالبلاء ، وجعل اليقاه فيها إلى فناء .



فسرورها مشوب بالأحزان ، لا يرجع منها ماولى وأدبر ، ولا يدري ما هوات ،  
 فينتظر . أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على  
 خطر ، إن عقل ونظر . فهو من النعماء على خطر ، ومن البلاء على حذر . فلو كان الخالق لم  
 يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونهبت الغافل  
 فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، قالها عند الله جل ثناؤه قدر  
 وما نظر إليها منذ خلقها <sup>(١)</sup> . ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها  
 لا ينقصه ذلك عند الله بخناح بموضة ، فأبى أن يقبلها ، إذ كره أن يخالف على الله أمره ،  
 أو يجب ما أبغضه خالقه ، أو يرفع ما وضعه ليصكه . فزواها عن الصالحين اختبارا ، وبسطها  
 لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها ، المقتدر عليها ، أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله  
 عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، <sup>(٢)</sup> حين شد الحجر على بطنه ، ولقد جاءت الرواية عنه  
 عن ربه عز وجل ، أنه قال لموسى عليه السلام ، إذا رأيت النغي مقبلا ، فقل ذنب عجبت  
 عقوبته . وإذا رأيت الفقر مقبلا ، فقل مرحبا بشعار الصالحين . وإن شئت اقتديت بصاحب  
 الروح والكلمة ، عيسى بن مريم عليه السلام ، فإنه كان يقول ، إداى الجوع ، وشعمارى  
 الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابى  
 رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الأرض ، أبيت وليس لى شىء ، وأصبح وليس لى  
 شىء . وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه ، لما بعث الله عز وجل  
 موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون ، قال لا يرو عنك لباسه الذى لبس من الدنيا ، فإنه  
 ناصيته ييدى ، ليس ينطق ، ولا يطرف ، ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنيك ما تمتع به منها  
 فإنما هى زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين . فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا ، يعرفه

(١) حديث الحسن وكتب به الى عمر بن عبد العزيز عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها - الحديث : ابن أبي الدنيا هكذا مرسل ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبي مويبة في أثناء حديث فيه انى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلافة ثم الجنة - الحديث : وسنده صحيح والترمذى من حديث أبي امامة عرض على وبنى ليجمع لى بطحاء مكة ذهباً - الحديث :

(٢) حديث الحسن مرسل فى شدة الحجر على بطنه : ابن أبي الدنيا أيضا هكذا ولبخارى من حديث أنس رفعتنا  
 طوتنا عن حجر حجر فرقع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين وقال حديث غريبه

فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما ، لفعلت . ولكنى أرغب بكما عن ذلك ،  
 فآزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفل بأوليائي ، إني لأزودهم عن نعيمها ، كما يذود الراعى الشفيق  
 غنمه عن مراتع الهلكة ، وإني لأجنبهم ملاذها ، كما يجنب الراعى الشفيق إبله  
 عن منازل الفرة . وما ذاك لهوانهم على ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما  
 موفرا . إنما يتزين لى أوليائي بالذل ، والخوف ، والخضوع ، والتقوى تنبت فى قلوبهم ،  
 وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التى يلبسون ، ودثارهم الذى يظهرون ، وضميرهم الذى  
 يستشعرون ، ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون  
 وسيامم التى بها يعرفون . فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذل لهم قلبك ولسانك .  
 واعلم أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا النائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة ، فقال فيها ، اعلموا أنكم ميتون ، ومبعوثون  
 من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ، ومجزيون بها . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها  
 باليلاء محفوفة ، وبالغناء معروفة ، وبالقدر موصوفة . وكل ما فيها إلى زوال ، وهى بين أهلها  
 دول وسجال . لا تدوم أحوالها ، ولا يسلم من شرها نزالها . بينا أهلها منها فى رخاء وشرور  
 إذا هم منها فى بلاء وغرور . أحوال مختلفة ، وتارات منصرفة ، العيش فيها مذموم ، والرخاء  
 فيها لا يدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها ، وتقصيمهم بمحامها ، وكل  
 حثفه فيها مقدوز ، وحظه فيها موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا  
 على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا ، وأشد منكم بطشا ، وأعمر ديارا ، وأبعد  
 آثارا . فأصبحت أصواتهم هامة خامة من بعد طول تقلبها ، وأجسادهم بالينة ، وديارهم على  
 عروشها خاوية ، وآثارهم نافية ، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والتمارق المهددة ،  
 للصخور والأحجار المسندة ، فى القبور اللاطئة الملحدة ، فحلها مقرب ، وساكنها مقرب  
 بين أهل عمارة موحشين ، وأهل محلة متشاغلين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون  
 تواصل الجيران والإخوان ، على ما بينهم من قرب المكان والجوار ، وذنوب النار . وكيف  
 يكون بينهم تواصل ، وقد طحنهم بكلكل البلاء ، وأكلتهم الجنادل والثرى ، وأصبحوا

بعد الحياة أمواتا ، وبعد نضارة العيش رفاتنا ، فجع بهم الأحباب ، وسكنوا تحت التراب  
وظعنوا فليس لهم إياب ، هيهات هيهات ( كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ  
إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ <sup>(١)</sup> ) فكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه ، من البلا والوحدة في دار الموتى  
وارتهتم في ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو عاينتم الأمور ، وبمئرت  
القبور ، وحصل ما في الصدور ، وأوقفتم للتحصيل ، بين يدي الملك الجليل . فطارت القلوب  
لإشفافها من سالف الذنوب ، وهتكت عنكم الحجب والأستار ، وظهرت منكم العيوب  
والأسرار ، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت . إن الله عز وجل يقول ( لِيَجْزِيَ الَّذِينَ  
أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى  
الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ <sup>(٣)</sup> ) الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه ، متبعين لأوليائه  
حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله ، إنه حميد مجيد . وقال بعض الحكماء ، الأيام سهام  
والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ، ويحترمك بلياليه وأيامه ، حتى يستغرق  
جميع أجزائك . فكيف بقاء سلامتك ، مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الليالي في بدنك  
لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص ، لاستوحشت . من كل يوم يأتي عليك  
واستثقلت ممر الساعات بك . ولكن تدير الله فوق تدير الاعتبار ، وبالسلوعن غوائل الدنيا  
وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من العلقم إذا عججها الحكيم . وقد أعييت الواصف لعيوبها  
بظهر أفعالها ، وما تأتي به من العجائب ، أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب  
وقال بعض الحكماء ، وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال ، الدنيا وقتك الذي يرجع  
إليك فيه طرفك ، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به . والدهر  
يوم مقبل تنماه ليلته ، وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان  
والدهر موكل بتشتيت الجماعات ، وانحرام الشمل ، وتنقل الدول . والأمل طويل ،  
والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور : وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فقال  
يأ أيها الناس ، إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم جمعي ، وإن كنتم تكذبون به  
فإنكم هلكي . إنما خلقتم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنقاون عباد الله ، إنسكم

في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لاتصفوا لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرر هون فراقها فاعملوا لما أتم صائرون إليه، وخالدون فيه ثم غلبه البكاء ونزل وقال على كرم الله وجهه في خطبته ، أوصيكم بتقوى الله ، والتكليف للتاركه لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المليية أجسامكم ، وأتم تريدون تجديدها . فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر ، سلكوا طريقا وكانهم قد قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه . وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية ، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حيث يطلبه حتى يفارقها . فلا تجزعو البؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تقر حوا يمتاعها ونعماتها فإنه إلى زوال . عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمنقول عنه وقال محمد بن الحسين ، لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها ، وخذرا أصحابه من فتنها ، أكلوا منها قصدا ، وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي ، وتركوا ما يلهي . لبسوا من الثياب ما ستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه مما سدا الجوع ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية ، وإلى الآخرة أنها باقية ، فزودوا من الدنيا كزاد الركب ، فخرىوا الدنيا ، وعمرىوا بها الآخرة . ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم ، فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم ، فارتجوا إليها بقلوبهم ، لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم . تعبوا قليلا ، وتمعموا طويلا . كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم

## بيان

صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سريرة الفناء ، قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ، ثم تخلف في الوفاء . تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عنيفا ، ومرحلة ارتحال سريعة . ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها ، فيطمئن إليها . وإنما يحس عند انقضاءها ومثالها الظل ، فإنه متحرك لما كان متحركا في الحقيقة ، ساكن في الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله ، أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل إن الليب بثلها لا يخذع  
وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، يتمثل كثيرا ويقول  
يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترارا بظل زائل حق

وقيل إن هذا من قوله

ويقال أن أعرايا نزل بقوم ، فقدموا إليه طعاما ، فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم  
فنام هناك ، فاقبلوا الخيمة ، فأصابته الشمس ، فاتتبه فقام وهو يقول  
ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوما أن ظلك زائل  
وكذلك قيل

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بجبل غرور

مثال آخر للدنيا ، من حيث التغيرير بخيالاتها ، ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها  
تشبه خيالات المنام ، وأضغاث الأحلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الدنيا  
حلمٌ وأهلها عليها مجازونٌ ومعاقبونٌ » وقال يونس بن عبيد ، ما شبهت نفسى فى الدنيا  
إلا كرجل نام ، فرأى فى منامه ما يكره وما يحب . فبينما هو كذلك إذ انتبه . فكذلك  
الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شىء مما ركنوا إليه ، وفرحوا به .

وقيل لبعض الحكماء ، أى شىء أشبه بالدنيا ، قال أحلام النائم

مثال آخر للدنيا ، فى عداوتها لأهلها ، وإهلاكها لبنيتها

اعلم أن طبع الدنيا التلطف فى الاستدراج أولا ، والتوصل إلى الإهلاك آخرا . وهو  
كامرأة تزين للخطاب ، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام  
كوشف بالدنيا ، فرآها فى صورة عجوز همام ، عليها من كل زينة ، فقال لها كم تزوجت  
قالت لا أحصيهم ، قال فكلمهم مات عنك أم كلمهم طلقك ؟ قالت بل كلمهم قتلت . فقال  
عيسى عليه السلام ، يؤسأ لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين !  
كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر !

(١) حديث الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون ؛ لم أجده أصلا

مثال آخر للدنيا ، في مخالفة ظاهرها لباطنها .

أعلم أن الدنيا مزينة الظواهر ، قبيحة السرائر . وهي شبه عجوز متزينة ، تخدع الناس بظاهرها ، فإذا وقفوا على باطنها ، وكشفوا القناع عن وجهها ، تمثل لهم قبائحها ، فندموا على اتباعها ، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها . وقال الملاء بن زياد ، رأيت في المنام عجوزا كبيرة ، متعصبة الجلد ، وعليها من كل زينة الدنيا ، والناس عكوف عليها معجبون ، ينظرون إليها . فجئت ونظرت وتمجبت من نظرم إليها ، وإقبالهم عليها . فقلت لها ويلك من أنت ؟ قالت أو ما تعرفني ؟ قلت لا أدري من أنت ، قالت أنا الدنيا . قلت أعوذ بالله من شرك . قالت إن أحببت أن تعاذ من شري فابنض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش ، رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شمطاء ، تصفق يديها ، وخلفها خلق يتبعونها بصفقون ويرقصون . فلما كانت بمحذائي ، أقبلت عليّ فقالت ، لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال ، رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . وقال الفضيل بن عياض ، قال ابن عباس ، يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها قتشرف على الخلائق ، فيقال لهم أترفون هذه ؟ فيقولون نعموذ بالله من معرفة هذه . فيقال هذه الدنيا التي تناحرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم وانغرتتم . ثم يقذف بها في جهنم ، فتنادى أي رب ، أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله عز وجل ، ألحقوا بها أتباعها وأشياعي . وقال الفضيل ، بلغني أن رجلا عرج بروحه ، فإذا امرأة على قارعة الطريق ، عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحدا إلا جرحته فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس ، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوزا شمطاء ، زرقاء عمشاء . قال فقلت أعوذ بالله منك . قالت لا والله ، لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم . قال فقلت من أنت ؟ قالت أنا الدنيا

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها

اعلم أن الأحوال ثلاثة ، حالة لم تكن فيها شيئا ، وهي ما قبل وجودك إلى الأزل . وحالة لا تكون فيها مشاهدا للدنيا ، وهي ما بعد موتك إلى الأبد . وحالة متوسطة بين الأبد والأزل ، وهي أيام حياتك في الدنيا . فانظر إلى مقدار طولها ، وانسبه إلى طرفي الأزل

والأبد ، حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير ، في سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم  
 (١) « مَالِي وَالِدُنْيَا وَإِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَرَفَعَتْ لَهُ  
 شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَهَا ظِلُّهَا سَاعَةٌ ثُمَّ زَاحَ وَتَرَ كَهَا ، وَمَنْ رَأَى الدُّنْيَا بِهَذِهِ الْعَيْنِ لَمْ يَرْكُنْ إِلَيْهَا  
 وَلَمْ يَبَالِ كَيْفَ انْقَضَتْ أَيَّامُهُ ، فِي ضَرِّ وَضَيْقٍ ، أَوْ فِي سَعَةٍ وَرَفَاهِيَةٍ . بَلْ لَا يَبْنِي لِبْنَةِ عَلِيٍّ لِبْنَةً  
 تُوْفَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢) ، وَمَا وَضَعَ لِبْنَةَ عَلِيٍّ لِبْنَةً ، وَلَا قَصْبَةَ عَلِيٍّ قَصْبَةَ (٣) .  
 وَرَأَى بَعْضَ الصَّحَابَةِ يَبْنِي بَيْتًا مِنْ جِصٍّ ، فَقَالَ أَرَى الْأَمْرَ أُعْجِلُ مِنْ هَذَا ، وَأَنْكَرُ ذَلِكَ  
 وَإِلَى هَذَا أَشَارَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ ، الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا . وَهُوَ  
 مِثَالُ وَاضِعٍ ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَعْبَرٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَالْمَهْدُ هُوَ الْمَيْلُ الْأَوَّلُ عَلَى رَأْسِ الْقَنْطَرَةِ وَاللَّحْدُ هُوَ  
 الْمَيْلُ الْآخِرُ . وَبَيْنَهُمَا مَسَافَةٌ مَحْدُودَةٌ . فَمَنْ النَّاسُ مِنْ قَطَعَ نِصْفَ الْقَنْطَرَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَطَعَ ثَلَاثَهَا ، وَمِنْهُمْ  
 مَنْ قَطَعَ ثَمَانِيَهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا خُطْوَةٌ وَاحِدَةٌ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهَا . وَكَيْفَمَا كَانَ فَلَا يَبْدُلُهُ  
 مِنَ الْعُبُورِ . وَالْبِنَاءُ عَلَى الْقَنْطَرَةِ ، وَتَرْبِيعُهَا بِأَصْنَافِ الزَّيْنَةِ ، وَأَنْتَ عَابِرٌ عَلَيْهَا ، غَايَةُ الْجَهْلِ وَالْخَذْلَانِ .  
 مِثَالُ آخِرِ الدُّنْيَا فِي لَيْنٍ مُورِدِهَا ، وَخَشُونَةٍ مُصْدَرِهَا

اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هيئة ليننة ، يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض  
 فيها ، وهيئات . فإن الخوض في الدنيا سهل ، والخروج منها مع السلامة شديد . وقد كتب  
 علي رضي الله عنه ، إلى سلمان الفارسي بمثلها فقال ، مثل الدنيا مثل الحية ، لين مسها ، ويقتل سمها .  
 فأعرض عما يعجبك منها . لقله ما يصحبك منها . وضع عنك همومها ، بما أيقنت من فراقها وكن أسر  
 ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها . فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام

(١) حديث مالى والدنيا انما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب - الحديث : الترمذى وابن ماجه والحاكم من

حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس

(٢) حديث ما وضع لبنة على لبنة - الحديث : ابن حبان في الثقات والطبراني في الأوسط من حديث

عائشة بسند ضعيف من سأل عنى أوسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشعر لم

يضع لبنة على لبنة في الحديث

(٣) حديث رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من جص فقال أرى الأمر أعجل من هذا : أبو داود والترمذى

من حديث عبدة الله بن عمرو وقال حسن صحيح

مثال آخر للدنيا ، في تعذر الخلاص من تبعثها بعد الخوض فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الدُّنْيَا كَالْمَاشِي فِي الْمَاءِ هَلْ يَسْتَطِيعُ الَّذِي يَمْشِي فِي الْمَاءِ أَنْ لَا تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ » وهذا يعرّفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم ، وقلوبهم منها مطهرة ، وعلاقتها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان . بل لو أخرجوا مما هم فيه ، لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها . فكما أن المشي على الماء يقتضى بلالا لا محالة يلتصق بالقدم ، فكذلك ملابسة الدنيا تقتضى علاقة وظلمة في القلب . بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة . قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع ، كذلك صاحب الدنيا ، لا يلتذ بالعبادة ، ولا يجيد حلاوتها مع ما يجيد من حب الدنيا . وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تتركب وتمتهن ، تصعب ويتغير خلقها . كذلك القلوب إذا لم ترفق بذكر الموت ، ونصب العبادة ، تقسو وتغلظ . وبحق أقول لكم ، إن الزرق مالم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل . كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات ، أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم ، فسوف تكون أوعية للحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاءٌ وَفِتْنَةٌ وَإِنَّمَا مَثَلُ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الْوِعَاءِ إِذَا طَابَ أَغْلَاهُ طَابَ أَسْفَلُهُ وَإِذَا خَبِثَ أَغْلَاهُ خَبِثَ أَسْفَلُهُ »

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة إلى ما سبق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَثَلُ هَذِهِ الدُّنْيَا مَثَلُ ثَوْبٍ شَقٌّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ قَبِيحٌ مُتَمَلِّقًا مَخِيطٌ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ »

- ( ١ ) حديث إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء - الحديث : ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن وقال بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره ووصله البيهقي في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس
- ( ٢ ) حديث إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة - الحديث : ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين ورجاله ثقات
- ( ٣ ) حديث مثلي بهذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره أبو الشيخ ابن جبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف



مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك

قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً حتى يقتله

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ، ولنضارة أولها ، وخبث عواقبها .

اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيدة ، كشهوات الأظعمة في المعدة . وسيجد العبد عند الموت . لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والتنقيح ، ما يجده للأظعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها . وكما أن الطعام كلما كان ألد طعماً ، وأكثر دسماً ، وأظهر حلاوة كان رجيحه أقدر وأشد تنناً ، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألد وأقوى ، فتنها وكرهاتها والتأذي بها عند الموت أشد . بل هي في الدنيا مشاهدة . فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد ، بقدر لذته به ، وحبه له . وحرصه عليه . فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألد ، فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت إلا بقدم ما في الدنيا . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> قال للضحاك ابن سفيان الكلابي « أَلَسْتَ تُؤْتِي بَطْعَامِكَ وَقَدْ مُلِحَ وَقُرِحَ ثُمَّ تَشْرَبُ عَلَيْهِ اللَّابَنَ وَالْمَاءَ » قال بلى . قال « فَأَلَيْمَ يَصِيرُ ؟ » قال إلى ما قد علمت يا رسول الله . قال « فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنْيَا بِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ طَعَامُ ابْنِ آدَمَ » . وقال أبي بن كعب <sup>(٢)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الدُّنْيَا ضُرِبَتْ مَثَلًا لِابْنِ آدَمَ فَانظُرْهُ إِلَى مَا يُخْرَجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ وَإِنْ قَذَحَهُ وَمَلَحَهُ إِلَى مَا يَصِيرُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الدُّنْيَا لِمَطْعَمِ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا وَضَرَبَ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا وَإِنْ قَزَحَهُ وَمَلَحَهُ » وقال الحسن ، قد

(١) حديث أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابي ألسنت تؤتى بطعامك وقد ملح وقرح - الحديث : وفيه

فان الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جهمان عتلف فيه

(٢) حديث أبي بن كعب ان الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم الحديث : الطبراني وابن حبان بلفظ أن

مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً ورواه عبد الله بن أحمد في زيادته بلفظ جعل

(٣) حديث أن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً - الحديث : الشطر

الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحالك بن سفيان ان الله ضرب

ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا

رأيتهم يطيبونهم بالأفاويه والطيب ، ثم يرمون به حيث رأيتهم . وقد قال الله عز وجل ،  
 ( فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ <sup>(١)</sup> ) قال ابن عباس ، إلى رجيعة . وقال رجل لابن عمر ، إني  
 أريد أن أسألك وأستحي . قال فلا تستحي وأسأل . قال إذا قضى أحدنا حاجته ، فقام ينظر  
 إلى ذلك منه . قال نعم ، إن الملك يقول له انظر إلى ما بخلت به ، انظر إلى ماذا صار . وكان  
 بشر بن كعب يقول ، انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة ، فيقول انظروا  
 إلى ثمارهم ، ودجاجهم ، وعسلهم ، وسمهم .  
 مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَاثِلٍ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ  
 إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ »

مثال آخر للدنيا وأهلها ، في اشتغالهم بنعيم الدنيا ، وغفلتهم عن الآخرة . وخسرانهم العظيم بسببها  
 اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم ، مثل قوم ركبوا سفينة ، فانهت بهم إلى جزيرة  
 فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة ، وحذرهم المقام ، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها  
 فنفرقوا في نواحي الجزيرة ، ففضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة ، فصادف المكان خاليا  
 فأخذ أوسع الأماكن ، وألينها ، وأوقفها لمراده . وبعضهم توقف في الجزيرة ، ينظر  
 إلى أنوارها ، وأزهارها العجيبة ، وغياضها المتلفة ، ونفحات طيورها الطيبة ، وألحانها الموزونة  
 الغريبة ، وصار يلجظ من بريتها أحجارها ، وجواهرها ، ومعادننا المختلفة الألوان والأشكال  
 الحسنة المنظر ، العجيبة النقوش ، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها ، وعجائب صورها  
 ثم تنبه لخطر فوات السفينة ، فرجع إليها ، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا حرجا ، فاستقر فيه  
 وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار ، وأعجبه حسننها ، ولم تسمح نفسه  
 بإهمالها ، فاستصحب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقا . وزاده ما حمله من الحجارة

( ١ ) حديث ما الدنيا في الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع اليه : مسلم من  
 حديث المستورد بن شداد

ضيقا . وصار ثقيلاً عليه ووبالا ، فندم على أخذه ، ولم يقدر على رميه ، ولم يجد مكانا للوضعه  
فحمله في السفينة على عنقه ، وهو متأسف على أخذه ، وليس ينفعه التأسف .  
وبعضهم تولى الغياض ، ونسى المركب ، وبعد في متخرجه ومتزهبه منه ، حتى لم يبلغه  
نداء الملاح ، لاشتغاله بأكل تلك الثمار ، واستشام تلك الأنوار ، والتفرج بين تلك  
الأشجار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع ، وغير خال من السقطات والنكبات  
ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه ، وغصن يجرح بدنه ، وشوكة تدخل في رجله . وهوت  
هائل يفرع منه ، وعوسج يحرق ثيابه ، ويهتك عورته ، ويعنعه عن الانصراف لو أراد  
فلما بلغه نداء أهل السفينة ، انصرف مثقلا بما معه ولم يجد في المركب موضعا ، فبقى في  
الشط حتى مات جوعا ، وبعضهم لم يبلغه النداء ، وصارت السفينة ، فذهب من اقتربته السباع  
ومنهم من تاه فهم على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات في الأوحال ، ومنهم من شهتته  
الحيات ، فتفرقوا كالخيف المنتنة وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار  
والأحجار ، فقد استرقتة ، وشغله الحزن بحفظها ، والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه  
مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار ، وكادت تلك الألوان والأحجار ، فظهرت  
رائحتها ، فصارت مع كونها مضيقة عليه ، مؤذية له بنتنها ووحشتها ، فلم يجد حيلة إلا أن  
ألقاها في البحر هربا منها . وقد أثر فيه ما أكل منها ، فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت  
عليه الأسقام بتلك الروائح ، فبلغ سقيما مدبرا . ومن رجع قريبا ، ما فاتته إلا الصعة المحل  
فأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ، ومن رجع أولا  
وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بمخوظاهم العاجلة ، ونسيانهم موردوم ومصيرهم  
وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تعرفه أحجار الأرض  
وهي الذهب والفضة ، وهشيم النبات ، وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عنه  
الموت ، بل يصير كلاً ووبالا عليه ، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه  
حال انطلق كلهم ، إلا من عصمه الله عز وجل

مثال آخر لا غترار الخلق بالدنيا وضمف إيمانهم

وقال الحسن رحمه الله (١) : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَفَاذَةَ غَبْرَاءَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْرُوا مَا سَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرَ أَوْ مَا قِيَّ أَنْفَدُوا الزَّادَ وَخَسِرُوا الظَّهْرَ وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي الْهَلَاكَةَ وَلَا زَادَ وَلَا حُمُولَةَ فَأَيُّقُنُوا بِالْهَلَاكَةِ فَيَبِينَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ تَقَطَّرُ رَأْسُهُ فَقَالُوا هَذَا قَرِيبٌ عَهْدٍ بَرِيفٌ وَمَا جَاءَكُمْ هَذَا إِلَّا مِنْ قَرِيبٍ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَالَ يَا هَوُلَاءِ فَقَالُوا يَا هَذَا فَقَالَ عَلَامَ أَتُمْ؟ فَقَالُوا عَلَى مَا رَأَى فَقَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءَ وَرِيَاءِ خُضْرٍ مَا تَعْمَلُونَ؟ قَالُوا لَا نَعْمَلُونَ شَيْئًا قَالَ عُهُودَكُمْ وَمَوَائِقَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ بِاللَّهِ لَا يَعْصُونَ شَيْئًا قَالَ فَأُورِدَهُمْ مَاءً رَوَاءَ وَرِيَاءًا خُضْرًا فَكَثَرَ فِيهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ يَا هَوُلَاءِ قَالُوا يَا هَذَا قَالَ الرَّحِيلُ قَالُوا إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ إِلَى مَاءٍ لَيْسَ كَمَا لَكُمْ وَإِلَى رِيَاءٍ لَيْسَتْ كَمَا بِأَضِيقِكُمْ فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا هَذَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّا لَنْ نَجِدَهُ وَمَا نَصْنَعُ بَعِيشٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ وَهُمْ أَقْلُهُمْ أَلَمْ نَمْطُوا هَذَا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ وَمَوَائِقَكُمْ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَعْصُوهُ شَيْئًا وَقَدْ صَدَقْتُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ فَوَاللَّهِ لَيَصْدُقَنَّكُمْ فِي آخِرِهِ فَرَأَحَ فِيمَنْ اتَّبَعَهُ وَتَخَلَّفَ بِقِيَّتِهِمْ فَبَدَّرَهُمْ عَدُوٌّ فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيرٍ وَقَتِيلٍ »

مثال آخر لتنع الناس بالدنيا ، ثم تهجمهم على فراقها .

اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا ، مثل رجل هيا دارا وزينها ، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد . فدخل واحد داره ، فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليتملكه ويأخذه ، فجهل رسمه .

(١) حديث الحسن بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه انما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفاذة غبراء - الحديث : ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لاحمد والبرار والطبراني من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث : وفيه فقال أي أحد الملكين ان مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سلفوا إلى مفاذة فذكر نحوه أنصر منه واسناده حسن

وظن أنه قد وهب ذلك منه، فتعلق به قلبه لما ظن أنه له . فلما استرجع منه ضجروا وتفجع . ومن كان عالما برسمه ، انتفع به وشكره ، وردده بطيب قلب وانشراح صدر وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا ، علم أنها دار ضيافة ، سببت على المجتازين لاعلى المقيمين ، ليتزودوا منها ، وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالهوارى ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم ، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها .  
فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها ، نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه

## بيان

حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ، ما لم تعرف الدنيا المذمومة ماهي ، وما الذي ينبغي أن يجتنب منها ، وما الذي لا يجتنب . فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة ، الأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ماهي فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الداني منها يسمى دنيا ، وهو كل ما قبل الموت . والمتراخي المتأخر يسمى آخرة ، وهو ما بعد الموت . فكل مالك فيه حظ ، ونصيب ، وغرض ، وشهوة ، ولذة ، عاجل الحال قبل الوفاة . فهي الدنيا في حقاك إلا أن جميع مالك إليه ميل ، وفيه نصيب وحظ ، فليس يذموم ، بل هو ثلاثة أقسام .  
القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة ، وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيطان ، العلم ، والعمل فقط . وأعني بالعلم العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وملكوت أرضه وسماؤه ، والعلم بشريعة نبيه . وأعني بالعمل ، العبادة الخالصة لوجه الله تعالى . وقد يأنس العالم بالعلم ، حتى يصير ذلك ألد الأشياء عنده ، فيهجر النوم ، والمطعم . والمنكح في لذته ، لأنه أشهى عنده من جميع ذلك . فقد صار عاجلا في الدنيا ، ولكننا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة ، لم نعد هذا من الدنيا أصلا ، بل قلنا إنه من الآخرة وكذلك العابد ، قد يأنس لعبادته فيستلذها ، بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم

المقوبات عليه ، حتى قال بعضهم ، ما أخاف من الموت إلا من حيث يجول بيني وبين قيام الليل . وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوة الصلاة ، والركوع ، والسجود في القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة ، وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه ، من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكننا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحسن والمشاهدة فهو من عالم الشهادة ، وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع ، والسجود ، إنما يكون في الدنيا ، ، فلذلك أضافها إلى الدنيا ، إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا للمذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني ؛ وهو المقابل له على الطرف الأقصى ، كل ما فيه حظ عاجل ، ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً ، كالتلذذ بالمعاصي كلها ، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات ، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحراث ، والغلمان ، والجوارى ، والخيول ، والمواشى ، والقصور ، والدور ، ورفع الثياب ، ولذائذ الأطعمة . فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة . وفيما يعد فضولاً ، أوفى محل الحاجة ، نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضي الله عنه ، أنه استعمل أبا الدرداء على حمص ، فاتخذ كنيفاً أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر ، من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك في بناء فارس والروم ، ما نكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فقد سيرتلك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رآه فضولاً من الدنيا فتأمل فيه .

القسم الثالث ، وهو متوسط بين الطرفين ، كل حظ في العاجل ، معين على أعمال الآخرة . كقدر القوت من الطعام ، والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة ، التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم

(١) حديث حبيب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة : النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله ثلاث وتقدم في النسخ

الأول ، لأنه معين على التقسيم الأول ، ووسيلة إليه فيها تناول العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل ، لم يكن به متناولاً للدنيا ، ولم يصبر به من أبناء الدنيا . وإن كان بلغه الحظ العاجل ، دون الاستعانة على التقوى ، التحق بالتقسيم الثاني ، وصار من جملة الدنيا ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات ، صفاء القلب ، أعني طهارته عن الأدناس وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله عز وجل . و صفاء القلب و طهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا . والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى ، والمواظبة عليه ، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر . وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت . أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا ، فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله ، كما ورد في الأخبار <sup>(١)</sup> « أن أعمال العبد تُنازل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه » الحديث

وأما الأنس والحب فهما من المسعدات ، وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت ، إلى أن يدخل أواب الرزية في الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة . وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ، ولم يكن له إلا محبوب واحد ، وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ، ومطالمة جماله فازتفتت العوائق ، وأقلت من السجن ، وخلى بينه وبين محبوبه ، فقدم عليه مسروراً سليماً من الموانع ، آمناً من العوائق ، وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ، ولم يكن له محبوب إلا الدنيا ، وقد غصب منه ، وحيل بينه وبينه ، وسدت عليه طرق الحياة في الرجوع إليه . ولذلك قيل

مّا حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

(١) حديث مناقلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه - الحديث : الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزيمى ضعفه البخاري وأبو حاتم ولاحمد من حديث أسماء بنت أبي بكر إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أخيراً عمله الصلاة والصيام الحديث : واستلذه صحيح

وليس الموت عدما - إنما هو فراق لحباب الدنيا ، وقدوم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو اللواطب على أسباب هذه الصفات الثلاث ، وهى الذكر ، والفكر ، والعمل الذى يقطعه عن شهوات الدنيا ، وينفض إليه ملاذها ، ويقطعه عنها . وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن . وصحة البدن لا تنال إلا بقوت ، وملبس ، ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذى لا بد منه من هذه الثلاثة ، إذا أخذه المبد من الدنيا للآخرة ، لم يكن من أبناء الدنيا ، وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة . وإن أخذ ذلك لحظ النفس ، وعلى قصد التمتع ، صار من أبناء الدنيا ، والراغبين فى حظوظها . إلا أن الرغبة فى حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ، ويسمى ذلك حراما ، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلى ، ويعرضه لطول الحساب ، ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف فى عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب ،<sup>(١)</sup> فن نوقش الحساب عذب ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « حَلَالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ » وقد قال أيضا « حَلَالُهَا عَذَابٌ » ، إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب ، لكان ما يفوت من الدرجات العلى فى الجنة ، وما يرد على القلب من التحسر على تقويتها لحظوظ حقيرة خسيصة لبقاء لها ، هو أيضا عذاب . ووقس به حالك فى الدنيا ، إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية ، كيف يتقطع قلبك عليها حسرات ، مع علمك بأنها سعادات منصرمة لبقاء لها ، ومنغصة بكدورات لاصفاء لها . فما حالك فى فوات سعادة لا يحيط الوصف بمعظمتها ، وتقطع الدهور دون غايتها

فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر ، أو بالنظر إلى خضرة ، أو شربة ماء بارد ، فإنه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه . وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه<sup>(٣)</sup> « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تَسْأَلُ عَنْهُ » أشار به إلى الماء البارد ، والتعرض لجواب السؤال فيه ذل ، وخوف ، وخطر ، ومشقة ، وانتظارا . وكل ذلك من نقصانه

( ١ ) حديث من نوقش الحساب عذب: متفق عليه من حديث عائشة

( ٢ ) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب ابن أبي العديلو البيهقي فى الشعب من طريقه موقوفا على بن أبي طالب

- باسناد متقطع. بلفظ وحرامها النار ولم أجدهم مرفوعا

( ٣ ) حديث هذا من النعيم الذى تسأل عنه تقدم فى الاطعمة



الحظ . ولذلك قال عمر رضى الله عنه ، اعزلوا عني حسايبها ، حين كان به عطش ، فعرض عليه ماء بارد يعسل ، فأداره في كفه ، ثم امتنع عن شربه .  
فالدنيا قليلها وكثيرها ، حرامها وحلالها ، ملمونة إلا ما أعان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن ، كان حذوه من نعيم الدنيا أشد . حتى أن عيسى عليه السلام ، وضع رأسه على حجر لما نام ، ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال ، رغبت في الدنيا . وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه ، كان يطعم الناس لذائد الأطعمة ، وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق أمهانا وشدة ، فإن الصبر عن لذائد الأطعمة ، مع القدرة عليها ووجودها أشد . ولهذا روى أن الله تعالى <sup>(١)</sup> " زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فكان يطوى أياما ، " وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع . ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظرا لهم ، وامتنانا عليهم ، ليتوفر من الآخرة حظهم . كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم الفصد والحجامة ، شفقة عليه ، وحباله ، لاجتلاء عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا  
فإن قلت فما الذى هو الله ؟

فأقول الأشياء ثلاثة أقسام ، منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذى يبر عنه بالمعاصى والمحظورات ، وأنواع التمتع في المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا بصورة ومعنى ومنها ما صورته لله ، ويمكن أن يجعل لغير الله ، وهى ثلاثة ، الفكر ، والذكر ، والكف هن الشهوات . فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ، ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر ، فهى لله ؛ وليست من الدنيا . وإن كان الغرض من الفكر ، طلب العلم للتشرف به ، وطلب القبول بين الخلق . بإظهار المعرفة ، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال

- ( ١ ) حديث زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أيام : محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال قلت يا رسول الله عجيبا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك - الحديث : وهو من طريق ابن اسحاق معتنيا والترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله - الحديث : قال الترمذى حسن صحيح
- ( ٢ ) حديث كان يشد الحجر على بطنه من الجوع تقدم

أو الحمية لصحة البدن . أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار ههنا من الدنيا بالمنى ، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ما صورته لحظ النفس ، ويمكن أن يكون معناه الله . وذلك كالأكل ، والنكاح ، وكل ما يرتبط به بقاءه وبقاء ولده . فإن كان القصد حظ النفس ، فهو من الدنيا . وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى ، فهو لله بمعناه ، وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ وَمَنْ طَلَبَهَا اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَصِيَانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد

فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل ، الذى لا حاجة إليه لأمر الآخرة ، ويمبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ) <sup>(١)</sup> وجامع الهوى خمسة أمور ، وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله ( إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وُزْنٌ وَتَفَاخُرٌ مِّنْكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ) <sup>(٢)</sup> والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة صبعة ، يجمعها قوله تعالى ( زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) <sup>(٣)</sup> . فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا . وقدر ضرورة القوت ، وما لا بد منه من مسكن وملبس ، هو لله إن قصد به وجه الله . والاستكثار منه تنعم ، وهو لعب الله . وبين التنعم والضرورة درجة يمبر عنها بالحاجة ، ولها طرفان وواسطة . طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر ، فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن . وطرف يراحم جانب التنعم ويقرب منه ، وينبغى أن يحذر منه . وبينهما وسائط متشابهة ، ومن عام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والحزم فى الحذر والتقوى ، والتقرب من حد الضرورة ما أمكن ، اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ، إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى أن أويسا القبرى ، كان يظن أهله أنه مجنون ، لشدة تضيقه على نفسه ، فبنوا له بيتا

(٣) حديث من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخر القى الله وهو عليه غضبان - الحديث : أبو نعيم فى الحلية

والبيهقى فى الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

(١) النزاعات : ٤١ (٢) الحديد : ٣٠ (٣) آل عمران : ١٤

على باب دارهم ، فكان يأتي عليهم السنة ، والسنتان ، والثلاث ، لا يرون له وجهها . وكان يخرج أول الأذان ، ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة . وكان طعامه أن يلتقط النوى ، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره ، وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى ، واشترى بشمنه ما يقوته . وكان لباسه مما يلتقط من الزابل من قطع الأكسية ، فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ، ثم يلبسها . فكان ذلك لباسه . وكان ربما مر الصبيان ، فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم ، يا إخوتاه ، إن كنتم ولا بدان ترموني ، فارموني بأحجار صغار ، فإني أخاف أن تدموا عقي ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء . فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فقال <sup>(١)</sup> « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين » إشارة إليه رحمه الله .

ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : أيها الناس ، من كان منكم من العراق فليقم . قال فقاموا . فقال اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من مراد . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من قرن . فجلسوا كلهم إلا رجلا واحدا . فقال له عمر ، أرني أنت ؟ فقال نعم . فقال أتعرف أوبس بن عامر القرني ؟ فوصفه له ، فقال نعم ، وماذا تسأل عنه يا أمير المؤمنين ! والله ما فينا أحق منه ، ولا أجن منه ، ولا أوحش منه ، ولا أدنى منه . فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال ، ما قلت ما قلت إلا لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> يقول ، يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر . فقال هرم بن حبان ، لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب ، قدمت الكوفة . فلم يكن لي هم إلا أن أطلب أوبس القرني ، وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار ، يتوضأ ويغسل ثوبه . قال فعرفته بالنعمة الذي نعت لي ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة ، محلوق الرأس ، كث اللحية ، متغير جداً ، كرهه الوجه ، متهيب المنظر . قال فسلمت عليه ، فرد علي السلام ونظر إلي . فقلت حيالك الله من رجل . ومددت يدي لأصافه ،

( ١ ) حديث إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين أشار به إلى أوبس القرني تقدم في قواعد العقائد لم أحده أصلا

( ٢ ) حديث عمر يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر يريد أوبس ورويناه في جزء ابن السكك من حديث

أبي أمامة يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر واساده حسن وليس فيه

ذكر لأوبس بل في آخره فكان الشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان

فأبى أن يصاحني . فقلت رحمك الله بأويس وغفر لك ، كيف أنت رحمك الله . ثم خنقتني العبرة من حبي إياه ، وورقتي عليه ، إذ رأيت من حاله ما رأيت ، حتى بكيت وبكى . فقال وأنت فحياك الله يا هرم بن حبان ، كيف أنت يا أخي ؟ ومن ذلك عليّ ؟ قال قلت الله . فقال لا إله إلا الله سبحانه الله ، إن كان وعد ربنا لمفعولا . قال فمجببت حين عرفني ، ولا والله ما رأيتك قبل ذلك ولا رأي . فقلت من أين عرفت اسمي واسم أبي ، وما رأيتك قبل اليوم ؟ قال نأني العليم الخبير ، وعرفت روحى روحك ، حين كلمت نفسى نفسك ، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ، ويتعابون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار ، وتفرقت بهم المنازل . قال قلت حدثني ولحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحديث أسمعه منك . قال إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن لي معه صحبة . بأبي وأمي رسول الله . ولكن رأيت رجلا قد صحبوه ، وبلغني من حديثه كما بلغك ، ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب ، أن أكون محدثا ، أو مفتيا ، أو قاضيا . في نفسى شغل عن الناس يا هرم بن حبان . فقلت يا أخي اقرأ على آية من القرآن أسمعا منك ، وادع لي بدعوات ؛ وأوصني بوصية أحفظها عنك ، فإني أحبك في الله حبا شديدا . قال فقام وأخذ بيدي على شاطئ الفرات ، ثم قال ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى ، ثم قال ، قال ربي ، والحق قول ربي ، وأصدق الحديث حديثه ، وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> ) حتى انتهى إلى قوله ( إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ <sup>(٢)</sup> ) فشقق شهقة ظننت أنه قد غشى عليه . ثم قال ، يا ابن حبان ، مات أبوك حبان ، ويوشك أن تموت ، فإما إلى جنة وإما إلى نار . ومات أبوك آدم ، وماتت أمك حواء ، ومات نوح ، ومات إبراهيم خليل الرحمن ، ومات موسى نبي الرحمن ، ومات داود خليفة الرحمن ، ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم ، وهو رسول رب العالمين ، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ، ومات عمر بن الخطاب أخي وصفي . ثم قال يا عمراه يا عمراه . قال قلت رحمك الله إن عمر لم يموت ، قال فقد نعاها إلى ربي ، ونعى إلى نفسى

(١) ، (٢) ، انسخان : من ٣٨ لي ٤٣

ثم قال ، أنا وأنت في الموتى كأنه قد كان ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال هذه وصيتي إياك يا هرم بن حبان ، كتاب الله ، ومهج الصالحين المؤمنين ، فقد نعت إلى نفسي وتفسك ، عليك بذكر الموت ، لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وأنذر قومك إذا رجعت إليهم ، وانصح للأمة جميعا . وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر ، فتفارق دينك وأنت لا تعلم ، فتدخل النار يوم القيامة . ادع لي ولنفسك . ثم قال ، اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك ، وزارني من أجلك ، فمرفني وجهه في الجنة ، وأدخله علي في دارك دار السلام ، واحفظه مادام في الدنيا حيثما كان ، وضم عليه ضيعته ، وأرضه من الدنيا باليسير ، وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا ، واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين ، وأجزه عني خير الجزاء . ثم قال استودعك الله يا هرم بن حبان ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبي ، فإني أكره الشهرة ، والوحدة أحب إلي ، إني كثير اللهم ، شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا ، فلا تسأل عني ولا تطلبني ، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك ولم ترني فاذا كرتني ، وادع لي ، فإني سأذكرك وأدعوك إن شاء الله . انطلق أنت ههنا ، حتى أنطلق أنا ههنا . فخرصت أن أمشي معه ساعة ، فأبى علي ، وفارقت ، فبكى وأبكاني ، وجعلت أنظر في قفاه ، حتى دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك ، فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء ، رحمه الله وغفر له فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المرصين عن الدنيا . وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ، ومن سيرة الأنبياء والأولياء ، أن حد الدنيا كل ما أظلمته الخضراء ، وأظلمته الغبراء ، إلا ما كان لله عز وجل من ذلك . وضد الدنيا الآخرة ، وهو كل ما أريده الله تعالى ، مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا ، لأجل قوة طاعة الله ، وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال . وهو أن الحاج إذا حلف أنه في طريق الحج ، لا يشتغل بغير الحج ، بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد ، وعلف الجمل وخرز الراوية ، وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج . فكذلك البدن مركب النفس ، تقطع به مسافة العمر ، فتمهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل ، هو من الآخرة لا من الدنيا .

نعم إذا قصد نلذذ البدن، وتمعه بشئ من هذه الأسباب، كان منحرفاً عن الآخرة، ويخشى على قلبه القسوة. قال الطنابسى، كنت على باب بنى شيبه في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً فسمعت في الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم، ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه. فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك، فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى

## بيان

حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت هم الخلق حتى أنسهم أنفسهم

وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها، وليس كذلك

أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها، فهي الأرض وما عليها. قال الله تعالى ( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْؤُهُمْ أَنَّ لَهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا <sup>(١)</sup> ) فالأرض فراش للآدميين، ومهاد، ومسكن، ومستقر، وما عليها لهم ملبس، ومطعم، ومشرب، ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان. أما النبات، فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوى. وأما المعادن، فيطلبها للآلات والأواني، كالنحاس والرصاص، وللتقد كالذهب والفضة، ولغير ذلك من المقاصد. وأما الحيوان، فينقسم إلى الإنسان، والبهائم. أما البهائم، فيطلب منها لحومها للمأكل، وظهورها للمراكب والزينة، وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان، أو ل يتمتع بهم كالجوارى والنسوان. ويطلب قلوب الناس ليملكها، بأن يفرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه، إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا، وقد جمعها الله تعالى في قوله ( زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ <sup>(٢)</sup> ) وهذا من الإنس ( وَالْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ <sup>(٣)</sup> ) وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء، واليوراقيت وغيرها ( وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ <sup>(٤)</sup> ) وهي

(١) الكهف: (٢ و ٣ و ٤) آل عمران: ١٤

البهائم والحيوانات ( وَالْحَرْثُ <sup>(١)</sup> ) وهو النبات والزرع فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين ، علاقة مع القلب ، وهو حبه لها وحظه منها ، وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد ، أو المحب المستهتر بالدنيا . ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا ، كالكبر ، والفن ، والحسد والرياء ، والسمعة وسوء الظن ، والمداهنة ، وحب الشناء ، وحب التكأثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها ، العلاقة الثانية مع البدن ، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان ، لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها . والخلق إنما نسوا أنفسهم ، وما بهم ، ومنقلبهم بالدنيا ، لها تين العلاقتين ، علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه ، وعرف ربه ، وعرف حكمة الدنيا وسرها ، علم أن هذه الأعيان التي سميها دنيا ، لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى . وأعنى بالدابة البدن . فإنه لا يبقى إلا بمطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن . كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف ، وماء ، وجلال .

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده ، مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ، ولا يزال يعلف الناقة ، ويتمهدا ، وينظفها ، ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ، ويبرد لها الماء بالثلج ، حتى تقوته القافلة ، وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة ، وعن بقائه في البادية فربسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهيمه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي ، فيتعمده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة . فكذلك البصير في السفر الآخرة ، لا يشتغل بتعمد البدن إلا بالضرورة ، كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة . ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجها من البطن ، في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن همت ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها . وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن . فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون . ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور ، واقتصروا عليه لم يستغرقهم أشغال الدنيا . وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها ، وحظوظهم منها . ولكنهم

جهلوا وغفلوا، وتتابعت أشغال الدنيا عليهم، واتصل بعضها ببعض، وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فتاهوا في كثرة الأشغال، ونسوا مقاصدها. ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا، وكيفية حدوث الحاجة إليها، وكيفية غلط الناس في مقاصدها، حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى، وكيف أنسهم عاقبة أمورهم فنقول:

الأشغال الدنيوية هي الحرف، والصناعات، والأعمال التي ترى الخلق منكبين عليها وسبب كثرة الأشغال، هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث، القوت، والمسكن، والملبس فالقوت للغذاء والبقاء، والملبس لدفع الحر والبرد، والمسكن لدفع الحر والبرد، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال. ولم يخلق الله القوت، والمسكن، والملبس، مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه. نعم خلق ذلك للبهائم، فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبخ، والحر والبرد لا يؤثر في بدنه، فيستغنى عن البناء، ويقنع بالصحراء، ولياسها شعورها وجلودها، فيستغنى عن اللباس. والإنسان ليس كذلك، فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات، هي أصول الصناعات، وأوائل الأشغال الدنيوية: وهي الفلاحة، والرعاية، والاقتناس، والحياكة، والبناء. أما البناء فللمسكن. والحياكة وما يكتنفها من أمر النزل والخياطة، فللملبس. والفلاحة للمطعم. والرعاية للمواشى. والخيل أيضا للمطعم والمركب. والاقتناس نعتى به تحصيل ما خلقه الله من صيد، أو معدن، أو وحشيش، أو حطب فالفلاح يحصل النباتات، والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها، والمقتنص يحصل ما نبت وتبع بنفسه من غير صنع آدمي. وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي. ونعنى بالاقتناس ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة

ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات، كالحياكة، والفلاحة، والبناء، والاقتناس والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرها أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع آخر من الصناعات، التجارة، والجدادة والحزاز، وهؤلاء هم عمال الآلات. ونعنى بالتجار كل عامل في الخشب كيفما كان. وبالجداد كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والابري وغيرهما. وغرضنا ذكر الأجناس قائلنا أحاد الحرف فكثيرة. وأما الحزاز، فنعنى به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها.



فهذه أمهات الصناعات . ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده، بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين، أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا بالاجتماع الذكر والانثى وعشرتهما . والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس وتربية الولد . فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة . والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت . ثم ليس يكفيه اجتماع مع الأهل والوالد في المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة، ليتكفل كل واحد بصناعة، فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده، وهو يحتاج إلى آلتها، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز . وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس، وهو يفترق إلى حراسة القطن، وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة . فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده، وحدثت الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة، لتأذوا بالحر والبرد والمطر والصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة، ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبمعه من الآلات، والآثام، والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر، وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها . لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون، والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل . فحدثت البلاد لهذه الضرورة

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا، تولدت بينهم خصومات، إذ تحدث رياسة، وولاية للزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة، بخلاف الولاية على البهائم، إذ ليس لها قوة المخاصمة وإن ظلمت . فأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين، وهذا في المنزل وأما أهل البلد أيضا، فيتعاملون في الحاجات، ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا . وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة، يتواردون على المراعي، والأراضي، والمياه، وهي لا تبقى بأغراضهم، فيتنازعون لا محالة . ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة، بمعنى، أو عرض، أو هزم، وتعرض عوارض مختلفة، ولو ترك ضائعا لهلك، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا . ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يدع له، فحدثت بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى، فمنها صناعة المساجد .

التي بها تعرف مقادير الأرض ، لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية ، لحراسة  
البلد بالسيف ، ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم ، والتوصل لفصل الخصومة .  
ومنها الحاجة إلى الفقه ، وهو معرفة القانون الذي ينبنى أن يضبط به الخلق ، ويلزموا  
الوقوف على حدوده ، حتى لا يكثر النزاع ، وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات  
وشروطها . فهذه أمور سياسية لا بد منها ، ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة  
من العلم ، والتميز ، والهداية . وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ، ويحتاجون إلى  
الماش ، ويحتاج أهل البلد إليهم ، إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا ، تعطلت  
الصناعات . ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت ، تعطلت البلاد  
عن الحراس ، واستضر الناس . فست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال  
الضائعة التي لامالك لها إن كانت . أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار  
فإن كانوا أهل ديانة وورع ، قنعوا بالقليل من أموال المصالح . وإن أرادوا التوسع ، فتمس  
بالحاجة لا مجال إلى أن يعدم أهل البلد بأه والهم ، ليدوم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى  
الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات آخر ، إذ يحتاج إلى من يوظف  
الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال ، وهم العمال . وإلى من يستوفى منهم بالرفق  
وهم الجباة والمتخرجون . وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة ، وهم الخزان .  
وإلى من يفرق عليهم بالعدل ، وهو الفارض للعساكر . وهذه الأعمال لو تولها  
عدد لا تجمعهم رابطة ، انخرم النظام ، فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم ، وأمير مطاع  
يعين لكل عمل شخصا ، ويختار لكل واحد ما يليق به ، ويراعى النصفة في أخذ الخراج  
وإعطائه ، واستعمال الجند في الحرب ، وتوزيع أسلحتهم ، وتعيين جهات الحرب ، ونصب  
الأمير والقائد على كل طائفة منهم ، إلى غير ذلك من صناعات الملك . فيحدث من ذلك  
بعد الجند الذين هم أهل السلاح ، وبعد الملك الذي يراقبهم بالمين الكائنة ويدبرهم ، الحاجة  
إلى الكتّاب ، والخزان ، والحساب ، والجباة ، والعمال . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون  
إلى معيشة ، ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف ، فتحدث الحاجة إلى مال الفروع مع مال الأصل  
وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الثامن في الصناعات ثلاث طوائف ،

الفلاحون ، والرعاة ، والمحترفون . والثانية الجندية الحماة بالسيوف . والثالثة المترددون بين  
 الطائفتين في الأخذ والعطاء ، وهم العمال ، والجبابة ، وأمثالهم . فانظر كيف ابتداء الأمر  
 من حاجة القوت ، والملبس ، والمسكن ، وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا ، لا يفتح  
 منها باب ، إلا وينفتح بسببه أبواب آخر وهكذا تتناهي إلى غير حد محصور ، وكأنها  
 هاوية لانهاية لعمقها ، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالي  
 فهذه هي الحرف والصناعات ، إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات ، والمال عبارة عن  
 أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به ، وأعلاها الأغذية ، ثم الأمكنة التي يأوى الإنسان  
 إليها وهي الدور ، ثم الأمكنة التي يسمى فيها التمشيش كالحوانيت ، والأسواق ، والمزارع ثم  
 الكسوة ، ثم أثاث البيت وآلاته . ثم آلات الآلات وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب  
 آلة الصيد والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب في الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع ، فإن  
 الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن  
 فيها الزراعة ، فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ، ويحتاجان إلى الفلاح . فيحتاج أحدهما أن  
 يبذل ما عنده للآخر ، حتى يأخذ منه غرضه ، وذلك بطريق المعاوضة . إلا أن النجار مثلا  
 إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ، وربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آله ، فلا يبيعه  
 والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ، ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت ، فلا يحتاج  
 إليه . فتتعوق الأغراض . فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ، ليرصدها صاحبها  
 لأرباب الحاجات . وإلى آليات يجمع إليها ما يحمله الفلاحون ، فيشتره منهم صاحب الآليات  
 ليرصده لأرباب الحاجات . فظهرت لذلك الأسواق والمخازن ، فيحمل الفلاح الحبوب ،  
 فإذا لم يصادف محتاجا ، باعها بثمن رخيص من الباعة ، فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات  
 طمعا في المرح . وكذلك في جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد  
 والقرى تردد ، فيتردد الناس ، يشترون من القرى الأطعمة ، ومن البلاد الآلات وينقلون  
 ذلك ويتعشرون به ، لتنظيم أمور الناس في البلاد بسببهم ، إذ كل بلد ربما لا توجه فيه  
 كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام . فالبعض يحتاج إلى البعض ، فيحوج إلى النقل  
 فيحدث للتجار المتكثرون بالنقل ، وبيعهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول

الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم ، ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لأعماله غيرهم إما قاطع طريق ، وإما سلطان ظالم . ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصالحة للعباد . بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولوعقل الناس وارتفعت همهم زهدوا في الدنيا . ولو فعلوا ذلك ، لبطلت المعاش ولو بطلت لهلكوا ، ولهلك الزهاد أيضا ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها ، فتنحتاج إلى دواب تحملها .

وصاحب المال فد لا تكون له دابة ، فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة . ويصير الكراء نوعا من الأكتساب أيضا . ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى التقدين ، فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب ، فن أين يدري المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو . والمعاملة تجري في أجناس مختلفة ، كما يباع ثوب بطعام ، وحيوان بثوب . وهذه أمور لا تتناسب ، فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين ، يعدل أحدهما بالآخر ، فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم . وأبقى الأموال المعادن ، فاتخذت النقود من الذهب ، والفضة ، والنحاس . ثم مست الحاجة إلى الضرب ، والنقش ، والتقدير ، فمست الحاجة إلى دار الضرب والصارفة : وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض ، حتى انتهت إلى ما تراه فهذه أشغال الخلق ، وهي معاشهم . وشيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرة إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء . وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به ، أو يمنعه عنه مانع ، فيبقى عاجزا عن الأكتساب ، لعجزه عن الحرف . فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان ، اللصوصية ، والكداية . إذ يجمعها أهما يأكلان من سعي غيرهما . ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ، ويحفظون عنهم أموالهم ، فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير أما اللصوص ، فمنهم من يطلب أعوانا ، وينكون في يديه شوكة وقوة ، فيجتمعون ويتكاثرون ، ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم ، فيفزعون إلى الجبل ، إما بالنقب أو بالتسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طرارا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع

التلصص ، الحادثة بحسب ما تنتجها الأفكار المصروفة إلى استنباطها

وأما المكدي ، فإنه إذا طلب مأسعى فيه غيره ، وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة ، فلا يعطى شيئا . فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال ، وتعميد العذر لأنفسهم في البطالة ، فاحتالوا للتعلل بالعجز ، إما بالحقيقة ، كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ، ليعذروا بالعمى فيعطون . وإما بالتعمى ، والتفالج ، والتجانن ، والتمارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل ، مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة وجماعة يلتمسون أقوالا وأفعالا ، يتعجب الناس منها ، حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخروا يرفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ، ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتمسخر ، والمحاكاة ، والشعبذة ، والأفعال المضحكة وقد يكون بالأشعار الغريبة ، والكلام المنثور المسجع ، مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا في النفس ، لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت . أو الذي يحرث دعاية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبايين في الأسواق وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض ، كبيع التمويذات والحشيش ، الذي يخيل بائعها أنها أدوية ، فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل في هذا الجنس الوعاظ ، والمكدون على رءوس المنابر ؛ إذا لم يكن وراءهم طائل علمي ، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام ، وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين ، وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها ، وجرمهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ، ومقصودهم ، ومنقلبهم ، وما يبيم فتأهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بمد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا ، خيالات فاسدة ، فانتسمت مذاهبهم ، واختلفت آراؤهم على عدة أوجه . فطائفة غلبهم الجهل والنفلة ، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم ، فقالوا المقصود أن نعيش أياما في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى تقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا . وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ، ومن ليس له ثمن في الدنيا ، ولا قدم في الدين . فإنه يتعب نهارا ليأكل ليلا ، ويأكل ليلا ليتعب نهارا

وذلك كثير السواني، فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت . وطائفة أخرى زعموا أنهم تقطنوا الأمر، وأنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج، فهو لاء نسوا أنفسهم، وصرفوا همهم إلى اتباع النسوان، وجمع لذائد الأطمعة . يأكلون كما تأكل الأنعام، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة . فشفغهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر . وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال، والاستغناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم، وأتعبوا نهارهم في الجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار، ويترددون في الأعمال الشاقة، ويكتسبون ويجمعون، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة، شحا وبخلا عليها أن تنقص، وهذه لذتهم، وفي ذلك دأبهم وحركتهم، إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات، فيكون للجامع تبعه ووباله، وللآكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون . وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم، وانطلاق الألسنة بالثناء، والمدح بالتجمل والمروءة، فهو لاء يتعبون في كسب المعاش، ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة، والدواب النفيسة . ويزخرفون أبواب الدور، وما يقع عليها أبصار الناس، حتى يقال إنه غنى، وإنه ذو ثروة، ويظنون أن ذلك هي السعادة فهمتهم في نهارهم وأيلهم، في تمهد موقع نظر الناس . وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا همهم إلى استجزار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات، وتقلد الأعمال السلطانية، لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم، وانقادت لهم رعاياهم، فقد سعدوا وسعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهو لاء، شفغهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله، وعن عبادته، وعن التفكر في آخرتهم ومضاهم . ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . وإنما جرمهم إلى جميع ذلك حاجة المطم والملبس والمسكن، ونسوا ما ترادله هذه الأمور الثلاثة، والقدر الذي يكفي منها، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم الرقي منها

فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال ، وعرف غاية المقصود منها ، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل ، إلا وهو عالم بمقصوده ، وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك . وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه ، وفرغ القلب ، وغلب عليه ذكر الآخرة ، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له . وإن تعدى به قدر الضرورة ، كثرت الأشغال ، وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية . فتشعب به الهموم . ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا ، فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا وتنبه لذلك طائفة ، فأعرضوا عن الدنيا ، فحسد الشيطان ، ولم يتركهم ، وأضلهم في الإعراض أيضا ، حتى انقسموا إلى طوائف ، فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة ، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها ، سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم ، للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند ، فهم يتجهجون على النار ، ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا . وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص ، بل لا بد أولا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكيفية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب . ثم أقبلوا على المجاهدة وشدوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة ، وبعضهم فسد عقله وجن ، وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة ، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكيفية ، فظن أن ما كلفه الشرع محال ، وأن الشرع تلييس لا أصل له ، فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله ، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد ، لا يتقصه عصيان طائفة ولا تزيده عبادة متعبد . فعادوا إلى الشهوات ، وسلكوا مسلك الإباحة ، وطولوا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم ، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد . وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة ، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل ، وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتحنوا بالتكاليف وإيما التكليف على عوام الخلق . ووراء هذا مذاهب باطلة ، وضلالات هائلة ، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة . وإنما الناجي منها فرقة واحدة ، وهي السالكة ما كان عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكيفية . ولا يجمع الشهوات بالكيفية . أما الدنيا ، فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات ، فيجمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولا يتبع كل شهوة ، ولا يترك كل شهوة . بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شيء ولا يطلب كل شيء من الدنيا . بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ، ويحفظه على حدم مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن ، أقبل على الله تعالى بكنهه همته ، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقى ملازماً بسياسة الشهوات ، ومراقباً لها ، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى . ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالافتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام <sup>(١)</sup> لما قال « النَّاجِي مِنْهَا وَاحِدَةٌ » قالوا يارسول الله . ومن هم ؟ قال « أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ » فقيل ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » وقد كانوا على النهج القصد ، وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل . فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين . وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكيفية . وما كان لهم في الأمور تقريظ ولا إفراط . بل كان أمرهم بين ذلك قواماً . وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع ، والله أعلم

تم كتاب ذم الدنيا ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(١) حديث افتراق الأمة وفيه الناجي منهم واحدة قالوا ومن هم قال أهل السنة والجماعة - الحديث : الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه تفرق أمي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة فقالوا من هي يارسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي ولابي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة . وأسانيدها جيدة



## فهرست الجزء التاسع

الصفحة	الصفحة
مطابته صلى الله عليه وسلم لخوات الانصارى ١٥٧٦	١٥٥١ الآفة الثالثة - الخوض في الباطل
مزاحه صلى الله عليه وسلم مع نعيمان الانصارى ١٥٧٧	١٥٥٢ خطر الكلمة التى يستهونها المرء
الآفة الحادية عشر - السخرية والاستهزاء ١٥٧٨	١٥٥٣ الآفة الرابعة - المرء والجدال
متى لا تكون السخرية ذنباً ١٥٧٨	١٥٥٣ ماورد في ذم المرء والجدال
الآفة الثانية عشرة - افشاء السر افشاء السر خيانة عظمى ١٥٧٩	١٥٥٤ حد المرء - المجادلة
الآفة الثالثة عشرة - الوعد الكاذب علامات النفاق ١٥٨٠	١٥٥٤ الباعث على المرء والجدل علاج المرء والجدل ١٥٥٥
صاحب الثمانين والرابعى ١٥٨١	١٥٥٥ الآفة الخامسة - الخصومة
الآفة الرابعة عشرة - الكذب في القول واليمين ١٥٨٢	١٥٥٦ الخصومة المدمومة - الخصومة لنيل الحق ١٥٥٨
الكذب في ملاعبة الصبيان ١٥٨٥	١٥٥٨ الخصام مبدأ الشرور
الآثار في ذم الكذب ١٥٨٧	١٥٥٩ الآفة السادسة - التقعر في الكلام
بيان - ما رخص فيه من الكذب الكذب الواجب والكذب المباح ١٥٨٨	١٥٦٠ ما ورد في التشديق والتصنع
أدلة الترخيص في الكذب المباح ١٥٨٩	١٥٦١ الآفة السابعة - الفحش والسب ويذاء اللسان ١٥٦١
ما يرخص فيه الكذب ١٥٩٠	١٥٦٢ حد الفحش - كيف يتحدث المتأدبون
الكذب لدفع الضرر عن النفس والغير دقة الحد المبيح للكذب ١٥٩١	١٥٦٣ الباعث على الفحش
خطر وضع الأحاديث لظن المصلحة ١٥٩٢	١٥٦٣ الآفة الثامنة - اللعن
بيان - الحذر من الكذب بالمعاريض أمثلة التعريض ١٥٩٣	١٥٦٤ تأديب الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه ١٥٦٤
المزاج والكذب فيه بعض الكذب المعتاد ١٥٩٤	١٥٦٤ حد اللعن
الكذب في الرؤيا ١٥٩٥	١٥٦٥ مقتضيات اللعن - مراتب اللعن
الآفة الخامسة عشرة - الغيبة مدمة الغيبة في الكتاب والسنة ١٩٥٦	١٥٦٦ الاحتياط الشديد في لعن شخص بعينه
أثر الغيبة في الصوم ١٥٩٧	١٥٦٦ سياسته صلى الله عليه وسلم في فصل الخصومة ١٥٦٦
الغيبة وعذاب القبر ١٥٩٨	١٥٦٧ خطر رمى المسلم بالكفر أو الفسق
الفرق بين الهمز والهمز بيان معنى الغيبة وحدودها حد الغيبة ١٥٩٩	١٥٦٨ النهى عن سب الأموات
الغيبة في الدين ١٦٠٠	١٥٦٩ لعن المؤمن كقتله
بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان ١٦٠١	١٥٧٠ الآفة التاسعة - الغناء والشعر التصريح ببعض المبالغة في الشعر
	١٥٧١ الآفة العاشرة - المزاج خطر المداومة على المزاج والافراط فيه
	١٥٧٢ كثرة الضحك تميث القلب
	١٥٧٣ المزاج مسقط الوقاء
	١٥٧٣ القدر المسموح به من المزاج
	بعض أمثلة من مزاحه صلى الله عليه وسلم ١٥٧٤
	مزاحه صلى الله عليه وسلم مع السيدة عائشة رضى الله عنها ١٥٧٥

الصفحة	الصفحة
تكذيب النمام - نهيه - بغضه	طرق الغيبة المخلفة وأمثلتها
تحسين الظن بأخيه - التحرز عن التجسس	١٦٠٢ اخبث أنواع الغيبة
١٦٢٢ ملازمه النمام للصفات الدميمة	١٦٠٣ الأصغاء الى الغيبة غيبة
١٦٢٣ السعاية	١٦٠٤ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة
١٦٢٤ تأثير النميمة في الفرقة بين الزوجين	الحقد والغضب
١٦٢٥ الآفة السابعة عشرة - كلام ذي اللسانين	مجانلة الأصحاب - المهاجمة للدفاع
مذمة ذي اللسان	١٦٠٥ عن النفس
١٦٢٦ تحديد ذي اللسانين	اتهام الغير لتبرئة النفس - المباهاة
١٦٢٧ الآفة الثامنة عشرة - المدح	والتصنع
آفات المدح - الكذب - الرياء	الحسد - الهزل والمطايبة
١٦٢٨ عدم جواز مدح الفاسق أو الظالم	السخرية والتحقير - اظهار التعجب من
احداث الكبر في المدوح	١٦٠٦ حال المخطيء
فتور المدوح وكسله	اظهار الرحمة والغضب لله تعالى
١٦٣٠ بيان ما على المدوح - بيان واجبه	بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن
١٦٣١ الآفة التاسعة عشرة - الغفلة عن دقائق الخطأ في محو الكلام	الغيبة
أدب الرسول مع الله عز وجل	علاج الغيبة على الجملة
بعض مالا يجوز قوله مما اعتاده الناس	الغضب
١٦٣٢ الآفة العشرون - سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف	عدم موافقة الجلساء في معاصيهم
<b>كتاب ذم الغضب والحقد والحسد</b>	تنزيه النفس ياتهام الغير
١٦٣٦ بيان ذم الغضب	عدم الاقتداء بالغير في المعاصي
١٦٣٧ ذم الغضب في القرآن و الغضب في الحديث	المباهاة وتزكية النفس
بعض الآثار في ذم الغضب - الحمق	الحسد - الاستهزاء بالغير
١٦٣٩ يجلب الشرور	الغيبة عن طريق الرحمة
١٦٤٠ اعقل الناس اقلهم غضبا	الغيبة عن طريق الغضب لله تعالى
بيان حقيقة الغضب	التعجل
١٦٤٠ طبيعة تكوين الجسم تقتضي فناؤه	بيان تحريم الغيبة بالقتل
الأسباب الخارجية عن الجسم التي	علامة عقد سوء الظن
١٦٤١ : تهلك فناؤه	علاج الخاطر السيء - كيفية نصح المسلم
١٦٤٢ ذم الافراط في الغضب	بيان الأعداد المرخصة في الغيبة
١٦٤٣ اثر الغضب في الظاهر	التظلم - الاستعانة على تغيير المنكر
	الاستفتاء - تحذير المسلم من الشر
	ذكر اللقب المعروف به - التجاهر بالفسق
	١٦١٥ بيان كفارة الغيبة - الاستحلال
	والاستغفار
	١٦١٦ التحليل وحكمه
	١٦١٧ الآفة السادسة عشرة الثمينة
	١٦١٨ ذم النمام في الكتاب
	١٦٢٠ بيان - حد النميمة وما يجب في ردها
	١٦٢١ ألبست على النميمة - وأوجب المنم له

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
1667	منع الحو فضيلة العفو والاحسان	1644	أبره في اللسان . أبره في الأعصاب أبره في القلب الغيرة من عزائم الأمور
1670	الآثار في فضل العفو	1645	الفصم المدوح بين الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا
1672	فضيلة الرفق	1646	أقسام ما يحبه الإنسان - الضرورات - الكماليات
1674	الأحاديث في فضله الرفق الآثار الواردة في الرفق	1647	الضرورات في حق البعض دون البعض تهذيب العصب لعوات الضرورات تهذيب الغضب لعوات الكماليات
1675	القول - في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في أرائه	1649	بيان الأسباب المهيجة للغضب لسبب الغضب شجاعة
1676	بيان ذم الحسد	1650	بيان علاج الغضب بعد هيجانه رجاء نواب كظم الغيظ الخوف من الله تعالى
1677	الأحاديث الواردة في ذم الحسد	1651	الحد من الإكثار من الأعداء التفوق من صورة الغصبان الجلوس والاضطجاع عند الغضب الوضوء عند الغضب
1678	الآثار الواردة في ذم الحسد	1652	السجود لله مذهب للغضب فضيلة كظم الغيظ
1679	السيء مجزى بأسائه	1653	الأحاديث الدالة على فضيلة كظم الغيظ
1680	بيان - حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومرأبه	1654	الآثار الواردة في كظم الغيظ بيان - فضيلة الحلم - كيفية الوصول إلى الحلم
1681	حد الحسد - حد العبطة	1655	الأحاديث في فضيلة الحلم الآثار الواردة في فضل الحلم حلم على بن الحسين . حكم غالية لابن منبه
1682	الدليل على تحريم الحسد	1656	بيان - القدر الذي يجوز الانتصار والتسفي به من الكلام
1683	المنافسة وحكمها	1657	أمثلة مما يجوز الرد على الشاتم به دليل جواز الرد على الشاتم درجات الناس في الغضب
1684	المنافسة تعزيرها الأحكام الشرعية	1658	القول - في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق
1685	بيان - أسباب الحسد والمنافسة أسباب المنافسة ، أسباب الحسد	1659	مساوئ الحقد - الحسد - الشماتة ألهمجر
1686	العداوة والبغضاء	1660	الإعراض - الغيبة - الاستهزاء - الإيذاء
1687	التعزز - الكبير - التعجب		
1688	الخوف من فون المقاصد حب الرياسة - خبث النفس		
1689	بيان - السبب في كثرة الحسد بين الأمنال والأقران والأخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعه		
1690	أبن يكون الحسد - منشأ الحسد مقارنة بين العلم والمال - انتفاء الحسد في الجنة		
1691	بيان - الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب		
1692	ضرر الحسد على دين الحاسد ضرر الحسد في الدنيا		
1693	عدم ضرر المحسود بالحسد في الدين والدنيا		
1694	انتفاع المحسود على حساب حاسده في الآخرة		

نميلها بالسفينه واخلاف احوال ركابها	
منال لضعف الايمان والاعتذار بالدينا	١٧٣٢
الدسا عارية لا يملكها أحد	
بيان - حقيقة الدنيا وماهيتها في حو العد	١٧٣٣
ما يصحب الانسان في الآخرة من حظوظ الدنيا	١٧٣٤
حظوظ الدنيا التي لانمرة لها في الآخرة	١٧٣٤
الخطوط العاجلة المعينة على الآخرة	
شهادة ابن الخطاب في أويس القرني	١٧٣٩
زيارة ابن حبان الأويس القرني	
بيان - حقيقة الدنيا في نفسها	
وأشغالها الخ	١٧٤٢
أعيان الدنيا الموجودة بها	
تفصيل أشغال الدنيا	١٧٤٤
أصول الصناعات - آلات الصناعات	
حاجة الانسان الى الاجتماع	١٧٤٥
حاجة الانسان الى انشاء البلاد	
الحاجة الى أهل السياسة والحرف وغيرها	
الحاجة الى الخراج وعماله - الحاجة الى الملك	١٧٤٦
الحاجة الى الأسواق والحوانيت	١٧٤٧
الحاجة الى التجار	
حاجة الناس الى النقد - كيف ينشأ قطاع الطريق واللصوص والمتسولون	١٧٤٨
التسول وفتونه - وجهة نظر الجهال في الحياة	١٧٤٩
وجهة نظر أصحاب الشهوات	١٧٥٠
وجهة نظر جامعي المال - وجهة نظر عباد الظاهر - وجهة نظر عباد الجاه المتعبدون بقتل أنفسهم - سبب من أسباب الاحاد	١٧٥١
الاباحيون - المخسدون - الفرقة الناجية	

المحسود يغبط باغمام حاسده	
الوفوع في شبك الشيطان بالحسد	١٦٩٥
علاج الحسد بمخالفة نفسه	١٦٩٦
النساء في الصبر على مرارة الدواء	١٦٩٧
بيان - القدر الواجب في نفي الحسد	١٧٠٠
بيان القدر الواجب في نفي الحسد	١٧٠٠
عن القلب ( حالة المرء مع أعدائه )	١٧٠٠
<b>كتاب ذم الدنيا</b>	١٧٠٢
<b>بيان ذم الدنيا</b>	١٧٠٣
الاحاديث الواردة في ذم الدنيا	١٧٠٤
تحذير سيدنا عيسى عليه السلام من الدنيا	١٧٠٥
التكالب على الدنيا يورث الهموم	١٧٠٦
احتقار الله للدنيا منذ خلقها	١٧٠٧
مركز ابن آدم بين الدنيا والآخرة	١٧٠٨
حب الدنيا طريق الهويه	١٧١٠
تحذير أبي الدرداء من الدنيا	١٧١١
الآثار الواردة في ذم الدنيا	١٧١٢
بيان - المواعظ في ذم الدنيا وصفتها	١٧١٩
نصيحة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز	١٧٢٠
خطبة على كرم الله وجهه في ذم الدنيا	١٧٢٢
خطبة عمر بن عبد العزيز	١٧٢٣
خطبة لعلي كرم الله وجهه	١٧٢٤
مقالة لمحمد بن الحسين بيان صفة الدنيا بالأمثلة	
تمثيل الدنيا بالحلم - تمثيل الدنيا بالمرأة الفادرة	١٧٢٥
تمثيلها بالعجوز المزينة المظهر القبيحة المخبر	١٧٢٦
تمثيل الدنيا بالقنطرة	
تمثيلها بالحية	١٧٢٧
تمثيل الدنيا بالماء لايد إن بيتل خائضه	١٧٢٨
تمثيلها بالنوب المشتوق بالمتعلق على خيط	
تمثيل طالب الدنيا بشارب ماء البحر	١٧٢٩
تمثيلها بالطعام اللديد اوله الخبيث آخره	
قبالة الدنيا بالنسبة للآخرة	١٧٣٠

كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء العاشر



کتاب رقم البخل ودم حب المال

## كتاب قيم البخل ودم حباب المال

وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذي خلق الخلق ووسع الرزق ، وأفاض على العاملين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، ورددهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والمعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإتفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير . كل ذلك ليلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا والصلاة على محمد الذي نسخ بملته ملاما ، وطوى بشريمته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه

الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليما كثيرا  
أما بعد . فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف ولكن الأموال أعظم فتنها ، وأطم منحها . وأعظم فتنه فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها . فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا ، وبالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات . وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتميز خيرها عن شرها من المعوصات التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين ، من العلماء الراسخين ذوات الترسمين المقترين . وشرح ذلك مهم على الأفراد ، فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا في المال خاصة ، بل في الدنيا عامة . إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزائه الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، ونشئ القبط بحكم



الغضب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها ، ولها أبعاض كثيرة . وبجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل : ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل ، وللإنسان من فقدته صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الغنى ، وهما خالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان . ثم للفاقد حالتان ، القناعة ، والحرص ، وإحداها مذمومة والأخرى محمودة . وللحرص حالتان ، طمع فيما في أيدي الناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق . والطمع شر الحالتين . وللواجد حالتان ، إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق وإحداها مذمومة ، والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان ، تبذير ، واقتصاد . والمحمود هو الاقتصاد . وهذه أمور متشابهة ، وكشف البطاء عن الغموض فيها مهم

ومحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلاً إن شاء الله تعالى . وهو بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ، ثم ذم الحرص والطمع ، ثم علاج الحرص والطمع ، ثم فضيلة السخاء ، ثم حكايات الأسخياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخلاء ، ثم الإيثار وفضله ، ثم حد السخاء والبخل ، ثم علاج البخل ، ثم مجموع الوظائف في المال ، ثم ذم الغنى ومدح الفقر إن شاء الله تعالى

## بيان

### ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ <sup>(٢)</sup> ) فمن اختار ماله وولده على ما عند الله ، فقد خسروا غيباً خسراً عظيماً ، وقال عز وجل ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا <sup>(٣)</sup> ) الآية وقال تعالى ( إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ <sup>(٤)</sup> ) فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقال تعالى ( أَلَمْ تَكُونُوا أَهْلًا <sup>(٥)</sup> ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حُبُّ أَمْوَالٍ وَالشَّرْفُ يُنْبِتَانِ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا

( كتاب ذم البخل وحب المال )

( ١ ) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل : لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف

( ١ ) المناقون : ٩ ( ٢ ) التغابن : ١٥ ( ٣ ) هود : ١٥ ( ٤ ) العلق : ٦ ، ٧ ( ٥ ) التكاثر : ٩

«يُنْبِتُ أُمَّةَ الْبَقْلِ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(١)</sup> «مَا ذُنْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلَا فِي زُرِّيَّةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرِ  
إِفْسَادًا فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرْفِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
<sup>(٢)</sup> «هَذَلِكَ الْمُسْكِرُونَ إِلَّا مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ» <sup>(٣)</sup>  
وَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ أُمَّتِكَ شَرٌّ؟ قَالَ «الْأَغْنِيَاءُ» وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٤)</sup> «سَيِّئِي  
بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ أَطْيَابَ الدُّنْيَا وَالْوَأْنَاهَا وَيَرْتَكِبُونَ فُرَّهَ الْخَيْلِ وَالْوَأْنَاهَا وَيَتَكْحَوْنَ  
أَجْمَلَ النِّسَاءِ وَالْوَأْنَاهَا وَيَلْبَسُونَ أَجْمَلَ الشِّيَابِ وَالْوَأْنَاهَا لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ الْقَلِيلِ لَا تَشْبَعُ  
وَأَنْفُسٌ بِالْكَثِيرِ لَا تَقْنَعُ عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَيَرْوِحُونَ إِلَيْهَا اتَّخَذُوا هَا آلهَةً مِنْ  
دُونِ إِلَهِهِمْ وَرَبًّا دُونَ رَبِّهِمْ إِلَى أُمَّرِهَا يَنْتَهُونَ وَلِهَوَاهُمْ يَتَّبِعُونَ . فَعَرِيمةٌ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ  
عَبْدِ اللَّهِ كِنِ أَدْرَكَةُ ذَلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقَبِ عَقِيكُمْ وَخَلْفِ خَلْفِكُمْ أَنْ لَا يَسْلَمَ عَلَيْهِمْ  
وَلَا يَمُودَ مَرَضَاهُمْ وَلَا يَتَّبِعَ جَنَائِزَهُمْ وَلَا يُوقِرُ كَبِيرَهُمْ فَنَ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى

(١) حديث ما ذنبان ضاريان أرسلتا في زرية غنم بأكثر فسادا لها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم: الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جاعلان مكان ضاريان ولم يقولا في زرية وقالا الشرف بدل الجاه قال الترمذي حسن صحيح وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد ما ذنبان ضاريان في زرية غنم - الحديث : وللبراز من حديث أبي هريرة ضاريان جاعلان واسناد الطبراني فيهما ضعيف

(٢) حديث هلك الأَكثرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا - الحديث : الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبزي بلفظ المسكرين ولم يقل في عباد الله ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بلفظ المسكرين وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظهم الأخرسون فقال أبو ذر من هم فقال هم الأَكثرون أموالا إلا من قال هكذا - الحديث :

(٣) حديث قيل يا رسول الله أي أمتك شر قال الاغنياء: غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمق الدين ولدوا في النعيم وغدوا به يأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى في الزهد له من رواية عروة بن روم ومرسلا وللبراز من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ان من شرار أمق الدين غدوا بالنعيم وتنت عليه أجسامهم

(٤) حديث سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطيب الدنيا وألوانها ويتكحون أجمل النساء وألوانها - الحديث بطوله الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة سيكون رجال من أمق يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتصدقون في الكلام أولئك شرار أمق وسنده ضعيف ولم أجده لباييه أصلا

هَذِمِ الْإِسْلَامَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « دَعَا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » <sup>(٣)</sup> وقال رجل يارسول الله ، مالى لأحب الموت ؟ فقال « هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ ؟ » قال نعم يارسول الله . قال « قَدِمَ مَالِكَ فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ إِنْ قَدِمَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ وَإِنْ خَلَفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « أَخْلَاءُ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ وَاحِدٌ يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ وَالثَّلَاثُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهُوَ مَالُهُ وَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهُوَ أَهْلُهُ وَالَّذِي يَتَّبِعُهُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَهُوَ عَمَلُهُ » وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ، مالك تمشى على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم : مامنزلة الدينار والدرهم عندهم ؟ قالوا حسنة . قال لكنهما والمدر عندي سواء .

<sup>(٥)</sup> وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما ، يا أخى ، إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدى شكره ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ اللَّهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا تَكْفَأُ بِهِ الصَّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ امْضِ فَقَدْ أَدَيْتَ حَقَّ اللَّهِ فِي نَمِّ جُجَاءِ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ

( ١ ) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حنقه وهو لا يشعر: البراز من حديث

أنس وفيه هاني بن التوكل ضعفه ابن حبان

( ٢ ) حديث يقول العبد مالى مالى - الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن الشيخير وأبي هريرة وقد تقدم

( ٣ ) حديث قال رجل يارسول الله مالى لأحب الموت - الحديث : لم أقف عليه

( ٤ ) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة وأحد يتبعه إلى قبض روحه والثانى إلى قبره - الحديث : أحمد والطبرانى

في الكبير والأوسط من حديث الثعمان بن بشير باسناد جيد نحوه ورواه أبو داود الطيالسي

وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبرانى في الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضاً وفي الكبير

من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع

اثنان ويبقى واحد - الحديث :

( ٥ ) حديث كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب

الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه - الحديث : قلت ليس هو من حديث سلمان

لأننا هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل

للدنيا المال وهو منقطع

كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصَّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ وَيُتُّكَ أَلَا أُدَيْتَ حَقَّ اللَّهِ فِيَّ فَأَيَّ زَالٍ كَذَلِكَ حَتَّى  
يَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ . وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر ، في ذم الغنى ومدح  
الفقر ، يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بتكريره . وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا  
فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ما ورد في  
المال خاصة . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ؟ وَقَالَ  
النَّاسُ مَا خَلَّفَ؟ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا الدُّنْيَا »

الآثار : روى أن رجلاً نال من أبي الدرداء ، وأراه سواً ، فقال اللهم من فعل بي سواً  
فأصح جسمه ، وأطل عمره ، وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء ، مع  
صحة الجسم وطول العمر ، لأنه لا بد وأن يفضى إلى الطغيان . ووضع على كرم الله وجهه  
درهما على كفه ، ثم قال ، أما إنك ما لم تخرج عنى لا تنفعنى . وروى أن عمر رضي الله عنه ،  
أرسل إلى زينب بنت جحش بمطائها . فقالت ما هذا ؟ قالوا أرسل إليك عمر بن الخطاب  
قالت غفر الله له . ثم سلت سترًا كان لها ، فقطعته وجعلته صرًا ، وقسمته في أهل بيتها  
ورحمها وأيتامها . ثم رفعت يديها وقالت ، اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . فكانت  
أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقًا به

وقال الحسن ، والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله . وقيل إن أول ما ضرب الدينار والدرهم  
رفعهما إبليس ، ثم وضعهما على جبهته ، ثم قبلهما وقال ، من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال  
سميط بن عجلان ، إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين ، يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن  
معاذ ، الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقيقته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل وما رقيقته ؟  
قال أخذه من حله ، ووضعها في حقه . وقال العلاء بن زياد ، تمثلت لى الدنيا وعليها من  
كل زينة ، فقلت أعود بالله من شرك . فقالت إن شرك أن يعيدك الله منى ، فأبغض الدرهم  
والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها ، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها . فن  
صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل

(١) حديث إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم .. الحديث : البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة

يلغ به وقد تقدم في آداب الصحبة

(٢) حديث لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا : الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ آخر غبوا

إني وجدت فلا تظنوا غيره  
فإذا قدرت عليه ثم تركته  
أن التورع عند هذا الدرهم  
فاعلم بأن تقالك تقوى المسلم  
وفي ذلك قيل أيضا

لا يفرنك من المرء قيص رفته  
أو إزار فوق عظيم ال ساق منه رفته  
أوجيبين لاح فيه أثر قد خلعه  
أره الدرهم تعرف حيه أو وزعه

ويروى عن مسامة بن عبد الملك ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين ، صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك . تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ، وكان له ثلاثة عشر من الولد ، فقال عمر ، أتمدوني ، فأقدموه . فقال ، أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما ، فإنني لم أمنعهم حقهم ، ولم أعطهم حقا لغيرهم . وإنما ولدي أحد رجلين ، إما مطيع لله فإله كافيه ، والله يتولى الصالحين . وإما عاص لله ، فلا أبالي على ما وقع وروى أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيرا ، فقيل له لو أدخرته لولدك من بعدك قال لا ، ولكني أدخره لنفسى عند ربى ، وأدخر ربى لولدى . وروى أن رجلا قال لأبي عبدربه يا أخى ، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير ، فأخرج أبو عبدربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ ، مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته . قيل وماهما ؟ قال يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله

## بيان

مدح المال والجمع بينه وبين الدم

اعلم أن الله تعالى قد سمي المال خيرا في مواضع من كتابه العزيز ، فقال جل وعز ( **إِنْ تَرَكَ خَيْرًا** ) الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « **نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ** »

( ٢ ) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص

بفتح صحت بلفظ نعم وقال الله

لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج ، فهو ثناء على المال ، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى ( وَيَسْتَخِرْ جَا كَثْرَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ممثنا على عبادته ( وَيُعِدِّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنٍ وَبَيْنَ وَبِجَعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا <sup>(٢)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » وهو ثناء على المال

ولا تنفق على وجه الجمع بعد الدم والمدح ، إلا بأن تعرف حكمة المال ، ومقصوده ، وآفاته ، وغوائله ، حتى ينكشف لك أنه خير من وجهه ، وشر من وجهه ، وأنه محمود من حيث هو خير ، ومذموم من حيث هو شر . فإنه ليس بخير محض ، ولا هو شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعا . وما هذا وصفه فيمدح لاجتماعه تارة ، ويذم أخرى . ولكن البصير المميز ، يدرك أن المحمود منه غير المذموم . وبيانه بالاستعداد مما ذكرناه في كتاب الشكر ، من بيان الخيرات ، وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه ، هو أن مقصداً لكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة ، التي هي النعيم الدائم ، والملك المقيم ، والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> ، من أكرم الناس وأكيسهم فقال « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَشَدَّهُمْ لَهُ أُسْتِعْدَادًا » ، وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا ، وهي الفضائل النفسية ، كالعلم ، وحسن الخلق ، والفضائل البدنية ، كالصحة ، والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن ، كالمال ، وسائر الأسباب . وأعلىها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة ، فالخارجة أخسها . والمال من جملة الخارجات . وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ، ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما ، ولا يرادان لذاتهما . إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها . والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس ، والأعضاء . والمطاعم والملابس تخدم البدن ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن المناكح

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا : أبو مسلم البيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس

وقد تقدم في كتاب ذم الغضب

(٢) حديث أكرم الناس وأكيسهم قال أكرمهم للموت ذكرًا . الحديث : ابن ماجه من حديث ابن عمر

بلفظ أي المؤمنين أكيس ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظه المصنف واصناده جيد

(١) الكهف : ٨٢ (٢) نوح : ١٢

إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها ، وتزيينها بالعلم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب ، فقد عرف قدر المال ، ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة الطعام والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن ، الذي هو ضرورة كمال النفس ، الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده ، واستعمله لتلك الغاية ، ملتفتا إليها ، غير ناس لها ، فقد أحسن والتفع ، وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه . فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح . ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة ، وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة ، وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذا محمود مذموم . محمود بالإضافة إلى المقصد الحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم <sup>(١)</sup> . فنأخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه ، فقد أخذ حثفه وهو لا يشعر ، كما ورد به الخبر . ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله ، وكان المال مسهلا لها ، وآلة إليها ، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستماذ الأنبياء من شره ، حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام <sup>(٢)</sup> « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوَّةَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللَّهُمَّ <sup>(٣)</sup> أُحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَأَحْشِرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » واستماذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فقال ( وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ <sup>(٤)</sup> ) وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجازة ، إذ قد كفى قبل النبوة عبادتها مع الصغر . وإنما معنى عبادتهما جهما ، والاغترار بهما ، والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَتَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ تَعَسَّ وَلَا اتَّقَشَّ وَإِذَا شَيْكَ » فَلَا اتَّقَشَّ « فبين أن محبهما عابد لهما . ومن عهد حجر افهو عابدصنم . بل كل

(١) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حثفه وهو لا يشعر . تقدم قبله بسعة أحاديث وهوقية احذروا الدنيا

(٢) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا: متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا: الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصححه اسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٤) حديث تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم - الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل واتقش وانما علق آخره بلفظه تعس . وانكسب ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

(٥) إبراهيم : ٣٥

\* أى إذا نكسبته شوكه فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالانتقاش

من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى ، وعن أداء حقه ، فهو  
كعابد صنم . وهو شرك ، إلا أن الشرك شركان ، شرك خفى لا يوجب الخلود فى النار ، وقلما  
ينفك عنه المؤمنون ، فإنه أخفى من ديب النمل ، وشرك جلى ، يوجب الخلود فى النار نعم ذبا لله من الجميع

## بيان

### تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق . ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف  
غوائله وفوائده ، أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره  
أما الفوائد : فهى تنقسم إلى دنيوية ودينية . أما الدنيوية ، فلا حاجة إلى ذكرها ، فإن  
معرفة مشهوره ، مشتركة بين أصناف الخلق . ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها  
وأما الدينية ، فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع

النوع الأول : أن ينفقه على نفسه ، إما فى عبادة ، أو فى الاستعانة على عبادة وأما فى  
العبادة ، فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد ، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من  
أمهات القربات . والفقير محروم من فضلها . وأما فيما يقويه على العبادة ، فذلك هو مضم  
والملبس ، والمسكن ، والمنكح ؛ وضرورات المعيشة . فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر ، كان  
القلب مصروفا إلى تديورها ، فلا يتفرغ للدين . وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة  
فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين ، من الفوائد الدينية . ولا يدخل فى  
هذا التمتع والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط

النوع الثانى : ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام ، الصدقة ، والمروءة ، ووقاية  
العرض ، وأجرة الاستخدام . أما الصدقة ، فلا يخفى ثوابها ، وإنها لتطفى غضب الرب  
تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المروءة ، فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء  
والأشراف ، فى ضيافة ، وهديّة ، وإعانة ، وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة  
بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج . إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان  
والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ، ويتحقق بزمرة الأسيخاء ، فلا يوصف بالجود



إلّا من يصطنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا ، والضيافات ، وإطعام الطعام ، من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها . . . وأما وقاية العرض ، فنحن به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب السفهاء ، وقطع السننهم ، ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائدته في العاجلة ، من الحظوظ الدينية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا وَقَى بِهِ الْمَرْءُ عِرْضَهُ كَتَبَ لَهُ بِهِ صِدْقَةٌ » وكيف لا وفيه منع المقتاب عن معصية الغيبة ، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة ، التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة

وأما الاستخدام . فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر ، الذي هو أعلى مقامات السالكين . ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام ، وطحنه ، وكنس البيت ، حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه . وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل به غرضك ، فأنت متعوب إذا اشتغلت به . إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر ، مالا يتصور أن يقوم به غيرك ، فتضييع الوقت في غيره خسران النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين ، ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر ، والرباطات ، ودور المرضى ، ونصب الحباب في الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات . وهي من الخيرات المؤبدة ، الدارة بعد الموت ، المستجابة بركة أديعة الصالحين إلى أوقات متمادية . وناهيك بها خيرا .

فهذه جملة فوائد المال في الدين ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجددين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة في القلوب . فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية وأما الآفات فدينية ، ودنيوية . أما الدينية فن ثلاث

الأولى : أن تجر إلى المعاصي ، فإن الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد . ومهما كان الإنسان آيسا عن نوع من المعصية ، لم تتحرك داعيته .

(١) حديث ما وقى للمرء عرضه به فهو صدقة : أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم

فإذا استشعر القدرة عليها ، انبعثت داعيته . والمال نوع من القدرة ، يحرك داعية المعاصي وارثكاب الفجور . فإن اتحم ما اشتهاه هلك . وإن صبر وقع في شدة ، إذ الصبر مع القدرة أشد . وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء

الثانية : أنه يجر إلى التمتع في المباحات ، وهذا أول الدرجات . فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ، ويلبس الثوب الخشن ، ويترك لذائذ الأطعمة ، كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليها الصلاة والسلام في ملكه ، فأحسن أحواله أن يتنعم بالدينا ، ويعرن عليها نفسه ، فيصير التمتع مألواً عنده ، ومحبوباً لا يصبر عنه . ويجره البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتدأنسه به ، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ، ويخوض في المرآة ، والمداهنة ، والكذب ، والفساق ، وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ، ويتيسر له تنعمه . فإن من كثر ماله كثر حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يناقهم ، ويعصى الله في طلب رضاهم . فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى ، وهي مباشرة الحظوظ ، فلا يسلم عن هذه أصلاً . ومن الحاجة إلى الخلق ثور العداوة والصدافة ، وينشأ عنه الحسد ، والحقد ، والرياء ، والكبر ، والكذب ، والنميمة ، والغيبة ، وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدي أيضاً إلى سائر الجوارح ، وكل ذلك يلزم من شؤم المال ، والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

الثالثة : وهي التي لا ينفك عنها أحد ، وهو أنه يلهمه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى . وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام ، في المال ثلاث آفات . أن يأخذه من غير جله . فقيل إن أخذه من حله ؟ فقال يضعه في غير حقه . فقيل إن وضعه في حقه ؟ فقال يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ونحوها سرها ذكر الله ، والتفكير في جلاله . وذلك يستدعي قلباً فارغاً . وصاحب الضيعة يسمى ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبتها ، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان في الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير في المارة ، وخصومة الفلاحين في غلاتهم وسرقهم . وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه ، وانفراذه بالربح ، وتقصيره في العمل ، وتضييعه للمال . وكذلك

صاحب المواشى ، وهكذا سائر أصناف الأموال . وأيمدها عن كثرة الشغل ، التقدر المكتنز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه ، وفي كيفية حفظه ، وفي الخوف مما يثر عليه ، وفي دفع أطماع الناس عنه . وأدوية أفكار الدنيا لا نهاية لها . والذي منه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك .

فهذه جملة الآفات الدنيوية ، سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف ، والحزن ، والنم ، والهجم ، والتعب في دفع الحساد ، وتجشم المضاعب في حفظ المال وكسبه . فإذا أترباق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقي إلى الخيرات . وما عدا ذلك سموم وآفات ، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه ، إنه على ذلك قدير

## بيان

دم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر . ولكن ينبغي أن يكون الفقير قائما منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ، ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان . ولا يتمكن ذلك إلا بإبأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم ، والملبس ، والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرا ، وأخسه نوعا . ويرد أمله إلى يومه ، أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير ، أو طول أمله ، فانه عز القناعة ، وتدنس لاحتالة بالطمع وذل الحرص . وجره الحرص والطمع إلى مساوى الأخلاق ، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت . وقد جبل الأدمى على الحرص والطمع ، وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَإِيَّانٍ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَبْتَنِي لَهُمَا ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » <sup>(٢)</sup> وعن أبي واقد الليثي ، قال كان رجول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه ، أتيناها بعلنا مما أوحى إليه فجتته ذات يوم فقال « إن الله عز وجل يقول إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم

(١) حديث لو كان لابن آدم وإيوان من ذهب لا يبتني لهما ثالثا - الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس وانس

(٢) حديث أبي واقد الليثي ان الله عز وجل يقول إنا أنزلنا للمال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة - الحديث : أحمد

وَأِدْمِنْ ذَهَبٍ لَّحَبٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانٍ وَلَوْ كَانَ لَهُ الثَّانِي لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ  
وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»<sup>(١)</sup> وقال أبو موسى الأشعري ،  
ترلت سورة نحو براءة ثم رفعت . وحفظ منها ، إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم .  
ولو أن لابن آدم واديين من مال لمتني واديا ثالثا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على  
من تاب . وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ مِنْهُومُ الْعِلْمِ وَمَنْهُومُ الْمَالِ » وقال  
صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشْبُ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْأَمَلُ وَحُبُّ الْمَالِ » أو كما قال .  
ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة ، وغريزة مهلكة ، أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة ، فقال  
صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كِفَافًا وَقَنَّعَ بِهِ » وقال صلى الله  
عليه وسلم<sup>(٥)</sup> « مَا مِنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلَا غَنِيِّ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتًا فِي الدُّنْيَا »  
وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى عَنِ النَّفْسِ »  
ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب ، فقال<sup>(٧)</sup> « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ  
فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَدَهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنْ  
الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال ، أى عبادك أغنى ؟ قال  
أقنعهم بما أعطيتهم . قال فأيهم أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه . وقال ابن مسعود . قال رسول الله

( ١ ) حديث أنى موسى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق

لهم لو أن لابن آدم واديين من مال - الحديث : مسلم مع اختلاف دون قوله ان الله يؤيد الدين

ورواه هذه الزيادة الطبراني وفيه على بن زيد متكلم فيه

( ٢ ) حديث منهومان لا يشبعان - الحديث : الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

( ٣ ) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان - الحديث : متفق عليه من حديث أنس

( ٤ ) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشة كفافا وقع به : الترمذى وصححه والنسائي فى الكبرى

من حديث فضالة بن عبيد وسلم من حديث عبد الله بن عمر وقد أفلح من أسلم وورق كفافا

وقنعه الله بما آتاه

( ٥ ) حديث مامن أحدغنى ولا فقير الاود يوم القيامة أنه كان أوتى فى الدنيا قوتا : ابن ماجه من رواية نفع

ابن الحارث عن أنس ونفع ضعيف

( ٦ ) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس : متفق عليه من حديث أبى هريرة

( ٧ ) حديث ألايها الناس اجملوا فى الطلب فإنه ليس لجد إلا ما كتب له : البخارى من حديث جابر بنحوه وصححه

اسناده وقد تقدم فى آداب السكيب والمعاش

صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْلُوا فِي الطَّلَبِ » وقال أبو هريرة . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا اشْتَدَّ بِكَ الْجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى الدُّنْيَا الدَّمَارُ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنَعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري ، أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله عظمى وأوجز . فقال<sup>(٣)</sup> « إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِعٍ وَلَا تُحَدِّثَنَّ بِحَدِيثٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » وقال عوف بن مالك الأشجعي ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> تسعة أو ثمانية أو سبعة . فقال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ » فلنا أو ليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثم قال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ » فبسطنا أيدينا فبايعناه . فقال قائل منا ، قد بايعناك ، فملى ماذا نبايعك ؟ قال « أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الْخُمْسَ وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا » وأسر كلمة خفية « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه ، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه

الآثار : قال عمر رضي الله عنه ، إن الطمع فقر . وإن اليأس غنى . وإنه من يئس عما في أيدي الناس استغنى عنهم . وقيل لبعض الحكماء ، ما الغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . وفي ذلك قيل

( ١ ) حديث ابن مسعود ان روح القدس نفث في روعي ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها - الحديث : ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف فيه وقد تقدم

( ٢ ) حديث أبي هريرة كن وزعا تكن أعبد الناس - الحديث : ابن ماجه وقد تقدم

( ٣ ) حديث أبي أيوب إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدين بحديث تعذر منه واجمع اليأس مما في أيدي الناس : ابن ماجه وتقدم في الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص . وقال صحيح الاسناد

( ٤ ) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو تسعة فقال ألا تباعون - الحديث : وفيه ولا تسألوا الناس مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسعوا وقال سوط

لأحدهم وهي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

الميش ساعات تمر وخطوب أيام تكرر  
انفع بعيشك ترضه واترك هواك تميش حر  
فلرب عتف سافه ذهب ويافوت ودر

وكان محمد بن واسع ، يبيل الخبز اليابس بالماء ويأكله ، ويقول: من قنع بهذا لم يحتاج إلى أحد . وقال سفیان : خير دنياكم ما لم تبتلوا به ، وخير ما يتلتم به ما خرج من أيديكم . وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وملك ينادى يا ابن آدم ، قليل يكفيك ، خير من كثير يطغيك وقال سميح بن عجلان ، إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر ، فلم يدخلك النار ؛ وقيل للحكيم ما مالك؟ قال التجمل في الظاهر ، والقصد في الباطن ، واليأس مما في أيدي الناس ويروى أن الله عز وجل قال ، يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كاهالك ، لم يكن لك منها إلا القوت . وإذا أنا أعطيتك منها القوت ، وجعلت حسابها على فخيرك ، فأنا إليك محسن وقال ابن مسعود ، إذا طلب أحدكم الحاجة ، فليطلبها طلبا يسيرا ، ولا يأتي الرجل فيقول ، إنك وإنك فيقطع ظهره ، وإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق . وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم ، يعزم عليه الإلرافع إليه حوائجه . فكتب إليه قد رفعت حوائجي إلى مولائي ، فما أعطاني منها قبلت ، وما أمسك عني قنمت

وقيل لبعض الحكماء ، أي شيء أسر للعاقل ؟ وأيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء . وقال بعض الحكماء ، وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع . وأخفهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفي ذلك قيل

أرفه بيال فتى أمسى على ثقة إن الذي قسم الأرزاق يرزقه  
فالعرض منه مصون لا يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه  
إن القناعة من يجلل بساحتها لم يلق في دهره شيئا يؤرقه

وقد قيل أيضا

حتى متى أنا في حل وترحال وطول سببي وإدبار وإفبال  
ونازح الدار لا أنفك مغتربا عن الأحبة لا يدرون ما حالي

بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطر الموت من حرصى على بال  
ولو قنعت أتانى الرزق فى دعة إن القنوع الننى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه ، ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى؟ هللتان لشتائى وقيظى  
وما يسغنى من الظهر لحجى وعمرتى ، وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قریش ، لست  
بأرغمهم ، ولا بأرضعهم . فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟ كأنه شك فى أن هذا القدر  
هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها . وعاتب أعرابى أخاة على الحرص فقال  
ياأخى ، أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لاتفوته ، وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكان  
ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه . ككأنك ياأخى لم تحرر يدا  
محروما ، وزاهدا مرزوقا . وفى ذلك قيل

أراك يزيدك الإترء حرصاً على الدنيا كأنك لا تموت  
فهل لك غاية إن صرت يوماً إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي ، حكى أن رجلا صاد قنبرة ، فقالت ما تريد أن تصنع بي؟ قال أذبحك  
وآكلك . قالت والله ما أشقى من قرم ، ولا أشبع من جوع ، وليكن أعلمك ثلاث  
تخصال ، هى خير لك من أكلى . أما واحدة ، فأعلمك وأنا فى يدك ، وأما الثانية ، فإذا  
صرت على الشجرة ، وأما الثالثة ، فإذا صرت على الجبل . قال هات الأولى . قالت: لا تلهفن  
على ما فاتك . فخلاها ، فلما صارت على الشجرة ، قال هات الثانية ، قالت لا تصدقن بما لا يكون  
أنه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت . يا شقى ، لو ذبحتنى لأخرجت  
من حوصلى درتين زنة كل درة عشرون مثقالا . قال فمض على شفته وتلف وقال ، هات  
الثالثة . قالت أنت قد نسيت اثنتين ، فكيف أخبرك بالثالثة ، ألم أقل لك لا تلهفن على  
ما فاتك؟ ولا تصدقن بما لا يكون؟ أنا لحى ، ودمى ، وريشى ، لا يكون عشرين مثقالا  
فكيف يكون فى حوصلى درتان كل واحدة عشرون مثقالا؟ ثم طارت فذهبت وهذا  
مغال لفرط طمع الآدمى ، فإنه يعميه عن درك الحق ، حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون .  
وقال ابن السماك ، إن الرجاء جبل فى قلبك ، وقيد فى رجلك . فأخرج الرجاء من قلبك  
بمخرج القيد من رجلك وقال أبو محمد الزبيدى ، دخلت على الربيعيد ، فوجدته ينظر فى ورقة

مكتوب فيها بالذهب . فلما رآني تبسم . فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال نعم .  
وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية . فاستحسنتهما . وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدني

إذا سد باب عنك من دون حاجة      فدعه لأخرى يفتح لك بابها  
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه      ويكفيك سوات الأمور اجتنابها  
ولا تك مبذالا تعرضك واجتنب      ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ، ما يذهب الموم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها  
وعقلوها ؟ قال الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل ، فسر لي قول  
كعب . قال يطعم الرجل في الشيء يطلبه ، فيذهب عليه دينه . وأما الشره ، فشره النفس  
في هذا وفي هذا ، حتى لا تحب أن يفوتها شيء . ويكون لك إلى هذا حاجة ، وإلى هذا  
حاجة ، فإذا قضاها لك خزم أنفك ، وقادك حيث شاء ، واستمكن منك ، وخضعت له .  
فمن حبك للدنيا سامت عليه إذا مررت به ، وعدته إذا مرض ، لم تسلم عليه لله عز وجل ،  
ولم نعهده لله ، فلوم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك من مائة حديث عن فلان عن فلان  
قال بعض الحكماء ، من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا  
لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع ، أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع ،  
وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد ، مررت براهب ، فقلت له من أين تأكل ؟  
قال من ييدر اللطيف الخبير ، الذي خلق الرحا يأتينا بالطحين . وأوما ييده  
إلى رحا أضراسه . فسبحان القدير الخبير

## بيان

علاج الحرص والطمع والنواء الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان . الصبر ، والعلم ، والعمل . ومجموع ذلك خمسة أمور  
الأول : وهو العمل ، الاقتصاد في المعيشة ، والرفق في الإنفاق . فمن أراد عز القناعة ،  
فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى ما لا بدله منه . فمن  
كثر خروجه ، واتسع إنفاقه ، لم تمكنه القناعة . بل إن كان وجهه ، فينبغي أن يقنع بثوب



واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ، ويقال من الأدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه ، وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ، ويمكن معه الإجمال في الطلب ، والاقتصاد في المعيشة . وهو الأضل في القناعة ، ونعني به الرفق في الإنفاق ، وترك الخرق فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ خَشِيَةٌ اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْقَصْدُ فِي الْغَنِيِّ وَالْفَقْرُ وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالنَّصَبُ » وروى أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض ، وهو يقول إن من فقرك رفقك في معيشتك وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « الْاِقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالْهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بَضْعٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ الثَّبُوتِ » وفي الخبر <sup>(٥)</sup> « التَّدْبِيرُ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> « مَنْ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ بَدَّرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ اللَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٧)</sup> « إِذَا أُرِدْتَ أَمْرًا فَعَمَلِكَ بِالثَّوْدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرَجًا وَمُخْرَجًا » والتؤدة في الإنفاق من أم الأمور الثاني : أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه ، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه

- ( ١ ) حديث ان الله يحب الرفق في الأمر كله : متفق عليه من حديث عائشة وتقدم  
( ٢ ) حديث ما عال من اقتصد : أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد  
( ٣ ) حديث ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقير والعدل في الرضا والغضب : البراز والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف  
( ٤ ) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمت الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل الهدى الصالح وقال من أربعة  
( ٥ ) حديث التدبير نصف المعيشة : رواه أبو منصور البديلي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد ابن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين  
( ٦ ) حديث من اقتصد أغناه الله - الحديث : البراز من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال الذهبي شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكر أي هذا للحديث ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله  
( ٧ ) حديث إذا أردت أمرا فعملك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا : رواه ابن المبارك في البر والصلة وقد تقدم

ولم يشته حرمه . فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق . بل ينبغي أن يكون وثاقا بوعده الله تعالى ، إذ قال عز وجل ( وَآمِنَ دَائِبَةً فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ لِلَّهِ رِزْقَهَا )<sup>(١)</sup> وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار ، فربما تمرض ، وربما تعجز ، وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال . فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب ، خوفا من التعب ، ويضحك عليه في احتمال التعب تقدا مع العقلة عن الله ، لتوهم تعب في ثأني الحال ، وربما لا يكون . وفي مثله قيل

ومن ينفق الساعات في جمع ماله . مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومعه دخل ابن خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها<sup>(١)</sup> « وَلَا تَيَأَسَنَّ مِنَ الرِّزْقِ مَا هَزَمَتْ رُؤُوسَكُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ رِزْقُهُ اللَّهُ تَعَالَى »  
 وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود وهو حزين ، فقال له<sup>(٢)</sup> « لَا تَكْثِرْ هَمَّكَ مَا يَقْدَرُ يَكُنْ وَمَا تَرْزُقُ يَأْتِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجَلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » . ولا ينفك الإنسان عن الحرص ، إلا بحسن تقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لاحالة مع الإجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر . قال الله تعالى ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ )<sup>(٤)</sup> فإذا انسد عليه باب كان يتنظر الرزق منه ، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> « أَيْ اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . وقال سفيان ، اتق الله فما رأيت

(١) حديث لا تيأس من الرزق ما هزمت رؤوسكم - الحديث: ابن ماجه من حديث جبة وسواء ابن خالد وقتقدم

(٢) حديث لا تكثروهم ما قدر يكن وما ترزق يأتك . قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خاله جبروانع

وقد اختلف في صحته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو والمغافري صحلا

(٣) حديث ألا أيها الناس أجعلوا في الطلب - الحديث : تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا

(٤) حديث أبي الله إن رزق عبده المؤمن الأمن حيث لا يحتسب : ابن حبان في الضعفاء . من حديث علي بن إسماعيل

واه ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

(٥) هود : ٣٠ (٢) الطلاق : ٢ ، ٣

تقيا محتاجا . أى لا يترك التقى فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبي ، قلت لأعرابي ، من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت فإذا صدروا ؟ فبكى وقال ، لو لم نمش إلا من حيث ندرى لم نمش . وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين . شيئا منهما هولى ، فلن أعجله قبل وقته ، ولو طلبته بقوة السموات والأرض ، وشيئا منهما هو لغيرى ، فذلك لم أتله فيما مضى ، فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى ، كما يمنع الذى لى من غيرى . فى أى هذين أفنى عمرى ، فهذا دواء من جهة المعرفة ، لا بد منه لدفع تحويف الشيطان وإنذاره بالفقر

الثالث : أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فإذا تحقق عنده ذلك ، انبعثت رغبته إلى القناعة ، لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب ، وفى الطمع لا يخلو من ذل . وليس فى القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله ، وفيه ثواب الآخرة . وذلك مما يضاف إليه نظر الناس ، وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس ، والقدرة على متابعة الحق . فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس ، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ، ويلزمه المداهنة . وذلك يهلك دينه . ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « عز المؤمن استغناؤه عن الناس » فى القناعة الحرية والعز . ولذلك قيل ، استغن عن شئت تكن نظيره . واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره

الرابع : أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود ، والنصارى ، وأراذل الناس ، والحمقى من الأكراد ، والأعراب الأجلاف ، ومن لا دين لهم ولا عقل ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء ، والأولياء ، وإلى سمات الخلفاء الراشدين ، وسائر الصحابة والتابعين . ويستمتع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة

(١) حديث عن المؤمن استغناؤه عن الناس : الطبرانى فى الأوسط والحاكم وصححه اسناده وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للنبي صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعى فى بسنده للشهاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم

لرأى الناس ، أو على الاقتداء بمن هو أعر أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك ، والقناعة باليسير ، فإنه إن تنعم في البطن ، فالحمار أكثر أكلًا منه . وإن تنعم في الوقاع ، فلخزير أعلى رتبة منه : وإن تزين في الملبس والخيل ، ففي اليهود من هو أعلى زينة منه . وإن قنع بالقليل ، ورضي به ، لم يسأله في رتبته إلا الأنبياء والأولياء

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا في آفات المال ، وما فيه من خوف السرقة ، والنهب ، والضياع . وما في خلو اليد من الأمن والفراغ . ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال ، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ، ألحق بزمرة الأغنياء ، وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه . فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول لم تقتر عن الطلب ، وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس . ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول ، ولم تضيق على نفسك وتخاف الله ، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ، والناس كلهم مشغولون بالتنعم ، فلم تريد أن تميز عنهم . قال أبو ذر (١) أوصاني خليلي صلوات الله عليه ، أن أنظر إلى من هو دوني ، لا إلى من هو فوقى ، أى في الدنيا . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي أَمْوَالِهِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ يَمِّنَ فَضَّلَ عَلَيْهِ » فهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل ، للتمتع دهرًا طويلاً ، فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء ، لشدة طمعه في انتظار الشفاء

## بيان

### فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً ، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص .

( ١ ) حديث أبي ذر أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوقى

أحمد وابن جبان في أثناء حديث وقد تقدم

( ٢ ) حديث أبي هريرة إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه

يمن فضل عليه: منفق عليه وقد تقدم

وإن كان موجودا ، فينبغي أن يكون حانه الإيثار والسخاء ، واصطناع المعروف ، والتباعد عن الشح والبخل . فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> حيث قال « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مُتَدَلِّيَةٌ إِلَى الْأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَ بَغُصْنٍ مِنْهَا قَادَهُ ذَلِكَ النَّصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ » وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ هَذَا دِينُ أَرْضِيئْتُهُ لِنَفْسِي وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ فَأَكْرَمُوهُ بِمَا مَا سَأَلْتُمْ » وفي رواية « فَأَكْرَمُوهُ بِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ » . وعن عائشة الصديقية رضيت الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَا جَبَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَرِيًّا لَهُ إِلَّا عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ » وعن جابر قال ، قيل يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ <sup>(٤)</sup> قال « الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ » وقال عبد الله بن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « خُلُقَانِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يَبْغِضُهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا اللَّذَانِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فُحُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ »

( ١ ) حديث السخاء شجرة في الجنة - الحديث : ابن جبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطنى في المستجاد من حديث أبى هريرة وسياى بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلامهما ضعيف ورواه ابن الجوزى في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبى سعيد

( ٢ ) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى ان هذا دين رضىته لنفسى ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق : الدارقطنى في المستجاد وقد تقدم

( ٣ ) حديث عائشة ماجل الله ولياله الاعلى السخاء وحسن الخلق : الدارقطنى في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبى السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا

( ٤ ) حديث جابر أى الايمان أفضل قال الصبر والسماحة : أبويعلى وابن حبان في الضعفاء . بلفظ سئل عن الايمان وفيه يوسف بن محمد بن المنكر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عبسة بلفظ ما الايمان قال الصبر والسماحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى في الزهد بلفظ أى الأعمال أفضل قال الصبر والسماحة وحسن الخلق واسناده صحيح

( ٥ ) حديث عبد الله بن عمرو خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فاما اللذان يحبهما الله فحسب الخلق والسخا - الحديث : أبو منصور الديلمى دون قول فى آخره وإذا أراد الله بعبده خيرا وقال فيه الشجاعة بدل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمى كذبه أبو داود وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب وروى الأصفهاني جميع الحديث ، وقوفا على عبد الله بن عمرو وروى الديلمى أيضا من حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا صبر حواجج الناس اليه وفيه يحيى ابن شبيب ضعفه ابن حبان

وَأَمَّا اللَّذَّانِ يَنْخَضِمَا اللَّهُ فَسَوْءُ الْخُلُقِ وَالْبُخْلُ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ « وروى المقدم بن شريح ، عن أبيه ، عن جده ، <sup>(١)</sup> قال ، قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَدَلِ الطَّعَامِ وَإِمْشَاءِ السَّلَامِ وَحُسْنِ الْكَلَامِ » . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ فَمَنْ كَانَ سَخِيًّا أَخَذَ بُغْضُنَ مِنْهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْبُغْضُ حَتَّى يَدْخُلَهُ الْجَنَّةُ وَالشَّحُّ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ فَمَنْ كَانَ شَحِيحًا أَخَذَ بُغْضُنَ مِنْ أَعْصَانِهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذَلِكَ الْبُغْضُ حَتَّى يَدْخُلَهُ النَّارُ » وقال أبو سعيد الخدري ، قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى اطْلُبُوا الْفَضْلَ مِنَ الرَّحْمَاءِ مِنْ عِبَادِي تَعِيشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي وَلَا تَطْلُبُوهُ مِنَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ سَخَطِي » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « تَجَافَوْا عَنِ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللَّهَ أَخَذَ بِيَدِهِ كُلَّمَا بَقِيَ » وقال ابن مسعود . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « الرِّزْقُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ أَسْرَعُ مِنَ السَّكِينِ إِلَى ذِرْوَةِ الْبَعِيرِ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيَبْأَهِي بِمُطْعِمِ الطَّعَامِ أُمَّلًا نِكَاةً عَلَيْهِمُ السَّلَامُ »

( ١ ) حديث المقدم بن شريح عن أبيه عن جده ان من موجبات المغفرة بدل الطعام وإمشاء السلام وحسن الكلام: الطبراني بلفظ بدل السلام وحسن الكلام وفي رواية له يوجب الجنة إطعام الطعام

وإمشاء السلام وفي رواية له عليك بحسن الكلام وبدل الطعام  
( ٢ ) حديث أبي هريرة السخاء شجرة في الجنة - الحديث : وفيه والشح شجرة في النار - الحديث: الدارقطني في المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري ضعيف جدا

( ٣ ) حديث أبي سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم - الحديث : ابن جبان في الضعفاء والخرائطي في مكارم الأخلاق والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبدالرحمن السدي وقال انه مجهول وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزاه ابن القطان وتابعه عليه عبدالغفار ابن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدى ورواه الحاكم من حديث علي وقال انه صحيح الإسناد وليس كما قال

( ٤ ) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر: الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق وقال الخرائطي أباها السخي زلت وفيه ليث بن أبي سليم يختلف فيه ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه باسناد ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني

( ٥ ) حديث ابن مسعود الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير - الحديث : لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفافها ». وقال أنس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله ، فأمر له بشيء كثير بين جبلين من شاء الصدقة . فرجع إلى قومه فقال ، يا قوم أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة . وقال ابن عمر ، قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إن لله عبداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد تقلبها الله تعالى عنه وحوّلها إلى غيره » . وعن الهلال قال . أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> بأسرى من بنى العنبر ، فأمر بقتلهم ، وأفرد منهم رجلاً . فقال على ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، يا رسول الله ، الرب واحد ، والدين واحد ، والذنب واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « نزل على جبريل فقال أقتل هؤلاء وأترك هذا فإن الله تعالى شكر له سخاءه فيه » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « إن لكل شيء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراج » وعن نافع ، عن ابن عمر قال ، قال رسول الله

الحجر أسرع إلى البيت الذي ينشئ وفي حديث ابن عباس يؤكل فيه من الثمرة إلى ستائم البعير ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السخاء الحديث : وكلها ضعيفة

( ١ ) حديث إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفافها : الحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كرز وهو مرسل للطبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقي من حديث سهل بن سعد أن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور وفي الكبير والبيهقي معالي الأخلاق - الحديث : وأسناده صحيح وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة

( ٢ ) حديث أنس لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فأباه رجل فسأله فأمر له بشيء كثير بين جبلين الحديث : مسلم وتقدم في أخلاق النبوة

( ٣ ) حديث ابن عمر إن لله عبداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد - الحديث : الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السعدي وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبي عثمان عبد الله ابن زيد الحمصي ضعفه الأزدي

( ٤ ) حديث الهلالى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً الحديث : وفيه فإن الله شكر له سخاءه فيه لم أجده أصلاً

( ٥ ) حديث إن لكل شيء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراج : لم أقف له على أصل

صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « طَعَامُ الْجَوَادِ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَابٌّ ». وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ عَظَّمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عِنْدَهُ عَظَّمَتْ مَوْنَةَ النَّاسِ عَلَيْهِ » فمن لم يحتمل تلك المونة ، هرض تلك التعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام ، إستكثروا من شيء لا تأكله النار . قيل وما هو ؟ قال المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « الْجَنَّةُ دَارُ الْأَسْحِيَاءِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ عَالِمٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَأُ الدَّاءِ الْبَخْلُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « أَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَقَدْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنَ أَهْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> « إِنْ بَدَلَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِصَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَخَاءِ الْأَنْفُسِ وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ وَالنُّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ »

( ١ ) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء : ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدقى فى عواليه وقال رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وأهم لمشاهير ثقات إلا مقدم بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه

( ٢ ) حديث من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمر باسناد منقطع وفيه حليس بن محمد أحد للتروكين ورواه العقيلي من حديث ابن عباس قال ابن عدى بروسيه من وجوه كلها غير محفوظة

( ٣ ) حديث عائشة الجنة دار الأسخياء : ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى اللوزيات وقال الأزهري حديث منكرو ما آفته سوى حجدر قلت رواه الدارقطنى فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقري وهو ضعيف جدا

( ٤ ) حديث أبي هريرة إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة - الحديث : الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه وأدواء الداء البخل ورواه بهذه الزيادة : الدارقطنى فيه

( ٥ ) حديث اصنع المعروف لى أهله ولى من ليس من أهله . الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلًا وتقدم فى آداب المعيشة

( ٦ ) حديث إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس - الحديث : الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينورى أورد ابن عدى له منا كبير وفى الميزان أنه ضعيف منكرو - الحديث : ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث ابن سعيد نحوه وفيه صالح للرى متكلم فيه



وقال أبو سعيد الخدري، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وَجُوهًا مِنْ حَلْقِهِ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فِعَالَهُ وَوَجَّهَ طُلَّابَ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَهُ كَمَا يَسَّرَ الْغَيْثَ إِلَى الْبَلَدَةِ الْجَدْبَةِ فَيُحْيِيهِمْ أَوْ يُحْيِي بِهِ أَهْلَهَا» وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كُتِبَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا وَقَى بِهِ الرَّجُلُ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ نَفَقَةٍ فَقَلَى اللَّهُ خَلْفَهَا» وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَالِدَالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ وَاللَّهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ» وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> «كُلُّ مَعْرُوفٍ فَعَلْتَهُ إِلَى غَنَى أَوْ فَقِيرٍ صَدَقَةٌ» وروى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى، أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا تَقْتُلِ السَّامِرِيَّ فَإِنَّهُ سَخِيٌّ وَقَالَ جَابِرٌ، بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٥)</sup> بَعَثًا، عَلَيْهِمْ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ، فَجَاهِدُوا، فَفَحَرَ لَهُمْ قَيْسٌ تِسْعَ رَكَائِبٍ. فَخَدَثُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ الْجُودَ لِمَنْ شِيمَةُ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ» الْآثَارُ: قَالَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ، إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَأَنْفَقْ مِنْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَى. وَإِذَا أُدْبِرْتَ عَنْكَ فَأَنْفَقْ مِنْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى. وَأَنْشُدْ

(١) حديث أبي سعيد إن الله جعل للمعروف وحوها من خلقه حبب إليهم المعروف - الحديث: الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هارون العبدى عنه وأبو هارون ضعف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه

(٢) حديث كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة - الحديث: ابن عدى والدارقطني في المستجاد والحرائطى والبيهقى في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالى وثقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخارى من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة

(٣) حديث كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان: الدارقطني في المستجاد من رواية الحاج بن ارطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النميرى ضعيف

(٤) حديث كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة: الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبرانى والحرائطى كلاهما في مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين

(٥) حديث جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجاهدوا ففحروا لهم الحديث: وفيه فقال ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميرى عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة      فليس ينقصها التبذير والسرف  
وإن تولت فأحرى أن تجود بها      فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم ، عن المروءة ، والنجدة ، والكرم . فقال  
أما المروءة ، فحفظ الرجل دينه ، وحذره نفسه ، وحسن قيامه بضيفه ، وحسن المنازعة  
والإقدام في الكراهية . وأما النجدة ، فالذب عن الجار ، والصبر في المواطن . وأما  
الكرم ، فال تبرع بالمعروف قبل السؤال ، والإطعام في المحل ، والرأفة بالسائل ، مع بذل النائل  
ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة ، فقال حاجتك مقضية . فقيل له  
يا ابن رسول الله ، لو نظرت في رقعة ، ثم رددت الجواب على قدر ذلك ؟ فقال ، يسألني  
الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى اقرأ رقعة . وقال ابن السماك ، عجبت لمن يشتري  
المال بك بماله ، ولا يشتري الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب ، من سيدكم ؟ فقال  
من احتمل شتمنا . وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا . وقال علي بن الحسين رضي  
الله عنهما ، من وصف ببذل ماله لطلابه ، لم يكن سخيا . وإنما السخي من يتدى بمحقوق  
الله تعالى في أهل طاعته ، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له ، إذا كان يقينه بثواب الله  
تاما . وقيل للحسن البصري ، ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل . قيل  
فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه . قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة

وقال جعفر الصادق رحمه الله عليه ، لآمال أعون من العقل ، ولا مصيبة أعظم من  
الجهل ، ولا مظاهرة كالمشاورة . ألا وإن الله عز وجل يقول ، إني جواد كريم ، لا يجاورني  
لثيم . واللؤم من الكفر ، وأهل الكفر في النار . والجود والكرم من الإيمان ، وأهل  
الإيمان في الجنة . وقال حذيفة رضي الله عنه ، رب فاجر في دينه ، أخرج في معيشته ، يدخل  
الجنة بسماحته . وروى أن الأحنف بن قيس رأى رجلا في يده درهم ، فقال لمن هذا الدرهم ؟

فقال لي . فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك . وفي معناه قيل

أنت للمال إذا أمسكته      فإذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ، فإذا رأى امرأة ضعيفة  
لأعطائها شيئا . وقال الأصمعي ، كتب الحسن بن علي ، إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم

يتمتع به في إعطاء الشعراء . فكتب إليه ، خير المال ما وقى به العرض . وقيل لسفيان ابن عيينة ، ما السخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان ، والجود بالمال . قال وورث أبي خمسين ألف درهم ، فبعث بها صررا إلى إخوانه وقال ، قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي ، أفأبخل عليهم بالمال ! وقال الحسن . بذل المجهود في بذل الموجود ، منتهى الجود وقيل لبعض الحكماء ، من أحب الناس إليك ؟ قال من كثرت أياديته عندي قيل فإن لم يكن قال من كثرت أيادي عنده . وقال عبد العزيز بن مروان ، إذا الرجل أمكنني من نفسه ، حتى أضع معروفه عنده ، فيده عندي مثل يدي عنده . وقال المهدي لشبيب بن شبعة ، كيف رأيت الناس في داري ؟ فقال يأمر المؤمنين ، إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا . وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

إن الصنيفة لا تكون صنيفة حتى يصاب بها طريق المصنع  
فإذا اصطنعت صنيفة فاعمد بها لله أو لدوي القراة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ، إن هذين البيتين ليخلان الناس ، ولكن أطر المروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا ، وإن أصاب اللثام كنت له أهلا

## حكايات الأخيلاء

عن محمد بن المنكدر ، عن أم درة ، وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها ، قالت ، إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ، ثمانين ومائة ألف درهم . فدعت بطبق ، فجعلت تقسمه بين الناس . فلما أمست ، قالت يا جارية ، هلمي فطوري . فجاءتها بخبز وزيت . فقالت لها أم درة ، ما استطعت فيما قسمت اليوم ، أن تشتري لنا بدرهم لحما نطبخ عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتي لي لفعلت . وعن أبان بن عثمان قال ، أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس ، فأتى وجوه قريش فقال ، يقول لكم عبيد الله تغدوا عبيدي اليوم . فأتوه حتى ملأوا عليه الدار . فقال ما هذا ؟ فأخبر الخبر . فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا ، وخبزوا وقدمت الفاكهة إليهم ، فلم يفرغوا منها حتى وضعت اللوائد ، فأكلوا حتى صيدروا . فقال عبيد الله لو كلاته ، أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم . قال فليتغد عندنا هؤلاء في كل يوم وقال مصعب بن الزبير ، جيج معاوية ، فلما انصرف من المدينة . فقال الحسين بن علي

لأخيه الحسن ، لانتلقه ، ولا تسلم عليه . فلما خرج معاوية ، قال الحسن ، إن علينا ديننا ، فلا بد لنا من إتيائه . فركب في أثره ولحقه ، فسلم عليه ، وأخبره بدينه . فروا عليه بيخني عليه ثمانون ألف دينار ، وقد أعيأ وتحلف عن الإبل ، وقوم يسوفونه . فقال معاوية ما هذا ؟ فذكر له . فقال اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد . وعن واقد بن محمد الوائدي قال ، حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون ، يذكر فيها كثرة الدين ، وقلة صبره عليه . فوقع المأمون على ظهر رقعته ، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء ، والحياء . فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك ، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه . وقد أمرت لك مائة ألف درهم . فإن كنت قد أصبت ، فازدد في بسط يدك . وإن لم أكن قد أصبت ، فجنائتك على نفسك ، وأنت حدثني وكنت على قضاء الرشيد ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن أنس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> قال للزبير بن العوام « يَا زَبِيرُ أَعْلَمُ أَنَّ مَفَاتِيحَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بِإِزَاءِ الْعَرْشِ يَبْتِئُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُنَّ عَبْدٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ فَمَنْ كَثَرَ كَثْرَ لَهُ وَمَنْ قَلَّ قَلَّ لَهُ » وأنت أعلم . قال الواقدي ، فوالله لكذا كره المأمون إياي بالحديث ، أحب إلي من الجائزة ، وهي مائة ألف درهم . وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة ، فقال له يا هذا ، حق سؤالك إياي يعظم لدي ، ومعرفتي بما يجب لك تكبر علي ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير في ذات الله تعالى قليل ، وما في ملكي وفاء لشرك . فإن قبلت الميسور ، ورفعت عني . وثمة الاحتمال ، والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك ، فعلت . فقال يا ابن رسول الله ، أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله ، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها . فقال هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم . فأحضر خمسين ألفا . قال فافعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال هي عندي . قال أحضرها . فأحضرها . فدفعت الدنانير والدرهم إلى الرجل ، وقال هات من يحملها لك . فأتاه بمالين ، فدفعت إليه الحسن رداه لكره الجمالين . فقال له مواليه ، والله ما عندنا درهم فقال أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم

(١) حديث أنس يابن أنس مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش - الحديث : وفي أوله قصة مع المأمون

الدارقطني فيه وفي أساده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالنسبة ولا يصح

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة . فقالوا لنا جار صوام فوام ، يتعنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه ، وهو فقير ، وليس عنده ما يجهزها به . فقام عبد الله بن عباس ، فأخذ بأيديهم ، وأدخلهم داره ، وفتح صندوقاً . فأخرج منه ست بدر . فقال احملوا . فحملوا . فقال ابن عباس ، ما أنصفناه أعطيناها ما يشغلنا عن قيامه وصيامه . ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها ، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه ، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى . ففعل وفعلوا

وحكي أنه لما أجذب الناس بمصر ، وعبد الحميد بن سعد أميرهم ، فقال ، والله لأعلمن الشيطان أنى عدوه . فعال محابوهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم ، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حتى نساها ، وقيمتها خمسمائة ألف ألف . فلما تعذر عليه ارتجاعها ، كتب إليهم ببيعها ، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنته صلواته وكان أبو طاهر بن كثير شيعياً ، فقال له رجل ، بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نحلتيك بموضع كذا وكذا . فقال قد فعلت . وحقه لأعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل وكان أبو مرثد أحد الكرماء ، فدحه بعض الشعراء . فقال للشاعر ، والله ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدمني إلى القاضي ، وادّع عليّ بعشرة آلاف درهم ، حتى أقر لك بها ، ثم احبسني ، فإن أهلى لا يتركونى محبوباً . ففعل ذلك ، فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم ، وأخرج أبو مرثد من الحبس . وكان معن بن زائدة عاملاً على العرافين بالبصرة ، فحضر بابيه شاعر ، فأقام مدة ، وأراد الدخول على معن . فلم يتهيأ له . فقال يوماً لبعض خدام معن ، إذا دخل الأمير البستان فعرفنى . فلما دخل الأمير البستان أعلمه . فكتب الشاعر بيتاً على خشبة ، وألقاها في الماء الذى يدخل البستان . وكانت معن على رأس الماء . فلما بصر بالخشبة ، أخذها وقراها ، فإذا مكتوب عليها

أيا جود معن ناج معنأ بحاجتى فالى إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل . فقال له كيف قلت ؟ فقال له بعشر بدر فأخذها ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه . فلما كان اليوم الثانی ، أخرجها من تحت البساط

وقرأها، ودعا بالرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم. فلما أخذها الرجل، تفكر، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج. فلما كان في اليوم الثالث، قرأ ما فيها، ودعا بالرجل، فطلب فلم يوجد. فقال ممن، حتى على أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار. وقال أبو الحسن المدائني، خرج الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر حجاجا. فقالتهم أتقاهم. فجاجوا وعطشوا. ففروا بعجوز في خباء لها، فقالوا هل من شراب؟ فقالت نعم فأنا خواتم إليها، وليس لها إلا شوية في كسر الخيمة. فقالت احلبوها، وامتدقوا لبنها ففعلوا ذلك. ثم قالوا لها، هل من طعام؟ قالت لا إلا هذه الشاة. فليذبحها أحدكم، حتى أهبي لكم ما تأكلون. فقام إليها أحدهم، وذبحها، وكشطها. ثم هيات لهم طعاما. فأكلوا، وأقاموا حتى أبردوا. فلما ارتحلوا، قالوا لها، نحن نقر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين، فألمى بنا، فإننا صانعون بك خيرا. ثم ارتحلوا. وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب الرجل، وقال ويحك، تدبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نقر من قريش اقال ثم بعد مدة، أجاتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلها وجعلا ينتقلان البعر إليها ويبيعانه، ويتعيشان بثمنه. ففرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره، فمرف العجوز، وهي له منكرة. فبعث غلامه فدعا بالعجوز، وقال لها يا أمة الله، أتعرفيني؟ قالت لا. قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا. فقالت العجوز بأبي أنت وأمي أنت هو؟ قال نعم. ثم أمر الحسن، فاشترى لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين. فقال لها الحسين، بكم وصلك أخي؟ قالت بألف شاة وألف دينار. فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر. فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت بألف شاة وألف دينار. فأمر لها عبدالله بألف شاة وألف دينار، وقال لها لو بدأت بي لأتبعتهما. فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة، وأربعة آلاف دينار. وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله، وهو وحده. فقام إليه غلام من ثقيف، فمشى إلى جانبه. فقال له عبد الله، ألك حاجة يا غلام؟ قال صلاحك وفلاحك وأيتك تمشي وحدك، فقلت أيتك بنفسى، وأعوذ بالله إن طار يحنياك مكروه. فأخذ

عبد الله بيده ، ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار ، فدفنها إلى الغلام ، وقال استنفق هذه ، فتم ما أدبك أهلك . وحكى أن قوما من العرب ، جاؤا إلى قبر بعض أسخياتهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره ، وباتوا عنده . وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد . فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له ، هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى ؟ وكان السخى الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين . فقال له في النوم نعم . فباعه في النوم بعيره بنجيبه . فلما وقع بينهما العقد ، عمد هذا الرجل إلى بعيره ، فنحره في النوم . فانتبه الرجل من نومه ، فإذا الدم يشح من نحر بعيره . فقام الرجل ، فنحره ، وقسم لحمه ، فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ، ثم رحلوا وساروا . فلما كان اليوم الثانى وهم في الطريق ، استقبلهم ركب . فقال رجل منهم ، من فلان بن فلان منكم ؟ باسم ذلك الرجل . فقال أنا . فقال هل بعث من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر . قال نعم ، بعث منه بعيرى بنجيبه في النوم . فقال خذ هذا نجيبه . ثم قال ، هو أبى ، وقد رأيت في النوم ، وهو يقول إن كنت ابنى فادفع نجيبى إلى فلان بن فلان ، وسماه . وقدم رجل من قرش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضر به المرض . فقال يا هذا أعنا على الدهر . فقال الرجل لغلامه ، ما بقى معك من النفقة فادفعه إليه . فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم . فذهب لينهض ، فلم يقدر من الضعف فبكي . فقال له الرجل ، ما يبكيك ، لعلك استقلت ما أعطيناك ؟ قال لا . ولكن ذكرت ماتا كل الأرض من كرمك فأبكاني . واشترى عبد الله بن عامر ، من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التى فى السوق ، بتسعين ألف درهم . فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله ، ما هؤلاء ؟ قالوا يكون لدارهم . فقال يا غلام ، اتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا وقيل بعث هارون الرشيدى إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسة دنانير . فبلغ ذلك الليث بن سعد ، فأنفذ إليه ألف دينار . فغضب هارون وقال ، أعطيته خمسمائة ، وتعطيه ألفا ، وأنت من رعيتى ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، إن لى من غلتى كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة ، مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من غسل . فأمر

لها بزرق من عسل . فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا . فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطياها على قدر النعمة علينا . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم ، حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا . وقال الأعمش ، اشتكت شاة عندي ، فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالعداء والعشى ، ويسألني هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه ، فإذا خرج قال ، خذ ما تحت اللبد ، حتى وصل إلي في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره ، حتى تمنيت أن الشاة لم تترأ

وقال عبد الملك بن مروان ، لأسماء بن خارجة ، بلقي عنك خصال ، فحدثني بها . فقال هي من غيري أحسن منها مني . فقال عرمت عليك إلا حدثتني بها . فقال يأمر المؤمنين مامدت رجلي بين يدي جليس لي قط ، ولا صنعت طعاما قط ، فدعوت عليه قوما ، إلا كانوا أمن على مني عليهم . ولا نصب لي رجل وجهه قط ، يسألني شيئا ، فاستكثرت شيئا أعطيته إياه . ودخل سعيد بن خالد ، على سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا ، كتب لمن سأله صكا على نفسه ، حتى يخرج عطوه . فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال

إني سمعت مع الصباح مناديا يامن يمين على الفتى الموان

ثم قال ، ما حاجتك؟ قال ديني قال وكم هو؟ قال ثلاثون ألف دينار . قال لك ديك ومثله وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال أخزى الله المالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فادى من كان عليه لقيس بن سعد حتى فهو منه برىء . قال فائس كسرت درجته بالعشى ، لكثرة من زاره وعاده . وعن أبي إسحاق قال ، صليت الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة ، أطلب غريما لي . فلما صليت ، وضع بين يدي حلة ونملان . فقلت لست من أهل هذا المسجد . فقالوا إن الأشعث بن قيس الكندي ، قدم البارحة من مكة ، فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونملين . وقال الشيخ أبو سعد الحر كوشى النيسابوري أرحمه الله ، سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول ، كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا ، فولد لبعضهم مولود . قال فجنبت إليه ، وقلت



له ولدى مولود ، وليس معى شىء . فقام معى ، ودخل على جماعة ، فلم يفتح بشىء . فجاء إلى قبر رجل ، وجلس عنده ، وقال رحمك الله ، كنت تفعل وتصنع ، وإني درت اليوم على جماعة ، فكلفتهم دفع شىء لمولود ، فلم يتفق لى شىء . قال ثم قام ، وأخرج دينارا ، وقسمه نصفين ، وناولنى نصفه . وقال هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك بشىء . قال فأخذته وانصرفت ، فأصلحت ما اتفق لى به ، قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص فى منامه ، فقال سمعت جميع ما قلت ، وليس لنا إذن فى الجواب ، ولكن أحضر منزلى ، وقل لأولادى يحفروا مكان الكانون ، ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار ، فاحملها إلى هذا الرجل . فلما كان من الغد ، تقدم إلى منزل الميت ، وقص عليهم القصة ، فقالوا له اجلس . وحفروا الموضع ، وأخرجوا الدنانير ، وجاؤا بها ، فوضعوها بين يديه . فقال هذا مالكم ، وليس لرؤيائى حكم . فقالوا هو يتسخى ميتا ، ولا يتسخى نحن أحياء ! فلما ألحوا عليه ، حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود ، وذكر له القصة . قال فأخذ منها دينارا ، فكسره نصفين ، فأعطاه النصف الذى أقرضه ، وحمل النصف الآخر ، وقال يكفينى هذا وتصدق به على الفقراء . فقال أبو سعيد ، فلا أدرى أى هؤلاء أسخى .

وروى أن الشافى رحمه الله ، لما مرض مرض موته يعصر ، قال مروا فلانا ينسلنى . فلما توفى ، بلغه ، خبر وفاته ، فحضر وقال ، انتونى بتذكرته . فأتى بها ، فنظر فيها ، فإذا على الشافى سيعون ألف درهم دين . فكتبها على نفسه ، وقضاها عنه ، وقال هذا غسل إياه . أئبى أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشى ، لما قدمت مصر ، طلبت منزل ذلك الرجل ، فدلونى عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم ، فرأيت فيهم سما الخير ، وآثار الفضل . فقلت بلغ أثره فى الخير إليهم ، وظهرت بركته فيهم ، مستدلا بقوله تعالى ( وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا <sup>(١)</sup> ) . وقال الشافى رحمه الله ، لأزال أحب حماد بن أبى سليمان ، لشىء بلغنى عنه . أنه كان ذات يوم راكبا حماره ، فحركه ، فانقطع زره . فرعى خياط ، فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره . فقال الخياط ، والله لا نزلت . فقام الخياط إليه ،

قسوي زره . فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير ، فسامها إلى الخياط ، واعتذر إليه من قتلها . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه

يا لهف قلبي على مال أجود به      على المقلين من أهل المروآت  
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني      ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال ، أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله ، فقال ياربيع ، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني . وقال الربيع ، سمعت الحميدي يقول ، قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار ، ففرض خبائه في موضع خارج عن مكة ، وثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه ، يقبض له قبضة ويعطيه ، حتى صلى الظهر ، ونقض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال . أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال . وكان قلما يمسك شيئاً من سماحته . فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك . قال فخرج ، ثم قدم علينا ، فسألته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها ، لعرفتي بأهلها ، وقد وقف أكثرها . ولكني بنيت عني مضرباً ، يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أرى نفسي تتوق إلى أمور      يقصر دون مبلغن مالي  
فنفسي لا تطاوعني ببخل      ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي ، دخل أبي علي المأمون ، فوصله بمائة ألف درهم . فلما قام من عنده تصدق بها . فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه ، عاتبه المأمون في ذلك . فقال يأمر المؤمنين ، منع الموجود سوء ظن بالعبود . فوصله بمائة ألف أخرى

وقام رجل إلى سعيد بن العاص ، فسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم . فبكي . فقال له سعيد ما يبكيك ؟ قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها ، فوجدته عيلاً . فقبل منه المدحة ، وأمر حاجبه بنبله ما يصلحه ، وقال عسي أن أقوم من مرضي فأكفنه . فأقام شهرين فأوحشه طول المقام ، فكاتب إليه يقول :

إن حرماً قبول مدحتنا      وترك ما رنجي من الصفتنا

كما الدراهم والدنانير في الب مع حرام إلا يدا يسجد  
 فلما وصل البيتان إلى ابراهيم : قال لحاجبه : كم أقام بالباب ، قال شهرين . قال أعطه  
 ثلاثين ألفا ، وجنتى بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنا فأناك حاجل برنا قلا ولو أمهلتنا لم تقل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل وتقول نحن كأننا لم نعمل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم . فخرج عثمان يوما  
 إلى المسجد ، فقال له طلحة ، قدتهيا مالك فاقبضه . فقال هو لك يا أبا محمد ، معونة لك على مروءتك .  
 وقالت سعدى بنت عوف ، دخلت على طلحة ، فرأيت منه ثقلا . فقلت له مالك ؟  
 فقال اجتمع عندي مال وقد غمني . فقلت وما ينمك : أدع قومك . فقال يا غلام . على بقوى  
 قسمه فيهم . فسألت الخادم كم كان ؟ قال أربعائة ألف . وجاء أعرابي إلى طلحة ه فسأله  
 وتقرّب إليه برحم . فقال إن هذه الرحم ما سألتني بها أحد قبلك . إن لي أرضا قد أعطانيها  
 عثمان ثلثمائة ألف ، فإن شئت فاقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ه ودفعت إليك الثمن  
 فقال الثمن . فباعها من عثمان ، ودفع إليه الثمن . وقيل بكى علي كرم الله وجهه يوما . فقيل  
 ما يبكيك ؟ فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهانني .

وأتى رجل صديقا له ، فدق عليه الباب ، فقال ماجاء بك ؟ قال على أربعائة درهم دين . فوزن  
 أربعائة درهم ، وأخرجها إليه ، وعاد يبكي . فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك ؟ فقال إنا أبكي  
 لأني لم أتفقد حاله ، حتى احتاج إلى مفاتيحي . فرحم الله من هذه صفاتهم ، وغفر لهم أجمعين

## بيان

### فم البخل

قال الله تعالى ( وَمَنْ يُوَقِّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ )<sup>(١)</sup> وقال تعالى (أولاً  
 يُحْسِنُ لِلَّذِينَ يُبْتَغُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ  
 مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ )<sup>(٢)</sup> وقال تعالى (الَّذِينَ يُبْتَغُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ

مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ <sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَأَسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَدَعَاَهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاَهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلَا خَبٌّ وَلَا خَائِنٌ وَلَا سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وفي رواية « وَلَا جَبَّارٌ » وفي رواية « وَلَا مَنَّانٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شِحٌّ مُطَاعٌ وَهُوَى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابٌ أَلْمَرُّ بِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> « إِنْ اللَّهُ يَبْغِضُ ثَلَاثَةَ الشَّيْخِ الزَّانِي وَالْبَخِيلِ الْمَنَّانَ وَالْمُعْتَلِّ الْمَخْتَالَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٧)</sup> « مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جَبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لُدُنٍ تَذِيهَمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بِنَانَهُ وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا قَلَصَتْ وَزَمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا حَتَّى أَخَذَتْ بِتَرَاقِيهِ فَهُوَ يُوسَعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ » . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٨)</sup> « خَصَلْتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم

- (١) حديث إياكم والشح - الحديث : مسلم من حديث جابر بلفظ واقفوا الشح فان الشح - الحديث : ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو وإياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا
- (٢) حديث إياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم : الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ حراماتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم
- (٣) حديث لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة وفي رواية لآمان : أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا مَنَّان ففيه عند الترمذي وله ولا بن ماجه لا يدخل الجنة سيء الملكة
- (٤) حديث ثلاث مهلكات - الحديث : تقدم في العلم
- (٥) حديث إن الله يبغض ثلاثة الشيخ الزاني والبخيل المَنَّان والفقير المختال : الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل المَنَّان وقال فيه الغنى الظلوم وقد تقدم والبطراني في الأوسط من حديث علي ان الله يبغض الغنى الظلوم والجهول والمائل المختال وسنده ضعيف
- (٦) حديث مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبهتان من حديد من حديث أبي هريرة
- (٧) حديث خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق : الترمذي من حديث أبي سعيد وقال مجرب

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ »  
 وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظَلَمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ .  
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ وَلَا الْمُتَفَحِّشَ وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحُّ  
 أَمَرَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَذَّبُوا وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحُّ هَالِحٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ . » وقتل شهيد على عهد  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكته باكياً ، فقالت واشهيداه . فقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « وَمَا  
 يُدْرِيكَ أَنَّهُ شَهِيدٌ فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ أَوْ يَبْخُلُ بِمَا لَا يُنْقِصُهُ » وقال جبير  
 ابن مطعم ، <sup>(٤)</sup> « بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه الناس مقلدة من خبير  
 إذ علفت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة ، فخطفت  
 رداءه . فوقف صلى الله عليه وسلم فقال « أُعْطُونِي رِدَائِي فَوَاللَّهِ نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِي  
 عَدُوٌّ هَذِهِ الْعِضَاءُ نَعْمًا لَقَسَمْتُه يَنْتَكُمُ ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بِخِيَلًا وَلَا كَذَابًا وَلَا جَبَانًا »

وقال عمر رضي الله عنه ، <sup>(٥)</sup> قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً . قتل غير هؤلاء كانوا  
 أحق بهم منهم . فقال « إِنَّهُمْ يُخَيَّرُونِي بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبْخَلُونِي وَلَسْتُ بِيَاخِلٍ »

( ١ ) حديث اللهم انى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن - الحديث : البخارى من حديث سعدو تقدم فى الأذكار

( ٢ ) حديث إياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة - الحديث : الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ودون

قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عواضهما وبالْبُخْلِ فبخلوا وبالْفُحْشِ ففجروا وكذا رواه أبو داود ومقتصر على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث

جابر اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فذكروه بلفظ آخر ولم يذكر الفحش

( ٣ ) حديث شر ما فى الرجل شح هالغ وجبن خالغ : أبو داود من حديث جابر بسند جيد

( ٤ ) حديث وما يدريك انه شهيد فله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه : أبو يعلى من حديث أبي هريرة

بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ان أمه قالت ليهك الشهادة وهو عند الترمذى

الآن رجلا قال له أيشر بالجنة

( ٥ ) حديث جبير بن مطعم بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقلدة من خبير

علقت الأعراب به - الحديث : البخارى وتقدم فى أخلاق النبوة

( ٦ ) حديث عمر قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسماً - الحديث : وفيه وليست ياخيل مسلم

وقال أبو سعيد الخدري ، <sup>(١)</sup> دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألاه ثمن بعير . فأعطاها دينارين . فخرجا من عنده ، فلقبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فائتيا وقالا معروفا ، وشكرا ما صنع بهما . فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا . فقال صلى الله عليه وسلم « لَكِنَّ فُلَانَ أُعْطِيَتْهُ مَائِينَ عَشْرَةَ إِلَى مِائَةٍ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إِذْ أَحَدَ كُمْ لَيْسَانِي قَيْنَطْلِقُ فِي مَسْأَلَتِهِ مُتَابَطَهَا وَهِيَ نَارٌ » فقال عمر ، فلم تعطيهما ما هو نار ؟ فقال « يَا بُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْتِيَنِي اللَّهُ لِي الْبُخْلَ »

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْجُودُ مِنْ جُودِ اللَّهِ تَعَالَى فَجُودُوا يَجِدِ اللَّهُ لَكُمْ أَلَا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْجُودَ فَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَأْسَخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ طُوبَى وَشَدَّ أَغْصَانَهَا بِأَغْصَانِ سِدْرَةِ الْمُتَهَمَى وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِبَعْضِهَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَلَا إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانَ فِي الْجَنَّةِ وَخَلَقَ الْبُخْلَ مِنْ مَقْتِهِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَأْسَخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ الزُّقُومِ وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِبَعْضِهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ أَلَا إِنَّ الْبُخْلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَفْرُ فِي النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَلْبِغُ الْجَنَّةَ إِلَّا سَخِيٌّ وَالْبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي النَّارِ فَلَا يَلْبِغُ النَّارَ إِلَّا بُخِيلٌ » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> لو فسد بنى لحيان « مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي لِحْيَانَ » قالوا سيدهنا جد بن قيس ، إلا أنه رجل فيه بخل . فقال صلى الله عليه وسلم « وَآيٌ دَاءٌ أَدْوَأُ مِنْ

(١) حديث أبي سعيد في الرجلين اللذين أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقبها عمر فائتيا

وقال معروفا - الحديث : وفيه ويأبى الله لي البخل رواء أحمد وأبو يعلى والبراز نحوه ولم يقل

أحمد انها سألاه ثمن بعير . ورواه البراز من رواية أبي سعيد عن عمرو رجال أسانيدهم ثقات

(٢) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم - الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس

ولم يخرج له ولده في مسنده ولم أقف له على اسناد

(٣) حديث السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلبغ في الجنة الا سخى - الحديث : تقدم دون قوله فلا يلبغ

في الجنة الى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرج له ولده في مسنده

(٤) حديث أبي هريرة من سيدكم يا بني لحيان قالوا سيدهنا جد بن قيس - الحديث : الحاكم وقال صحيح على

شروط صحيح بلفظ يا بني سلمة . وقال سيديكم بشير بن البراء وأما الرواية التي قال فيها سيديكم عمرو

ابن الجوح فرواها للطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك باسناد حسن

الْبَخِيلِ وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجُنُوحِ « وفي رواية ، أنهم قالوا سيدنا جده بن قيس فقال « بِمَ تَسْوَدُونَهُ ؟ » قالوا إنه أكثرنا مالا ، وإنا على ذلك لنرى منه البخل . فقال عليه السلام « وَأَيُّ ذَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبَخِيلِ لَيْسَ ذَلِكَ سَيِّدَكُمْ » قالوا فن سيدنا يارسول الله؟ قال « سَيِّدُكُمْ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ » . وقال على رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنْ اللَّهُ يَبْغِضُ الْبَخِيلَ فِي حَيَاتِهِ السَّخِيَّ عِنْدَ مَوْتِهِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « وَالسَّخِيُّ الْجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ » وقال أيضا ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) « الشُّعْثُ وَالْإِيمَانُ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ عَبْدٍ » وقال أيضا (٤) « خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ ، الْبَخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ بَخِيلًا وَلَا جَبَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « يَقُولُ قَاتِلُكُمْ الشَّحِيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظَّالِمِ وَأَيُّ ظَلَمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلَا بَخِيلٌ »

وروى أن رسول الله عليه وسلم (٧) كان يطوف بالبيت ، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول ، بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا ذَنْبُكَ أَصِفُهُ لِي » فقال هو أعظم من أن أصفه لك . فقال « وَيُحَكُّ ذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ الْأَرْضُونَ ؟ » فقال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمْ الْجِبَالُ ؟ » قال بل ذنبي أعظم

( ١ ) حديث على ان الله يبغض البخل في حياته السخي عند موته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده

في مسنده ولم أجده اسنادا

( ٢ ) حديث أبي هريرة السخي الجهول أحب الى الله من العابد البخل الترمذي بلقظ ولجاهل سخي وبقية

حديث ان السخي قريب من الله وقد تقدم

( ٣ ) حديث أبي هريرة لا يجتمع الشح والایمان في قلب عبد النساءى وفي اسناده اخلاق

( ٤ ) حديث خصلتان لا يجتمعان في مؤمن - الحديث . الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم

( ٥ ) حديث لا ينبغي لمؤمن أن يكون جباناً ولا بخيلاً لم أره بهذا اللفظ

( ٦ ) حديث يقول قاتلكم الشحيح أعذر من الظالم وأي ظلم أظلم من الشح - الحديث ؛ وفيه لا يدخل

الجنة شحيح ولا يخجل لم أجده بتمامه وللترمذي من حديث أبي بكر لا يدخل الجنة بخيل وقد تبين

( ٧ ) حديث كان يطوف بالبيت فادرجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الاغفرت لي

الحديث ؛ في ذم البخل وفيه قال إليك عن لاخر قتي بن ابراهيم الحديث بطوله وهو باطل لا أصل له

يارسول الله . قال « فذَّئِبِكَ أَعْظَمُ أُمِّ الْيَحَارِ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله قال « فذَّئِبِكَ أَعْظَمُ أُمِّ السَّمَوَاتِ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فذَّئِبِكَ أَعْظَمُ أُمِّ اللَّهِ » قال بل الله أعظم وأعلى قال « وَيَمْحَكَ فَصِفْ لِي ذَّنْبِكَ » قال يارسول الله ، إني رجل ذو ثروة من المال ، وإن السائل ليأتيني يسألني ، فكأنما يستقبلني بشعلة من نار . فقال صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكَ عَنِّي لَا تَحْرُقُنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْهُدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ لَوْ قُمْتَ بَيْنَ الرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ثُمَّ صَلَّيْتَ أَلْفَ أَلْفِ عَامٍ ثُمَّ بَكَيتَ حَتَّى تَجْرِي مِنَ دُمُوعِكَ الْأَنْهَارُ وَتُسْقَى بِهَا الْأَشْجَارُ ثُمَّ مِتَّ وَأَنْتَ لَيْتِمٌ لَا كَبِكَ اللَّهُ فِي النَّارِ وَيَمْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْبُخْلَ كَفْرٌ وَأَنَّ الْكُفْرَ فِي النَّارِ وَيَمْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ ( وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ ) (١) ( وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ ) (٢)

الآثار : قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لما خلق الله جنة عدن ، قال لها تريني . فزينت ثم قال لها أظهرى أنهارك ، فأظهرت عين السلسبيل ، وعين الكافور ، وعين التسنيم . فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر ، وأنهار العسل واللبن . ثم قال لها أظهرى سررك ، وحجالك وكراسيك ، وحليك ، وحلك ، وحور عينك . فأظهرت . فنظر إليها فقال تكلمي . فقالت طوبى لمن دخلني . فقال الله تعالى ، وعزتي لأأسكنك بخيلا وقالت أم البنين ، أخت عمر بن عبد العزيز ، أف للبخيل . لو كان البخيل قبيصا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكنه . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، إنا لنجد بأموالنا ما يمد البخلاء ، لكننا تصبر . وقال محمد بن المنكدر ، كان يقال إذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم ، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم . وقال علي كرم الله وجهه في خطبته إنه سيأتي على الناس زمان عضوض ، يمض الموسر على ما في يده ، ولم يؤمر بذلك . قال الله تعالى ( وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ) (٣) وقال عبد الله بن عمرو ، الشح أشد من البخل . لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يده غيره حتى يأخذه ، ويشح بما في يده فيحبه والبخيل



هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي ، لأدري أيهما أبتدغورا في نار جهنم . البخل أو الكذب وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند ، وفيلسوف الروم . فقال للهندي تكلم . فقال خير الناس من ألقى سخيا ، وعند الغضب وقورا ، وفي القول متأنيا ، وفي الرفعة متواضعا ، وعلى كل ذي رحم مشققا . وقام الرومي فقال ، من كان بخيلا ورث عدوه ماله ، ومن قل شكره لم ينل النجح ، وأهل الكذب مذمومون ، وأهل التهمة يموتون فقراء ، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى ( إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا <sup>(١)</sup> ) قال البخل . أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله ، فهم لا يبصرون الهدى . وقال كعب ، ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان ، اللهم عجل لمسك ثلثا ، وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعي ، سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال ، لقد صغر فلان في عيني ، لعظم الدنيا في عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، لا أرى أن أعذل بخيلا ، لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه ، خيفة من أن يغبن ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة

وقال علي كرم الله وجهه ، والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى ( عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ <sup>(٢)</sup> ) وقال الجاحظ ، ما بقى من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث ، البخل لا غيبة له . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ إِذَا لَبَخَيْلٌ » ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « فَقَالُوا صَوَامَةٌ ، قَوَامَةٌ ، إِلَّا أَنْ فِيهَا بَخْلًا . قَالَ « قَسَا خَيْرُهَا إِذَا »

وقال بشر ، النظر إلى البخليل يقسى القلب ، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال يحيى بن معاذ ، ما في القلب للأسخياء إلا حب ، ولو كانوا فجارا ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز ، أبخل الناس بماله أجودهم بمرضه . ولقي يحيى بن زكريا عليها السلام ابليس في صورته فقال له يا ابليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك . قال أحب

(٢) حديث مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا - الحديث :

تقدم في آفات اللسان

(١) يس : ٨٥ (٢) التحريم : ٣

الناس إلى المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلى الفاسق السخي . قال لأن البخيل قد كفاني بخله ، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله . ثم ولي وهو يقول ، لولا أنك يجي لما أخبرتك

## حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه ، وقدم إليه طباهجة بييض فأكل منه ، فأكثر . وجعل يشرب الماء ، فانتفخ بطنه ، ونزل به السكر والموت فجعل يتلوى . فلما جهده الأمر ، وصف حاله للطبيب ، فقال لا بأس عليك ، تقيأ ما أكلت فقال هاه ، أتقيأ طباهجة بييض ، الموت ولا ذلك . - وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلاً ، وبين يديه تين ففطى التين بكسائه . فجلس الأعرابي ، فقال له الرجل ، هل تحسن من القرء ان شيئاً؟ قال نعم فقرأ ( وَالرَّيْثُونَ وَطُورِ سَيْنِينَ <sup>(١)</sup> ) فقال وأين التين؟ قال هو تحت كسائك ودعا بعضهم أخاه ، ولم يطعمه شيئاً . فحبسه إلى العصر ، حتى اشتد جوعه ، وأخذ ممثل الجنون . فأخذ صاحب البيت العود ، وقال له بحياتي أي صوت تشتبه أن أسمعك؟ قال صوت المقلبي ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً فيبيع البخل ، فستل نسيب له كان يعرفه عنه . فقال له قائل ، صف لي مائدته . فقال هي فتر في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش . قيل فمن يحضرها؟ قال الكرام الكاتبون ، قال فما يأكل معه أحد؟ قال بلي الذباب : فقال سوائك بدت ، وأنت خالص به ، وثوبك مخرق . قال أنا والله ما أقدر على إبرة . أخيطه بها . ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة ، مملواً إبراهيم ، ثم جاءه جبريل ، وميكائيل ، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام ، يطلبون منه إبرة ، ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ، ما فعل . - ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يهرم إليه ، فإذا قرم إليه ، أرسل غلامه ، فاشترى له رأساً . فأكله فقيل له نراك لا تأكل إلا الرأس في الصيف والشتاء . فلم تختار ذلك؟ قال نعم ، الرأس أعرف سعره ، فأمن خيانة الغلام ، ولا يستطيع أن يغبني فيه وليس يلجم يطبخه الغلام ،

فيتدر أن يأكل منه، إن مس عيناً، أو أذناً، أو خذاً، ووقفت على ذلك. وآكل منه أو اناعينه لو ناء، وأذنه لو ناولسانه لو ناولصمته لو ناء، ودماغه لو ناء، وأكفي مؤنة طبخه. فقد اجتمعت لي فيه مرافق وخرج يوم يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله، مالي عليك إن رجعت بالجائزة؟ فقال إن أعطيت مائة ألف، أعطيتك درهما. فأعطى ستين ألفاً، فأعطاه أربعة دوانق. واشترى مرة لحماً بدرهم، فدعاه صديق له، فرد اللحم إلى القصاب بنقصان داتق، وقال أكره الإسراف وكان للأعمش جار، وكان لا يزال يمرض عليه المنزل ويقول، لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً، فيأبى عليه الأعمش. فمرض عليه ذات يوم، فوافق جوع الأعمش، فقال سربنا. فدخل منزله، فقرب إليه كسرة وملحاً. فجاء سائل، فقال له رب المنزل، بورك فيك فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك. فلما سأل الثالثة، قال له اذهب وإلا والله خرجت إليك بالمصا، قال فناده الأعمش وقال. اذهب، ويحك، فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه، هو منذمدة يدعوني على كسرة وملح، فلا والله ما زادني عليهما

## بيان

### الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجات السخاء الإيثار. وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه. وإعما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه المحتاج، أو لغير محتاج. والبذل مع الحاجة أشد. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخر الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة. فكم من يبخل بمسك المال ويعرض، فلا يتدأى. ويشتهي الشهوة، فلا يمنه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجاناً لا أكلمها. فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة. وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه. فانظر ما بين الرجلين، فإن الأخلاق عطايا، يضمنها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثبت الله على الصجابة رضى الله عنهم به فقال (وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَتْ بِهِمْ حَصَاةً<sup>(١)</sup>) وقال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الحشر: ٩

(١) «أَيُّ أَمْرِيءَ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدَّ شَهْوَتَهُ وَآثَرَ عَلَى نَفْسِهِ غُفْرَانَهُ» وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ثلاثة أيام متواليات ، حتى فارق الدنيا . ولو شئنا لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا (٣) . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يديه إلى الطعام كأنه يأكل ، ولا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام . فلما أصبح . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمُ اللَّيْلَةَ إِلَى صَنِيعِكُمْ » وتزلت ( وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٤) ) . فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى سماه الله تعالى عظيما ، فقال تعالى ( وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٥) )

وقال سهل بن عبد الله التستري ، قال موسى عليه السلام ، يارب ، أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته . فقال ياموسى ، إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازلها ، جليلة عظيمة ، فضلتها بها عليك وعلى جميع خلقى . قال فكشف له عن ملكوت السموات ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى . فقال يارب ، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال بخلق اختصاصته به من بينهم ، وهو الإيثار ياموسى ، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتنا من عمره ، إلا استجيت من محاسبه ، وبوأته من جنتي حيث يشاء . وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم

( ١ ) حديث أعمارجل أشتهى شهوة فردشهوته وآثر على نفسه غفرله: ابن حبان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم

( ٢ ) حديث عائشة ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكننا نؤثر على أنفسنا: البيهقي في الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حرق مضي لسبيله وللشيخين ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض زاد مسلم من طعام

( ٣ ) حديث نزل به ضعيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله الحديث: في نزول قوله تعالى وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولو كان بهم خصاصة متفق عليه من حديث أبي هريرة

وفيه غلام أسود يعمل فيه . إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه . فقال يا غلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت . قال فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائئاً ، فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فأنت صانع اليوم ؟ قال أطوى يومى هذا . فقال عبد الله بن جعفر ، ألام على السخاء ؟ إن هذا الغلام لأسخى منى . فاشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات ، فأعتق الغلام ، ووهبه منه . وقال عمر رضي الله عنه ، أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال إن أخي كان أحوج منى إليه ، فبعث به إليه . فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر ، حتى تداوله سبعة أبيات ، ورجع إلى الأول .

وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ،<sup>(١)</sup> فأوحى الله تعالى إلى جبريل نوره ميكائيل عليهما السلام ، إني آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر . فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة ، وأحباها ، فأوحى الله عز وجل إليهما ، أفلا كنتم مثل علي بن أبي طالب ، آخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ، ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض ، فاحفظاه من عدوه . فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه . وجبريل عليه السلام يقول ، منح منح من مثلك يا ابن أبي طالب . والله تعالى يباهى بك الملائكة ، فأترل الله تعالى ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ )<sup>(١)</sup> . وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً ، وكانوا في قرية بقرب الري ، ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم . فكسروا الرغفان

(١) حديث بات علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل إني آخيت

بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر - الحديث : في نزول قوله تعالى ومن الناس من

يشري نفسه ابتغاء مرضات الله أحمد مختصراً من حديث ابن عباس شري على نفسه فلبس ثوب

النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه - الحديث وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه

الزيادة على أصل وفيه أبو بليج مختلف فيه - والحديث : منكر

وأطفئوا السراج ، وجلسوا للطعام . فلما رفع ، فإذا الطعام بحاله ، ولم يأكل أحد منه شيئا  
إيثارا لصاحبه علي نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل ، وليس عنده شيء . فنزع خشبة  
من سقف بيته ، فأعطاه ، ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة المدوي ، انطلقت يوم اليرموك  
أطلب ابن عم لي ، ومعي شيء من ماء ؛ وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به  
وجهه . فإذا أنا به . فقلت أسقيك ؛ فأشار إلي أن نعم . فإذا رجل يقول آه . فأشار ابن عمي  
إلي أن انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؛ فسمع به آخر  
فقال آه . فأشار هشام انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو قدمات . فرجعت إلى هشام ، فإذا  
هو قدمات . فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو قدمات ، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقال عباس بن دهقان ، ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها ، إلا بشر من الحارث ، فإنه أتاه  
رجل في مرضه ، فشكا إليه الحاجة ، فنزع قبضه وأعطاه إياه ، واستعار ثوبا فسات فيه .  
وعن بعض الصوفية ، قال كنا بطرسوس ، فاجتمعنا جماعة ، وخرجنا إلى باب الجهاد ،  
فبينما كلب من البلد . فلما بلغنا ظاهر الباب ، إذا نحن بدابة ميتة ، فصعدنا إلى موضع  
قال ، وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة ، رجع إلى البلد ، ثم عاد بعد ساعة ، ومعه مقدار  
عشرين كلبا . فجاء إلى تلك الميتة ، وقعد ناحية ، ووقعت الكلاب في الميتة . فما زالت  
تأكلها ، وذلك الكلب قاعد ينظر إليها ، حتى أكلت الميتة . وبقى العظم ، ورجعت  
الكلاب إلى البلد . فقام ذلك الكلب ، وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ، ثم انصرف  
وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار ، وأحوال الأولياء ، في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة  
إلى الإعادة هنا ، وبالله التوفيق ، وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل

## بيان

حد السخاء والبخل وحققتها

لملك تقول قد عرف بثواهد الشرع ، أن البخل من المهلكات ، ولكن ما جد البخل  
وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا هو يرى نفسه شيخيا ، وربما يراه غيره بخيلا  
وقد يصدر فعل من إنسان ، فيختلف فيه الناس ، فيقول قوم هذا بخل ، ويقول آخرون

ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه جبا للمال ، ولأجله يحفظ المال ويمسكه فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا ، فإذا لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك ، فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول

قد قال قائلون حد البخل منع الواجب . فكل من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخل وهذا غير كاف . فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب ، والخبز للخباز ، بنقصان حبة أو نصف حبة ، فإنه يعد بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يقرضه القاضى ، ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه ، أو تمرّة أكلوها من ماله ، يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف ، فحضر من يظن أنه يأكل معه ، فأخفاه عنه ، عد بخيلا

وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية . وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية ، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة ، كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك . وإن أريد به أنه يستصعب بعض المطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض المطايا ، وهو ما يستغرق جميع ماله ، أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا فى الجود ، فقيل : الجود عطاء بلا من ، وإسعاف من غير روية

وقيل : الجود عطاء من غير مسألة ، على روية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالمطاء لما أمكن . وقيل ، الجود عطاء على روية أن المال لله تعالى ، والعبد لله عز وجل ، فيعطى عبد الله مال الله ؟ على غير روية الفقر . وقيل . من أعطى البعض ، وأبقى البعض ، فهو صاحب سخاء . ومن بذل الأكثر ، وأبقى لنفسه شيئا . فهو صاحب جود . ومن قاسى الضر ، وآثر غيره بالبلغة ، فهو صاحب إيثار . ومن لم يبذل شيئا ، فهو صاحب بخل وجملة هذم الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل . بل تقول ، المال خلق لحكمة ومقصود ، وهو صلاحه لحاجات الخلق . ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ،

ويتمهما وسط وهو المحمود ، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ، إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء . وقد قيل له ( وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا <sup>(٢)</sup> ) . فالجود وسط بين الإسراف والإقتار ، وبين البسط والقبض . وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ، ما لم يكن قلبه طيبا به ، غير منازع له فيه . فإن بذل في محل وجوب البذل ، ونفسه تنازعه ، وهو يصار بها فهو متسخ . وليس بسخي ، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال ، إلا من حيث يزداد المال له ، وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه . فإن قلت : فقد سار هذا موقوفا على معرفة الواجب ، فما الذي يجب بذله . فأقول ، إن الواجب قسمان ، واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والمادة . والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ، ولا واجب المروءة فإن منع واحدا منهما ، فهو بخيل . ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل . كالذي يمنع أداء الزكاة ، ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤديها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسخي بالتكلف ، أو الذي يتيمم الخبيث من ماله ، ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخيل . وأما واجب المروءة ، فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات . فإن ذلك مستقبح ، واستقبح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله ، استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة . ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله ، وأقاربه ، ومما ليك ، ما لا يستقبح مع الأجانب . ويستقبح من الجار ، ما لا يستقبح مع البعيد . ويستقبح في الضيافة من المضايقة ، ما لا يستقبح في المعاملة . فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة ، في ضيافة ، أو معاملة . وبما به المضايقة ، من طعام ، أو ثوب . إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها . ويستقبح في شراء الكفن مثلا ، أو شراء الأضحية ، أو شراء خبز الصدقة ، ما لا يستقبح في غيره من المضايقة : وكذلك بمن معه المضايقة ، من صديق ، أو أخ ، أو قريب ، أو زوجة ، أو ولد ، أو أجنبي . وبمن منه المضايقة ، من صبي أو امرأة ، أو شيخ ، أو شاب ، أو عالم ، أو جاهل ، أو مويسر ، أو فقير .

(١) الإسراء : ٢٩ (٢) الفرقان : ٩٧



فالبخل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع ، وإما بحكم الشرع ، وإما بحكم المروءة . وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أم من حفظ المال . فإن صيانة الدين أم من حفظ المال . فمانع الزكاة والنفقة ببخل : وصيانة المروءة أم من حفظ المال . والمضائق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه ، هاتك ستر المروءة لحب المال ، فهو ببخل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ، ويحفظ المروءة ، ولكن معه مال كثير قد جمعه . ليس بصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين . فقد تقابل غرض حفظ المال ، ليكون له عدة على نوائب الزمان . وغرض الثواب ، ليكون رافعا لدرجاته في الآخرة . وإمساك المال عن هذا الغرض ببخل عند الأكياس ، وليس ببخل عند عوام الخلق . وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا ، فيرون إمساكهم لدفع نوائب الزمان مُهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ، إن كان في جواره محتاج فمنعه وقال ، قد أدت الزكاة الواجبة ، وليس على غيرها : ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج ، وصالح دينه ، واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به ، فقد تبرأ من البخل .

نم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ، ما لم يبذل زيادة على ذلك ، لطلب الفضيلة ، ونيل الدرجات فإذا اتسعت نفسه لبذل المال ، حيث لا يوجب الشرع ، ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد ، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر . وبعض الناس أجود من بعض . فاصطناع المعروف وراء ما توجب العادة والمروءة ، هو الجود . ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ، ولا يكون عن طمع ، ورجاء خدمة ، أو مكافأة أو شكر ، أو ثناء . فإن من طمع في الشكر والثناء ، فهو يبيع ، وليس بجواد . فإنه يشتري المدح بماله . والمدح لذيذ ، وهو مقصود في نفسه . والجود هو بذل الشيء من غير عوض هذا هو الحقيقة ، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى . وأما الآدمي ، فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض . ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة ، أو اكتساب فضيلة الجود ، وتطهير النفس عن رذالة البخل ، فيسمى جوادا . فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا ، أو من ملامة الخلق ، أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه ، فكل ذلك

ليس من الجود، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث، وهي أعراض معجزة له عليه، فهو يعتاض  
 لاجواد، كما روى عن بعض المتعبدات، أنها وقفت على حبان بن هلال، وهو جالس مع  
 أصحابه، فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة؟ فقالوا لها سلى عما شئت، وأشاروا إلى حبان  
 ابن هلال. فقالت ما السخاء عنكم؟ قالوا العطاء، والبذل، والإيثار. قالت هذا السخاء  
 في الدنيا؟ فما السخاء في الدين؟ قالوا أن نعبد الله سبحانه، سخية بها أنفسنا، غير مكرهة  
 قالت فتريدون على ذلك أجرا؟ قالوا نعم، قالت ولم؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر  
 أمثالها. قالت سبحان الله، فإذا أعطيت واحدة وأخذتم عشرة، فبأي شيء تسخيتم عليه؟  
 قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله؟ قالت السخاء عندي، أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين  
 بطاعته، غير كارهين، لا تريدون على ذلك أجرا، حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء  
 ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم، فيعلم منها أنكم تريدون شيئا بشيء؟ إن هذا في  
 الدنيا لقبيح. وقالت بعض المتعبدات، أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط؟  
 قيل فقيم؟ قالت السخاء عندي في المهج. وقال المحاسبي، السخاء في الدين أن تسخو بنفسك  
 تلتفها لله عز وجل، ويسخو قلبك ببذل مهجتك، وإهراق دمك لله تعالى، بسماحة من  
 غير إكراه، ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا. وإن كنت غير مستغن عن الثواب.  
 ولكن يقلب على ظنك حسن كمال السخاء، بترك الاختيار على الله، حتى يكون مولاك  
 هو الذي يفعل لك ما التحسن أن تختاره لنفسك

## بيان

### علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال. وحب المال سببان: أحدهما حب الشهوات التي لا وصول  
 إليها إلا بالمال مع طول الأمل. فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم، رجاء أنه كان لا يبخل  
 بعاله، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم، أو في شهر، أو في سنة، قريب، وإن كان قصير  
 الأمل، وليكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه.

فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام <sup>(١)</sup> « الولد مبخلٌ مجبنةٌ مجبلةٌ » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر ، وقلة الثقة بمجىء الرزق ، قوى البخل لا محالة .

السبب الثاني : أن يحب عين المال . فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره ، إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته ، وتفضل آلاف ، وهو شيخ بلا ولد ، ومعه أموال كثيرة ، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ، ولا بما داواة نفسه عند المرض ، بل صار محبا للدنانير ، عاشقا لها ، يلتذ بوجودها في يده ، ويقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض ، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة . وهذا مرض للقلب عظيم ، عسير العلاج ، لاسيما في كبر السن . وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا ، فأحب رسوله لنفسه ، ثم نسى محبوبه ، واشتغل برسوله . فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات . فصارت محبوبه لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ اللذيذ . ثم قد تنسى الحاجات ، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه ، وهو غاية الضلال . بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل ، إلا من حيث قضاء حاجته به . فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة .

فهذه أسباب حب المال وإنما علاج كل علة بمضادة سببها . فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير ، وبالصبر . وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت ، والنظر في موت الأقران ، وطول تعبه في جمع المال ، وضياعه بعدهم . وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا ، وحاله أحسن ممن ورث . وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده ، يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر . وأن ولده إن كان تقيا صالحا فالله كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بحاله على المعصية ، وترجع مظلمته إليه . ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ، ومدح السخاء ، وماتوعد الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ، ونفرة الطبع عنهم ، واستقباحهم له . فإنه ما من بخيل إلا ويستبجح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه .

( ١ ) حديث الولد مبخلٌ زاد في رواية معززة: ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله معززة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبراز من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وأسناده صحيح

فيعلم أنه مستثقل ومستقدر في قلوب الناس ، مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج أيضا قلبه بأن التفكير في مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق . ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة ، بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم . فإذا عرف بنور البصيرة ، أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة حاجت رغبته في البذل إن كان عافلا . فإن تحركت الشهوة ، فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ، ويخوفه ، ويصده عنه . حكى أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء ، فدعا تلميذا له ، وقال انزع عنى القميص وادفعه إلى فلان . فقال هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال لم آ من على نفسي أن تنغير ، وكان قد خطر لى بذله

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا . كما لا يزول المشق إلا بفارقة المشوق ، بالسفر عن مستقره ، حتى إذا سافر وفارق تكلفا ، وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه . فكذلك الذي يريد علاج البخل ، ينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله . بل لورماه في الماء كان أولى به من إمساكه أياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه ، أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء ، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل ، واكتسب بها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ، ويزيله بملاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالمصافير وغيرها . لا يخلو واللعب ولكن لينفك عن الثدي إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، ينبغي أن يسلب بعضها على بعض ، كما تسلط الشهوة على الغضب ، وتكسر سورته بها . ويسلب الغضب على الشهوة ، وتكسر رعوته بها . إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبذل الأقوى بالأضعف . فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال ، فلافائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ، ويزيد في أخرى مثلها . إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء . فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه . فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء ، فينبغي أن يبذل ، فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ، ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه ووداً ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها . ثم يأكل بعضها بعضاً ، حتى ترجع إلى اثنتين ، قويتين ، عظيمتين . ثم لا تزالان تتقاتلان ، إلى أن تغلب إحداها الأخرى ، فتأكلها ، وتضمن بها . ثم لا تزال تبقى جائمة وحدها ، إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، يمكن أن يسلط بعضها على بعض ، حتى يقمها ، ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى ، إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإزالتها بالمجاهدة ، وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات ، أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضى لاحالة أعمالها ، وإذا خولفت خدمت الصفات وماتت . مثل البخل ، فإنه يقتضى إمساك المال . فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ، ماتت صفة البخل ، وصار البذل طبعاً ، وسقط التعب فيه . فإن علاج البخل بعلم وعمل . فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل ، وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف . ولكن قديقوى البخل ، بحيث يعنى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه . وإذا لم تتحقق المعرفة ، لم تتحرك الرغبة ، فلم يتيسر العمل . فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذى يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله ، فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت . وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية ، فى معالجة علة البخل فى المريدين ، أن يمنهم من الاختصاص بجزواياهم . وكان إذا توم فى مرید فرحه بزأوته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره إليه ، وأخرجه عن جميع مملكه . وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه ، أو سجادة يفرح بها ، يأمره بتسليمها إلى غيره ، ويلبسه ثوباً خلقاً ، لا يميل إليه قلبه . فهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل ، أنس بالدنيا وأحبها . فإن كان له ألف متاع ، كان له ألف محبوب ولذلك إذا سرق كل واحد منه ، أمت به مصيبة بقدر حبه له . فإذا مات ، نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة ، لأنه كان يحب الكل ، وقد سلب عنه . بل هو فى حياته على خطر المصيبة بالفقد والمهلك حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج ، مرصع بالجواهر ، لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً . فقال لبعض الحكماء عنده ، كيف ترى هذا ؟ قال أراه مصيبة أو فقراً قال كيف ؟ قال إن كسر كان مصيبة لا جبر لها . وإن سرق صرت فقيراً إليه ، ولم تجده مثله

وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر . ثم اتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه ، فقال صدق الحكيم ، ليته لم يحمل إلينا . وهذا شأن جميع أسباب الدنيا . فإن الدنيا عدوة لأعداء الله ، إذ تسوقهم إلى النار . وعدوة أولياء الله إذ تنعمهم بالصبر عنها . وعدوة الله ، إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها ، فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس ، والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال ، وهو بذل الدرهم والدنانير . فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته ، حتى يفنى . ومن عرف آفة المال لم يأنس به ، ولم يفرح به ، ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته . ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل ، لأن ما أمسكه الحاجة فليس يبخل ، وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه ، فيبذله . بل هو كالماء على شط الدجلة . إذ لا يبخل به أحد ، لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة

## بيان

مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه ، خير من وجه ، وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراق ويستخرج منها الترياق . ويأخذها الغافل ، فيقتله سمها من حيث لا يدري . ولا يخاف أحد عن سم المال ، إلا بالمحافظة على خمس وظائف الأولى : أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ، وأنه لم يحتاج إليه ، حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه الثانية : أن يراعى جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة ، القاذحة في المروءة ، كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة ، وما يجري مجراه الثالثة : في المقدار الذي يكتسبه ، فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب . وميياره الحاجة ، والحاجة ملبس ، وميسكن ، ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات ، أدنى وأوسط ، وأعلى . وما دام ما مثلاً إلى جانب القلة ومتقرباً من جد الضرورة ، كان حقاً ،

ويجىء من جملة المحققين . وإن جاوز ذلك ، وقع في هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا  
تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد

الرابعة : أن يراعى جهة المخرج ، ويقتصد في الإنفاق ، غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه ،  
فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ، ولا يضعه في غير حقه . فإن الأثم في الأخذ من غير  
حقه ، والوضع في غير حقه ، سواء

الجماسة : أن يصلح نيته في الأخذ ، والترك ، والإنفاق ، والإمساك . فيأخذ ما يأخذ  
ليستعين به على العبادة . ويترك ما يترك زهداً فيه ، واستحقاراً له . إذا فعل ذلك لم يضره  
وجود المال . ولذلك قال على رضي الله عنه ، لو أن رجلاً أخذ جميع مافي الأرض ، وأراد به  
وجه الله تعالى ، فهو زاهد . ولو أنه ترك الجميع ، ولم يرد به وجه الله تعالى ، فليس بزاهد .  
فليتكن جميع حركاتك وسيكناتك لله ، مقصورة على عبادة ، أو مابين على العبادة فإن أبعاد  
الحركات عن العبادة ، الأكل وقضاء الحاجة . وهما معينان على العبادة . فإذا كان ذلك قصداً  
بها ، صار ذلك عبادة في حقلك . وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك ،  
من قبض ، وإزار ، وفراش ، وآنية . لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين . وما فضل من  
الحاجة ، ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، ولا يمنع منه عند حاجته . فمن  
فعل ذلك ، فهو الذي أخذ من حية المال جوهرها وترياقها ، واتقى سبها ، فلا تضره كثرة  
المال . ولكن لا يتأني ذلك إلا لمن رسيخ في الدين قدمه ، وعظم فيه علمه . والعامي إذا  
تشبه بالعالم في الاستكثار من المال ، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة ، شابه الصبي الذي يرى  
المزمل الحاذق يأخذ الحية ، ويتصرف فيها ، فيخرج ترياقها ، فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها  
مستحسننا صورتها وشكلها ، ومستلينا جلدتها ، فأخذها اقتداءً به ، فتقتله في الحال . إلا أن  
قتيل الحية يدري أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية . فقيل

هي دنيا حية تنفت السيم وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبهير ، في تخطى قلع الجبال ، وأطراف البحار ، والطرق

الشوكة ، فحال أن يتشبه العامي بالعالم الحكيم في تناول المال .

## بيان

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر . وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد ، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكننا في هذا الكتاب ، ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات إلى تفصيل الأحوال . وتقتصر فيه على حكاية فصل ذكر الحارث المحاسبي رضى الله عنه ، في بعض كتبه ، في الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبدالرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم . والمحاسبي رحمه الله خبر الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء سوء ، بلغنا أن عيسى بن مريم عليه السلام ، قال يا علماء سوء ، تصومون ، وتصلون ، وتصدقون ، ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لاتعلمون . فياسوء ما تحكمون . تتوون بالقول والأمانى ، وتعلمون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لاتكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم . يا عبید الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته ، ولاتنقطع منها رغبته ! بحق أقول لكم ، إن قلوبكم تبكى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم . بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى الناس أخسر منكم ؟ لو تعلمون ، ويلكم ، ختام تصفون الطريق للمدجلين وتقيمون في محل المتحيرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم . مهلامهلا . ويلكم ماذا يننى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة متمطلة . يا عبید الدنيا لا كعبید أتياء ، ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم ، فتلقبكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم



حتى تسامكم إلى الملك الديان عراة فرادى، فيوقفكم على سواآتكم ثم يحزبكم بسوء أعمالكم  
ثم قال الحارث رحمه الله: إخواني، فهؤلاء علماء السوء، شياطين الإنس، وفتنة على  
الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها، وآثروها على الآخرة، وأذلوا الدين للدنيا. فهم  
في العاجل عاروشين، وفي الآخرة هم الخاسرون، أو يعمو الكريم بفضله . وبعد،  
فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا، سروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم، وفنون  
الماصي، وإلى البوار والتلف مصيره. فرح الهالك برجائه، فلم تبق له دنياه، ولم يسلم له  
دينه. خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. فيالها من مصيبة ما أفظعها، ورزية  
ما أجلها. ألا فرأبوا الله إخواني، ولا يفرنكم الشيطان وأولياؤه، من الأنسين بالحجج  
الداخضة عند الله، فإنهم يتكالبون على الدنيا، ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج،  
ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال، فيتزين المغرورون  
بذكر الصحابة، ليعذرهم الناس على جمع المال، ولقد دهام الشيطان وما يشعرون.

ويحك أيها المفتون، إن احتججك بما لعبد الرحمن بن عوف، مكيدة من الشيطان  
ينطق بها على لسانك قتهلك، لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للشكائر  
والشرف، والزينة، فقد اغتبت السادة، ونسبتهم إلى أمر عظيم. ومتى زعمت أن جمع  
المال الحلال أعلى وأفضل من تركه، فقد ازدريت محمدا والمرسلين، ونسبتهم إلى قلة الرغبة  
والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك، من جمع المال، ونسبتهم إلى الجهل  
إذ لم يجمعوا المال كما جمعت. ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه، فقد زعمت  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم<sup>(١)</sup> عن جمع المال، وقد علم أن  
جمع المال خير للأمة، فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال، كذبت ورب السماء على  
رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلقد كان للأمة ناصحا، وعليهم مشفقا، وبهم رؤفا. ومتى  
زعمت أن جمع المال أفضل، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر إعباده، حين نهاهم عن جمع المال،

(١) حديث النهي عن جمع المال: ابن عدى من حديث ابن مسعود ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون من  
الناجرين - الحديث: ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد  
في أثناء الحديث لا تجمعوا ما لا تأكلون وكلامها ضعيف

وقد علم أن جمع المال خير لهم ، أو زعمت أنسب الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع ،  
 فلذلك نهام عنه ، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل ، فلذلك رغبت في الاستكثار ،  
 كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك ، تعالى الله عن جهلك أيها المفقون . تدبر بمقلتك  
 مادهاك به الشيطان ، حين زين لك الاحتجاج بحال الصحابة . ويحك ، ما ينفعك الاحتجاج  
 بحال عبد الرحمن بن عوف ، وقد ودع عبد الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يوت من الدنيا  
 إلا قوتا . ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، قال أناس من أصحاب  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب ، سبحان  
 الله ، وما تخافون على عبد الرحمن ، كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا . فبلغ ذلك أباذر ،  
 فخرج مغضبا يريد كعبا ، فربعظم لحي بعير ، فأخذه بيده ، ثم انطلق يريد كعبا . فقيل  
 لكعب ، إن أباذر يطلبك ، فخرج هاربا ، حتى دخل على عثمان يستغيث به ، وأخبره الخبر  
 وأقبل أبوذر يقص الأثر في طلب كعب ، حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل . قام كعب  
 فجلس خلف عثمان ، هاربا من أبيذر ، فقال له أبوذر ، هيه يا ابن اليهودية ، تزعم أن لا بأس  
 بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد شخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوما نحو أحد  
 وأنا معه ، فقال « يَا أَبَا ذَرٍّ » فقلت لبيك يا رسول الله ، فقال <sup>(١)</sup> « أَأَلَّا كَثُرُونَ هُمْ إِلَّا قُلُونَ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْإِمْنُ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقَدَامِهِ وَخَلْفِهِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ »  
 ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ » قلت نعم يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال « مَا يَسْرُتِي أَنَّ لِي مِثْلَ  
 أَحَدٍ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ » قلت أو قنطارين  
 يا رسول الله ؟ قال « بَلْ قِيرَاطَيْنِ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْتَ تَرِيدُ الْأَكْثَرَ وَأَنَا أُرِيدُ الْأَقْلَّ »  
 فرسول الله يريد هذا ، وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ،

( ١ ) حديث أبيذر الأثري يوم القيامة الامن قال هكذا وهكذا - الحديث : متفق عليه وقد

تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كسب طيبا  
 وترك طيبا وانكار أبيذر عليه فلم أنقص على هذه الزيادة التي في قول الحارث بن أسد المخاسي  
 بلغني كما ذكره المصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخضر من هذا . ولنظ كعب إذا كان كسبي  
 عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبوذر عصاه فطرب كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 يقول ما أحب لو كان هذا الجبل من ذهب . الحديث : وفيه ابن طيبة .

كذبت وكذب من قال . فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج به . وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه غير من اليمن ، فضجت المدينة ضجة واحدة ، فقالت عائشة رضي الله عنها ، ما هذا ؟ قيل غير قدمت لعبد الرحمن ، قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها ، فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> يقول « إني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف رأيت يدخلها معهم حبوا » فقال عبد الرحمن ، إن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرار ، لعلني أن أدخلها معهم سعياً .

وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> قال لعبد الرحمن بن عوف « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كدت أن تدخلها إلا حبوا »

ويحك أيها المفتون ، فما احتجاجك بالمال ، وهذا عبد الرحمن في فضله ، وتقواه ، وصناعته المعروف ، وبذله الأموال في سبيل الله ، مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> ، وبشراه بالجنة أيضاً ، يوقف في عرصات القيامة وأهوالها ، بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ، ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصداً ، وأعطى في سبيل الله سمحاً ، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين ، وصار يحب في آثارهم حبوا . فإظنك بأمثالنا الفرق في فتن الدنيا وبمعد ، فالعجب كل العجب لك يامفتون ، تتمرغ في تخاليط الشبهات والسحت ، وتكالب على أوساخ الناس ، وتقلب في الشهوات ، والزينة ، والمباهاة ، وتقلب في فتن

(٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين سعياً - الحديث : في أن عبد الرحمن

ابن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصراً في كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر

فقراء المهاجرين والمسلمين وفي عمارة بن راذان مختلف فيه - الحديث :

(٣) حديث أنه قال أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كدت أن تدخلها إلا حبوا : البراز من

حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف يا ابن عوف إنك من الأغنياء

ولن تدخل الجنة إلا زحفاً وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيف فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور

(٤) حديث بشر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه

أبو بكر في الجنة - الحديث : وفيه وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وهو عند الأربعة من حديث

صعيد بن زبير قال البخاري والترمذي وهذا أصح

الدنيا ، ثم تخرج بمجد الرحمن ، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعت الصحابة ، كأنك  
 تشبهت السلف وفيهم . ويحك ، إن هذا من قياس إبليس ، ومن قتياله وأوليائه  
 وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف ، لتعرف فضايحك ، وفضل الصحابة  
 ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال ، أرادوها للتعفف ، والبذل في سبيل الله ،  
 فكسبوا خللا ، وأكلوا طيبا ، وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يمنوا منها حقا ،  
 ولم يبخروا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفي الشدة آثروا الله  
 على أنفسهم كثيرا . فبالله أ كذالك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم . وبعد  
 فإن اختيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ، ومن خوف الفقر آمنين ، وباللله في أرزاقهم واثقين ،  
 وبمقادير الله مسرورين ، وفي البلاء راضين ، وفي الرضاء شاكرين ، وفي الضراء صابرين ،  
 وفي السراء حامدين . وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكأر ورعين ، لم ينالوا  
 من الدنيا إلا المباح لهم ، ورضوا بالبلغة منها ، وزجوا الدنيا ، وصبروا على مكارها ، ومجروا  
 ممراتها ، وزهدوا في نعيمها وزهراتها . فبالله أ كذالك أنت ، ولقد بلغنا أنهم كانوا  
 إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا ، وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله ، وإذا رأوا الفقر مقبلا  
 قالوا مرحبا بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء ،  
 أصبح كئيبا حزينا . وإذا لم يكن عندهم شيء ، أصبح فرحا مسرورا . فقيل له إن الناس إذا  
 لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ، وأنت لست كذلك . قال إني  
 إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت ، إذ كان لي برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة .  
 وإذا كان عند عيالي شيء ، إغتممت ، إذ لم يكن لي بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا  
 إذا سلك بهم سبيل الرضاء حزنوا وأشفقوا ، وقالوا مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم  
 على جناح خوف . وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا ، وقالوا الآن تماهدنا ربنا  
 فهذه أحوال السلف ونعمهم ، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أ كذالك  
 أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم ، وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم  
 وذلك أنك تطنى عند الغنى ، وتبظر عند الرضاء ، وتمرح عند البراء ، وتغفل عن  
 شكر ذي النعماء ، وتتنط عند الضراء ، وتبخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء .

نعم : وتبغض الفقر ، وتأنف من المسكنة ، وذلك فخر المرسلين . وأنت تأنف من فخرهم ، وأنت تدخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر ، وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه . وكفى به إيماً وعساک تجمع المال لنعيم الدنيا ، وزهرتها ، وشهواتها ، ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> قال « شَرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدُوا بِالنَّعِيمِ فَرَبَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، ليحییء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم ، فيقال لهم ( أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَنْتَعَمْتُمْ بِهَا <sup>(١)</sup> ) وأنت في غفلة ، قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا ، فيالها حسرة ومصيبة . نعم وعساک تجمع المال للتكاثر والعلو ، والفخر ، والزينة في الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر ، لقي الله وهو عليه غضبان . وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك ، حين أردت التكاثر والعلو . نعم : وعساک المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله ، فأنت تكره لقاء الله ، والله للقائك أكره ، وأنت في غفلة . وعساک تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ أَسْفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ أَقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وقيل سنة . وأنت تأسف على ما فاتك ، غير مكترث بقربك من عذاب الله . نعم : ولعلك تخرج من دينك أحياناً لتوفير دنياك ، وتفرح بإقبال الدنيا عليك ، وترتاح لذلك سروراً بها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال <sup>(١)</sup> « مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسُرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها . وأنت فرح بدنياك ، وقد سلبت الخوف من الله تعالى . وعساک تعنى بأمور دنياك ، أضعاف مائة بأمور آخرتك . وعساک ترى مصيبتك في معاصيك ، أهون

(١) حديث شرار أمتي الذين غدوا بالنعيم - الحديث: تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث

الرابع منه من أسف على دنيا فاتته اقرب من النار مسيرة سنة

(٢) حديث من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه: لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد المحاسب

كأذكره للمصنف عنه

من مصيبتك في انتقاص دنياك. نعم: وخوفك من ذهاب مالك. أكثر من خوفك من الذنوب وعساک تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها ، للماور ، والرفعة في الدنيا . وعساک ترضى المخلوقين ، مساخطا لله تعالى ، كما تكرم وتعظم . ويحك ، فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة ، أهون عليك من احتقار الناس إياك . وعساک تخفى من المخلوقين مساويك ، ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها ، فكأن الفضيحة عند الله ، أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العيب أعلى عندك قدرا من الله تعالى . الله عن جهلك . فكيف تنطق عند ذوى الأبواب ، وهذه المثالب فيك ! أف لك ، متلوثا بالأقذار ، وتحتج بمال الأبرار إهيات هيات ، ما أبعدك عن السلف الأخيار ! والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم ، أزهد منكم فيما حرم عليكم . إن الذى لا بأس به عندهم ، كان من الموبقات عندهم ، وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر الماضى . فليت أطيب مالك وأحله ، مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك ، كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل . ليت صومك على مثال إفطارهم . وليت اجتهادك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم . وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال ، غنيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ، ونهتهم ما زوى عنهم منها . فمن لم يكن كذلك ، فليس معهم في الدنيا ، ولا معهم في الآخرة . فسبحان الله ، كم بين الفريقين من التفاوت ! فريق خيار الصحابة في العلو عند الله ؛ وفريق أمثالكم في السفالة ، أو يعفو الله الكريم بفضله . وبعد ، فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة يجمع المال ، للتعفف والبذل في سبيل الله ، فتدبر أمرك . ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا ؟ لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال ، كنا ندع سبعين بابا من الحلال ، مخافة أن تقع في باب من الحرام . أتظلم من نفسك في مثل هذا الاحتياط ؟ لا ورب الكعبة ، ما أحسبك كذلك . ويحك ، كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكره من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات ، المزوجة بالسحت والحرام . وقد بلغنا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> قال « مَنْ اجْتَرَأَ عَلَى الشُّبُهَاتِ أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِي الْحَرَامِ » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اتحام الشبهات ، أعلى وأفضل ، وأعظم لقدرك عند الله ، من اكتساب الشبهات ، وبدلها في سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال ، لأن تدع درهما واحدا ، مخافة أن لا يكون حلالا ، خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة ، لا تدري أيحل لك أم لا

فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ، ويحك إن كنت كما زعمت بالعاقب الورع ، فلا تعرض للحساب فإن خيار الصحابة خافوا المسألة . وبلغنا أن بعض الصحابة قال ، ما سرتني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال ، وأنفقها في طاعة الله ، ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة . قالوا ولم ذاك رحمك الله ؟ قال لأنني غني عن مقام يوم القيامة ، فيقول عبدي من أين أكتسبت ؟ وفي أي شيء أنفقت . فهؤلاء المتقون كانوا في جدة الإسلام ، والحلال موجود لديهم . تركوا المال وجلا من الحساب ، مخافة أن لا يقوم خير المال بشره . وأنت بنفاية الأمن ، والحلال في دهرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ، ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال . ويحك ، أين الحلال فتجمعه . وبعد ، فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ؟ وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال ، فيتركه مخافة أن يفسد قلبه . أفطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة ، فلا يزول عن شيء من الحق في أمرك وأحوالك ؟ لأن ظننت ذلك ، لقد أحسنت الظن بنفسك الأمانة بالسوء ويحك ، إني لك ناصح ، أرى لك أن تقنع بالبلغة ، ولا تجمع المال لأعمال البر ، ولا تعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> أنه قال « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدَّ » وقال عليه السلام<sup>(٢)</sup> « يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ

(١) حديث من اجتراء على الشبهات أو شك أن يقع في الحرام : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث :

(٢) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار : بطوله لم أنقف له على أصل

فِي حَرَامٍ فَيُقَالُ أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُوتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالًا مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَامٍ  
 فَيُقَالُ أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُوتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالًا مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ فَيُقَالُ  
 أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُوتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالًا مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلَالٍ فَيُقَالُ لَهُ قَفٌّ لَعَلَّكَ  
 قَصَّرْتَ فِي طَلَبِ هَذَا شَيْءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ صَلَاةٍ لَمْ تُصَلِّهَا لَوْ قَتَبْتُهَا وَفَرَطْتُ فِي  
 شَيْءٍ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَوُضُوءِهَا فَيَقُولُ لَا يَأْرَبُ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقْتُ  
 فِي حَلَالٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئًا مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيَّ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ اخْتَلْتِ فِي هَذَا الْمَالِ فِي شَيْءٍ  
 مِنْ مَرَكَبٍ أَوْ ثَوْبٍ بَاهِيَةٍ بِهِ فَيَقُولُ لَا يَأْرَبُ لَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أَبَاهِ فِي شَيْءٍ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ  
 مَنَعْتَ حَقَّ أَحَدٍ أَمْرُكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ  
 فَيَقُولُ لَا يَأْرَبُ كَسَبْتُ مِنْ حَلَالٍ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلَالٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئًا مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيَّ  
 وَلَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أَبَاهِ وَلَمْ أُضَيِّعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمْرًا تَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ قَالَ فَيَجِيءُ أَوْلِيكَ فَيَخَاصِمُونَهُ  
 فَيَقُولُونَ يَا رَبُّ أَعْطَيْتَهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَجَعَلْتَهُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَأَمْرَتَهُ أَنْ يُعْطِينَا فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُمْ  
 وَمَا ضَيَّعَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنَ الْفَرَائِضِ وَلَمْ يَخْتَلْ فِي شَيْءٍ فَيَقَانُ قَفًّا لَأَنْ هَاتِ شُكْرَ  
 كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُمْ عَلَيْكَ مِنْ أَكْلَةٍ أَوْ شَرِبَةٍ أَوْ لَذَّةٍ فَلَا يَزَالُ يُسْأَلُ ،

ويحك ، فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل ، الذي تقلب في الحلال  
 وقام بالحقوق كلها ، وأدى الفرائض بمحدودها ، حوسب هذه المحاسبة . فكيف ترى يكون  
 حال أمثالنا ، العرقى في فتن الدنيا ، وتخاليطها ، وشبهاتها ، وشهوراتها ، وزينتها ،  
 ويحك لأجل هذه المسائل ، يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفاف منها  
 وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك . بهؤلاء الأختيار أسوة . فإن أبيت  
 ذلك وزعمت أنك بالغ في الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال بزعمك للتعفف ،  
 والبذل في سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك  
 عما يحب الله ، ولم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلانيتك . ويحك ، فإن كنت  
 كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة ، وتمتزل ذوى الأموال إذا وقفوا  
 للسؤال ، وتسبق مع الرعيل الأول في زمرة المصطفى ، لأحبس عليك للمسألة والحساب ،



فإسلامة، وإماعطب، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> قال « يَدْخُلُ صَعَالِيكَ الْمُهَاجِرِينَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِ الْجَنَّةِ بِخَمْسِينَ عَامًا » وقال عليه السلام<sup>(٤)</sup> « يَدْخُلُ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِهِمْ فَيَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَالْآخِرُونَ جُنَاتُهُ عَلَى رُكَبِهِمْ فَيَقُولُ قَبْلُكُمْ طَلَبْتَنِي أَنْتُمْ حُكَّامُ النَّاسِ وَمُلْرُكُهُمْ فَأَرُونِي مَاذَا صَنَعْتُمْ فِيمَا أُعْطَيْتُكُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، ما سرني أن لي حمر النمل ولا أكون في الرعي الأول ، مع محمد عليه السلام وحزبه ، ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين ، في زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجيلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجل المتقين<sup>(٥)</sup> . لقد بلغني أن بعض الصحابة-، وهو أبو بكر رضي الله عنه ، عطش ، فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل ، فلما ذاقه خنقته العبرة ، ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه ، وذهب ليتكلم ، فعاد في البكاء . فلما أكثر البكاء ، قيل له ، أكل هذا من أجل هذه الشربة ؟ قال نعم . بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما معه أحد في البيت غيري فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول إليك عنى فقلت له فذاك أبو وأمي ما أرى بين يديك أحدا ، فن تخاطب ؟ فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا تَطَاوَلَتْ إِلَيَّ بِعُنُقِهَا وَرَأْسِهَا فَقَالَتْ لِي يَا مُحَمَّدُ خُذْنِي فَقُلْتُ إِلَيْكَ عَنِّي فَقَالَتْ إِنْ تَنْجُ مِنِّي يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَنْجُرُمَنِي مِّنْ بَعْدِكَ » فأخاف أن تكون هذه قد لحقتني ، تقطعني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقوم ، فهو لاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة

(١) حديث يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسة عاام : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ فقراء مكان صعاليك ولهما وللنساء في الكبرى من حديث أبي هريرة يدخل الفقراء الجنة - الحديث : ومسلم من حديث عبدالله بن عمران فقراء المهاجرين يسقون الاغنياء الى الجنة بأربعين خريفا

(٢) حديث يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون - الحديث : لم أره أصلا

(٣) حديث ان بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل - الحديث : في دفع النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله اليك عنى - الحديث : البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كنا عند أبي بكر فدا بشراب فأتى بماء وعسل - الحديث : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا في هذا الكتاب

من حلال ، ويحك أنت في أنواع من النعم والشهوات ، من مكاسب السحت والشبهات لا تحشى الانقطاع ! أف لك ، ما أعظم جهك . ويحك ، فإن تخلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محمد المصطفى ، لتظنن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء . ولئن قصرت عن السباق ، فليطولن عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثرة ، لتصيرن إلى حساب عسير . ولئن لم تقنع بالقليل ، لتصيرن إلى وقوف طويل ، وصراخ وعويل . ولئن رضيت بأحوال المتخلفين ، لتقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب العالمين ، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين . ولئن خالفت أحوال المتقين ، لتكونن من المحتسبين في أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت . وبعد فإن زعمت أنك في مثال خيار السلف ، قنع بالقليل ، زاهد في الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تحشى الفقر ، ولا تدخر شيئاً لعدك ، مبنض للتكائر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضمة ، كاره للعلو والرفعة ، قوى في أمرك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك في الله ، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ، ولن توقف في المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبدل في سبيل الله ، ويحك . أيها المفرور ، فتدبر الأمر ، وأمن النظر . أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال ، وقراغ القلب للذكر ، والتذكر ، والتذكار ، والفكر ، والاعتبار ، أسلم للدين ، وأيسر للحساب ، وأخف للمسألة ، وآمن من روعات القيامة ، وأجزل للشواب ، وأعلى لقدرك عند الله أضعافاً ؛ بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال ، لو أن رجلاً في حجره دنانير يمطيها ، والآخري يذكر الله ، لكان الذاكراً أفضل . وسئل بعض أهل العلم ، عن الرجل يجمع المال لأعمال البر ، قال تركه أرببه وبلغنا أن بعض خيار التابعين ، سئل عن رجلين ، أحدهما طلب الدنيا حلالاً فأصابها ، فوصل بها رحمه ، وقدم لنفسه . وأما الآخر فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها . فأيهما أفضل ، قال بعيد والله ما بينهما . الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاريها

ويحك . فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها . ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بالمال ، أن ذلك أروح لبدنك ، وأقل لتعبك ، وأنم ليشك ، وأرضى لبالك ، وأقل لهنومك . فما عذرک في جمع المال ، وأنت تترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟

نعم : وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله ، فاجتمع لك راحة العاجل ، مع السلامة والفضل في الآجل . وبعد ، فلو كان في جمع المال فضل عظيم ، لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك . إذ هداك الله به ، وترضى ما اختاره لنفسه من مجابة الدنيا ويحك ، تدبر ما سمعت ، وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجابة الدنيا ، قسرمع لواء المصطفى ، سابقا إلى جنة المأوى ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> قال « سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ مَنْ إِذَا تَعَدَّى لَمْ يَجِدْ عِشَاءً وَإِذَا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضًا وَلَيْسَ لَهُ فَضْلٌ كِسْوَةٍ إِلَّا مَا يُؤَارِيهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَكْتَسِبَ مَا يُغْنِيهِ يُهْبِي مَع ذَلِكَ وَيُصْبِحُ رَاضِيًا عَنْ رَبِّهِ » ( فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا <sup>(٢)</sup> ) : ألا يا أخي ، متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان ، فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمهه . لا ، ولكنك خوفا من الفقر تجمهه ، وللتنعم ، والزينة ، والتكاثر ، والفخر ، والمو ، والرياء ، والسمعة ، والتعظيم والتكرمة تجمهه ، ثم ترعم أنك لأعمال البر تجمع المال ، ويحك ، راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك ، إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا ، فكمن مقرا أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ، ومجابهة الفضول . نعم : وكن عند جمع المال ، زرياعلى نفسك معترفا بإساءتك ، وجلال من الحساب . فذلك أنجى لك ، وأقرب إلى الفضل من طلب الحجاج لجمع المال إخواني : اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجوداً ، وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم في المباح لهم ، ونحن في دهر الحلال فيه مفقود ، وكيف لنا من الحلال مبالغ القوت وستر العورة فأما جمع المال في دهرنا ، فأعاذنا الله وإياكم منه وبعد ، فأين لنا مثل ثقوى الصحابة وورعهم ، ومثل زهدهم واحتياطهم . وأين لنا مثل ضامرهم وحسن نياتهم . دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون

(١) حديث سادات المؤمنين في الجنة من ادانغدى لم يجد عشاء - الحديث : عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصرا بلفظ ساءة الفقراء في الجنة - الحديث : ولم أره في معاجم الطبراني

الورود . فياسعادة المخفين يوم النشور، وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط، وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين

هذا آخر كلامه ، وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الغنى ، ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا . وفي كتاب الفقر والزهد . ويشهد له أيضا ماروي عن أبي أمامة الباهلي <sup>(١)</sup> أن ثعلبة بن حاطب قال ، يارسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالا . قال « يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ » قال يارسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالا . قال « يَا ثَعْلَبَةُ أَمَّا لَكَ فِي أَسْوَأِ مَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ تَعَالَى أَمْ أَوْلَدِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ ، قَالَ وَالَّذِي بَعَثَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا ، لئن دعوت الله أن يرزقني مالا ، لأعطين ، كل ذي حق حقه ، ولا أفعلن ولأفعلن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالًا » فاتخذغنا . فتمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ، ويدع ماسواهما . ثم نمت وكثرت ، فتنحى ، حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهي تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، وطافق يلقي الركبان يوم الجمعة ، فيسألهم عن الأخبار في المدينة . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال « مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ؟ » فقيل يارسول الله ، اتخذغنا ، فضاقت عليه المدينة . وأخبر بأمره كله فقال « يَا وَهَّجَ ثَعْلَبَةُ يَا وَهَّجَ ثَعْلَبَةُ » قال وأنزل الله تعالى ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ <sup>(١)</sup> ) وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ، ورجلا من بني سليم على الصدقة . وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة ، وأمرهما أن يخرجوا فياخذوا الصدقة من المسلمين . وقال « مَرَّ بِثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ ؛ وَبِقَلَانَ » رجل من بني سليم « وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما هذه إلا جزية ،

( ١ ) حديث أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا قال يا ثعلبة قليل تؤدى شكره

خير من كثير لا تطيقه = الحديث : بطوله الطبراني بسنده ضعيف .

(١) التوبة : ١٠٣ و

ما هذه الاجزية، ما هذه إلاخت الجزية، انطلقا حتى تفرغتم تعودا إلى فانطلقا نحو السليمي، فسمع بهما، فقام إلى خيار أسنان إبله، فزلهما للصدقة، ثم استقبلهما بها. فلما رأوها، قالوا لا يجب عليك ذلك: و ما تريد نأخذ هذا منك. قال بلى خذوها، نفسي بها طيبة، وإنها هي لتأخذوها. فلما فرغا من صدقاتهما، رجعا حتى مرّا بشعبة، فسألاه الصدقة، فقال أروني كتابك. فنظر فيه، فقال هذه أخت الجزية: انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأها قال « يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قبل أن يكلمها، ودعا للسليمي. فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، وبالذي صنع السليمي. فأنزل الله تعالى في ثعلبة ( وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِ أَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ <sup>(١)</sup> ) وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة، فقال لأم لك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال « إِنَّ اللَّهَ مَنَّعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ » فجعل يحو التراب على رأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَذَا عَمَلُكَ أَمْرُكَ فَلَمْ تُطْعَمَنِي » فلما أبى أن يقبل منه شيئا، رجع إلى منزله. فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأبى أن يقبلها منه. وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأبى أن يقبلها منه. وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان فهذا طغيان المال وشؤمه، وقد عرفته من هذا الحديث. ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى، آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته، حتى روى عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال، كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> منزلة وجاءه، فقال « يَا عَمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنزِلَةً وَجَاهًا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاءه فقال فهل لك في عيادة

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث: بطوله وفيه لقد زوجك سيدا في الدنيا

سيدا في الآخرة لم أجده من حديث عمران ولا أحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار وضأت

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقلت نعم ، بأبي أنت وأمي يارسول الله . فقام وقت معه ، حتى وقفت بباب منزل فاطمة ، ففرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارسول الله . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ؟ » قالت ومن معك يارسول الله ، فقال « عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ » فقالت والذي يمك بالحق نبيا ، ما على إلا عباءة ، فقال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده . فقالت هذا جسدي فقد واريته ، فكيف برأسي ؟ فأتى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكِ » ثم أذنت له فدخل . فقال « السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ ؟ » قالت أصبحت والله وجعة ، وزادني وجعا على ما بي أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدني الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَجْزَعِي يَا بِنْتَاهُ قَوْلَ اللَّهِ مَا ذُقْتِ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثِ وَاثْنَيْ عَشَرَ لَيْلًا لَأَكْرِمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكَ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها ، وقال لها « أَبْشِرِي قَوْلَ اللَّهِ إِنَّكَ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فقالت ، فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَخَدِيجَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكَ إِنْ كُنْ فِي يُبُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَدْرِي فِيهَا وَلَا صَخْبٍ » ثم قال لها « ائْتِي بَابَ عَمِّكَ قَوْلَ اللَّهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكَ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا سَيِّدًا فِي الْآخِرَةِ »

فانظر الآن إلى حال فاطمة رضی الله عنها ، وهي بطنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر ، وتركت المال . ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم ، وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده ، وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل ما فيه مع أداء الحقوق ، والتوق من الشبهات ، والصرف إلى الخيرات اشتغالهم بإصلاحه ، وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال وقد روى عن جرير ، عن ليث قال ، صحب رجل عيمى بن مريم عليه السلام ، فقال أكون معك وأصحبك . فانطلقا ، فانتهيا إلى شط نهر ، جلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين ، وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى عليه السلام إلى النهر ، فغرب ، ثم رجع

النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل لك في فاطمة تمودها - الحديث : وفيه أماترضين لأن زوجتك أقدم أمي سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حملا واسنادة صحيح .

فلم يجد الرغيف . فقال للرجل ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدرى . قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعه خشفان لها ، قال فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخشف قم بإذن الله ، فقام فذهب . فقال الرجل أسألك بالذي أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدرى . ثم انتهى إلى وادي ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل ، فمشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له ، أسألك بالذي أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدرى . فأنهيا إلى مفازة ، فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ، ثم قال ، كن ذهبيا بإذن الله تعالى ، فصار ذهبيا . فقسمة ثلاثة أثلاث ، ثم قال ؛ ثلث لى ، وثلث لك ، وثلث لمن أخذ الرغيف . فقال أنا الذى أخذت الرغيف . فقال كله لك . وفارقه عيسى عليه السلام ، فأنهى إليه رجلان فى المفازة ، ومعه المال ، فأرادا أن يأخذه منه ويقتلاه . فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله . قال فبعثوا أحدهم ، فقال الذى بعث ، لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى هذا الطعام سما فأتئلها ، وأخذ المال وحدى . قال ففعل . وقال ذاك الرجلان ، لأى شىء نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه ، واقتسما المال بيننا . قال فلما رجع إليهما قتلاه ، وأكلا الطعام فأتا ، فبقي ذلك المال فى المفازة ، وأولئك الثلاثة عنده قتلى . فر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة ، فقال لأصحابه ، هذه فاحذروها

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ، ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم ، قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور ، وكنسوها ، وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم . وقد قيص لهم فى ذلك معاش من نبات الأرض . وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال له أجب ذا القرنين . فقال مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى . فقال ذو القرنين يصدق . فأقبل إليه ذو القرنين ، وقال له ، أرسلت إليك لتأتينى فأبيت فيها أنا قد جئت . فقال لو كان لى إليك حاجة لأتيتك . فقال له ذو القرنين ، مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وماذا ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شىء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناهما ، لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال ما بالكم قد احتفرتم قبورا ، فإذا أصبحتم

تعاهدتموها ، فكنستموها ، وصليتم عندها قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا ، منعنا  
قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض . أفلا اتخذتم البهائم من  
الأنعام ، فاحتلبتموها ، وركبتموها ، فاستمتعتم بها ، قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورالها  
ورأينا في نبات الأرض بلاغا . وإنما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام . وأيما ما جاوز  
الحنك من الطعام لم نجد له طعاما ، كائنا ما كان من الطعام . ثم بسط ملك تلك الأرض يده  
خلف ذى القرنين ، فتناول جمجمة ، فقال ياذا القرنين ، أتدرى من هذا ؟ قال لا ، ومن هو ؟  
قال ملك من ملوك الأرض ، أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ، فنشم ، وظلم ، وعتا . فلما  
رأى الله سبحانه ذلك منه ، حسمه بالموت ، فصار كالحجر الملقى . وقد أحصى الله عليه عمله  
حتى يجزيه به في آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية ، فقال ياذا القرنين ، هل تدري من  
هذا ؟ قال لا أدري ، ومن هو ؟ قال هذا ملك ملكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذي  
قبله بالناس من النشم ، والظلم ، والتجبر ، فتواضع وخشع لله عز وجل ، وأمر بالعدل في أهل  
مملكته ، فصار كما ترى ، قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به في آخرته . ثم أهوى  
إلى جمجمة ذى القرنين فقال ، وهذه الجمجمة قد كانت كهذين . فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع  
فقال له ذو القرنين ، هل لك في صحبتي ، فأخذك أبا ، ووزيرا ، وشريكا فيما آتاني الله من  
هذا المال ؟ قال ما أصلح أنا وأنت في مكان ، ولا أن نكون جميعا . قال ذو القرنين ولم ؟  
قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ، ولى صديق . قال ولم ؟ قال يمادونك لما في يديك  
من الملك والمال والدنيا ، ولا أجِد أحدا يمادني لرفضى لذلك ، ولما عندي من الحاجة وقلة  
الشيء . قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ، ومتعظا به . فهذه الحكايات تدلك  
على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل ، وبالله التوفيق

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء



# كتاب ذم الجاه والرياء

## كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذنوب ، العالم بما تجتمه الضمائر من خفايا العيوب ، البصير بسرائر النيات ، وخفايا الطويات ، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما أكمل وورق ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه الميامين من الخيانة والإفك ، وسلم تسليماً كبيراً

لما يعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّعْلَةِ السُّودَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّامَاءِ » ، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها ساسة العلماء ، فضلاً عن عامة العباد والأتقياء . وهو من أواخر غوائل النفس ، وبواطن مكايدها . وإنما ينتلي به العلماء والعباد والمشهورون عن ساق الجد لسلك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم ، وجاهدوها ، وفضطوها عن الشهوات ، وصانوها عن الشبهات ، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالتخير ، وإظهار العمل والعلم ، فوجدت خلصاً من مشقة المجاهدة ، إلى لذة القبول عند الخلق ، ونظروا إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة ، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ، ولم تقنع باطلاع الخلق ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده ،

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

( ١ ) حديث إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية ؛ ابن ماجه والحاكم من حديث يزيد بن أسد

وقال الشريك يدل الرياء بفسره بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد قلت إن ضعيفه وهو عند

ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف

وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات ، وتوقية الشبهات ، ونحوه مشاق العبادات ، أطلقوا  
أسنتهم بالمدح والثناء ، وبالغوا في التقريظ والإطراء . ونظروا إليه بيمين التوقير والاحترام  
وتبركوا بمشاهدته ولقائه ، وورغبوا في بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه ، وفتاحوه  
بالخدمة والسلام ، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه في البيع والمعاملات ،  
وقدموه في المجالس ، وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين ، واتقادوا له  
في أغراضه موقرين . فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات ، وشهوة هي أغلب  
الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات ، واستلانت خشونة المواظبة على  
العبادات ، لإدراكها في الباطن لذة اللذات ، وشهوة الشهوات . فهو يظن أن حياته  
بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية ، التي تعنى عن دركها العقول النافذة  
القوية . ويرى أنه مخلص في طاعة الله ، ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة  
تزيينا للعباد ، وتصنعا للخلق ، وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب  
الطاعات وأجود الأعمال ، وقد أثبتت اسمه في جريدة المناقنين ، وهو يظن أنه عند الله من المقربين  
وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون  
ولذلك قيل . آخر ما يخرج من رهوس الصديقين حب الرياسة . وإذا كان الرياء هو الداء  
الدفين ، الذي هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول في سببه ، وحقيقته ، ودرجاته  
وأقسامه ، وطرق معالجته ، والحذر منه . ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين :  
الشرط الأول : في حب الجاه والشهرة . وفيه بيان ذم الشهرة ، وبيان فضيلة الخمول ،  
وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب في كونه محبوبا  
أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه نكال وهمي وليس بكال حقيقي ، وبيان ما يحمده  
من حب الجاه وما ينذم وبيان السبب في حب المدح والثناء وكرهية الذم ، وبيان العلاج  
في حب الجاه ، وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهية الذم ، وبيان اختلاف  
أحوال الناس في المدح والذم . ففي اثنا عشر فصلا ، منها تنشأ معاني الرياء فلا بد من تقديمها ،  
وإثبات الموقف للعباد بلطفه ومنه وكرمه .

# بيان

## ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار ، وهو مذموم . بل المحمود الخول ، إلا من شهره الله تعالى ، لنشر دينه ، من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضي الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ » وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنَ السُّوءِ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِنْ اللهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلا ، ولا بأس به ، إذ روى هذا الحديث ، فقيل له يا أبا سعيد ، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ! فقال إنه لم يعن هذا ، وإنما عني به المبتدع في دينه ، والفاسق في دنياه . وقال على كرم الله وجهه تبذل ولا تشهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السخيتاني ، والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان ، أنه كان إذا كثرت حلقاته ، قام مخافة الشهرة . وعن أبي العالية ، أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحواً من عشرة ، فقال ذباب طمع ، وفراش نار

(١) حديث أنس حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه : البيهقي في الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث جابر بحسب امرئ من الشر - الحديث : مثله و زاد في آخره أن لا ينظر إلى صوركم - الحديث : هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرًا على الزيادة التي في آخره وروى الطبراني والبيهقي في الشعب أوله من حديث عمرو بن حنين بلقظ يكتفي بالموء . إمام ورواه ابن يونس في تاريخ الغرابة من حديث ابن عمر بلقظ هلاك الرجل وفسر دينه بالسبحة ودينه بالفسق واسنادها ضعيف

وقال سليم بن حنظلة . بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه ، إذ رآه عمر ، فملاه بالدره . فقال انظر بأمر المؤمنين ما تصنع . فقال إن هذه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبع . وعن الحسن قال . خرج ابن مسعود يوماً من منزله ، فاتبعه ناس ، فالتفت إليهم فقال : غلام تتبعوني ؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ، ما اتبعني منكم رجلان . وقال الحسن . إن خفق النعال حول الرجال فلما تلبت عليه قلوب الحق . وخرج الحسن ذات يوم ، فاتبعه قوم . فقال هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن وروى أن رجلاً صحب ابن محيريز في سفر . فامسا فارقه قال أوصني . فقال إن استطمت أن تعرف ولا تُعرف ، وتمشي ولا يمشي إليك ، وتسال ولا تسأل فافعل . وخرج أيوب في سفر ، فشيمه ناس كثيرون . فقال لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره ، لخشبت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عانت أيوب على طول قيصره ، فقال إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله ، وهي اليوم في تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبي قلابة ، إذ دخل عليه رجل عليه أكسية . فقال اياكم وهذا الحمار الناهق . يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثوري : كانوا يكرهون الشهرة من الشباب الجسدة ، والشباب الرديئة ، إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً . وقال رجل لبشر بن الحارث أوصني ، فقال أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك ، وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

## بيان

### فضيلة الخمر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « رَبِّ أَشَعَثَ أَغْبَرُذِي طَمْرِينٍ \* لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » ، وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك : مسلم من حديث أبي هريرة رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره : ولا حاكم رب أشعث أغبر ذي طمرين

(١) « رَبِّ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ لَوْ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلِّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ وَأَهْلُ النَّارِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَاطِظٍ \* » وقال أبو هريرة: قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلِّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُمْ وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا وَإِذَا قَالُوا لَمْ يَنْصِتْ لِقَوْلِهِمْ حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَخَلَّضُ فِي صَدْرِهِ لَوْ قَسَمَ نُورُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوْ سَمِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنْ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَنِّي أَحَدُكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ دَرَاهِمًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ قُلْسًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ لِأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَلَوْ سَأَلَ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا. وَمَا مَنَعَهَا إِيَّاهُ إِلَّا لَهَا وَانْهَى عَلَيْهِ رَبُّ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، وَرَوَى أَنْ عَمْرُضِي اللَّهِ عَنْهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَرَأَى مَعَاذَ بْنِ جَبَلٍ يَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ مَا يَبْكِيكَ؟ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « إِنْ أَلْبَسِيرٍ مِنَ الرِّبَايَا شَرِكٌ وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءٍ مُظْلِمَةٍ »

تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الاسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه

(١) حديث ابن مسعود رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لوقال اللهم اني أسالك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا: ابن أبي الدنيا شيئا: ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف

(٢) حديث الأدللكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف - الحديث: متفق عليه من حديث حارثة بن وهب (٣) حديث أبي هريرة إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (٤) حديث أن من أمتي من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه - الحديث: الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان باسناد صحيح دون قوله ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعتها إياه لهُوانه عليه

(٥) حديث معاذ بن جبل إن اليسير من لربا شريك وإن الله يحب الاتقياء الأخفيا - الحديث: الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقى متروك

بها الجواظ: الكثير اللحم الخنثال في مشيته

وقال محمد بن سويد: تحط أهل المدينة، وكان بهارجل صالح لا يؤذ به له، لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم. فبينما هم في دعائهم، إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان، فصلى ركعتين أوجز فيهما، ثم بسط يديه، فقال يارب أقسمت عليك، إلا أمطرت علينا الساعة. فلم يرديديه، ولم يقطع دعاءه، حتى تشعث السماء بالعمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الفرق. فقال يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم. وسكن. وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله، ثم بكر عليه، فخرج إليه، فقال إني أتيتك في حاجة، فقال ما هي؟ قال تخصصني بدعوة. قال سبحان الله! أنت أنت وتساألني أن أخصك بدعوة! ثم قال ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال أطعت الله فيما أمرني ونهاني، فسألت الله فأعطاني.

وقال ابن مسعود كونا يناييع العلم، مصاييح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتحفون في أهل الأرض. وقال أبو مامة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>١</sup> « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ أَعْظَمَ أَوْلِيَاءِي عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْخَازِجِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لَا يُبَشِّرُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ثُمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ » قال ثم تقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال « عَجَلْتُ مِنْبَتَهُ وَقَلَّ شُرَاؤُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أحب عباد الله إلى الله الغرباء. قيل ومن الغرباء؟ قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما عين به على عبده: ألم أنم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك؟ وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة، مع قوم غرباء، أصحاب قوت وعناء.

وقال إبراهيم بن آدم: ما قررت عيني يوم ما في الدنيا قط إلا مرة، بت ليلة في بعض مساجد قومي الشام، وكان بي البطن، فجزني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد. وقال الفضيل إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف؟ وما عليك أن لا يتنى عليك؟ وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى.

( ١ ) حديث أبي مامة أن أَعْظَمَ أَوْلِيَاءِي عِنْدِي مُؤْمِنٌ حَفِيفُ الْحَادِ - الحديث: الترمذي وإسناده صحيح بإسنادين ضعيفين

\* خفيف الحاد: خفيف الظهر من العيال.

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة، وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب. وحب الجاه هو منشأ كل فساد فإن قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء، والخلفاء الراشدين، وأئمة العلماء. فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة. فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم: فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء وهم كالغريق الضعيف، إذا كان معه جماعة من الغرقى، فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به، فيضعف عنهم، فيهلك معهم. وأما القوي، فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به، فينجيهم ويثاب على ذلك

## بيان

ذم حب الجاه

قال الله تعالى ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا <sup>(١)</sup> ) جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً وقال عز وجل ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسِرُونَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٢)</sup> ) وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَا ذُئِبَانِ ضَارِيَانِ أَرْسِلَا فِي زُرِّيَّةٍ غَنِمَ بِأَسْرَعِ إِفْسَادًا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » وقال صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه <sup>(٣)</sup> « إِنَّمَا هَلَكَ النَّاسُ بِاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ وَحُبِّ الشَّئِءِ » نسأل الله العفو والمافية بمنه وكرمه

(١) حديث المال والجاه ينبتان النفاق - الحديث : تقدم في أول هذا الباب ولم أجد

(٢) حديث ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زرية غنم - الحديث : تقدم أيضا هناك

(٣) حديث إنما هلك الناس باتباع الهوى وحب الشئء، لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أسس ثلاث

مهلكات شح مطاع وهوى متبع - الحديث : ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

ابن عباس بسند ضعيف حب الشئء من الناس يهوى ويصم

(٤) الفضل : ٨٣ (٢) هود : ١٥ ، ١٦



## بيان

معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركني الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها . ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن النّنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهم ، ليتوصل بهما إلى الأغراض ، والمقاصد ، وقضاء الشهوات ، وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه ، هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ، ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات . ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات . فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال ، اتقاد له ، وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب ، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده . وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه ، بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده . وقد يمتد ما ليس كمالا كمالا ، ويدعن قلبه للموصوف به ، اتقيادا ضروريا بحسب اعتقاده . فإن اتقياد القلب حال للقلب ، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها . وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد ، فطالب الجاه يطلب أن يسترى الأحرار ويستعبدهم ، ويملك رقابهم بملك قلوبهم . بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبنى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية ، والطاعة له فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذا معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعمة من نعمت الكمال فيه ، فبقدر ما يعتقدون من كماله تدعن له قلوبهم . وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب . وبقدر قدرته على القلوب يكون فرجه ووجهه للجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته ، وله ثمرات ، كالمدح والإطراء . فإن المعتد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يمتدده ، فيثنى عليه . وكالخدمة والإعانة ، فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده ، فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه وكلا يثار ، وترك المنازعة ، والتعظيم

والتوقير بالمفاتحة بالسلام ، وتسليم الصدر في المحافل ، والتقديم في جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب . ومعنى قيام الجاه في القلب اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص ، إما بعلم ، أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال في صورة ، أو قوة في بدن ، أو شيء مما يعتقدونه الناس كمالاً ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محلّه في القلوب ، فتكون سبباً لقيام الجاه ، والله تعالى أعلم

## بيان

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد الجاهلية

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً ، هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوباً . بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار . وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا تعرض في أعيانها ، إذ لا تصلح لطعم ، ولا مشرب ، ولا منكح ، ولا ملبس ، وإتمامها والحصاء بمثابة واحدة . ولكنها محبوبان لأنها وسيلة إلى جميع المحاب ، وذريعة إلى قضاء الشهوات فكذلك الجاه ، لأن معنى الجاه ملك القلوب . وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض . فالاشترائك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال . ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب ، لو قصد اكتساب المال تيسر له . فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ، ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال . وأما الرجل الخسيس ، الذي لا يتصف بصفة كمال ، إذا وجد كنزاً ، ولم يكن له جاه يحفظ ماله ، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم تيسر له . فإذا الجاه آلة ووسيلة إلى المال . فمن ملك الجاه فقد ملك المال . ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال . فلذلك صار الجاه أحب

للمال . وهو أن المال معرض للبلوى والتلف ، بأن يسرق ، ويغصب ، ويضع فيه

الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة ، والحراس ، والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة . وأما القلوب إذ املككت ، فلا تتعرض لهذه الآفات ، فهي على التحقيق خزائن عتيده ، لا يقدر عليها السراق ، ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب . وأثبت الأموال العقار ، ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ، ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ . وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها . والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم : إنما تغصب القلوب بالتصريف ، وتقبيح الحال ، وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ، ولا يتيسر على محاوله فعله

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد ، من غير حاجة إلى نعم ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعت لشخص واعتقدت كماله ، بعلم أو عمل أو غيره ، أفصحت الألسنة لاحالة بما فيها ، فيصف ما يعتقد له غيره ، ويقتنص ذلك القلب أيضاً له . ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر ، لأزدلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ، ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد ، وليس له مردمعين وأما المال ، فمن ملك منه شيئاً فهو مال كره ، ولا يقدر على استنبائه إلا بتعب ومقاساة والجاه أبداً في النماء بنفسه ، ولا مرد لموقعه ، والمال واقف . ولهذا إذا عظم الجاه ، وانتشر الصيت ، وانطلقت الألسنة بالثناء ، استحقرت الأموال في مقاباته . فهذه مجامع رجيجات الجاه على المال ، وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح

فإن قلت : فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً ، فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه نعم : القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالاحتياج إلى الملابس والمسكن والمطعم ، أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة ، إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه للمال والجاه معلوم ، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا ، وهو حب جمع الأموال ، وكنز الكنوز ، وادخار الدخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا يتغنى لهما ثالثاً وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه ، وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطمئنها ، ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليروه بمال ، أو ليعينوه على غرض من أغراضه

ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاز؛ وحب ذلك ثابت في الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل، فإنه حب لما لا فائدة فيه لافي الدنيا ولا في الآخرة .  
 فنقول: نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب، وله سببان: أحدهما جلي تدركه الكافة، والآخر خفي، وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما، وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء؛ وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس، وطبيعة مستكنة في الطبع، لا يكاد يقف عليها إلا النواصون فأما السبب الأول: فهو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مروع، والإنسان وإن كان مكفيا في الحال، فإنه طويل الأمل، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف، فيحتاج إلى غيره. فإذا خطر ذلك بباله، هاج الخوف من قلبه. ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمان الحاصل بوجود مال آخر، يفرع إليه إن أصابت هذا المال جائحة. فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة، يقدر طول الحياة، ويقدر هجوم الحاجات، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب ما يدفع خوفه، وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر

وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال، فلذلك لم يكن مثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنهُ مَانٌ لَا يَشْبَعَانِ مَنهُ مَالٌ وَمَنهُ مَالٌ » ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده. فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا، ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا لإحالة ظاهرة، كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم، لما فيه من الأمان من هذا الخوف .  
 وأما السبب الثاني: وهو الأقوى، أن الروح أمر رباني، به وصفه الله تعالى: إذ قال سبحانه ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي <sup>(١)</sup> ) ومعنى كونه ربانيا أنه من الأسرار علوم المكاشفة، ولا رخصة في إظهاره، <sup>(٢)</sup> إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث منهومان لا يشبعان - الحديث: الطبراني من حديث أبي مسعود بسند ضعيف والبراز والطبراني

في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

(٢) حديث انه صلى الله عليه وسلم لم يظهر امر الروح: البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم

ولكنك قبل معرفة ذلك ، نعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية ، كالأكل والوقوع ، وإلى صفات سبعية ، كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية ، كالكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية ، كالكبر والزم والتجبر وطلب الاستعلاء . وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع . ومعنى الربوبية التوحد بالكمال ، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال .

فصار الكمال من صفات الإلهية ، فصار محبوبا بالطبع للإنسان . والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة . فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها ، ولو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية .

والمنفرد بالوجود هو الله تعالى ، إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لأقوام له بذاته ، بل هو قائم به . فلم يكن موجودا معه ، لأن المعية توجب المساواة في الرتبة والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال . بل الكمال من لا نظيره في رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس ، بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة ، مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة ، فيكون تابعا ولا يكون متبعا . فإذا معنى الربوبية التفرد بالوجود ، وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه يحب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله ( **أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى** <sup>(١)</sup> ) ولكنه ليس يجد له مجالا . وهو كما قال . فإن العبودية قهر على النفس ، والربوبية محبوبة بالطبع . وذلك للنسبة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى ( **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** <sup>(٢)</sup> ) ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال ، لم تسقط شهوتها للكمال ، فهي عجة للكمال ، ومشبهة له ، وملتذة به لذاته لالمنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ، ولكمال ذاته ، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته ، أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود ، في الاستيلاء على كل الموجودات ، فإن أكل الكمال أن يكون وجود غيرك منك ، فإن لم يكن منك

فإن تكون مستولياً عليه . فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع ، لأنه نوع كمال . وكل موجود يعرف ذاته ، فإنه يحب ذاته ، ويجب كمال ذاته ويلتذ به . إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة ، وكونه مستخراً لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه ، كذات الله تعالى وصفاته ، وإلى ما يقبل التغيير ، ولكن لا يستولى عليه قذرة الخلق ، كالأفلاك ، والكواكب ، وملكوت السموات ونفوس الملائكة ، والجن ، والشياطين ، وكالجمال ، والبحار ، وما تحت الجبال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد ، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن ، والنبات ، والحيوان ومن جعلها قلوب الناس ، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات ..

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه ، كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه ، كذات الله تعالى ، والملائكة ، والسموات . أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم ، والإحاطة ، والاطلاع على أسرارها ، فإن ذلك نوع استيلاء ، إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم ، والعالم كالمستولى عليه . فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى ، والملائكة ، والأفلاك ، والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها ، لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة ، إلى معرفة طريق الصنعة فيها . كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به ، وأنه كيف وضع . وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة ، أو الشعبذة ، أو جر الثقيل أو غيره ، وهو مستشعر في نفسه بعض المعجز والقصور عنه ، ولكنه يشتهق إلى معرفة كيفيته ، فهو متألم ببعض المعجز ، متلذذ بكمال العلم إن علمه

وأما القسم الثاني : وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد ، وهي قسمان : أجساد ، وأرواح

أما الأجساد ، فهي الدرهم ، والدنانير ، والأمتعة ، فيجب أن يكون قادراً عليها . يفعل فيها ما يشاء من الرفع ، والوضع ، والتسليم ، والبيع ، فإن ذلك قدرة ، والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبه بالطبع . فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها

في ملبسه ومطعمه ، وفي شهوات نفسه . وكذلك طلب استرقاق العبيد ، واستعباد الأشخاص الأحرار ، ولو بالقهر والغلبة ، حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ، ويقوم القهر منزلته فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضا لذيدة لما فيها من القدرة

القسم الثاني : نفوس الآدميين وقلوبهم ، وهي أنفس ماعلى وجه الأرض . فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها ، لتكون مسخرة له ، متصرفه تحت إشارته وإرادته ، لما فيه من كمال الاستيلاء ، والتشبهه بصفات الربوبية . والقلوب إنما تسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فإن كل كمال محبوب ، لأن الكمال من الصفات الإلهية ، والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع ، للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان ، وهو الذي لا يليه الموت فيعدهم ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة ، وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه فإذا معنى الجاه تسخر القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال ، وهو من أوصاف الربوبية . فإذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولانهاية للمعلومات ، ولانهاية للمقدورات . وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن ، والتقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنَّهُو مَانٍ لَا يَشْبَعَانِ » فإذا مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة ، وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسروور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب في كون العلم ، والمال ، والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات ، فإن هذه الملة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض . بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات . وليكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع المجانب والمشكلات لأن في العلم استيلاء على المعلوم ، وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية ، فكان محبوبا بالطبع . إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أخاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى

## بيان

الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة . ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي . ويبانه أن كمال العلم لله تعالى ، وذلك من ثلاثة أوجه : أحدها : من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى

الثاني : من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهويه ، وكون المعلوم مكشوفاً به كشافاً تاماً فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهي عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح ، وأيقن ، وأصدق ، وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم ، كان أقرب إلى الله تعالى

الثالث : من حيث بقاء العلم أبداً الآباد ، بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانتقال ، كان أقرب إلى الله تعالى والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات . أما المتغيرات : فمثلها العلم بكون زيد في الدار . فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ، ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان ، فينقلب جهلاً ، فيكون نقصاناً لا كمالاً . فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته ، كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً ، ويعود علمك جهلاً . ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كملكك مثلاً بارتفاع جبل ، ومساحة أرض ، وبعدد البلاد ، وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك . وكذلك العلم باللغات ، التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأهم والعادات . فهذه علوم معلوماً مثل الزئبق ، تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب

القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية ، وهو جواز الجائزات ، ووجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات . فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ، ولا الجائز محلاً ، ولا المحال واجباً . فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله ، وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويجوز في أفعاله . فالعلم بالله تعالى ، وبوصفاته ، وأفعاله ، وحكمته في ملكوته



السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَتَرْتِيبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، هُوَ الْكَمَالُ الْحَقِيقِيُّ ، الَّذِي يَقْرُبُ مِنْهُ مَنْ يَتَصَفَّ بِهِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَبْقَى كَمَا لِلنَّفْسِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَتَسْكُونُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ نُورًا لِلْمَعَارِفِينَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، يَسْمَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَعْيُنِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِ لَنَا نُورَنَا . أَيْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ رَأْسَ مَالٍ ، يُوَصِّلُ إِلَى كَشْفِ مَا لَمْ يَنْكَشِفْ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا أَنَّ مِنْ مَعَهُ سِرَاجٌ خَفِيٌّ ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ سَبَبًا لَزِيَادَةِ النُّورِ بِسِرَاجٍ آخَرَ يَقْتَبِسُ مِنْهُ ، فَيَكْمُلُ النُّورُ بِذَلِكَ النُّورِ الْخَفِيِّ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِمْتَامِ . وَمَنْ لَيْسَ مَعَهُ أَصْلُ السِّرَاجِ ، فَلَا مَطْمَعُ لَهُ فِي ذَلِكَ . فَمَنْ لَيْسَ مَعَهُ أَصْلُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَطْمَعٌ فِي هَذَا النُّورِ ، فَيَبْقَى كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، بَلْ كظلمات في بحر لحي ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ . فَإِذَا لَاسِعَادَةُ إِلَّا فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْمَعَارِفِ فَهِيَ مَا لَا فَائِدَةَ لَهُ أَصْلًا ، كَمَعْرِفَةِ الشَّعْرِ ، وَأَنْسَابِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يَنْفَعِ فِي الْإِعَانَةِ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَعْرِفَةِ لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَالتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ ، وَالْأَخْبَارِ ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ لُغَةِ الْعَرَبِ تَعِينُ عَلَى مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ، وَمَعْرِفَةُ التَّفْسِيرِ تَعِينُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ كَيْفِيَةِ الْعِبَادَاتِ ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي تَفِيدُ تَرْكِيَةَ النَّفْسِ ، وَمَعْرِفَةُ طَرِيقِ تَرْكِيَةِ النَّفْسِ تَفِيدُ اسْتِعْدَادَ النَّفْسِ لِقَبُولِ الْهُدَايَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ( تَدْرَأُفْلِحَ مَنْ زَكَّاهَا <sup>(١)</sup> ) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا <sup>(٢)</sup> ) فَتَكُونُ جَمَلَةٌ هَذِهِ الْمَعَارِفِ كَالْوَسَائِلِ إِلَى تَحْقِيقِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَإِنَّمَا الْكَمَالُ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ ، وَمَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَيَنْطَوِي فِيهِ جَمِيعُ الْمَعَارِفِ الْمَحِيطَةُ بِالْمَوْجُودَاتِ إِذَا الْمَوْجُودَاتُ كُلُّهَا مِنْ أَفْعَالِهِ ، فَمَنْ عَرَفَهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ فَعَلَّ اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ حَيْثُ ارْتَبَاطُهَا بِالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحِكْمَةِ ، فَهِيَ مِنْ تَكْمَلَةِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا حِكْمٌ كَمَالُ الْعِلْمِ ، ذَكَرْنَاهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لائِقًا بِأَحْكَامِ الْجَاهِ وَالرِّيَاءِ ، وَلَكِنْ أوردناه لاسْتِيفَاءِ أَقْسَامِ الْكَمَالِ وَأَمَّا الْقُدْرَةُ ، فَلَيْسَ فِيهَا كَمَالٌ حَقِيقِيٌّ لِلْعَبْدِ ، بَلْ لِلْعَبْدِ عِلْمٌ حَقِيقِيٌّ ، وَلَيْسَ لَهُ قُدْرَةٌ حَقِيقِيَّةٌ وَإِنَّمَا الْقُدْرَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلَّهِ . وَمَا يَحْدُثُ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَقِيبَ إِرَادَةِ الْعَبْدِ ، وَقُدْرَتِهِ وَحَرَكَتِهِ ،

(١) الشمس : ٩ (٢) التكبوت : ٦٩

فهي حادثة بإحداث الله ، كما قررناه في كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل ، وفي مواضع شتى من ربيع المنجيات . فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ، ويوصله إلى الله تعالى . فأما كمال القدرة فلا . نعم : له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال ، وهي وسيلة له إلى كمال العلم ، كسلامة أطرافه ، وقوة يده للبطش ، ورجله للمشي ، وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم . وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه ، للتوصل به إلى المظم والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله ، فلاخير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية ، التي تنقضى على القرب . ومن ظن ذلك كما لا فقد جهل .

فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل . فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة ، وعلى أعيان الأموال بسعة الفنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال . فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ، ولما طلبوه شغلوا به ، وتهاكوا عليه ، ففسدوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته ، وهو العلم والحرية . أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى . وأما الحرية فالتخلص من أسر الشهوات ونموم الدنيا ، والاستيلاء عليها بالقهر ، تشبها بالملائكة الذين لا تستفزم الشهوة ، ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال ، الذي هو من صفات الملائكة .

ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه ، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد ، كان إلى الله تعالى أقرب ، وبالملائكة أشبه ، ومنزلته عند الله أعظم . وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة . وإنما لم نورد في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم وتقصان ، فإن التغير تقصان ، إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك تقص في اللذات وفي صفات الكمال . فإذا الكيمالات ثلاثة ، إن عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالا ، ككمال العلم ، وكمال الحرية ، وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية . وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال ، وعلى استسخار القلوب والأبدان ، تنقطع بالموت . ومعرفة وحريته لا ينعبدان بالموت ،

بل يبقيان كما لا فيه ، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان ، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال ، وهو الكمال الذي لا يسلم ، وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم ، الذي إذا حصل كان أديا لا انقطاع له . وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى ( الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا <sup>(١)</sup> ) فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالا في النفس . والمال والجاه هو الذي ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال ( إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ <sup>(٢)</sup> ) الآية ، وقال تعالى ( وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ <sup>(٣)</sup> ) إلى قوله ( فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ <sup>(٤)</sup> ) وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقي . اللهم اجعلنا ممن وقته للخير وهديته بلطفك

## بيان

ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب ، والقدرة عليها ، فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ما خلق في الدنيا ، فيمكن أن يتزود منه للآخرة . وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم ، والمشرب ، والملبس ، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق . والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله . فيجوز أن يحجب الطعام ، أو المال الذي يتناوله الطعام ، وكذلك

(١) البقرة : ٤٦ ، (٢) يونس : ٧٤ ، (٣) ، (٤) البقرة : ٤٥

لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعو إلى الخدمة ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم . فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال . فلا فرق بينهما . إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانها محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء ، لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته . ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء . فهذا على التحقيق ليس محاليت الماء . فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب ، فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتذكر التفرقة بمثال آخر ، وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع بيت الماء فضلة الطلم . ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به . وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب المشاق ، ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها . فهذا هو الحب دون الأول . وكذلك الجاه والمال ، قد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين . فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم . وحبهما لأعيانها فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم . ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان . فالملحمله الحب على مباشرة معصية ، وما يتوصل به إلى اكتساب بكنذب وخذاع وارتكاب محظور ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة . فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جنابة على الدين ، وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي . فإن قلت ، طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه ، وخادمه ، ورفيقه ، وسلطانه ، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ، أو يباح إلى حد مخصوص ، على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان منه مباحان ، ووجه محظور .

أما الوجه المحظور ، فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منك ضنها مثل العلم ، والورع ، والنسب ، فيظهر لهم أنه علوي ، أو عالم ، أو ورع ، وهو لا يكون كذلك

فهذا حرام ، لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة  
وأما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها ، كقول يوسف صلى الله  
عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى ( اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم )<sup>(١)</sup>  
فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان محتاجا إليه ، وكان صادقا فيه  
والثاني : أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ، وممضية من معاصيه حتى لا يعلم ، فلا تزول  
منزلته به . فهذا أيضا مباح . لأن حفظ السر على القبايح جائز . ولا يجوز هتك الستور وإظهار  
القيبح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به . كالذي يخفى  
عن السلطان أنه يشرب الخمر ، ولا يلقى إليه أنه ورع . فإن قوله إني ورع تلبيس ، وعدم  
إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع ، بل يمنع العلم بالشرب . . . ومن جملة المحظورات  
تحسين الصلاة بين يديه ، ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس ، إذ يخيل إليه  
أنه من المخلصين الخاشعين لله ، وهو مرء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ! فطلب الجاه  
بهذا الطريق حرام . وكذلك بكل معصية . وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام  
من غير فرق . وكما لا يجوز له أن يملك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره ، فلا يجوز  
له أن يملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال

## بيان

السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه

وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن حب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب

السبب الأول : وهو الأقوى ، شعور النفس بالكمال : فإننا بيننا أن الكمال محبوب ،  
وكل محبوب فإدراكه لذينة . فهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت ، واهتزت وتلذذت ،  
والمدح يشعر نفس المدوح بكمالها . فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا  
ظاهرا ، أو يكون مشكوكا فيه . فإن كان جليا ظاهرا محسوسا ، كانت اللذة به أقل . ولكنه

لا يخلو عن لذة ، كثنائه عليه بأنه طويل القامة ، أبيض اللون . فإن هذا نوع كمال ، ولكن النفس تغفل عنه ، فتخلو عن لذته : فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك ، فاللذة فيه أعظم : كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع ، أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكفاً في كمال حسنه ، وفي كمال علمه ، وكمال ورعه ، ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك ، بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه الأمور ، إذ تطمئن نفسه إليه . فإذا ذكره غيره ، أورت ذلك طمأنينة وثقة باستشمار ذلك الكمال ، فتعظم لذته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات ، خبير بها ، لا يجازف في القول إلا عن تحقيق . وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكماسة ، والذكاء ، وغزارة الفضل ، فإنه في غاية اللذة . وإن صدر ممن يجازف في الكلام ، أو لا يكون بصيراً بذلك الوصف ، ضعفت اللذة . وبهذه العلة يفيض الدم أيضاً ويكرهه ، لأنه يشعره بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوت والشعور به مؤلم . ولذلك يمظم الألم إذا صدر الدم من بصير موثوق به ، كما ذكرناه في المدح

السبب الثاني : أن المدح يدل على أن قلب المادح مموك للممدوح ، وأنه صريده ، ومعتقد فيه ، ومسخر تحت مشيئته . وملك القلوب محبوب . والشعور بحصوله لذيد . وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته ، وينتفع باقتناص قلبه ، كالمملك والأكابر . ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ، ولا يقدر على شيء . فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضاً يكره الدم ، ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم ، لأن الفائت به أعظم

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه . لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ، ويمتد بثنائه . وهذا مختص بثناء يقع على الملأ . فلا جرم كلما كان الجمع أكثر ، والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله ، كان المدح ألد ، والذم أشد على النفس

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالجفاء على الممدوح ، إما عن طوع ، وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لذيدة ، لما فيها من القهر والقدرة . وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يمتقد في الباطن ما مدح به ، ولكن

كونه مضطرا إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تسكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد ، فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادح واحد ، فيعظم بها الالتذاذ . وقد تفرق ، فتقص اللذة بها أما العلة الأولى ، وهي استشمار الكمال ، فتندفع بأن يعلم المدوح أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب ، أو سخي ، أو عالم بعلم ، أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التي سببها استشمار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات . فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ، ويعلم خلوه عن هذه الصفة ، بطلت اللذة الثانية ، وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء . فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب ، بطلت اللذات كلها ، فلم يكن فيه أصالة لقوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح ، وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه ، وحب المحمدة ، وخوف المذمة . فإن ما لا يعرف سببه ، لا يمكن معالجته . إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى

## بيان

### علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوقا بالتودد إليهم ، والمرآة لأجلهم . ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد . ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات ، والمرآة بها ، وإلى اقتحام المحظورات ، للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال ، وإفسادهما للدين ، بذئبين ضارين ، وقال عليه السلام إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس ، فيضطر إلى النفاق معهم ، وإلى التظاهر بخصال

مهيدة هو خال عنها. وذلك هو عين النفاق. فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس، وعلى قلوبهم. وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فأخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات. بل لو سجد لك كل من على بساط الأرض من المشرق إلى المغرب، فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له. ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذرى الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها (ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق، صغر الجاه في عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها، ويستحقر العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز. أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات، فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل، وقدره كائنا. وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل. فهو لاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان بهم لهم لها بالتقوى، إذ علموا أن العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة، لا تمتد نورها إلى مشاهدة العواقب. ولذلك قال تعالى (بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى<sup>(١)</sup>) وقال عز وجل (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ<sup>(٢)</sup>) فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا. فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب. والقلوب أشد تغيرا من القدر في غلباتها. وهي مترددة بين الإقبال والإعراض. فكل ما يبني على قلوب الخلق بضاهي ما يبني على أمواج البحر، فإنه لا نبات له. والاشتغال بمرامه القلوب، وحفظ الجاه، ودفع كيد الحساد، ومنع أذى الأعداء،

(١) الأعلى: ١٦، ١٧ (٢) القيامة: ٣٠



كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه . فلا يفي في الدنيا مرحوها بخوفها ،  
فضلا عما يفوت في الآخرة . فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة ، وأما من نفذت  
بصيرته ، وقوى إيمانه ، فلا يلتفت إلى الدنيا . فهذا هو العلاج من حيث العلم  
. وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق ، بمباشرة أفعال يلام عليها ، حتى  
يسقط من أعين الخلق ، وتفارقه لذة القبول ، ويأانس بالتحول وبرد الخلق ، ويقنع بالقبول  
من الخلق . وهذا هو مذهب الملامتية ، إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ، ليستقظوا  
أنفسهم من أعين الناس ، فيسلموا من آفة الجاه . وهذا غير جائز لمن يقتدى به ، فإنه يوهن  
الدين في قلوب المسلمين . وأما الذي لا يقتدى به ، فلا يجوز له أن يقدم على محذور لأجل  
ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ، كما روى أن بعض الملوك قصد  
بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه ، استدعى طعاما وبقلا ، وأخذ يأكل بشره ، ويعظم  
اللقمة . فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد . الحمد لله الذي صرفك عنى  
ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر ، حتى يظن به أنه يشرب الخمر ،  
فيسقط من أعين الناس . وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه . إلا أن أرباب الأحوال  
وربما يبالغون أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، مهما رأوا الإصلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون ما فرط  
منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد ، وأقبل الناس عليه ، فدخل  
حماما ، ولبس ثياب غيره وخرج ، فوقف في الطريق حتى عرفوه ، فأخذوه وضربوه ،  
واستردوا منه الثياب ، وقالوا إنه طرار ، وهجروه . وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال  
عن الناس ؛ والمهجرة إلى موضع الخمول . فإن المعتزل في بيته . في البلد الذي هو به مشهور  
لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزله . فإنه ربما يظن أنه ليس  
محباً لذلك الجاه ، وهو مفرور . وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها . ولو تغير  
الناس عما اعتقدوه فيه ، فذموه ، أو نسبوه إلى أمر غير لائق به ، جزعت نفسه وتألمت ،  
وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك ، وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم . وربما يحتاج في إزالة  
ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ، ولا يبالي به . وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة .  
ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال ، بل هو شر منه ، فإن فتنة الجاه أعظم ،

ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس مادام يطعم في الناس . فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى ، وقطع طمعه عن الناس رأسا ، أصبح الناس كلهم عنده كالأردال فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق ، لأنه لا يراهم ، ولا يطعم فيهم . ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة . فمن قنع استغنى عن الناس ، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن . ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل ، مثل قولهم : المؤمن لا يخلو من ذلة ، أو قلة ، أو علة . وينظر في أحوال السلف ، وإيثارهم للذل على العز ، ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين .

## بيان

وجه العلاج لحب المدح وكراهة الدم

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم . فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس ، رجا للمدح وخوفا من الذم . وذلك من المهلكات فيجب معالجته . وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الدم . أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح . فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك ، وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها ، فهي إمامة تستحق بها المدح ، كالعلم والورع ، وإمامة لا تستحق المدح ، كالتروة والجاه والأعراض الدنيوية . فإن كانت من الأعراض الدنيوية . فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض ، الذي يصير على القرب هشيا تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل . بل العاقل يقول كما قال المتنبي :

أشد النعم عندي في سرور      تيقن عنه صاحبه انتقلا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا . وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها . بل بوجودها . والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها ، كالعلم والورع ، فينبغي أن لا يفرح بها ، لأن الخاتمة غير معلومة ، وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلي . وخطر الخاتمة باق ، ففي الخوف من سوء الخاتمة

شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا . بل الدنيا دار أحزان وغموم ، لا دار فرح وسرور . ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى ، لا بمدح المادح . فإن اللذة في استشمار الكمال ، والكمال موجود من فضل الله لا من المدح ، والمدح تابع له ، فلا ينبغي أن تفرح بالمدح ، والمدح لا يزيدك فضلا

وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول : سبحان الله ! ما أكثر المطر الذي في أحشائه ، وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقدار والآتان ثم يفرح بذلك . فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ، ففرحت به ، والله مطلع على

خبائث باطنك ، وغوائل سريرتك ، وأقدار صفاتك ، كان ذلك من غاية الجهل فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك ، التي هي من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به

وأما السبب الثاني : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح ، وكونه سببا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب . وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس ، وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس ، وفرحك به ، يمسقط منزلتك عند الله ، فكيف تفرح به !

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ، ولا تستحق الفرح . بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتفضب به ، كما نقل ذلك عن السلف . لأن آفة المدح على المدوح عظيمة ، كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقدمه الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل : وروى في بعض الأخبار ، فإن صح فهو قاصم للظهور ، <sup>(١)</sup> أن رجلا أتى علي بن أبي طالب خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « لَوْ كَانَ صَاحِبُكَ حَاضِرًا فَرَضِيَ الدِّيُّ قُلْتُ فَكَانَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) « حديثان رجلا أتى علي بن أبي طالب خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذي قلت ومات على ذلك دخل النار : لم أجده أصلا

(١) مرة للمادح « وَيَمْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ مَا أَفْلَحَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال عليه السلام  
(٢) « أَلَا لَأَتَمَادَحُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِينَ فَاحْشُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ »

فلماذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته، وما يدخل  
على القلب من السرور العظيم به، حتى أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء،  
فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم. فغضب وقال: إني لم آمرك بأن  
تركيني. وقيل لبعض الصحابة: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله. فغضب وقال: أنى  
لأحسبك عراقيا. وقال بعضهم لما مدح. اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك، فأشهدك على  
مقتك. وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق، وهم ممقوتون عند الخالق، فكان  
اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يغيض إليهم مدح الخلق لأن المدوح هو المقرب عند الله،  
والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار. فهذا المدوح إن كان عند الله  
من أهل النار، فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره. وإن كان من أهل الجنة، فلا ينبغي  
أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم الأرزاق والآجال بيد  
الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم، وسقط من قلبه حب المدح، واشتغل  
بها يهيمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

## بيان

### علاج كراهة الذم

قد سبق أن الملة في كراهة الذم، هو ضد الملة في حب المدح. فعلاجه أيضا يفهم  
منه. والقول الوجيز فيه، أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون قد صدق  
فيما قال، وقصده النصيح والشفقة، وإما أن يكون صادقا، ولكن قصده الإيذاء والتغنت  
وإما أن يكون كاذبا. فإن كان صادقا وقصده النصيح، فلا ينبغي أن تذمه، وتغضب عليه  
وتحقد بسببه. بل ينبغي أن تتقلد منته. فإن من أهدى إليك عيوبك، فقد أرسدك

(١) حديث ويمحك قطعت ظهره - الحديث: قاله للمادح تقدم

(٢) حديث ألا لتمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب: تقدم دون قوله ألا لتمادحوا

إلى المهلك حتى تتقيه . فينبغى أن تفرح به ، وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . فأما اعتمادك بسببه ، وكرامتك له ، وذمك إياه ، فإنه غاية الجهل وإن كان قصده التعمت ، فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك ، إن كنت جاهلا به ، أو ذكرت عيبك إن كنت غافلا عنه ، أو وجهه في عينك ، لينبغى حرصك على إزالته إن كنت قد استحضنته . وكل ذلك أسباب سمادتك ، وقد استفدته منه ، فاشتغل بطلب السمادة ، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة . فهما قصدت الدخول على ملك ، وثوبك ملوث بالمذرة ، وأنت لا تدري ، ولو دخلت عليه كذلك لحفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالمذرة ، فقال لك قائل : أيها الملوث بالمذرة طهر نفسك ، فينبغى أن تفرح به ، لأن تنبيهك بقوله غنيمة . وجميع مساوي الأخلاق مهلكة في الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبغى أن تفتنمه . وأما قصد العبدو التعمت لجناية منه على دين نفسه ، وهو نعمة منه عليك . فلم تفضب عليه بقول انتفعت به أنت ، وتضرر هو به .

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى ، فينبغى أن لا تكره ذلك ، ولا تشتغل بذمه . بل تتفكر في ثلاثة أمور

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعك على عيوبك ، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه . والثاني : أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك ، فكأنه رمالك بعبء أنت بريء منه ، وطهرتك من ذنوب أنت ملوث بها . وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فما بالك تفرح بقطع الظهر ، وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى ، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله

وأما الثالث ، فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله ، وأهلك نفسه باقترائه ، وتعرض لعقابه الأليم ، فلا ينبغى أن تفضب عليه مع غضب الله عليه ، فتشبهت به الشيطان ، وتقول اللهم أهلكه ، بل ينبغى أن تقول اللهم أصلح له ، اللهم تب عليه ،

اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » لما أن كسروا ثنيتيه ، وشجوا وجهه ، وقتلوا عمه حمزة يوم أحد .

ودعا إبراهيم بن آدم لمن شج رأسه بالمنفرة ، فقيل له في ذلك ، فقال علمت أني مأجور بسببه ، وما نالني منه إلا خير ، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببي . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع . فإن من استغفنت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه . وما دام الطمع قائما ، كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه ، فإن ذلك بعيد جدا

## بيان

اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذم والمدح  
الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ، ويشكر المادح ، وينضب من الذم ، ويحقد على الذم ، ويكافئه أو يحب مكافأته . وهذا حال أكثر الخلق ، وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب  
الحالة الثانية : أن يتمض في الباطن على الذم ، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور . وهذا من النقصان ، إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كال

الحالة الثالثة : وهي أول درجات الكمال ، أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فلا تنعمه المذمة ، ولا تسمه المدحة . وهذا قد يظنه بعض العبّاد بنفسه ، ويكون مغرورا إن لم يعتحن نفسه ، بعلاماته . وعلاماته أن لا يجد في نفسه استقلالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده ، أكثر مما يجده في المادح . وأن لا يجد في نفسه زيادة هزلة ونشاط في قضاء خواشج المادح ، فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام . وأن لا يكون انقطاع النام عن مجلسه ، أهون عليه

( ١ ) حديث اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون له لما صر له قومه باليسق في دلائل النبوة وقد تقدم والحديث في الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضرب به قومه .

من انقطاع المادح . وأن لا يكون موت المادح المطرى له ، أشد نكايته في قلبه من موت الذام  
وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه ، أكثر مما يكون بمصيبة الذام . وأن  
لا تكون زلة المادح ، أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام . فهما خف الذام على قلبه كما  
خف المادح ، واستويا من كل وجه ، فقد نال هذه الرتبة . وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب  
وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون . حيث  
لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات . وربما شعر العابد بعبيل قلبه إلى المادح دون الذام ، والشيطان  
يحسن له ذلك ويقول : الذام قد عصى الله بدمتكَ ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف  
تسوى بينهما ! وإنما استتقالك للذام من الدين المحض . وهذا محض التلبيس . فإن العابد  
لوتفكر ، علم أن في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته  
ثم إنه لا يستنقلهم ولا ينفر عنهم . ويعلم أن المادح الذي مدحه لا يخلو عن مذمة . غيره ،  
ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه . والمذمة من حيث إنها معصية  
لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذا العابد المغرور لنفسه يفتن ، وهو أهو يفتن  
ثم إن الشيطان يحيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه ، فيزيده ذلك بعدا من الله .  
ومن لم يطلع على مكاييد الشيطان وآفات النفوس ، فأكثر عباداته تعب ضائع ، يفوت  
عليه الدنيا ، ويخسر في الآخرة . وفيهم قال الله تعالى ( قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا  
الَّذِينَ صَلَّى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا <sup>(١)</sup> )

الحالة الرابعة : وهي الصدق في العبادة ، أن يكره المدح ويعت المادح ، إذ يعلم أنه فتنة  
عليه ، قاصمة للظهر ، مضره له في الدين . ويحب الذام ، إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ، ومرشده  
إلى مهمه ، ومهد إليه حسناته . فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « رَأْسُ التَّوَّاضِعِ أَنْ تَكْرَهَ  
أَنْ تُذَكَرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وقد روى في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح  
إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> قال « وَبِئْسَ لِلصَّائِمِ وَوَيْلٌ لِلتَّقَائِمِ وَوَيْلٌ لِصَاحِبِ

(١) حديث رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى : لم أجده أصلا

(٢) حديث وويل للصائم وويل للتقائم وويل لصاحب الصوف - الحديث : لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس

من حديث أنس وويل لمن ليس بالصوف تغالب فعله قوله ولم يخرج به وأبده في مسنده .

(٣) الكهف : ١٠٣ .

الصُّوفِ إِلَّا مَنْ» فقيل يارسول الله إلا من؟ فقال «إِلَّا مَنْ تَزَهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا  
وَأَبْغَضَ المِدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ المَذْمَةَ» وهذا شديد جدا

وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية : وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح  
ولا يظهر ذلك بالقول والعمل . فأما الحالة الثالثة : وهي التسوية بين المادح والذام ، فلسنا  
نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية ، وذيها لا تفي بها ، لأنها لا بد وأن تتسارع  
إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتأقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه .  
ولا تقدر على أن نسوى بينهما في الفعل الظاهر ، كما لا تقدر عليه في سريرة القلب . ومن قدر  
على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل ، فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد ،  
فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين

وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات في المدح ، فهو أن من الناس  
من يمتنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن ، حتى يرأى بالعبادات ،  
ولا يبالي بمقارفة المحظورات ، لاسمالة قلوب الناس ، واستنطاق ألسنتهم بالمدح : وهذا من الهالكين  
ومنهم من يريد ذلك ، ويطلبه بالمباحات ، ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المحظورات .  
وهذا على شفاجر فهار . فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب ، وحدود الأعمال ، لا يمكنه

أن يضبطها . فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد . فهو قريب من الهالكين جدا  
ومنهم من لا يريد المدحة ، ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه .  
فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة ، ولم يتكلف الكراهية ، فهو قريب من أن يستجره فرط السرور  
إلى الرتبة التي قبلها . وإن جاهد نفسه في ذلك ، وكلف قلبه الكراهية ، وبغض السرور إليه  
بالتفكير في آفات المدح ، فهو في خطر المجاهدة ، فتارة تكون اليد له ، وتارة تكون عليه

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسره ، ولم يفتخر به ، ولم يؤثر فيه ، وهذا على خير ، وإن كان قد سبق  
عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ، ولكن لا ينتهي به إلى  
أن يفض على المادح وينكر عليه . وأقصى درجاته أن يكرهه ، ويفضبه ، ويظهر الغضب وهو صادق  
فيه . لأن يظهر الغضب وقلبه محبه له ، فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه  
الإخلاص والصدق ، وهو مفلس عنه . وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام .



وأول درجاته إظهار الغضب ، وآخرها إظهار الفرح . ولا يكون الفرح . وإظهاره إلا بمن في قلبه حنق وحقق وحقد على نفسه لمردها عليه ، وكثرة عيوبها ، ومواعيدها السكاذبة ، وتليساتها الخبيثة ، فيغضها بنض العدو . والإنسان يفرح عن يذم عدوه . وهذا شخص عدوه نفسه ، فيفرح إذا سمع ذمها ، ويشكر الذام على ذلك ، ويعتقد فطنته وذكائه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ، ويكون غنيمته عنده ، إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس ، حتى لا يتلى بفتنة الناس . وإذا سبقت إليه حسنات لم ينصب فيها ، فمساءه يكون خيرا لميوبه التي هو عاجز عن إماتها . ولوجاهد المرید نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة ، وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، لكان له شغل شاغل فيه ، لا يتفرغ معه لغيره . وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة ، هذه إحداها ، ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل

## الشر الثاني من الكتاب

في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء . وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء ، وما يرائي به ، وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخفي ، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ، وبيان دواء الرياء وعلاجه ، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات ، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب ، وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخالق ، وبيان ما يجب على المرید أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبمدها ، وهي عشرة فصول ، وبالله التوفيق

## بيان

ذم الرياء

اعلم أن الرياء جرام ، والمرائي عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار أما الآيات . فقوله تعالى ( قَوْلِ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ <sup>(١)</sup> ) وقوله عز وجل ( وَالَّذِينَ يَمُكِّرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ <sup>(٢)</sup> )

(١) للاعون ٤ ، ٦٠٥ ، (٢) فاطر : ١٠

قال مجاهد . هم أهل الرياء . وقال تعالى ( إِنَّمَا نَطَعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا <sup>(١)</sup> ) فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله . والرياء ضده . وقال تعالى ( فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا <sup>(٢)</sup> ) نزل <sup>(١)</sup> ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله .  
وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يا رسول الله ، فيم النجاة؟ فقال « أَنْ لَا يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللَّهِ يُرِيدُ بِهَا النَّاسَ » <sup>(٣)</sup> وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة ، المقتول في سبيل الله ، والمتصدق بماله ، والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه في كتاب الإخلاص . وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا ، وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم . وقال ابن عمر رضي الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهِ بِهِ وَمَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ » وفي حديث آخر طويل <sup>(٤)</sup> أن الله تعالى يقول للملائكة ، إن هذا لم يردني بعمله ، فاجعلوه في سجين . وقال صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث نزول قوله تعالى من كان يرجو لقاءه به الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعبادة وأعماله الحاكم من حديث طاوس قال رجل انى أقف الموقف أبنى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا في نسختي من المستدرک وعلله سقط منه ابن عباس وأبو هريرة وللبراز من حديث معاذ بسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك - الحديث : وفيه انه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

( ٢ ) حديث أبي هريرة في الثلاثة المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتاب الله يقول لكل واحد منهم كذبت : رواه مسلم وسيأتي في كتاب الإخلاص

( ٣ ) حديث ابن عمر من رأى الله به ومن سمع الله به : متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وثما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفي الزهد لابن المبارك ومسنده أحمد بن منيع أنه من حديث عبد الله بن عمرو

( ٤ ) حديث ان الله يقول للملائكة ان هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين : ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسله ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

(١) «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْفَرَ» قالوا وما الشرك الأصفر يا رسول الله؟ قال: «الرِّبَا» يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوِنُونَ فِي الدُّنْيَا فَأَنْظَرُوا أَهْلَ بَيْتِهِمْ عِنْدَهُمْ الْجَزَاءَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ» قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: «وَادِي جَهَنَّمَ أَعْدَدَ لِلْقُرَاءِ الْمُرَائِينَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٣) «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَأَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ» . وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم صوم أحدكم ، فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه ، لتلا يرى الناس أنه صائم . وإذا أعطى يمينه ، فليخف عن شماله . وإذا صلى فليرخ ستر بابه ، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٤) «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلًا فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ» وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك؟ قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم (٥) يقول: «إِنَّ أَدْنَى الرِّبَا شِرْكَ» وقال صلى الله عليه وسلم (٦) «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّبَا وَالشَّهْوَةُ الْخَلْفِيَّةُ» وهي أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) «إِنْ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِيَمِينِهِ فَكَأَدُّ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ»

(١) حديث ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصفر - الحديث : أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود

ابن لبيدولة رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج

(٢) حديث استعيدوا بالله من جب الحزن قيل وما هو قال وادى جهنم أعد للقرء المرأين: الترمذى وقال

غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة ووضعه ابن عدى

(٣) حديث يقول الله من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله - الحديث : مالك واللفظ له من حديث

أبي هريرة دون قوله وأنا منه برى ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهي عند ابن ماجه بسند صحيح

(٤) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء : لم أجده هكذا

(٥) حديث معاذ ان أدنى الربا شرك: الطبراني هكذا والحاكم بلفظ ان اليسير من الربا شرك وقد تقدم

قبل هذه الورقة

(٦) حديث أخوف ما أخاف عليكم الربا - الحديث : تقدم في أول هذا الكتاب

(٧) حديث ان فى ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله: متفق عليه

من حديث أبي هريرة بنحوه فى حديث سبعة يظلمهم الله فى ظله

ولذلك ورد <sup>(١)</sup> أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الْمُرَاتِي يُنَادِي عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاجِرُ يَا غَادِرُ يَا مُرَائِي ضَلَّ عَمَلِكَ وَحَبِطَ أَجْرُكَ أَذْهَبَ فَخُذْ أَجْرَكَ مِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ » <sup>(٣)</sup> وقال شداد بن أوس ؛ رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي ، فقلت ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال « إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يمبدون صنما ولا شمسا ولا قمرًا ولا حجرا ولكنهم يراون بأعمالهم » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ مَادَتْ بِأَهْلِهَا فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَصَبَّرَهَا أَوْ تَادَأَ لِلْأَرْضِ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا خَلَقَ رَبُّنَا خَلْقًا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ فَخَلَقَ اللَّهُ الْحَدِيدَ فَقَطَعَ الْجِبَالَ ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الْحَدِيدَ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الْمَاءَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ وَأَمَرَ الرِّيحَ فَكَدَّرَتِ الْمَاءَ فَاخْتَلَفَتِ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَتْ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى قَالُوا يَا رَبِّ مَا أَشَدَّ مَا خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ أَخْلُقْ خَلْقًا هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ بيمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلق خلقته » وروى عبد الله بن المبارك ، بإسناده عن رجل ، أنه قال لمعاذ بن جبل : حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكي معاذ ، حتى ظننت أنه لا يسكت ، ثم سكت . ثم قال ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي « يَا مُعَاذُ » قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله . قال « إني محدثك حديثا إن أنت حفظته تفعلك وإن أنت صيغته »

- ( ١ ) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء ان الرجل يعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضاعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة
- ( ٢ ) حديث ان المرأتى ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرأتى ضل عملك وحبط أجرك - الحديث : ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصي عن صحابي لم يسم وزاد يا كافر يا خاسر ولم يقل يا مرأتى واسناده ضعيف
- ( ٣ ) حديث شداد بن أوس انى تخوفت على أمتى الشرك - الحديث : ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا
- ( ٤ ) حديث لما خلق الله الارض مادت بأهلها - الحديث : وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب

وَلَمْ تَحْفَظْهُ انشَطَمَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا مَعَادُ (١) إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاقَ  
 قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ فَجَعَلَ لِكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكًا  
 بَوَّابًا عَلَيْهَا قَدْ جَلَّلَهَا عِظْمًا فَتَصْعَدُ الْحَفِظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِينَ أَصْبَحَ إِلَى حِينَ أَمْسَى  
 لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا صَعَدَتْ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا زَكَّتُهُ فَكَثَّرَتْهُ فَيَقُولُ الْمَلَكُ  
 لِلْحَفِظَةِ اضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا صَاحِبُ الْغَيْبَةِ أَمَرَ نِي رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلًا  
 مِنْ أَعْتَابِ النَّاسِ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ ثُمَّ تَأْتِي الْحَفِظَةُ بِعَمَلِ صَالِحٍ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ  
 فَتَمُرُّ بِهِ فَتَزُكِّيهِ وَتُكثِّرُهُ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمَوْكَلُ  
 بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هَذَا عَرْضَ الدُّنْيَا أَمَرَ نِي رَبِّي  
 أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلًا يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ  
 الْحَفِظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَنْتَهِجُ نُورًا مِنْ صِدْقَةٍ وَصِيَامٍ وَصَلَاةٍ قَدْ أَعْجَبَ الْحَفِظَةَ فَيُجَاوِزُونَ  
 بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمَوْكَلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ  
 صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ الْكِبَرِ أَمَرَ نِي رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلًا يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ  
 عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفِظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ زَهْرًا كَمَا يَزْهَرُ الْكَوْكَبُ  
 الذَّرِّيُّ لَهُ دَوِيٌّ مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُولُ  
 لَهُمُ الْمَلَكُ الْمَوْكَلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ  
 أَنَا صَاحِبُ الْعُجْبِ أَمَرَ نِي رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلًا يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا  
 أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِي عَمَلِهِ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفِظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ  
 كَأَنَّهُ التَّرْوَسُ الْمَرْفُوفَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمَوْكَلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا  
 الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنَا مَلَكُ الْحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ مَنْ يَتَعَلَّمُ

(١) حديث معاذ الطويل ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء  
 من السبعة ملكا بوابا عليها - الحديث : بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة كل من كل  
 سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك غزاه للصنف الى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل  
 عن معاذ وهو كمال رواه في الزهد وفي اسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزي في اللوغات

وَيَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ فَضْلًا مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ أَمْرِي  
رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ  
وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَصِيَامٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُ  
بَهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لَا يَرْحَمُ إِنْسَانًا قَطُّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ  
أَصَابَهُ بَلَاءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضْرَبَ بِهِ بَلٌّ كَانَ يَشْتُمُّ بِهِ أَنَا مَلِكُ الرَّحْمَةِ أَمْرِي رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ  
عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْمٍ  
وَصَلَاةٍ وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيٌّ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ  
مَعَهُ ثَلَاثَةُ آفَافٍ مَلِكٌ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلِكُ الْمَوْكَلُ  
بَهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ جَوَارِحَهُ أَقْبِلُوا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّي  
أَحْبَبُ عَنْ رَبِّي كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرَدْ بِهِ وَجْهَ رَبِّي إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّهُ أَرَادَ  
رَفْعَهُ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَذِكْرَهُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَصِيَّتَا فِي الْمَدَائِنِ أَمْرِي رَبِّي أَنْ لَا أَدْعَ عَمَلَهُ  
يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلَ الْمُرَائِي  
قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفْظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ  
وَصِيَّتٍ وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَشْيِئِهِ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوا بِهِ الْحُجُبَ كُلَّهَا  
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمَخْلُصِ لِلَّهِ قَالَ فَيَقُولُ  
اللَّهُ لَهُمْ أَنْتُمْ الْحَفْظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهَذَا الْعَمَلِ  
وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ لَعْنَتِكَ وَلَعْنَتْنَا وَتَقُولُ السَّمَوَاتُ  
كُلُّهَا عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَتْنَا وَتَلْعَنُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا « قَالَ مَعَاذُ  
فَلْتِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَا مَعَاذُ : قَالَ « ائْتَدِي وَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ نَقْصٌ  
يَأْمَأذُ حَافِظٌ عَلَى لِسَانِكَ مِنَ الرَّقِيعَةِ فِي إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَاحْتِلِ ذُنُوبَكَ  
عَلَيْكَ وَلَا تَحْمِلْهَا عَلَيْهِمْ وَلَا تُرِكَ نَفْسِكَ بِذَمِّهِمْ وَلَا تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا تُدْخِلْ  
عَمَلِ الدُّنْيَا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ وَلَا تَتَكَبَّرْ فِي مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ

وَلَا تُنَاجِ رَجُلًا وَعِنْدَكَ آخِرٌ وَلَا تَتَعَزَّمْ عَلَى النَّاسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَلَا تَمْزُقِ النَّاسَ فَتَمَزَّقَكَ كِلَابُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ تَعَالَى (وَالنَّاسِطَاتُ نَشِطَاتٌ) (١) أَتَدْرِي مَنْ هُنَّ يَا مُعَاذُ؟ « قلت ما هن بأبي أنت وأمي يارسول الله؟ قال « كِلَابُ فِي النَّارِ تَنْشِطُ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ » قلت بأبي أنت وأمي يارسول الله فمن يطبق هذه الخصال؟ ومن ينجو منها؟ قال « يَا مُعَاذُ إِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ بَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرءان من معاذ، للحذر مما في هذا الحديث

وأما الآثار: فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، رأى رجلا يطأطأ رقبته. فقال يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب. ورأى أبو أمامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده، فقال أنت أنت لو كان هذا في بيتك؟ وقال على كرم الله وجهه: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس. ويزيد في العمل إذا أثنى عليه، وينقص إذا ذم. وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسبني في سبيل الله، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس؟ قال لا شيء لك. فسأله ثلاث مرات، كل ذلك يقول لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، الحديث وسأل رجل سميد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمديوؤجر فقال له أتحب أن تمقت؟ قال لا. قال فإذا عملت لله عملا فأخلصه. وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك. ولا يقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له. وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له: اقتص مني. فقال لابن أدمعها لله ولك. فقال له عمر: ما صنعت شيئا، إما أن تدعها لي فأعرف ذلك، أو تدعها لله وحده. فقال ودعها لله وحده فقال فقم اذن. وقال الحسن، لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة. لو نطق بها لنفعتها ونفعت أصحابه، وما يمنعها منها إلا مخافة الشهرة. وإن كان أحدكم ليرفري الأذى في الطريق، فما يمنع أن ينحيه إلا مخافة الشهرة. ويقال إن المرائي ينادى يوم القيامة يا أربعة أسماء: يا غادرو، يا غاسرو، يا فاجرو، يا فخذوا جركم من عملت له فلا أجر لك عندنا.

وقال الفضيل بن عياض كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون . وقال عكرمة . إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله ، لأن النية لارياة فيها . وقال الحسن رضى الله عنه . المرأى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس هو رجل صالح . وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء ! فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة . إذا رآى العبد ، يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزى به . وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة . قراء الرحمن ، وقراء الدنيا ، وقراء الملوك . وإن محمد ابن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل . من أراد أن ينظر إلى مرء فلينظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمى بالليل ، فإنه أشرف من سمى بالنهار ، لأن السمى بالنهار للمخلوقين ، وسمى الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . . وقال ابن المبارك . إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان . فليله وكيف ذلك ؟ قال يجب أن يذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن آدم . ما صدق الله من أراد أن يشهر

## بيان

حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع . وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإبرائهم خصال الخير ، إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها . فحد الرياء هو إرادة العباد بطلاعة الله . فالمرأى هو العابد ، والمرأى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم والمرأى به هو الخصال التي قصد المرأى إظهارها والرياء هو قصده إظهار ذلك . والمرأى به كثير ، وتجمعه خمسة أقسام ، وهى مجامع ما يزين به العبد للناس : وهو البدن ، والذى ، والقول ، والعمل ، والأتباع ، والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة . إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات ، أهون من الرياء بالطاعات



القسم الأول : الرياء في الدين بالبدن . وذلك بإظهار النحول والصفار ليوم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليندل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل ، وكثرة الاجتهاد ، وعظم الحزن على الدين . وكذلك يرأى بتشعيت الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت ، استدلت الناس بها على هذه الأمور ، فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم . وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته ، أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره ، ويكحل عينيه وكذلك روى عن أبي هريرة . وذلك كله لما يخاف عليه من تزغ الشيطان بالرياء . ولذلك قال ابن مسعود . أصبحوا صياما مدهنين . فهذه من آفة أهل الدين بالبدن فأما أهل الدنيا ، فيراءون بإظهار السمن ، وصفاء اللون واعتدال القامة ، وحسن الوجه ، ونظافة البدن . وقوة الأعضاء وتناسبها

الثاني : الرياء بالهيئة والزي أما الهيئة . فتشعيت شعر الرأس ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس في المشي ، والهدوء في الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأظفار وترك تنظيف الثوب ، وتركه مخرقا ، كل ذلك يرأى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين ومن ذلك لبس المرقعة ، والصلاة على السجادة ، ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن . ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة ، وإسبال الرداء على العينين ، ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحد من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان ، يلبسه من هو خال عن العلم ، ليوم أنه من أهل العلم . والمرءون بالزي على طبقات . فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ، ليرأى بغلظها ، ووسخها ، وقصرها ، وتخرقها ، أنه غير مكترث بالدنيا . ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح . وذلك لخوفه أن يقول

الناس قد بداهه من الزهد، ورجع عن تلك الطريقة، ورغب في الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك، والوزراء، والتجار . ولولبسوا الثياب الفاخرة، ردم القراء . ولولبسوا الثياب المخرقة البذلة، أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء . فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة، والمرقات المصبوغة، والفوط الرقيقة فليسونها . ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الأغنياء، ولونه وهيبته لون ثياب الصلحاء . فيلمسونه القبول عند الفريقين . وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء . ولو كلفوا لبس الديق، والكتان الدقيق الأبيض، والمقصب العلم، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم، لعظم ذلك عليهم، خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته في زى مخصوص، فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه، أو إلى ما فوقه، وإن كان مباحا . خيفة من المذمة

وأما أهل الدنيا : فمرا آتهم بالثياب النفيسة، والمرآكب الرقيقة، وأنواع التوسع والتجمل في اللبس، والمسكن، وأثاث البيت، وفره الخيول . وبالثياب المصبغة، والطيالسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس، فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة، ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة، مالم يبالغوا في الزينة

الثالث الرياء بالقول . ورياء أهل الدين بالوعظ، والتذكير، والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاوره، وإظهارا لغزارة العلم، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وتضعيف الصوت في الكلام، وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف، والحزن، وادعاء حفظ الحديث، ولقاء الشيوخ، والدق على من يروى الحديث بيان خلل في لفظه، ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح، لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إغتمام الخصم، لينظر للناس قوته في علم الدين . والرياء بالقول كثير، وأنواعه لا تنحصر .

وأما أهل الدنيا، فمرا آتهم بالقول بحفظ الأسماء والأمثال، والتفاحص في العبارات، وحفظ النحو الغريب، وللأغراب على أهل الفضل، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب

الرابع: الرياء بالعمل. كمرآة المصلي بطول القيام، ومدالظهر، وطول السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات، وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم، والنزوة، والحج، وبالصدقة، وبإطعام الطعام، وبالإحبات في المشى عند اللقاء، كإرخاء الجفون، وتنكيس الرأس، والوقار في الكلام. حتى أن المرأى قد يسرع في المشى إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين، رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار. فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه، ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يحدد الخشوع له، بل هو لا اطلاع إنسان عليه، يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء. ومهم من إذا سمع هذا استنحياً من أن تخالف مشيته في الخلوة، مشيته برأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء، وقد تضاعف به رباؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرأياً فإنه إغما يحسن مشيته في الخلوة، ليكون كذلك في الملأ، لا خوفاً من الله وحياء منه. وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالتبخر، والاختيال وتحريك اليدين، وتقريب الخطأ، والأخذ بأطراف الذيل، وإدارة العطفين، ليدلو بذلك على الجاه والحشمة

الخامس: المرآة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذى يتكلف أن يستتير عالماً من العلماء. ليقال إن فلانا قد زار فلانا. أو عابداً من العباد، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته، ويترددون إليه. أو ملكاً من الملوك، أو عاملاً من عمال السلطان، ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين. وكالذى يذكر الشيوخ، ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم، فيباهى بشيوخه. ومباهته ومرآته تترشح منه عند مخاطبته فبقول لغيره من لقيت من الشيوخ، وأنا قد لقيت فلانا وفلانا، ودرت البلاد، وخدمت الشيوخ، وما يجري مجراه فهذه مجامع مايرأى به المرءون. وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد

ومهم من يفتن بحسن الاعتقادات فيه. فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خبايته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق.

ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته ، لتشوش قلبه ، ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ، ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم ، مع قطع طمعه من أموالهم ، ولكنه يجب مجرد الجاه ، فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه ، فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال ، لا يفتخر به إلا الجهال . ولكن أكثر الناس جهال ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته ، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد ، لتكثر الرحلة إليه . ومنهم يريد الاشتهار عند الملوك ، لتقبل شفاعته ، وتنجز الحوائج على يده ، فيقوم له بذلك جاه عند العامة ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام ، وكسب مال ، ولو من الأوقاف وأموال اليتامى ، وغير ذلك من الحرام وهو لأشر طبقات المرائين ، الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء . فإن قلت : فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل فأقول : فيه تفصيل ، فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إيمان أن يكون بالعبادات ، فإن كان بشير العبادات ، فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد . ولكن كما يمكن كسب المال بتليسات ، وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال ، وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكسب قليل من الجاه ، وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال ( إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ <sup>(١)</sup> ) وكما أن المال فيه سم نافع ، ودرياق نافع ، فكذلك الجاه . وكما أن كثير المال يلهي ويطغى ، وينسى ذكر الله والدار الآخرة ، فكذلك كثير الجاه بل أشد . وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما أننا نقول تملك المال الكثير حرام ، فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام ، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور ، كأنصراف الهم إلى كثرة المال . ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها وأماسة الجاه ، من غير حرص منك على طلبه ، ومن غير اعتماد بزواله إن زال . فلا ضرر فيه ، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاه الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ، ولا يوصف بالتحريم

فعلی هذا نقول . تحسین الثوب الذی یلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مرآة . وهو ليس بحرام ، لأنه ليس رياء بالعبادة ، بل بالدنيا . وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم . والدلیل علیه ما روى عن عائشة رضی الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة ، فكان ينظر في حب الماء ، ويسوى عمامته وشعره . فقالت أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ قال « نعم إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم » نعم : هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة ، لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق ، وترغيبهم في الاتباع ، واستمالة قلوبهم . ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه . فكان يحب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله ، لئلا ترد به أعينهم . فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر . فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن لو قصد قاصده أن يحسن نفسه في أعينهم ، حذر من ذمهم ولو مهمهم ، واستتر واحا إلى توقيهم واحترامهم ، كان قد قصد أمر مباحا . إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ، ويطلب راحة الأتس بالإخوان . ومهما استثقلوه واستقذروهم بأنس بهم فإذا المرآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة . وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء ، لا في معرض العبادة والصدقة ، ولكن ليعتقد الناس أنه سخي ، فهذا مرآة ، وليس بحرام . وكذلك أمثاله . أما العبادات ، كالصدقة ، والصلاة ، والصيام والغزو ، والحج ، فالمرآة فيه حالتان : إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته ، لأن الأعمال بالنيات . وهذا ليس يقصد العبادة . ثم لا يقتصر على إحباط عبادته ، حتى تقول صار كما كان قبل العبادة ، بل يعصى بذلك ويأثم ، كما دلت عليه الأخبار والآيات . والمعنى فيه أمران :

أحدهما : يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر ، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله ، وأنه من أهل الدين وليس كذلك . والتلبيس في أمر الدنيا جرام أيضاً ، حتى لو قضى دين جماعة ، وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوتهم به ، لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في حب الماء ويسوى عمامته وشعره - الحديث : ابن عدي في الكامل وقد تقدم في الطهارة .

والثاني : يتعاقب بالله ، وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله ، فهو مستهزئ بالله  
ولذلك قال قتادة : إذا رأى العبد ، قال الله للملائكة انظروا إليه كيف يستهزئ به .  
ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار ، كما جرت عادة الخدم ، وإنما وقوفه  
لملاحظة جارية من جوارى الملك ، أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك ، إذ لم يقصد  
التقريب إلى الملك بخدمته ؛ بل قصد بذلك عبدا من عبيده . فأى استحقار يزيد على أن  
يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف ، لا يملك له ضرا ولا نفعا ! وهل ذلك  
إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله ؟  
إذ آثره على ملك الملوك ، فجعله مقصود عبادته . وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق  
المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات . ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> الشرك الأصغر  
نم : بعض درجات الرياء أشد من بعض ، كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى .  
ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف ، بحسب ما به المراآة . ولو لم يكن في الرياء  
إلا أنه يسجد ويركع لغير الله ، لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله ، فقد  
قصد غير الله . ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا . إلا أن الرياء هو الكفر  
الخبئي ، لأن المراني عظم في قلبه الناس ، فاقترضت تلك المعظمة أن يسجد ويركع ، فكان  
الناس هم المعظمون بالسجود من وجه . ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود ، وبقي تعظيم  
الخلق ، كان ذلك قريبا من الشرك ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده ،  
بإظهاره من نفسه صورة للتعظيم لله . فمن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا ، وذلك غاية  
الجهل . ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان ، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ،  
وتقمه ، وورزقه ، وأجله ، ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى . فلذلك عدل بوجهه  
عن الله إليهم ، وأقبل بقلبه عليهم ، ليستميل بذلك قلوبهم . ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا  
والآخرة ، لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم ،

( ١ ) حديث سمي الرياء الشرك الأصغر : أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبراني من رواية محمود  
ابن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم قريبا وللحاكم وصححه اسناده من حديث  
شداد بن أوس كنانة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر

لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا ! فكيف في يوم لا يحزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ! بل تقول الأنبياء فيه نفسى . فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ، ونيل القرب عند الله ، ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس ، فلا ينبغي أن نشك في أن المرأى بطاعة الله في سخط الله ، من حيث النقل والقياس جميعا . هذا إذا لم يقصد الأجر . فأما إذا قصد الأجر والمد جميعا في صدقته أو صلواته ، فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص ، وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص وبدل على ما نقلناه من الآثار ، قول سعيد بن المسيب ، وعبادة بن الصامت إنه لا أجر له فيه أصلا

## بيان

### درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض . واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المرأى به ، والمرأى لأجله ، ونفس قصد الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء . وذلك لا يخلو إما أن يكون مجردا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب . فإن كان كذلك ، فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب ، أو أضعف ، أو مساوية لإرادة العبادة . فتكون الدرجات أربعا الأولى : وهى أغلظها ، أن لا يكون مراده الثواب أصلا . كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى . بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس . فهذا مجرد قصده إلى الرياء ، فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس ، وهو لا يقصد الثواب ، ولو خلا بنفسه لما آدأها . فهذه الدرجة العليا من الرياء

الثانية : أن يكون له قصد الثواب أيضا ، ولكن قصدا ضعيفا ، بحيث لو كان في الخلو لكان لا يفضل ولا يحمله ذلك القصد على العمل . ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل . فهذا قريب مما قبله ، وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل ، لا ينق عنه المقت والإثم الثالثة : أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منها خاليا عن الآخر لم يمتثه على العمل . فلما اجتمعا انبعثت الرغبة : أو كان كل واحد

منها لو انفرد لاستقل بحمله على العمل . فهذا قد أفتد مثل ما أصلح . فترجو أن يسلم رأساً برأس ، لاله ولا عليه . أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب . وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص

الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقويًا لنشاطه ، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة : ولو كان قصد الرياء وحدة لما أقدم عليه . فالذي نظنه واللم عند الله ، أنه لا يمحبط أصل الثواب ، ولكنه ينقص منه ، أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ، ويثاب على مقدار قصد الثواب . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا غَنِيٌّ الْأَغْنِيَاءُ عَنِ الشُّرَكَ » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان ، أو كان قصد الرياء أرجح

الركن الثاني : المراءى به وهو الطاعات . وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها

القسم الأول : وهو الأغلظ ، الرياء بالأصول . وهو على ثلاث درجات :

الأولى : الرياء بأصل الإيمان ، وهذا أغلظ أبواب الرياء . وصاحبه غلظ في النار . وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة ، وباطنه مشحون بالكذب ، ولكنه يراني بظاهر الإسلام . وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى ، كقوله عز وجل ( إِذَا جَاءَكَ الْمُتَأَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ أَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَأَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ <sup>(١)</sup> ) أى في دلائلهم بقولهم على ضمائرهم . وقال تعالى ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ \* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا <sup>(٢)</sup> ) الآية وقال تعالى ( وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا \* مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ <sup>(٤)</sup> ) والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ، ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداءً لغرض . وذلك مما يقل في زماننا . ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين بأطنا ، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ، ميلا إلى قول الملحدة .

(١) المتأفِّقون : (١) البقرة : ٤٤ . (٢) آل عمران : ٧١ . (٣) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣ .



أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ، ميلا إلى أهل الإباحة . أو يعتقد كفرا أو بدعة، وهو يظهر خلافه . فهو لأمن المنافقين والمرائين المخلدن في النار . وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر الثانية : الرياء بأصول العبادات ، مع التصديق بأصل الدين . وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله أن يكون مال الرجل في يد غيره ، فيأسره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها . أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع ، وعادته ترك الصلاة في الخلوة . وكذلك يصوم رمضان ، وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر . وكذلك يحضر الجمعة ، ولو لا خوف المذمة لكان لا يحضرها . أو يصل رحمه أو وير والدية ، لا عن رغبة ، ولكن خوفا من الناس ، أو يفزو ، أو يحج كذلك . فهذا وراءه أصل الإيمان بالله . يعتقد أنه لا معبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل ، وينشط عند اطلاع الناس . فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته في محمدتهم أشد من رغبته في ثواب الله . وهذا غاية الجهل ، وما أجدر صاحبه بالقت ، وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد

الثالثة : أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى ، ولكنه يكسل عنها في الخلوة ، لفتور رغبته في ثوابها ، ولا يشار لذة الكسل على ما يرجي من الثواب . ثم يعثه الرياء على فعلها . وذلك كحضور الجماعة في الصلاة ، وعبادة المريض ، واتباع الجنائز ، وغسل الميت . وكالتهدج بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ، ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل الرائي جملة ذلك خوفا من المذمة أو طمعا للمحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضا عظيم ، ولكنه دون ما قبله . فإن الذي قبله أثر حمد الخلق على حمد الخالق ، وهذا أيضا قد فعل ذلك ، واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله . وأما هذا فلم يفعل ذلك ، لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على الشطر من الأول ، وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لأبصولها ، وهو أيضا على ثلاث درجات :

الأولى : أن يرانى بفعل ما فى تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ، ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود ، وترك الالتفات ، وعم القعود بين السجدين . وقد قال ابن مسعود . من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بهاربه عزوجل . أى أنه ليس يبألى باطلاع الله عليه فى الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة . ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أو متكئا ، فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة ، كان ذلك منه تقدما للغلام على السيد ، واستهانة بالسيد لا محالة . وهذا حال المرأى بتحسين الصلاة فى الملاء دون الخلوة . وكذلك الذى يمتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة ، أو من الحب الردىء ، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته وكذلك الصائم يصوم عن الغيبة والرفث لأجل الخلق ، لا إكالا لعبادة الصوم ، خوفا من المذمة . فهذا أيضا من الرياء المحذور ، لأن فيه تقدما للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات . فإن قال المرأى إنما فعلت ذلك صيانة لأستهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود ، وكثرة الالتفات ، أطلقوا اللسان بالذم والغبية ، وإنما قصدت صياتهم عن هذه المعصية ، فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتليس . وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك ، وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغبية غيرك . فلو كان باءتك الدين ، لكان شفقتك على نفسك أكثر . وما أنت فى هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك ، لينال منه فضلا وولاية يتقلدها ، فيهدىها إليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ، ولا يبألى به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانته امتنع خوفا من مذمة غلمانته . وذلك محال . بل من يراعى جانب غلام الملك ، ينبغي أن تكون مراتبه للملك أكثر ، نعم للمرأى فيه حالتان : إحداهما . أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس ، وذلك حرام قطعا . والثانية أن يقول ليس يحضرنى الإخلاص فى تحسين الركوع والسجود ، ولو خفت كانت صلاتى عند الله ناقصة ، وآذانى الناس بدمهم وغبيتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ، ولا أرجوا عليه ثوبا ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة ، فيفوت الثواب وتحصل المذمة . فهذا فيه أذى ، نظر . والصحيح

أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تخضره النية ، فينبغي أن يستمر على عاداته في الخلوة فليس له أن يدفع النعم بالمرآة بطاعة الله ، فإن ذلك استهزاء كما سبق .

الدرجة الثانية : أن يرأى بفعل مالا نقصان في تركه ، ولكن فعله في حكم التكملة والتمتع لعبادته . كالتطويل في الركوع والسجود ، ومد القيام ، وتحسين الهيئة ، ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبير الأولى ، وتحسين الاعتدال ، والزيادة في القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان ، وطول الصمت . واختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

الثالثة : أن يرأى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا . كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول ، وتوجهه إلى يمين الإمام ، وما يجري مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ، ومتى يحرم بالصلاة .

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به ، وبعضه أشد من بعض ، والسكل مذموم الركن الثالث : المرأى لأجله . فإن للمرأى مقصودا لا محالة ، وإنما يرأى لإدراك المال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة . وله أيضا ثلاث درجات .

الأولى : وهي أشدها وأعظمها ، أن يكون مقصوده التمكن من معصية . كالذي يرأى بعبادته ، ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة ، أو الصدقات ، ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويبيحدها . أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج ، فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الحجاج ، ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي . وقد يظهر بعضهم زى التصوف ، وهيئة الخشوع ، وكلام الحكمة ، على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحجب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور . وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرءان ، يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرءان ، وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج إلى الحج ، ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام . وهو لاء أبفض المرأين إلى الله تعالى ، لأنهم جعلوا طاعة ربهم ساما إلى معصيته ، واتخذوها آلة ومتجرا ، وبضاعة لهم في فسقهم

ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم ، من هو مقترف جريمة اتهم بها ، وهو مصرع عليها . ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه ، فيظهر التقوى لنفي التهمة ، كالذي جحد وديمة ، واتهمه الناس بها ، فيتصدق بالمال ، ليقال إنه يتصدق بمال نفسه ، فكيف يستحل مال غيره . وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام ، فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا ، من مال ، أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة . كالذي يظهر الحزن والبكاء ، ويشتمل بالوعظ والتذكير ، لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء . فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة .

وكالذي يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد ، فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجها ابنته . فهذارياء محظور ، لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ، ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه

الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ ، وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص ، ولا يمد من الخاصة والزهاد ، ويعتقد أنه من جملة العامة . كالذي يعيش مستعجلاً ، فيطلع عليه الناس ، فيحسن المشى ويترك العجلة ، كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار . وكذلك إن سبق إلى الضحك ، أو بدامنه المزاح ، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار ، فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة آدمي عن نفسه . والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لمسا كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لبعين التوقير .

وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهدون ، أو يصومون الخميس والإثنين ، أو يتصدقون ، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ، ويلحق بالعوام . ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك .

وكالذي يمشى يوم عرفة أو عاشوراء ، أو في الأشهر الحرم ، فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم . فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله . أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم ، وقد لا يصرح بأني صائم ، ولكن يقول لي عذر . وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ، ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحتجز من أن يذكر عبادته للناس فيكون هراثياً ، فيريد أن يقال إنه سائر لعبادته . ثم إن اضطر إلى شرب ، لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً ، تصرحاً أو تعريضاً ، بأن يتملل بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم

أو يقول أفطرت تطيبيا لقلب فلان. ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشره، كي لا يظن، به أنه يعتذر رياء، ولكنه يصبر، ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا، مثل أن يقول إن فلانا محب للإخوان، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألح على اليوم ولم أجديدا من تطيب قلبه. ومثل أن يقول إن أمي ضعيفة القلب، مشفقة على، تظن أنني لو صمت يوما مرضت، فلا تدعني أصوم. فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء، فلا يسبق إلى اللسان إلا لسوخ عرق الرياء في الباطن. أما المخلص، فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه. فإن لم يكن له رغبة في الصوم، وقد علم الله ذلك منه، فلا يريد أن يمتد غيره ما يخالف علم الله، فيكون ملبسا. وإن كان له رغبة في الصوم لله، قنع بعلم الله تعالى، ولم يشرك فيه غيره. وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به، وتحريك رغبة الناس فيه. وفيه مكيدة وغرور، وسيأتي شرح ذلك وشروطه

فهذه درجات الرياء، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات. وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من ديب النمل، كما ورد به الخبر، يزل فيه فحول العلماء، فضلا عن العبادة الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب، والله أعلم

## بيان

الرياء الخفى الذى هو أخفى من ديب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفى فالجلي هو الذى يبعث على العمل، ويحمل عليه، ولو قصد الثواب. وهو أجلاء. وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرد، إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة، ويشغل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له، وخف عليه، وعلم أنه لو لارجاء الثواب لكان لا يصلح لمجرد رياء الضيفان، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل، ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب. ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل، لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته. فرب عبد يخلص في عمله، ولا يعتقد

الرياء بل يكرمه ويرده ، ويتم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك ،  
والارتاح له ، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة . وهذا السرور يدل على رياء خفي ، منه يرشح  
السرور . ولولا التفات القلب إلى الناس ، لما ظهر سروره عند اطلاع الناس . فلقد كان  
الرياء مستكنا في القلب ، استكنان النار في الحجر ، فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح  
والسرور . ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ، ولم يقابل ذلك بكرامية ، فيصير ذلك  
قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء ، حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ،  
فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه ، بالتمريض والقاء الكلام عرضا  
وإن كان لا يدعو إلى التصريح . وقد يخفي فلا يدعو إلى الأظهار بالنطق تعريضا وتصريحا  
ولكن بالشمايل ، كأظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، وبيس الشفتين ، وجفاف  
الريق ، وآثار الدموع ، وغلبة النعاس الدال على طول التهجد . وأخفى من ذلك أن  
أن يحتفي بحيث لا يريد الاطلاع ، ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذ رأى الناس  
أحب أن يبدوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا  
في قضاء حوائجه ، وأن يسامحوه في البيع والشراء ، وأن يوسعوا له في المكان . فإن قصر  
فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، ووجد لذلك استبعادا في نفسه ، كأنه يتقاضى الاحترام مع  
الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه . ولولم يكن قد سبق منه تلك الطاعة ، لما كان  
يستبعد تقصير الناس في حقه . ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق  
لم يكن قد قنع بعلم الله ، ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء ، "أخفى من ديب  
التمل . وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصديقون  
وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة  
ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟  
وفي الحديث لا أجر لكم ، فداستوفيم أجوركم . وقال عبد الله بن المبارك روى عن وهب ابن منبه

( ١ ) حديث في الرياء شواهد أخفى من ديب التمل : أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري انقوا هذا  
الشرك فانه أخفى من ديب التمل ورواه ابن جبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق  
وضعه هو والدارقطني

أنه قال : إن رجلا من السواح قال لأصحابه : إنا إنما فارتنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان . فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم . إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه . فبلغ ذلك ملكهم ، فركب في موكب من الناس ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس . فقال السائح ما هذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك . فقال للغلام . ائني بطعام . فأتاه ببقل ، وزيت ، وقلوب الشجر . فجعل يحشوشدقه ويأكل أكلا عنيفا . فقال الملك . أين صاحبكم ؟ فقالوا هذا . قال كيف أنت ؟ قال كالناس . وفي حديث آخر بخير . فقال الملك ما عند هذا من خير . فأنصرف عنه . فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لى ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون لذلك فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم . كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة ، فيجازيهم الله فى القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل فى القيامة إلا الخالص ، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة ، وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجزى والد عن ولده ويشتغل الصديقون بأنفسهم ، فيقول كل واحد نفسى نفسى ، فضلا عن غيرهم . فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة ، فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المرفى الخالص لهمم بأن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والنهرج ، والحاجة تشتد فى البادية ، ولا وطن يفزع إليه ، ولا حميم يتمسك به ، فلا ينجى إلا الخالص من النقد . فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة ، والزاد الذى يتزودونه له من التقوى .

فإذا شوائب الرياء الخفى كثيرة لا ننحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أوبهيمة ففيه شعبة من الرياء ، فإنه لما قطع طمعه عن البهائم ، لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا . فلو كان مخلصا قانما بعلم الله ، لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يتقدرون له على ووق ، ولا أجل ، ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب . كما لا يقدر عليه البهائم ، والضبيان ، والمجانين . فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر ، مفسدا للعمل ، بل فيه تفضيل

فإن قلت : فما نرى أهدأ ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته ، فالسرور مذموم كله؟  
أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول أولاً : كل سرور فليس بمذموم . بل السرور منقسم  
إلى محمود ، وإلى مذموم : فأما المحمود ، فأربعة أقسام .

الأول : أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه الخلق ، علم أن الله  
أطلمهم ، وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ، ونظره إليه . وإطأنه به ، فإنه  
يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة . ولا لطف أعظم من ستر القبيح  
وإظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له ، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم . وقد قال تعالى  
( قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ رَبِّ رَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا <sup>(١)</sup> ) فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به  
الثاني : أن يستدل بإظهار الله الجميل ، وستره القبيح عليه في الدنيا ، أنه كذلك يفعل  
في الآخرة . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا  
إِلَّا سَتَرَهُ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ » فيكون الأول فرحاً بالقبول في الحال ، من غير ملاحظة  
المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

الثالث : أن يظن رغبة المظلمين على الاقتداء به في الطاعة ، فيتضاعف بذلك أجره ،  
فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً ، وأجر السر بما قصده أولاً . ومن اقتدى به في طاعة  
فله مثل أجر أعمال المقتدين به ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . وتوقع ذلك جدير  
بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ ، وموجب السرور لا محالة .

الرابع : أن يحمده المظلمون على طاعته ، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ، وبجبههم للمطيع  
وهيئيل قلوبهم إلى الطاعة ، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده ، أو يذمه  
ويهزأ به ، أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه . فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله ، وعلامة  
الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بخدم غيرهم ، مثل فرحه بخدمهم إياه

وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس ،

( ١ ) حديث ماستر الله على عبد في الدنيا للإستر عليه في الآخرة: مسلم من حديث أبي هريرة



حتى يمدحوه، ويعظموه، ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده، فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

## بيان

ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لا يحبط

ف نقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ، ثم ورد عليه وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل ، أو قبل الفراغ . فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار ، فهذا لا يفسد العمل . إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص ، سالماً عن الرياء ، فما يطرأ بعده فترجو أن لا ينعطف عليه أثره ، لاسيما إذا لم يتكاف هو إظهاره والتحدث به ، ولم يتمن إظهاره وذكره ، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله ، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم : لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار ، فتحدث به وأظهره ، فهذا يخوف في وفي الآثار والأخبار : ما يدل على أنه يحبط . فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول : قرأت البارحة البقرة ، فقال ذلك حظه منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ، أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يارسول الله فقال له « مَا صُمْتَ وَلَا أَفْطَرْتَ » فقال بعضهم إننا قال ذلك لأنه أظهره ، وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ابن مسعود ، استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له ، لما أن ظهر منه التحدث به . إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً لثواب العمل . بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى ، وبمقابله على صراجه بطاعة الله بعد الفراغ منها . بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء

(١) حديث قال لرجل قال صمت الدهر ما صمت ولا أفطرت : معلم من حديث أبي قتادة قال سمع يارسول الله كيف عن يصوم الدهر قال لا صام ولا أفطر . وللطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه فقال رجل انى صائم قال بعض القوم انه لا يفطر انه يصوم كل يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم لا صام ولا أفطر من صام بالبدن ولم أجده باللفظ الخطاب

قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ، ويحبط العمل . وأما إذا ورد واردا  
الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا ، وكان قد عقد على الإخلاص ، ولكن ورد في أثناءها  
وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل ، وإما أن يكون رياء باعثا  
على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به ، حبط أجره ومثاله أن يكون في تطوع ، فتجددت  
له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك ، وهو يشتهي أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئا نسيه من  
ماله ، وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة ، فاستتمها خوفا من مذمة الناس ،  
فقد حبط أجره . وعليه الإعادة إن كان في فريضة . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَلْعَمَلُ  
كَأَلْوِعَاءٍ إِذَا طَابَ آخِرُهُ طَابَ أَوَّلُهُ ، أَى النَّظَرُ إِلَى خَاتَمَتِهِ . وروى أنه <sup>(٢)</sup> من رأى بعمله  
ساعة ، حبط عمله الذي كان قبله . وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لاعلى الصدقة ،  
ولا على القراءة . فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فإي طرأ يفسد الباقي دون الماضي والصوم  
والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنع من قصد الإتمام لأجل  
الثواب ، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ، ففرح بحضورهم وعقد الرياء ، وقصد تحسين  
الصلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد أثر في العمل ،  
وانتهض باعثا على الحركات . فإن غلب حتى انعقد معه الإحساس بقصد العبادة والثواب ،  
وصار قصد العبادة مغمورا ، فهذا أيضا ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها  
على هذا الوجه . لأننا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام ، بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبيها  
وينغمرها . ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد ، وإلى بقاء قصد أصل الثواب  
وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه . ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى  
الإجباط في أمر هو أهون من هذا ، وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ، يعني  
سرورا هو كحُب المنزلة والجاه ، قال قد اختلف الناس في هذا ، فصارت فرقة إلى أنه محبط  
لأنه نقض العزم الأول ، ووركن إلى حمد المخلوقين ، ولم يحتم عمله بالإخلاص ، وإنما يتم العمل بخاتمته

( ١ ) حديث العمل كالوعاء . اذا طاب آخره طاب اوله : ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلهظ اذا طاب

أقبله طاب أعلاه وقيل تقدم

( ٢ ) حديث ابن رايي بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله : لم أجده بهذا اللفظ والشيخين من حديث جنيد

من سمع سمع الله ، ومن رأى رياء رياء الله ، وعصاه مسلم من حديث ابن عباس

ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ، ولا آمن عليه . وقد كنت أتف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء . ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى إنها حالتان ، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية ، وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا رسول الله <sup>(١)</sup> ، أسر العمل لأحب أن يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرنى . قال « لك أجران أجر السر وأجر العلانية » ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله لا يضره أى لا يدع العمل ، ولا تضره الخطرة وهو يريد الله . ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره . وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل ، يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ ، وليس في الحديث أنه قبل الفراغ الثاني : أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل ، لاسرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا ، وغايته أن يعنى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللرئى أجران ! والثالث . أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة ، بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح . ومنهم من يرفعه . فالحكم بالمعومات الواردة في الرياء أولى . هذا ما ذكره ، ولم يقطع به ، بل أظهر ميلا إلى الإحباط . والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل ، بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين ، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع ، فلا يفسد العمل ، لأنه لم ينعدم به أصل نيته ، وبقيت تلك النية بأعثة على العمل ، وحاملة على الإتمام . وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق . وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كانت قصد الرياء مساويا لقصد الثواب ، أو أغلب منه . أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه ، فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال . ولا ينبغي أن يفسد الصلاة . ولا يعد أيضا أن يقال إن الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ، والخالص ما لا يشوبه شيء ، فلا يكون مؤثرا للواجب

(١) حديث ابن رجلا قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال لك أجران - الحديث : الصحيح في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا أطلع عليه أمجبه قال له أهر السر والعلانية

مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن ، فليرجع إليه ، فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة ، إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ القسم الثالث : الذي يقارن حال العقد ، بأن يتبدى الصلاة على قصد الرياء . فإن استمر عليه حتى سلم ، فلا خلاف في أنه يقضى ، ولا يعتد بصلاته . وإن ندم عليه في أثناء ذلك ، واستغفر ورجع قبل التمام ، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه . قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف . وقالت فرقة تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ، وتفسد أفعاله دون تحريم الصلاة ، لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا . وقالت فرقة لا يلزمه إعادة شيء ، بل يستغفر الله بقلبه ، ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة ، كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله . وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة ، فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل . فقلوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله . ولو سجد لغير الله لكان كافرا . ولكن اقترن به عارض الرياء ، ثم زال بالندم والتوبة ، وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم ، فتصح صلاته ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا ، خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود ، دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة في الصلاة ، فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدر في النية ، وأولى الأوقات بمراجعة أحكام النية حالة الافتتاح فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال . إن كان باعته مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر ، لم ينعقد افتتاحه ، ولم يصح ما بعده . وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة ، وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلي لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها ، إذ النية عبارة عن إجابة باعته الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة فأما إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصلي ، إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدا أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم ، أوفى عقد صلاة يخرج . فإن كان في صدقة ، فقد عصى بإجابة باعته الرياء ، وأطاع بإجابة باعته الثواب

( فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١) ) فله ثواب بقدر قصده الصحيح ، وعقاب بقدر قصده الفاسد ، ولا يحبط أحدهما الآخر وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية ، فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا . فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة . فقد عصي من وجه ، وأطاع من وجه إذ اجتمع في قلبه الباعثان . ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة ، والافتداء به باطل . حتى أن من صلى التراويح ، وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء ، بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه ، وخلا في بيت وحده لما صلى ، لا يصح الافتداء به . فإن المصير إلى هذا بعيد جدا . بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه ، فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ، ويصح الافتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص .

فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان ، وكان كل واحد لا يستقل ، وإعما يحصل الانبعاث بمجموعهما ، فهذا لا يسقط الواجب عنه . لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا في حقه بمجرد استقلاله . وإن كان كل باعث مستقلا ، حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء ، فهذا محل النظر ، وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ، ولم يؤد الواجب الخالص . ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه ، كما لو صلى في دار مغصوبة ، فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة ، فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه . وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلا دون أصل الصلاة ، مثل من يبادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ؛ ولو خلا لآخر إلى وسط الوقت ، ولو لا الفرض لكان لا يتبدىء صلاة لأجل الرياء ، فهذا مما يقطع بصحة صلاته ، وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يمارضه غيره . بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد عن القبح في النية هذا في رياء يكون باعثا على العقل ، وحاملا عليه . . . وأما مجرد السرور بإطلاع الناس

عليه ، إذالم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل ، فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما نراه لا ثقا ، بقانون الفقه . والمسألة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه . والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ، ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات ، بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأفضد فيما نراه ، والعلم عند الله عز وجل فيه ، وهو عالم النيب والشهادة ، وهو الرحمن الرحيم

## بيان

دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات . وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته ، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرة البشعة . وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم . إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض ، فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ، ويرسخ ذلك في نفسه وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله ، وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه ، فلا يقدر على قومه إلا بالمجاهدة شديدة ، ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا . وفي علاجه مقامان : أحدهما قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه ، والثاني : دفع ما يخطر منه في الحال

المقام الأول : في قلع عروقه واستئصال أصوله . وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول . وهي لذة المحمدة ، والفرار من ألم الدم ، والطمع فيما في أيدي الناس ويشهد للرياء بهذه الأسباب ، وأنها الباعثة للمرائي ، ما روى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> فقال . يارسول الله : الرجل يقاتل حمية . ومعناه أنه يأنف أن يقهر ، أو يذم بأنه مقهور مغلوب . وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه . وهذا هو مطلب لذة الجاه

(١) حديث أبي موسى أن أعرابيا قال يارسول الله الرجل يقاتل حمية . الحديث : متفق عليه

والقدر في القلوب . والرجل يقاتل للذكر . وهذا هو الحمد باللسان . فقال صلى الله عليه وسلم  
« مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً اللهُ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال ابن مسعود . إذا التقى  
الصفان نزلت الملائكة ، فكتبوا الناس على مراتبهم . فلان يقاتل للذكر . وفلان يقاتل للملك  
والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه . يقولون فلان شهيد ،  
ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ غَزَا  
لَا يَبْنِي إِلَّا عِقَالًا فَلَهُ مَا نَوَى » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهي الحمد  
ولا يطمع فيه ، ولكن يحذر من ألم الدم ، كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال  
الكثير ، فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل . وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره .  
وكالبيان بين الشجمان ، لا يفر من الزحف خوفا من الدم ، وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم  
غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الدم . وكالرجل بين قوم يصلون  
جميع الليل ، فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل ، وهو لا يطمع في الحمد . وقد  
يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ، ولا يقدر على الصبر على ألم الدم . ولذلك قد  
يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه ، خيفة من أن يذم بالجهل . ويقتى بغير علم ، ويدعى  
العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الدم

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرأى إلى الرياء . وعلاجه ما ذكرناه في الشطر  
الأول من الكتاب على الجملة . ولكننا نذكر الآن ما يخص الرياء . وليس يخفى أن الإنسان  
إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما في الحال ، وإما في المآل . فإن علم  
أنه لذيذ في الحال . ولكنه صار في المآل . سهل عليه قطع الرغبة عنه . كمن يعلم أن العسل لذيذ ،  
ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه . فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المصرة  
ومهما عرف العبد مضره الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه في الحال من  
التوفيق ، وفي الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من العقاب العظيم ، والمقت  
الشديد ، والخزي الظاهر ، حيث ينادى على رهوس الخلائق يا فاجر ، يا غادور ، يا مرأى ،  
أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب المباد ، واستهزأت بطاعة الله

(١) حديث من غزا لا يبني الا عقالا لله ما نوى: النسائي وقد تقدم

وتجيبت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحدث إليهم بالتذم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله . أما كان أحد أهون عليك من الله ؟ فهما تفكر العبد في هذا الخزي ، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا ، بما يفوته في الآخرة ، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلس ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ، ويهوى إلى النار . فلو لم يكن في الرياء إلا إيجاب عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره . وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصدقيين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهمة بسبب ملاحظة قلوب الخلق . فإن رضا الناس غاية لا تدرك . فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق . ورضا بعضهم في سخط بعضهم . ومن طلب رضاهم في سخط الله يسخط الله عليه ، وأسخطهم أيضا عليه . ثم أى غرض له في مدحهم ، وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ، ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ، ولا ينفعه يوم فقره وفاته وهو يوم القيامة .

وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ، ولا رازق إلا الله . ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة . فكيف يترك ما عند الله براء كاذب ، وهم فاسد قد يصيب وقد يخطيء ؟ وإذا أصاب فلا تنق لذته بألم منته ومذله .

وأما ذمهم فلم يحذر منه ، ولا يزيده ذمهم شيئا ما لم يكتبه عليه الله ، ولا يعجل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيده مقنا إن كان ممقوتا عند الله ؟ فالعباد كلهم عجرة لا يعلكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يعلكون موتا ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها ، قترت رغبته ، وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقبل نفسه ، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص ، لمقتوه .

وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ، ويعرفهم أنه مرء وممقوت عند الله .



ولو أخلص الله لكشف الله لهم إخلاصه ، وحببه إليهم ، وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال في مدحهم . ولا نقصان في ذمهم ، كما قال شاعر من تميم (١) إن مدحى زين ، وإن ذمى شين . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَذَبْتَ ذَاكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » إذ لا زين إلا في مدحه ، ولا شين إلا في ذمه . فأى خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شرك من ذم الناس ، وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين فن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد ، والمنازل الرفيعة عند الله ، استحق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة ، مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه ، وانصرف إلى الله قلبه ، وتخلص من مذلة الرياء ، ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ، ينشرح بها صدره ، ويفتح بهاله من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ، ووحشته من الخلق ، واستحقاره للدينا ، واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه ، وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص فهذا وما قدمناه في الشطر الأول ، هى الأدوية العلمية القالعة ممارس الرياء

وأما الدواء العملى . فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله ، واطلاعه على عباداته ، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها ، فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تحفنيه ، لا تجالسنا بعد هذا . فلم يرخص فى إظهار هذا القدر ، لأن فى ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها . فلا دراء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة . وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله ، وما يمده به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد . ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فن العبد المجاهدة ، ومن الله الهداية . ومن العبد قرع الباب ، ومن الله فتح الباب . والله لا يضع أجر المحسنين ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما

( ١ ) حديث قال شاعر من بني تميم إن مدحى زين إن ذمى شين فقال كذبت ذاك الله بحم من حديث الأقرع ابن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقاة إلا أنى لا أعرف لابي سلمة بن عبدالرحمن بن سباعين الأقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ ثقات رجل أن حمدي

المقام الثاني : في دفع العارض منه في أثناء العبادة . وذلك لا بد من تعلمه أيضا . فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة ، وقطع الطمع ، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين ، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم ، فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات ، بل يعارضه بمخاطر الرياء . ولا تنقطع عنه ترغاته . وهوى النفس وميلها إلا ينمحن بالكفاية . فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة . قد تخطر دفعة واحدة كالمخاطر الواحد ، وقد تترادف على التدرج

فالأول : العلم باطلاع الخلق ، ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حدم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له ، والركون إليه ، وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول معرفة . والثاني حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث فعل يسمى العزم وتصميم المقدم . وإنما كمال القوة في دفع المخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثاني فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق ، أو رجاء اطلاعهم ، دفع ذلك بأن قال مالك والخلق علموا أولم يعلموا ، والله عالم بمالك ؟ فأى فائدة في علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ، يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء ، وتعرضه للمقت عند الله في القيامة ، وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله . فكأن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة . إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإيذاء والنفس تطاوع لاحالة أفعالها وأغلبها فإذا لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور . المعرفة ، والكراهة ، والإيذاء . وقد يشرع التمسك في العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ، ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منظويا عليها . وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد ، واستيلاء الحرص عليه ، بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته ، إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم . وهو كالأذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ، ثم يجرى من الأسباب ما يشتد به غضبه ، فينسى سابقة عزمه ، ويعتلى قلبه عجزا يمنع من تذكر آفة الغضب ، ويشغل قلبه عنه فكذلك حلالة الشهوة تملأ القلب ،

وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله . (١) بإيعاز رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ، ولم نبأه على الموت ، فأسبناها يوم حنين حتى نودي بأصحاب الشجرة ، فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف ، فنسيت العهد السابق ، حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان ومهائسى المعرفة لم تظهر الكراهة . فإن الكراهة ثمرة المعرفة وقد يتذكر الإنسان ، فيعلم أن الخاطر الذي خطرله هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ، ولا يقدر على ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة ، أو يتشاغل عن التفكير في ذلك لشدة الشهوة ، فكيف من عالم يحضره كلام لا يدعو إلى فعله إلا رياء الخلق ، وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه ، فتكون الحجة عليه أوكد ، إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته ، وكونه مذموماً عند الله . ولا تنفع معرفته ، إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ، ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به ، لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة : وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته ، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل فإذا لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث ، وهي المعرفة ، والكراهة والإيابة . فالإيابة ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة ، وحب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، وقلة التفكير فيما عند الله ، وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة . وبعض ذلك ينتج بعضا ويشمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات ، فهو رأس كل خطيئة ، ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا ، هي التي تغضب القلب وتسلبه ، وتحول بينه وبين التفكير في العاقبة ، والاستضاءة بنور الكتاب ، والسنة ، وأنوار العلوم . فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة الرياء ، وحميته الكراهة على الإيابة ، ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه ، وحببه له ، ومنازعة إيابه ، إلا أنه كاره لحيه وليله إليه ، وغير محبب إليه فهل يكون في زمرة المرابين؟

( ١ ) حديث جابر بإيعاز رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر من الحديث : مسلم مختصرا

دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس .

فاعلم أنت الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق ، وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ، ولا قمع الطبع حتى لا يعيل إلى الشهوات ولا ينزع إليها . وإنما غايته أن يقابل شهوته بكرامة استنارها من معرفة العواقب وعلم الدين ، وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر . فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> شكروا إليه وقالوا . تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير ، أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق ، أحب إلينا من أن نتكلم بها . فقال عليه السلام « أَوْ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا نعم قال « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » ولم يجدوا إلا الوسواس والسكرامة له . ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكرامة المساوقة للوسوسة . والرياء وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى . فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكرامة ، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال <sup>(٢)</sup> « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ إِلَى الْوَسْوَسَةِ » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك ، وكرهته نفسك لنفسك ، فلا يضرك ما هو من عدوك . وما كان من نفسك ، فرضيته نفسك لنفسك ، فمات بها عليه . فإذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لاتضرك ، مهما رددت مرادها بالإيذاء والكرامة . والخواطر التي هي الماوم ، والتذكرات ، والتخييلات للأسباب المبهجة للرياء ، هي من الشيطان . والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس . والكرامة من الإيمان ومن آثار العقل . إلا أن للشيطان ههنا مكيدة ، وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء ، خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال ، حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب . لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعة انصراف عن سر المناجاة مع الله ، فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله

(١) حديث شكوى الصحابة ما تعرض في قلوبهم وقوله ذلك صريح الإيمان : مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً . سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك معص الإيمان والنسائي في اليوم والليلة . وابن حبان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث عائشة .

(٢) حديث ابن عباس الحمد لله الذي رد كيده الشيطان إلى الوسوسة : أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ كيد .

والمخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب

الأولى : أن يردده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه ، بل يشتغل بمجادلته ، ويطيل الجدل منه ، لظنه أن ذلك أسلم لقلبه . وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله ، وعن الخير الذي هو بصدده ، وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريح على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك .

الثانية : أن يعرف أن الجدل والقتال نقصان في السلوك ، فيقتصر على تكذيبه ودفنه ، ولا يشتغل بمجادلته

الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا ، لأن ذلك وقفة . وإن قلت بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان ، فيستمر على ما كان عليه مستصحيا للكرامة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالخاصة

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما تزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص ، والاشتغال بالله ، وإخفاء الصدقة والعبادة ، غيظا للشيطان . وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ، ويوجب بأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلانا يذكرك . فقال والله لأغيظن من أمره . قيل ومن أمره ؟ قال الشيطان . اللهم اغفر له . أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه المادة ، كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته وقال إبراهيم التيمي : إن الشيطان يدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعمه ، وليحدث عند ذلك خيرا . فإذا رآه كذلك تركه . وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك وإذا رآك مداوما ملك وقلبك . وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله هذه الأربعة مثلا أحسن فيه فقال : مثلهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث ، لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ويرشدوا . فحسدوا على ذلك ضال مبتدع ، وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فتمعه وصرفه عن ذلك ، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إياه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله ، وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو معرض الضال ليفوت عليه بقدر

تأخره . فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه فوقف ، فدفع في نحر الضال ، ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . وصر به الثالث ، فلم يلتفت إليه ، ولم يشتغل بدفعه ولا يقتاله ، بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاؤه بالكلية . فر الرابع ، فلم يتوقف له ، وأراد أن يفيظه فزاد في عجلته ، وترك الثاني في المشى . فيوشك إن عادوا وصروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير ، فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعماله فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن بزغانه ، فهل يجب التردد قبل حضوره للحذر منه إنتظار الوروده ، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالمعبادة والنفقة عنه ؟ قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان ، لأنهم انقطعوا إلى الله ، واشتغلوا بحبه ، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم ، وخنس عنهم ، كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنا ، فصارت ملاذ الدنيا عندهم ، وإن كانت مباحة ، كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية ، فلم يبق للشيطان إليهم سبيل ، فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن التردد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ، ونقص توكله . فن أيقن بأن لاشريك لله في تدييره فلا يحذر غيره . ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ، ولا يكون إلا ما أراه الله ، فهو الضار والنافع ، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره . فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر وقالت فرقة من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان . وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر ، وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية ، فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا . إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان وزغانه فكيف يتخلص غيرهم ! وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا . بل في صفاته الله تعالى وأسمائه ، وفي تجسده البدع والضلال وغير ذلك . ولا ينجو أحد من الخطر فيه . ولذلك قال تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسِفُ اللَّهُ مَا بَلَغَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ ثُمَّ يُجْحِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ <sup>(١)</sup> ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) « إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي » (٢) مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير . فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور . ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان . ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمان والسرور ، بعد أن قال الله لهما ( إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى \* إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى \* وَأَنْتَ لَا تَطْمَأِنُّ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ) (٣) ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة ، وأطلق له وراء ذلك ما أراد . فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمان والسعادة من كيد الشيطان ، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا ، وهي منبع المحن والفتن ، ومعدن الملاذ والشهوات المنهى عنها ! وقال موسى عليه السلام ، فيما أخبر عنه تعالى ( هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ) (٤) ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى ( يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ ) (٥) وقال عز وجل ( إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ) (٦) والقرءان من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان . فكيف يدع الأمان منه ؟ . وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله . فإن من الحب له إمتثال أمره . وقد أمر بالحذر من العدو ، كما أمر بالحذر من الكفار . فقال تعالى ( وَليَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ) (٧) وقال تعالى ( وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ) (٨) فإذا ألزمتك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة ؛ وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يبطل مذهب الفرقة الثمانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل . فإن أخذ الترس والسلاح ، وجمع الجنود ، وحفر الخندق ، لم يقده في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكيف يقده

(١) حديث أنه ليغان على قلبي : تقدم

(٢) حديث أن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير : تقدم أيضا .

(١) طه : ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ . (٢) القصص : ١٥٠ ( ٣ و ٤ ) الأعراف : ٢٧ (٥) النساء : ١٠٢ و (٦) الأعراف : ٦٠

في التوكل الخوف مما خوف الله به ، والحذر مما أمر بالحذر منه ! . وقد ذكر نافي كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية . وقوله تعالى ( وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ <sup>(١)</sup> ) لا يناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع ، والمحيي ، والمميت هو الله تعالى . فكذلك يحذر الشيطان ويمتقد أن الهادي والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه في التوكل وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله ، وهو الصحيح الذي يشهدله نور العلم . وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يفزر عليهم ، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام ، وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر . فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدو ، فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره ، والحذر منه ، والترصد له فإننا إن غفلنا عنه لحظة ، فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله ، واشتغال الهم كله بالشيطان ، وذلك مراد الشيطان منا ، بل نستغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ، ولا ننسى الشيطان وعداوته ، والحاجة إلى الحذر منه . فنجمع بين الأمرين فإننا إن نسينا ربحنا معرض من حيث لا نحسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله . فالجمع أولى وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان . أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله ، فلا يخفى غلظه . وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر ، فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا ، وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى . فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب ، وليس فيه ورذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به ، فيوشك أن يظفر به ، ولا يقوى على دفعه . فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ، ولا بإدمان ذكره . وأما الفرقة الثانية : فقد شاركت الأولى ، إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبفدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله . وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ، إبليس وغيره . فالخلق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ، ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به ، وسكن الحذر فيه ، فيشتغل بذكر الله ، ويكسب

(١) الأنفال : ٦٠



عليه بكل الهمة ، ولا يخطر بباله أمر الشيطان . فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ، ثم خطر الشيطان له تنبيه له : وعند التنبيه يشتغل بدفعه . والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان . بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيلزم نفسه الحذر ، وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت ، فيتنبه في الليل مرات قبل أوائه ، لما أسكن في قلبه من الحذر . مع أنه بالنوم غافل عنه . فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبيهه ، ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو ، إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى ، وأحيأ فيه نور العقل والعلم ، وأماط عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده ، وأزموها الحذر ، ثم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفَعُوا بِالذِّكْرِ شَرَّ الْعَدُوِّ ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي . فالاشتغال بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر . والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد ترح الماء القذر من جانب ، ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر ، فيطول تبعه ، ولا تجف البئر من الماء القذر . والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدا ، وملاها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ، ومؤنة ، وزيادة تبعه

## بيان

الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص ، والنجاة من الرياء . وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير . ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين . ولكن في الإظهار أيضا فائدة . ولذلك أثني الله تعالى على السر والملائية فقال ( **إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ** )<sup>(١)</sup> والإظهار قسمان . أحدهما في نفس العمل ، والآخر بالتحدث بما عمل القسم الأول : إظهار نفس العمل ، كالصدقة في الملاء ترغيب الناس فيها . كما روى عن الأنصاري

(١) البقرة : ٢٧١

الذي جاء بالبصرة ، فتتابع الناس بالمعوية لما رأوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم  
 (١) « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ » ، وتجري سائر  
 الأعمال هذا المجرى من الصلاة ، والصيام ، والحج ، والنزوة وغيرها ، ولكن الاقتداء  
 في الصدقة على الطبايع أغلب . نعم التمازي إذا هم بالخروج ، فاستعد وشد الرحل قبل القوم ،  
 تحريضا لهم على الحركة ، فذلك أفضل له . لأن النزوة في أصله من أعمال العلانية لا يمكن  
 إسراره . فالمبادرة إليه ليست من الإعلان ، بل هو تحريض مجرد . وكذلك الرجل قد يرفع  
 صوته في الصلاة بالليل ، لينبه جيرانه وأهله ، فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد  
 والجمعة ، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء  
 وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة ، فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ،  
 ويرغب الناس في الصدقة ، فالسر أفضل . لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء ، فقد  
 اختلف الناس في الأفضل . فقال قوم السر أفضل من العلانية ، وإن كان في العلانية قدوة  
 وقال قوم السر أفضل من علانية لاقدوة فيها . أما العلانية للقدوة فأفضل من السر .  
 ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء ، وخصهم بمنصب النبوة  
 ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ، ويدل عليه قوله عليه السلام « لَهُ أَجْرُهَا  
 وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » وقد روى في الحديث (٢) أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية  
 سبعين ضعفا . ويضاعف عمل العلانية إذا استن بها على عمل السر سبعين ضعفا . وهذا  
 لا وجه للخلاف فيه ، فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء ، وتم الإخلاص على وجه

( ١ ) حديث من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه : وفي أول قصة مسلم من حديث

جرير بن عبد الله البجلي

( ٢ ) حديث ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن به على عمل

السر سبعين ضعفا : البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصر على الشطر الأول بنحوه وقال  
 هذا من أفراد بقية عن شيوخه الجهوليين وقد تقدم قبل هذا بنحوين وله من حديث ابن عمر  
 عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن  
 عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أضعاف الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على  
 الذي يسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف

واحد في الحالتين ، فما يقتدى به أفضل لا محالة . وإنما يخاف من ظهور الرياء ؛ ومهما حصلت شائبة الرياء ، لم ينفعه اقتداء غيره ، وهلك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيفتان

إحداها : أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به ، أو يظن ذلك ظنا . ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا ظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق ، وذموه ولم يقتدوا به . فليس له الإظهار من غير فائدة . وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ، ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به

والثانية : أن يراقب قلبه . فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي ، فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجمل بالعمل ، وبكونه يقتدى به . وهذا حال كل من يظهر أعماله ، إلا الأقوياء المخلصين ، وقليل مأم . فلا ينبغي أن يمدح الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر . فإن الضعيف مثاله مثال الفريق الذي يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الفريقي فرحمهم ، فأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك . والفرق بالماء في الدنيا أمله ساعة . ولت كان الهلاك بالرياء مثله . لا بل عذابه دائم مدة مديدة . وهذه مزية أقدام العباد والماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص ، فتحبط أجورهم بالرياء . والتفطن لذلك غامض . ومحك ذلك أن يمرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعباد آخر من أقرانك ، ويكون لك في السر مثل أجر الإيلاء . فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به ، وهو المظهر للعمل ، فباعته الرياء دون طلب الأجر ، واقتداء الناس به ، ورغبتهم في الخير . فإنهم قدر غبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع أسراره ، فأبال قلبه يميل إلى الإظهار ، ولو لملاحظته لأعين الخلق ومرآتهم . فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع ، والشيطان مترصد ، وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات ، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئا والسلامة في الإخفاء وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا . فالخذر من الإظهار أولى بنا ويجمع الضعفاء

القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ . وحكمه حكم إظهار العمل نفسه . والخطر في هذا أشد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء ، لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها . فهو من هذا الوجه أهون . والحكم فيه أن من قوى قلبه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس في عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به ، والرغبة في الخير بسببه ، فهو جائز . بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسامت عن جميع الآفات . لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ . ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر ، لأنني لأدري أيهما خير لي وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتعنتت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه <sup>(١)</sup> ما تعنتت ، ولا تمنيت ، ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال شداد بن أوس : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه . وكان قد قال لعلامة : اتنا بالسفرة لتبعث بها حتى ندرلك الغداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تبكوا علي ، فإنني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما قضى الله في قضاء قط فسرتني أن يكون قضى لي بغيره . وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المرااة إذا صدرت ممن يراني بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها . فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال ، والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء . بل إظهار المراني للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء ، فيه خير كثير للناس ، ولكنه شر للمرائي .

(١) حديث عثمان قوله ما تعنتت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو يعلى الموصلي في معجمه باسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديثه وأن عثمان قال يارسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذلك باعثنان .

فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مرء عند الله . وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح ، فيسمع أصوات المصلين بالقرءان من البيوت . فصنف بعضهم كتابا في دقائق الرياء ، فتركوا ذلك ، وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف . فأظهر المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رباؤه .<sup>(١)</sup> وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم ، كما ورد في الأخبار . وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم ، والله تعالى أعلم

## بيان

الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له

إعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والملائية ، كما قال عمر رضى الله عنه لرجل : عليك بعمل الملائية . قال يا أمير المؤمنين وما عمل الملائية ؟ قال ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه . وقال أبو مسلم الخولاني : ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه ، إلا إتياني أهلي ، والبول ، والفائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه ، وهو يخفيها ، ويكره إطلاع الناس عليها ، لاسيما ما محتجج به الخواطر في الشهوات والأمانى . والله مطلع على جميع ذلك . فإرادة العبد لإخفائها عن العيود ربما يظن أنه رياء محذور ، وليس كذلك . بل المحذور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى ، مع أنه ليس كذلك . فهذا هو ستر المرائي . وأما الصادق الذي لا يرائي ، فله ستر المعاصي ، ويصح قصده فيه ، ويصح اغتمامه بإطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه الأول : أن يفرح بستر الله عليه . وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره ، وخاف أن يهتك ستره في القيامة . إذ ورد في الخبر<sup>(٢)</sup> أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنبا ، ستره الله عليه في الآخرة . وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان

(١) حديث إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم : بها جمعلان فالأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضا (٢) حديث أن من ستر الله عليه في الدنيا يستره الله عليه في الآخرة : تقدم قبل هذا بقرينة

الثاني : أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ، ويجب سترها ، كما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَادُورَاتِ فَلَيْسَتْ بِسِتْرِ اللَّهِ » فهو وإن عصى الله بالذنب ، فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكرامة الله لظهور المعاصي . وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ، وينتم بسببه الثالث : أن يكره ذم الناس له به ، من حيث أن ذلك يغمه ، ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى . فإن الطبع يتأذى بالذم ، وينازع العقل ، ويشغل عن الطاعة . وبهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان . إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان الرابع : أن يكون ستره ورغبته فيه لكرامته لدم الناس من حيث يتأذى طبعه فإن الذم مؤلم للقلب ، كما أن الضرب مؤلم للبدن . وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ، ولا الإنسان به عاص . وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ، ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم . وليس يجب على الإنسان أن لا ينتم بدم الخلق ولا يتألم به ، نعم : كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق ، فيستوى عنده ذامه ومادحه ، لعله أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون . وذلك قليل جدا . وأكثر الطبائع تتألم بالذم ، لما فيه من الشعور بالنقصان . وزب تألم بالذم محمود ، إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين ، فإنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى ، وعلى تقصان في الدين . فكيف لا ينتم به ! نعم : الغم المذموم هو أن ينتم لقوات الحمد بالورع ، كأنه يجب أن يحمد بالورع . ولا يجوز أن يجب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره . فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكرهية والرد . وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع ، فليس بمذموم . فله الستر حذرا من ذلك . ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يجب الحمد ، ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا و ذما . فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ، إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم . وأما الذم فإنه مؤلم . فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال . وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد

(١) حديث من ارتكب من هذه القادورات شيئا فليست بستر الله : الحاكم في المستدرک وقد تقدم

وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله . فإن ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر

الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذم قد عصى الله تعالى به . وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا ، فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره ، بخلاف التوجع من جهة الطبع السادس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه . وهذا وراء ألم الذم . فإن الذم مؤلم من حيث يشمر القلب بنقصانه وخسته ، وإن كان ممن يؤمن شره . وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه

السابع : مجرد الحياء ، فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر . وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل ، فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه . وهو وصف محمود ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْخَيْرِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَيَّ الْحَلِيمَ » فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس ، جمع إلى الفسق التهنك ، والوقاحة ، وفقد الحياء . فهو أشد حالا ممن يستر ويستحي . إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ، ومشتبه به اشتباها عظيما ، قل من يتفطن له . ويدعى كل مرء أنه مستحي ، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب . بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم ، وتهيج عقبيه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ، ويتصور أن يرأى معه . ويبانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ، ونفسه لا تسخو بإفراضه ، إلا أنه يستحي من رده . وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ، ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب . فله عند ذلك أحوال أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي ، فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لاهياء له

(١) حديث الحياء خير كله : مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٢) حديث الحياء شعبة من الايمان : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٣) حديث الحياء لا يأتي إلا بخير : متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث ان الله يحب الحي الحليم : الطبراني من حديث فاطمة والبرار من حديث أبي هريرة ان الله يحب الحي الحليم

الحليم اللتعفف وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

فإن المستحي إما أن تملأ أو يقرض . فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال . أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء ، بأن يهيج الحياء فيقبل عند الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي أن تعطى حتى يثني عليك ، ويحمدك ، وينشر اسمك بالسخاء . أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل . فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء، وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء . ويبقى في نفسه البخل، فيتعذر الإيعطاء . فيهيج داعي الإخلاص ويقول له . إن الصدقة واحدة ، والقرض بثان عشرة ، ففيه أجر عظيم ، وإدخال سرور على قلب صديق . وذلك محمود عند الله تعالى . فتسخر النفس بالإيعطاء لذلك ، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ، ولا خوف من مذمته ، ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه ، فأعطاه بحض الحياء ، وهو ما يجده في قلبه من أم الحياء ولولا الحياء لرده . ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجنبي أو الأراذل ، لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه . فهذا مجرد الحياء ، ولا يكون هذا إلا في القبائح ، كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرائي يستحي من المباحات أيضا ، حتى أنه يرى مستجلا في المشي فيعود إلى الهدوء ، أو ضاحكا فيرجع إلى الاتقياض ، ويزعم أن ذلك حياء ، وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف ، وهو صحيح . والمراد به الحياء مما ليس بقبيح ، كالحياء من وعظ الناس ، وإمامة الناس في الصلاة . وهو في الصبيان والنساء محمود ، وفي العقلاء غير محمود وقد شاهد معصية من شيخ ؛ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه ، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم . وهذا الحياء حسن . وأحسن منه أن تستحي من الله ، فلا تضع الأمر بالمعروف ، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس ، والضعيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب

الثامن : أن يخلف من ظهور ذنبه أن يستجريء عليه غيره ويقتدى به . وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة ، وهو التقوى . ويختص ذلك بالآئمة أو بمن يقتدى به . وهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفى العاصي أيضا معصيته من أهله وولده ، لأنهم يتعلمون منه ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية . وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ومنها ما يستتر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه نورح وكان من أئمتنا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة



فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح ، وحبهم إياه بسببه ، وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> . « دلني على ما يحبني الله عليه ، ويحبني الناس ، قال « ازهد في الدنيا يُحبك الله ، وابتد إليهم هذا الحطام يُحبوك »  
فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا ، وقد يكون محمودا ، وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك . فإنه تعالى إذا أحب عبدا حبه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حبك ، وغزوك ، وصلاتك ، وعلى طاعة بيمينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة . فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال ، فلا فرق بينهما

## بيان

ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرئياً به . وذلك غلط وموافقة للشيطان . بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما ذكره وهو أن الطاعات تنقسم إلى مالآذة في عينه ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والغزو ، فإنها مقاساة ومجاهدات ، إنما تصير لذيدة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذيد ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى ما هو لذيد ، وهو أكثر مما لا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق ، كالخلافة ، والقضاء ، والولايات ، والحسبة ، وإمامة الصلاة ، والتذكير والتدريس ، وإتفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ، ولما فيه من اللذة . القسم الأول ، الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ، ولآذة في عينها كالصوم ، والصلاة ، والحج . فخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداهما ما يدخل قبل العمل ، فيميت على الابتداء لرؤية الناس ، وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه يعصبة لاطاعة فيه .

(١) حديث قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله - الحديث : ابن ماجه

من حديث سهل بن سعد بلفظ « ازهد في أيدي الناس » وقد تقدم

فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة . فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ، ويقول لها : ألتستحيين من مولاك ، لانسخين بالعمل لأجله ، وتسخين بالعمل لأجل عباده ، حتى يندفع باعث الرياء ، وتسخو النفس بالعمل لله ، عقوبة للنفس على خاطر الرياء ، وكفارة له ، فليشتغل بالعمل

الثانية : أن ينبعث لأجل الله ، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها . فلا ينبغي أن يترك العمل ، لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرع في العمل ، وليجاهد نفسه في دفع الرياء ، وتحصيل الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها ، من إزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول الثالثة : أن يعقد على الإخلاص ، ثم يطرأ الرياء ودواعيه . فينبغي أن يجاهد في الدفع ، ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص . ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتم العمل . لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت ، فيدعوك إلى الرياء . فإذا لم تجب ودفعت ، بقي يقول لك . هذا العمل ليس بخالص ، وأنت مرء ، وتعبك ضائع فأى فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه ؟ حتى يحمك بذلك على ترك العمل . فإذا تركته فقد حصلت غرض ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرأيا ، كمن سلم إليه مولاة حنطة فيها زؤان وقال خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة ، فيترك أصل العمل ، ويقول أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا فترك العمل من أجله ، وهو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلامعنى له ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مرء ، فيعصون الله به فهذا من مكاييد الشيطان . لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم إن كان فلا يضره قبولهم ، ويفوته ثواب العبادة . وترك العمل خوفا من قولهم إنه مرء هو عين الرياء ، فلولا حبه لمحمدتهم ، وخوفه من ذمهم ، فإله ولقولهم قالوا إنه مرء أو قالوا إنه مخلص ؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال إنه مرء ، وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر ، بل ترك العمل أشد من ذلك

فهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال . ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل ، والشيطان لا يخليه ، بل يقول له الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لا يشتبهى الشهرة . فيضطرك بذلك إلى أن تهرب . فإن هربت ودخلت

سرباً تحت الأرض ، ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم ، وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك . فكيف تتخلص منه ؟ بل لانجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء ، وهو أنه ضرر في الآخرة ، ولا نفع فيه في الدنيا ، لتلزم الكراهة والإياء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي ، وإن نزع العدو نازغ الطبع ، فإن ذلك لا ينقطع . وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات

فما دمت تجذب باعثاً دينياً على العمل ، فلا تترك العمل ، وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعيتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك . بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك ، وعقوبة لنفسك ، فافعل . فإن قال لك الشيطان أنت مرء ، فاعلم كذبه وخذعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء ، وإيائه ، وخوفك منه ، وحيائك من الله تعالى . وإن لم تجد في قلبك له كراهية ، ومنه خوفاً ، ولم يبق باعث ديني ، بل تجرد باعث الرياء ، فترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب ، فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال ، لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمي : إذا أعجبتك الكلام فاسكت . وإذا أعجبتك السكوت فتكلم وقال الحسن : إن كان أحدم ليمر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة . وكان أحدم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة

فلنا هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ ، أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء ، وإمالة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه . وبالجملة ترك النوافل جائز . والكلام في الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء : فالأفضل أن يتم العمل ويجتهد في الإخلاص ، ولا يتركه . وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف . فالافتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء . وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف ، فيمكن أن يكون لعله بأنه سينحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله ، واستئنافه بعد خروجه للاستغلال بحالته . فرأى أن لا يراه في القراءة

أبعد عن الرياء ، وهو سازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة ، وإقبال الناس عليه ، وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق . فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها ، لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمي إذا أعجبتك الكلام فاسكت ، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام ، كالفصاحة في الحكايات وغيرها ، فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور . فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب . فأما الكلام الحق المنسوب إليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني . وإنما كلامنا في العبادات الخاصة بيدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات . ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإمالة الأذى لخوف الشهرة ، ربما كان حكاية أحوال الضمفاء الذين لا يعرفون الأفضل ، ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة ، وزجراً عن طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق ، وتعظم فيه الآفات والأخطار . وأعظمها الخلابة ، ثم القضاء ، ثم التذكير والتدريس والفتوى ، ثم إنفاق المال .

أما الخلابة والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَيَوْمٍ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَخَدَهُ سِتِّينَ عَامًا » فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ثَلَاثَةَ الْإِمَامِ الْمَقْسُطِ » أحدهم . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ » أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ انْقِيَامَةِ إِمَامٍ عَادِلٍ » رواه أبو سعيد الخدري

( ١ ) حديث ليوم من امام عادل خيره من عبادة الرجل وحده ستين عاماً: الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم

( ٢ ) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط: مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث

ذو سلطان مقسط به الحديث : ولم أرفيه ذكر الاولية

( ٣ ) حديث أبي هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل: تقدم

( ٤ ) حديث أبي سعيد الخدري أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة امام عادل: الاصبهاني في الترغيب والترهيب

من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه وفيه أيضاً إسحاق بن إبراهيم اللبباجي ضعيف أيضاً

فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات . ولم يزل المتقون يتكونها ، ويحترزون منها ، ويهربون من تقلدها ، وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ، ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر ، وهو أعظم ملاذ الدنيا . فإذا صارت الولاية محبوبة ، كان الوالى ساعياً في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه ، فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقاً . ويقدم على ما يزيد في مكاتبه وإن كان باطلاً . وعند ذلك يهلك ؛ ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة ، بمفهوم الحديث الذي ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضى الله عنه يقول ما يأخذها بما فيها . وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا مِنْ وَائِلِي عَشْرَةَ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُوبٌ يَدُهُ إِلَى عُقْبِهِ أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ » رواه معقل بن يسار . وولاه عمر ولاية ، فقال يأمر المؤمنين أشر على ، قال اجلس واكتم على وروى الحسن ، أن رجلاً ولاه النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> ، فقال للنبي خرى ، قال « اجلس » وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعْنِتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلَّتْ إِلَيْهَا » وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر . لا تأمر على اثنين ، ثم ولى هو الخلافة فقام بها . فقال له رافع

( ١ ) حديث مامن والى عشرة الاجاء يوم القيامة يده مغلوله الى عنقه لا يمكنها إلا عدله : أحمد من حديث عبادة ابن الصامت ورواه أحمد والبرار من روايه رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيها يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبرار وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البرار والطبرانى من حديث بريدة والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء مامن والى ثلاثة إلا لقي الله . مغلوله يمينه - الحديث : وقد عزي المصنف هذا الحديث : لرواية معقل بن يسار والعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يعطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة : متفق عليه

( ٢ ) حديث الحسن . ان رجلاً ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم خرى قال اجلس الطبرانى موصولاً من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكورة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق

( ٣ ) حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة - الحديث : متفق عليه

ألم تقل لي لا تأمر على اثنين ، وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال بلى وأنا أقول لك ذلك ، فمن لم يعدل فيها فليبهله الله . يعنى لعنة الله . ولعل القابل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهى عنها متناقضا ، وليس كذلك . بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين ، لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات . وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا . وأعنى بالقوى الذى لا يميله الدنيا ، ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم ، وزهدوا في الدنيا ، وتبرموا بها ، وبمخالطة الخلق ، وقهروا أنفسهم وملكوها ، وقموا الشيطان فأيس منهم . فهو لاء لا يجرهم إلا الحق ، ولا يسكنهم إلا الحق ، ولو زهقت فيهم أرواحهم . فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة . ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات ومن جرب نفسه فرأها صابرة على الحق ، كافة عن الشهوات في غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذقت لذة الولاية ، وأن تستحلى الجاه ، وتستلذ نفاذ الأمر ، فتركه العزل ، فيدهن خيفة من العزل ، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية . فقال قائلون لا يجب ، لأن هذا خوف أمر في المستقبل ، وهو في الحال لم يهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس . والصحيح أن عليه الاحتراز ، لأن النفس خداعة ، مدعية للحق ، واعدة بالخير . فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية . فكيف إذا أظهرت التردد ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع . فالعزل مؤلم . وهو كما قيل : العزل طلاق الرجال . فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق ، وتهوى به في قعر جهنم . ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت ، إلا أن يعزل قهرا . وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية ، وحملت على السؤال والطلب ، فهو إمارة الشر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنَّا لَأَنْوَلِي أُمَّرًا مَنْ سَأَلَنَا » فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف ، علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ، ثم تقلده لها ليس بمتناقض

(١) حديث إننا لنؤلى أمرنا من سألناه : متفق عليه من حديث أبى موسى

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة ، فهو في معناها . فإن كل ذى ولاية أمير . أى له أمر نافذ . والإمارة محبوبة بالطبع . والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ » وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « مَنْ اسْتَقْضَى فَقَدْ ذَبَحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ » فحكمه حكم الإمارة ، ينبغى أن يتركه الضعفاء ، وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه . وليقلده الأقوياء ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظالمة ، ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بعداهنتهم ، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ، ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه ، أو لم يطيعوه . فليس له أن يتقصد القضاء . وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ، ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له في الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت المهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله . فإن لم تسمح نفسه بذلك ، فهو إذا يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ، وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار ؟ . وأما الوعظ ، والفتوى ، والتدريس ، ورواية الحديث ، وجمع الأسانيد العالية ، وكل ما يتسع بسببه الجاه ، ويعظم به القدر ، فأنته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات . وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا . ومن قال حدثنا فقد قال أو سعوا لى ودفن بشر كذا وكذا قطر من الحديث ، وقال ينعنى من الحديث أنى أشهى أن أحدث ولو اشتبهت أن لا أحدث لحديث والواعظ يحد في وعظه وتأثر قلوب الناس به ، وتلاحق بكائهم ، وزعقاتهم ، وإقبالهم عليه ، لذة لا تبواز بها لذة . فإذا غلب ذلك على قلبه ، مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام ، وإن كان باطلا . ويفر عن كل كلام يستثقله العوام ، وإن كان حقا . ويصير مصروف الهمة بالسكينة إلى ما يحرك قلوب العوام ، ويعظم منزلته في قلوبهم ، فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر . وكان ينبغى أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة ، وطريق سلوك سبيل الدين ، ليحمله به أولا

(١) حديث القضاء ثلاثة - الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم في العلم وإسناده صحيح  
(٢) حديث من استقضى فقد ذبح بغير سكين : أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ من جعل قاضيا  
وفي رواية من ولي القضاء ، بلسانه صحيح

ثم يقول : إذا أنعم الله على هذه النعمة ، ونفنى بهذه الحكمة ، فأقصها ليشاركى في نفعها إخوانى المسلمون . فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة ، فحكمه حكم الولايات . فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة ، والأكل بالدين ، والتفاخر والتكاثر . فينبغى أن يتركه ويخالف الهوى فيه . إلى أن تراض نفسه ، وتقوى في الدين همته ، ويأمن على نفسه الفتنة . فعند ذلك يعود إليه <sup>١</sup> فإن قلت : مهيا حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست ، وعم الجاهل كافة الخلق فنقول : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> عن طلب الإمارة ، وتوعد عليها ، حتى قال <sup>(٢)</sup> « إِنَّكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا » وقال <sup>(٣)</sup> « نِعْمَتِ الْمَرْضِعَةِ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ » ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا ، وثار القتال بين الخلق ، وزال الأمن ، وخربت البلاد وتعطلت المعاش . فلم نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبى بن كعب حين رأى قوما يتبعونه ، وهو فى ذلك يقول أبى سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع ، ومذلة على التابع . وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح ، فنع . فقال أمتنعى من نصح الناس ؟ فقال أخشى أن تنفخ حتى تبلغ الثريا ، أذرى فى مخايل الرغبة فى جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه فى دينهم ، كالوعظ والتدريس والفتوى . وفى كل واحد منهما فتنة ولذة ، فلا فرق بينهما فأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدى إلى اندراس العلم ، فهو غلط . إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء . بل الرياسة وحها يضطر الخلق

(١) حديث النهى عن طلب الإمارة ، وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة لانسلى الإمارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث

(٢) حديث انكم تحرصون على الإمارة وانها حسرة وندامة الامن أخذها بحقها : البخارى من حديث

أبى هريرة دون قوله الامن أخذها بحقها وزاد فى آخره فنعمت المرصعة وبئست الفاطمة ودون

قوله حسرة وهى فى صحيح ابن حبان

(٣) حديث نعمت المرصعة وبئست الفاطمة : البخارى من حديث أبى هريرة وهو تقييد الحديث الذى قبله

ورواه ابن حبان بلفظ فيئست المرصعة وبئست الفاطمة

(٤) حديث النهى عن القضاء : مسلم من حديث أبى ذر لا تؤمرن على اثنين ولا تين مال يتيم



إلى طلبها . وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تدرس . بل لوجس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة ، لأفلقوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . فلا تشغل قلبك بأمر الناس ، فإن الله لا يضيعهم . وانظر لنفسك . ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا ، فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم . وإلا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ، ولا يتركون لذة الرياسة . فإن لم يكن في البلد إلا واحد ، وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه . وحسن سمته في الظاهر ، وتحويله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك للدينا ومعرض عنها ، فلا تمنعه منه ، وتقول له اشتغل وجاهد نفسك . فإن قال لست أقدر على نفسي ، فنقول اشتغل وجاهد ، لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك للناس كلهم إذ لا قائم به غيره . ولو واظب وغمضه الجاه ، فهو الهالك وحده . وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ، وتقول لعل هذا هو الذمى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلْقَ لَهُمْ » ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ، ويزهده في الدنيا بكلامه ، وبظواهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار ، من الكلمات المزخرفة ، والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار ، مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين ، وتخويف للمسلمين ، بل فيه الترجية والتجربة على المعاصي بطيرات النسكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم ، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ ، جميل الظاهر ، يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره . وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ، ما بين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام : يا علماء السوء ، تصومون وتصلون ، وتتصدقون ، ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون ما لا تعملون ، فياسوء ما تحكمون تنوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ، وما يفتى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لا تكونوا كالمخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم: النسائي وقد تقدم قريبا

كذلك أتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الفل في صدوركم . يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم . فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى ناس أحسن منكم ؟ لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للدجلين ، وتقيمون في محلة التجبرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا لينزكوها لكم ، مهلا مهلا ويلكم ماذا يفنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لا يفنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة معطلة . يا عبيد الدنيا ، لا كبيباتقياء ، ولا كأحرار كرام . توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى . فيوقفكم على سواترهم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ، ثم قال . هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة وأذوا الدين للدنيا . فهم في العاجل عار وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ، ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَأَنَّ يَهْدِيَّ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى وَاتَّبَعَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ » إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغي أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مرآة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة لا تترك العمل ، ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك فاعلم أن فضل العلم كبير ؛ وخطره عظيم . كفضل الخلافة والإمارة . ولا نقول لأحد

(١) حديث لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها متفق عليه من حديث سهل بن سعد

بلفظ خير لك من حمر النعم وقد تقدم في العلم

(٢) حديث أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه: ابن ماجه من حديث أنس بزيادة

في أوله وسلم من حديث أبي هريرة من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه - الحديث:

من عباد الله ترك العلم ، إذ ليس في نفس العلم آفة . وإنما الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث . ولا تقول له أيضا تركه مادام يجد في نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء ، . أما إذا لم يحركه إلا الرياء ، فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها . أما إذا خطر له وسوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره ، فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم في الولايات ، وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم ، وبالجملة فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات ، والآفات فيها عظيمة . وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة . الثانية : الصوم ، والصلاة ، والحج ، والنزوة . وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة ، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها ، والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة .

الثالثة : وهي متوسطة بين الرتبتين ، وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى ، والرواية والتدريس . والآفات فيها أقل مما في الولايات ، وأكثر مما في الصلاة . فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي ، ولكن يدفع خاطر الرياء . والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء . ومناصب العلم بينهما . ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاية أشبه ، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم ، والله أعلم

وهنا رتبة رابعة ، وهي جمع المال ، وأخذ للفرقة على المستحقين . فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلابا للشاء ، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس . والآفات فيها أيضا كثيرة . ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به ، فقال القاعد أفضل . لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا ، وأن من للزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء ما يسرني أني أقت على درج مسجد دمشق أصيب بكل يوم خمسين دينارا أنصدق بها . أما إني لأحرم البيع والشراء ، ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وقد اختلف العلماء ، فقال قوم إذا طلب الدنيا من الحلال ، وسلم منها ، وتصدق بها ، فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل . وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله .

وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبر . وقال : أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله ، وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات فأما من يتعرض لآفة الرياء ، فتركها لها أبر ، والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل وبالجملة ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مشار الآفات . والأحب أن يعمل ويدفع الآفات فإن عجز فلينظر ، وليجتهد ، وليستفت قلبه ، وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يعيل إليه الطبع . وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لا تشير إلا بالشر ، ولما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال . وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات . فهو موكل إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ، ويدع ما يريه إلى ما لا يريه

ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل ، فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ، وهو عين البخل . ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل ترك الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر وذلك لما في الكسب من الآفات فأما المال الحاصل من الحلال ، فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال فإن قلت فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مرید رياء الناس ؟ . فاعلم أن لذلك علامات

إحداها : أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا ، أو أغز منه علماء ، والناس له أشد قبولاً فرخ به ولم يحسده . نعم : لا بأس بالغبطة ، وهو أن يتنى لنفسه مثل علمه

والأخرى : أن الأكاثر إذا حضروا مجلسه ، لم يتغير كلامه . بل بقي كما كان عليه . فينظر إلى الخلق بعين واحدة . والأخرى أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشى خلفه في الأسواق ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها . وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال

كنت جالسا إلى جنب الحسن ، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على بردون أصفر . فدخل المسجد على بردونه ، فجعل يلتفت في المسجد ، فلم ير خلفه أحقل من حلقة الحسن ، فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثني وركه فنزل ومشى نحو الحسن . فلما رآه الحسن متوجها إليه ، تجأني له عن ناحية مجلسه . قال سعيد : وتجايفت له أيضا

عن ناحية مجلسي ، حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج . فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه ، والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم فاقطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت في نفسي لأبلون الحسن اليوم ، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه ينقرب إليه ، أو يحمل الحسن هيئة الحجاج أن ينقص من كلامه . فتكلم الحسن كلاما واحدا ، نحو مما كان يتكلم به في كل يوم ، حتى انتهى إلى آخر كلامه . فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكثرت به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال . صدق الشيخ وبر . فليكن بهذه المجالس وأشباهاها ، فأتخذوها حلقا وعادة ، فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، <sup>(١)</sup> أن مجالس الذكر رياض الجنة . ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس ، لمعرفتنا بفضلها . قال ثم اقتصر الحجاج ، فتكلم حتى عجب احسن ومن حضر من بلاغته . فلما فرغ طفق فقام . فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج ، فقال عباد الله المسلمين ، ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير ، وأني أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ، وأن لي ثلثمائة درهم من العطاء ، وأن لي سبع بنات من العيال ! فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه ، والحسن مكب . فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه ، فقال ما لهم قاتلهم الله أتخذوا عباد الله خولا ، ومال الله دولا ، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم . فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة ، وعلى البغال السباقة . وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا . فاقتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه . فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن ، فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه . فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج ، فقالوا أجب الأمير . فقام الحسن ، وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به . فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم ، ولما رأيته فاغرا فاه يضحك ، إنما كان يتبسم . فأقبل حتى قعد في مجلسه ، فمظم الأمانة ، وقال إنما تجالسون بالأمانة ، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم . إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل ، فنطمئن إلى جانبه ، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار

( ١ ) حديث ان مجالس الذكر رياض الجنة: تقدم في الاذكار والدعوات

إني أتيت هذا الرجل ، فقال أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا ، لأبالك ، تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا تنهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك . قال فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد المنزل ، فينما هو يسير إذ التفت فرأى قوما يتبعونه ، فوقف فقال : هل لكم من حاجة ؟ أو تسألون عن شيء ؟ وإلا فارجموا ، فما يبقى هذا من قلب العبد . فهذه العلامات وأمثالها تبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغاïرون ويتحاسدون ، ولا يتوانسون ولا يتعاونون ، فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين

## بيان

ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع ، فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يمتاده . أو يصلى ، مع أنه كان لا يمتاد الصلاة بالليل أصلا . وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع ، فينبعث له نشاط في الصوم ، ولو لا هم لما انبعث هذا النشاط . فهذا ربما يظن أنه رياء ، وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى ، وفي قيام الليل وصيام النهار . ولكن قد تموقه الموائق ، ويمنعه الاشتغال ، ويغلبه التمكن من الشهوات . أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع الموائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل في منزله ، فتقطعه الأسباب عن التهجد ، مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجته ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده ، أو مطالعة حساب له مع معامليه . فإذا وقع في منزل غريب ، اندفعت عنه هذه الشواغل التي تقتر رغبته عن الخير ، وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كشاهدته إيام وقد أقبلوا على الله ، وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينفسهم ، ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله ، فتتحرك داعيته للدين لا للرياء . أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع ،

أو سبب آخر ، فيغتم زوال النوم ، وفي منزله ربما يغلبه النوم . وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام ، والنفس لا تسمح بالتهجد دائما ، وتسمح بالتهجد وقتا قليلا ، فيكون ذلك سبب هذا النشاط ، مع اندفاع سائر العوائق . وقد يسر عليه الصوم في منزله وسمه أطايب الأطعمة ، ويشق عليه الصبر عنها . فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه ، فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين . فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ، ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم . والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لا تعمل فإنك تكون مرائيا ، إذ كنت لا تعمل في بيتك ، ولا ترد على صلاتك المعتادة

وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم ، وخوفا من ذمهم وتسببهم إياه إلى الكسل لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم ، فيريد أن يحفظ منزلته . وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ؛ ولست تصل لأجلهم بل لله ، وإنما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق ، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتببه إلا على ذوى البصائر . فإذا عرف أن المحرك هو الرياء ، فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة ، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله . وإن كان انبعاثه لدفع العوائق ، وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم ، فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه ، بل من وراء حجاب ، وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه ، فإن سخت نفسه فليصل ، فإن باعته الحق وإن كان ذلك يشغل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعته الرياء .

وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط لصلاة ما لا يحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب محمدم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم ، وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى . وقد يتحرك بذلك باعث الدين ، ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد . فهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين ، فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد ، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكرهية ، ويشغل بالعبادة . وكذلك قد يبكي جماعة ، فينظر إليهم ، فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى ، لامن الرياء ، ولو سمع

ذلك الكلام وحده لما بكى . ولكن بكاء الناس يؤثر في تريق القلب . وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق ، إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه ، فيتباكى تكلفا . وذلك محمود ، وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه ، هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم ، فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبى أن يترك التباكى . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيعة ، والتنفس ، والأنين عند القرءان أو الذكر ، أو بعض مجارى الأحوال ، تارة تكون من الصدق ، والحزن والخوف ، والندم ، والتأسف ، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره ، وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن . وذلك محمود . وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ، ليعرف بذلك . فإن تجردت هذه للداعية فهى الرياء . وإن اقترنت بداعية الحزن ، فإن أباهها ولم يقبلها وكرها سلم بكاؤه وتباكيه . وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره ، وضاع سعيه ، وتعرض لسخط الله تعالى به . وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمدده ويزيد في رفع الصوت . فتلك الزيادة رياء ، وهو محذور . لأنها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء . فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت ، أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحى أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزقق ويتواجدت كلفا ، ليرى أنه سقط لكونه مغشيا عليه ، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق . وقد يزول عقله ، فيسقط ، ولكن يفيق سرىما ، فتجزع نفسه أن يقال حاله غير ثابتة ، وإنما هى كبرق خاطف ، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله . وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سرىما ، فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ، ولو كان لدام ضعفه فيستديم إظهار الضعف والأنين ، فيتكى على غيره ، يرى أنه يضعف عن القيام . ويتمايل فى المشى ، ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكابدة الشيطان



ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن ، واطلعوا على ضميره لمقتوه ، وأن الله مطلع على ضميره ، وهو له أشد مقتا . كما روى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف ، فقال يا شيخ الذى يراك حين تقوم ، فجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين . وقد جاء في الخبر « تَعَوَّدُوا (١) بِاللَّهِ مِنْ خُسُوعِ النَّفَاقِ » ، وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لحاطر خوف ، وتذكر ذنب وتندم عليه ، وقد يكون للمراآة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهى مع تقاربها متشابهة . فراقب قلبك فى كل ما يحظر لك وانظر ماهو ، ومن اين هو . فإن كان لله فأمضه ، واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شىء من الرياء الذى هو كديب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها . واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا . فإذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ، ومقته لك ، وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام ، إذ قال يا أيوب : أما علمت أن العبيد تفضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ، ويجزى بسريرته؟ وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما اللهم إني أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيتى ، وتقبح لك فيما أخلو سريرتى ، محافظا على رياء الناس من نفسى ، ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى ، أبدى للناس أحسن أمرى ، وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقربا إلى الناس بحسناتى ، وفرارا منهم إليك بسينئاتى فيحطن بى مقتك ، ويجب على غضبك . أعذنى من ذلك يارب العالمين

وقد قال أحد الثلاثة نقر لأيوب عليه السلام : يا أيوب ، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأصنعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن ، تسود وجوههم؟

(١) حديث تعوذوا بالله من خشوع النفاق: البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد

الايادى ضعفه أحمد وابن معين

فهذه جل آفات الرياء، فليراقب العبد قلبه ليتقف عليها، ففي الخبر<sup>(١)</sup> إن للرياء سبعين باباً، وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض، حتى أن بعضه مثل ديب النمل، وبعضه أخفى من ديب النمل. وكيف يدرك ما هو أخفى من ديب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة. وليته بأدرك بعد بذل المجهود. فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب، وامتحان للنفس، وتفتيش عن خدعها، تسأل الله تعالى العافية عنه وكرمه وإحسانه

## بيان

ما ينبغي للعبد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يلزم المرید قلبه في سائر أوقاته، القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله. فأما من خاف غيره وارتجاه، اشتهى إطلاعاً على محاسن أجواله. فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان، لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلى حرصاً على الإقضاء، وتقول مثل هذا العمل العظيم، أو الخوف العظيم، أو البكاء العظيم، لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك. فإني الخلق من يقدر على مثله. فكيف ترضى بإخفائه. فيجهل الناس محلك، وينكرون قدرك، ويحرمون الاقتداء بك! ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة، ودوامه أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده. ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه، وسقوط عند الله،

(١) حديث الرياء سبعون باباً هكذا ذكر المصنف هذا - الحديث : هنا وكانه تصحف عليه أو على من نقله

من كلامه أنه الرياء بالثلاثة وإنما هو الربا بالوحدة وللرسوم كتابته بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ الريا سبعون جواباً أي سرها أن ينكح الرجل أمه وفي إسناده أبو معشر وأسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الريا ثلاثة وسبعون باباً وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البراز حديث ابن مسعود بلفظ الريا بضع وسبعون باباً والشرك مثل ذلك وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه الرياء بالثلاثة لاقتراءه مع الشرك والله أعلم

وإجباط للعمل العظيم . فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق ، وهم عاجزون لا يتقدرون لي على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه .

ولا ينبغي أن ييأس عنه ، فيقول إنما يقدر على الإخلاص الأفوياء ، فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم . فيترك المجاهدة في الإخلاص . لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي ، لأن المتقي إن فسدت نوافله . بقيت فرائضه كاملة تامة . والمخلط لا تخلو فرائضه عن التقصان ، والحاجة إلى الجبران بالنوافل . فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض ، هلك به . فالمخلط إلى الإخلاص أحوج وقد روى تميم الدارى عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> أنه قال « يُجَاسِبُ التَّعَبُّدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنْ تَقَصَّ فَرَضُهُ قِيلَ انظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ فَرَضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ أُخِذَ بِطَرَفِيهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ ، فَيَأْتِي المَخْلُطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَرَضُهُ نَاقِصٌ ، وَعَلَيْهِ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ ، فَاجْتِهَادُهُ فِي جَبْرِ الْفَرَائِضِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ ، وَلَا يَمُكِّنُ ذَلِكَ إِلَّا بِمُخْلُوصِ النَّوَافِلِ . وَأَمَّا المَتَّقِيُّ ، فَجَهْدُهُ فِي زِيَادَةِ الدَّرَجَاتِ . فَإِنْ حَبِطَ تَطَوُّعُهُ بَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا يَتَرَجَّحُ عَلَى السَّيِّئَاتِ ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ . . . فَإِذَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْزِمَ قَلْبُهُ خَوْفَ إِطْلَاعِ غَيْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِتَصَحُّحِ نَوَافِلِهِ . ثُمَّ يَلْزِمُ قَلْبُهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْفَرَاحِ ، حَتَّى لَا يَظْهَرُ وَلَا يَتَحَدَّثُ بِهِ . وَإِذَا فَعَلَ جَمِيعَ ذَلِكَ . فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَجِلًا مِنْ عَمَلِهِ ، خَائِفًا أَنَّهُ رُبَّمَا دَاخِلُهُ مِنَ الرِّيَاءِ الخَفِيِّ مَا لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ ، فَيَكُونَ شَاكًا فِي قَبُولِهِ وَرَدَّهُ ، مَجُوزًا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَحْصَى عَلَيْهِ مِنْ نِيَّتِهِ الخَفِيَّةِ مَا مَقَّتَهُ بِهَا ، وَرَدَّ عَمَلَهُ بِسَبَبِهَا . وَيَكُونَ هَذَا الشُّكُّ والخَوْفُ فِي دَوَامِ عَمَلِهِ وَبَعْدَهُ لِأَنَّهُ ابْتِدَاءُ الْعَقْدِ . نَبَلٌ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُشِيقِنًا فِي الْإِبْتِدَاءِ أَنَّهُ مُخْلِصٌ ، مَا يَرِيدُ بِعَمَلِهِ إِلَّا اللَّهَ ، حَتَّى يَصِحَّ عَمَلُهُ . فَإِذَا شَرَعَ وَمَضَتْ لِحْظَةٌ يُمْكِنُ فِيهَا العَفْلَةُ والنَّسْيَانُ ، كَانَ الخَوْفُ مِنَ العَفْلَةِ عَنْ شَائِبَةِ خَفِيَّةٍ أَحْبَطَتْ عَمَلَهُ ، مِنْ رِيَاءٍ أَوْ عَجْبٍ أَوْلَى بِهِ . وَلَكِنْ يَكُونُ رَجَاؤُهُ أَغْلَبَ مِنْ خَوْفِهِ لِأَنَّهُ اسْتَيْقَنَ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْإِخْلَاصِ ، وَشَكَ فِي أَنَّهُ هَلْ أَفْسَدَهُ رِيَاءٌ ، فَيَكُونُ رَجَاءُ الْقَبُولِ أَغْلَبَ وَبِذَلِكَ تَعَظَّمَ لَدُنْهُ فِي المُنَاجَاةِ وَالطَّاعَاتِ ، فَالْإِخْلَاصُ يَقِينٌ وَالرِّيَاءُ شَاكٌ . وَخَوْفُهُ لِذَلِكَ الشُّكِّ جَدِيدٌ . بَأَن يَكْفُرَ خَاطِرُ الرِّيَاءِ إِنْ كَانَ قَدْ سَبَقَ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ . وَالَّذِي يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِالسُّبْحِيِّ فِي حَوَائِجِ النَّاسِ وَإِفَادَةِ الْعِلْمِ ، يَنْبَغِي أَنْ يَلْزِمَ نَفْسَهُ رَجَاءَ الثَّوَابِ عَلَى دُخُولِ السَّرُورِ

(١) حديث تميم الدارى في كمال فريضة الصلاة بالطوع : أبو داود وابن ماجه . وتقدم في الصلاة

على قلب من قضى حاجته فقط . ورجاء الثواب على عمل المتعلم بامله فقط ، دون شكر ، ومكافأة  
وحمد ، وثناء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فهما توقع من المتعلم مساعدة  
في شغل وخدمة ، أو مرافقة في المشى في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو تردها منه في حاجة  
فقد أخذ أجره ، فلا ثواب له غيره . نعم . إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه  
ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فترجو أن لا يحبط ذلك أجره  
إذا كان لا ينتظره ولا يريد منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء  
يحذرون هذا ، حتى أن بعضهم وقع في بئر ، فجاء قوم فأدلوها حبلاً ليرفعوه ، فحلف عليهم  
أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن ، أو سمع منه حديثاً ، خيفة أن يحبط أجره .  
وقال شقيق البلخي : أهديت لسقيان الثوري ثوباً فرده عليّ . فقلت له يا أبا عبد الله لست  
أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليّ . قال علمت ذلك ، ولسكن أخوك يسمع مني الحديث  
فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين  
وكان أبوه صديقاً لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيراً . فقال له يا أبا عبد الله في نفسك من  
أبي شيء ؟ فقال يرحم الله أباك ، كان وكان ، وأثنى عليه . فقال يا أبا عبد الله ، قد عرفت كيف  
صار هذا المال إلي ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك . قال فقبل سفيان ذلك . قال  
فلما خرج قال لولده : يا مبارك ، ألقه فرده عليّ . فرجع فقال أحب تأخذ مالك . فلم يزل به  
حتى رده عليه ، وكأنه كانت أخته مع أبيه في الله تعالى ، فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده  
فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويحك ، أي شيء قلبك هذا حجارة أعد أنه  
ليس لك عيال ، أما ترحمي ؟ أما ترحم إخوتك ؟ أما ترحم عيالك ؟ فأكرمت عليه . فقال  
لي يا مبارك ، تأكلها أنت هنيئاً مريئاً ، وأسئل عنها أنا . فإذا يجب على العالم أن يلزم  
قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط . ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله  
وطلب ثوابه ، ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أنه أن يرائي بطاعته  
ليقال عند المعلم رتبة فيتعلم منه . وهو خطأ . لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال  
والمعلم . وربما يفيد وربما لا يفيد . فكيف يخسر في الحال عملاً نقداً على ثوب علم ! وذلك غير  
جائز . بل ينبغي أن يتعلم لله ، ويعبد الله ، ويخدم العلم لله ، لا ليكون له في قلبه منزلة ؟

إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة . فإن العباد أمروا أن لا يئيدوا إلا الله ، ولا يزيدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يخدم أبويه ، لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما ، إلا من حيث أن رضا الله عنه في رضا الوالدين . ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإن ذلك معصية في الحال ، وسيكشف الله عن ذنابه ، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا . وأما الزاهد المعتزل عن الناس ، فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعماله ، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله . فإن ذلك يفرس الزياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به . وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم محله ، وهو لا يدري أنه المنخفض للعمل عليه . قال إبراهيم بن آدم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمان ، دخلت عليه في صومعته ، فقلت يا سمان منذ كم أنت في صومعتك ؟ قال منذ سبعين سنة . قلت فما طعامك ؟ قال يا حنيفة وما دعائك إلى هذا ؟ قلت أحببت أن أعلم . قال في كل ليلة حمصة . قلت فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال ترى الدير الذي بمحذاك ؟ قلت نعم : قال إنهم يأتوني في كل سنة يوما واحدا ، فيزينون صومعتي ، ويطوفون حواها ويحتملوني . فكلما تناقلت نفسي عن العبادة ذكرت لها عز تلك الساعة . فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة . فاحتمل يا حنيفة جهد ساعة لعز الأبد . فوفر في قلبك المعرفة . فقال حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى . قال انزل عن الصومعة . فنزلت . فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك . فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا يا حنيفة ، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت من قوته . قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ؟ ثم قالوا ساوم . قلت عشرون دينارا . فأعطوني عشرين دينارا . فرجعت إلى الشيخ ، فقال يا حنيفة ما الذي صنعت ؟ قلت بعته منهم . قال بهم ؟ قلت بعشرين دينارا . قال أخطأت ، لو ما ومنتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك . هذا عز من لا تعبده . فالنظر كيف يكون عز من تعبده . يا حنيفة أقبل على ربك ، ودع الذهب والجيئة . والمقصود أن استشفار النفس عن العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة ، وقد لا يشعر المبد به . فينبغي أن يلزم نفسه الخلو منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة . فلو تفرغوا عن اعتقادهم له لم يجزع ، ولم يضق به ذرعا ، إلا كراهة ضعيفة . إن وجدها في قلبه فليزدها في الحال بعمقه وإيمانه ،

فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه ، لم يزد ذلك خشوعا ، ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه . فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ، ولكن إذا قدر على رده بكرة العقل والإيمان ، وبادر إلى ذلك ، ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه ، فيرجى له أن لا ينجيب سعيه ، إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والانتباض كي لا ينسطوا إليه ، فذلك لأبأس به ، ولكن فيه غرور . إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتعلل بطلب الانتباض ، فيطالبها في دعواها قصد الانتباض بموثق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انتباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا ، أو يضحك كثيرا ، أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك . فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة ، فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله ، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان عمله ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إرالتها . فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان ، أحدهما غني والآخر فقير ، فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزرة في نفسه لا كرامة ، إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع ، فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغني . فن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر ، فهو مرء أو طماع . وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ، ويوجب إلى القلب المسكنة . والنظر إلى الأغنياء بخلافه . فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير !

وقد حكى أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء ، حتى كانوا يئتمنون أنهم فقراء في مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصدقه سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير ، لكنك لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير ألبتة ، فإن الفقير أكرم على الله من الغني فأشارك له لا يكون إلا طمعا في غناه ، ورياء له . ثم إذا سويت بينهما في المجالسة ، فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفي ، أو طمع خفي . كما قال ابن السماك لجارية له : مالى إذا أتيت بقداد فتحت لي الحكمة ؟ فقالت الطمع بشحن لسانك . وقد صدقت . فإن اللسان ينطلق عند الغني بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك محضر من الخشوع عنده مالا يحضر عند الفقير

ومكابد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينحيك منها إلا أن تخرج ماسوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة ، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكته الشهوات ، وساعدته اللذات ، ولكن في بدنه سقم ، وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات . وعلم أنه لو احتسى وجاهد شهوته ، عاش ودام ملكه . فلما عرف ذلك جالس الأطباء ، وحارف الصيادلة ، وعود نفسه شرب الأدوية المرة ، وصبر على بشاعتها وهجر بيع اللذات ، وصبر على مفارقتها . فبدنه كل يوم يزداد نحو لا لقالة أكله ، ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه . فهما نازعتا نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه ، وأداء ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته ، الموجب لشمانة الأعداء به . ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء ، الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه ، في عيش هنيء ، وبدن صحيح ، وقلب رخي ، وأمر نافذ ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ، ومصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المرید لملك الآخرة . احتسى عن كل مهلك له في آخرته ، وهي لذات الدنيا وزهرتها ، فاجتزى منها بالقليل ، واختار التحول والذبول ، والوحشة ، والحزن ، والخوف ، وترك المؤانسة بالخلق ، خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه . فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه ، وإيمانه بعاقبة أمره ؛ وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد . ثم علم أن الله كريم رحيم ، لم يزل لعباده المریدين لمرضاته عوناً ، وبهم رءوفاً ، وعليهم عطوفاً . ولو شاء لأغنام عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ، ويعرف صدق إرادتهم ، حكمة منه وعدلا . ثم إذا تحمل التعب في بدايته ؛ أقبل الله عليه بالمونة والتيسير وحط عنه الأعباء ، وسهل عليه الصبر ، وحبب إليه الطاعة ، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يليه عن سائر اللذات . ويقويه على إماتة الشهوات ، ويتولى سياسته وتقويته ، وأمدبه بموته . فإن الكريم لا يضيع سعى الراجي ، ولا ينحيب أمل المحب ، وهو الذي يقول . من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذارعا : ويقول تعالى . لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وإنى إلى لقاءهم أشد شوقا . فليظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه ، فلا يموزمه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق ، بجوده ، وكرمه ، ورافته ، ورحمته . ثم كتاب ذم الجاه والرياء ، والحمد لله وحده





## فهرست الجزء العاشر

الصفحة	الصفحة
١٧٧٢	<b>كتاب ذم البخل</b>
	وذم حب المال
	بيان ذم المال وكراهة حبه
	الاحاديث الواردة في ذم المال
	الآثار الواردة في ذم المال
	بيان مدح المال والجمع بينه وبين
	الدم
	منزلة المال في الدنيا
	بيان تفصيل آفات المال وفوائده
	فوائد المال الدينية
	الاسعانة به على العبادة
	الصدقة
	المروءة
	وقاية العرض
	الاستخدام
	الخيرات العامة
	آفات المال
	تسهيل سبل المعاصي
	التنعم وما يترتب عليه
	الانسفال بالمال عن ذكر الله تعالى
	بيان ذم الحرص والطمع ومدح
	القناعة والياس مما في ايدي
	الناس
	طمع الانسان
	مدح القناعة
	التهى عن شدة الحرص
	التهى عن الطمع
	الآثار الواردة في الطمع والقناعة
	مثال لطمع الآدمي على لسان الطيور
	طمع العالم يذهب علمه
	بيان علاج الحرص والطمع والدواء
	الذي يكتسب به صفة القناعة
	الافساد في المعيشة باب للقناعة
	هدم التفكير في رزق الفرد
	عز النفس في القناعه
	السببه بالصالحين
	صرف النظر عن هو ووفه الى من
	هو دونه في المال
	بيان فضيلة السخاء
	الاحاديث السواردة في الحث على
	السخاء
	السخاء سجرة في الجنة
	سخاء المرء يحقق دمه
	الآثار الواردة في فضل السخاء
	منهى الكرم كرم الحسن بن علي
	رضى الله عنهما
	حكايات الاسخياء
	سخاء عائشة رضى الله عنها
	سخاء عبيد الله بن عباس
	سخاء معاوية
	سخاء المأمون
	سخاء الحسن
	سخاء ابن عباس وتواضعة
	سخاء عبد الحميد بن سعد
	سخاء أبى طاهر بن كثير
	سخاء أبى مرثد
	سخاء معن بن زائدة
	سخاء الحسن والحسين وعبد الله
	ابن جعفر
	سخاء عبد الله بن عامر
	سخاء الليث بن سعد
	بيان ذم البخل
	الاحاديث في ذم البخل
	تعوذه صلى الله عليه وسلم من البخل
	البخل يذهب كرامة المرء بين قومه
	سخاء البخيل عند موته لا ينفع

١٨٢٧	<b>كتاب ذم الجاه والرياء</b>
١٨٣٠	بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
١٨٣١	بيان فضيلة الخمول
١٨٣٤	بيان ذم حب الجاه
١٨٣٥	بيان معنى الجاه وحقيقته بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة
١٨٣٦	ترجيح الجاه على المال بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له
١٨٤٢	المعلومات المتغيرة المعلومات الأزلية
١٨٤٥	بيان ما يحمد من حب الجاه وما يندم بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع اليه وبغضها للذم ونفرتها منه
١٨٤٧	بيان علاج حب الجاه
١٨٤٩	بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم
١٨٥٢	بيان علاج كراهة الذم
١٨٥٤	الذم بقصد التعنت
١٨٥٥	الذم بغير حق بيان اختلاف احوال الناس في المدح والذم
١٨٥٦	درجات الناس بالنسبة للمدح
١٨٥٨	<b>الشرط الثاني من الكتاب</b>
١٨٥٩	في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات بيان ذم الرياء - آيات ذم الرياء أحاديث ذم الرياء
١٨٦٠	الآثار الواردة في ذم الرياء
١٨٦٥	بيان حقيقة الرياء وما يراعى به
١٨٦٦	الرياء بالبدن - الرياء بالهيئة والزي
١٨٦٧	الرياء بالقول
١٨٦٨	الرياء بالعمل - الرياء بالاصحاب والزائرين
١٨٦٩	

١٧٩٤	الآثار الواردة في ذم البخل
١٧٩٦	حكايات البخلاء
١٧٩٧	بيان الايثار وفضله
١٧٩٨	الايثار أعلى درجات السخاء بعض امثلة الايثار ايثار على كرم الله وجهه ومباهاة الله به ملائكته
١٧٩٩	بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما
١٨٠٠	حد البخل
١٨٠١	حد الجود
١٨٠٤	حد البخل والجود للغزالي السخاء في الدين بيان علاج البخل حب المال كوسيلة لقضاء الشهوات حب المال لذاته
١٨٠٥	علاج البخل بالرياء
١٨٠٦	بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله
١٨٠٨	معرفة قيمته اكتسابه من الحلال اكتساب قدر الحاجة انفاقه في الحلال
١٨٠٩	لية الاستعانة على العبادة به بيان ذم الفنى ومدح الفقر
١٨١٠	كلام المحاسبي في اغناء علماء السوء موازنة بين السلف والخلف
١٨١٤	قصة ثعلبة بن حاطب انغماسه في جمع المال يلهيه عن الفرائض
١٨٢٢	يحكم الله فيه
١٨٢٣	هدم قبول توبته
١٨٢٥	حب المال يقتل صاحبه





كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الحادي عشر

دار الشعب  
٩٨ شارع الجمهورية، القاهرة ١١٤١١



كتاب ذم الكبر والعجب

## كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

### بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الخالق ، البارئ ، المصور ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع . فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع ، الفتي الذي ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذي بهر أبصار الخلاق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر السن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه . فاعترف بالعجز هن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبيائه ، وكسر ظهور الأَكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه . فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه . جل جلاله وتقدست أسماؤه . والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرفت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحياء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفيائه ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْمَعْظَمَةُ لِزَارِي قَنْ نَازَعَنِي فِيهَا قَصَمْتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » فالكبر والعجب داء آآن مهلكان . والمتكبر

### ( كتاب ذم الكبر والعجب )

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء رداي والعظمة إزارى فمن نازعني فيهما قصمته : الحاكم في المستدرک دون

ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر

(٢) حديث ثلاث مهلكات - الحديث : البرار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند

ضعيف وتقدم فيه أيضا .



والمعجب سقيان مريضان ؛ وهما عند الله ممقوتان بغيضان . وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات ، وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب في شطرين . شطر في الكبر ، وشطر في المعجب

## الشر الأول

من الكتاب في الكبر

وفيه بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وأفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر ، وبيان امتحان النفس في خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه

## بيان

ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى (سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ<sup>(١)</sup>) وقال عز وجل (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ<sup>(٣)</sup>) وقال تعالى (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ<sup>(٤)</sup>) وقال تعالى (لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا<sup>(٥)</sup>) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ<sup>(٦)</sup>) وذم الكبر في القرآن كثير . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٧)</sup> « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال

حبة من إيمان : مسلم من حديث ابن مسعود

(١) الاعراف : ١٤٦ (٢) فاطر : ٣٥ (٣) ابراهيم : ١٥ (٤) النحل : ٢٣ (٥) الفرقان : ٢١ (٦) انفجر : ٦٠

« يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي فَنَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا الْقَيْتَهُ فِي جَهَنَّمَ وَلَا أَبَالِي » وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقي عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمرو على الصفا ، فتواقفا ، فضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يبيكي . فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال هذا ، يعني عبد الله بن عمرو ، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> يقول « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرِ أَسْبَةِ اللَّهِ فِي النَّارِ . قَلَى وَجْهِهِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ قَيْصِيئُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والانس ، والجن ، والبهائم اخرجوا . فخرجوا في مائتي ألف من الانس ، ومائتي ألف من الجن . فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعته وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَلسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ وَكَلْتُ بِثَلَاثَةِ بَكَلٍ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَيَكُلُّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِخَيْلٍ وَلَا جَبَّارٌ وَلَا سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبَّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا الضُّعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَاطُهُمْ وَعَجْزُهُمْ »

( ١ ) حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم

مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظه وقال أبو داود قدفته في النار وقال مسلم حديثه وقال رداؤه

وازاره بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أباسعيد أيضا

( ٢ ) حديث عبد الله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبركبه الله في النار على وجهه : أحمد والبيهقي في شعبه

الإيمان من طريقه باسناد صحيح

( ٣ ) حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين - الحديث : الترمذي وحسنه من حديث

سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب

( ٤ ) حديث يخرج من النار عنق له أذنان - الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب

( ٥ ) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة : تقدم في أسباب التكسب والمعاش والغزوة في شأن مكان جبار

( ٦ ) حديث تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمجبرين - الحديث : متفق عليه

من حديث أبي هريرة

قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسَاءٍ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَسَاءٍ وَلكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مَلْؤُهُمَا ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « بئسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ مُجَبَّرٌ وَعَتْدَى وَنَيْسَى الْجَبَّارِ الْأَعْلَى بئسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ مُجَبَّرٌ وَآخْتَالٌ وَنَيْسَى الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ بئسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ قَفَلٌ وَسَهَابٌ وَنَيْسَى الْقَابِرِ وَاللَّيْلِ بئسَ عَبْدٌ عَتَا وَبَقَى وَنَيْسَى الْمُبْدَأِ وَالْمُنْتَهَى ، وعن ثابت أنه قال <sup>(٢)</sup> : بلغنا أنه قيل يارسول الله ، ما أعظم كبر فلان ! فقال « أليس بعده الموت ؟ » وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> قال « إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني أمرتكم كما بأنتين وأنها كما عن اثنتين أنها كما عن الشرك والكبر وأمرتكم كما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حاققة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها وأمرتكم كما بسبحان الله ومحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » . وقال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « أهل النار كل جمظري جواظ مستكبر جماع متاع وأهل الجنة الضعفاء المقلون »

(١) حديث بئس العبد عبد مجبر واعتدى - الحديث : الترمذى من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس اسناده بالقوى ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ورواه البيهقى في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه

(٢) حديث ثابت بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت : البيهقى في الشعب هكذا مرسلًا بلفظ مجبر

(٣) حديث عبد الله بن عمرو ان نوحاً لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال انى أمرتكم كما بأنتين وأنها كما عن اثنتين أنها كما عن الشرك والكبر - الحديث : أحمد والبخارى في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال صحيح الاسناد

(٤) حديث أهل النار كل جمظري جواظ مستكبر جماع متاع : وهذه الزيادة عندها من حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخواص الأجرم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ أَحْسَنِكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْغَدَكُمْ مِنَّا الثَّرَثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَهِّقُونَ » قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفهبون ؟ قال « الْمُتَكَبِّرُونَ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ صُورِ الذَّرِّ تَطَوُّهُمْ النَّاسُ ذَرًّا فِي مِثْلِ صُورِ الرَّجَالِ يَعْلَمُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُؤْسٌ يَعْلَمُهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الْخَبَالِ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ » . وقال أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الذَّرِّ تَطَوُّهُمْ النَّاسُ لَهُوَ أَنَّهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ قَالَ . دَخَلْتُ عَلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بَرْدَةَ ، فَقُلْتُ لَهُ يَا بِلَالُ إِنَّ أَبَاكَ حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٤)</sup> أَنَّهُ قَالَ « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ هَبِيبٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ ، فَيَأْكُلُ يَا بِلَالُ أَنْ تَكُونَ مِنْ يَسْكِنِهِ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٥)</sup> « إِنَّ فِي النَّارِ قَصْرًا يُجْعَلُ فِيهِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيُطَبَّقُ عَلَيْهِمْ » وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٦)</sup> « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْحَةِ الْكِبَرِيَاءِ »

( ١ ) حديث ان أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحسنكم أخلاقا - الحديث : أحمد من حديث أبي ثعلبة الخنسي

بلفظ الی ومعنی وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث

( ٢ ) حديث يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا في صور الرجال - الحديث : الترمذي من رواية عمرو بن شعيب

عن أبيه عن جده وقال حسن غريب

( ٣ ) حديث أبي هريرة يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر - الحديث : البزار هكذا

مختصرا دون قوله الجبارون واسناده حسن

( ٤ ) حديث أبي موسى ان في جهنم واديا يقال له هبيب حق على الله أن يسكنه كل جبار : أبو يعلى والطبراني

والحاكم وقال صحيح الاسناد قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له

في الضعفاء هذا الحديث

( ٥ ) حديث ان في النار قصرًا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم : البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال توابيت

مكان قصرًا وقال فيقول مكان يطبق وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف

( ٦ ) حديث اللهم اني أعوذ بك من نفخة الكبرياء : لم أره بهذا اللفظ وروى أبو داود وأبو ماجه من حديث جابر

ابن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفته وهمزة

قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزة الموتة ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه

تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب .

وقال<sup>(١)</sup> «مَنْ فَارَقَ رُوحَهُ جَسَدَهُ وَهُوَ يَرَى مِنْ ثَلَاثِ دَخَلِ الْجَنَّةِ الْكَبِيرِ وَالَّذِينَ وَالنُّعْلُ»  
 الآثار : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه • لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين ، فإنه  
 صعب على المسلمين عند الله كبير • وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن ، نظر إليها فقال •  
 أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سرير  
 فجاء يوما ومصعب ماذّ رجليه ، فلم يقبضها ، وقعد الأحنف فزحه بعض الزحمة ، فرأى أثر  
 ذلك في وجهه ، فقال : عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين . وقال  
 الحسن : العجب من ابن آدم يغسل الخرد بيده كل يوم مرة أو مرتين ، ثم يعارض جبار السموات ،  
 وقد قيل فى ( وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ<sup>(٢)</sup> ) هو سبيل الغائط والبول . وقد قاله  
 محمد بن الحسين بن على . ما دخل قاب امرىء شىء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر  
 ما دخل من ذلك ، قل أو أكثر . وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة ، فقال  
 الكبر . وقال النعمان بن بشير على المنبر . إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن من مصالى  
 الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى  
 فى غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

## بيان

ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر فى المشى وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ يَجْرُ إِزَارَهُ بَطْرًا» وقال صلى الله  
 عليه وسلم<sup>(٤)</sup> «يَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَّبِعُهُ فِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ»

(١) حديث من فارق روجه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة الكبر والدين والقلول : الترمذى والنسائى  
 وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للشهور فى الرواية  
 فانه الكبر بالموحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزى فى جامع المسانيد عن الدارقطنى قال انما هو الكنز  
 بالنون والزاى وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه فى الحديث فى تفسير والدين يكبرون الذهب والفضة

(٢) حديث لا ينظر الله الى من جر إزاره بطرا : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث بينا رجل يتبعه فى بردته قد أعجبت نفسه بالحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر ، فربه عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد ، فسمعته يقول . أى بنى ارفع إزراك ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> يقول « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خِيَلَاءَ » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> بصق يوماً على كفه ، ووضع أصبعه عليه وقال « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ابْنِ آدَمَ أَتُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَ لِلْأَرْضِ مِنْكَ وَتَيْدٌ جَمَّتْ وَمَنْعَتْ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنْتَى أَوْ أَنْ الصَّدَقَةَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمَطِيطَاءُ وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسٌ وَالرُّومُ سَلَطَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » قال ابن الأعرابي . هى مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ » الآثار : عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن ، إذ مر علينا ابن الأهمم يريد المقصورة ، وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه ، وهو يمشى بتبختر . إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنيقه ، ثانى عطفه ، مصر خده ، ينظر فى عطفه . أى حميق أنت ، تنظر فى عطفيك ، فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدى حق الله منها ! والله أن يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون ، فى كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفتة . فسمع ابن الأهمم فرجع يعتذر إليه . فقال لا تمذر إلى وتب إلى ربك . أما سمعت قول الله تعالى

( ١ ) حديث ابن عمر لا ينظر الله الى من جر ازاره خيلاء : رواه مسلم مقتصراً على المرفوع دون ذكر مرور

عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم ان المار رجل من بني ليث غير مسمى

( ٢ ) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول ابن آدم أتعجزونى

وقد خلقتك من مثل هذه - الحديث : ابن ماجه والحاكم وصحاح اسناده من حديث بشر بن حجاج

( ٣ ) حديث اذا مشت أممى المطيطاء - الحديث : الترمذى وابن جبان فى صحيحه من حديث ابن عمر - المطيطاء

بضم الميم وفتح الطاء بين المهملين بينهما شذوذاً من تحت مصفراً ولم يستعمل مكبراً

( ٤ ) حديث من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقي الله وهو عليه غضبان : أحمد والطبرانى والحاكم وصححه

والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر

( وَلَا تَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا <sup>(١)</sup> )

ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة ، فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه ، معجب لشمائله ، كأن القبر قد وارى بدنك ، وكأنك قد لاقيت عمك . ويحك داو قلبك ، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته ، فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من فى بطنه خراء . فقال عمر كالمعتذر : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . ورأى محمد بن واسع ولده يختال ، فدعاه وقال : أتدرى من أنت ؟ أما أنك فأشترتها بمائتى درهم ، وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله . ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال : إن للشيطان إخوانا كرهها مرتين أو ثلاثا . . . ويروى أن مطرف بن عبد الله ابن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز ، فقال : يا عبد الله ، هذه مشية يينفضها الله ورسوله . فقال له المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال بلى أعرفك ، أولك نطفة مذرة . وآخرك جيفة قدرة ، وأنت بين ذلك تحمل المذرة . فضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد فى قوله تعالى ( ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى <sup>(٢)</sup> ) أى يتبختر

وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال ، فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

## بيان

### فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا وَمَا تَوَاضَعُ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حِكْمَةٌ يُمَسِّكَانِهِ ، بِيهَا فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَدَاهَا ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ ضَعْفُهُ وَإِنْ وَضَعَّ

(١) حديث ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث ما من أحد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمساكانه بها - الحديث : العقيلي فى الضعفاء واليهيقي

فى الشعب من حديث أبي هريرة واليهيقي أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف

نَفْسَهُ قَالَا اللَّهُمَّ ارْفَعَهُ ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ  
مُسْكِنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالًا جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَحِمَ أَهْلَ الدُّلِّ وَالْمُسْكِنَةَ وَخَالَطَ أَهْلَ  
الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » وعن أبي سلمة المدبني ، عن أبيه ، عن جده قال . كان رسول الله صلى الله  
عليه وسلم <sup>(٢)</sup> عندنا بقاء ، وكان صائما . فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن ، وجعلنا فيه شيئا  
من عسل . فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل ، فقال « مَا هَذَا ؟ » قلنا يا رسول الله جعلنا  
فيه شيئا من عسل . فوضعه وقال « أَمَا إِنِّي لَا أُحْرِمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ  
تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ اُقْتَصِدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ بَدَّرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ اللَّهَ أَحَبَّهُ اللَّهُ »  
وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون ،  
فقام سائل على الباب ، وبه زمانة يتكره منها . فأذن له . فلما دخل أجلسه رسول الله  
صلى الله عليه وسلم على فخذه ، ثم قال له « اطعم » ، فكان رجلان من قريش اشمازمنه وتكره  
فامات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « خَيْرَ رِبِّي  
بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا أَوْ مَلِكًا نَبِيًّا فَلَمْ أَذَرْ أُيُّهُمَا أُخْتَارُ وَكَانَ صَفِيًّا  
مِنَ الْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْدًا رَسُولًا »

( ١ ) حديث طوبى لمن تواضع في غير مسكنة - الحديث : البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب

المصري والبراز من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان

( ٢ ) حديث أبي سلمة المدبني عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان

صائما - الحديث : وفيه من تواضع رفعه الله - الحديث : رواه البراز من رواية طلحة بن يحيى

ابن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله

أحبه الله ولم يقل بقاء وقال الذهبي في الميزان انه خبر متكرر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط

من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل - الحديث :

وفيه أما اني لا أرحم أنه حرام - الحديث : وفيه من أكثر ذكر الموت أحبه الله وروى المرفوع

منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله ومن بدر أفقره الله وذكره فيه قوله ومن أكثر

ذكر الله أحبه الله ونقدم في ذم الدنيا

( ٣ ) حديث السائل الذي كان به زمانة منكورة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم - الحديث :

لم أجده أصلا والوجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث

جابر وقال الترمذي غريب

( ٤ ) : حديث بخير في ربي بين أمرين عباد رسولاً ومليكا نبيا - الحديث : أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني

من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف



وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، إنما أقبل صلاة من تواضع له ظمى ، ولم يتماظم  
على خاتى ، وألزم قلبه خوفاً ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجل  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْكِرْمُ التَّقْوَى وَالشَّرَفُ التَّوَاضُعُ وَالْيَقِينُ الْغِنَى »  
وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين فى الدنيا ، هم أصحاب المنابر يوم القيامة .  
طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة  
قلوبهم فى الدنيا ، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم . بلغنى أن النبى  
صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> قال « إِذَا هَدَى اللَّهُ عَبْدًا لِلْإِسْلَامِ وَحَسَنَ صُورَتَهُ وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ  
غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضُعًا فَذَلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللَّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم  
<sup>(٣)</sup> « أَرْبَعٌ لَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ : الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى  
اللَّهِ وَالتَّوَاضُّعُ وَالتَّزَهُدُ فِي الدُّنْيَا » . وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
<sup>(٤)</sup> « إِذْ تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « التَّوَاضُّعُ  
لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ » ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلًا وأسنده

الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحح الاسناد

( ٢ ) حديث إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته - الحديث : الطبرانى موقوفاً على ابن مسعود نحوه

وفيه السعدى مختلف فيه

( ٣ ) حديث أربع لا يعطينهم الله إلا من يحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد

فى الدنيا : الطبرانى والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع

وذكر الله وقلة الشئ . قال الحاكم صحیح الاسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان

يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

( ٤ ) حديث ابن عباس إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة : البيهقى فى الشعب نحوه وفيه زمعة

ابن صالح ضعفه الجمهور

( ٥ ) حديث إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة - الحديث : الأصفهاني فى الترغيب والترهيب من حديث أنس

وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جداً ورواه ابن عدى من حديث ابن عمرو وفيه الحسن بن

عبد الرحمن الاجتياصى وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف

(١) كان يطعم ، فجاء رجل أسود به جذرى قد تقشر ، فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه . فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّهُ لِيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ ارْجُلُ الشَّيْءِ فِي يَدِهِ يَكُونُ مِهْنَةً لِأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ السِّكْرَ عَنْ نَفْسِهِ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) لأصحابه يوماً « مَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ ؟ » قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال « التَّوَاضُّعُ » قال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارَةٌ ، الْآثَارُ : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته . وقال انتعش رفعك الله . وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض ، وقال اخسأ خسأك الله . فهو في نفسه كبير ، وفي أعين الناس حقير ، حتى أنه لأحققر عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبد الله . أنهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم ، قد استظل بنطع له ، وقد جاوزت الشمس النطع ، فسويته عليه . ثم إن الرجل استيقظ ، فإذا هو سلمان الفارسي . فذكرت له ما صنعت . فقال لي : يا جرير ، تواضع لله في الدنيا ، فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة . يا جرير ، أتدرى ما ظمة النار يوم القيامة ؟ قلت لا قال إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفرون عن أفضل العبادات التواضع . وقال يوسف بن أسباط : يجزى قليل الورع من كثير العمل ، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد ، وقال الفضيل ، وقد سئل عن التواضع ما هو فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبي قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك

( ١ ) حديث كان يطعم فجاءه رجل أسود به جذرى فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه : لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم

( ٢ ) حديث إنه يعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به السكر عن نفسه : غريب

( ٣ ) حديث ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع : غريب أيضا

( ٤ ) حديث إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار : غريب أيضا

عليه فضل . وأن ترفع نفسك عنمن هو فوقك في الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس له بدنياء عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا ، أو جمالا ، أو ثيابا ، أو علما ، ثم لم يتواضع فيه ، كان عليه وبالايوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ، إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أنعمها عليك ، وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله ، وتواضع بها لله ، إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ، ورفع بهادرجة في الآخرة . وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ؛ ولم يتواضع بها لله ، إلا منعه الله نفعها في الدنيا ، وفتح له طبقا من النار ، يمد به إن شاء الله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان ، أى الرجل أفضل ؟ قال من تواضع عن قدرة ، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السناك على هارون فقال يأمير المؤمنين ، إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك . فقال ما أحسن ما قلت يا أمير المؤمنين ، إن امرأ آناه الله جمالا في خلقته ، وموضعا في حسبه ، وبسط له في ذات يده ، فعمف في جماله ، وواسى من ماله ، وتواضع في حسبه ، كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله . فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح ، تصفح وجوه الأغنياء والأشراف ، حتى يجرى إلى المساكين فيقعدبهم ويقول مسكين مع مسكين . وقال بعضهم . كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكروه أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ، فقال لهم الحسن . أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلتقى مساما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام . شمخت الجبال وتطاولت ، وتواضع الجودى ، فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال أبو سليمان . إن الله عن وجل اطلع على قلوب الآدميين ، فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام ، فخصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد ، وقد انصرف من عرفات . لم أشك في الرحمة لولا أنى كنت معهم أنى أخشى أنهم حرموا بسببى . ويقال . أرفع ما يكون المؤمن عند الله ، أوضع ما يكون عند نفسه . وأوضع ما يكون عند الله ، أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمري : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لا تثمر . وقال مالك بن دينار . لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم

وجلا ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب ، إلا رجلا بفضل قوة أوسى . قال فلما بان  
للبن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل . من أحب الرياسة لم يفلح أبدا  
وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبت إلى محمد بن مقاتل  
فقلت يا أبا عبد الله ، أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا . فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سبب  
هلاككم . قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع  
عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان  
هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التي تحت الباء . فقال له الشبلي . أباد الله شاهدك  
أو تجعل لنفسك موصفا . وقال الشبلي في بعض كلامه : ذلى عطل ذل اليهود . ويقال من  
يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شخرف قال : رأيت  
على بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام ، فقلت له يا أبا الحسن عظمي . فقال لي : ما أحسن  
التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء ، رغبة منهم في ثواب الله . وأحسن من ذلك تيه الفقراء  
على الأغنياء ، ثقة منهم بالله عز وجل . وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه  
وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر . فقيل  
له فتى يكون متواضعا ؟ قال إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر  
معرفة بربه عز وجل ، ومعرفة بنفسه . وقال أبو سليمان . لو اجتمع الخلق على أن يضعوني  
كانضاعي عند نفسي ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف  
وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكي . الشريف إذا تنسك  
تواضع ، والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ . التكبر على ذرى التكبر عليك بما له تواضع  
ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن . والتكبر في الخلق  
كلهم قبيح ، وفي الفقراء أقبح . ويقال لا عز إلا من تذل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن  
تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه  
من الله عز وجل . وقال أبو علي الجوزجاني . النفس معجونة بالكبر ، والحرص ،  
والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع ، والنصيحة ، والقناعة . وإذا أراد  
الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك . فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع ،

مع نصره الله تعالى . وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل  
وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة ، مع عون الله عز وجل .  
وعن الجنيد رحمه الله ، أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه ، لولا أنه روى عن النبي صلى الله  
عليه وسلم <sup>(١)</sup> أنه قال « يَكُونُ فى آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلُهُمْ » ما تكلمت عليكم  
وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر . ولعل مراده أن التواضع يثبت  
نفسه ثم يضعها ، والموجد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفها  
وعن عمرو بن شيبه قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة ، فرأيت رجلا راكبا بئلة  
وبين يديه غلمان ، وإذا هم ينفون الناس . قال ثم عدت بعد حين ، فدخلت بئداد ، فكنت  
على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر ، قال فجعلت أنظر إليه وأتأمله ،  
فقال لى مالك تنظر إلى ؟ فقلت له شبهتك برجل رأيت بمكة ، ووصفت له الصفة . فقال له  
أنا ذلك الرجل . فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال إني ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس  
فوضعت الله حيث يرفع الناس . وقال المفيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبه الأمير  
وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء ، وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت  
الرد قام وقعد ، وأخذ بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجل يصيبكم ، لومات  
عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافي يقول : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم  
ودعوا رجل لعبد الله بن المبارك فقال : أعطاك الله ما ترجوه . فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة  
فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضى الله عنه يوما ، فقال سلمان :  
لكنتى خلقت من نطقة قذرة ، ثم أعود جيفة منتنة ، ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم ،

( ١ ) حديث يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أَرْذَلُهُمْ : الترمذى من حديث أبى هريرة إذا اتخذ النىء دولا  
الحديث : وفيه كان زعيم القوم أَرْذَلُهُمْ - الحديث : وقال غريب وله من حديث على بن أبى طالب  
إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أَرْذَلُهُمْ ولأبى يعين  
فى الحلية من حديث حذيفة من اقتراب الساعة أثنان وسبعون خصلة فذكرها منها وفيهما  
فخرج بن فضالة ضعيف

وإن خف فآنا لنسيم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : وجدنا الكرم في التقوى ،  
والغنى في اليقين ، والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق

## بيان

حقيقة الكبر وآفته

أعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر . فالباطن هو خالق في النفس ، والظاهر هو  
أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق . وأما الأعمال فإنها ثمرات  
لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال . ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر  
وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذى فى النفس ، وهو الاسترواح  
والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه . فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ، ومتكبرا به  
وبه يفصل الكبر عن العجب كما سيأتى . فإن العجب لا يستدعى غير العجب . بل لو لم  
يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا ، إلا أن  
يكون مع غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون  
متكبرا . ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا ، فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكنه  
يرى غيره أعظم من نفسه ، أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه . ولا يكفى أن يستحق غيره  
فإنه مع ذلك لورأى غيره مثل نفسه لم يتكبر . بل ينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ، ولغيره  
مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره . فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل  
فيه خلق الكبر ، لا أن هذه الرؤية تنفى الكبر . بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تفتح  
فيه ، فيحصل فى قلبه اعتداد ، وهزة ، وفرح ، وركون إلى ما اعتقده ، وعز فى نفسه بسبب  
ذلك . فتلك العزة ، والهزة ، والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر . ولذلك قال النبي  
صلى الله عليه وسلم (١) «أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْحَةِ الْكِبْرِيَاءِ» ، وكذلك قال عمر . أخشى أن  
تتفتح حتى تبلغ الثريا ، للذى استأذنه أن يمظ بعد صلاة الصبح

(١) حديث أعوذ بك من نفخة الكبرياء: تقدم فيه

فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ، وهو الاستعظام ، كبر وانتفخ وتعزى .  
قال كبر عبارة عن الحالة الحاصلة فى النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما  
ولذلك قال ابن عباس فى قوله تعالى ( إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ )<sup>(١)</sup>  
قال عظمة لم يبلغوها . ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر  
والباطن هى عورات . ويسمى ذلك تكبرا . فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره  
حقر من دونه ، وازدراه ، وأقصاه عن نفسه ، وأبعده ، ونرفع عن مجالسته ومؤاكلته  
ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه إن اشتد كبره . فإن كان أشد من ذلك استنكف  
عن استخدامه ، ولم يحمل أهلا للقيام بين يديه ، ولا بخدمة عتبه . فإن كان دون ذلك فيأنف  
من مساواته ، وتقدم عليه فى مضائق الطرق ، وارتفع عليه فى المحافل ، وانتظر أن يبدأ  
بالسلام ، واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه . وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد  
عليه ، وإن وعظ استنكف من القبول . وإن وعظ عنف فى النصيح ، وإن رد عليه شىء  
من قوله غضب ، وإن علم لم يرفق بالتعلمين ، واستذلهم ، واتهمهم ، وامتن عليهم ، واستخدمهم  
وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الخمر ، استجها لأهم واستحقارا . والأعمال الصادرة  
من خلق الكبر كثيرة ، وهى أكثر من أن تحصى ، فلاحاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة  
فهذا هو الكبر ، وآفته عظيمة ، وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلم  
ينفك عنه العباد ، والزهاد ، والعلماء ، فضلا عن عوام الخلق . وكيف لا تعظم آفته وقد  
قال صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » وإنما  
صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق  
هى أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يفلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب  
للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شىء من العز . ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين  
وفيه العز . ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز . ولا يقدر على الصدق وفيه العز  
ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز . ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز . ولا يقدر على

( ١ ) - حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر . تقدم فيه

ترك الحسد وفيه العز . ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز . ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز . ولا يسلم من الإضرار بالناس ومن اغتياهم وفيه العز . ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ، ليحفظ به عزه . وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه ، خوفاً من أن يفوته عزه . فن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه والأخلاق الذميمة متلازمة ، والبعض منها داع إلى البعض لاجتماعه . وشراً أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والالتقياد له . وفيه وردت الآيات التي فيها ذم للكبر والتكبرين . قال الله تعالى ( وَأَلْمَأَزِمَةً أَيْدِيهِمْ <sup>(١)</sup> ) إلى قوله ( وَكُتِبَتْ لَهُمْ مِنَ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ <sup>(٢)</sup> ) ثم قال ( ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ <sup>(٣)</sup> ) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدُّهم عتياً على الله تعالى فقال ( ثُمَّ لَنُنزِلَنَّ عَنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَهْبَئِمٌ أَشَدُّ عَلَى الرَّعْمِيِّ عِتِيًّا <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ <sup>(٥)</sup> ) وقال عز وجل ( يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنَّهُمْ لَكِنَّا مُؤْمِنِينَ <sup>(٦)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ <sup>(٧)</sup> ) وقال تعالى ( سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ <sup>(٨)</sup> ) قيل في التفسير سأرفع فهم القراء عن قلوبهم . وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام . إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا . كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر . الأترون أن من شمع برأسه إلى السقف شجه ، ومن طأطأ أظله وأكته ؟ فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يجرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في جحد الكبر والكشف عن حقيقته وقال <sup>(٩)</sup> « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ »

( ١ ) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس : مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال بطرالحق وغمص الناس ورواه الترمذي فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بألفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن رجاء هكذا

( ٢ ، ١ ) الانعام : ٩٣ (٣) الزمر : ٧٣ (٤) مريم : ٦٩ (٥) النحل : ٢٢ (٦) سبأ : ٣١ (٧) غافر : ٦٠ (٨) الاعراف : ١٤٦



## بيان

التكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

لاعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى ، أو رساله ، أو سائر خلقه . وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً . فتارة يتكبر على الخلق ، وتارة يتكبر على الخالق . فإذا التكبّر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام . الأول : التكبر على الله . وذلك هو أخش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان . مثل ما كان من عمروذ ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء . وكما يحكى عن جماعة من الجهلة ، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية ، مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال ( أَنَارُ بُكُمُ الْأَعْلَى <sup>(١)</sup> ) إذ استنكف أن يكون عبداً لله . ولذلك قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ <sup>(٣)</sup> ) الآية وقال تعالى ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ سَجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا <sup>(٤)</sup> )

فالقسم الثانى : التكبر على الرسل ، من حيث تعزز النفس وترفعها عن الاتقياد لبشر مثل سائر الناس . وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار ، فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الاتقياد وهو ظان أنه محق فيه . وتارة يمتنع مع المعرفة ، ولكن لا تطاوعه نفسه للاتقياد للحق ، والتواضع للرسل ، كما حكى الله عن قولهم ( أَنُؤْمِنُ مِنْ لَيْسَرِينَ مِثْلَنَا <sup>(٥)</sup> ) وقولهم ( إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا <sup>(٦)</sup> ) ( وَلَنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ <sup>(٧)</sup> ) ( وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَوَلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا <sup>(٨)</sup> ) ( وَقَالُوا لَوْ لَوَلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ <sup>(٩)</sup> ) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه ( أَوْجَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ <sup>(١٠)</sup> ) وقال الله تعالى ( وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجِنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بَغْيًا لِحَقِّ <sup>(١١)</sup> ) فتكبر هو على الله وعلى رساله جميعاً . قال وهب . قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك . قال حتى أشاور هامان فشاور هامان ، فقال هامان

(١) التازعات : ٢٤ ( غافر : ٦ ) ( النساء : ١٧٢ ) ( الفرقان : ٦٠ ) ( المؤمنون : ٤٧ ) ( إبراهيم : ١٠ )

(٢) المؤمنون : ٤٣ ( الفرقان : ٢١ ) ( الانعام : ٨ ) ( الزخرف : ٥٣ ) ( القصص : ٣٩ )

بينما أنت عرب تمبداً صرت عبداً تمبداً فاستنكف عن عبودية الله، وعن اتباع موسى عليه السلام  
وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم ( لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِنَ  
الْقُرْآنِ عَظِيمٍ <sup>(١)</sup> ) قال قتادة . عظيم القرينين هو الوليد بن المغيرة وأبي مسعود الثقفي  
طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا غلام يتيم كيف بعته  
الله إلينا . فقال تعالى ( أَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ <sup>(٢)</sup> ) وقال الله تعالى ( لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ  
مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا <sup>(٣)</sup> ) أي استحقارهم واستبعاداً لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم . <sup>(٤)</sup> كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ! أشاروا إلى فقراء المسلمين ،  
فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم ، فأنزل الله تعالى ( وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ  
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ <sup>(٥)</sup> ) إلى قوله ( مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ <sup>(٦)</sup> ) وقال تعالى  
( وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ  
عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا <sup>(٧)</sup> ) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم ، إذ لم  
يروا الذين ازدروهم ، فقالوا مالنا لا نرى رجالاً كنا نمدم من الأشرار ؟ قيل يعنون عمارا  
وبلالا ، وصهيبا ، والمقداد رضي الله عنهم . ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة  
فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا . ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف . قال  
الله تعالى مخبرا عنهم ( فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ <sup>(٨)</sup> ) وقال ( وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا  
أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا <sup>(٩)</sup> ) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل ، وإن كان  
دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله ، والتواضع لرسوله

القسم الثالث : التكبر على العباد . وذلك بأن يستعظم نفسه ، ويستحققر غيره ، فتأبى  
نفسه عن الانقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم ، فيزدرهم ويستصغرهم ، ويأنف من  
من مساواتهم . وهذا وإن كان دون الأول والثاني ، فهو أيضا عظيم من وجهين .

( ١ ) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء . الحديث :  
في نزول قوله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم - مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص الآتية  
قال فقال المشركون وقال أي ما جة قالت قريش

( ٢ ) الزخرف : ٣١ ( ٣ ) الزخرف : ٣٣ ( ٤ ) الانعام : ٥٣ ( ٥ ) ( ٦ ، ٥ ) الانعام : ٥٣ ( ٧ ) الكهف : ٢٨  
( ٨ ) البقرة : ٨٩ ( ٩ ) النحل : ١٤٠

أحدهما : الكبر ، والعز ، والعظمة ، والملاء ، لا يليق إلا بالملك القادر . فاما العبد المملوك الضيف ، العاجز ، الذى لا يقدر على شىء ، فمن أين يليق بحاله الكبر ! فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله . ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك ، فيضعها على رأسه ، ويجلس على سريره . فما أعظم استحقاقه للمقت ، وما أعظم تهديه للخزى والنكال وما أشد استجراؤه على مولاه ! وما أقبح ماتاطاه . وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيها قصمته . أى أنه خاص صفتى ، ولا يليق إلا بى . والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى . وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك ، ويستخدمهم ويترفع عليهم ، ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم ، فهو منازع له فى بعض أمره ، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره ، والاستبداد بملكه . فالخلق كلهم عباد الله ، وله العظمة والكبرياء عليهم . فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ، ما هو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم ، وبين منازعته فى أصل الملك

الوجه الثانى : الذى تعظم به رذيلة الكبر ، إنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله ، وتشمر لجحده . ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ، ثم إنهم يتجادون تجاحد المتكبرين ، ومهما انضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده ، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس . وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْافِسِ تَلَكُمُ تَعْلِبُونَ <sup>(١)</sup> ) فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا يفتنم الحق إذ اظفر به ، فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ ، كما قال الله تعالى ( وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِيمِ <sup>(٢)</sup> ) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال تقتلون الدين يأمرون بالتسبط من الناس

فقتل المتكبر الذي خالفة ، والذي أمره كبراً . وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق لله قال عليك نفسك. وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «كُلُّ يَمِينِكَ» قال لا أستطيع . فقال للنبي صلى الله عليه وسلم «لَا اسْتَطَعْتُ» فامنعهُ إلا كبره. قال فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده. فإذا تكبره على الخلق عظيم ، لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله . وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا ، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ <sup>(٢)</sup>) وهذا الكبر بالنسب ، لأنه قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ <sup>(٣)</sup>) فحمله ذلك على أن يعتنق من السجود الذي أمره الله تعالى به ، وكان مبدؤه الكبر على آدم ، والحسد له . فجزه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه كابد الآباد . فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين ، إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله ، <sup>(١)</sup> إني امرؤ قد حجب إلي من الجمال ما ترى ، أفمن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم «لَا وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ» وفي حديث آخر <sup>(٢)</sup> «مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ» وقوله وغمص الناس ، أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله ، أو خير منه ، وهذه الآفة الأولى . وسفه الحق هو رده ، وهي الآفة الثانية .

فكل من رأى أنه خير من أخيه ، واحتقر أخاه وازدراه ، ونظر إليه بعين الاستصغار ، أو رد الحق وهو يعرفه ، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله ، فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله

## بيان

ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتد لها صفة من صفات الكمال

(١) حديث قال رجل كل يمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت - الحديث : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٢) حديث قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حجب إلي من الجمال ما ترى - الحديث : وفيه الكبر

من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بمحدثين

(٣) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس : تقدم معه

وجامع ذلك يرجع الى كمال دينى أو دنيوى . فالدينى هو العلم والعمل . والدنيوى هو النسب ، والجمال ، والقوة ، والمال ، وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب

الأول : العلم . وما أسرع الكبر الى العلماء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « آفة العلم الخيلاء » فلا يلبث العالم أن يتميز بعمرة العلم ، ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكمالها ، ويستعظم نفسه ، ويستحقر الناس ، وينظر إليهم نظره الى البهائم ، ويستجهلهم ، ويتوقع أن يبدوه بالسلام . فإن بدأ واحدا منهم بالسلام ، أورد عليه ببشر ، أو قام له ، أو أجاب له دعوة ، رأى ذلك صنيعه عنده ، ويداعليه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم ، وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغى أن يرقوا له ويخدموه ، شكره على صنيعه . بل الغالب أنهم يرونه فلا يبرحهم ، ويروونه فلا يزورهم ، ويمودونه فلا يعوذبهم ، ويستخدمون من خالطه منهم ويستسخروه فى حوائجهم ، فإن قصر فيه استنكره ، كأنهم عبيده أو أجراؤه ، وكأن تعليمه العلم صنيعه منه إليهم ، ومعروف لديهم ، واستحقاق حق عليهم . هذا فيما يتعاق بالدينا . أما فى أمر الآخرة ، فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم . وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما . بل العلم الحقيقى هو الذى يعرف الإنسان به نفسه وربّه ، وخطر الخاتمة ، وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ، كما سيأتى فى طريق معالجة الكبر بالعلم . وهذا العلم يزيد خوفا ، وتواضعا ، وتخشعا ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيرا منه ، لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقديره فى القيام بشكر نعمة العلم ، ولهذا قال أبو الدرداء : من ازداد علما ازداد وجعا . وهو كما قال فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ، فاعلم أن لذلك سببين :

أحدهما : أن يكون اشتغاله بما يسمى علما ، وليس علما حقيقيا . وإنما العلم الحقيقى ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره فى لقاء الله والحجاب منه . وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر ، والأمن . قال الله تعالى ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ <sup>(١)</sup> ) فأما وراء ذلك

( ١ ) حديث آفة العلم الخيلاء : قلت هكذا ذكره المصنف والمعروف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا

رواه الفضاى فى مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمى

فى مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء . وفيه الحسن بن عبد الحميد السكونى لا يدري من هو حدث

عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان

كعلم الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات  
فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها ، امتلأ بها كبراً ونفاقاً . وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن  
تسمى علوماً . بل العلم هو معرفة العبودية ، والربوبية ، وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالباً  
السبب الثاني : أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ، ردى النفس ، سيء الأخلاق . فإنه لم  
يشتمل أولاً بتهديب نفسه ، ونزكية قلبه بأنواع المجاهدات ، ولم يرض نفسه في عبادة ربه ، فبقى خبيث  
الجوهر . فإذا خاض في العلم أى علم كان ، صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً . فلم يطب ثمره ولم يظهر  
في الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال . العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً ، فتشربه  
الأشجار بمرورها ، فتحوله على قدر طعمها . فيزداد المر مرارة ، والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه  
الرجال ، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً ، والمتواضع تواضعاً . وهذا لأن من  
كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجدما يتكبر به ، فازداد كبراً . وإذا كان الرجل خائفاً  
مع جهله ، فازداد علماً ، علم أن الحجة قد تأكدت عليه ، فيزداد خوفاً وإشفاقاً ، وذلاً وتواضعاً .  
فالمعلم من أعظم ما يتكبر به . ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام (وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ  
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup>) وقال عز وجل (وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ<sup>(٣)</sup>) ووصف  
أولياءه فقال (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ<sup>(١)</sup>) وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : فيما رواه  
العباس رضي الله عنه<sup>(١)</sup> «يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا  
القرءان فمن أقرأنا ومن أعلم منا» ثم التفت إلى أصحابه وقال « أولئك منكم أيها الأمة أولئك  
هم وقود النار » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه . لا تكونوا إجبارة العلماء . فلا يفي علمكم بجهلكم  
ولذلك استأذن نعيم الدارى عمر رضي الله عنه في القصص ، فأبى أن يأذنه ، وقال له : إنه الذبح .  
واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم ، فقال . إني أخاف أن تنتفخ حتى  
تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بقوم ، فلما سلم من صلاته قال . لتلمسبن إماما غيرى ، أو لتصلن  
وحدانا ، فأبى رأيت في نفسى أنه ليس في القوم أفضل منى . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم

(١) حديث العباس يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرءان فمن أقرأنا الحديث :

ابن المبارك في الزهد والرقائق

(١) الشعراء : ٣١٥ (٢) آل عمران : ١٥٩ (٣)

فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة . فأعز على بسيط الأرض طالما يستحق أن يقال له عالم، ثم إنه لا يجر كه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صدق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة، فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله لوعرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا إليه، رجاء أن تشملنا بركته، وتسرى إلينا سيرته وسجيته وهيماته، فأنى يسمح آخر الزمان عثلمهم، فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول، قد انقضى فى القرن الأول ومن يليهم. بل يمز فى زماننا عالم مختلج فى نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضا إمام معدوم وإمام عزيز. ولولا بشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله <sup>(١)</sup> «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مِّنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بَعْشَرٌ مَّا أَتَمُّوا عَلَيْهِ نَجَاءً، لَكَانَ جَدِيرًا أَنْ تَقْتَحِمَ، وَالْمِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى. وَرَطَّةُ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ، مَعَ مَا حُنَّ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِنَا. وَمِنْ لَنَا أَيْضًا بِالتَّمَسُّكِ بِعَشْرٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ؛ وَلَيْتَنَا عَمَّسَكْنَا بِعَشْرٍ عَشْرَهُ، فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَمْلَأَنَا عَاهُو أَهْلِهِ وَيَسْتَرْعِلِنَا قِبَاحِ أَعْمَالِنَا كَمَا يَقْتَضِيهِ كَرَمُهُ وَفَضْلُهُ

الثانى : العمل والعبادة . وليس يخلو عن رذيلة العز هو الكبر، واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد . ويتروح الكبر منهم فى الدين والدنيا . أما فى الدنيا، فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقمون قيام الناس بقضاء حوائجهم، وتوقيرهم، والتوسع لهم فى المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى، وتقديعهم على سائر الناس فى الحظوظ، إلى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء . وكانهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما فى الدين، فهو أن يرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقير ما هارأى ذلك . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلُكُمُ » ، وإنا قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله، مغتر بالله، آمن من مكروه، غير خائف من سطوته . وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « كَفَى بِالْمُرءِ شَرًّا أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ » ، وكم من الفرق بينه وبين من يحبه الله، ويمظمه لعبادته ويستعظمه، ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه فالخلق يدر كون النجاة بتعظيمهم إيا الله، فهم يقربون إلى الله تعالى بالدنومنه، وهو تمت إلى الله بالتزهر والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم فأجدرهم إذا أجوه

( ١ ) حديث سياتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما تم عليه نجاة أحمد من رواية رجل عن أبي ذر

( ٢ ) حديث إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم: مسلم من حديث أبي هريرة

( ٣ ) حديث كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم: مسلم من حديث أبي هريرة . بلقظه امرؤ من الشر

فصلحه ، أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل ، وما أجدره إذا زدارهم بعينه ، أن ينقله الله إلى حد الإهمال ، كما روي أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له خليع بن إسرائيل ، لكثرة فساده مرّ برجل آخر يقال له عابده بن إسرائيل . وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به ، فقال الخليع في نفسه أنا خليع بن إسرائيل ، وهذا عابده بن إسرائيل . فلو جلست إليه لعل الله يرحمي . فجلس إليه . فقال العابد . أنا عابده بن إسرائيل ، وهذا خليع بن إسرائيل ، فكيف يجلس إلي ! فأنف منه ، وقال له قم عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان ، مرهما فليستأنفا العمل ، فقد غفرت للخليع ، وأحببت عمل العابد . وفي رواية أخرى ، فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع . وهذا يبرك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبه لله ، وذل خوفانه ، فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر ، والعابد المعجب . وكذلك روي أن رجلا في بني إسرائيل ، أتى عابدا من بني إسرائيل ،<sup>(١)</sup> فوطى على رقبته وهو ساجد . فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه أيها المتألي على ، بل أنت لا يغفر الله لك . وكذلك قال الحسن . وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخ . أي أن صاحب الخبز يذل لصاحب الصوف ، ويرى الفضل له ، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه . وهذه الآفة أيضا فلما ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف ، أو آذاه مؤذ ، استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك في أنه صار محفوزا عند الله . ولو آذى مسلما آخر لم يستكر ذلك الاستنكار . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل ، وجمع بين الكبر ، والمعجب ، والاعتزاز بالله . وقد ينهي الحق والغبوة ببعضهم إلى أن يتحدث ويقول : سترون ما يجري عليه . وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله يراد به الإشفاء غليله ، والانتقام له منه . مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ، قتلهم من قتلهم ، ومنهم من ضربهم ثم إن الله أهمل أكثرهم ولم يماقهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة . ثم لجاهل المنور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه ، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به . ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين

(١) حديث الرجل من بني إسرائيل الذي وطى . على رقبة عابده من بني إسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك - الحديث : أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي والله لا يغفر الله لك أبنا وهو بغير هذه السياقة وإسناده حسن



وأما الأكياس من العباد، فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي، ولومات عطاء لتخلصوا. وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة بليهم لولا كونى فيهم. فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتقى الله ظاهرا وباطنا، وهو وجل على نفسه، مزدرد لعمله وسعيه، وذلك ربما يضمن من الرياء، والكبر، والحسد، والغلب، ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزأه فوق أحد من عباد الله، فقد أحبط بجهله جميع عمله. فإن الجهل أخش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض، وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ولذلك روى أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> فأقبل ذات يوم، فقالوا يارسول الله هذا الذى ذكرناه لك. فقال «إِنِّى أَرَى فِى وَجْهِهِ سَفَعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ» فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «أَسَأَلُكَ بِاللهِ حَدَّثْتُكَ نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِى الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ؟» قال اللهم نعم. فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله. لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقرا في قلبه، يرى نفسه خيرا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه. وهذا قدر سخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالسكينة

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله، بالترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه. وأدنى ذلك في العالم أن يصغر خده للناس كأنه معرض عنهم وفي العابد أن يعبس وجهه؛ ويقطب جبينه، كأنه متنزه عن الناس، مستدر لهم، أو غضبان عليهم. وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصغر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> «التَّقْوَى هَهُنَا» وأشار إلى صدره. فقد كان رسول الله

(١) حديث ان رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل ذات يوم فقالوا يارسول الله هذا الذى ذكرناه لك. فقال انى أرى في وجهه سفعة من الشيطان. الحديث: أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه.

(٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى صدره: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً وتسامواً وبساطاً ولذلك قال الحارث بن جزء الزيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعجبني من القراء كل طليق مضحك. فأما الذي تلقاه يبشر ويلقاك بعبوس، وعن عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين<sup>(٢)</sup>)

وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم، فأحوالهم أخف حالاً ممن هو في الرتبة الثالثة، وهو الذي يظهر الكبر على لسانه، حتى يدعو إلى الدعوى، والمفاخرة، والمباهاة وتزكية النفس، وحكايات الأحوال والمقامات، والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل أما المابذ فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد: من هو؟ وما عمله؟ ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثنى على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كنا وكنا ولا أنام الليل، وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سحراً، ولا يكثر القراءة. وما يجري مجراه. وقد يركى نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده، وأخذماله، وأمراض أو ما يجري مجراه، يدعى الكرامة لنفسه. وأما مباهاته، فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل، قام وصلى أكثر مما كان يصلي. وإن كانوا يصبرون على الجوع، فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم، ويظهر لهم قوته وعجزهم. وكذلك يشتد في العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه، أو أقوى منه في دين الله. وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفان في العلوم، ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا. ومن أنت؟ وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصنعه ويمظم نفسه. وأما مباهاته فهو أنه يهتم في المناظرة أن يغيب ولا يُغاب. ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المخافل، كالمناظرة، والجدل وتحسين العبارة. وتسجيع الألفاظ. وحفظ العلوم التعريفة ليغرب بها على الأقران، ويمظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يورد على من أخطأ فيها. فيظهر فضله ونقصان أفرانه، ويفرح مبهماً أخطأ واحد منهم

(١) حديث كان أكرم الخلق وأتقاهم - الحديث: تقدم في كتاب أخلاق النبوة

يرد عليه ، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه  
فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التمرز بالعلم والعمل . وأين من يجلو عن  
جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعري من الذى عرف هذه الأخلاق من نفسه ، وسمع  
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ  
خَرْدٍ ذَلِكَ مِنْ كِبَرٍ » كيف يستعظم نفسه ، ويتكبر على غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم  
يقول إنه من أهل النار . وإعما العظيم من خلا عن هذا . ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم  
وتكبر . والعالم هو الذى فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا  
فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ،  
ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل

الثالث . التكبر بالحسب والنسب . فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك  
النسب ، وإن كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعييد ، ويأنف  
من مخالطهم ومجالستهم . وعمرته على اللسان التفاخر به ، فيقول لغيره يا بطنى ، يا هنتى ،  
ويا أرمنى ، من أنت ؟ ومن أبوك فأنا فلان بن فلان ، وأين لثلك أن يكلمنى أو ينظر إلى أومع  
مثلى تتكلم ! وما يجرى مجراه وذلك عرق دفين فى النفس ، لا ينفك عنه نسيب ، وإن كان صالحا  
وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال . فإن غلبه غضب ألقا ذلك نور  
بصيرته ، وترشح منه ، كما روى عن أبي ذر أنه قال : قاوت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup>  
فقلت له يا ابن السوداء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا ذَرٍّ طَفُّ الصَّاعِ طَفُّ الصَّاعِ  
لَيْسَ لِابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ السُّودَاءِ فَضْلٌ » فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل  
قم فطأ على خدى ، فانظر كيف نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه  
ابن بيضاء ، وأن ذلك خطأ وجهل . وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخص قدم  
من تكبر عليه ، إذ عرف أن المز لا يقيمه إلا الذل . ومن ذلك ما روى أن رجلا تفاقرا

(١) حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر . تقدم

(٢) حديث أبي ذر قاوت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء . الحديث . ابن المبارك

فى البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر فلان لست  
بخير من أحمر ولا أسود لأن تفضله يتقوى

عند النبي صلى الله عليه وسلم ،<sup>(١)</sup> فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان ، فمن أنت لأملك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتخر رجلاً عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر ببل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « ليدعن قوم الفخر يا أيهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجمالان التي تدرف يا نأفها القدر »

الرابع : التفاخر بالجمال ، وذلك أكثر ما يجري بين النساء ؛ ويدعو ذلك إلى التنقص ، والثلب ، والغبية ، وذكر عيوب الناس . ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم ،<sup>(٣)</sup> فقلت يدي هكذا ، أي إنها قصيرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قد اغتنيها » وهذا منشؤه خفاء الكبر ، لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكانها أعجبت بقامتها ، واستقصرت المرأة في جنب نفسها ، فقالت ما قالت

الخامس : الكبر بالمال . وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم ، وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقين في أراضيهم ، وبين المتجملين في لباسهم ، وخبولهم ، ومراكبهم . فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين ، وأنا لو أردت لا اشتريت مثلك ، واستخدمت من هو فوقك . ومن أنت ؟ وما معك ؟ وأساس بيتي يساوي أكثر من جميع مالك وأنا أنفق في اليوم مالا تأكله في سنة . وكل ذلك لاستمظامه للغنى واستحقاره للفقير وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى . وإليه الإشارة بقوله تعالى ( فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً<sup>(١)</sup> ) حتى أجابه فقال ( إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً

( ١ ) حديث ابن جريرين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت

لأبلك - الحديث : عبد الله بن أحمد في زوائد السنن من حديث أبي بن كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط

( ٢ ) حديث ليدعن قوم الفخر يا أيهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجمالان - الحديث : أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة

( ٣ ) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا ، أي إنها قصيرة - الحديث : تقدم في آفات اللسان -

فَمَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا<sup>(١)</sup> وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد . ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ( يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا<sup>(٢)</sup> ) .

ومن ذلك تكبر قارون ، إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره ( فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ<sup>(٣)</sup> )

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش ، والتكبر به على أهل الضعف

السابع : التكبر بالأتباع ، والأنصار ، والتلامذة ، والعلمان ، وبالمشيرة ، والأقارب ، والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاترة بالجنود ، وبين العلماء فى المكاترة بالمستفيدين

وبالجملة فكل ما هو نعمة ، وأمكن أن يعتقد كمالا ، وإن لم يكن فى نفسه كمالا ، أمكن أن يتكبر به . حتى أن الخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة الخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به ، وإن لم يكن فعله إلا نكالا . وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب ، وكثرة الفجور بالنسوان والعلمان ، ويتكبر به ، لظنه أن ذلك كمال ، وإن كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلى بشيء منه على من لا يدلى به ، أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده ، وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه ، لظنه أنه هو الأعلم ، ولحسن اعتقاده فى نفسه نسأل الله العون بلطفه ورحمته ، إنه على كل شيء قدير

## بيان

البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهى ثمرة ونتيجة . وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استمطام النفس ، ورؤية قدرها فوق قدر الغير . وهذا الباطن له موجب واحد ، وهو العجب الذى يتعلق بالتكبر كما سياتى معناه

(١) الكهف : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . (٢) التكهف : ٤٢ . (٣) القصص : ٧٩ .

فإنه إذا أعجب بنفسه ، وبعلمه ، وبعمله ، أو بشيء من أسبابه ، استعظم نفسه وتكبر .  
وأما الكبر الظاهر ، فأسبابه ثلاثة . سبب في التكبر ، وسبب في التكبر عليه ، وسبب  
فيما يتعلق بغيرهما . أما السبب الذي في التكبر ، فهو العجب . والذي يتعلق بالتكبر عليه ،  
هو الحقد والحسد . والذي يتعلق بغيرهما ، هو الرياء . فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة :  
العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء . أما العجب ، فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن ،  
والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الأعمال ، والأقوال والأحوال . وأما الحقد ، فإنه  
يحمل على التكبر من غير عجب ، كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد  
غضب عليه بسبب سبق منه ، فأورثه الغضب حقدا ، ورسخ في قلبه بغضه . فهو لذلك لا تطاوعه  
نفسه أن يتواضع له ، وإن كان عنده مستحقا للتواضع . فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع  
لواحد من الأكابر لحقده عليه ، أو بغضه له . ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته ، وعلى الأنفة  
من قبول نصحه . وعلى أن يجتهد في التقدم عليه ، وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستحله  
وإن ظلمه . فلا يمتدرا إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به . وأما الحسد فإنه أيضا  
يوجب البغض للمحسود ، وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد . ويدعو  
الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم . فكم من جاهل يشاق  
إلى العلم ، وقد قى في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقالبه ، حسدا  
وبغيا عليه ، فهو يرض عنه ، ويتكبر عليه ، مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل عامه . ولكن  
الحسد يبعثه على أن يامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه  
وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى أن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل  
منه ، وليس بينه وبينه معرفة ، ولا محاسنة ، ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ،  
ولا يتواضع له في الاستفادة ، خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه . فيكون باعته على التكبر عليه  
الرياء المجرد ولو خلاصه بنفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالعجب ، أو الحسد ،  
أو الحقد ، فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معها ثالث . وكذلك قد ينتمى إلى نسب  
شريف كاذبا ، وهو يعلم أنه كاذب . ثم يتكبر به على من ليس ينتمى إلى ذلك النسب ، ويرفع  
عليه في المجالس ، ويتقدم عليه في الطريق ، ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير ، وهو عالم

باطنا بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه ، لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب . ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين . وكان اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن ، صادر عن العجب ، والنظر إلى الغير بعين الاحتقار . وهو إن سمي متكبرا فلاجل التشبه بأفعال الكبر ، نسأل الله حسن التوفيق . والله تعالى أعلم

## بيان

اخلاق المتواضعين ، ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل ، كصعق وجهه ، ونظرة شزرا ، وإطرافه رأسه وجلسه متربعا أو متكئا . وفي أقواله ، حتى في صوته ونغمته ، وصيغته في الإيراد . ويظهر في مشيته وتبخره ، وقيامه وجلسه ، وحركاته وسكناته . وفي تعاطيه لأفعاله ، وفي سائر تقلباته في أحواله ، وأقواله ، وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض . فمنها التكبر بأن يجب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فليتنظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس<sup>(١)</sup> لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ومنها أن لا يمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه . قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزاد من الله بعد ما مشى خلفه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصرى فتمهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> في بعض الأوقات يمشى مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ، ويمشى في غمارهم ، إما لتعليم غيره ، أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له الحديث : تقدم في آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة

(٢) حديث كان في بعض الأوقات يمشى مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي امامة بسند ضعيف جدا انه خرج يمشى إلى البقيع فنتعه أصحابه فوقفه فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسل عن ذلك فقال انى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع في نفسى شي من التكبر وهو منكرو فيه جماعة ضعفاء

والعجب <sup>(١)</sup> كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة ، وأبدله بالخليج ، لأحد هذين المعنيين . ومنها لأن لا يزور غيره ، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين . وهو ضد التواضع . روى أن صفيان الثوري قدم الرملة . فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا . فجاء صفيان . فقيل له . يا أبا اسحق ، تبعث إليه بمثل هذا ! فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه . . ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه ، إلا أن يجلس بين يديه . والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد ، فس نخذي فخذه ، فنحيت نفسي عنه . فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ؟ وإني لأعرف رجلا منكم شرامنى . وقال أنس <sup>(٢)</sup> كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت . . ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعالولين ، ويتحاشى عنهم وهو من الكبر <sup>(٣)</sup> دخل رجل وعليه جدرى قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده قاس من أصحابه يأكلون ، فاجلس إلى أحد لإقام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يجلس عن طعامه مجذوما ، ولا أبرص . ولا مبتلى إلا أقدم على مائدته . . ومنها أن لا يتعاطى يده شغلا في بيته . والتواضع خلافه . روى أن عمر بن عبد العزيز أمناه ليلة ضيف ، وكان يكتب ، فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه ؛ فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه . قال أفأنا بنه الغلام ؟ فقال هي أول نومة نامها . فقام وأخذ البطة ، وملا المصباح زيتا . فقال الضيف قتت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ! فقال ذهب وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ، ما نقص منى شيء . وخير الناس من كان عند الله متواضعا . . ومنها أن لا يأخذ متاعه <sup>(٤)</sup> ويحمله إلى بيته . وهو خلاف عادة المتواضعين . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك . وقال على كرم الله وجهه . لا ينقص الرجل الكامل

( ١ ) حديث أخرجه الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليج . قلت المعروف نزع الشرك الجديد ورد الشرك

الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنجارية وكلاهما تقدم في الصلاة

( ٢ ) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث :

تقدم في آداب العيشة

( ٣ ) حديث الرجل الذي به جدرى واجلسه إلى جنبه : تقدم قريبا

( ٤ ) حديث حملة متاعه إلى بيته : أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرايته للسراويل وحملة : وتقدم



من كماله ما حمل من شىء إلى عياله . وكان أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير ، يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت أبا هريرة أتقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك . وعن الأصمعي بن نباتة قال : كأني أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله ، وقال بعضهم . رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم . فحمله في ملحفته . فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال لا ، أبو العيال أحق أن يحمل

ومنها اللباس ، إذ يظهر به التكبر والتواضع . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَلْبَدَاذُ مِنَ الْإِيمَانِ » فقال هارون : سألت معنأ عن البذاذة ، فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ، ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم . وعبت على كرم الله وجهه في إزاره مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ، ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام . جودة الثياب خيلاء في القلب . وقال طاوس : إني لأغسل ثوبي هذين ، فأنكر قلبي ماداما تقيين ، ويروى أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ، كان قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف دينار ، فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها . فلما استخلف ، كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم . فيقول ما أجوده لولا لينه . فقيل له أين لباسك ، ومركبك ، وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن لي نفسا ذواقا ، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تافت إلى الطبقة التي فوقها ، حتى إذا ذافت الخلافة ، وهي أرفع الطباق ، تافت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد . صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعطاك ، فلو لبست ، فنكس رأسه مليا ، ثم رفع رأسه فقال ، إن أفضل القصد عند الجدة ، وإن أفضل العفو عند القدرة . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ تَرَكَ زِينَةَ اللَّهِ وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضَعًا لِلَّهِ وَابْتِغَاءَ لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِرَ لَهُ عِبْقَرِي الْجَنَّةِ »

(١) حديث البذاذة من الإيمان: أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم

(٢) حديث من ترك زينة الله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله - الحديث : أبو سعيد الملقب في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة الله - الحديث وفي اسناده نظر

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> عن الجمال في الثياب ، هل هو من الكبر ؟ فقال : لا وَلَكِنَّ مَنْ سَفِهَ أَخْلُقَ وَغَمِصَ النَّاسَ « فكيف طريق الجمع بينهما ؟ . فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال . وهو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> من حال ثابت ابن قيس ، إذ قال إنى امرؤ جيب إلى من الجمال ماترى ، فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب ، لا يتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر . كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجل إذا رآه الناس ، ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته ، وحتى في سنور داره . فذلك ليس من التكبر .

فإذا اتسمت الأحوال . نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال . على أن قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء في القلب . وقول نبينا صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعنى أن الكبر لا يوجبه . ويجوز أن لا يوجبه الكبر ، ثم يكون هو مورثا للكبر .

وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا ، والمحبوب الوسط من اللباس ، الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سَرَافٍ وَلَا تَخِيلَةٍ » <sup>(٤)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَنْ يَرَى أَنْ يَرَى أَنْ يَرَى عَلَى عِبْدِهِ » ، وقال بكر بن عبدالله المزني : البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية . وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأنوني وعليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري . البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية

( ١ ) حديث سئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال لا - الحديث : تقدم غير مرة

( ٢ ) حديث ان ثابت بن قيس قال للنبي صلى الله عليه وسلم انى امرؤ جيب الى الجمال - الحديث : هو الذى قبله سعى فيه السائل وقد تقدم

( ٣ ) حديث كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير اسراف ولا تخيلة : الساسان وابن ماجه من روايه سمرو ابن شعيب عن ابيه عن جده

( ٤ ) حديث ان الله يحب ان يرى أثر نعمته على عبده : الترمذى وحينما من رواية سمرو بن شعيب عن ابيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه . فذلك هو الأصل . وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغى أن يقتدى به . ومنه ينبغى أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدرى : ما ترى فيما أحدث الناس من اللبس ، والمشرب ، والمركب ، والمطعم ؟ فقال يا ابن أخي ، كل لله ، واشرب لله ، والبس لله . وكل شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة ، فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة <sup>(١)</sup> ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته . كان يملف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النمل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعمى ، ويشترى الشئ من السوق ، ولا ينعمه من الحياه أن يعلقه بيده ، أو يجعله في طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصافح الغنى والفقير ، والكبير والصغير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير ، أسوداً وأحمره حراً وعبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعى ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر مادعى إليه ، وإن لم يجد إلا حشف الدقل . لا يرفع غداً لعشاء ، ولا عشاء لغداً . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة طليق الوجه ، بسام من غير ضحك ، محزون من غير عبوس ، شديد في غير عنف ، متواضع في غير مذلة ، جواد من غير سرف ، رحيم لكل ذى قربى ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ، ولا يمد يده من طمع . قال أبو سلمة . فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر ، إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتلى قط شعراً ، ولم يأت إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأجيب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعاً يتوى ليلته حتى يصبح ، فما عنمه ذلك عن صيام يومه . ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز

(١) حديث أبي سعيد الخدرى وعائشة قال الخدرى لأبي سلمة عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج في بيته كان يغلف الناضح - الحديث : وفيه قول أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك من أبي سعيد فقالت ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يتلى قط شعراً الحديث : بطوله لم أقف له ما على اسناد

الأرض ونغارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفضل . وربنا بكييت رحمة له مما أوتى من الجوع ، فأمسح بطنه بيدي ، وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنحك من الجوع ؟ فيقول يا عائشة ، إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، وقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم . فأجدنى استحيى إن ترفهت فى معيشتى ، أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، وما من شئ أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى . قالت عائشة رضى الله عنها . فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل فما تقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين ، فمن يطلب التواضع فليقتد به . ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين ، فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فكلنا نطلب العز فى غيره ، لما عوتب فى بداذة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال ، خلف من الأنبياء ، هم أوتاد الأرض . فلما انقضت النبوة ، أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ، ولكن بصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله ، بصبر من غير تجبن ، وتواضع فى غير مذلة . وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا ، أو ثلاثون رجلا ، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه ، واعلم يا أخى أنهم لا يلعبون شيئا ، ولا يؤذونه ، ولا يحقرونه ، ولا يتناولون عليه ، ولا يحسدون أحدا ، ولا يحرضون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيرا ، وألينهم عريكة ، وأسخام نفسا . علامتهم النسخاء ، وسجيتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة . ليسوا اليوم فى خشية ، ورغد فى غفلة . ولكن مدارمين على حالهم الظاهر ، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدرى الرياح العواصف ، ولا الخيل المجرأة . قلوبهم تصعدارتياحا إلى الله ، واشتياقا إليه وقدما فى استباق الخبرات . أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون .

قال الراوى: فقلت يا ابا الدرداء ، ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة ، وكيف لى أن أبلغها؟ فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا . فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة . وبقدر حبك للآخرة ترهد فى الدنيا . وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد ، واكتنفه بالعصمة . واعلم يا ابن أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل ( إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ بِمُحْسِنُونَ <sup>(١)</sup> ) قال يحيى بن كثير . فنظرنا فى ذلك ، فما تلهذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محب المحبين لك يارب العالمين ، فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضىته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

## بيان

الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات . ولا يخلو أحد من الخلق عن شىء منه . وإزالته فرض عين . ولا يزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القائمة له . وفى معالجته مقامان أحدهما: استئصال أصله من سنخه ، وقلع شجرته من مغرسها فى القلب  
الثانى : دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التى بها يتكبر الإنسان على غيره  
المقام الأول : فى استئصال أصله . وعلاجه علمى وعملى . ولا يتم الشفاء إلا بمجموعها . أما العلمى ، فهو أن يعرف نفسه ، ويعرف ربه تعالى . ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر . فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، وأقل من كل قليل . وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة . وإذا عرف ربه ، علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله  
وأما معرفته ربه وعظمته ومجده ، فالقول فيه يطول ، وهو منتهى علم المكاشفة  
وأما معرفته نفسه ، فهو أيضا يطول ، ولسكنا نذكر من ذلك ما ينفع فى إثارة التواضع والذلة . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله ، فإن فى القرويات علم الأولين والآخريين لمن فتحت بصيرته . وقد قال تعالى ( قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ قَدْرَهُ \* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ \* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ \* ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (١) فقد  
 تشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه. فلينظر الإنسان ذلك  
 ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً؛ وقد كان في حيز العدم  
 دهوراً، بل لم يكن لقدمه أول. وأى شيء أخس وأقل من الحو والعدم؟ وقد كان كذلك  
 في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أفذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من  
 علقه، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً. فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان  
 شيئاً مذكوراً. فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت، إذ لم يخلق  
 في ابتدائه كاملاً، بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع، ولا يبصر، ولا يحس، ولا يتحرك ولا ينطق  
 ولا يبطش، ولا يدرك ولا يعلم. فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل  
 علمه، وبماه قبل بصره، وبصممه قبل سماعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه،  
 وبفقره قبل غناه، وبمجزه قبل قدرته، فهذا معنى قوله (من أي شيء خلقه من نطفة  
 خلقه قدره (٢)). ومعنى قوله (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً  
 مذكوراً؟) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج بتبليته (٣) كذلك خلقه أولاً. ثم امتن عليه  
 فقال (ثم السبيل يسره (٤)) وهذا إشارة إلى ما تبسر له في مدة حياته إلى الموت، وكذلك  
 قال (من نطفة أمشاج بتبليته فجعلناه سميعاً بصيراً \* إنا هدينا السبيل إما شاكراً  
 وإما كفوراً (٥)) ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً، تراباً أولاً، ونطفة ثانياً، وأسمه بعد  
 ما كان أصم، وبقصره بعد ما كان فاقدا للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق  
 له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع  
 وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره  
 وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال (أو لم يتر  
 الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين (٦)) ومن آياته أن خلقكم من ترابٍ  
 ثم إذا أنتم بشير تنتشرون (٧). فانظر إلى نعمة الله عليه، كيف يقفه من تلك الذلة، والقلّة  
 والخسة، والقدارة، إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحيّاً بعد المعز.

(١، ٢، ٣) عبس: من ١٧ إلى ٢٣ (٥، ٤) الدهر: ٥، ٤، ٣ (٤) عبس: ٧٧ (٥) الروم: ٢٠

وغنيا بعد الفقر . فكان في ذاته لاشيء ، وأى شيء أخس من لاشيء ، وأى قلة أقل من العدم المحض ، ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الدليل الذى يوطأ بالأقدام ، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ، ليعرفه خسة ذاته ، فيعرف به نفسه ، وإنما أكل النعمة عليه ليعرف بها ربه ، ويعلم بها عظمته وجلاله ، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلاه . ولذلك امتن عليه فقال ( أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ \* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ \* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ <sup>(١)</sup> ) وعرف خسته أو لا فقال ( أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْفَى \* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً <sup>(٢)</sup> ) ثم ذكر مته عليه فقال ( فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى <sup>(٣)</sup> ) ليدوم وجوده بالتناسل ، كما حصل وجوده أولا بالاختراع

فمن كان هذا بدأه ، وهذه أحواله ، فمن أين له البطر والكبرياء ، والفخر والخيلاء ، وهو على التحقيق أخس الأخساء ، وأضعف الضعفاء ! ولكن هذه عادة الخسيس ، إذا رفع من خسته شمع بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره ، وأدام له الوجود باختياره ، لجاز أن يطنى ؛ رينسى البدأ والمتهى ، ولكنه سلط عليه فى درام وجوده الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات المختلفة ، والطباع المتضادة من المرة ، والبلغم ، والريح ، والدم ، يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى ، أم سخط ، فيجوع كرها ، ويمطش كرها ، ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا خيرا ولا شرا ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء ويفعل عنه فلا يفعل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهيمه فيجول فى أودية الوسوس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه ، ويشتهى الشيء وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه . يستلذ الأطعمة ويهلك وترديه ويستبشع الأدوية وهى تنفضه وتحبسه ، ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب همه ويصرمه وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ، ويختطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه فى دنياه . فهو مضطرب ذليل ، إن تركبى ، وإن اختطف نبي . عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ، ولا شيء من غيره . فأى شيء أذل منه . لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله . فهذا الوسط أحواله فليتأمل

(١) البلد : ٨ ، ٩ ، ١٠ (٢ ، ٣) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ( ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ # ثُمَّ إِذَا شَاءَ  
لَأَنْشُرَهُ <sup>(٢١)</sup> ) ومنه أنه يسلب روحه، وسمعه، وبصره، وعامه، وقدرته، وحسه، وإدراكه  
وحركته، فيعود جثا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، لا حس فيه  
ولا حركة. ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة، كما كان في الأول نطفة مذرة،  
ثم تبلى أعضاؤه، وتتفتت أجزاؤه، وتنخر عظامه، ويصير رميا رفاتا، ويأكل الدود أجزاءه  
فيئثدي، بحدقته فيقلعها، ويجديه فيقطعها، وبسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف  
الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، ويهرب منه لئلا  
لا يتناك، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير ترابا يعمل منه الكيزان، ويعمر  
منه البنيان، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا، وصار كأن لم يكن بالأمس حصيدا، كما  
كان في أول أمره أمدا منيدا. وليته بقى كذلك، فأحسنه لو ترك ترابا. لا بل يجيئه بعد  
طول البلى اليقاسى شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى  
أحوال القيامة، فيتظر إلى قيامة قاعة، وسما مشققة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة  
ونجوم منكذرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجنهم تفرق  
وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر. ويرى صحائف منشورة، فيقال له اقرأ كتابك، فيقول  
وما هو، فيقال كان قد وكل بك في حياتك، التي كنت تفرح بها، وتتكبر بنعيمها، وتفتخر  
بأسبابها، ملكان رقيبان، يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله، من قليل وكثير،  
وتقير وقطير، وأكل وشرب، وقيام وعود. قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك. فهل  
إلى الحساب، واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب. فينقطع قلبه فزعا من هول هذا  
الخطاب، قال أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه. فإذا شاهده قال: يا ويلتنا،  
ما لهذا الكتاب لا يتادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى  
( ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرَهُ <sup>(٢٢)</sup> ) . فإذن هذا حاله والتكبر والتعظم، بل ماله وللفرح في لحظة  
وأحدة، فضلا عن البطر والأشر، فقد ظهر له أول حاله، ووسطه، ولو ظهر آخره والبيات  
بأنه تعالى وما اختار أن يكون كذا أو بخيرا، ليصير مع اليهائم ترابا، ولا يكون إنسانا



يسمع خطابا ، أو يلقى عذابا . وإن كان عند الله مستحقا للنار فالتنزيير أشرف منه وأطيب وأرفع ، إذ أوله التراب ، وآخره التراب ، وهو بمنزل عن الحساب والعذاب . والكلب والتنزيير لا يهرب منه الخلق ؛ ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصمقوا من وحشة خلقته ، وقبح صورته . ولو وجدوا ريحها لما توا من ننته ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يستقى منه فى بحار الدنيا لسارت أنثى من الجيفة . فمن هذا حاله فى العاقبة ، إلا أن يمفو الله عنه وهو على شك من المفو ، كيف يفرح وييطر ، وكيف يتكبر ويتجبر ، وكيف يرى نفسه شيئا حتى يمتقد له فضلا . وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة ؟ إلا أن يمفو الله الكريم بفضله ، ويجبر الكسر بمنه . والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ، ولا قوة إلا بالله . رأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنائته ضرب ألف سوط ، فخبس فى السجن . وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض ، وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدري أى معنى عنه أم لا ، كيف يكون ذله فى السجن ؟ أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه ، وقد استحق العقوبة من الله تعالى ، ولا يدري كيف يكون آخِر أمره فيكفيه ذلك حزنا ، وخوفا ، وإشفاقا ، ومهانة ، وذلك . فهذا هو العلاج العامى القامع لأصل الكبير وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق ، بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناها من أحوال الصالحين ، ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » وقيل لسامان لم لا تلبس ثوبا جديدا ؟ فقال : إنما أنا عبد ، فإذا أعتقت يوما لبست جديدا . أشاربه إلى العتق فى الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا ، وقيل الصلاة عماد الدين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا . ومن جعلها بما فيها من التواضع بالثول قائما ، وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديما يأتفون من الانحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، وينقطع شركاء عمله فلا ينكسر رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام

( ١ ) حديث كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد : تقدم فى آداب العيشة

(١) يايمت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لأخر إلا قائما ، فبايمه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكل إيمانه بمد ذلك ، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعفة ، أمروا به لتكسر بذلك خيلاؤهم ، ويزول كبرهم ، ويستقر التواضع في قلوبهم . وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع ، والسجود ، والمثول قائما ، هو العمل الذي يقتضيه التواضع . فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال ، فليواظب على تقيضه ، حتى يصير التواضع له خلقا ، فإن القلوب لا تتخاق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا ، وذلك لخفاء الملافة بين القلب والجوارح ، وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت للمقام الثاني : فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة . وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل . فأما ما عداها مما يفنى بالموت فكمال وهمي . فمن هذا يمسر على العالم أن لا يتكبر ولكننا نذكر طريق الملاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة الأولى : النسب ، فمن يعتربه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن هذا جهل من حيث أنه تبرز بكمال غيره ، ولذلك قيل

لئن نخرت بأبائك ذوى شرف \* لقد صدقت ولكن بنس ما ولدوا

فالتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره . بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لي ، ومن أنت ؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولي . أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس ؟ هيهات ، بل هما متساويان ، والشرف للإنسان لا للدودة

الثاني : أن يعرف نسبه الحقيقي ، فيعرف أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قد رقه وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال ( الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (١) ) فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ، ثم حمر طينه حتى صار حمأ مسنونا ، كيف يتكبر

(١) حديث حكيم بن حزام يايمت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لأخر إلا قائما - للحديث : رواه

أحمد مقتصرا على هذا وفيه إرسال خفي

وأخس الأشياء ما إليه انتسابه، إذ يقال: يأذل من التراب، ويأنتن من الحمأة، ويأفذر من المضغة . فإن كان كونه من أيه أقرب من كونه من التراب، فنقول افتخر بالتريب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب، فليحقر نفسه بذلك. ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه، فالأب الأعلى من التراب، فمن أين رفعتة؟ وإذا لم يكن له رفعة، فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذا أصله من التراب، وفصله من النطفة، فلا أصل له ولا فصل. وهذه غاية خسة النسب. فالأصل يوطأ بالأقدام، والفصل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان. ومن عرفه لم يتكبر بالنسب، ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله، كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم، وقد أخبره بذلك والده فلم يزل فيه نخوة الشرف، فبينما هو كذلك إذا أخبره عدول لا يشك في قولهم، أنه ابن هندی حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبس عليه، فلم يبق له شك في صدقهم أقرى أن ذلك يبقى شيئاً من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم. فهو من استعمار الخزى نخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة، والمضغة، والتراب. إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها، لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أيه للتراب والدم. فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي ينزعه عنها هو في نفسه.

السبب الثاني: التكبر بالجمال. ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم. ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبايح ما يقدر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقدار في جميع أجزائه، الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوبسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته. والصنان تحت إبطه، ينسل الفائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستهزئه، فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليصرف قذارته وذله. وهذا في حال توسطه. وفي أول أمره خلق من الأقدار الشبهة الممور، من النطفة، ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقدار؛ إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول، ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرى التلدر

قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول مرتين . وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من في بطنه خرة . إذ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه . ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعدها بالتنظيف والغسل ، لشارت منه الأتتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملّة التي لا تتعهد نفسها قط

فإذا نظر أنه خلق من أقذار ، وأسكن في أقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار ، لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن ، وكلون الأزهار في البوادي ، فينبأ هو كذلك إذا صار هشيماً تذروه الرياح . كيف ولو كان جماله باقياً ، وعن هذه القبائح خالياً ، لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبيح القبيح إليه فينفيه ، ولا كان جمال الجليل إليه حتى يحمد عليه . كيف ولا بقاء له ، بل هو في كل حين يتصور أن يزول مرض ، أو جدري ، أو قرحة ، أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب . فعرفه هذه الأمور تنزع من القلب داء التكبر بالجمال لمن أكثر تأملها السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى . ويعتد من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من الملل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل حاجز ، وأذل من كل ذليل . وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه . وأن بقعة لو دخلت في أنفه ، أو نملة دخلت في أذنه لقتلته . وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته . وأن حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر في مدة . فمن لا يطيق شوكة ، ولا يقاوم بقعة ، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة ، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته . ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار ، أو بقرة أو قمل ، أو جمل . وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم

السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال . وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار ، والتكبر بولاية السلاطين ؛ والتمكن من جهتهم . وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقيح أنواع الكبر . فإن المتكبر بما له كأنه متكبر بفرسه وداره : ولومات فرسه وأنهدمت داره لعاد ذليلاً . والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه ، بنى أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر . فإن تغير عليه كان أذل الخلق .

وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل . كيف والمتكبر بالتقى لو تأمل  
 رأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل . فأف لشرف يسبقك به اليهودى  
 وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة ، فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً . فهذه أسباب  
 ليست فى ذاته . وما هو فى ذاته ليس إليه دوام وجوده ، وهو فى الآخرة وبال ونسكال  
 فالتفاخر به غاية الجهل . وكل ما ليس إليك فليس لك . وشيء من هذه الأمور ليس إليك  
 بل إلى واهبه ، إن أبقاه لك ، وإن استرجعه زال عنك . وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر  
 على شيء . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره . ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته ، وجماله  
 وماله ، وحريته ، واستقلاله ، وسعة منازله ، وكثرة خيوله وغلمانه ، إذ شهد عليه شاهدان  
 عدلان عند حاكم منصف ، بأنه رقيق لفلان ، وأن أبويه كانا مملوكين له ، فلم ذلك وحكم  
 به الحاكم ، فجاء مالكة فأخذه وأخذ جميع ما فى يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به  
 لتفريطه فى أمواله ، وتقصيره فى طاب مالكة ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد قرأى  
 نفسه محبوساً فى منزل ، قد أهدت به الحيات والعقارب والهوام ، وهو فى كل حال على  
 وجل من كل واحدة منها ، وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ، ولا يعرف طريقاً فى الخلاص  
 ألبته . أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته ، وثروته ، وقوته ، وجماله؟ أم تذلل نفسه  
 ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير . فإنه يرى نفسه كذلك ، فلا يملك رقبته ، وبدنه  
 وأعضائه ، وماله ، وهو مع ذلك بين آفات ، وشهوات ، وأمراض ، وأسقام ، هي كالعقارب  
 والحيات ، يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته ، إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة  
 فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة ، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم  
 والعمل ، فإنهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضاً نوع  
 من الجهل خفى كما سنذكره

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات ، وأغلب الأدوية ، وأبدها عن قبول  
 العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد . وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله ، عظيم عند  
 الناس . وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما . بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل

ولذلك قال كعب الأخبار : إن للعلم طغيانا كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضى الله عنه : العالم إذ زلزل بزلكته عالم . فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة مناطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين أحدهما : أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لم يحتمل عشره من العالم . فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم ، فجنائته أخش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَا فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ أَمْرًا بِالْخَيْرِ وَلَا آتِيهِ وَلَا نَهَى عَنِ الشَّرِّ وَأَتِيهِ » وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْتَّورَةِ كُتُبًا لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا <sup>(١)</sup>) أراد به علماء اليهود . وقال فى بلعم بن باعوراء (وَأَبْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا <sup>(٢)</sup>) حتى بلغ (فَمَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ <sup>(٣)</sup>) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوتى بلعم كتابا ، فأخذه إلى شہوات الأرض ، أى سكن جبه إليها ، فثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته

ويكفى العالم هذا الخطر . فأى عالم لم يتبع شهوته ؟ وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتية ؟ فهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل ، فليتكفر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالمالك المخاطر بروحه فى ملكة لكثرة أعدائه . فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا . فكم من عالم يشتهى فى الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه

فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ! فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم

( ١ ) حديث يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه - الحديث ؛ متفق عليه من حديث أسامة

ابن زيد بنلفظ يؤتى بالرجل وتقدم فى العلم

(١) الجمه : ٥ ( ٢ ، ٣ ) الاعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

وقد كان بعضهم يقول : يا ليتنى لم تلدنى أبى . ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول :  
يا ليتنى كنت هذه التبنة . ويقول الآخر : ليتنى كنت طيرا أو كل . ويقول الآخر : ليتنى  
لم أك شيئا مذكورا . كل ذلك خوفا من خطر العاقبة . فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من  
الطير ومن التراب ، ومنها أطال فكره فى الخطر الذى هو بصدده زال بالحكمة كبره ،  
ورأى نفسه كأنه شر الخلق ، ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فشرع فيها ، فترك بعضها  
وأدخل التقصان فى بعضها ، وشك فى بعضها أنه هل أداها على ما رضيه سيده أم لا . فأخبره  
مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرج من كل ما هو فيه عربانا ذليلا ، ويلقيه على يابه فى الحر  
والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر ، وبلغ به المجهود ، أمر برفع حسابه ، وقتشه  
عن جميع أعماله قليلا وكثيرها ، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم ، لا يروح عنه ساعة  
وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك ، وعفا عن بعضهم ، وهو لا يدري  
من أى الفريقين يكون . فإذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل ، وبطل عزه وكبره ،  
وظهر حزنه وخوفه ، ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من  
شفعائه عند نزول العذاب . فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامره ، يجنات على  
جوارحه ، وبذنوب فى باطنه من الرياء ، والحقد ، والحسد ، والعجب ، والنفاق وغيره ،  
وعلم مما هو بصدده من الخطر العظيم ، فارقه كبره لاحالة

الأمر الثانى : أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا  
تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وقال له إن لك عندى  
قدرا ما لم تر لنفسك قدرا ، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى . فلا بد وأن يكلف  
نفسه ما يحبه مولاه منه ، وهذا يزبل التكبر عن قلبه ، وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا  
أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام ، إذ علموا أن من نازع الله تعالى  
فى رداء الكبرياء قصمه . وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلم . فهذا  
أيضا مما يعمته على التواضع لاحالة

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق والابتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم  
وهو عالم مابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يفتنه أن يخطر بباله

خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟

فأعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة . بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر ، فيختم له بالإيمان ، ويضل هذا العالم ، فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك . فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه ، فاستحقره وازدراه لكفره ، وقد رزقه الله الإسلام ، وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة . وجميع الفضائل في الدنيا تتراد للعاقبة فإذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال . هذا عصي الله بهجلاً ، وأنا عصيته بعلم ، فهو أعذر مني : وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم ما لم أعلم ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال . هذا قد أطاع الله قبلي ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى صغير قال . إن عصيت الله قبله ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال . ما يدريني لعله يحتم له بالإسلام ، ويحتم لي بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلى ، كما لم يكن ابتداؤها إلى . فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سمادة الآخرة والقرب من الله ، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا يلبث له ، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه . ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته . لأن يشتغل بخوف غيره . فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا حبس جماعة في جنائية ، ووعدوا بأن تضرب رقابهم ، لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ، إذ شغل كل واحد منهم نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبتهم وخطره . فإن قلت . فكيف أبعض المبتدع في الله ، وأبعض الفاسق ، وقد أمرت بغضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما ، والجمع بينهما متناقض .

فأعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس ، والإدلال بالعلم والورع . فكم من عابد جاهل ، وعالم مغرور ، إذا رأى فاسقاً جلس بجانبه أزججه من عنده ، وتنزهه عنه بكبر باطن في نفسه ، وهو ظان أنه قد غضب لله



كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليمهم . وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا  
والحذر منه ممكن . والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله ، وهو خير . فإن الغضبان  
أيضا يتكبر على من غضب عليه ، والمتكبر يفض . وأحدهما يشر الآخر ويوجهه ، وهما  
متميزان ملتبسان لا يعيز بينهما إلا الموقنون . والذي يخلصك من هذا ، أن يكون الحاضر  
على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق ، أو عند أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر  
ثلاثة أمور . أحدها : التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ، ليصغر عند ذلك قدرك في  
عينك ، والثاني : أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم ، واعتقاد الحق ، والعمل  
الصالح ، من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لالك ، فترى ذلك منه حتى  
لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تكبر ، والثالث : ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته ، أنه  
ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى ، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن  
تغضب له لانفسك ، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك  
على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك . أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال  
لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول  
إذا كان للملك غلام وولد هو قره عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه  
مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ، ويفض عليه ، فإن كان الغلام محبا مطيعا لمولاه ،  
فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء لأدب . وإنما يفض عليه لمولاه ، ولأنه  
أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ،  
فيضرب ولده ويفض عليه ، من غير تكبر عليه . بل هو متواضع له ، يرى قدره عند  
مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام ، فإذا لم يكن من ضرورة الغضب  
التكبر وعدم التواضع : فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق ، وتظن أنه ربما  
كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل ، ولما سبق لك  
من سوء القضاء في الأزل ، وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر بحبة لمولاك  
إذا جرى ما يكرهه ، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة .

فهكذا يكون بعض العلماء والإكياس، فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما الغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره، مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع بن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة. وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان، لما عرفه من فضيلة العلم. وقد قال تعالى ( هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَدْعُونَنا وَالَّذِينَ لَا يُدْعُونَنا )<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى لُدُنِّي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم. فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه، وهذا عالم فاجر، فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن. وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك. وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه، لم يحز له أن يحتقر عالما، بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد، لقوله عليه السلام « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق، لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم، وقد مقتته به. وإذا كان هذا ممكنا، كان على نفسه خائفا. فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه، وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف. وفي حق غيره الرجاء. وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا حال العابد مع العالم

فأما مع غير العالم، فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين. فينبغي أن لا يتكبر

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضل علي أدى رجل من أصحابي؛ الترمذي من حديث أبي أمامة وقد تقدم في العلم

على المستور فلعلمه أقل منه ذنوبا ، وأكثر منه عبادة ، وأشد منه حبا لله . وأما الكشوفه حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تريد عليه ذنوبك فى طول عمرك . فلا ينبغى أن تتكبر عليه . ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا ، لأن عدد ذنوبك فى طول عمرك ، وذنوب غيرك فى طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة . نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل ، والشرب ، والزنا ، ومع ذلك فلا ينبغى أن تتكبر عليه ، إذ ذنوب القلوب من الكبر ، والحسد ، والرياء ، والغل ، واعتقاد الباطل ، والوسوسة فى صفات الله تعالى ، وتخيل الخطأ فى ذلك كل ذلك شديد عند الله . فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا . وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله ، وإخلاص ، وخوف ، وتعظيم ، ما أنت خال عنه . وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فيكشف الغطاء يوم القيامة ، فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن ، والإحتمال البعيد فيما عليك ينبغى أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك . فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك ، بل فيما هو مخوف فى حقك فإنه لا ترز وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك . فإذا تفكرت فى هذا الخطر ، كان عندك شغل شاغل عن التكبر ، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك . وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال : فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة وما العاشرة ، بها ساد مجده وبها علا ذكره ، أن يرى الناس كلهم خيرا منه ، وإنما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هي شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه . إن رأى من هو خير منه سره ذلك ، وتبى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه إلا خائفا من العقاب . ويقول لعل بر هذا باطن ، فذلك خير له ، ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما . بينه وبين الله ، فيرحمه الله ويتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال . ويرى ظاهر ذلك شرى ، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . ثم قال : فحينئذ كمل عقله : ساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء فى الأزل بشقوته . فإله يسبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال . نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه . وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل

فقبل له في النوم أنت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو لك . فأتاه فسأله عن عمله ، فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب فيتصدق ببعضه ، ويطعم عياله ببعضه . فرجع وهو يقول : إن هذا لحسن ، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله ، فأتى في النوم ثانيا فقبل له . أنت فلانا الإسكاف فقل له ما هذا الصغار الذي بوجهك . فأتاه فسأله فقال له . مارأيت أحدا من الناس إلا وقع على أنه سينجو وأهلك أنا . فقال العابد بهذه . والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى ( يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ لَهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ )<sup>(١)</sup> أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ )<sup>(٢)</sup> وقال تعالى ( إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ )<sup>(٣)</sup> وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام ، مع تقدسهم عن الذنوب ، ومواظبتهم على العبادات ، على الدؤب بالإشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم ( يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ )<sup>(٤)</sup> ( وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ )<sup>(٥)</sup> فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل ، وينكشف عند خاتمة الأجل ، غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر ، وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن ، والأمن سهل . والتواضع دليل الخوف ، وهو مسعد . فإذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق ، والنظر إليهم بعين الاستصغار ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال .

فهذه معارف بها زال داء الكبر عن القلب لا غير . إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمن التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة . فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ، ونسيت وعدما فمن هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة ، بل ينبغي أن تكمل بالعمل ، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس . وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن ، وإن كانت الامتحانات كثيرة

الامتحان الأول : أن ينظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه ، فثقل عليه قبوله ، والانتقاد له ، والاعتراف به ، والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبرا دفيناً ، فليتيق الله فيه ويستغل بملاجه

(١) المؤمنون : ٦٠ (٢) المؤمنون : ٥٧ (٣) الطور : ٢٦ (٤) الأنبياء : ١٨٥ (٥) الأنبياء : ١٨٥

أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه ، وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه ، فجزاك الله خيرا كما نهيتى له ، فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها . فإذا واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ، ففيه كبر . فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ، ويثقل عليه في الملاء ، فليس فيه كبر ، وإنما فيه رياء ؛ فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته ، وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه في الخلوة والملاء جميعاً ، ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثانى ، فليعالج كلا الداءين ، فإنهما جميعاً مهلكان

الامتحان الثانى . أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشى خلفهم ، ويجلس في الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً ، حتى يسقط عنه ثقاه . فبذلك يزايله الكبر . ومهنا للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس في صف النعال ، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأردال ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخفف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ، ويجلس بينهم بجنبهم ، ولا يحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر . فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق ، والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلا خبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالواظبة عليه ، مع تذكر جميع مذكراته من المعارف التى تزيد داء الكبر .

الامتحان الرابع . أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أورياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر . وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء . وكل ذلك من أمراض القلب وعمله المهلكة له إن لم تدارك . وقد أهمل الناس طب القلوب ، واشتغلوا بطب الأجساد ، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها ، إذ قال تعالى ( **إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** <sup>(١)</sup> ) . ويروى عن عبد الله بن سلام ، أنه حمل حزمة حطب ، فقيل له يا أبا يوسف ، قد كان في غلمانك وبناتك ما يكفيك . قال أجل ، ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك . فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأثقة ، حتى جربها أم صادقة أم كاذبة وفي الخبر <sup>(١)</sup> « **مَنْ حَمَلَ الْفَاكِهَةَ أَوْ الشَّيْءَ فَقَدَ بَرِيءٍ مِنَ الْكِبَرِ** » .

الامتحان الخامس . أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن نقور النفس عن ذلك في الملائرياء ، وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، له مسح يلبسه بالليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « **مَنْ اعْتَقَلَ الْبَعِيرَ وَلَبَسَ الصُّوفَ فَقَدَ بَرِيءٌ مِنَ الْكِبَرِ** » وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « **إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ بِالْأَرْضِ وَالْبَسُ الصُّوفَ وَأَعْفِلُ الْبَعِيرَ وَالْعَقُ أَصَابِعِي وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَلُوكِ فَنَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي** » وروى أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس .

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر ، فما يختص بالملأ فهو الرياء ، وما يكون في الخارة فهو الكبر ، فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

( ١ ) حديث من حمل الشيء ، والفاكهة فقد برى . من السبر : البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ من حمل بضاعته

( ٢ ) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برى . من الكبر : البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي أسناده القاسم البعري ضعيف جداً

( ٣ ) حديث إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف - الحديث : تقدم بعقبه ولم أجده بغيره .

## بيان

غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان وواسطة . فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، و طرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس . فإن كلا طرفي الأمور ذميم ، وأوجب الأمور إلى الله تعالى أو ساطها . فن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه ، وأجلسه فيه ، ثم تقدم وسوى له نعله ، وغدا إلى باب الدار خلفه ، فقد تخاسس وتذلل . وهذا أيضا غير محمود . بل المحمود عند الله العدل . وهو أن يمطى كل ذى حق حقه . فينبى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته . فأما تواضعه للسوقى فبالقيام ، والبشر في الكلام ، وارفق في السؤال ، وإجابة دعوته ، والسعى في حاجته ، وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه ، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره . فلا يحتقره ، ولا يستصغره ، وهو لا يعرف خاتمة أمره .

فإذا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولبن دونهم ، حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ، ليزول به الكبر عنه . فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع . وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لامتواضع . بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ، ومن غير روية . فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره ، حتى أحب التملق والتخاسس ، فقد خرج إلى طرف النقصان ، فليرفع نفسه ، إذ ليس للمؤمن من أن تذلل نفسه ، إلى أن يعود إلى الوسط الذى هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر . كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمق عند الناس من الميل إلى طرف البخل . فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان ، وأحدهما أخس

وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان ؛ وأحدهما أتبع من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ، ووضع الأمور مواضعها كما يجب ، وعلى ما يجب ، كما يعرف ذلك بالشرع والمادة . ولنتقصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

## الشرط الثاني من الكتاب

في العجب

ففيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال ، وحدها ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام مابه العجب ، وتفصيل علاجه

## بيان

ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى ( وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْنًا <sup>(١)</sup> ) ذكر ذلك في معرض الإنكار . وقال عز وجل ( وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّا نَعْمَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا <sup>(٢)</sup> ) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى ( وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّجْسِبُونَ ضُنْعًا <sup>(٣)</sup> ) وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطيء فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه .  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ثَلَاثٌ مُّهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُّطَاعٌ وَهَوًى مُّتَّبَعٌ وَإِعْجَابٌ مُّرَّةٌ بِنَفْسِهِ » وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال <sup>(٢)</sup> « إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُّطَاعًا وَهَوًى مُّتَّبَعًا وَإِعْجَابًا كُلٌّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ »

(١) حديث ثلاث مهلكات - الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبي ثعلبة إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بنفسك : أبو داود

والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم

(٣) التوبة : ٢٥ الحشر : ٢ (٣) الكهف : ٤٠١



وقال ابن مسعود : الهلاك فى اثنتين : القنوط والمعجب : وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسمي ، والطلب ، والجد ، والنشمر . والقانط لا يسمى ، ولا يطلب . والمعجب يمتد أنه قد سعد وقد ظفر براده فلا يسمى . فالوجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب . والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب ، حاصلة له ، ومستحيلة فى اعتقاد القانط . فمن هنا جمع بينهما وقد قال تعالى ( فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ )<sup>(١)</sup> قال ابن جرير . معناه إذا عملت بخيرا فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم : لا تبروها ، أى لا تعتقدوا أنها بارة ، وهو معنى المعجب . ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> يوم أحد بنفسه ، فأكب عليه حتى أصيبت كفه . فكأنه أعجبه فعله العظيم ، إذ فداه بروحه حتى جرح . فتفرس ذلك عمر فيه فقال : ما زال يعرف فى طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنأو هو المعجب فى اللغة ، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما . ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس . أين أنت من طلحة؟ قال ذلك رجل فيه نحوه . فإذا كان لا يتخلص من المعجب أمثالهم ، فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم !

وقال مطرف : لأن أبيت نائبا ، وأصبح نادما ، أحب إلى من أن أبيت قائما ، وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « لَوْ لَمْ تُدْبِرُوا لِحْشِيَّتِ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبُ الْعُجْبُ » فجعل المعجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذ رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة ، لموانبته على العبادة . فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر . ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يعجبك ما رأيت منى . فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ، ثم صار إلى ما صار إليه .

(١) حديث ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وأدكب عليه حتى أصيبت كفه : البخارى من رواية

فيس بن أبي حارم قال رأيت يد طلحة شلاء ووقى بها النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) حديث لولم تدبروا لِحشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب : البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى

فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى مكر الحديث وقال

أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد

بسند ضعيف جدا

وقيل لما نشأ رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قالت إذا ظن أنه محسن . وقد قال تعالى ( لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى <sup>(١)</sup> ) والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جداً

## بيان

### آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة . فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى . هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى ، فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يفقدها ، لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها . وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه . بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويعين على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها . ثم إذا أعجب بها عمى عن آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائماً فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يفقد من يقلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب . والمعجب يفتر بنفسه وبرأيه ، ويؤمن مكرهه وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمه ، وعطية من عطاياه . ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكها . وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ، ومن الاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ، ويستتكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأى الخطأ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصيح ناصح ، ولا وعظ واعظ . بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ، ويصر على خطئه . فإن كان رأيه في أمر ديني فيحقق فيه ، وإن كان في أمر دني لا سيما فيما يتق بأصول العقائد فيهلك به . ولو آههم نفسه ولم يثق برأيه ، واستضاء بنور القرآن ، واستعان بعلماء الدين ، وواظب

(١) البقرة : ٢٦٤

على مدارسة العلم ، وتابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آيات للمعجب . فلذلك كان من المهلكات . ومن أعظم آفاته أن يفتّر في السعى لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغن ، وهو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه ، نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

## بيان

حقيقة العجب والإدلال وخدمتهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة . وللعالم بكمال نفسه في علم ، وعمل ومال ، وغيره حالتان : إحداهما : أن يكون خائفا على زواله ، ومشققا على تكدره أو سلبه من أصله . فهذا ليس بمعجب . والأخرى : أن لا يكون خائفا من زواله ، لكن يكون فرحاً به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه ، لا من حيث إضافته إلى نفسه . وهذا أيضا ليس بمعجب . وله حالة ثالثة هي العجب ، وهى أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحاً به مطمئنا إليه ، ويكون فرحاً به من حيث إنه كمال ، ونعمة ، وخير ، ورفعة ، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه . فيكون فرحاً به من حيث إنه صفة ، ومنسوب إليه بأنه له ، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه . فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله ، مهما شاء سلبها عنه ، زال العجب بذلك عن نفسه . فإذا العجب هو استعظام النعمة ، والركون إليها ، مع نسيان إضافتها إلى المنعم . فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا ، واستيتمد أن يجرى عليه مكروه ، استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق ، سمي هذا إدلالا بالعمل . فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويعين عليه ، فيكون معجبا . فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه ، كان مدلا عليه . وقال قتادة في قوله تعالى ( وَلَا تَمُنُّنْ تَسْتَكْبِرُ <sup>(١)</sup> ) أي لا تدل بعملك . وفي الخبر <sup>(١)</sup> « إِنْ صَلَاةَ الْمُدْلِ لَا تُرْفَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَلِأَنَّ تَضَعُكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ بِدُنُوبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْسِكِي وَأَنْتَ مُدِلٌ بِعَمَلِكَ »

(١) حديث إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه - الحديث : لم أجده أصلا

١ هو الإدلال وزراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب . ورب معجب لا يدل . إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة ، دون توقع جزاء عليه . والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته ، واستنكر ردها بباطنه ، وتعجب منه ، كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتمعجب من رد دعاء الفاسق ، ويتمعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال ، وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم

## بيان

علاج العجب على الجملة

أعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده . وعلة العجب الجهل المحض ، فمعالجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، فقط . فلنرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد ، كالعبادة والصدقة ، والنزوة ، وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة ، والنسب ، وما لا يدخل تحت اختياره ، ولا يراه من نفسه فنقول

الورع والتقوى والمباة والعمل الذي به يعجب ، إنما يعجب به من حيث إنه فيه ، فهو محله ومجراه . أو من حيث إنه منه وبسببه ، وبقدرته وقوته . فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه ، وهو محله ومجراه ، يجري فيه وعليه من جهة غيره ، فهذا جهل . لأن المحل مستخر ومجري لا مدخل له في الإيجاد والنحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه ! وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه ، وباختياره حصل ، وبقدرته تم ، فينبغي أن يتأمل في قدرته ، وإرادته ، وأعضائه ، وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له ، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه ، من غير حق سبق له ، ومن غير وسيلة يدلى بها ، فينبغي أن يكون إعجابه بجد الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحق ؛ وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة . فهما برز الملك لغمانه ، ونظر إليهم ، وخلع من جملتهم على واحد منهم ، لالصفة فيه ، ولا لوسيلة ، ولا لجمال ، ولا لخديعة ، فينبغي أن يتمعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه ، وإيثاره من غير استحقاق . وإعجابه بنفسه من أين وما سببه . ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول . الملك حكيم عادل

لا يظلم ، ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلو لا أنه تفتن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة ، لما اتضى الإيثار بالخلمة ، ولما آرتى بها . فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته ، التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة . أو هي عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا ، لم يكن لك أن تمجب بها . بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تمجب به ، فأعطاك غلاما فصرت تمجب به وتقول : إنما أعطاني غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له . فيقال وهو الذى أعطاك الفرس ، فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا ، أو يعطيك أحدهما بعد الآخر . فإذا كان الكل منه فينبى أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك وأما إن كانت تلك الصفة من غيره ، فلا يبعد أن تمجب بتلك الصفة . وهذا يتصور في حق الملوك ، ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك ، المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة . فإنك إن أعجبت بعبادتك ، وقتت وقتى للعبادة لحبى له ، فيقال ومن خلق الحب في قلبك ؟ فنستول هو . فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بمجوده ، إذ أنم بوجودك ووجود صفاتك ، وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعماله ، وعجب الجليل بجميله ، وعجب الغنى بفتاه ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده . فإن قلت : لا يمكننى أن أجعل أعمالى ، وأنى أنا صلتها ، فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عملى لما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب . وإن كانت الأعمال منى وبقدرتى فكيف لا أعجب بها فاعلم أن جوابك من وجهين . أحدهما هو صريح الحق ، والآخر فيه مسامحة . أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك ، وإرادتك وحركتك ، وجميع ذلك من خلق الله واختراعه . فما هملت إذ عملت ، وما صليت إذ صليت ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى . فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب ، بمشاهدة أوضح من أبصار العين . بل خلقك وخلق أعضائك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم ، وخلق لك

الإرادة . ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات في  
 في أعضائك ، مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع ، إلا أنه خلقه  
 على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخاق في المصنوع قوة ، وفي القلب إرادة . ولم يخلق إرادة  
 ما لم يخلق علماً بالمراد . ولم يخلق عامساً ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم . فتدريجاً في  
 الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك ، وقد غلظت . وإيضاح ذلك  
 وكيفية القواب على عمل هو من خلق الله ، سيأتي تقريره في كتاب الشكر ، فإنه أليق به ، فارجع إليه  
 ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني ، الذي فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن  
 العمل حصل بقدرتك . فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ، ووجود عملك  
 وإرادتك ، وقدرتك ، وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك . فإن كان العمل  
 بالقدرة ، فالقدرة مفتاحه . وهذا المفتاح بيد الله . ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل  
 فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ، ومفاتيحها القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهي  
 بيد الله لا محالة . رأيت لورأت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ، ومفتاحها بيد خازن  
 ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ولو أعطك  
 المفتاح لأخذته من قريب ، بأن تبتسط يدك إليه فتأخذه فقط . فإذا أعطاك الخازن المفتاح  
 وسلطك عليها ، ومكنتك منها ، فددت يدك وأخذتها ، كان إعجابك بإعطاء الخازن المفتاح  
 أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن ، لأن المونة  
 في تحريك اليد بأخذ المال قريبة . وإنما الشأن كله في تسليم المفتاح : فكذلك مها خلقت  
 القدرة وسلطت الإرادة الجازمة ، وحركت الدواعي والبواعث ، وصرف عنك الموانع  
 والمصارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ، ولا باعث إلا وكل بك ، فالعمل هين عليك  
 وتحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب ، كلها من الله ، ليس شيء منها إليك  
 فمن المعجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بوجوده وفضله  
 وكرمه في إشارته إليك على الفساق من عباده ، إذ سلط دواعي الفساق على الفساق ، وصرفها  
 عنك ، وسلط أصدقاء السوء ودعاة الشر عليهم ، وصرفهم عنك ، ومنعك من أسباب  
 الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه ، وسلطها عليك

حتى تيسر لك الخير ، وتيسر لهم الشر . فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ، ولا بجزية سابقة من الفاسق العاصى . بل آثرك ، وقدمك ، واصطفاك بفضله ، وأبعد العاصى ، وأشقاه بعده . فما أعجب أعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك !

فإذا لا تنصرف قدرتك إلى المقدر إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها فكأنه الذى اضطررك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لالك . وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ، ولا خالق سواه . والعجب ممن يتمجب إذا رزقه الله عقلا ، وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم ، فيقول كيف معنى قوت يوى وأنا العاقل الفاضل ! وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو العاقل الجاهل ! حتى يكاد يرى هذا ظلما . ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا ، لكان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال . إذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والبنى وحرمتى منهما ؟ فهلا جمعتما لى أو هلا رزقتى أحدهما وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له . ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الربيل محسوب عليه من رزقه . والمعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه . ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك ؟ لا تمتنع عنه . فإذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتمجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الذميمة القبيحة ، فتمتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ؟ ويخصص مثل ذلك القبيح ! ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها ، وأنها لو خبرت بين الجمال وبين القبيح مع الغنى لآثرت الجمال . فإذا نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه . يارب لم حرمتى الدنيا وأعطيتها الجمال ، كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول . أيها الملك لم لا تعطيتنى الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول كنت لا تتمجب من هذا لو لم أعطك الفرس . فهب أنى ما أعطيتك فرسا ، أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحيطة ، تطلب بها نعمة أخرى . فهذه أو هام لا تخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل وبزوال ذلك العلم المحقق بأن العبد ، وعمله ، وأوصافه ، كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق ؛ وهذا ينبنى العجب والإدلال ، ويورث الخفض ، والشكر ،

والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعمله وعمله ، إذا يعلم أن ذلك من الله تعالى . ولذلك قال داود عليه السلام : يارب مأتاتي ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم . ولا يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفي رواية ، مائة ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يمدك ، إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك . فأوحى الله تعالى إليه يا داود ، ومن أين لهم ذلك ؟ إن ذلك لم يكن إلا بي . ولولا عوني إياك ما قويت ، وسأكلك إلى نفسك . قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله ، إذ أضافه إلى آل داود مدلا به ، حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود يارب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب . فقال : إني ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا إن ابتليتني صبرت . فأدل بالعمل قبل وقته . فقال الله تعالى : فإني لم أخبرم بأى شيء ابتليهم ، ولا في أى شهر ، ولا في أى يوم . وأنا مخبرك في سنتك هذه ، وشهرك هذا ، ابتليك غدا بامرأة . فأخذ نفسك . فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم ، وقالوا لا تغلب اليوم من قلة ، وكلوا إلى أنفسهم . فقال تعالى ( وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْكُمْ كَثْرَتِكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ لَيْتُمْ مُذِرِينَ <sup>(٢)</sup> ) وروى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال : إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء ، وما ورد على أمر إلا آتت هواك على هواي . فنودي من غمامة بمشرة آلاف صوت يا أيوب ، أتى لك ذلك ؟ أى من أين لك ذلك . قال : فأخذ رمادا ووضع على رأسه وقال : منك يارب ، منك يارب . فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى ( وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا <sup>(٣)</sup> ) وقال النبي

(١) حديث قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة : البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلًا أن رجلا قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ولا بن مردويه في تفسيره من حديث أنس لما لقوا يوم حنين أعجبهم كثرتهم فقالوا اليوم تقالضوا فيه : الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور

(١) التوبة : ٢٥ (٢) النور : ٢٥



صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس (١) « ما منكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمَلُهُ ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ » ، ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً ، وتبناً ، وطيراً ، مع صفاء أعمالهم وقلوبهم . فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله ، أو يدل به ، ولا يخاف على نفسه . فإذا هذا هو الملاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب : شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها . بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إن من لا يبالي أن يحرم من غير جنابة ، ويعطى من غير وسيلة ، لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء ، وهذا لا يبق معه عجب بحال . والله تعالى أعلم

## بيان

أقسام ما به العجب وتفصلاً . علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه . وقد يعجب بما لا يتكبر به ، كعجبه بالرأى الخطأ الذي يزين له بجهله . فإبه العجب ثمانية أقسام :

الأول : أن يعجب بيدنه في جماله ، وهيبته ، وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وحسن صوته . وبالجملة تفصيل خلقته . فإختلفت إلى جمال نفسه ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى . وهو بعرضة الزوال في كل حال . وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكير في أقدار باطنه ، وفي أول أمره ، وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أمها كيف تمزقت في التراب ، وأنتنت في القبور ، حتى استقدرتها الطباع الثاني : البطش والقوة ، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ( مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ) (١) وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فانتلع جبلا ليطبقه على عسكر

(١) حديث ما منكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمَلُهُ - الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة

موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بقره هدهد ضعيف المنقار ، حتى صارت في عنقه . وقد يتكلم المؤمن أيضا على قوته ، كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال (١) : لأطوفن الليلة على مائة امرأة . ولم يقل إن شاء الله تعالى . فحرم ما أراد من الولد . وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتني صبرت . وكان إعجابا منه بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر ويورث العجب بالقوة المهجوم في الحروب ، وإلقاء النفس في التهلكة ، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصد بالسوء . وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بهاربا سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلبها عليه

الثالث : العجب بالعقل والتكلمة ، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأى ، وترك المشورة ، واستجهاال الناس المخالفين له ولرأيه . ويخرج إلى قلة الاصفاء إلى أهل العلم ، إعرضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل ، واستحقاقا لهم وإهانة وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويحن ، بحيث يضحك منه . فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يتم بشكره . وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا ، وإن اتسع علمه . وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وأن يتهم عقله . وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم . فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري ، فإن العاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه . ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يهانه يثنى عليه ، فيزيده عجبا ، وهو لا يظن بنفسه إلا الطير ، ولا يظن للجمل نفسه فيزداد به عجبا .

الرابع : العجب بالنسب الشريف . كعجب الهاشمية . حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه ، وأنه مغفور له . ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد . وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل . وإن اقتدى بآبائه ، فما كان من أخلاقهم العجيب ، بل الخوف والإزراء على النفس ،

(١) حديث قال سليمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة - الحديث : البخارى من حديث أبي هريرة

واستعظام الخلق ، ومذمة النفس . ولقد شرفوا بالطاعة ، والعلم ، والخصال الحميدة ، لا بالنسب  
فليتشرف بما شرفوا به . وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم  
الآخر ، وكانوا عند الله شرا من الكلاب ، وأخس من الخنازير . ولذلك قال تعالى ( يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ) (١) أى لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل  
واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال ( وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ) (٢) ثم بين أن  
الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ) (٣) ولما قيل لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم (٤) من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل من ينتمى إلى نسبي  
ولكن قال « أكرمهم أكثرهم للموت ذكراً وأشدُّهم له استعداداً » وإنا نزلت هذه  
الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة ، فقال الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو  
وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن ! فقال تعالى ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ) (٥)  
وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٦) « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ » أى كبرها  
« كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٧) « يَا مَعْشَرَ  
قُرَيْشٍ لَا تَأْتِي النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ  
تَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ هَكَذَا » أى أعرض عنكم . فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا  
لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى (٨) ( وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ) (٩) ناداهم  
بطنا بعد بطن ، حتى قال « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ

( ١ ) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكيس الناس قال أكثرهم للموت ذكراً - الحديث : ابن ماجه

من حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة وعند ابن أبي الدنيا في ذكر

الموت آخر الكتاب

( ٢ ) حديث إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية - الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبي هريرة

ورواه الترمذى أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب

( ٣ ) حديث يا معشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم - الحديث :

الطبرانى من حديث عمران بن حصين لأنه قال يا معشر بنى هاشم وسنده ضعيف

( ٤ ) حديث لما نزل قوله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد

يا صافية بنت عبد المطلب - الحديث : منفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْمَلًا لِأَنْفُسِكُمْ فَإِنِّي لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .  
 فمن عرف هذه الأمور ، وعلم أن شرفه بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آبائه التواضع ،  
 افتدى بهم في التقوى والتواضع . وإلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله ، مهما اتقى إليهم  
 ولم يشبههم في التواضع ، والتقوى ، والخوف ، والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> بمد قوله لفاطمة وصفية « إِنِّي لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ  
 اللَّهُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ لَكُمْ رَجَاءً سَأَلْتُمْ بِهَا بِلَالًا هَذَا » وقال عليه الصلاة والسلام <sup>(٢)</sup> « أَرْجُوا  
 سَلِيمٌ شَفَاعَتِي وَلَا يَرْجُوهُمَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة  
 فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والنسب أيضا جدير  
 بأن يرجوها ، لكن بشرط أن يتقى الله أن يغضب عليه . فإنه إن يغضب عليه . فلا يأذن  
 لأحد في شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له ،  
 وإلى ما يفي عنه بسبب الشفاعة . كالذنوب عند مالوك الدنيا ، فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر  
 على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك . فمن الذنوب ما لا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة  
 بقوله تعالى (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) <sup>(١)</sup> وبقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) <sup>(٢)</sup>  
 وبقوله (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) <sup>(٣)</sup> وبقوله (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) <sup>(٤)</sup>  
 وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه ، وجب الخوف والإشفاق  
 لاحتمال ، ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة ، لما أمر قريشا بالطاعة ، ولما نهى رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ، وكان يأذن لها في اتباع الشهوات  
 لتكمل لذاتها في الدنيا ، ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة .  
 فالإنهاك في الذنوب وترك التقوى ، اتكالا على رجاء الشفاعة ، يضاهاه إنهاك المريض في شهواته ،

( ١ ) حديث قوله بمد قوله التقديم لفاطمة وصفية إلا أن كما رحما سألها ببالها : مسلم من حديث أبي هريرة  
 بلفظ غير أن لكم رحما سألها ببالها

( ٢ ) حديث أرجوا سليم شاعى ولا ترجوها بنو عبد المطلب : الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله  
 ابن جعفر وفيه اصيرم بن حوشب عن اسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا

(١) الأنبياء : ٢٨ ( ) البقرة : ٢٥٥ (٢) سبأ : ٢٣ ( ) الدثر : ٤٨

\* سألها ببالها : أى أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا

اعتماداً على طيب حاذق ، قريب ، مشفق ، من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل . لأن سعى الطبيب وهمته وحذقه ، تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها . فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرد الطب . بل للطبيب أثر على الجملة . ولكن في الأمراض الخفيفة ، وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفاء من الأنبياء والصلحاء ، للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعاً . وذلك لايزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة ، مع كمال تقواهم ، وحسن أعمالهم ، وصفاء قلوبهم ، وما سموه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمام بالجنة خاصة ، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة . ولم يتسكوا عليه ، ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم . فكيف يجب بنفسه ، ويتكل على الشفاعة ، من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم ؟

الخامس : المعجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم ، دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم ، وما جرى لهم من الظلم على عباد الله ، والفساد في دين الله ، وأنهم المقوتون عند الله تعالى . ولو نظر إلى صورهم في النار ، وأنتانهم وأقدارهم . لاستنكف منهم ، ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولأنكر على من نسبة إليهم ، استقذاراً واستحقاراً لهم ولو انكشف له ذلمهم في القيامة ، وقد تعلق الخصماء بهم ، والملائكة آخذون بنواصيهم ، يجرؤهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد ، لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم . نفي أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم ، أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين فأما المعجب بنسبهم فجهل محض .

السادس : المعجب بكثرة العدد من الأولاد ، والخدم ، والفلان ، والمشيرة ، والأقارب والأقارب ، والأقارب ، والأقارب . كما قال الكفار ( نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا <sup>(١)</sup> ) وكما قال المؤمنون يوم حنين ، لانقلب اليوم من قلة . وعلاجه ما ذكرناه في السكبر ، وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأن كلهم عبيد عجزة ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً . وكم من فئة

(١) سبأ : ٣٥

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ثم كيف يعجب بهم، وإنهم سيفترقون عنه إذامات، فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده، لا يرافقه أهل ولا ولد، ولا قريب، ولا حميم، ولا عشير، فيسلمونه إلى البلي، والحيات، والعقارب، والديدان، ولا يغنون عنه شيئاً، وهو في أحوج أوقاته إليهم. وكذلك يهربون منه يوم القيامة (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ<sup>(١)</sup>) الآية. فأى خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك، وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر، والقيامة، وعلى الصراط، إلا عمك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضررك، وموتك وحياتك

السابع: العجب بالمال. كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا<sup>(٢)</sup>) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> رجلاً غنياً جلس بجانبه فقير، فاتقبض عنه وجمع ثيابه. فقال عليه السلام «أَخْشَيْتُ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَقَرُّهُ»، وذلك للعجب بالنفي وعلاجه أن يتفكر في آفات المال، وكثرة حقوقه، وعظم غوائله. وينظر إلى فضيلة الفقراء، وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن اليهود من يزيد عليه في المال، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام<sup>(٤)</sup> «يَنْمَأُ رَجُلٌ يَنْبَخْتِرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ فَذَا عَجَبَتُهُ نَفْسُهُ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذر: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،<sup>(٥)</sup> فدخل المسجد فقال لي «يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جواد. ثم قال «ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة. فقال لي «يَا أَبَا ذَرٍّ هَذَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قَرَابِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال، يبين حقارة

(١) حديث- رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً غنياً جلس بجانبه فقير فاتقبض منه - الحديث : رواه أحمد في الزهد

(٢) حديث بينا رجل في حلة قد أعجبت نفسه - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم

(٣) حديث أبو ذر كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت

رأسي - الحديث : وفيه هنا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان في صحيحه .

الأغنياء ، وشرف الفقراء عند الله تعالى . فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال ، في أخذه من حله، ووضعها في حقه . ومن لا يفعل ذلك فقصيره إلى الخزى والبوار ، فكيف يعجب بماله

الثامن : العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى ( أَمْ مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوهُ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا <sup>(٢)</sup> ) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ، وبذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افرقت فرقا ، فكل معجب برأيه ، وكل حزب بما لديهم فرحون . وجميع أهل البدع والضلال إنما أصرروا عليها لعجبهم بأرائهم . والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة ، مع ظن كونه حقا وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره ، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ، ولوعرفه لتركه . ولا يعالج الداء الذى لا يعرف . والجهل داء لا يعرف ، فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ، ويزيله عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله ، فإنه لا يصنى إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه ، وهو يظنها نعمة . فكيف يمكن علاجه ، وكيف يطلب العرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده . وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا ؛ لا يفتقر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة ، أو دليل عقلى صحيح ، جامع لشروط الأدلة : ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ، ومكامن الغلط فيها ، إلا بقريحة تامة ، وعقل ثاقب ، وجد وتشمر في الطلب ، وممارسة للكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم ، طول العمر ، ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور . والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم ، أن لا يخوض في المذاهب ، ولا يصنى إليها ، ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأنه ليس كمثل شئ ، وهو السميع البصير ، وأن رسوله صادق فيما أخبر به .

( ١ ) حديث انه يغلب على آخر هذه الامة الاحجاب بالرأى : هو حديث أبى ثعلبة التميمي فاداريبت شحا مطاوع وهو متبعوا واحجاب كل ذى رأى برأيه فمليك بخاصة نفسك وهو عند أبى داود والترمذى

ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجماعة ماجاء به الكتاب والسنة ، من غير بحث وتنقيب ، وسؤال عن تفصيل . بل يقول آمنا وصدقنا . ويشغل بالتقوى ، واجتناب المعاصي ، وأداء الطاعات ، والشفقة على المسامين ، وسائر الأعمال . فإن خاض في المذاهب والبدع ، والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم فأما الذي عزم على التجرد للعلم ، فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه . وذلك مما يطول الأمر فيه . والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد ، لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى ، وهو عزيز الوجود جدا ، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاعتزاز بخيالات الجهال

تم كتاب ذم الكبر والعجب ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



كتاب ذم الغرور

## كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربيع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

### بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ألحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشور . مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور . والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور . وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يفرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على عمر الدهور ، ومكر الساعات والشهور

أما بعد ، ففتاح السعادة التيقظ والفتنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا تقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة .  
فألا كياس وأرباب البصائر قلوبهم ( كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور <sup>(١)</sup> ) والمفترون قلوبهم ( كظلمات في بحر لجي ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور <sup>(٢)</sup> ) .

فألا كياس هم الذين أراد الله أن يهديهم ، فشرح صدورهم للإسلام والهدى . والمفترون هم الذين أراد الله أن يضلهم ، فجعل صدورهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ، ومنبع المهلكات ، فلا بد من شرح مداخله

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ٤٠

ومجاريه ، وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ، ليحذره المرید بمد معرفته فيتيه . فالوقوف من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد ، فأخذ منها حذره ، وبنى على الحزم والبصيرة أمره . ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور ، وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا ببادىء الأمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها . ونشير إلى وجه اغترارهم بها ، وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ، ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تبنى عن الاستقصا - و فرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف :

الصنف الأول من العلماء . الصنف الثانى من العباد . الصنف الثالث من المتصوفة . الصنف الرابع من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة : وجهات غرورهم مختلفة . فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذى يتخذ المساجد ويوزر خرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى ، كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الأهم ويشغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشغل بالنافلة . ومنهم من يترك اللباب ويشغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف . إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء ، ولكن بعد بيان ذم الغرور ، وبيان حقيقته وحده .

## بيان

ذم الغرور وحقيقته وأمثله

اعلم أن قوله تعالى ( فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَقْرَبِكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ )<sup>(١)</sup> وقوله تعالى ( وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ )<sup>(٢)</sup> الآية ، كلف فى ذم الغرور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « حَبَّذَا نَوْمِ الْأَكْيَاسِ وَفَطْرُهُمْ كَيْفَ يَمِينُونَ سَهْرَ الْحَقِّ وَاجْتِهَادَهُمْ وَرَلْمَقَالَ دَرَّةٌ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينِ أَفْضَلُ »

( كتاب ذم الغرور )

( ١ ) حديث حبذا نوم الأكياس وفطرتهم - الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبي الدرء بنحوه وفيه انقطاع وفى بعض الروايات أبو الورد موضع أبي الدرء ولم أجده مرفوعاً

( ١ ) لقمان : ٣٣ ( ٢ ) الحديد : ١٤

مِنْ مِثْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُفْتَرِّينَ ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(١)</sup> « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَخْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » ، وكل ماورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور . لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يمتد الشيء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل ، إلا أن كل جهل ليس بغرور . بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا ، ومغرورا به وهو الذي يغره . فهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا ، سمي الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع ، عن شبهة وخدعة من الشيطان . فن اعتقد أنه على خير ، إما في المآجل أو في الآجل ، عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه . فأكثر الناس إذا مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم ، واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشد ما غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق ، فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور

المثال الأول : غرور الكفار . فمنهم من غرته الحياة الدنيا ، ومنهم من غره بالله الغرور أما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فهم الذين قالوا . لقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، فهي إذا خير ، فلا بد من إشارتها . وقالوا . اليقين خير من الشك ، ولذات الدنيا يقين ، ولذات الآخرة شك ، فلا تترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة ، تشبه قياس إبليس حيث قال ( أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ <sup>(١)</sup> ) وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ( أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ <sup>(٢)</sup> ) . وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان ، وإما بالبرهان . أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ( مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ <sup>(٣)</sup> ) وفي قوله عز وجل ( وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ <sup>(٤)</sup> ) وقوله ( وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى <sup>(٥)</sup> )

( ١ ) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت - الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

(١) ص : ٧٦ (٢) البقرة : ٨٦ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٦٠ (٥) الأعلى : ١٧

وقوله ( وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ <sup>(١)</sup> ) وقوله ( فَلَا تَفْرَحُوا بِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> ) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> بذلك طوائف من الكفار ، فقتلوه وصدقوه وآمنوا به ، ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال <sup>(٢)</sup> : نشدتك الله أمبشك الله رسولا ؟ فكان يقول نعم . فيصدق . وهذا إيمان العامة ، وهو يخرج من الغرور . وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب ، مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا وأما المعرفة بالبيان والبرهان . فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغوره سبب . وذلك السبب هو دليل . وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس ، ويورث السكون إليه ، وإن كان صاحبه لا يشعر به ، ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان . أحدهما : أن الدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، وهذا صحيح . والآخر : قوله إن النقد خير من النسيئة ، وهذا عمل التليس . فليس الأمر كذلك . بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود ، فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير . فإن الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ؛ ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا تركه . وإذا حذر الطيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك فى الحال ، خوفا من ألم المرض فى المستقبل . فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ، ويتعبون فى الأسفار نقدا ؛ لأجل الراحة والريح نسيئة . فإن كان عشرة فى ثانى الحال ، خيرا من واحد فى الحال ، فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة . فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة ، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف جزء من الآخرة

( ١ ) حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور فى السنن من ذلك قصة اسلام الانصار وبيعتهم وهى عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بمثنا الله إليه من يرب فأ ويناها وصدقناه فيخرج الرجل منافياؤ من به ويقرته القراء ان فيقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه - الحديث : وهى عند أحمد باسناد جيد

( ٢ ) حديث قول من قال له نشدتك الله أبشك رسولا فيقول نعم فيصدق : متفق عليه من حديث أنس فى قصة ضمام بن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم الله أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفى آخره فقال الرجل آمنت بما جئت به ولطبرانى من حديث ابن عباس فى قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن يدع اللات والعزى قال نعم - الحديث :

فكأنه ترك واحدا يأخذ ألف ألف . بل يأخذ ما لا نهاية له ولا حد . وإن نظر من حيث النوع ، رأى لذات الدنيا مكدره مشوبة بأنواع المنفصات ولذات الآخرة صافية غير مكدره فإذا قد غلط في قوله النقد خير من النسيئة . فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور فأطلق وأريد به خاص ، فغفل به الغرور عن خصوص معناه . فإن من قال النقد خير من النسيئة ، أراد به خيرا من نسيئة هي مثله ، وإن لم يصرح به . وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر ، وهو أن اليقين خير من الشك ، والآخرة شك . وهذا القياس أكثر فسادا من الأوّل . لأن كلا أصليه باطل . إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله . وإلا فالتاجر في تمبه على يقين ، وفي ربحه على شك ، والمتفقه في اجتهاده على يقين ، وفي إدراكه رتبة العلم على شك . والصيد في ترده في المقتنص على يقين ، وفي الظفر بالصيد على شك . وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك . ولكن التاجر يقول . إن لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضرري . وإن أتجرت كان تعبي قليلا ورجحي كثيرا . وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ، ومن مرارة الدواء على يقين . ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت . فكذلك من شك في الآخرة ، فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل ، وهو منتهى العمر ، بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة . فإن كان ما قيل فيه كذبا . فما يفوتني إلا التمتع أيام حياتي ، وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتعم . فأحسب أنني بقيت في العدم . وإن كان ما قيل صدقا فأبقي في النار أبد الآباد ، وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ما قلت حقا فقد تخلصت وتخلصنا . وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت . وما قال هذا من شك منه في الآخرة ، ولكن كالملاحد على قدر عقله ، وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور . وأما الأصل الثاني من كلامه ، وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ . بل ذلك يقين عند المؤمنين . وليقينه مدركان : أحدهما الإيمان والتصديق . تقليدا للإنياء والعماء ، وذلك أيضا يزيل الغرور ، وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علة ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبات الفلاني ، فإنه تظمن نفس المريض إلى تصديقهم ، ولا يظالمهم بتصحيح

ذلك بالبراهين الطيبة . بل يثق بقولهم ويعمل به . ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا ، وأغزرمته فضلا ، وأعلم منه بالطب ، بل لا علم له بالطب ، فيعلم كذبهم بقولهم ، ولا يعتقد كذبه بقوله ، ولا يفتخر في علمه بسببه . ولو اعتمد قوله ، وترك قول الأطباء ، كان معتوها مغرورا . فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة ، والمخبرين عنها ، والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها ، وخدم خير خلق الله ، وأعلام رتبة في البصيرة ، والمعرفة ، والمقل وهم الأنبياء ، والأولياء ، والحكماء ، والعلماء ، واتباعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من البطالين ، غلبت عليهم الشهوة ، ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فمظم عليهم ترك الشهوات ، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار ، فوجدوا الآخرة ، وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادى لا يزال طمأينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء ، فكذلك قول هذا النبي الذي استرقتة الشهوات ، لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق ، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة ، والغرور يزول به وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة ، فهو الوحي للأنبياء ، والإلهام للأولياء . ولا نظن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين ، تقليد لجبريل عليه السلام بالسمع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط ، وهيئات . فإن التقليد ليس بمعرفة . بل هو اعتقاد صحيح . والأنبياء عارفون . ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها ، فشاهدوها بالبصيرة الباطنة ، كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر . فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح ، وأنه من أمر الله تعالى ، وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ، لأن ذلك الأمر كلام ، والروح ليس بكلام وليس المراد بالأمر الشأن ، حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط ، لأن ذلك عام في جميع المخلوقات . بل العالم عالمان : عالم الأمر ، وعالم الخلق . والله الخلق والأمر . فالأجساد ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق ، إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان . وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر . وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة

في ذكره ، لاستمرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذي منع من إفشائه . فمن عرف  
 سر الروح فقد عرف نفسه . وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه . وإذا عرف نفسه وربه  
 عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته ، وأنه في العالم الجسماني غريب ، وأن هبوطه إليه  
 لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته ، بل بأمر عارض غريب من ذاته . وذلك العارض الغريب  
 ورد على آدم صلى الله عليه وسلم ، وعبر عنه بالمعصية ، وهي التي حطته عن الجنة التي هي  
 أليق به بمقتضى ذاته ، فإنها في جوار الرب تعالى ، وأنه أمر رباني ، وحينئذ إلى جوار الرب  
 تعالى له طبعي ذاتي ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته ،  
 فينسى عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه . إذ قيل له ( وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ  
 نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ <sup>(١)</sup> ) أي الخارجون عن مقتضى طبعهم  
 ومنظنة استحقاقهم . يقال فسقت الرطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه  
 إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها المأروفون ، وتشمز من سماع ألفاظها القاصرون  
 فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجمل ، وتبهر أعينهم الضميقة كما تبهر الشمس أبصار  
 الخفافيش . وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى  
 صاحبه وليا وعارفاً وهي مبادئ مقامات الأنبياء ، وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء  
 ولترجع إلى الغرض المطلوب فالقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك ، يدفع  
 إنا ييقن تقليدي ، وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن . والمؤمنون بالسنتهم وبعقائدهم  
 إذا ضيعوا أوامر الله تعالى ، وهجروا الأعمال الصالحة ، ولا بسوا الشهوات والمعاصي ، فهم  
 مشاركون للكفار في هذا الغرور ، لأنهم آثروا الحياء الدنيا على الآخرة . نعم أمرهم أخف  
 لأن أصل الإيعان يعصمهم عن عقاب الأبد ، فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم  
 أيضا من الغرورين ، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ، ولكنهم مالوا إلى الدنيا  
 وآثروها ، وعجزوا بالإيمان لا يكفي للفوز . قال تعالى ( وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
 سُمَّ اهْتَدَى <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ <sup>(٣)</sup> ) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الحجر : ١٩ (١) طه : ٨٣ (٢) الاعراف : ٥٦



(١) و الإحسانُ أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » وقال تعالى - (وَالْمَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ<sup>(١)</sup>) - فوعده المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا، لا بالإيمان وحده . فهو لاه أيضا مغرورون ، أعنى المطئنين إلى الدنيا ، الفرحين بها . المترفين بنعيمها ، المحبين لها ، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا ، دون الكارهين له خيفة لما بعده . فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا . . ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والمعاصين . فأما غرور الكفار بالله ، فثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم إنه لو كان لله من معاد ، فنحن أحق به من غيرنا ، ونحن أوفر حظا فيه وأسهل حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال ( وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا<sup>(٢)</sup> ) وجملة أمرهما كما نقل في التفسير ، أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار ، واشترى بستانا بألف دينار ، وخرجا بألف دينار ، وتزوج امرأة على ألف دينار . وفي ذلك كله يمظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفنى ويحرب ، ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يفنى ! واشتريت بستانا يحرب ويفنى ، ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى ! وخرجا لا يفنون ولا يموتون ! وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ما هناك شيء ، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب ، وإن كان فليكون لي في الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول ( لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا<sup>(٣)</sup> ) فقال الله تعالى رداً عليه ( أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلًّا<sup>(٤)</sup> ) . وروى عن خباب بن الأرت أنه قال<sup>(٥)</sup> : كان لي على العاص بن وائل دين ، فجئت أقتضاه ، فلم يقض لي . فقلت إني آخذه في الآخرة . فقال لي : إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أفضيك منه . فأنزل الله تعالى قوله ( أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا<sup>(٥)</sup> )

( ١ ) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

( ٢ ) حديث خباب بن الأرت قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أقتضاه - الحديث : في نزول قوله

تعالى أفرأيت الذي كفر بآياتنا الآية البخارى : مسلم

( ١ ) سورة العصر (٢) الكهف : ٣٦ (٣) مريم : ٧٧ (٤) مريم : ٧٨ (٥) مريم : ٧٧

وقال الله تعالى ( وَلَئِن أَدَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسْتَهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسَىٰ (١) )

وهذا كله من الغرور بالله، وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا، فيقيسون عليها نعمة الآخرة. وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ( وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ (٢) ) فقال تعالى جواباً لقولهم ( حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ (٣) ) ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر، فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا (٤) ) ويقولون ( لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ (٥) ) وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم، أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضاً في المستقبل، كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى \* كذلك يحسن فيما بقي

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب، إذ يقول: لولا أني كريم عند الله ومحبوب، لما أحسن إليّ، والنيليس تحت ظنه أن كل محسن محب، لابل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده، بدليل لا يدل على الكرامة، بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان. ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يينفض أحدهما ويحب الآخر، فالذى يحبه ينعمه من اللعب، ويلزمه المكتب، ويحبسه فيه ليعلمه الأدب، وينعمه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه. والذي يينفضه يهمله ليعيش كيف يريد، فيلعب، ولا يدخل المكتب، ويأكل بكل ما يشتهى، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم، لأنه ممكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه، فلم ينعمه ولم يحجر عليه. وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها، فإنها مهلكات ومبعدات من الله، (١) فإن الله يحصى عبده من الدنيا وهو يحبه

(١) حديث ان الله يحصى عبده من الدنيا وهو يحبه - الحديث: الترمذى وجسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان

(١) فصلت: ٥٠ (٢، ٣) المجادلة: ٨ (٤) الانعام: ٥٣ (٥) الاحقاف: ١١

كما يحسى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه . هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر  
وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت  
عقوبته . ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال . وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا  
بشمار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه  
ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال ( فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ  
وَنِعْمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنُ \* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ <sup>(١)</sup> )  
فأجاب الله عن ذلك ( كَلَّا <sup>(٢)</sup> ) أى ليس كما قال ، إنما هو ابتلاء ، نعوذ بالله من شر  
البتلاء ، ونسأل الله التثبيت . فبين أن ذلك غرور . قال الحسن : كذبهما جميعا بقوله ( كَلَّا <sup>(٣)</sup> )  
يقول ليس هذا بأكرامى ولا هذا بهوانى . ولكن الكريم من أكرمه بطاعى ، غنيا كان  
أو فقيرا ، والمهان من أهنته بمعصيتى ، غنيا كان أو فقيرا .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان ، إما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة  
فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ، ووجه كون التباعد عنها  
مقربا إلى الله ، ويدرك ذلك بالإلهام فى منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم  
المكاشفة ، ولا يليق بعلم المعاملة . وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق ، فهو أن يؤمن  
بكتاب الله تعالى ، ويصدق رسوله . وقد قال تعالى ( أَيْحْسِبُونَ أَنَّ مَا نُعِدُّهُمْ بِهِ مِنْ  
مَالٍ وَبَنِينَ \* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( سَنَسْتَدْرِجُهُمْ  
مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(٥)</sup> ) وقال تعالى ( فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا  
بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بِنَعْتِهِ فَاذًا هُمْ يُبْلَسُونَ <sup>(٦)</sup> ) وفى تفسير قوله تعالى ( سَنَسْتَدْرِجُهُمْ  
مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(٧)</sup> ) أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة . ليزيد غرورهم  
وقال تعالى ( إِنَّمَا نُعَلِّمُهُمْ لِيزَادُوا إِنَّمَا <sup>(٨)</sup> ) وقال تعالى ( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا  
يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ <sup>(٩)</sup> ) إلى غير ذلك مما ورد  
فى كتاب الله تعالى . وسنة رسوله . فمن آمن به تخلص من هذا الغرور ، فإن منشأ هذا الغرور

(١) (٣٠٢٠١) الفجر : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ . (٢) للؤمنون : ٥٦ ، ٥٥ (٧٠٥) القلم : ٤٤ ، (٤) الانعام : ٤٤ .

(٥) آل عمران : ١٧٨ ، (٦) إبراهيم : ٣٢ .

الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ، ولا يفتقر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر إلى فرعون ، وهامان ، وقارون ، وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم ، كيف أحسن الله إليهم ابتداء ، ثم دمرهم تدميراً . فقال تعالى ( هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ <sup>(١)</sup> ) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال ( فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا نَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ <sup>(٣)</sup> ) وقال عز وجل ( وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَا كِرِينَ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤَيْدًا <sup>(٥)</sup> ) فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه ، وتمكينه من النعم ، على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرامنه وكيداً ، مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى فإذا من آمن مكر الله فهو مغتر . ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافق ، وهو التصديق بدلالته على الكرامة ، وهذا هو حد الغرور

المثال الثاني : غرور العصاة من المؤمنين ، بقولهم إن الله كريم ، وإنا نرجو عفوهُ ، وانكالمهم على ذلك ، وإهمالهم الأعمال ، وتحسين ذلك بتسمية تخنيهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين ، وأن نعمة الله واسعة ، ورحمته شاملة ، وكرمه عميم . وأين معاصي العباد في بحار رحمته ، وإنا موحدون ومؤمنون ، فنرجوه بوسيلة الإيمان . وربما كان مسند رجائهم النمسك بصلاح الآباء وعلورتبتهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف ، والتقوى ، والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آبائهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنساناً أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحکم ، فلا محتاجون إلى الطاعة . وينسى الغرور أن نوحا عليه السلام

(١) مريم : ٩٨ (٢) الاعراف : ٩٩ (٣) النحل : ٥٥ (٤) آل عمران : ٥٤ (٥) الطارق : ١٥

أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة ، فلم يرد فكان من المفرقين فقال ( رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي <sup>(١)</sup> ) فقال تعالى ( يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ <sup>(٢)</sup> ) وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ، وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها ، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة ، حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى . وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع وينفض العاصى . فكما أنه لا ينفض الأب المطيع ينفضه للولد العاصى ، فكذلك لا يحب الولد العاصى بحبه الأب المطيع ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا . بل الحق أن لا تزور أزرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه ، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ، ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ، ويصل إلى الكعبة ويراهما بمشى أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا . وكذا العكس . وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه ، فيأذن فى الشفاعة له كما سبق فى كتاب الكبر والعجب

فإن قلت فأين النلط فى قول العصاة والفجار : إن الله كريم ، وإنا نرجو رحمة ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدي بنى فليظن بنى خيرا ، فها هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب فاعلم أن الشيطان لا ينعوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر ، مردود الباطن . ولولا حسن ظاهره لما اتخذت به القلوب . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال <sup>(٢)</sup> « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ تَقْوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ » وهذا هو التمنى على الله تعالى ، غير الشيطان اسمه فسماه رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

( ١ ) حديث انه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له

فى الاستغفار - الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

( ٢ ) حديث الكيس من دان نفسه يهدم قريته

اللَّهُ أَوْلَيْكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ<sup>(١)</sup> ) بمعنى أن الرجاء بهم أليق . وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجزءه على الأعمال . قال الله تعالى ( جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(٣)</sup> ) أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان ، وشروط له أجره عليها ، وكان الشارط كريما يفتي بالوعد مهما وعد ، ولا يخلف بل يزيد ، فجاء الأجير وكسر الأواني ، وأفسد جميعها ، ثم جلس ينتظر الأجر ، ويزعم أن المستأجر كريم أقره المقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا ، أو راجيا ؛ وهذا الجهل بالفرق بين الرجاء والتمنى . قول للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال هيهات ! هيهات ! تلك أمانيتهم يترجون فيها من رجا شينا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سجدت البارحة حتى سقطت نيتي . فقال له رجل : إننا نرجو الله . فقال مسلم : هيهات ! هيهات ! من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح ، أو نكح ولم يجمع ، أو جامع ولم ينزل ، فهو ممتوه . فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يعمل صالحا ، أو عمل ولم يترك المعاصي ، فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ، ووطئ ، وأنزل ، بقي مترددا في الولد ، يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن ، وعمل الصالحات ، وترك السيئات ، وبقي مترددا بين الخوف والرجاء ، يخاف أن لا يقبل منه ، وأن لا يدوم عليه وأن ينجم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يثبت بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق مسكرات الموت ، حتى يموت على التوحيد ، ويحرص قلبه عن الميل إلى الشهوات ببقية عمره حتى لا يؤول إلى المعاصي فهو كيس . ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله . وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل مبيلا . ولتعلمن نبأه بعد حين . وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ( رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ<sup>(٤)</sup> ) أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقوع ونكاح ، ولا ينبت زرع إلا بحرارة وبت بذر فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح ، فارجعنا نعمل صالحا ، فقد علمنا الآن صدقتك في قولك ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى ( كَلِمَاتٍ لَّيْقٍ فِيهَا فَوْجٌ سَاءَ لَهُمْ فِيهَا خِرَاتُهَا

(١) البقرة : ٢١٨ (٢) الواقعة : ٢٤ (٣) آل عمران : ١٨٥ (٤) الملك : ٨

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا سَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ<sup>(١١)</sup> ) أى ألم نسمعك سنة الله في عباده، وأنه توفى كل نفس ما كسبت، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، فما الذى غرّمك بالله بعد أن سمعتم وعقلتم، ( قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُخِّفُوا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ<sup>(١٢)</sup> )

فإن قلت : فإن مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فاعلم أنه محمود في موضعين : أحدهما : في حق العاصي المنهك إذا خطرت له التوبة ، فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك ؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى ، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا ، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده ، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب . قال الله تعالى ( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ<sup>(١٣)</sup> ) أمرم بالإنيابة . وقال تعالى ( وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن يَابَسَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ<sup>(١٤)</sup> ) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور . كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق ، وخطر له أن يسمى إلى الجمعة ، فقال له الشيطان إنك لا ندرك الجمعة فأقم على موضعك ، فكذب الشيطان ومر يعدو ، وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج . وإن استمر على التجارة ، وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت ، أو لأجل غيره ، أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها ، فهو مغرور

الثانى : أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ، ويقصر على الفرائض ، فيرجى نفسه نعيم الله تعالى ، وما وعد به الصالحين ، حتى ينيب من الرجاء نشاط العبادة ، فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ( قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ<sup>(١٥)</sup> ) إلى قوله أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْيَرْدُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ<sup>(١٦)</sup> ) فالرجاء الأوّل : يقمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثانى : يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير . فكل توقع حث على توبة أو على تشمير في العبادة فهو رجاء . وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة ويكرها إلى البطالة فهو غيره . كما إذا خطر له أن يتربك الذنب

(٢٠١) (٢٠١) الملك : ٩٠ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ (١٢) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ (١٣) طه : ٨٧ ، ٨٨ (١٤) المؤمنون :

ويشتغل بالعمل ، فيقول له الشيطان مالك ولا يذء نفسك وتعذيبها ، ولك رب كريم ؛ غفور رحيم ، فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة ، فهو غرة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف ، فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول .. إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب . وإنه مع أنه كريم ، خلد الكفار في النار أبد الآباد ، مع أنه لم يضره كفرهم : بل سلب العذاب ، والمحن ، والأمراض ، والعلل . والفقر ، والجوع ، على جملة من عباده في الدنيا ، وهو قادر على إزالتها . فن هذه سنته في عباده ، وقد خوفني عقابه ، فكيف لأخافه ! وكيف أعتبر به . فالخوف والرجاء قائدان وسائقان ، يبعثان الناس على العمل . فالأبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا ، وسبب إعراضهم عن الله تعالى ، وإهمالهم السعى للآخرة ، فذلك غرور . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم . فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله ، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ، ويكون على أنفسهم في الخلوات . وأما الآن ، فترى الخلق آمنين ، مسرورين ، مطمئنين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصي ، وانهما كههم في الدنيا ، وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء ، والصحابة ، والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينى ، فعلام ذا كان بكاء أولئك ، وخوفهم ، وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> ، فيما رواه معقل بن يسار « يَا أَيُّهَا عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَخْلُقُ فِيهِ الْقُرْءَانُ فِي

(١) حديث ابن جرير يغلّب على آخر هذه الأمة: تقدم في آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبي ثعلبة في إعجاب كل ذى رأى برأيه -

(٢) حديث معقل بن يسار يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرءان في قلوب الرجال - الحديث : أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل



قُلُوبِ الرَّجَالِ كَمَا تَخْلُقُ الثِّيَابُ عَلَى الْأَبْدَانِ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ يَكُونُ طَمَعًا لَا خَوْفَ مَعَهُ  
 إِنَّ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ يُتَقَبَّلُ مِنِّي وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ يُغْفَرُ لِي» فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَضُمُونَ الطَّمَعِ  
 مَوْضِعَ الْخَوْفِ لَجَهْلِهِمْ بِتَخْوِيفَاتِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ . وَبِمَثَلَةِ أَخْبَرِ عَنِ النَّصَارِيِّ إِذْ قَالَ تَعَالَى  
 ( فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَا مُخَذَّبُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ  
 سَيُغْفَرُ لَنَا<sup>(١)</sup> ) وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ وَرِثُوا الْكِتَابَ أَيْ هُمْ عُلَمَاءُ ، وَيَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى أَيْ  
 شَهْوَاتِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ، حَرَامًا كَانَ أَوْ حَلَالًا . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ حِشْيَانٌ<sup>(٢)</sup> )  
 ( ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ<sup>(٣)</sup> ) وَالْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ تَحْذِيرٌ وَتَخْوِيفٌ  
 لَا يَتَفَكَّرُ فِيهِ مَتَفَكِّرٌ إِلَّا وَيَطُولُ حَزَنُهُ ، وَيَعْظُمُ خَوْفُهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِمَا فِيهِ . وَتَرَى النَّاسَ  
 يَهْدُونَهُ هَذَا يَخْرُجُونَ الْحُرُوفَ مِنْ مَخَارِجِهَا ، وَيَتَنَاطَرُونَ عَلَى خَفِضِهَا ، وَرَفْعِهَا ، وَنَصْبِهَا  
 وَكُنْهِهَا ، يَقْرَءُونَ شِعْرًا مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، لَا يَهْتَمُّونَ بِالإِتِّفَاتِ إِلَى مَعَانِيهِ ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ  
 وَهَلْ فِي الْعَالَمِ غُرُورٌ يَزِيدُ عَلَى هَذَا . فَهَذِهِ أَمْثَلَةُ الْغُرُورِ بِاللَّهِ ، وَبَيَانَ الْفَرْقِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْغُرُورِ  
 وَيَقْرَبُ مِنْهُ غُرُورٌ طَوَائِفُ لَهُمْ طَاعَاتٌ وَمَعَاصٍ ، إِلَّا أَنْ مَعَاصِيَهُمْ كَثُرَ ، وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ  
 الْمَغْفِرَةَ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ تَرَجَّحَ كِفَّةُ حَسَنَاتِهِمْ ، مَعَ أَنْ مَا فِي كِفَّةِ السَّيِّئَاتِ أَكْثَرُ وَهَذَا غَالِيَةٌ  
 الْجَهْلِ . فَرَى الْوَاحِدُ يَتَصَدَّقُ بِدِرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَيَكُونُ مَا يَتَنَاوَلُ مِنْ  
 أَمْوَالِ الْمَسَامِينِ وَالشَّبَهَاتِ أضعَافَهُ . وَتَعْمَلُ مَا تُتَصَدَّقُ بِهِ مِنْ أَمْوَالِ الْمَسَامِينِ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ  
 وَيَظُنُّ أَنْ أَكَلَ أَلْفَ دِرْهَمٍ حَرَامٍ ، يَقَارِمُهُ التَّصَدَّقُ بِعَشْرَةِ مِنَ الْحَرَامِ أَوْ الْحَلَالِ وَمَا هُوَ إِلَّا  
 كَنْ وَضِعَ عَشْرَةُ دِرَاهِمٍ فِي كِفَّةِ مِيزَانٍ ، وَفِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى أَلْفًا ، وَأَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ الْكِفَّةَ  
 الثَّقِيلَةَ بِالْكَفَّةِ الْخَفِيفَةِ . وَذَلِكَ غَالِيَةٌ جَهْلُهُ . نَعَمْ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ طَاعَاتِهِ أَكْثَرُ مِنْ  
 مَعَاصِيهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَحْسِبُ نَفْسَهُ وَلَا يَتَفَقَّدُ مَعَاصِيَهُ ، وَإِذَا عَمِلَ طَاعَةَ حَفْظًا وَعَدْتَهَا ، كَالَّذِي  
 يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ بِلِسَانِهِ ، أَوْ يَسْبِحُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ، ثُمَّ يَنْتَابُ الْمَسَامِينَ ، وَيَمْزِقُ أَعْرَاضَهُمْ  
 وَيَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ طَوِيلَ النَّهَارِ مِنْ غَيْرِ حَصْرِ وَعَدَدٍ . وَيَكُونُ نَظَرُهُ إِلَى عَدَدِ سَبْعَتِهِ  
 أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ . وَغَفَلَ عَنْ هَدْيَانِهِ طَوِيلَ نَهَارِهِ ، الَّذِي لَوْ كَتَبَهُ لَكَانَ مِثْلَ تَسْبِيحِهِ

(١) الأعراف : ٦٩ (٢) الرحمن : ٤٦ (٣) إبراهيم : ١٤

مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، وقد أوعده الله بالمقاب على كل كلمة فقال ( مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ )<sup>(١)</sup> فهذا أبدأ يتأمل في فضائل التسيبحات والتهليلات ، ولا يلتفت إلى ماورد من عقوبة المفتابين ، والكذابين ، والمامين ، والمنافقين يظهر من الكلام ما لا يضر ونه ، إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجره النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسيبحه ، كان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به في قتراته كان يمدده ويحسبه ، ويوازنه بتسيبحاته ، حتى لا يفضل عليه أجره نسخه . فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يقوته في الأجرة على النسخ ، ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه . ماهذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها . فقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين ، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ، فإنا هذه أعمال من يصدق بما جاء به القراءان ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقى ، ولا يفتقر به اتكالا على أباطيل المنى وتمايل الشيطان والهوى ، والله أعلم

## بيان

أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمغترون منهم فرق . ففرقة أحكموا المعلوم الشرعية والمقلية ، وتمقوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقد الجوارح ، وحفظها عن المعاصي ، وإنجازها الطاعات ، واعتروا بملهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله بملهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يظالمهم بذنوبهم وخطاياهم لمكرتهم على الله . وهم مغرورون . فإنهم لو نظروا بعين البصيرة ، علموا أن العلم علمان علم معاملة ، وعلم مكاشفة ، وهو العلم بالله وبصفاته ، المسي بالعادة علم المعرفة : فلما للعلم

بالمعاملة ، كعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ، وكيفية علاجها والفرار منها ، فهى علوم لا تراد إلا للعمل ، ولو لا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة . وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل : فثال هذا كمرضى به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة ، لا يعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسمى فى طلب الطبيب ، بعد أن هاجر عن وطنه ، حتى عثر على طبيب حاذق ، فعامه الدواء ، وفصل له الأخلاط وأنواعها ، ومقاديرها ، ومعادنها التى منها تجلب ، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف خلطه ، وعجنه ، فعمل ذلك ، وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ، ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ، ولم يشتغل بشرها واستعمالها . أفترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئاً ؟ هيات ! هيات ! لو كتب منه ألف نسخة ، وعامه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة ، لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً ، إلا أن يزن الذهب ، ويشترى الدواء ، ويخلطه كما تعلم ، ويشربه ، ويصبر على مرارته ، ويكون شربه فى وقته ، وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه . وإذا فعل جميع ذلك ، فهو على خطر من شفائه ، فكيف إذا لم يشربه أصلاً ؟ فهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه ، فقد ظهر غروره

وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها ، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها ، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها ، فهو مغرور . إذ قال تعالى ( قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا <sup>(١)</sup> ) ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس

وعند هذا يقول له الشيطان : لا يترك هذا المثال ، فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض . وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه ، والعلم يجلب الثواب . ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم . فإن كان المسكين معتموها مغروراً ، وافق ذلك مراده وهو اه ، فاطمأن إليه وأهمل العمل . وإن كان كيساً ، فيقول للشيطان : أتذكرنى فضائل العلم ، وتنسىنى ماورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه ؟ كقوله تعالى ( قَسَتْهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ <sup>(٢)</sup> ) وكقوله تعالى ( مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجَمَلِ يُحْمَلُ أَثْقَاراً <sup>(٣)</sup> ) فأى خذى

(١) الشمس : ٩ (٢) الأعراف : ١٧٧ (٣) البقرة : ٥

أعظم من التمثيل بالكلب والحمار، وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «مَنْ أَزْدَادَ عَلِيًّا وَلَمْ يَزِدْهُدِي لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا» وقال أيضا <sup>(٢)</sup> «يُلْقَى الْعَالِمُ فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى» وكقوله عليه الصلاة والسلام <sup>(٣)</sup> «شَرُّ النَّاسِ الْعُلَمَاءُ السُّوءُ» وقول أبي الدرداء: ويل للذي لا يعلم مرة، ولو شاء الله لعلمه. وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات. أي أن العلم حجة عليه، إذ يقال له. ماذا عملت فيما علمت؟ وكيف قضيت شكر الله؟ وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ». فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم، في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى. إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر. وما ورد في فضل العلم، يوافقنا. فميميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه، وذلك عين الغرور. فإنه إن نظر بالبصيرة، فثاله ما ذكرناه. وإن نظر بيمين الإيمان، فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بدم العلماء السوء. وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور.

وأما الذي يدعى علوم المكاشفة، كالعلم بالله، وبصفاته، وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل، ويضيع أمر الله وحدوده، فغروره أشد. ومثاله مثال من أراد خدمة ملك، فعرف الملك، وعرف أخلاقه، وأوصافه، ولونه، وشكله، وطوله، وعرضه، وعادته، ومجلسه، ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه، وما يفضب عليه وما يرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يفضب به وعليه، وعاطل عن جميع ما يحبه من زى، وهيته، وكلام، وحرارة، وسكون، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه، والاختصاص به، منلظخا بجميع ما يكرهه الملك، عاطلا عن جميع ما يحبه، متوسلا إليه بمعرفة له ونسبه، واسمه، وبلده، وصورته، وشكله، وعادته في سياسة غلمانة، ومعاملة رعيته. فهذا مغرور جدا. إذ لو ترك جميع ما عرفه، واشتغل بمعرفة فقط، ومعرفة ما يكرهه ويحبه،

(١) حديث من ازداد علما ولم يزد هدى - الحديث : تقدم في العلم

(٢) حديث يلقي العالم في النار فتندلق أقتابه - الحديث : تقدم غير مرة

(٣) حديث شر الناس علماء السوء : تقدم في العلم

(٤) حديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه : تقدم فيه

لكان ذلك أقرب إلى نيله المزاد من قربته والاختصاص به . بل تقصيره في التقوى ، واتباعه للشهوات ، يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامى دون المعانى . إذ لو عرف الله حق معرفته ، لحشيه واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفى كما تخاف السبع الضارى . نعم : من يعرف من الأسد لونه ، وشكله ، واسمه ، قد لا يخافه ، وكأنه ما عرف الأسد . فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة ، وأبد عليهم العذاب أبد الآباد ، لم يؤثر ذلك فيه آثرا ، ولم تأخذه عليه رقة ، ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ <sup>(١)</sup> ) وفاحة الزبور : رأس الحكمة خشية الله . وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله عاملا ، وكفى بالاغترار بالله جهلا . واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب ، فقيل له . إن فقهاءنا لا يقولون ذلك . فقال : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليله ، الصائم بهاره ، الزاهد في الدنيا . وقال مرة . الفقيه لا يدارى ولا يعارى ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت منه حمد الله ، وإن ردت عليه حمد الله . فإذا الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه ، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه ، وهو العالم . ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين . وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل ، فواظبوا على الطاعات الظاهرة ، وتركوا المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله ، من الكبر ، والحسد ، والرياء ، وطلب الرياسة والعلاء ، وإرادة السوء للأقربان والنظر ، وطلب الشهرة في البلاد والعباد وربما لم يعرف بمضمهم أن ذلك مذموم ، فهو مكب عليها ، غير متحرر عنها . ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أدنى الرياء شرك » وإلى قوله عليه السلام <sup>(٣)</sup> « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » وإلى قوله عليه الصلاة

(١) حديث أدنى الرياء شرك : تقدم في ذم الجاه والرياء

(٢) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم غير مرة

والسلام<sup>(١)</sup> « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام<sup>(٢)</sup> « حُبُّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ يُنْبِتَانِ النَّفَاقَ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربيع المهلكات في الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » فتمهدوا الأعمال وما تمهدوا القلوب . والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومثال هؤلاء كبر الحش ، ظاهرها جص ، وباطنها نتن : أو كقبور الموتى ، ظاهرها مزين ، وباطنها جيفة . أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه ، فاستنار ظاهره ، وباطنه مظلم . أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره ، فخصص باب داره ، وترك المزابل في صدر داره . ولا يخفى أن ذلك غرور . بل أقرب مثال إليه رجل زرع ذرعاً فنبت ، ونبت معه حشيش يفسده . فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله . فأخذ يجر رأسه وأطرافه ، فلا تزال تقوى أصوله ففتنت ، لأن مفارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمرريض ظهر به الجرب ، وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، ففنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول ما يزيد في المادة ، فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به ، يتفجر من المادة التي في الباطن

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لمعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منصفون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم . فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم . ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر ، والرياسة ، وطلب العلو ، والشرف ، قالوا ما هذا كبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، ونصرة دين الله ، وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين .

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات - الحديث : تقدم في العلم وغيره .

(٢) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب - الحديث : تقدم

(٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم - الحديث : تقدم

وإني لو لبست الدون من الثياب ، وجلست فى الدون من المجالس ، لسمت بى أعداء الدين ، وفرحوا بذلك ، وكان ذلى ذلا على الإسلام . ونسى المغرور أن عدوه الذى حذّره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين ، وبماذا أرغم الكافرين . ونسى ماروى عن الصحابة من التواضع ، والتبذل ، والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب العز فى غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب ، والديبقي ، والإبريسم المحرم ، والمخينول ، والمراكب ، ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين . وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فى من رد عليه شيئا من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، ولكن قال إننا هذا غضب للحق ، ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد . حتى يعتقد أنه لو طعن فى غيره من أهل العلم ، أو منع غيره من رياسة وزوجم فيها ، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن . فيكون غضبه لله ، أم لا يغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع ، بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه ، وحسده لأقرانه ، من خبث باطنه ؟ وهكذا يرأى بأعماله وعلومه ، وإذا خطر له خاطر الرياء قال هيات ، إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليبتدوا إلى دين الله تعالى ، فيتخلصوا من عقاب الله تعالى . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح بقتداء الخلق بغيره ، كما يفرح باقتدائهم به . فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح لصلاحهم على يد من كان ، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم ، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر . وربما يذكر هؤلاء ، فلا يخايه الشيطان أيضا ويقول . إنما ذلك لأنهم إذا اهتمدوا بى كان الأجر لى ، والثواب لى . فإنما فرحى بثواب الله ، لا بقبول الخلق قولى . هذا ما يظنه بنفسه ، والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه فى الخمول وإخفاء العلم ، أكثر من ثوابه فى الإظهار ، وحبس مع ذلك فى سجن ، وقيد بالسلاسل ، لاحتال فى هدم السجن وحل السلاسل ، حتى يرجع إلى موضعه الذى به تظهر رياسته ، من تدريس أو وعظ أو غيره . وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ، ويثنى عليه ، ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام ، قال له الشيطان :

هيئات، إنما ذلك عند الطمع في مالهم. فأما أنت ففرضك أن تشفع للمسلمين، وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك. والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، فصار يشفعه في كل مسلم، حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين، ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطمع فيه، والكذب عليه لفعل

وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام، قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين، أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيفتقر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور أحدها: في أنه مال لا مالك له، فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء. وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم. ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها، فلا خلاف في أنه مال حرام. ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة، ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر

الثاني: في قوله. إنك من مصالح المسلمين، وبك قوام الدين، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين، ورجبوا في طلب الدنيا، والإقبال على الرياسة، والإعراض عن الآخرة بسببه، أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها، وأقبلوا على الله. فهو على التحقيق رجال الدين، وقوام مذهب الشياطين لإمام الدين إذ الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله، كالأنبياء عليهم السلام، والصحابة، وعلماء السلف. والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله، والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته. وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالتليل على الكثير

وفرة أخرى. أحكموا العلم، وطهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب، من الرياء، والحسد، والحقد،...



والكبر، وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبرى منها، وقلعوا من القلوب منابها الجليلة القوية، ولكنهم بعد مغرورون، إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكاييد الشيطان وخبايا خداع النفس، مادك ونمض مدركه، فلم يفتنوا لها وأهملوها. وإنما مشاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش، فدار عليه، وقش عن كل حشيش رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض، وظن أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف، فانبسطت تحت التراب، فأهملها وهو يظن أنه قد قلعه، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت، وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري. فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك، ويذهل عن المراقبة للخفايا، والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها، وتحسين ألفاظها، وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعته الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء، والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات، وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاستفادة، والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد، والتمتع بتحريك الراءوس إلى كلامه، والبكاء عليه، والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب، والاتباع، والمستفيدين، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم، والورع، وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا، لا عن تفجع بعصية الدين، ولكن عن إدلال بالتمييز، واعتداد بالتخصيص ولعل هذا المسكين المغرور، حياته في الباطن بما انتظم له من أمر، وإمارة، وعز، واتباع، وتوقير، وحسن ثناء، فلو تغيرت عليه القلوب، واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله، فعساه يتشوش عليه قلبه، وتختلط أوراده ووظائفه، وعساه يمتدثر بكل حيلة لنفسه، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تنطية عيبه، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره. وينبو قلبه عن عرف حد فضله وورعه، وإن كان ذلك على وفق حاله. وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض، وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع. وإنما ذلك لأنه أطوع له، واتباع لمراده، وأكثر

ثناء عليه ، وأشد إصغاء إليه ، وأحرص على خدمته . ولعلمهم يستفيدون منه ، ويرغبون في العلم ، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه ، وقيامه بحق علمه ، فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ، ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه ، وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إشاره الجمل ، والعزلة ، وإخفاء العلم لم يرغب فيه ، لفقده في العزلة ، ولا عطفاء لذة القبول وعزة الرياسة .

ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بنى آدم أنه بعلمه امتنع مني ، فبجهله وقع في حبائلي . وعساه يصنف ويجهده فيه ، ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به ، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف . فلو ادعى مدع تصنيفه ، ومحا عنه اسمه ، ونسبه إلى نفسه ؛ ثقل عليه ذلك ، مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف ، والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه . ولعله في تصنيفه لا يخلو من الشناء على نفسه إما صريحاً بالدعوى الطويلة المريضة ، وإما ضمناً بالظمن في غيره ، ليستبين من طعمه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه ، وأعظم منه علماً . ولقد كان في غنية عن الظمن فيه ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه ، فيعزبه إلى قائله ، وما يستحسنه فعله لا يعزبه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له ، أو يغيره أدنى تغيير ، كالذي يسرق قميصاً فينخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق . ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه ، وتسجيعة وتحسين نطمه ، كيلا ينسب إلى الركافة ، ويرى أن غرضه ترويح الحكمة وتحسينها وتزيينها ، ليكون أقرب إلى نفع الناس ، وعساه غافلاً عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف في الحكمة ، فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قدملأت الأرض نفاقاً ، وإني لأقبل من نفاقك شيئاً

ولعل جماعة من هذا الصنف من المقترين إذا اجتمعوا ، ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه ، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه ، نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه ، وأنه أكثر تبعاً أو غيره ، فيفرح إن كان أتباعه أكثر ، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه . ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا

ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ، ثقل على قلبه ، ووجد في نفسه نظرة منه ، فبعد ذلك لا يهتمز باطنه لإكرامه ، ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر

من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى ، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل الشعير  
منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه ، لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة ، وسلامته  
عنها في تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه

ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره ، فيتملئ بالطمع في  
دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول : إنما غضبت لدين الله لأنفسى . ومهما ذكرت  
عيوبه بين يديه ربما فرح له ، وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه . وربما قطب وجهه إذا ذكرت  
عيوبه ، يظهر أنه كاره لغيبة المسامين ، وسر قلبه راض به ، ومريد له ، والله مطلع عليه في ذلك  
فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء  
ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ،  
ويسويه ذلك ويكرهه ، ويحرص على إصلاحه . فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه  
ومن سرته حسنته . وساءته سيئته ، فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكى  
لنفسه ، الممتن على الله بعمله وعلمه ، الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاعتزاز  
ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، ولكن  
قصروا في العمل بالعلم . ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم  
وهم به مغترون . إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم ، وإما لاقتصارهم عليه

فهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات ، وتفاصيل المعاملات  
الدينيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها ، وسموه الفقه وعلم  
المذهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلم يتفقدوا الجوارح ، ولم  
يخرسوا اللسان عن الغيبة ، ولا البطن عن الحرام ، ولا الرجل عن المشى إلى السلاطين ،  
وكذا سائر الجوارح . ولم يخرسوا قلوبهم عن الكبر ، والحسد ، والرياء وسائر المهلكات

فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم  
أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه ، وأن مثلهم مثال المريض إذا تعلم  
نسخة الدواء ، واشتغل بتكراره وتعليمه . لابل مثلهم مثال من به غلة البواسير والبرسام  
وهو مشرف على الهلاك ، ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم دواء

الاستحاضة ، وبتكرار ذلك ليلا ونهارا ، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول . ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتساألني عن ذلك . وذلك غاية الغرور . فكذلك المتفقه المسكين ، قد يسلط عليه حب الدنيا ، واتباع الشهوات ، والحسد ، والكبر ، والرياء ، وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يحتطفه الموت قبل التوبة والتلافي ، فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله وأشتغل بعلم السلم ، والإجارة ، والظهار ، واللعان ، والجراحات ، والديات ، والدعاوى ، والبيئات ، وبكتاب الحيض ، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة ، فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه ، والرياسة ، والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه ، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية : وهذا لو كانت نيته صحيحة كما قال ، وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى . فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقابله ، فهذا غروره من حيث العمل

وأما غروره من حيث العلم ، فحيث اقتصر على علم الفتاوى ، وظن أنه علم الدين ، وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وربما طمن . في المحدثين ، وقال إنهم نقلة أخبار ، وحملة أسفار لا يققهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق ، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف ، والهيبة ، والخشوع ، ويحمل على التقوى . فتراه آمنا من الله ، مغترا به ، متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه ، فإنه قوام دينه وإنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتمطل الحلال والحرام . فقد ترك العلوم التي هي أهم ، وهو غافل مغرور . وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه ، ولم يدرك أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلتزم التقوى ، إذ قال تعالى ( فَلَوْلَا نَفْرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لَتُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ <sup>(١)</sup> ) والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم . فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات

والمال فى طريق الله آله ، والبدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق ، وقطع عقبات القلب التى هى الصفات المذمومة ، فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى . وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله . فناله فى الاقتصار على علم الفقه ، مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شىء ، ولا بسبيله . وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم . ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات ، ولم يهيمه إلا تعلم طريق المجادلة ، والإلزام ، وإلغام الخصوم ، ودفع الحق ، لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ، والتفقد لميوس الأقران والتلقف لأنواع التسيديات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس ، طبعهم الإيذاء ، وهمهم السفه ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه فى المباهاة كعلم القلب ، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى ، بحسب الصفات المذمومة ، وتبديلها بالمحودة ، فإنهم يستحقرونه ، ويسمونهم التزويق وكلام الوعاظ . وإنما التحقيق عندم معرفة تفاصيل العريضة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى ، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ؛ بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعته لم يعرفها السلف . وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب والتعدية ، فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإلغام ، وإقامة سوق الجدل بها . ففرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء ، والرد على المخالفين ، وتتبع مناقضاتهم ، واسكثروا من معرفة المقالات المختلفة ، واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك وإلغامهم ، واقترقوا فى ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل بالإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدتهم ، وما سموه أدلة عقائدهم . وظنوا أنه لا أحد أعرف

بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يمتد مذاهبهم ، ولم يتعلم علمهم . ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها . ثم هم فرقتان : ضالة ومحقة ، فانضالة هي التي تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هي التي تدعو إلى السنة ، والفرور شامل لجميعهم . أما الضالة فلغفلتها عن ضالتها ، وظنها بنفسها النجاة . وهم فرق كثيرة ، يكفر بعضهم بمضا . وإنما أتيت من حيث إنها لم تهتم رأيها ، ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا ، والدليل شبهة . وأما الفرقة المحقة ، فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أم الأمور ، وأفضل القربات في دين الله ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن ، أو ليس كامل الإيمان ، ولا مقرب عند الله . فهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل ، والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم ، حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لا لتذاه بالغبلة ، والإفحام ، ولذة الرياسة ، وعز الإتياء إلى الذب عن دين الله تعالى ، عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول . فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى ، فاجعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للنصومات والمجادلات ، وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم . بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة ، وتوسموا مخايل قبول ، فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه ، وأبغضوه في الله ، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر . بل قاوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ، ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو إمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(١)</sup> « مَأْصَلٌ قَوْمٌ قَطُّ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ » <sup>(٢)</sup> وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون ، فغضب عليهم حتى كأنه فقيء في وجهه حب

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الأوتوا الجدل: تقدم في العلم وفي آفات اللسان

(٢) حديث خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقيء في وجهه حب الرمان

الحديث: تقدم

الريمان من الغضب ، فقال « ألهذا بعثتم أهدداً أميرتكم أن تضرُّوا كتابَ الله بعبثِهِ  
يَبْعُثُ انظُرُوا إِلَى مَا أَمَرْتُمْ بِهِ فَأَعْمَلُوا وَمَا نُهَيْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهَوْا » فقد زجرهم عن ذلك ،  
وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وقد بعث إلى كافة أهل الملل ، فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام ، وإفحام ، وتحقيق حجة  
ودفع سؤال ، وإيراد إلزام . فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم . ولم يزد في المجادلة عليه  
لان ذلك يشوش القلب ، ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من  
قلوبهم . وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأفيسة ، وأن يعلم أصحابه كيفية  
الجدل والإلزام . ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يفتروا بهذا ، وقالوا لولنا أهل الأرض  
وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا في المجادلة  
أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود ، والنصارى ، وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير  
مجادلاتهم ، فالناضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفافتنا ؟ ولم نخوض فيما  
لنا من على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بمجذاله . بل يزيده  
التعصب والخصومة تشدداً في بدعته . فاشتغالى بخصامة نفسى ومجادلتها ، ومجاهدتها لتترك  
الدنيا والآخرة أولى . هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة ، فكيف وقد نهيت عنه !  
وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ! فالأولى أن أتفقد نفسى ، وأنظر من صفاتها ما يبغضه  
الله تعالى وما يحبه ، لأنزله عما يبغضه وأتمسك بما يحبه

وفرقه أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير . وأعلام رتبة من يتكلم في أخلاق النفس  
وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والزهد ، واليقين  
والإخلاص ، والصدق ونظائره ، وهم مغرورون ، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه  
الصفات ، ودعوا الخلق إليها ، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات ، وهم منفكون عنها  
عند الله ، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين . وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم  
يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله ، وما  
قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا  
ولم تحتها منزهون . ولو لا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب ، والبعده ، وعلم السواك

إلى الله ، وكيفية قطع المنازل في طريق الله . فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو من المعتزين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكئين على العز ، والجاه ، والمال ؛ والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يرأى بذكره ، ليعتقد فيه أنه لو لا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها . فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا ، لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضائق عليه الأرض بما رحبت ، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق . ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه ، وصلحوا على يديه ، لمات غما وحسدا . ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهو لاء أعظم الناس غرة ، وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة ، والمنفر عن المذمومة ، هو العلم بفوائدها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه ، وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به ، فبعد ذلك بماذا يعالج ، وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما الخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم : إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة ، يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله ، فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف ، فما الذي امنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد ، فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الأتس بالله ، فمتى طابت له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لابل يرى قلبه يمتلىء بالخلوة إذا أحرق به المريدون . وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى . فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ، ويستروح منه إلى غيره ؟

فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ، ويطالبونها بالحقيقة ، ولا يقنعون منها



بالتزويق ، بل بموثق من الله غليظ . والمترون يحسنون بأنفسهم الظنون ، وإذا كشف  
 النطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون ، بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم ، فيدور بها أحدهم  
 كما يدور الحمار بالرحى ، كما ورد به الخبر ، لأنهم يأمررون بالخير ولا يأتونه ، وينهون عن الشر ويأتونه  
 وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون فى قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول  
 هذه المعانى ، وهو حب الله ، والخوف منه ، والرضا بفعله ، ثم قدروا مع ذلك على وصف  
 المنازل العالية فى هذه المعانى ، فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك ، وما رزقهم الله علمه ،  
 وما نفع الناس بكلامهم فيها ، إلا لا تصافهم بها . وذهب عليهم أن القبول للكلام ، والكلام  
 للمعرفة ، وجريان اللسان والمعرفة للعلم ، وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة . فلم يفارق  
 آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف ، بل فى القدرة على الوصف . بل ربما زاد  
 أمنه ، وقلَّ خوفه ، وظهر إلى الخلق ميله ، وضعف فى قلبه حب الله تعالى . وإنما مثاله مثال  
 مريض يصف المرض ، ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى  
 لا يقدر على وصف الصحة والشفاء ، وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم فى صفة  
 المرض والاتصاف به ، وإنما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة  
 أنه صحيح غاية الجهل . فكذلك العلم بالخوف ، والحب ، والتوكل ، والزهد ، وسائر هذه  
 الصفات ، غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق  
 فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب فى كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ  
 القراء والأخبار ، وعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم

وفرقه أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ أهل هذا الزمان  
 كافة ، إلا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ، ولسانه رفة ، فاشتغلوا  
 بالطامات والشطح ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، طلباً للإغراب  
 وطائفة شغفوا بطيارات النكت ، وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم بالإسجاع ،  
 والإستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالستهم الزعقات والتواجد  
 ولو على أغراض فاسدة . فهؤلاء شياطين الإنس ، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . فإن  
 الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم وعظهم . وأما هؤلاء

فإنهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ، فيزيدم كلامهم جراءة على المعاصي ، ورغبة في الدنيا ، لاسيما إذا كانت الواعظ متزينا بالثياب ، والخليل ، والمراكب ، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا ، فإي يفسده هذا الغرور أكثر مما يصلحه ، بل لا يصلح أصلا ، ويضل خلقا كثيرا . ولا يخفى وجه كونه مغرورا وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا ، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ، ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها . فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحاريب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلوس . وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوق والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم ، فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له ، وأمن عقاب الله ، من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

وفرقة أخرى . استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث ، أعنى في سماعه ، وجمع الروايات الكثيرة منه ، وطلب الأسانيد الغريبة العالية . فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ، ولقد رأيت فلانا ، ومعى من الأسناد ما ليس مع غيري وغرورهم من وجوهها أنها أهم كحكمة الأسفار ، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة ، فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ، ويظنون أن ذلك يكفيهم . ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها ، وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به .

ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين ، وهو معرفة علاج القلب ، ويستأنون بتكثير الأسانيد ، وطلب العالي منها ، ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك .

ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان ، أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع ، فإن السماع بمجرد وإن لم تكن له فائدة ، ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث ، إذ التفهم بعد الإثبات ، والعمل بعد التفهم . فالأول السماع ، ثم التفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر . وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ، ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الضعيف يحضر في مجلس الشيخ ، والحديث يقرأ ، والشيخ ينام والصبي يلعب ، ثم يكتب اسم الصبي في السماع ، فإذا كبر تصدى ليستمع منه . والبالغ الذي يحضر ربما يففل ولا يسمع ،

ولا يصنى، ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ . والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ، ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور إذ الأصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه . فتكون الرواية عن الحفظ ، والحفظ عن السماع ، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمته من الصحابة أو التابعين ، وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصنى لتسمع . فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً . ولو غير غيرك منه حرفاً وأخطأ علمت خطأه

ولحفظك طريقان : أحدهما أن تحفظ بالقلب ، وتستديقه بالذكر والتكرار ، كما نحفظ ماجرى على سمعك فى مجارى الأحوال . والثانى أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه ، حتى لاتصل إليه يد من غيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره . فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره . فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك ، فيكون كتابك مذكراً لما سمعته ، وتأمين فيه من التغيير والتحريف . فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب ، وجرى على سمعك صوت غفل ، وفارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ ، وجوزت أن يكون ما فيه مغيراً ، أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يجوز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب . فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه ، بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو فى كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ، ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها ، فن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى ( وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ <sup>(١)</sup> ) وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان : إنا سمعنا ما فى هذا الكتاب ، إذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه ، فهو كذب ضريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع ، مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير . ولو جاز أن يكتب سماع الصبي ، والغافل ، والنائم ، والذى ينسخ . لجاز أن يكتب سماع المجنون ، والصبي فى المهدي . ثم إذا بلغ الصبي ، وأفاق المجنون ، يسمع عليه . ولا خلاف فى عدم جوازه . ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي فى المهدي ، لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذى يلعب ،

والناقل، والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ . وإن استجراً جاهل فقال يكتب سماع الصبي في المهد ، فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت ، وهذا يسمع الصوت ، فما ينفع هذا وهو إنما ينتقل الحديث دون الصوت ؟ فليقتصر إذ صار شيخنا على أن يقول : سمعت بعد بلوغى أنى في صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث ، كان يقرع سمعى صوته ، ولا أدرى ماهو . فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح . وما زاد عليه فهو كذب صريح . ولو جاز إثبات سماع التركي الذى لا يفهم العربية لأنه سمع صوتنا غفلا ، لجاز إثبات سماع صبي في المهد ، وذلك غاية الجهل . ومن أين يؤخذ هذا ؟ وهل للسمع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « نَصَرَ اللَّهُ أُمَّرَأً سَمِعَ مَقَالَتى فَوَعَاها فَأَدَّها كَمَا سَمِعَها » وكيف يؤدى كما سمع من لا يدري ما سمع ؟

فهذا أفحش أنواع الفرور . وقد بلى بهذا أهل الزمان . ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة . إلا أن للمحدثين في ذلك جاها وقبولا ، نخاف المساكين أن يشترطوا ذلك ، فيقل من يجتمع لذلك في حلقتهم ، فينقض جاههم ، وتقل أيضا أجاديتهم التي قد سمعوها بهذا الشرط ، بل ربما عدمو ذلك واقتضحوا فاضطلخوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة ، وإن كان لا يدري ما يجرى . وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين ، لأنه ليس من علمهم ، بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه . فهذا غرور هؤلاء . ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا منورين في اقتصارهم على النقل ، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ، ومعرفة معانى الأخبار . بل الذى يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ، ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر

(١) حديث نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها - الحديث : أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت

والترمذى . وابن ماجه من حديث ابن مسعود قال الترمذى حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط

من حديث جبير بن مطعم وأنس

مجلس السماع ، فكان أول حديث زوى قوله عليه الصلاة والسلام <sup>(١)</sup> « مِنْ حُسْنِ إِسْتِلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » فقام وقال : يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون التروير .

وفرقه أخرى اشتغلوا بعلم النحو ، واللغة ، والشعر ، وغريب اللغة ، واغتروا به ، وزعموا أنهم قد غفر لهم ، وأنهم من علماء الأمة . إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو . فأنتى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو ، وفي صناعة الشعر ، وفي غريب اللغة . ومثالمهم كمن يفنى جميع العمر في تعلم الخط ، وتصحيح الحروف وتحسينها ، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة ، فلا بد من تمامها وتصحيحها . ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط ، بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان ، والباقي زيادة على الكفاية . وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك ، والمضيق عمره في معرفة لغة العرب كالمضيق له في معرفة لغة الترك والهند . وإنما فارقها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة علم الغريبيين في الأحايث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب . فأما التعمق فيه إلى درجات لا تنتهى فهو فضول مستغنى عنه . ثم لو اقتصر عليه ، وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها ، فهذا أيضا مغرور . بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القراءة ، واقتصر عليه ، وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعانى ، وإنما الحروف ظروف وأدوات . ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجين ليزول ما به من الصفراء ، وضيع أوقاته في تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجين ، فهو من الجهال المغرورين . فكذلك غرور أهل النحو ، واللغة ، والأدب ، والقراءات ، والتدقيق في مخارج الحروف ، مهما تعمقوا فيها ، وتجردوا لها ، وعرحوا عليها أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التى هى فرض عين . فاللب الأقصى هو العمل . والذى فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالتقشر للعمل ، وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية . وهو قشر بطريق

( ١ ) حديث من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه الترمذى : وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة

وهو عند مالك من رواية على بن الحسين مرسل وقد تقدم

الإضافة إلى المعرفة ، ولب بالإضافة إلى ما فوقه . وما فوقه هو العلم باللغة والنحو . وفوق ذلك وهو القشر الأعلى ، العلم بمخارج الحروف . والقانون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل ، فلم يرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل ، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ، ورجى عمره في حمل النفس عليه ، وتصحيح الأعمال وتصفيها عن الشوائب والآفات ، فهذا هو المقصود المخدم من جملة علوم الشرع ، وسائر العلوم خدم له ، ووسائل إليه ، وقشور له ، ومنازل بالإضافة إليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب ، سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع ، اغتر بها أربابها . فأما علم الطب ، والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع . لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة ، كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا . ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى ، والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى : فن اتخذ القشر مقصودا ، وعرج عليه ، فقد اغتر به . وفرقة أخرى : عظم غرورهم في فن الفقه ، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء ، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق ، وأساؤا تأويل الألفاظ المهمة ، واغتروا بالظواهر وأخطوا فيها . وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه . والخطأ في الفتاوى مما يكثر ، ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم ، فنشير إلى أمثلة . فن ذلك فتوأم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه وبين الله تعالى . وذلك خطأ . بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق ، فتضطر إلى طاب الخلاص ، فتبرىء الزوج لتتخلص منه ، فهو إبراء لا على طيبة نفس . وقد قال تعالى ( فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْثًا مَرِيثًا <sup>(١)</sup> ) وطيبة النفس غير طيبة القلب . فقد يريد الإنسان بقلبه مالاتطيب به نفسه . فإنه يريد الحجامة بقلبه ، ولكن تكرهها نفسه . وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله ، حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهنهما . فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه

الباطن . نعم : القاضى فى الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر  
وأنها لم تتركه بسبب ظاهر . والإكراه الباطن ليس بطلع الخلق عليه ولكن مهماتصدى  
القاضى الأكبر فى صعيد القيامة للقضاء ، لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا فى تحصيل الإبراء .  
ولذلك لا يحمل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه . فلو طلب من الإنسان مالا  
على ملاء من الناس ، فاستحيا من الناس أن لا يعطيه ، وكان يود أن يكون سؤاله فى خلوة  
حتى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس ، وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما  
فاختار أهون الألين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة . إذ معنى  
المصادرة إيلاء البدن بالصوت ، حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب بئذ المال ، فيختار  
أهون الألين . والسؤال فى مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط . ولا فرق بين ضرب  
الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى ، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر . وإنما حاكم الدنيا  
هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت ، لأنه لا يمكنه الوقوف على مافى القلب

وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه ، أو لشر سمائته ، فهو حرام عليه

وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء فى قصة داود عليه السلام  
حيث قال بعد أن غفر له : يارب ، كيف لى بخصمى فأمر بالاستحلال منه ، وكان ميتا ،  
فأمر بندائه فى صخرة بيت المقدس ، فنادى بأوريا ، فأجابه لبيك يانبي الله ، أخرجتني من  
الجنة ، فإذا تريد ؟ فقال إني أسأت إليك فى أمر فهبه لى . قال قد فعلت ذلك يانبي الله .  
فانصرف وقد ركن إلى ذلك ، فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما فعلت ؟ قال لا  
قال فارجع فبين له . فرجع فناداه فقال : لبيك يانبي الله ، فقال إني أذنبت إليك ذنبا ، قال  
ألم أهبه لك ؟ قال ألا تسألنى ما ذلك الذنب ؟ قال ما هو يانبي الله ؟ قال كذا وكذا ، وذكر  
شأن المرأة . فانقطع الجواب . فقال بأوريا ، ألا تجيبني ؟ قال يانبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء  
حتى أقف معك بين يدي الله . فاستقبل داود بالبكاء والصراخ من الرأس ، حتى وعده الله  
أن يستوهبه منه فى الآخرة . فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد ، وأن طيبة  
القلب لا تحصل إلا بالمعرفة . فكذلك طيبة القلب لا تكون فى الإبراء والهبة وغيرها ، إلا  
إذا خلى الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعى من ذات نفسه ، لأن تضطر بواعثه

إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته وانها به مالها ، لإسقاط الزكاة . فالفقيه يقول سقطت الزكاة . فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه ، فقد صدق . فإن مطمح نظرم ظاهر الملك وقد زال . وإن ظن أنه يسلم في القيامة ، ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع حاجته إلى المبيع لأعلى هذا القصد ، فأعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ! فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل ، فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شَحٌّ مُطَاعٌ » وإنما صار شحها مطاعاً بما فعله ، وقيله لم يكن مطاعاً ، فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه ، فإن الله مطلع على قلبه ، وحبه للمال ، وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل ، حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور . ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة . والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات ، وبين الحاجات . بل كل ما لزم رعونتهم إلا به يرونه حاجة ، وهو محض الغرور . بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة ، وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته . وما عدا ذلك ، فهو فضوله وشهوته . ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا للملأنا فيه مجلدات . والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول

الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل . والمغرورون منهم فرق كثيرة . فمنهم من غروره في الصلاة ، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن ، ومنهم في الحج ، ومنهم في الغزو ، ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل مأم فمنهم فرقة : أهملوا الفرائض ، واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وربما أكل الحرام المحض . ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام ، لكان أشبه بسيرة الصحابة : إذ توصأ عمر رضي الله عنه عاء في جرة نصرانية ، مع ظهور احتمال النجاسة . وكان مع هذا يدع

(١) حديث ثلاث مهلكات - الحديث: تقدم غير مرة.



أبوإبا من الحلال ، مخافة من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء ، وذلك منهى عنه <sup>(١)</sup> وقد يطول الأمر حتى يضع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور ، لما فاته من فضيلة أول الوقت . وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء . وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنّى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة ، فيبعدهم عن الله بمثل ذلك

وفرقة أخرى : غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل ، يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ، ويخرج الصلاة عن الوقت . وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الإحتياط فيه . يفعلون ذلك فى أول الصلاة ، ثم ينفلون فى جميع الصلاة ، فلا يحضرون قلوبهم ، ويفترون بذلك ، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة ، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط ، فهم على خير عند ربهم .

وفرقة أخرى : تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال محتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والطاء ، وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلواته ، لا يهمله غيره ، ولا يتفكر فيما سواه ، ذاهلا عن معنى القراءة والالتماظ به ، وصرف الفهم إلى أسرارها وهذا من أقبح أنواع الغرور . فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأق فى مخارج الحروف ، ويكررها ويميدها مرة بعد أخرى ، وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فأحراه بأن تقام عليه السياسة ، ويرد إلى دار المجانين ، ويحكم عليه بفقد العقل . وفرقة أخرى : اغتروا بقراءة القرآن فيهدونهم هداً ، وربما يحتمونهم فى اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجرى به ، وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ، ويتعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره

(١) حديث للنهى عن الإسراف فى الوضوء : الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب أن اللوضوء

شيطاناً يقال له الوطان : الحديث : وتقدم فى هجائب القلب .

ونواهيه ، ويبتدأ بمواضع الإعتبار فيه ، إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة . فهو مغرور ، يظن أن المقصود من إنزال القرآن المهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاة ومالكه كتابا ، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن إقتصر على حفظه ، فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاة ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة . فهو مستحق للمقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه ، فهو مغرور

نعم : تلاوته إنما أراد لكيلا ينسى ، بل لحفظه ، وحفظه يراد لمعناه ، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلنذ به . ويفتر باسنلذاذ ، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وإنما هي لذته في صوته . ولو ردد ألقانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ، ذلك الإلتذاذ . فهو مغرور ، إذا لم يتفقد قلبه ، فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه ، أو بصوته . وفرقة أخرى . اغتروا بالصوم ، وربما صاموا الدهر ، أو صاموا الأيام الشريفة ، وهم فيها لا يحفظون أسنتهم عن الغيبة . وخواطرهم عن الرياء ، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار ، وأسنتهم عن الهديان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير ، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور وفرقة أخرى : اغتروا بالحج ، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون ، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال . وقد يفعلون ذلك بحد سقط حجة الإسلام ، ويضعون في الطريق الصلاة والفرائض ، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام . وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق ، وهو يطلب به السمعة والرياء ، فيعصى الله تعالى في كسب الحرام أولا ، وفي إنفاقه بالرياء تانيا . فلا هو أخذه من حله ، ولا هو وضعه في حقه . ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق ، وذميمة الصفات ، لم يقدم تطهيره على حضوره ، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه ، فهو مغرور

وفرقة أخرى أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينكر على الناس ، ويأمرهم بالخير ، وينسى نفسه . وإذا أمرهم بالخير عنف ، وطلب الرياسة والمزة .

وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال : أنا المحتسب ، فكيف تنكر على او قد يجمع الناس إلى مسجده ، ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه ، وإنما غرضه الرياء والرياسة به ولو قام بتعمد المسجد غيره لحد عليه . بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ، ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة ، وقال لم آخذ حقى ، وزوجمت على مرتبتى ، وكذلك قد يتقald إمامة مسجد ، ويظن أنه على خير ، وإنما غرضه أن يقال إنه إمام المسجد ، فلو تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه ثقل عليه ،

وفرقة أخرى : جاوروا بمكة أو المدينة ، واغترروا بمكة ، ولم يراقبوا قلوبهم ، ولم يطهروا ظاهريهم وباطنيهم ، فقلوبهم معلقة ببلادهم ، ملتفتة إلى قول من يعرفه إن فلانا يجاور بذلك وتراه يتحدثى ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة . وإذا سمع أن ذلك نبيح ، ترك صريح التحدى ، وأحب أن يعرفه الناس بذلك . ثم إنه قد يجاور ، ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس ، وإذا جمع من ذلك شيئا شاح به وأمسكه ، ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير ، فيظهر فيه الرياء ، والبخل ، والطمع ، وجملة من المهلكات كان عنها بمنزل لو ترك المجاورة . ولكن حب المحمدة ، وأن يقال إنه من المجاورين ، ألزمه المجاورة مع التضخم بهذه الرذائل . فهو أيضا مغرور . وما من عمل من الأعمال ، وعبادة من العبادات ، إلا وفيها آفات . فمن لم يعرف مداخل آفاتنا واعتمد عليها ، فهو مغرور . ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة ، وفي الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ماسبق في الكتب . وفرقة أخرى : زهدت في المال ، وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد . وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه ، إما بالعلم أو بالوعظ ، أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمور ، وباء بأعظم المهلكين . فإن الجاه أعظم من المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب . فهذا مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا ، وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدري أن منتهى لذاتها الرياسة ، وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقا ، وحسودا ، ومتكبرا ، ومراثيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . نعم : وقد يتركه

إلى الرياسة، ويؤثر الخلوّة والمزلة، وهو مع ذلك مغرور، إذ يتناول بذلك على الأغنياء، ويحسّن معهم الكلام، وينظر إليهم بعين الاستحقاق، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويعجب بعمله، ويتصف بجملّة من خبائث القلوب وهو لا يدري. وربما يعطى المال فلا يأخذه، خيفة من أن يقال بطل هده. ولو قيل له إنه حلال نخذه في الظاهر وردّه في الخفية، لم تسمح به نفسه، خوفاً من ذم الناس. فهو راغب في حمد الناس، وهو من ألد أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا، وهو مغرور. ومع ذلك فرجماً لا يخلو من توقيير الأغنياء، وتقديمهم على الفقراء، والميل إلى المريدين له، والمثني عليه، والنفرة عن المائنين إلى غيره من الزهاد. وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان، نموذ بالله منه.

وفي العباد من يشدّد على نفسه في أعمال الجوارح، حتى ربما يصلى في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة، ويحتم القراءة، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقدته وتطهيره من الرياء، والكبر، والعجب، وسائر المهلكات، فلا يدري أن ذلك مهلك وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة ترجع بها كفة حسناته، وهيات. وذرة من ذى تقوى، وخلق واحد من أخلاق الأكياس، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح. ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس؛ وخشوته، وتلوّث باطنه، عن الرياء وحب الثناء. فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض، وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور، بذلك، وصدق به، وزاده ذلك غروراً، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه.

وفرقه أخرى: حرصت على النوافل، ولم يمظم اعتدادها بالفرائض، ترى أجدهم يفرح بصلاة الفتحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (١) « مَا يَقْرَبُ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ آدَاءِ مَا أَفْرَضْتُ عَلَيْهِمْ » وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور. بل قد يسمين على الإنسان رمضان، أحدهما يفوت والآخر لا يفوت،

(١) حديث ما تقرب المتقربون إلىي بمثل آداء ما أفترضت عليهم: البخارى من حديث أبي هريرة باللفظ ما تقرب إلى عبدى

أو فضلان ، أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه ، كان منورورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى . فإن المعصية ظاهرة ، والطاعة ظاهرة . وإنما النامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل ، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات ، وتقديم فرض كفاية لاقائم به على ما قام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت . وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> فقيل له : من أبريار رسول الله ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أبك » قال ثم من ؟ قال « أدنأك فأدنأك » فينبغى أن يبدأ فى الصلاة بالأقرب . فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأبقى والأورع

وكذلك من لا يفى ماله بنفقة الوالدين والحج ، فرما يحج وهو منورر . بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج . وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ، ودخل وقت الجمعة ، فالجمعة تفوت ، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية ، وإن كان هو طاعة فى نفسه : وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة ، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك ، فالنجاسة محذورة ، وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو منورر . وهذا غرور فى غاية الغموض ، لأن المنورر فيه فى طاعة ، إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة معصية ، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها

ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه ، فى حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بالجوارح ، والمتعلقة بالقلب ، لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره فى حوائجه ، فمعرفة ما يحتاج هو إليه فى قلبه أولى به . إلا أن حب الرياسة

( ١ ) حديث من أبرقال أمك - الحديث : الترمذى والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة

والجاء ، ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم ، يعنى عليه ، حتى يفتر به مع نفسه ،  
ويظن أنه مشغول بهم دينه

الصف الثالث : المتصوفة . وما أغلب الغرور عليهم ! والمغترون منهم فرق كثيرة  
ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله ، اغتروا بالزى والهيئة والمنطق  
فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وحيثهم ، وفي ألفاظهم ، وفي آدابهم ومراسمهم  
وإصطلاحاتهم ، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع ، والرقص ، والطهارة ، والصلاة ، والجلوس  
على السجادات مع إطراق الرأس ، وإدخاله في الجيب كالتفكر ، وفي تنفس الصعداء ، وفي  
خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشرائع والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور ،  
وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة ، والرياضة ،  
ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل  
منازل التصوف . ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية . كيف  
ولم يحوموا قط حولها ، ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ، بل يتكالبون على الحرام ، والشبهات  
وأموال السلاطين ، ويتنافسون في الرغيف والفلس ، والحب ، ويتحاسدون على النقيب  
والقطمير ، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه ، وهؤلاء غرورهم  
ظاهر . ومثالهم مثال امرأة عجوز ، سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم  
في الديوان ، ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع  
لها بمملكة ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفرا ، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا  
وتعدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها ، وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان  
وكيف تحريكهم الأيدي ، وتلقفت جميع شمائلهم في الزى ، والمنطق ، والحركات ، والسكنات  
ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان . فلما وصلت إلى المعسكر أنقذت  
إلى ديوان العرض ، وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته ، وتمتحن بالمبارزة مع  
بعض الشجعان ، ليعرف قدر عنائها في الشجاعة . فلما جردت عن المغفر والدرع ، فإذا هي  
عجوزة ضعيفة زمنة ، لاتطبق حمل الدرع والمغفر ، فقيل لها : أجتت للاستهزاء بالملك ،  
والاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم ؟ خذوها فلقوها قدام الفيل لسخفها . فألقيت

إلى الفيل . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة ، إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على القاضى الأكبر ، الذى لا ينظر إلى الزى والمرقع ، بل إلى سر القلب

وفرقه أخرى زادت على هؤلاء فى الغرور ، إذ شق عليها الاقتداء بهم فى بذادة الثياب ، والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ، ولم تجد بدا من التزين بزيمهم ، فتركوا الحرير والإبريسم ، وطلبوا المرقعات النفيسة ، والفوط الرقيقة ، والسجادات المصبغة ، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لثلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد . فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة ، وخياطة المرقعات منها ، فمن أين يشبه ما اعتادوه ؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتمتعون بنفيس الثياب ولذيذة الأطعمة ويطلبون رغد العيش ؛ ويأكلون أموال السلاطين ، ولا يمتنعون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة ، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير . وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق ، إذ يهلك من يقتدى بهم ، ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ، ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه ، فيطول اللسان فى الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم

وفرقه أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاورة المقامات والأحوال ؛ والملازمة فى عين الشهود ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأساسى والألفاظ ، لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين ، وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته ، والحائك يترك حياكته ويلزمهم أياما معدودة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة ، فيرددها كأنه يتكلم عن الوحى ، ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحققر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول فى العباد إنهم أجراء متعجبون ويقول فى العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق ، وأنه من المفتربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، ويحده أبواب القلوب من الحق

الجاهلین ، لم يحكم قط علما ، ولم يهذب خلقا ، ولم يرتب عملا ، ولم يراقب قلبا سوى  
اتباع الهوى وتلقف الهديان وحفظه

وفرقة أخرى وقعت في الإباحة ، وطووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا  
بين الحلال والحرام . فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي ، فلم أتعب نفسي ؟ وبعضهم  
يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا ، وذلك محال ، فقد  
كلفوا ما لا يمكن ، وإنما يفتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال  
ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنما كلفوا قلع  
مادتهما ، بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال  
بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله ، وواصلة إلى معرفة  
الله ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية ، فننضن مع الشهوات  
بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب  
النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفون  
درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم السلام ، إذ كانت تصدمهم عن طريق الله خطيئة  
واحدة ، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية . وأصناف غرور أهل الإباحة  
من المنشبين بالصوفية لا تحصى . وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان  
بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم ، صالح  
للاقتداء به ، وإحصاء أصنافهم يطول . وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء ، واجتنبت  
الأعمال ، وطلبت الحلال ، واشتغلت بتفقد القلب ، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد ،  
والتوكل ، والرضا ، والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات ، وشروطها وعلاماتها ،  
وآفاتها . فمنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ، ويزعم أنه واله بالله ، ولعله قد تخيل في الله  
خيالات هي بدعة أو كفر ، فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره  
الله عز وجل ، وعن إشار هوى نفسه على أمر الله ، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق  
ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى ، وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب  
وبعضهم ربما يعيل إلى القناعة والتوكل ، فيخوض الوادى من غير زاد ، ليصحح دعوى



التوكل ، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة ، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد . وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب ، واثق به . وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور ، وقد اغتر به قوم . وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع المنجيات من الكتاب ، فلا يمكن إعادتها

وفرقه أخرى ضيقت على نفسها في أمر القوت ، حتى طابت منه الحلال الخالص ، وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة . ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه ، وملبسه ، ومسكنه ، وأخذ يتعمق في غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور

وفرقه أخرى ادعوا حسن الخلق ، والتواضع ، والسماحة ، فتصدوا لخدمة الصوفية ، فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم ، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال . وإن اغرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع . وغرضهم الارتفاع ، وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية . ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات ، وينفقون عليهم ، لتكثر أتباعهم ، وينشر بالخدمة اسمهم . وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ، ويزعم أن غرضه البر والإتفاق . وباعث جميعهم الرياء والسمة . وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ، ورضاهم بأخذ الحرام والإتفاق منه . ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير ، كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالمذرة ، ويزعم أن قصده العبادة

وفرقه أخرى اشتغلوا بالمجاهدة ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفس من عيوبها ، وصاروا يتعمقون فيها ، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس ، واستنباط دقيق الكلام في آفاتهم فيقولون هذا في النفس عيب ، والنفلة عن كونه عيبا عيب ، والإلتفات إلى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها . ومن جعل طول عمره في التفتيش

عن غيوب وتحرير علم علاجها، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج، فذلك لا يعنيه . وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة . وابتدؤا سلوك الطريق، وافتتح لهم أبواب المعرفة، فكلموا تشموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها، وفرحوا بها، وأعجبهم غرايتها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها، والتفكر فيها وفي كيفية الاقتحام بابها عليهم، وانسداده على غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله لسها نهاية . فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها، قصرت خطاه، وحرمت الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا، فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار، لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها ويتمجب حتى فاتته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء، ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق، ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يرجعوا على الفرح بها، والالتفات إليها، جادين في السير حتى قاربوا، فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله، فوقفوا وغلطوا، فإن الله تعالى سبعين حجابا من نور، لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل. وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام، إذ قال الله تعالى إخبارا عنه ( فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي <sup>(١)</sup> ) وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة، فإنه كان يراها في الصغر، ويعلم أنها ليست آلهة، وهي كثيرة وليست واحدا. والجهال يظنون أن الكوكب ليس بالله . فمثل إبراهيم عليه السلام لا يفره الكوكب الذي لا يفر السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل، وهي على طريق السالكين . ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض، وأصغر البيرات الكوكب، فاستعير له لفظه، وأعظمها الشمس، وبينهما رتبة القمر . فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات، حيث قال تعالى ( وَكَذَلِكَ بُرِي إِبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرضِ <sup>(٢)</sup> ) يصل إلى نور بعدنور، ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا، فترقى إليه ويقول قد وصلت، فيكشف له ما وراءه.

(١) الأنعام : ٧٦ (٢) الأنعام : ٧٥

حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذى لاوصول إلا بعده ، فقال هذا أكبر . فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص ، والانحطاط عن ذروة الكمال قال لأحب الآفلين ، إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض

وسالك هذه الطريق قد يفتقر فى الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يفتقر بالحجاب الأول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه . فإنه أيضا أمر ربانى ، وهو نور من أنوار الله تعالى ، أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى أنه ليتسع لجملة العالم ويمحيط به ، وتتجلى فيه صورة الكل . وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما ، إذا يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه ، وهو فى أول الأمر محجوب بمشكاة هى كالساتر له ، فإذا تجلى نوره ، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ، وربما التفت صاحب القلب إلى القلب ، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول : أنا الحق . فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس . فهو مغرور . وهذا محل الالتباس . إذ المتجلى يلبس بالمتجلى فيه ، كما يلبس لون ما يترأى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلبس ما فى الزجاج بالزجاج ، كما قيل

رق الزجاج ورقى الخمر - فتشابهها فتشاكل الأمر  
فكأتما خمر ولا قدح وكأتما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصرارى إلى المسيح ، فرأوا إشراق نور الله قد تلالأ فيه ؛ فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء ، فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء ، فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور

وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى فى مجلدات ، ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لا رخصة فى ذكره . ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الأولى تركه ، إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذى لم يسلكه لا ينتفع بسماعه ، بل ربما يستضربه ، إذ يورثه ذلك ذهشة من حيث يسمع ما لا يفهم . ولكن فيه فائدة وهو إخراجنا من الغرور الذى هو فيه . بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما تخيله

بذهنه المختصر، وخياله القاصر، وجدله المزخرف، ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله. ومن عظم غروره ربما أصرم كذبا بما يسمعه الآن، كما يكذب بما سمعه من قبل

الصنف الرابع أرباب الأموال . والمعترون منهم فرق

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد، والمدارس، والرباطات، والقناطر، وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميتهم بالآجر عليها، ليتخذوا ذكرهم، ويقتى بعد الموت أثرهم . وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم، والنهب، والرشا، والجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها . فإذا قد عصوا الله بكسبها، فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله، وردها إلى ملاكها، إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز . فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث، فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين، وهم لا يفعلون ذلك، خيفة من أن يظهر ذلك للناس . فيبنون الأبنية بالآجر، وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمايتهم المكتوبة فيها، لالبقاء الخير

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه، لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه، كتب اسمه أو لم يكتب . ولو لا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك

وفرقة أخرى ربما اكتسبت المال من الحلال، وأنفقت على المساجد . وهي أيضا مغرورة من وجهين . أحدهما : الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء، وصرف المال إليهم أهم، وأفضل، وأولى، من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس والثاني أنه يصرف إلى<sup>(١)</sup> زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش، التي هي منهي عنها،

(١) حديث النبي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش : البخاري بن قول عمر بن الخطاب أكن الناس

وشاغلة قلوب المصلين، ومختطفة أبصارهم، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين، ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يقتربه ويرى أنه من الخيرات، ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى، وهو يظن أنه مطيع له، ويمثل لأمره، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد، وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا، فيشتمون مثل ذلك في بيوتهم، ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته، إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى.

قال مالك بن دينار: أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلى لا يدخل بيت الله. فكتبه الملكان عند الله صديقا. فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد. وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جنابة على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى. وقال الحواريون للمسيح عليه السلام: أنظر إلى هذا المسجد ما أحسنه! فقال أمتى أمتى، بحق أقول لكم، لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله. إن الله لا يعبد بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا. وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة، بها يعمر الله الأرض، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « إِذَا زَخَّرْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالِدَّمَ أَرْعَافُكُمْ » وقال الحسن: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> لما أراد أن يبني مسجد المدينة، أتاه جبريل عليه السلام، فقال له ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء، لا تزخرفه ولا تنقشه. فمرور هذا من حيث إنه رأى المنكر معروفاً واتكل عليه وفرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من صادته الشكر والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصديق في السر

(٢) حديث: إذا زخرفتم مساجدكم وحليت مصاحفكم فالدمار عليكم: ابن المبارك في الزهد وأبو بكر بن أبي داود

في كتاب المصاحف موقوفاً على أبي الدرداء

(٣) حديث الحسن مرسل لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء

ولا تزخرفه ولا تنقشه: لأبي بصير

ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جنابة عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج ، فيحججون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلاسبب ، يهون عليهم السفر ، ويسقط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع لشرب الحارث ، وقال قد عزمت على الحج ، فتأمرني بشيء ؟ فقال له كم أعددت للنفقة ؟ فقال ألفي درهم . قال بشر : فأى شيء تبتنني بحجك ، ترهدا ، أو اشتياقا إلى البيت ، أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال ابتغاء مرضاة الله . قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك ، وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضات الله تعالى ، أتفعل ذلك ؟ قال نعم . قال اذهب فأعطاها عشرة أنفس . مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعته ، ومعييل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه . وإن قوتى قلبك تعطيتها واحدا فاقبل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم : وإغاثة اللقمان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام . قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك . فقال يا أبا نصر ، سفري أقوى في قلبي . فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له . المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات ، اقتضت النفس أن تقضى به وطرا ، فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين

وفرة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار ، وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون . لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمع بإخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل في ثوبه خية ، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجيين ليسكن به الصغراء ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجيين ! ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغني كثير الصوم والصلاة . فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره . وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويده نفسه ، ومن صلواته لنفسه مع جمعه للدينا ومنعه للفقراء .

وفرقة أخرى غلبهم البخل ، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط . ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء ، الذى يرغبون عنه ، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسجار فى خدمة ، أو من لهم فيه على الجملة غرض . أو يسمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكارب ممن يستظهر بحشمه ، لينال بذلك عنده منزلة ، فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ، ومحبطات للعمل ، وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر ، إذ طلب بمباداة الله عوضا من غيره . فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى . وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يفتنهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا ، وهم مغرورون . لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير . فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل . فإن ضعفت عن العمل على الخير فلا خير فيها . وما يراد لغيره فإذا نصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له . وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرامة النساء فيبكي ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق يديه ويقول : يا سلام سلم ، أو نعوذ بالله ، أو سبحان الله ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله ، وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يفتنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يفتنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغيرا يغير أفعالك ، حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك . فإذا رأيتك وسلة لك كنت مغرورا فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أصرا لا يتخلص منه أحد ، ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس ، إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات . فأقول الإنسان إذا قترت همته فى شيء أظهر اليأس منه ، واستعظم الأمر ، واستوعر الطريق . وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل ، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق

في الوصول إلى الغرض ، حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع  
 بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه . وإذا أراد أن يستخرج  
 الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه . وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في  
 البراري والصحارى اقتنصها . وإذا أراد أن يستسخر السباع والقبيلة وعظيم الحيوانات  
 استسخرها . وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها ، واستخرج الدرياق  
 من أجوافها . وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذته . وإذا أراد  
 أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك ، وهو مستقر  
 على الأرض . وكل ذلك باستنباط الحيل ، وإعداد الآلات . فسخر الفرس للركوب ،  
 والكلب للصيد ، وسخر البازي لاقتنص الطيور ، وهيا الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير  
 ذلك من دقائق حيل الآدمي . كل ذلك لأن همه أمر دنياه ، وذلك معين له على دنياه . فلو  
 أهمه أمر آخرته ، فليس عليه إلا شغل واحد . وهو تقويم قلبه . فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل . وقال  
 هذا محال ، ومن الذي يقدر عليه وليس وذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد ، بل هو كما يقال  
 لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ، ومن اتبعهم بإحسان ، فلا يعجز عنه أيضاً من  
 صدقت إرادته ، وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها  
 فإن قلت : قد قرئت الأمر فيه ، مع أنك أكثر في ذكر مداخل الغرور ، فبم  
 ينجو العبد من الغرور ؟ . فأعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والعلم ، والمعرفة .  
 فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل ، فأعنى به الفطرة الغريزية ، والنور الأصلي الذي  
 به يدرك الإنسان حقائق الأشياء . فالفطنة والكيس فطرة ، والحلم والبلاد فطرة .  
 والبلد لا يقدر على التحفظ عن الغرور . فصفاء العقل ، وذكاء الفهم ، لا بد منه في أصل الفطرة فهذا إن لم  
 يقطر عليه الإنسان فاكتمس به غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات  
 كلها العقل والكياسة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَبَارَكَ اللهُ الَّذِي قَسَمَ الْعَقْلَ بَيْنَ عِبَادِهِ »

(١) حديث تبارك الذي قسم العقل بين عباده - الحديث . الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية

طاوس بن سفيان في أوله قصة وإسناده ضعيف . وزوايد يعقوب بن حنبل . وهو ضعيف أيضاً .



أَشْتَاتَا إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيْسَتْوَى عَمَلُهُمَا وَبِرُّهُمَا وَصَوْمُهُمَا وَصَلَاتُهُمَا وَلَكِنَّهُمَا يَتَفَاوَتَانِ فِي الْعَقْلِ كَالدَّرَّةِ فِي جَنْبِ أَحَدٍ وَمَا قَسَمَ اللَّهُ خَلْقَهُ حَظًّا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ الْعَقْلِ وَالْيَقِينِ «  
وعن أبي الدرداء ، أنه قيل يارسول الله <sup>(١)</sup> أرأيت الرجل يصوم النهار ، ويقوم الليل ويحج ، ويعتمر ، ويتصدق ، وينزوي في سبيل الله ، ويعود المريض ، ويشبع الجنائز ، ويعين الضعيف ، ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ » وقال أنس : أننى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا اخيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « كَيْفَ عَقْلُهُ ؟ » قالوا يارسول الله تقول من عبادته وفضله وخلقته . فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ فَإِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحِمْمَتِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »

وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ، فإذا قالوا حسن ، قال « أَرْجُوهُ » وإن قالوا غير ذلك قال « لَنْ يَبْلُغَ » وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ ؟ » قالوا ليس بشيء . قال « لَنْ يَبْلُغَ صَاحِبِكُمْ حَيْثُ تَنْظُنُونَ » فالدكاء صحيح ، وغيره العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة ، . فإن فاتت ببلادة وحمافة فلا تدرك لها

الثانى المعرفة : وأعنى بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة . فيعرف نفسه بالعبودية والذل ، وبكونه غربيا في هذا العالم ، وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعها هو معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ، ولم يعرف ربه فليستمن على هذا ما ذكرناه في كتاب المحبة ، وفي كتاب شرح معجائب القلب ، وكتاب الفكر ، وكتاب الشكر ،

( ١ ) حديث أبي الدرداء أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل - الحديث : وفيه انما يجزى على قدر عقله الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء

( ٢ ) حديث أنس على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله - الحديث : داود بن المهبر في كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم في العلم

( ٣ ) حديث أبي الدرداء كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله - الحديث : الترمذى الحكيم في التواتر وابن عدى ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه

إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ، وإلى وصف جلال الله . ويحصل به التنبيه على الجلالة ، وكمال المعرفة ورأيه ، فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة وأما معرفة الدنيا والآخرة ، فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ، ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة . فإذا عرف نفسه وربّه ، وعرف الدنيا والآخرة ، ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها . ويصير أمّ أموره ما يوصله إلى الله تعالى ، وينفعه في الآخرة . وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه ، صحّت نيته في الأمور كلها . فإن أكل مثلاً ، أو اشتغل بقضاء الحاجة ، كان قصده منه الاستمانة على سلوك طريق الآخرة ، وصحّت نيته ، وان دفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض ، والنزوع إلى الدنيا ، والجأه ، والمال ، فإن ذلك هو المفسد للنية . وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى ، فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفة الله وبالله ، والصادرة عن كمال عقله ، فيحتاج إلى المعنى الثالث : وهو العلم ، أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقرب به من الله وما يبعده عنه ، والعلم بأفات الطريق وعقباته وغوائله . وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربح العبادات شروطها فيراعيها ، وآفاتها فيتقيها ، ومن ربح العادات أسرار المعاش وما هو مضطر إليه فيأخذ به بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه . ومن ربح المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله ، فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق ، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه . ويعرف من ربح المنجيات الصفات الحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها . فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور . وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ، ويسقط حب الدنيا منه ، حتى تقوى به الإرادة ، وتصح به النية . ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك ، فما الذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخذعه الشيطان ، ويدعوه إلى نصح الخلق ، ونشر العلم ، ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله .

فإن المرید المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه ، وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات ، واستوى على الصراط المستقيم ، وصغرت الدنيا في عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد ، وهو الله تعالى ، والتلذذ بذكره ومناجاته ، والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه ، إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه ، فيأتيه من جهة الدين ، ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله ، والشفقة على دينهم ، والنصح لهم ، والدعاء إلى الله . فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيرام حيارى في أمرهم ، سكارى في دينهم ، صامعياً ، قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب ، وأشرفوا على المطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم ، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ، ويرشدهم إلى سعادتهم ، وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ، ومؤنة ، ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه . وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره ، لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يتحرك ، ولا يتصرف ، لشدة ضربان الألم ، فوجد له دواء عفا صفوا من غير ثمن ، ولا تعب ، ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرىء وصح ، فطاب نومه بالليل بعد طول سهره ، وهدأ بالنهار بعد شدة القلق ، وطاب عيشه بعد نهاية الكدر ، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسامين وإذا بهم تلك العلة بعينها ، وقد طال سهرهم ، واشتد قلقهم ، وارتفع إلى السماء أنينهم ، فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ، ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون ، وفي أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ، ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق ، وثق من أمراض القلوب ، شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم ، وأعضل دأؤهم ، وقرب هلاكهم وإشفاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم ، وحرصه الشيطان على ذلك رجا أن يجد مجالاً للفتنة . فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة ، فدعاه إلى الرياسة دعاه خفياً أخفى من ديب النمل لا يشعر به المرید فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق ، بتحسين الألفاظ ، والنغيات ، والحركات ، والتصنع فى الزى والهيئة فأقبل الناس إليه يعظمونه ويجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك ، إذ رأوه شافياً

لأدواتهم بحض الشفقة والرحمة من غير طمع ، فصار أحب إليهم من آبائهم ، وأمهاتهم وأقاربهم ، فأثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له خولا كالعييد والخدم ، فخدموه وخدموه في المحافل ، وحكموه على الملوك والسلاطين . فعند ذلك انتشر الطبع ، وارتاحت النفس ، وذافت لذة يالها من لذة ، أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة ، وامتدت إلى قلبه يده ، فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة

وأما انتشار الطبع ، وركون النفس إلى الشيطان ، أنه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب . فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب ، بادر الشيطان فخيّل إليه أن ذلك غضب لله ، لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله . فوقع في الغرور . فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه ، فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه ، بعد أن كان يحدّر من طوارق الخطرات . وكذلك إذا سبته الضحك ، أو فتر عن بعض الأوراد ، جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله ، فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك ، والشيطان يخيّل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله ، فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور . بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله ، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه ، شق ذلك عليه . ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة ، لكان يقتنم ذلك . إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر ، وتغطي رأس البئر بحجر كبير ، فمجزوا عن الرقي من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه . فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر ، فشق عليه ، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه ، أو كفاه ذلك ونجاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة ، إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر . فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسامين من النار ، فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم ينتقل عليه . رأيت لو اهتموا جميعهم من أنفسهم ، أو كان ينبغي أنه ينتقل ذلك عليه

إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهدوا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك فى نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب، وفواحش الجوارح، وأهلكه، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى، ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء.

فإن قلت: فتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس

فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى، وكان يود لو وجد من يعينه، أو لو اهدوا بأنفسهم، وانقطع بالكيفية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم؛ فاستوى عنده حمدهم وذمهم، فلم يبالي بدمهم إذا كان الله يحمده، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم، ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة. وأما إلى البهائم، فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة فى قلوبهم، فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يزين لها ولا يتصنع. بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية، ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فالمرسائر الناس كالماشية التى لا يلتفت إلى نظرها، ولا يبالي بها، لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضىء لغيره ويحترق فى نفسه

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة خلعت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب

فأقول: قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم، وبطلت المعاش، وهلكت القلوب والأبدان جميعا. إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك، وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين، لا الأقلين الذين لا تحزب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح، وذكر ما فى حب الدنيا من الخطر، ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التى سلطها الله على عباده، ليسوقهم بها إلى جهنم، تصديقا لقوله تعالى (وَلَسَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ<sup>(٢)</sup>) فكذلك لا تزال السنة الوعاظ مطلقا

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة: البيهقي فى الشعب من حديث الحسن مرسل وقد تقدم فى كتاب ذم الدنيا

حُب الرياسة ، ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ حُب الرياسة حرام . كما لا يدع الخلق الشرب ، والزنا ، والسرقه ، والرياء ، والظلم ، وسائر المعاصي ، بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام . فانظر لنفسك . وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ، ولو لادفع الله الناس ، بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . فإتعا يخشى أن يفسد طريق الاتعاض فأما أن تخرس أسنة الوعاظ ، ووراءهم باعت الرياسة وحُب الدنيا ، فلا يكون ذلك أبدا فإن قلت : فإن علم المرید هذه المكيدة من الشيطان ، فاشتغل بنفسه وترك النصيح ؛ اونصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه ، فما الذى يخاف عليه ؟ وما الذى يبق بين يديه من الأخطار وحبائل الأعتار ؟ . فاعلم أنه بقی عليه أعظمه ، وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتني ، وأفلت مني بذكائك وكال عقلك ، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك : فما أصبرك ، وما أعظم عند الله قدرك ومهلك ، إذ قواك على قهرى ، وممكنك من التفتن لجميع مداخل غرورى . فيصنى إليه ويصدقه ، ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور ، وهو المهلك الأكبر ، فالمعجب أعظم من كل ذنب . ولذلك قال الشيطان . يا ابن آدم ، إذا ظننت أنك بملك تخلصت منى ، فبجهلك قد وقعت في حبائلى

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لامنه ؛ وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعاونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل ، فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى ، فما الذى يخاف عليه بعد نفي المعجب فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله ، والثقة بكرمه ، والأمن من مكره ، حتى يظن أنه يبق على هذه الوتيرة فى المستقبل ، ولا يخاف من الفترة والاتقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط ، دون أن يقارنه الخوف من مكره . ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ، ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه ، من حب دنيا ، ورياء ، وسوء خلق ، والتفات إلى عز

وهو غافل عنه . ويكون خائفاً أن يسلب حاله فى كل طرفة عين ، غير آمن من مكر الله ، ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا يحصى عنه ، وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزاع ، وكان قد بقى له نفس ، فقال : أفلت منى يا فلان ، فقال لا بعد . ولذلك قيل . الناس كلهم هلكت إلا العالمون . والعالمون كلهم هلكت إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم فإذا المرور هالك ، والمخلص الفار من المرور على خطر . فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً ، فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بنحو أتيها تم كتاب ذم المرور ، وبه تم ربيع المهلكات ويتلوه فى أول ربيع المنجيات كتاب التوبة ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم





# كتاب التوبة

## كتاب التوبة

وهو الأول من ربيع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبمحمده  
يتنعم أهل النعيم في دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب  
بينهم وبين السعداء بسورله باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه  
توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم  
الغفور التواب . ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل  
التوب شديد العقاب . ونصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، صلاة  
تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب ، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب  
أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق  
السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المرئيين ، ومفتاح استقامة المائتين ،  
ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء  
أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب الآدمي واجترم  
فهى سنسنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر  
عمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات ، والوجود والعدم . ولقد  
قرع آدم سن الندم ، وتندم على ما سبق منه وتقدم . فمن أخذه قدوة في الذنب دون التوبة  
فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون  
التلا في سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين . فالتجرد للخير  
ملك مقرب عند الملك الديان ، والتجرد للشر شيطان ، والمتلا في للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان

فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان . وكل عبد مصصح نسبه إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بـعلازمة حد الإنسان . والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم مجنأ محكما ، لا يخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار

وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع ، وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وثمرتها ، والآفات المانعة منها ، والأدوية الميسرة لها . ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان :

الركن الأول : فى نفس التوبة ، وبيان حدها ، وحقيقتها ، وأنها واجبة على الفور ، وعلى جميع الأشخاص ، وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة

الركن الثانى : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صفائر وكبائر ، وما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحق الله تعالى ، وبيان كيفية توزيع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، وبيان الأسباب التى بها تعظم الصفائر

الركن الثالث : فى بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك مامضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة

الركن الرابع : فى السبب الباعث على التوبة ، وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل

الركن الأول فى نفس التوبة

## بيان

حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم وبلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل  
فالعلم الأوّل ، والحال الثانی ، والفعل الثالث . والأوّل موجب للثانی ، والثانی موجب  
لِلثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت

أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب .  
فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، ييقن غالب على قلبه ، نار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب  
فوات المحبوب . فإن القلب مهما شعر بفوات محبوه تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف على  
الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما . فإذا غلب هذا الألم على القلب  
واستولى ، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له  
تعلق بالحال ، وبالماضى ، وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال ، فبالترك للذنب الذي كان ملايسا . وأما  
بالاستقبال ، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحسوب إلى آخر العمر . وأما بالماضى ، فبتلافى  
مافات بالخير والقضاء إن كان قابلا للخير فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات ، وأغنى  
بهذا العلم الإيمان واليقين . فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين  
عبارة عن تأكيد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائه على القلب ، فيشمر نور  
هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور  
الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فيسطع  
النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوه وقد أشرف على الهلاك ،  
فقتشعل نيران الحب في قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك

فالعلم والندم ، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال ، والتلافى للماضى ، ثلاثة  
معان مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى  
للندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمره والتابع المتأخر . وبهذا الاعتبار

قال عايه الصلاة والسلام <sup>(١)</sup> « النَّدْمُ تَيْبَةٌ » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجهه وأثره، وعن عزم يتبعه ويتلوه . فيكون الندم محفوفا بطرفيه ، أعنى ثمرته ومثمره . وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ . فإن هذا يعرض لمجرد الألم . ولذلك قيل هو ناز فى القلب تلهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب . وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التستري : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت ، وأكل الحلال . وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة

والأقويل فى حدود التوبة لا تنحصر . وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة ، وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها يقاصر عن الإحاطة بجميع معانيها . وطالب العلم بحقائق الأمور أم من طلب الألفاظ المجردة

## بيان

وجوب التوبة وفضلها

اعلم أزوجوب التوبة ظاهر بالأخبار <sup>(٢)</sup> والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى انتدر على أن يسمي بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه ، فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتخير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر ، وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، فيتنبه بأذنى إشارة لسلوك طريق معوصة ، وقطع عقبات متعبة . ويشرق فى قلبه نور القرءان ونور الإيمان . وهو لشدة نور باطنه

(١) حديث الندم توبة : ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه اساده من حديث ابن مسعود ورواه ابن جبان

والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة : مسلم من حديث الأغر المزنى يأثم الناس توبوا إلى الله الحديث :

ولابن ماجه من حديث جابر يأثمها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا - الحديث : وسنده ضعيف

يحتذى بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسه نار . فإذا مسته نار فهو نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة ، فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ، ثم إلى الوجوب مامعناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك في ثبوتها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لو لا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه ؛ لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض . فإن ما اغرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه ، فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه . فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى ، وأن كل محبوب عنه يشقى لامحالة ، محول بينه وبين ما يشتهي ، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعث عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العالم الفاني ، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله ، واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته ، سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى . فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب . وإعمايم الانصراف بالعلم ، والندم ، والعزم فإنه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ، ولم يتخرج بسبب سلوكه في طريق البعد . وما لم يتوجه فلا يرجع . ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب . وهكذا يكون الإيمان الحامل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله ، وقول رسوله ، وقول السلف الصالحين . فقد قال الله تعالى ( وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ <sup>(١)</sup> ) وهذا أمر على العموم . وقال الله تعالى

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً تَصَوحًا <sup>(١)</sup> ) الآية ، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ <sup>(٢)</sup> ) . وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دُوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْمَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ » وفى بعض الألفاظ قال من شدة فرحه ، إذ أراد شكر الله ، أنا ربك وأنت عبدى .

ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام ، هنأته الملائكة ، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام . فقالا يا آدم ، قرت عينك بتوبة الله عليك . فقال آدم عليه السلام : يا جبريل ، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه يا آدم ، ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة . فمن دعائى منهم ليته كما لببتك ، ومن سألتى المغفرة لم أبخل عليه ، لأنى قريب محبب يا آدم ، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعائهم مستجاب . والأخبار والآثار فى ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشرط الثانى دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف ان الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد فى زوائد السند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث على ان الله يحب البعد المؤمن للفتن الثواب

(٢) حديث لله أفراح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزول فى أرض فلاة دوية مهلكة - الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم فى حديث أنس تمثال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصرا

في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش النفلة عنه فعنى هذا العلم إزالة هذه النفلة، ولا خلاف في وجوبها  
 ومن معانيها ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق  
 من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه وأما التندم على ما سبق، والتحزن  
 عليه، فواجب. وهو روح التوبة، وبه تمام التلافي. فكيف لا يكون واجبا! بل هو نوع  
 ألم يحصل لاحالة، عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟  
 فاعلم أن سببه تحقيق العلم بقوات المحبوب. وله سبيل إلى تحصيل سببه. ويمثل هذا  
 المعنى دخل العلم تحت الوجوب، لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه، فإن ذلك  
 محال. بل العلم، والندم، والفعل، والإرادة، والقدرة، والقادر، الكل من خلق الله وقوله  
 (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ<sup>(١)</sup>) هذا هو الحق عند ذوى البصائر. وما سوى هذا ضلال

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا نعم: وذلك لا يناقض قولنا إن الكل  
 من خلق الله تعالى. بل الاختيار أيضا من خلق الله. والعبد مضطر في الاختيار الذي له.  
 فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق  
 العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام  
 هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق  
 العلم بأنه لا مانع، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول. فتنجزم  
 الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة، وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا، ولا بد من  
 حصوله عند تمام أسبابه. فإذا حصل انجزام الإرادة يخلق الله تعالى إياها، وتحركت اليد  
 الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة. إذ بعد تمام الإرادة والقدرة، يكون حصول الفعل ضروريا،  
 فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضا  
 من خلق الله. وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة، والعلم بعدم الموانع، وهما أيضا  
 من خلق الله تعالى. ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة  
 الله تعالى في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة



مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ، ومالم يخلق فيها حياة ، ومالم يخلق إرادة مجزومة .  
 ولا يخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلافى النفس ولا ينبعث هذا الليل انبعثاتاما  
 مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس ، إما فى الحال أو فى المآل . ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب آخر  
 ترجع إلى حركة وإرادة وعلم . فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة  
 والإرادة أبدا تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل . والسكل من اختراع الله  
 تعالى . ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض . فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما  
 لا يخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم .  
 فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة ، لأن الحياة تتولد من الجسم . ويكون خلق  
 الحياة شرطا لخلق العلم ، لأن العلم يتولد من الحياة . ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم  
 إلا إذا كان حيا ، ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة ، لأن العلم يولد الإرادة . ولكن  
 لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم . ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، وللا إمكان ترتيب  
 لا يقبل التغيير ، لأن تغييره محال . فهما وجد شرط الوصف استعداد المحل به لقبول الوصف ،  
 فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد . ولما كان  
 للاستعداد بسبب الشروط ترتيب ، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب . والغبد  
 مجرى هذه الحوادث المرثبة ، وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلىح البصر  
 ترتيبا كليا لا تغيير . وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها . وعنه العبارة بقوله تعالى  
 ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ <sup>(١)</sup> ) وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى ( وَمَا أَمْرُنَا  
 إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ <sup>(٢)</sup> ) وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر .  
 ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب ، بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة  
 وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة  
 فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر  
 التقدير ، سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا بأياها  
 الرجل ، قد تحركت ، ورميت ، وكتبت . ونودى من وراء حجاب الغيب ، سرادقات الملكوت

( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ )<sup>(١)</sup> وما قتلت إذ قتلت ، ولكن  
 ( قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ )<sup>(٢)</sup> وعند هذا تحجير عقول القاعدين في مجبوحه عالم  
 الشهادة ، فن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى  
 أنه كسب . ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت ، لظهر لهم أن  
 كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم ، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا  
 الأمر ، ولم يحيط علمه بجوانبه . وتام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب  
 وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول . وقد  
 يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء . ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات  
 وعلم كيفية تسلسلها ، ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب ، انكشف له سر القدر  
 وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ، ولا مبدع سواه

فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر ، والاختراع ، والكسب ، أنه  
 صادق من وجه ، وهو مع صدقه قاصر ، وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن  
 إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل ،  
 وما كانوا قط شاهدوا صورته ، ولا سمعوا اسمه . فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته  
 باللمس الذي تقدر عليه . فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه . فوقع يد بعض العميان على رجله  
 ووقع يد بعضهم على نابيه ، ووقع يد بعضهم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلما انصرفوا  
 سألتهم بقية العميان ، فاختلف أجوبتهم . فقال الذي لمس الرجل : إن الفيل ما هو إلا مثل  
 اسطوانة خشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذي لمس الناب : ليس كما يقول ، بل هو  
 صلب لا لين فيه ، وأملس لا خشونة فيه ، وليس في غلظ الأسطوانة أصلا ، بل هو مثل  
 عمود : وقال الذي لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولكن  
 قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فكل  
 واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ،

(١) الانفال : ١٧ (٢) التوبة : ١٤

ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل. ولكنهم يحملتهم تصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا ، فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة ، العلم ، والندم ، والترك ، وأن الندم داخل في الوجوب ، لكونه واقفا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد ، وإرادته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

## بيان

أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور . والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهده ما لم يصر باعثا عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان . وهو المراد بقوله عليه السلام <sup>(١)</sup> « لا يَزِيءُ الزَّانِي حِينَ يَزِيءُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وما أراد به نفي الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، ووجدانيته ، وصفاته ، وكتبه ؛ ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى . وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى . موجبا للمقت . كما إذا قال الطيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطيب ، وكونه طيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا . فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان . وليس الإيمان بابا واحدا ، بل هو نيف وسبعون بابا ، أعلاها شهادة ان لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل .

(١) حديث لا يَزِيءُ الزَّانِي حِينَ يَزِيءُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ : متفق عليه من حديث أبي هريرة .

ليس الإنسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلاها القلب والروح وأدناها إمطة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص الشارب ، مقطوم الأظفار ، نقي البشرة عن الخبيث ، حتى يتميز عن البهائم المرسله الملوثة بأروائها ، المستكرهه الصور بطول مخالبتها وأظلافها وهذا مثال مطابق : فالإيمان كالإنسان ، وقد شهدته التوحيد ويوجب البطلان بالكلية كفقده الروح ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوه العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة ، لأصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت ، فتزايله الروح الضعيفة ، المنفردة ، التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصر في الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة ، المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده . فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ، ولم تنتشر في الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت ، وخيف عليه سوء الخاتمة ، لا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات ، حتى رسخ وثبت . وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن ، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة . وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستمرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك ، وتتناثر أوراقك ، وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة ، مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة . وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الهائلة ، التي لا يثبت عليها إلا الأقلون . فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته ، كالصحيح المنهمك في الشهوات المضره إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته . وإن الموت غالباً لا يقع فجأة ، فيقال له . الصحيح يخاف المرض ، ثم إذا مرض خاف الموت . وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمالك كولات المضره للأبدان ، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج ، فيمرض دفعة ، ثم يموت دفعة . فكذلك المعاصي

فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم، وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك. وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقياً، ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة، على سبيل الفور والمبادرة، تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لايفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن، مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية، التى فيها النعيم المقيم، والملك العظيم، وفى فواتها نار الجحيم، والعذاب المقيم الذى تنصرم أعمار الدنيا دون عشر عشر مدته، إذ ليس لمدته آخر ألبتة. فالبدارح البدار إلى التوبة، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم، ولا ينفع بعده الإحماء، فلا ينبغ بعد ذلك نصيح الناصحين، ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى ( إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَفِي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ <sup>(١)</sup> ) ولا يفرئك لفظ الإيمان فتقول. المراد بالآية الكافر، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً، وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن. فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الإيمان الذى هو أصل. كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هى حروف وفروع، سيساق إلى الموت المدم للروح التى هى أصل، فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد، وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعاً يستدعى وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع. فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل، فعلموا المكشوفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر. وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع. وعلوم المعاملة إذ لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها

فإن هي لم تمسك عملها الذي ترادله، قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم

## بيان

أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا، إذ قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ<sup>(١)</sup>) فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضا يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله، المقرب إلى الشيطان. ولا يتصور ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة، والغضب، وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين. وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار، والنور والظلمة. ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة. وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل، فقد سبق جند الشيطان، واستولى على المكان، ووقع للقلب به أنس، وألف لاحتالة مقتضيات الشهوات بالعادة. وغلب ذلك عليه، ويمسر عليه انزوع عنه. ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده، ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل، سلمت مملكة القلب للشيطان، وأنجز اللعين موعده حيث قال (لَا حَتَّكََنَّ دُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(٢)</sup>) وإن كمل العقل وقوى، كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات، ومفارقة العادات، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات؛ ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة، وخفيه الشيطان، إلى طريق الله تعالى. وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق

(١) النور: ٣١ (٢) الإسراء: ٦٢

إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان ، نبيا كان أو غيبا ، فلا تظن أن هذه  
الضرورة اختصت بآدم عليه السلام . وقد قيل .

فلا تحسبن هذا لها الفرد وحدثها سحجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس ، لا يمكن فرض خلافة ما لم تتبدل السنة  
الإلهية التي لا مطمع في تبديلها . فإذا أكل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره .  
فإذا بلغ مسالما تبعا لأبويه ، غافلا عن حقيقة إسلامه ، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى  
الإسلام ، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع  
عن عاداته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف ، بالرجوع إلى قالب حدود الله  
في المنع والإطلاق ، والانفكاك ، والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك  
الأكثر ، إذ عجزوا عنه . وكل هذا رجوع وتوبة .

فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص ، لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من  
البشر ، كما لم يستغن آدم . فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الولد أصلا  
وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفي كل حال ، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية  
بجوارحه . إذ لم يخلو عنه الأنبياء ، كما ورد في القراءات والأخبار من خطايا الأنبياء ،  
وتوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا  
يخلو عن المهم بالذنوب بالقلب . فإن خلا في بعض الأحوال عن المهم ، فلا يخلو عن وسواس  
الشیطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله . فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة  
وقصور في العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكل ذلك نقص ، وله أسباب ، وترك أسبابه  
بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو  
في حق الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير . فأما الأصل فلا بد منه . ولهذا  
قال عليه السلام <sup>(١)</sup> « إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى اسْتَغْفِرَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً »

( ١ ) حديث انه ليغن على قلبي فأستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة : مسلم من حديث الأغر المزني الأنة قال في  
اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة انى لأستغفر الله في اليوم  
أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار والدعوات

الحديث ولذلك أكرم الله تعالى بأن قال ( لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ <sup>(١)</sup> )  
وإذا كان هذا حاله ، فكيف حال غيره ؟

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر تقص ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله تقص ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ، وقد أطلقت القول بوجود التوبة في كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع . فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقه من اتباع الشهوات أصلاً . وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى . وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه ، كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيمة . فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثاً ، كما قال تعالى ( كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ <sup>(٢)</sup> ) فإذا تراكم الرين صار طبعاً ، فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه ، غاص في جرم الحديد وأفسده ، وصار لا يقبل الصقل بعده ، وصار كالمطبوع من الخبث . ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب . كما لا يكفي في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات ، ويرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات . فتتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام <sup>(١)</sup> « اتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّبًا »

فإذا لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه ، بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لاصفاؤه وجلأؤه ، ثم أنالهم بأسباب عارضة .

(١) حديث أنبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذي من حديث أبي ذر برياده في أوله وآخره وقال حسن صحيح

وقد تقدم في رياضة النفس

(١) الفتح : ٢ (٢) التطهيف : ١٤



فأما التصقييل الأول ففيه يطول الصقل ، إذ ليس شغل الصقل فى إزالة الصدأ عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة . فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً . وكل ذلك يرجع إلى التوبة فأما قولك : إن هذا لا يسمى واجباً ، بل هو فضل وطلب كمال ، فأعلم أن الواجب له معنيان أحدهما : ما يدخل فى فتوى الشرع ، ويشترك فيه كافة الخلق ، وهو انقدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقائه لركوا المعاش ، ورفضوا الدنيا بالكفاية . ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكفاية ، فإنه مهما فسدت المعاش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة ، والحراثة ، والخبز ، يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثانى : هو الذى لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين . والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة فى الوصول إليه . كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع ، أى لمن يريد ها . ، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمات عن فضل صلاة التطوع ، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها . كما يقال العين ، والأذن ، واليد ، والرجل ؛ شرط فى وجود الإنسان . يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ، ويتوصل بها إلى درجات العلاء فى الدنيا . فأما من قنع بأصل الحياة ، ورضى أن يكون كلحم على وضم ، وكخرقة ، وطروحة ، فليس بشرط لمثل هذه الحياة عين ، ، ويد ، ورجل . فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة . وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السمادات التى بها تنهى الحياة ، يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تنهى الحياة ، وفيه سعى الأنبياء ، والأولياء والعمام والأمثال فالأمثال ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم للأدب الدنيا بالكفاية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً فى منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال : أما كنت تركت الدنيا للأخرة ؟ فقال نعم وما الذى حدث ؟ فقال توسدك لهذا الحجر تنم فى الدنيا ، فلم لانضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ، ووضع رأسه على الأرض . وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التعم . أقترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً فى فتاوى العامة ؟

أقترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> ، لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في هباته حتى نزعه ،<sup>(٢)</sup> وشغله شرك نمله الذي جرده حتى أعاد الشرك الخلق ، لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لسكافة عباده ؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه ؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا في قلبه آثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ؟

أقترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن ، وعلم أنه على غير وجهه ، أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه ، حتى كاد يخرج معه روجه ، ما علم من الفقه هذا القدر ، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ، ولا يجب في فتوى الفقه إخراجها فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره ، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟ فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ؛ وبمكر الله ، وبمكامن الغرور بالله . وإياك مرة واحدة أن تنترك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف مرة أن يفرك بالله الغرور . فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائعها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى ، في كل نفس من أنفاسه ، ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة . ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تقويت ما مضى منه في غير الطاعة ، لكان خليقا أن يجزئه ذلك إلى الممات . فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله ! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة ، وضاعت منه بغير فائدة ، بكى عليها لا محالة . وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه ، كان بكاءه منها أشد . وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة ، لا خلف لها ، ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد ، وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهرة أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها في الغفلة ، فقد خسرت خسرا نائبا . وإن صرفتها إلى معصية ، فقد هلك هلكا فاحشا . فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة ، فذلك لجرمك . ومصيبتك يجهلك أعظم من كل مصيبة ،

( ١ ) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الذي كان عليه في الصلاة : تقدم في الصلاة أيضا

( ٢ ) حديث نزعه الشرك الجديد وإعادة الشرك الخلق : تقدم في الصلاة أيضا

لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة . فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . فمعد ذلك ينكشف لكل . فقلس إفلاسه ، ولكل منصاب . مصيبيته . وقد رفع الناس عن التدارك

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد ، أعلمه أنه قد بقى من عمره ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين . فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بمخذا فيبرها لخرج منها ؛ على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعقب فيها ويتدارك تفريطه ، فلا يجد إليه سبيلا . وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى ( وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ <sup>(١)</sup> ) وإليه الإشارة بقوله تعالى ( مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا <sup>(٢)</sup> ) ففيل الأجل القريب الذى يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : يا ملك الموت ، أخرجنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب ، وأنزود صالحا لنفسى فيقول : فميت الأيام فلا يوم . فيقول : فأخرجنى ساعة . فيقول : فميت الساعات فلا ساعة فيعاق عليه باب التوبة ، فيتفرغ غر بروحه ، وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ، ويتخرج غصصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال . فإذا زهقت نفسه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنى ، خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء بالشتوة والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة . ولمثل هذا يقال ( وَابْتَسَّتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ <sup>(٣)</sup> ) وقوله ( إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ <sup>(٤)</sup> ) ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال إمامان لابنه : يا بنى لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوييف ، كان بين خطيرين عظيمين . أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينا وطبها

(١) سبا : ٥٤ (٢) للنافقون : ١٠ ، ١١ (٣) النساء : ١٨ (٤) النساء : ١٧

فلا يقبل المحو، الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد في الخبر<sup>(١)</sup> «إِنَّ أَكْثَرَ صَبَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ» فما هلك من هلك إلا بالتسويق. فيكون تسويده القلب نقداً، وجلاؤه بالطاعة نسيئة، إلى أن يحتطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم. ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعبء أمانة الله عنده. وكذا سائر أسباب الطاعة. فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانتته، فأمره مخطر. قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرها إليه على سبيل الإلهام. أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدى، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك واثمتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وأنظر إلى كيف تلقاني. والثاني: عند خروج روحه يقول: عبدى، ماذا صنعت في أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد، فألتقائك على الوفاء؟ أو أضعتها فألتقائك بالمطالبة والعقاب؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ<sup>(١)</sup>) ويقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ<sup>(٢)</sup>)

## بيان

أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول، لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة. فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن، عاموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومنتمم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى وعلومها أن القلب خلق سليماً في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة، وإنا تمفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها. وعاموا أن نار الندم تحرق تلك الغيرة، وأن نور الحسنة يحو عن وجه القلب ظامة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون.

(١) حديث إن أكثر صباح أهل النار من التسويق: لم أجده أصلاً

(١) البقرة: ٤٠ (٢) المؤمنون: ٨

وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه، فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره . وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه، ويطهره، ويزكيه . وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول . فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذى لا مرد له . وهو المسمى فلاحا في قوله ( قَدْ أُلْمَعُ مِنْ زَكَاةٍ <sup>(١)</sup> )

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر، أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة، كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور، كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا، لا يتصور الجمع بينهما . فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره، ولم يعلق به إلا أسماؤه، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين، بل عن حقيقة نفسه، وصفات نفسه . ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل . وأعنى به قلبه . إذ قلبه يعرف غير قلبه . فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ! فن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول . إلا أن ينوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله، فلا يقوى الصابون على قلمه . فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم : قد يقول باللسان تبت، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب، وذلك لا ينظف الثوب أصلا، ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يبيض الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا، المعرضين عن الله بالكلية . فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة . ولسكنا نعضد جناحه بنقل الآيات، والأخبار، والآثار . فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به . وقد قال تعالى ( وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ <sup>(٣)</sup> ) إلى غير ذلك من الآيات

(١) الشمس : ٩ (٢) الشورى : ٢٥ (٣) غافر : ٣

وقال صلى الله عليه وسلم « **لَهُ أَفْرَحُ تَوْبَةٍ أَحَدِكُمْ** » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لَيْسَىءَ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلَيْسَىءَ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا** » وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « **لَوْ عَمِلْتُمْ الخَطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدِمْتُمْ لَتَأْتِيَنَّكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ** » وقال أيضا <sup>(٣)</sup> « **إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ** » فقيل كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال « **يَكُونُ نَصَبَ عَيْنِهِ تَائِبًا مِنْهُ فَأَرَاهُ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ** » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « **كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ** » وقال صلى الله عليه وسلم « **التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ** »

ويروى <sup>(٥)</sup> أن حبشيا قال يا رسول الله ، إني كنت أعمل الفواحش ، فهل لي من توبة ؟ قال نعم . فوئى ثم رجع فقال : يا رسول الله ، أكان يراني وأنا أعملها ؟ قال نعم . فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه . ويروى <sup>(٦)</sup> أن الله عز وجل لما لعن ابليس ، سأله النظره

( ١ ) حديث ان الله يبسط يده بالتوبة لىسىء الليل الى النهار - الحديث : مسلم من حديث أبى موسى بلفظ يبسط يده

بالليل ليتوب لىسىء النهار - الحديث : وفي رواية لاظبرانى لىسىء الليل أن يتوب بالنهار - الحديث :

( ٢ ) حديث لوعلمتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتأتينكم الله عليكم : ابرماجه من حديث أبى هريرة واسناده

حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتتم

( ٣ ) حديث ان العبد لىذنب الذنب فىدخل به الجنة - الحديث : ابن المبارك فى الزهد عن المبارك بوفضالة

عن الحسن مرسلأ ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة ان العبد لىذنب الذنب فاذا ذكره

أحزنه فاذا نظر الله اليه أنه أحزنه غفرله - الحديث : وفيه صالح المرى وهو رجل صالح لكنه

مضعف فى الحديث ولان أبى الدنيا فى التوبة من حديث ابن عمران الله لينفع العبد بالذنب يذنبه

والحديث غير محفوظ قاله العقيلي

( ٤ ) حديث كفارة الذنب الندامة : أحمد والطبرانى وهن فى الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمر

ابن مالك اليشكرى ضعيف

( ٥ ) حديث ان حبشيا قال يا رسول الله انى كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم - الحديث : لم أجده أصلا

( ٦ ) حديث ان الله لما لعن ابليس سأله النظره فأنظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب

ابن آدم مادام فيه الروح - الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد

ان الشيطان قال وعزتك يارب لأزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم فقال وعزتى

وجلالى لأزال أغفر لهم ما استغفرونى وأورده المصنف بصيغته ويروى كذا ولم يره الى النبي صلى الله

عليه وسلم فدكرته احتياطا

فأنظره إلى يوم القيامة . فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال  
الله تعالى . وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة مادام الروح فيه . وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>  
« إِنَّ الْجَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يُدْهِبُ الْمَاءُ الْوَسْخَ » والأخبار فى هذا لا تحصى  
وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب : أنزل قوله تعالى (فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا<sup>(٢)</sup>)  
فى الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر  
المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم . وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبهم  
وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين  
وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها  
قلبه ، محيت عنه فى أم الكتاب ويروى أن نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أذنب ، فأوحى الله تعالى  
إليه ، وعزتى لئن عدت لأعذبنك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم  
تعصمنى لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما  
حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس . ليتنى لم أوقعه فى الذنب . وقال حبيب بن ثابت . تعرض  
على الرجل ذنوبه . يوم القيامة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إني قد كنت مشفقا منه ، قال  
فيغفرله . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه  
ابن مسعود ، ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب ، كلها  
تفتح وتغلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكا موكل به لا يفلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم . تذكر نامع عبد الرحيم توبة الكافر ، وقول الله تعالى (إِنْ يَنْتَهُوا  
يُعْفَرْ لَهُمْ مَآقِدَ سَلَفٍ<sup>(٣)</sup>) فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا . ولقد  
بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبي  
مرسل ، أو كتاب منزل . إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين ، سقط عنه أسرع  
من طرفه عين . وقال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

(١) حديث ان الجسنت يدهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى

أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريبا

بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي . قيل ومتى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من رأى أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المخفرة . أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة و يروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحبته ، فسأه ذلك ، فقال : إلهى أطلعتك عشرين سنة ، ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً . أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركتناك ، وعصيتنا فأمهلتناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : إن لله عبادة نصبوا أشجار الخطايا نصب رواقى القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندماً وحزناً : فجنوا من غير جنون ، وتبدلوا من غير عى ولا بكى ، وأنهم هم البلغاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت : وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرؤا صحيفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلنوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم فى الملا ، حتى أناخوا فى رياض النعيم ، وخاضوا فى بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ، ومعدن العز والكرامة . فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة فإن قلت : أفقتول ما قالته المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا ما يريد القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس فى شئ من ذلك ما يريد المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء منيلاً للعطش ، والقدرة متمسكة بخلافه لو سبقت به السيئة ، فلا واجب على الله تعالى . ولكن ما سبقت به إرادته



الأزلية فواجب كونه لا محالة . فإن قلت : فما من نائب إلا وهو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه ، فلم يشك فيه .  
 فأقول : شكك في القبول كشكك في وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذى يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهل ، وذلك لشكك في حصول شروط الإسهال في الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثلة موجب للخوف بعد التوبة ، وموجب للشك في قبولها لا محالة ، على ما سيأتى في شروطها إن شاء الله تعالى

## الركن الثانى

فما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرهما وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة ، كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً . فمعرفة الذنوب إذاً واجبة . والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، في ترك أو فعل . وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا . ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته

## بيان

أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة ، على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله . ولكن تنحصر مشاركات الذنوب في أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة ، فانتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثر من الآثار ، كما يقتضى السكر والخل ، والزعفران ، في السكنجين آثاراً مختلفة

فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية ، فمثل الكبر ، والفخر ، والجبرية ، وحب

المدح ، والثناء ، والعز ، والنفي ، وحب دوام البقاء ، وطلب الاستملاء على الكفاية ، حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى . وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب ، غفل عنها الخلق ولم يمدوها ذنوبا ، وهي المهلكات العظيمة ، التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي ، كما استقصيناه في ربيع المهلكات

الثانية : هي الصفة الشيطانية ، التي منها يتشعب الحسد ، والبغى ، والحيلة ، والخداع والأمر بالفساد والمنكر . وفيه يدخل النش ، والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلال

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشره ، والكاب ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . ومنه يتشعب الزنا ، واللواط ، والسرقه وأكل مال الأيتام ، وجمع الحطام لأجل الشهوات

الرابعة : الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهجم على الناس بالضرب والشم ، والقتل ، واستهلاك الأموال . ويتفرع عنها جمل من الذنوب .

وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة ، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولا ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع ، والمنكر ، والحيلة ، وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية ، وهي الفخر ، والعز ، والعلو ، وطلب الكبرياء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

فهذه أمهات للذنوب ومنابعها . ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها في القلب خاصة كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء للناس . وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح - قسمة ثانية : -

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة ، والصوم ، والواجبات الخاصة به . وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة ، وقتله النفس ، وغصبه الأموال ، وشتمه الأعراض . وكل متناول من حق الغير قايما نفس ، أو طرف ، أو مال ، أو عرض ، أو دين ، أو جاه . وتناول الدين بالإغواء ، والدعاء إلى البدعة ، والترغيب في المعاصي ، وتهيج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الجاه على جانب الخوف ، وما يتعلق بالعباد ، فالأمر فيه أغلظ

وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا ، فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء فى الخبر  
 (١) « الدَّوَاوِينُ ثَلَاثَةٌ دِيْوَانٌ يُغْفَرُ وَدِيْوَانٌ لَا يُغْفَرُ وَدِيْوَانٌ لَا يُتْرَكُ فَالدِّيْوَانُ الَّذِي  
 يُغْفَرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالَّذِي لَا يُتْرَكُ بِاللَّهِ تَعَالَى  
 وَأَمَّا الدِّيْوَانُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظَالِمُ الْعِبَادِ » أى لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها - قسمة ثالثة :-

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر . وقد كثر اختلاف الناس فيها . فقال قائلون  
 لاصغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فى كبيرة وهذا ضعيف . إذ قال تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ  
 مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا) (١) وقال تعالى (الَّذِينَ  
 يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ) (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ  
 وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ يُكْفَرْنَ مَا بَيْنَهُنَّ إِنْ اجْتَنَبَتِ الْكَبَائِرُ » وفى لفظ آخر « كَفَّارَاتُ  
 لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرُ » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه (٣) عبد الله بن عمرو بن  
 العاص « الْكَبَائِرُ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ »

واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر ، من أربع ، إلى سبع ، إلى تسع ، إلى  
 إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود . هن أربع : وقال ابن عمر : هن سبع .  
 وقال عبد الله بن عمرو . هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع  
 يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة  
 وقال غيره : كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل  
 ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها ، كليلة القدر ،  
 وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس  
 ثلاثين آية منها عند قوله (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ) (٤) فسئل ما نهى الله عنه

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالدويان الذي

ابن موسى الباقى صفه ابن ميين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبرانى

(٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنت الكبائر : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث عبد الله بن عمرو والكبائر الاشرالك بالله وعقوق الوالدين وقيل النفس واليمين الغموس : رواه البخارى

(١) النساء : ٣١ (٢) النجم : ٣٢ (٣) النساء : ٣١

في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكي . الكبائر سبع عشرة ، جمعها من جملة الأخبار<sup>(١)</sup> . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر

(١) للأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي ط لب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعها من جملة

الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والاصرار على معصيته والفتنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وذف المحصن واليمين الغموس والسحر وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربوا والزنا واللاواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى وسأذكر ماورد منها مرورا وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وماهى قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله بالإلحاق وأكل الربوا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكره الأأنبيكم بأ كبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال الأأنبيكم بأ كبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن يجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سامة بن قيس إنماهى أربع لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الابالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الاوسط للطبراني من حديث ابن عباس الجمر أم الفواحش وأ كبر الكبائر وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر ركلاهما ضعيف وللبرار من حديث ابن عباس باسناد حسن ان رجلا قال يارسول الله ما الكبائر قال الشرك بالله والاباس من روح الله والفتنوط من رحمته الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع العجل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أولهن الاشراك بالله وفيه والانفال إلى الاعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حشمة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدرى الكبائر سبع وفيه الرجوع إلى الاعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني ولاحاكم من حديث عبيد ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث وائلة ان من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل وله أيضا من حديثه ان من أكبر الكبائر أن ينتقى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد ابن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال اتهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وانه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله - الحديث : ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكره أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث : ولأبي داود والترمذي من حديث

وغيرهم ، أربعة فى القلب ، وهى الشرك بالله ، والإصرار على مصيبته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع فى اللسان ، وهى شهادة الزور ، وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولوسواكا من أراك ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار ، والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقه  
وثلاث فى البطن ، وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنان فى الفرج ، وهما الزنا واللواط .  
واثنان فى اليدين ، وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسد ، وهى عقوق الوالدين ، قال وجملة عقوقها أن يقسم عليه فى حق فلا يبرقهما . وإن سألناه حاجة فلا يعطيها . وإن يسبها فيضربها . ويجوعان فلا يطعمهما  
هذا ماقاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه . فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهى جناية على الأموال

انس عرضت على ذنوب أمتى فلم أردنا أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تبها رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبي شيبة فى النوبة من حديث ابن عباس لاصغيرة مع اصرار وفيه أوشية الخراسانى والحديث منكر يعرف به ( وأما الوقوفات ) فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الاشرار بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشرار بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وفيل النفس التى حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متمعدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وطمعته الرحم وروى ابن أبي الدنيا فى التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الاصرار واستاده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والوقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون الآن بعضها لا يصح استاده كما تقدم واما ذكرت الوقوفات حتى يعلم ماورد فى المرفوع وماورد فى الوقوف والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هى إلى السبعين أقرب وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم

ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل . فأما قتل العين ، وقطع اليدين ، وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب ، فلم يتعرض له . وضرب اليتيم وتعذيبه ، وقطع أطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله . كيف وفي الخبر « مِنَ الْكَبَائِرِ (١) السُّبَّتَانِ بِالسُّبَّةِ وَمِنَ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عَرَضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ » وهذا زئد على قذف المحصن . وقال (٢)

أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة . إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر

وقالت طائفة كل عمدة كبيرة ، وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة : وكشف اللطائف عن هذا: أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا ، لا يصح ، ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها . كقول القائل : السرقة حرام أم لا ، لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أو لا ثم البحث عن وجوده في السرقة . فالكبير من حيث اللفظ مبهم ، ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع . وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه . فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ما أتوا به النار على فعله خاصة اسم الكبيرة . ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة . وله أن يطلق على ما ألوحب الحد عليه مصيرا إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيمة ، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ، فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ، ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالإضافة . إذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها

فهذه الإطلاقات لا حرج فيها . وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ،

- (١) حديث من الكبائر السببتان بالسببة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم: عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة في عرض المسلم بغير حق كما تقدم
- (٢) حديث أبي سعيد الخدرى وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبخاري بسند صحيح وقال من الأوقات يدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الإسناد

ولا يبعد تنزيها على شىء من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ( **إِنْ تَجَسَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** <sup>(١)</sup> ) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « **الصلوات كفارات لما يئنهن إلا الكبائر** » فإن هذا إنبات حكم الكبائر والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى ما يعلم استمظامه إياها ، وإلى ما يعلم أنها معدودة فى الصغائر ، وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه : فالطمع فى معرفة حد حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول إنى أردت بالكبائر عشرا ، أو خمسا ، ويفصلها . فإن لم يرد هذا ، بل ورد فى بعض الألفاظ <sup>(١)</sup> ثلاث من الكبائر ، وفى بعضها <sup>(٢)</sup> سبع من الكبائر . ثم ورد أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع فى عدد ما لم يمهده الشرع ! ووربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلاة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها . نعم لناسبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته

وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا ، أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقاءه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ( **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** <sup>(٣)</sup> ) أى ليكونوا عبيدا لى . ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية . ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود الأقصى بعبادة الأنبياء . ولكن لا يتم هذا إلا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام <sup>(٣)</sup> « **الدنيا مزرعة الآخرة** »

- ( ١ ) حديث ثلاث من الكبائر: الشيخان من حديث أبى بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا - الحديث: وقد تقدم  
 ( ٢ ) حديث سبع من الكبائر: طب فى الاوسط من حديث أبى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله فى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر - الحديث: ثم عددهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات  
 ( ٣ ) حديث الدنيا مزرعة الآخرة: لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلي فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار ابن نيلان تزود منها لآخرته بالجديد: وإسناده ضعيف

فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين ، لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال . فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ، ويليه ما يسد باب حياة النفوس ، ويليه ما يسد باب المعاش التي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب تحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضروري في مقصود الشرائع كلها . وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد بيعته إصلاح الخلق في دينهم وديانهم ، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب

الأولى : ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وهو الكفر . فلا كبيرة فوق الكفر . إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل . والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله . ويتلو الجهل الذي يسمى كفرا ، الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمته . فإن هذا أيضا عين الجهل . فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ، ولا أن يكون آيسا . ويتلو هذه الرتبة البدع كلها ، المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله . وبعضها أشد من بعض . وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه ، وأفعاله ، وشرائعه ، وبأوامره ، ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل ، وإلى ما يشك فيه . وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع الرتبة الثانية : النفوس . إذ يبقائها وحفظها تدوم الحياة ، وتحصل المعرفة بالله . فقتل النفس لا محالة من الكبائر ، وإن كان دون الكفر . لأن ذلك يصد عن المقصود ، وهذا يصد عن وسيلة المقصود . إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى . ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف ، وكل ما يفضي إلى الهلاك ، حتى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض . وينع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكر في قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريبا من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ، ولكن يشوش الأنساب ، ويبطل التوارث والتناصر



وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها . بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ، ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإثاث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا في أصل شرع قصد به الإصلاح . وينبغى أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا يمنع أصله ، ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى القتال . وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرته

المرتبة الثالثة : الأموال . فإنها معاش الخلق ، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا ، حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرها . بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس . إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها ، وإن أكلت أمكن تعريمها . فليس يعظم الأمر فيها نعم : إذا جرى تناولها بطريق يسر التدارك له ؛ فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق أحدها : الخفية ، وهى السرقة . فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك ؟

الثانى : أكل مال اليتيم . وهذا أيضا من الخفية . وأعنى به فى حق الولى والقيم . فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة ، فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

الثالث : تقويتها بشهادة الزور

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين النعوس . فإن هذه طرق لا يمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها

وأما أشكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالستراضى ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من الكبائر ، فأشكل الربا أكل بغير رضا المالك ، ولكن

دون رضا الشرع ، وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالنصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر . وذلك واقع في مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي ، القذف ، والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن يكون من الكبائر . وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا . لأن العقل محظوظ ، كما أن النفس محظوظة بل لاخير في النفس دون العقل . فإزالة العقل من الكبائر . ولكن هذا لايجرى في قطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة ، وإنما هو شرب ماء نجس . والقطرة وحدها في محل الشك . وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره ، فيمد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فالتوقف فيه مجال

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال في الريبة . ولتناولها مراتب : وأعظمها تناول بالقذف ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل مايجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن يختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرد لا يدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني ، فله أن يشهد ، ويحلف المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات . فإذا هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع . فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر

وأما السحر ، فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس ، أو مرض ، أو غيره

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شىء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بنصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ، ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ما قيل فيه ، فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليحق بالكبائر

فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نغنى بالكبيرة مالا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا ، وإلى ما ينبغي أن تكفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذا لامطع فيه ، فطلب رفع الشك فيه بحال

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها . فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإيهام ، لأن دار التكليف هي دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لا يحكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرها . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإيهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ( إِنْ جَحْتَنِوْا كَبَائِرَ مَا نُهَوْا عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ )<sup>(١)</sup> ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنابها مع القدرة والإرادة . فمن يتمكن من امرأة ، ومن موافقتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع ، أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إضلامه . فهذا معنى تكفيره . فإن كان عيننا ، أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من لا يشتهي الحمر بطبعه ، ولو أبيع له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي

من مقدماته ، كسماع الملاهي والأوتار . نعم : من يشتهي الحمر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحمر ، ويطلقها في السماع ، فجاهدته النفس بالكف ربما تجو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع

فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك، وتكون من المنشآت ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ، ولم يرد النص بعد ، ولا حد جامع ، بل ورد بالفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ إِشْرَاكٌ بِاللَّهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكْتُ الصَّفَقَةِ » قيل ماترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة ، ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالمدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لاحالة مبهما

فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا من يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ، ويلبس الدياج ، ويتختم بخاتم الذهب ، ويشرب في أوانى الذهب والفضة ، لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر ، وقال الشافعي رضى الله عنه : إذا شرب الحنفي النبيذ حددته ، ولم أردد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يردبه الشهادة . فدل على أن الشهادة نفيها وإثباتها لا تدور على الصغائر والكبائر . بل كل الذنوب تقدر في العدالة ، إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات ، كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب في بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام ، وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأمر الآخرة ، ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك . ولولم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده ، وبطلت الأحكام .

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفة - الحديث : الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الاستاد

والشهادات . وليس لبس الحرير ، وسماع الملاحى ، واللعب بالنرد ، ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب ؛ والخلوة بالأجنيبات ، وأمثال هذه الصفات من هذا القبيل . فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها ، لا إلى الكبيرة والصغيرة . ثم أحاد هذه الصفات التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة . كمن اتخذ النية وثلب الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواظبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام وغيره . فهذا بيان حكم الصفات والكبائر

## بيان

كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسبئات فى الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت . وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت ، والآخرة حالتك بعد الموت . فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فإننا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت . ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى ( وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ <sup>(١)</sup> ) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » وما سيكون فى اليقظة لا يتبين لك فى النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لا يتبين فى نوم الدنيا إلا فى كثرة الأمثال . وأعنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن فى يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن تؤذن فى رمضان

(١) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا : لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب

قبل طلوع الفجر . قال صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها ، فإنها أمك سييت في صفرك ، لأن الزيتون أصل الزيت ، فهو يردّ إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سييت في صغره . وقال له آخر : رأيت كأني أقلد الدر في أعناق الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقا . وإن نظر إلى صورته وجد كاذبا . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقا ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذي يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم في النوم ، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بعثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون . فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل ، لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا ، فيثبت لله تعالى يدا وأصبعها ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا

وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا ومن ههنا زل من زل في صفات إلهية ، حتى في الكلام ، وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول

وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد ، بجمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يُؤْتَى بِالْمُوتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبِحُ » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ، ويستدل به على كذب الأنبياء

( ١ ) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن : تقدم

( ٢ ) حديث إن الله خلق آدم على صورته : تقدم

( ٣ ) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح : متفق عليه من حديث أبي سعيد

ويقول : ياسبحان الله ، الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب المرض جسما وهل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسرارهم فقال ( وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ <sup>(١)</sup> ) ولا يدرى المسكين أن من قال : رأيت فى منامى أنه جىء بكبش ، وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد ، وذبح ، فقال المعبر : صدقت ، والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذا المعبّر صادق فى تصديقه ، وهو صادق فى رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذى يطلع الأرواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ ، عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن المنام إنما يحتمل المثال ، فكان مثاله صادقا ، وكان معناه صحيحا

فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس فى الدنيا ، وهى بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى إلى أفهامهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفا بعباده ، وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقولته يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبوت المعانى فيها بواسطتها . ولذلك عبر القرءان بقوله ( كُنْ فَيَكُونُ <sup>(٢)</sup> ) عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم ، بقوله « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ » عن سرعة التقلب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض فالقصد أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، لا يمكن إلا بضرب المثال ، فلتفهّم من المثل الذى نضربه معناه لاصورته ، فنقول :

الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودرجاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر ، كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها . ولا تفارق الآخرة فى هذا المعنى أصلا ألبتة ، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له ، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات ، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول :

الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين

وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلاً ، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ؛ معاندآله في أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يخلى إلا معترفاً له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخاع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بحز الرقبة ، أو تنكيلاً بالمثلة ، بحسب درجاتهم في المعاندة ، وتعذيب المعذبين في الخلفة ، والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها ، بحسب درجات تقصيرهم فتتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر . فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحل في دار السلامة ، ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحملون في جنات عدن ، أو جنات المأوى أو جنات الفردوس . والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً ، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة (١) ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر . وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم . وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي ، فلنذكر كيفية توزعها عليها

الرتبة الأولى : وهي رتبة الهالكين . ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معاني المثال . وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين الدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه . فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق . والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برب العالمين ،

(١) حديث أن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة بالترمذي الحكيم في نوادر الاصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثاً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة



وبأبنيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة ، وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهه لا محالة ، فهو لا محالة يكون مخترقا نار جهنم بنار الفراق . ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحدود العيين ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط . وقالوا : من يعبد الله بعوض فهو لثيم ، كأن يعبده لطلب جنته ، أو لخوف ناره . بل العارف يعبد لذاته ، فلا يطلب إلا ذاته فقط . فأما الحور العين والفواكه ، فقد لا يشتهيها . وأما النار ، فقد لا يتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام . فإن نار الفراق نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة . ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأحسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل

وفي فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا ، فقد روى من غلب عليه الوجد فندا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال ، فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال ، لأن الغضب نار في القلب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « أَلْغَضَبُ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهلاك من النار والسيف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام . فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ، ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصوجلان . وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ، ولم يعد ذلك ألما ، وقال . العدو في الميدان مع الصوجلان ، أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثر الهريسة والحلواء

(١) حديث العصب قطعة من النار: الترمذى من حديث أبي سعيد حوة وقد تقدم

وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا . وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها إلى القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب . وكما لا يكون الذوق إلا فى اللسان، والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب . فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ، ليس له لذة الألمان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . ولو كان لما صح قوله تعالى ( **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ** <sup>(١)</sup> ) فجعل من لم يتذكر بالقرءان مفلسا من القلب . ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر، وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسية ، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته والله الخلق والأمر جميعا . ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه ( **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** <sup>(٢)</sup> ) هو الأمير والملك ، لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ** » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين فى طريق تأويله وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر . فالحقيقة فضل الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهي حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا

ولنعد إلى الغرض ، فقد أرخينا الطول وطولنا النفس ، فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نورد لها .

الرتبة الثانية : رتبة المعذبين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قولك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى ( قُلِ اللَّهُ مُدْرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ <sup>(١)</sup> ) وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى ( الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا <sup>(٢)</sup> ) ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف في الآخرة ، فلا ينفك بشره عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل ، وذلك قاذح في كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . فذلك يقتضى لا محالة نقصانا في درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن . فيكون كل ماثل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقتله وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى ( وَإِنْ مِنْكُمْ <sup>(٣)</sup>

لِلْأَوَارِدِهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَنَذَرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا جَحِيمًا <sup>(٤)</sup> ) ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفاً لأننا تيقنا أن على النار واردة ، وشككنا في النجاة . ولما روى الحسن الخبر الوارد <sup>(٥)</sup> فيمن يخرج من النار بعد ألف عام ، وأنه ينادى يا حنان يا منان قال الحسن : يا ليتنى كنت ذلك الرجل .

واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد . وإن الاختلاف بالشدة لانهاية

( ١ ) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان : أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

( ١ ) الأنعام : ٩١ ( ٢ ) فصليت : ٣٠ ( ٣ ) مريم : ٧١ ، ٧٢ .

لأعلاه ، وأدناه التعذيب المناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ؛ ثم يعفو . وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب . ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع . إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط ، كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحرم ، وتعذيب الأقارب ، والضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة ، دل عليها قواطع الشرع . وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقتلها ، وكثرة السيئات وقتلها

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرته فبكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، وهو المعنى بقوله تعالى ( وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ <sup>(١)</sup> ) . وبقوله تعالى ( أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ <sup>(٢)</sup> ) . وبقوله تعالى ( وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى <sup>(٣)</sup> ) . وبقوله تعالى ( فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ <sup>(٤)</sup> ) إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة ، من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال . وكل ذلك بمدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » وقال تعالى ( وَإِنْ تَكَرَّرْتُمْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا <sup>(٥)</sup> ) فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ، ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار . فنقول كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، أعنى الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صفات متفرقة لم يصّر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط . فإنه إذا حوسب ربحته حسناته على سيئاته . إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كفارات لما بينهن . وكذلك اجتناب الكبائر

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي : مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) فصله : ٤٦ (٣) غافر : ١٧ (٤) النجم : ٣٩ (٥) الزلزال : ٨٠٧ (٥) النساء : ٤٠

بحكم نص القرآن مكفر للصغائر . وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب . وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغى أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان ، وبعد الفراغ من الحساب ، في عيشة راضية . نعم : التحاقه بأصحاب اليمين ، أو بالمقربين ، ونزوله في جنات عدن ، أو في الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدى كإيمان العوام ، يصدقون بما يستمعون ويستمعون عليه ، وإيمان كشفى يحصل بانسراح الصدر بنور الله ، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله . فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الأعلى ، وهم على غاية التقرب من الملا الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ، ومنهم من دونهم . وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة ، وبجر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يعوض فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ماسبق لهم من الله تعالى فى الأزل . فالطريق إلى الله تعالى لانهاية لما نزله فالسالكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم

وأما المؤمن إيمانا تقليديا من أصحاب اليمين . ودرجته دون درجة المقربين . وهم أيضا على درجات : فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر . وأدى الفرائض كلها ، أعنى الأركان الخمسة ، التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر ، أو أهمل بعض أركان الاسلام . فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب . لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوب المغسول كالذى لم يتوسخ أصلا

وإن مات قبل التوبة ، فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال . والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة . وكلاهما إن ماتا على الإيمان يمدنان ، إلا أن يعفو الله . عذابا يزيد على عذاب المناقشة

في الحساب . وتكون كثرة العقاب من حيث المدة ، بحسب كثرة مدة الإصرار . ومن حيث الشدة ، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع ، بحسب اختلاف أصناف السيئات . وعند انقضاء مدة العذاب ، ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين . ففي الخبر <sup>(١)</sup> « آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشْرَةَ أَضْعَافٍ » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين ، أو عشرة بعشرين ، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال . بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير ، فأعطاه مائة دينار . فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل ، فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان ، والجمل في الكفة الأخرى ، عشر عشيره . بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها ، دون أشخاصها وهياكلها ، فإن الجمل لا يقصد لثقله ، وطوله وعرضه ، ومساحته ، بل لمسايلته . فروحه المالية ، وجسمه اللحم والدم ، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية ، لا بالموازنة الجسمانية . وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة . بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال ، وقيمتها مائة دينار ، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا . ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون . فإن روح الجوهري لا تدرك بمجرد البصر ، بل بفتنة أخرى وراء البصر . فلذلك يكذب به الصبي ، بل القروي والبدوي ، ويقول ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال ، فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله . والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق . والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْجَنَّةُ فِي السَّمَوَاتِ » كما ورد في الأخبار ، والسّموات من الدنيا ،

( ١ ) حديث ان آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف : متفق عليه من حديث ابن مسعود .

( ٢ ) حديث كون الجنة في السموات : خ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألت الله فأسأله

الفرديوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن .

فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ! وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة . وكذلك تفهيم البدوى .

وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبله فى تفهيم هذه الموازنة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ارْحَمُوا ثَلَاثَةَ عَالِمًا بَيْنَ الْجُهَالِ وَعَنْيَ قَوْمٍ افْتَقَرُوا وَعَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم ، وامتحان ، وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى ، وهو المعنى بقوله عليه السلام <sup>(٢)</sup> « الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فَلِلْأَمْثَلِ »

فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام ، وهو الذى ينزل بالبدن ، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لايزيدهم دعاؤه إلى الله بالإفرا ، ولذلك لما تآذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال <sup>(٣)</sup> « رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » فإذا لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين . ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء ، بالإخراج من البلاد ، والسعاية بهم إلى السلاطين ، والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين . وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المتعاض عن الجمل الكبير جوهره صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين فإذا عرفت هذه الدقائق ، فأمن بقوله عليه السلام إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط ، فتكون حمارا برجلين ، لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس ، وإنما أنت مفارق للحمار بسره الهى ،

(١) حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال - الحديث : ابن جبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس الأئمة قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحرى واسمه وهب بن وهب أحد الكندانيين

(٢) حديث البلاء موكل بالأنبياء . ثم الأولياء . ثم الأمثل فالأمثل : الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء ولطبرانى من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون . الحديث

(٣) حديث رحم الله أخى موسى لئن أودى بأكثر من هذا فصر : البخارى من حديث ابن مسعود

عرض على السموات، والأرض، والجبال، فأبين أن يحملنه وأشفقت منه، وإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس، لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم. فن ذهل عن ذلك، وعطله وأهمله، وقنع بدرجة البهائم، ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها، ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله، فأنسأهم أنفسهم: فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس. وكل من نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقى إلا الأفق الأعلى، وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرضا لتقتمته. إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فمئذ أمانته استرجع لا محالة إلى مودعها، فإنه مرجع الأمانة ومصيرها: وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القلب الفاني وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القلب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها، إمامظامة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظامة أياضاراجعة إلى الحضرة، إذ المرجع والمصير للكل إليه، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين. ولذلك قال تعالى (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ<sup>(١)</sup>) فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون، قد انقلبت وجوههم إلى أفتيتهم وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه، ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال، والنزول إلى منازل الجهال

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر. ولا يخرج من النار إلا موحد. ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة، فلا ينفع إلا في عالم الملك، فيدفع السيف عن رقبتة، وأيدي الغانمين عن ماله. ومدة الرقبة والمال مدة الحياة. فحيث لا تبقى رقبة ولا مال، لا ينفع القول باللسان. وإنما ينفع الصدق في التوحيد. وبكال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله وعلامته أن لا ينضب على أحد من الخلق بما يجري عليه، إذ لا يرى الوسائط، وإنما يرى

(١) البسجده: ١٢



مسبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال (١) « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان » وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود . وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذى لا يترك . فأما بقية السيئات فيتسارع الفغو والتكفير إليها . ففى الأثر أن العبد ليقف بين يدي الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سامت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سب عرض هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : يا ربنا هذا قد فويت حسناته ، وبقي طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته ، وصكوا له صكاً إلى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص ، فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به . وقد حكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لا أفعل ، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى ، أريد أن أزين بها صحيفتى

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب ، يضاهاى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا بحالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال . ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء ، ونغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة

(١) حديث أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان . الحديث تقدم

لهما أسباب خفية ، ليس في قوة البشر الاطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضى إلى النجاة بالعمى والرضا ، وعمما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية ، التي لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى في القلب ؛ وهو انغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والنضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى ( وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ <sup>(١)</sup> ) ولا قوله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظُنُّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ <sup>(٢)</sup> ) وكل ذلك صحيح ، فليس للألسنة إلا ماسعى وسعيه هو الذى يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاعوا أزاع الله قلوبهم . ولما غيروا مآباً أنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقا لقوله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ <sup>(٣)</sup> ) وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا ، والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ( مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ <sup>(٤)</sup> )

الرتبة الثالثة : رتبة الناجين . وأعنى بالنجاة السلامة فقط ، دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، فلا وسيلة تقر بهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ،

(١) فصلت : ٤٦ (١) النساء : ٥٠ (٢) الرعد : ١١ (٣) النجم : ١١

ومقام بين المقامين، عبر الشرع عنه بالأعراف<sup>(١)</sup> وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار، ومن أنوار الاعتبار. فأما الحكم على العين، كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة، ويمد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والاماماء، والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة، حتى قالت عائشة رضی الله عنها<sup>(٢)</sup> لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « وَمَا يُدْرِيكَ ؟ » فإذا الأشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين. وهم العارفون دون المقلدين. وهم المقربون السابقون. فإن

( ١ ) حديث حول طائفة من الخلق الأعراف: البزار من حديث أبي سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم حصاة لآبائهم فمنعهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار - الحديث: وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر صحيح السننى ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة - الحديث: وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبى عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحزمة وعلى وجعفر - الحديث: هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين

( ٢ ) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة \* قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى في الروضة فابراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة قبل يارسل الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبرانى من حديثه سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان والنسائى من حديث الأسود بن سريع كنى فى غزاة لنا - الحديث: فى قتل الدريرة وفيه ألمان خياركم أبنا المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة - الحديث: واسناده صحيح وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة كل مولود يولد على الفطرة - الحديث: وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد الا على هذه الملة ولأبى داود فى آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرايت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث ثابت بن الحارث الأنصارى كانت يهود اذا هلك لهم صى صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه الا أنه شقى أو سعيد - الحديث: وفيه عبد الله بن لميعة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموردة فى النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذرارى المؤمنين

المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة، فهو من أصحاب اليمين. وهؤلاء هم المقربون. وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان. والقدر الممكن ذكره ما فصله القراءان، فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم. فهو الذي أجمله قوله تعالى ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ <sup>(١)</sup> ) وقوله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم. وأما الحور، والقصور، والفاكية واللبن، والعسل والخمر، والحلى والأساور، فإنهم لا يحرصون عليها، ولو أعطوها لم يقنعوا بها. ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم، فهي غاية السعادات، ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة المدوية رحمة الله عليها: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت الجارثم الدار. فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه، حتى عن أنفسهم. ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمشوقه، المستوفى هم بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ويمبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه. ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره، وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه، لأنفسه ولا غير نفسه. وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأعم والأكمه، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله، ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته، فالدنيا حجاب على التحقيق، ورفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة، وأن الدار الآخرة لهنّ الحيوان لو كانوا يعلمون

فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه

فقال مع آبائهم فقلت بلاعمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذراري الشركين قال مع آبائهم قلت بلاعمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين ولاطرائي من حديث خديجة قلت يا رسول الله أين أطفالي منك قال في الجنة. قلت بلاعمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالي قبلك قال في النار قلت بلاعمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين واستاده منقطع بين عبد الله ابن الحارث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد الشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم

## بيان

ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لاصغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » والأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سابق ولو احق من جملة الصغائر قلما يرنى الزانى بغتة من غير مرادة ومقدمات . وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعادة . فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة . ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ، ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه ، وكرهيته له . وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة . وقد جاء في الخبر <sup>(٢)</sup> « الْمُؤْمِنُ مِنْ ذَنْبِهِ كَالجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَالْمُنَافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَأَطَارَهُ » وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصى به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . لا تنظر إلى قلة الهدية ؛ وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار

( ١ ) حديث خير الاعمال أدومها وإن قل : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم

( ٢ ) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه - الحديث : البخارى من رواية الجارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا

قال بعض المارفين . لاصغيرة ، بل كل مخالفة فهي كبيرة : وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتائبين . وإنكم لتعملون أعمالا هي في أعينكم أدق من الشعر ، كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والنفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه . كما يقول : أما رأيتني كيف مزقت عرضة ؟ ويقول المناظر في مناظرته أما رأيتني كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل في التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبنته في ماله ؟ وكيف استحقتته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر ، فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها ، وظفر الشيطان به في الحبل عليها ، فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . فالمرضى الذى يفرح بأن ينكسر إناءه الذى فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ، لا يرجي شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يدرى أنه إنما يعهل مقتنا ليزداد بالإمهال إنما . فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به . فيكون ذلك لأمته من مكر الله ، وجهله بمكان السرور بالله ، كما قال تعالى ( وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُوا الْمَصِيرَ <sup>(١)</sup> )

ومنها أن يأتي الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه في مشهد غيره . فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سده عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه ، أو أشهده

وحدث لله أفرح بتوبة العبد ولم يتبين المرفوع من الوقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا

فعله . فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ، فنظمت به . فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والجل عليه ، وتهيئة الأسباب له ، صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر . وفي الخبر <sup>(١)</sup> « كُلُّ النَّاسِ مُعَاقٍ إِلَّا الْجَاهِرِينَ يَبِيْتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِدَنْبِهِ » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك السر . فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين . ولذلك قال تعالى ( الْمَلَأْنَا قُتُوبًا وَالْمَلَأْنَا فُجُورًا ) وقال بعض السلف : ما تهتك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه

ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس . العالم الإبريسم ، وركوبه مراكب الذهب ، وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته أيام بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان في الأعراض وتعمديه باللسان في المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة : فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم آمادا متطاولة . فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « مَنْ سَنَّ سَنَةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا وَوَزُرْ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » قال تعالى ( وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ) <sup>(٣)</sup> والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق . وقال بعضهم . مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق وبنفق أهلها . وفي الإسراييليات أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل في الإصلاح دهرا . فأوحى الله تعالى إلى نبهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لفقرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟ . فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر ، فعملهم وظيفتان إحداها : ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه . وكما تنضاعف أوزارهم على الذنوب ، فكذلك

( ١ ) حديث كل الناس معاق إلا الجاهرين - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ كل أمق وقد تقدم

( ٢ ) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها - الحديث : مسلم من حديث جرير بن

عبدالله وقد تقدم في آداب الكسب

(١) التوبة : ٦٧ (٢) ينى : ١٢

يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا، وقع منها باليسير ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالحق، فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام. فيكون له مثل ثوابهم . وإن مال إلى التجمل، مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرONT على التجمل إلا بخدمة السلاطين، وجمع الحطام من الحرام. ويكون هو السبب في جميع ذلك. فخر كات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها، إما بالربح، وإما بالخسران: وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها

## الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا. وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه . ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمسك . ولتمامها علامة، ولدوامها شروط. فلا بد من بيانها، أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي . وأما الندم: فهو توجع القلب عند شعوره بقوات المحبوب. وعلامته طول الحسرة، والحزن، وانسكاب الدمع وطول البكاء، والفكر. فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته، طل عليه مصيبتته وبكاؤه. وأي عز يزأعز عليه من نفسه، وأي عقوبة أشد من النار، وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا، أن مرض ولده المريض لا يبرأ، وأنه سيموت منه؛ لطل في الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى، والتعرض بالنار. فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلامة صحة الندم رقة القلب، وغزارة الدمع. وفي الخبر<sup>(١)</sup> « جَالِسُوا التَّوَابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرْقُ أَفْتِدَةٍ » ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلواتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه، وقد سأله قبول توبة عبد، بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يرب قبول توبته فقال: وعزتي وجلالي، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته، وحلاوة ذلك الذنب الذي

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة: لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فلموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرفقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمعته وأرق قلبا



تأب منه في قلبه . فإن قلت فالذنوب هي أعمال مشتهة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق ، واستلذه ، ثم مرض وطال مرضه وألمه ، وتناثر شعره . وفلجت أعضاؤه ، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم ، وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا ، لشبهه به : فوجد أن التأب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل ، وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة ، والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى ، متهاونا بالذنوب ، مصراعليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغى أن يدوم إلى الموت . وينبغى أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد تناول السم في العسل النفرة من الماء البارد ، مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه . ولم يكن ضرر التأب من سرقة وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى ، وذلك جار في كل ذنب وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محذور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضى ، وهو تدارك ما فرط . وبالمستقبل ، وهو دوام الطاعة ، ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهرا شهرا ، ويوما يوما ، ونفسا نفسا . وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ، وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها . فإن كان قد ترك صلاة ، أو صلاها في ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية . فيقضيها عن آخرها . فإن شك في عدد ما فاتته . منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ، ويقضى الباقي . وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد . وأما الصوم ، فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه ، أو أفطر عمدا ، أو نسى النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ، ويستغل بقضائه . وأما الزكاة ؛ فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبي : فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته . فإن أداه لعل وجهه يوافق مذهبه ، بأن أم يصرف إلى الأصناف الثمانية ، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، فيقضى

جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً. وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج ، فإن كان قد استطاع في بعض السنين. ولم يتفق له الخروج، والآن قد أفلس فعليه الخروج . فإن لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد . فإن لم يكن له كسب ولا مال ، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً. قال عليه السلام (١) « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحْجَّ فَلَيْمَتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا » والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصي، فيجب أن يفحص من أول بلوغه عن سمعه، وبصره ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها. فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العبادة كنظر إلى غير محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة، ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة، وشرب خمر وسماع ملاء، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العبادة، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها. فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذ من قوله صلى الله عليه وسلم (٢) « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا » بل من قوله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (١) ) فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبجالس الذكر. ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة. ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تقبيله، وبأن يكتب مصحفاً ويحمله وقفاً. ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال، وهو أطيب منه وأحب إليه. وعديم المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة . فإن المرض يعالج بضده. فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يحجوها إلا نورير تقع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تحي كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة. وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً - الحديث : : تقدم في الحج

(٢) حديث اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم

أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس

المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشئ يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها ، والحنين إليها . فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له . إذ القلب يتجافى بالهموم والنموم عن دار الهموم . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مِنْ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لَا يَكْفُرُهَا إِلَّا الِهُمُومُ » ، وفي لفظ آخره « إِلَّا الِهِمُّ يَطْلُبُ الِمْيَسَةَ » ، وفي حديث عائشة رضيت الله عنها <sup>(٢)</sup> « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ تُكْفِرُهَا أَدْخَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الِهُمُومَ فَتَكُونُ كَفَّارَةً لِدُنُوبِهِ » . ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لا يعرفه ، هو ظلمة الذنوب والهموم بها . وشعور القلب بوقفة الحساب وهو المطلع : فإن قلت : هم الإنسان غالباً بما له ولده وجاهه ، وهو خطيئة ، فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة ، والحرمان عنه كفارة . ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف عليه السلام فى السجن ، فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة تكلى ، قال فما له عند الله ؟ قال أجر مائة شهيد . فإذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله . فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً . فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر ، وترك مثله فى المستقبل ، والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها . فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال . ويكفر تناول أعراضهم بالغبية والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين ، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله . ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء ، إذ العبد مفقود لنفسه ، موجود لسيدته . والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه ، فيقابل الإعدام بالإيجاد . وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع ، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة . ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ، ما لم يخرج عن مظالم العباد . ومظالم العباد إما فى النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو القلوب . أعنى به الإيذاء

( ١ ) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفى لفظ آخر الهم فى طلب العيشة : طس وأبو نعيم

فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وتقدم فى النكاح

( ٢ ) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الهموم : تقدم أيضاً فى النكاح

وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحرز

المحض . أما النفوس، فإن جرى عليه قتل خطأ، فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إمامه أو من عاقلته، وهو في عهدة ذلك قبل الوصول: وإن كان عمداً موجبا للقصاص فبالقصاص. فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم، ويحكمه في روحه، فإن شاء عقاه عنه، وإن شاء قتله. ولا تسقط عهده إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء. وليس هذا كالوزني، أو شرب، أو سرق، أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يستتر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب. فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين. فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد، وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما روي<sup>(١)</sup> أن معاذ بن مالك، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنني قد ظلمت نفسي وزينت، وإنني أريد أن تطهرني. فردده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إنني قد زينت. فردده الثانية. فلما كان في الثالثة، أمر به فخر له حفرة، ثم أمر به فرجم. فكان الناس فيه فريقين. فقاتل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته. وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ »<sup>(٢)</sup> وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله، إنني قد زينت فطهرني. فردها. فلما كان من الغد قالت يا رسول الله، لم تردني؛ لعلك تريد أن تردني كما رددت معاذاً. فوالله إنني لجلبي. فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَّا الْآنَ فَأَذْهَبِي حَتَّى تَضَعِي » فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة. فقالت هذا قد ولدته. قال « اذْهَبِي فَأَرْضِعِي حَتَّى تَقْطِئِيهِ » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز، فقالت يا نبي الله، قد فطمته. وقد أكل الطعام. فدفعت الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فخر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجهه، فسبها. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال « مَهْلًا يَا خَالِدُ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَكُفِّرَ لَهُ » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

وأما القصاص وحد القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان المتناول مالا تناوله

( ١ ) حديث اعتراف معاذ بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعاً وقوله لقد تاب توبة - الحديث:

مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

( ٢ ) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورحمها وقوله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة - الحديث: مسلم

من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله

بغصب، أو خيانة، أو غبن في معاملة بنوع تليس، كتر ويحزائف، أو ستر عيب من المبيع، أو نقصن  
أجرة أجير، أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه، بل من أول مدة وجوده.  
فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراج بعد البلوغ، إن كان الولي قد قصر فيه . فإن لم يفعل  
كان ظالما مطالباً به، إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ. وليحاسب نفسه على الحيات  
والدوائق من أول يوم حياته إلى يوم توبته. قبل أن يحاسب في القيامة: ولينا فاش قبل أن يناقش. فمن  
لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه. فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من  
الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحداً واحداً، وليطف في نواحي العالم  
وليطلبهم، وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم. وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار، فإنهم  
لا يقدر على طلب المساملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم. ولكن على كل  
واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه. فإن عجز فلا يبق له طريق إلا أن يكثر من الحسنات،  
حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته  
بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم؛ فيهلك بسيئات غيره  
فهذا طريق كل تائب في رد المظالم. وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر  
بحسب طول مدة الظلم. فكيف ذلك مما لا يعرف، وربما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون  
تشميره للحسنات والوقت ضيق، أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات. هذا  
حكم المظالم الثابتة في ذمته. أما أمواله الحاضرة. فليرد إلى المالك ما يعرف له مالاً كامعينا.  
وما لا يعرف له مالاً فعليه أن يتصدق به. فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام  
بالاجتهاد، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام. وأما الجناية  
على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم في الغيبة، فيطلب كل من تعرض له بلسانه، أو آذى  
قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحداً واحداً منهم. ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك  
إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً في القيامة. وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه، فذلك  
كفارته. وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له. فلا يستحلل المهم لا يكفي. وربما عرف ذلك  
وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال، وأدخرك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته،  
أو يحمله من سيئاته. فإن كان في جملة جنائبه على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بجرته، كزناه بجارته  
أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفا يعيب به، يعظم أذاهمها شوقه به، فقد أنسد عليه طريق

الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها، ثم تبقى له مظامة فليجبرها بالحسنات، كما يجبر مظامة الميت والغائب. وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته، وعرفه المجنى عليه، فلم تسمح نفسه بالاستحلال، بقيت المظامة عليه، فإن هذا حقه. فعليه أن يتلطف به، ويسعى في مهيباته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة. فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، سمحت نفسه بالإحلال يا.. أبي إلا الإصرار، فيكون تلطفه واعتذاره إليه من جملة حسناته، التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته. وليكن قدر سعيه في فرحه، وسرور قلبه بتودده وتلطفه، كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر، أو زاد عليه. أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه. كمن أتلف في الدنيا مالا، فجاء بمثله، فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي. وكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين، وأعدل المقسطين : وفي المتفق عليه من الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال <sup>(١)</sup> « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَعَنَ عَلَى رَأْسِ رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ لَعَنَ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحْوِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ فَأَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نِصْفُ الطَّرِيقِ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْمَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْمَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَمًا بَيْنَهُمْ فَقَالَ قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيُّنَهُمَا كَانَ آدَمِيٌّ فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ آدَمِيٌّ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ » وفي رواية « فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِيرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا » وفي رواية « فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي وَقَالَ قَيْسُوا مَا بَيْنَهُمَا فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَغَفِرَ لَهُ »

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أهل الأرض - الحديث - هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد

فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمئةقال ذرة. فلا بد للتائب من تكثير الحسنات، هذا حكم القصد المتعلق بالماضى

وأما العزم المرتبط بالاستقبال، فهو أن يعقد مع الله عقداً، وكذا، ويعاهده بههد وثيق، أن لا يعود إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها. كالذى يعلم في مرضه أن الفاكهة تبصره مثلاً، فيعزم عزمًا جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه. فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثانى الحال. ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال. ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة، والصمت وقلة الأكل والنوم، وإجراز قوت حلال. فإن كان له مال موروث حلال، أو كانت له حرفة يكسب بها قدر الكفاية، فليقتصر عليه. فإن رأس المعاصى أكل الحرام. فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه. ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات. وقد قال بعضهم: من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار، لم يتل بها وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً، أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل. وما يحرم عليه، حتى يمكنه الاستقامة. وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغضب مثلاً، وليست هذه توبة مطلقة. وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح. وقال قائلون: تصح. ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل. بل تقول لمن قال لا تصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً، بل وجوده كدمه، فما أعظم خطأك، فإننا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب، وقتلها سبب لقتله. وتقول لمن قال تصح، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز، فهذا أيضاً خطأ. بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر. ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح: إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم: وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية، لا لكونها سرقة. ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية، فإن العلة شاملة لهما، إذ من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين، لأن توجهه بفوات محبوب به سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجه العبد بفوات محبوبه، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا، فكيف يتوجه على البعض دون البعض، فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفقوة للمحجوب من حيث إنها معصية. فلا يتصور أن

يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدين دون الآخر، فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد، وإنما الدنان ظرف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصور الندم على بعض التماثلات فهو كالمملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول تقول إن العقد لا يصح، لم ترتب عليه الثمرة وهو أى الملك. وتحقيق هذا أن ثمره مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمره الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة، بل الندم عليها. ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي

وهو كلام مفهوم واقع، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر، فأمر ممكن. لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله، وأجلب لسخط الله ومقتته. والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه. كالذي يجنى على أهل الملك وحرمه، ويجنى على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل، مستحقراً للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع. فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية، ولم يكن أحد منهم معصوماً. فلا تستدعي التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه، على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر. فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته، ندم على أكل العسل دون السكر، الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن. لا اعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله. كالذي يتوب عن القتل، والنهب، والظلم ومظالم العباد، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه. فهذا أيضاً ممكن، كما في تفاوت الكبائر والصغائر. لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد متركبها. ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعبادة، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري، فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف، يوجب ذلك تركه في المستقبل وندماً على الماضي. الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر، وهو مضر على كبيرة يعلم أنها كبيرة.



كالذى يتوب عن الغيبة، او عن النظر إلى غير المحرم، أو ما يجرى مجراه، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه، ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجودا، ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم، ولا قويا عليه. فإن سلم عن شهوة أقوى منه، بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف، قهر الخوف الشهوة وغلبها، وأوجب ذلك ترك المعصية. وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر، فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة ما بالغبية، وثلب الناس، والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية. فيوجب عليه جنود الخوف انبعاث العزم للترك، بل يقول هذا الفاسق في نفسه إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي، فلا ينبغي أن أخلم العذار وأرخصي العنان بالسكينة، بل أجاهده في بعض المعاصي، فعمسائي أغلبه، فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى. ولولم يتصور هذا المتصور من الفاسق أن يصلى ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فترك الفسق لله، فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى، ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول. لله تعالى على أمران، رلى على المخالفة فيها عقوبتان. وأنا ملى فى أحدهما بقهر الشيطان، عاجز عنه فى الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى. فكيف لا يتصور هذا، وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا. وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها. والخوف إذا كان من فعل ماض أورت الندم، والندم يورث العزم. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « التَّوْبَةُ تَوْبَةٌ » ولم يشترط الندم على كل ذنب. وقال « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل: إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة، لأنهم ما أتت في حق الشهوة، وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ، لتفلوتها فى اقتضاء السخط. ويتوب عن الكثير دون القليل، لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه، ويترك بعض شهوته لله تعالى. كالمرضى الذى حذره الطبيب الفاكهة، فإنه قد يتناول قليلا، ولكن لا يستكثر منها. فقد يحصل من

هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقى عليه. إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب، تصور اختلاف حاله في الخوف والندم؛ فيتصور اختلاف حاله في الترك، فندمه على ذلك الذنب، ووقاؤه بعزمه على الترك، يلحقه عن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي . فإن قلت هل تصبح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول لا. لأن التوبة عبارة عن ندم يعمت العزم على الترك فيما يقدر على فعله. وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه. ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق، وتحسروندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فإن أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه، وما حيا عنه سيئته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة، ومات عقيب التوبة، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة. وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغا مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا أو ظهر قصده . فإذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه. فإن كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادر على تركه بأدنى خوف. والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه. بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: أحدهما حرقه الندم، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محو هادون المجاهدة. ولولا هذا قلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة، يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة. وذلك مما لا يبدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا . فإن قلت: إذا فرضنا تائبين، أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب، والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها. فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه. فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سلمان الداراني: إن المجاهد أفضل، لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل، لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة. والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له طلقان أحدهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا. إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه، واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوة اليقين،

وعلى قوة الدين . وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين، وتقع الشهوة المنبمئة بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً . وقول القائل إن هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب ، فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل ، لأنه فى أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ ، لأنه أسلم . والمفاس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه ، لأن المفلس لا عدو له ، والملك ربما يُغلب مرة وإن غاب مراراً . وهذا كلام رجل سليم القلب ، قاصر النظر على الظواهر ، غير عالم بأن العز فى الأخطار ، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل هو كقول القائل : الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب ، أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمع به فرسه ، فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض ، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه . وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالماً بطريق تأديهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد .

الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة . إذ بانغ مبلغا تقع هيجان الشهوة ، حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين . وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقتاس لهيجان الشهوة وقمعها . وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصوداً لعينه . بل المقصود قطع ضراوة العدو ، حتى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين . فإذا فترته وحصلت المقصود ، فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة ، فأنت بعد فى طلب الظفر . ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه ، بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ، ولا يدري كيف يسلم . ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح ، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقدزل فى هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالسكينة مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه ، فقال هذا محال ، فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة ، واسترسل فى اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس

من ربح المهلكات . فإن قلت : فما قولك في تائبين ، أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه ،  
والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه ، فأيهما أفضل ؟  
فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه . فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك .  
وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذهبين عندنا حق ، ولكن بالإضافة  
إلى حالين . وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه  
فقط ، ولا يهمه حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة  
والإرادة والجد ، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه ، لا يهمه أمر غيره . إذ طريقه  
إلى الله نفسه ، ومنازله أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم . فالطرق إلى الله تعالى كثيرة  
وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدي سبيلاً ، مع الاشتراك في أصل  
الهداية . فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه ، كإل في حق المبتدئ . لأنه إذا نسيه لم  
يكتر احتراقه ، فلا تقوى إرادته وانبعائه لسلك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف  
الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان . فإنه شغل مانع عن سلوك  
الطريق . بل سالك الطريق ينبغي أن لا يرجع على غير السلوك . فإن ظهر له مبادئ الوصول ،  
وانكشفت له أنوار المعرفة ولو أمع الغيب ، استغفره ذلك ، ولم يبق فيه متمسك للالتفات إلى ماسبق  
من أحواله ، وهو الكمال ، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد دهر حاجز ، طال تعب  
المسافر في عبوره مدة ، من حيث إنه كان قد خرب جسر من قبل . فلو جلس على شاطئ النهر  
بعد عبوره ، يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر ، كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك  
المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل ، بأن كان ليلا فتعذر السلوك ، أو كان على طريقه أنهار  
وهو يخاف على نفسه أن يمر بها ، فيلطل بالليل بكأوه وحزنه على تخريب الجسر ، ليتأكد بطول  
الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله . فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله ،  
فسلك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه . وهذا لا يعرفه  
إلا من عرف الطريق ، والمقصد ، والعائق ، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب  
العلم ، وفي ربح المهلكات . بل تقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير التفكير في النعيم في الآخرة  
لتزيد رغبته . ولكن إن كان شاباً ، فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور  
والقصور . فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغي أن

يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط . فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة . فالمبتدى أيضا قد يستضر به . فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود و نياحته عليه السلام فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج ، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأمرهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم ، فعليهم التلبس بما تنفع أممهم عشا هدته ، وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم . فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويحوض معه فيها ، وقد كان مستغنيا عنها فراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «أما إني لأنسى ولكنى أنسى لأشرع» وفي لفظ «إنا أسهو لأنسن» . ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشى في كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي ، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي ، كما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «لحسن كنج كنج» لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه . وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه التمرة فإنها حرام . ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقته ، ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته . بل الذى يعلم شاة أو طائرا ، يصوت به رغاء أو صفير أو تشبها بالبهيمة والطائر ، تلتطفا في تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق ، فإنها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

(١) حديث أما إني لأنسى ولكنى أنسى لأشرع : ذكره مالك بلاغا بغير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسل لا اسناد له وكذا قال حمزة الكنانى إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطى وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبته الحديث أنه وقع له مسندا

(٢) حديث أنه قال للحسن كنج كنج لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه : البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام



فهرست الجزء الحادى عشر





## فهرست الجزء العادى عشر

صفحة		صفحة	
١٩٧٦	علاج التكبر بالقوة	١٩٣٢	<b>كتاب ذم الكبر والعجب</b>
١٩٧٧	علاج التكبر بالمال والجاه	١٩٣٣	<b>الشرط الأول من الكتاب في الكبر</b>
١٩٧٩	علاج التكبر بالعلم		بيان ذم الكبر
١٩٨٢	التكبر على المبتدعين والفساق		الآيات التى بها ذم الكبر
١٩٨٤	علاج التكبر بالورع والعبادة		أحاديث ذم الكبر
١٩٨٧	الامتحانات التى تبين زوال الكبر عن القلب	١٩٣٧	<b>بيان ذم الاختيال واطهار آثار الكبر</b>
١٩٨٨	بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع	١٩٣٨	فى المشى وجر الثياب
١٩٩٠	الشرط الثانى من الكتاب فى العجب	١٩٣٩	الآثار فى ذم الكبر
١٩٩١	بيان ذم العجب وآفاته	١٩٤٢	بيان فضيلة التواضع
١٩٩٢	بيان آفة العجب	١٩٤٦	الآثار فى ذم الكبر ومدح التواضع
١٩٩٧	بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما	١٩٤٧	بيان حقيقة الكبر وآفته
١٩٩٨	بيان علاج العجب على الجملة		الفرق بين الكبر والعجب
٢٠٠٠	بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه		بعض أعمال المتكبرين
٢٠٠١	العجب بالبدن وعلاجه	١٩٤٩	<b>بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه</b>
٢٠٠٢	العجب بالقوة وعلاجه		وثمرات الكبر فيه
٢٠٠٣	العجب بالعقل الراجح وعلاجه	١٩٥٢	<b>بيان مابه التكبر</b>
٢٠٠٦	العجب بالنسب وعلاجه	١٩٥٣	العلم
٢٠٠٧	الشفاعة ولمن تكون	١٩٥٤	العلم مع خبيث النفس
٢٠٠٨	العجب بنسب السلاطين الظلمة وعلاجه	١٩٥٥	العمل والعبادة
٢٠٠٩	العجب بكثرة الأولاد والاتباع وعلاجه	١٩٥٧	درجات العلماء والعباد
٢٠١٠	العجب بالمسال وعلاجه	١٩٥٩	الحسب والنسب
٢٠١١	العجب بالرأى الخطأ	١٩٦٠	الجمال . المال
٢٠١٢	<b>كتاب ذم الفرور</b>	١٩٦١	القوة . الاتباع
٢٠١٣	بيان ذم الفرور وحقيقته وأمثله		<b>بيان البواعث على التكبر وأسبابه</b>
٢٠١٤	فرور الكفار		المهيجة له
٢٠١٥	بيان أصناف المفتريين وأقسام فرق كل	١٩٦٣	<b>بيان أخلاق المتواضعين ومجامع</b>
٢٠١٦	صنف وهم أربعة أصناف		ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر
٢٠١٧	فرور من يعظون بالفرز		بعض صفات المتكبرين
٢٠١٨	فرور من يحفظون كلام الزهاد دون ان يفقهوها	١٩٦٩	<b>بيان الطريق فى معالجة الكبر</b>
٢٠١٩		١٩٧٢	واكتساب التواضع له
٢٠٢٠		١٩٧٤	الانسان بعد الموت
٢٠٢١		١٩٧٥	علاج التكبر بالنسب
٢٠٢٢			علاج التكبر بالجمال

صفحة	كتاب التوبة
٢٠٧٠	بيان حقيقة التوبة وحدها
٢٠٧٢	بيان وجوب التوبة وفضلها
٢٠٧٣	لزوم التوبة للعبد
٢٠٧٤	فرح الله بتوبة العبد
٢٠٧٥	بحث في أفعال العبد وهل له اختيار
٢٠٧٦	وجوب التوبة بجميع أجزائها
٢٠٧٩	بيان ان وجوب التوبة على الفور
	بيان أن وجوب التوبة عام في
	الأشخاص والأحوال فلا ينفك منه
٢٠٨٢	أحد البتة
	بيان أن التوبة اذا استجمعت شرائطها
٢٠٨٨	مقبولة لا محالة
	الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي
٢٠٩٣	الذنوب صفاتها وكبائرها
	بيان أقسام الذنوب بالأضافة الى
	صفات العبد
٢٠٩٥	انقسام الذنوب الى صفائر وكبائر
	تحديد الكبائر من الصفائر
	تحرير الغزالي في الفرق بين الصغيرة
٢٠٩٩	والكبيرة
٢١٠٠	المرتبة الأولى من الكبائر الكفر
	المرتبة الثانية من الكبائر القتل
	قطع الأطراف
	الزنا واللواط
٢١٠١	المرتبة الثالثة من الكبائر
	السرقه . اكل مال اليتيم . شهادة
	الزور
	اليمين الغموس
	أكل الربا
٢١٠٢	شرب الخمر
	القذف . السحر
٢١٠٣	الفرار من الزحف وعقوق الوالدين
	بيان كيفية توزع الدرجات والدرجات
	في الآخرة على الحسنات والسيئات
٢١٠٥	في الدنيا
٢١٠٧	أقسام الناس في الآخرة
٢١٠٨	الهالكون

صفحة	غرور سماع الأحاديث
	بحث في سماع الحديث على الوجه
	الصحيح
٢٠٤١	غرور علماء اللغة
٢٠٤٢	« الفقهاء باستنباط الحيل وأمثله
	اكراه الزوجة لأبراء زوجها
٢٠٤٣	الهبة بالتوريث
٢٠٤٤	الاحتياال للتخلص من الزكاة
	احتياال الفقهاء لأخذ الحاجة من المال
٢٠٤٦	الغرور في الصوم
	الغرور في الحج
	غرور الأمرين بالمعروف والناهين عن
	المنكر
٢٠٤٧	« المجاورين بمكة والمدينة
	« الزهاد
	« الحريصين على النوافل دون
٢٠٤٨	الفرائض
٢٠٥٠	« مدعى التصوف
٢٠٥١	« المتشبهين بالصوفية
	« مدعى الوصول
٢٠٥٢	« الإباحيين من مدعى التصوف
	« مدعى الزهد والتوكل
٢٠٥٣	« طالبى الحلال فى شأن واحد
	« مدعى التواضع
	« التعمقين فى البحث عن عيوب الناس
٢٠٥٤	« المبتدئين فى سلوك الطريق
	« التجلى
	« بناء المساجد وغيرها من الحرام
٢٠٥٦	لتخليد ذكراهم
	« الانفاق على المساجد من الحلال
٢٠٥٧	« المتصدقين فى العلانية
٢٠٥٨	« البخلاء المشتغلين بالعبادة البدنية
٢٠٥٩	« من يؤدى الزكاة لفرض
	« من يحضر مجلس الوعظ ولا يتعظ
	سهولة النجاة من الغرور
٢٠٦٠	كيفية النجاة من الغرور
٢٠٦٢	خداع الشيطان للمتقين
٢٠٦٥	متى يجوز الاشتغال بنصح الناس

صفحة		صفحة	
	التوبة من ترك الصوم	٢١٢١	بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب استصغار الذنب
	التوبة من ترك الزكاة		
٢١٢٦	التوبة من ترك الحج	٢١٢٢	السرور بالصغيرة التهاون بستر الله وحلمه اعلان الذنب
	التوبة من المعاصي		
	المعاصي التي بين العبد وبين الله	٢١٢٣	ذنوب العلماء المقتدى بهم
٢١٢٧	مظالم العباد		
٢١٣٠	نجاة المرء برجحان ميزان حسناته	٢١٢٤	الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها الى آخر العمر
	أيهما أفضل عبد نسي الذنب أم آخر		
٢١٣٦	يتفكر فيه	٢١٢٥	كيفية التوبة من نرك الصلاة أو فسادها



كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثاني عشر

دار الشعب  
٩٤ شارع فلسطين، القاهرة ٢١٨١٠



# بيان

أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره . فيتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة . فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية . وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَصَعَّ الذُّكْرُ عَنْهُمْ أَوْ زَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خَفَافًا » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضمنها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ، ففتر تراعى ، ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ، ولكنه ملي بمجاهدتها ورددتها .

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلّة وباختلاف المدة ، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته ، يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ، ومن مهمل طال جهاده وصبره . وتمادت استقامته وكثرت حسناته ، وحال هذا أعلى وأفضل ، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة ، حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات ، مع صدق الشهوة ، ثم يصبر عنه ، ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى . واشتراط هذا بعيد ، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق ، فتهيج الشهوة ، وتحضر الأسباب حتى يتمكن ، ثم يطعم في الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره ، فيقدم على المعصية ، وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له ، حتى

(١) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله - الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم

يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه، فبه تسلم توبته في الابتداء  
الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، وترك كبار الفواحش  
كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلى بها في  
مجارى أحواله، من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها. ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه  
وندم وتأسف، وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تمرضه لها وهذه  
النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من  
الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتحمين رأى وقصد. وهذه أيضا رتبة عالية، وإن  
كانت نازلة عن الطبقة الأولى. وهي أغلب أحوال التائبين. لأن الشر معجون بطينة الآدمي  
قلما ينفك عنه. وإنما غاية سعيه أن يغلّب خيره شره، حتى يتقل ميزانه، فترجح كفة  
الحسنات. فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات، فذلك في غاية البعد وهو لا لهم حسن الوعد  
من الله تعالى، إذ قال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ  
رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ<sup>(١)</sup>)

فكل إلمام يقع بصغيرة، لا عن توطين نفسه عليه، فهو جدير بأن يكون من اللمم المغفور  
فيه. قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا  
لِذُنُوبِهِمْ<sup>(٢)</sup>) فأتى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل  
هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه عنه عليّ كرم الله وجهه<sup>(٣)</sup>  
«خياركم كلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ» وفي خبر آخر<sup>(٤)</sup> «المؤمن كالسنبلة ينفى أحيانًا ويميل  
أحيانًا»، وفي الخبر<sup>(٥)</sup> «لأبد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة، أي الحين بعد الحين

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب: البيهقي في الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث المؤمن كالسنبلة تنف. أحيانًا ويميل أحيانًا: أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس  
والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وكها ضعيفة  
وقالوا تقدم بدل تنف. وفي الأمثال للرامهرمزي إسناده جيد حديث أنس

(٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني: والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة

(٤) النجم: ٣٢ (٢) ل عمران: ١٣٥



فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة  
المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين ، كالطبيب الذي يؤيس الصحيح  
عن دوام الصحة ، عما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى ، من غير مداومة  
واستمرار . وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء ، بفتوره عن التكرار  
والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه  
بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات ، بما يتفق لهم من  
الفترات ومقارفة السيئات المختطفات . قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « كُلُّ بَنِي آدَمَ  
خَطَاءٌ وَنَ وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَابُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ » وقال أيضا <sup>(٢)</sup> « الْمُؤْمِنُ وَاهٍ رَاقِعٌ \*  
فَخَيْرُهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَى رَقْعِهِ ، أَيْ وَاهٍ بِالذُّنُوبِ ، رَافِعٌ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةُ وَالتَّوْبَةُ وَالتَّوْبَةُ  
أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ عَمَّا صَبَرُوا وَبَدَرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ <sup>(٣)</sup> » فما وصفهم بعدم السيئة أصلا  
الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب  
فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على  
الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة  
أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قهرها ، وكفاه شرها . هذا أمينته في حال قضاء  
الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول : ليتني لم أفعلها ، وسأتوب عنه ، وأجاهد نفسي في  
قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى ، ويوما بعد يوم . فهذه  
النفس هي التي تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وَأَخْرَجْنَا  
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا <sup>(٤)</sup> ) فأمره من حيث مواظبته على  
الطاعات وكرهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث

(١) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون : الترمذي واستخر به والحاكم وصحح إسناده

من حديث أسد وقال التوابون بدل المستغفرون \* قلت فيه علي بن مسعدة ضعفه البحاري

(٢) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعته : الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند

ضعيف وقالوا فسميد بدل فخيرهم

\* راقع : أي يهيئ ديبه بمصيته ويرقع بتوبته من رقعته التوب إذا رقعته

(٣) القصص : ٥٤ (٢) التوبة : ١٠٢

تسويفه وتأخير ه ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره في المشيئة : فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة : التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تمذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء في حقه . وإذا بسرت له أسباب المواظبة على التحصيل ، دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سماعات الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات ؛ بحكم تقدير مسبب الأسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس ، الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا ، بترك الكسل ، والمواظبة على تفتيحه النفس . فكما لا يصلح لمنصب الرياسة ، والقضاء ، والتقدم بالعلم ، إلا نفس صارت فقيهة بطول التفتيحه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ، ولا للقرب من رب العالمين ، إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التركية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا )<sup>(١)</sup> فهما وقع العبد في ذنب ، فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنْ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ فَيَنْسَبُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا »

فإذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع في المحذور ، ودامت الحشرات حين لا ينفع التحسر الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله . بل ينهمك أنهماك

(١) حديث ابن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة - الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة وشهر مختلف فيه

الغافل في اتباع شهواته . فهذا من جملة المصيرين . وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير . ويخاف على هذا سوء الخاتمة ، وأمره في مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده ، وأن يجلس في البيت ليحمله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كانت الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز في المواضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من أجز استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له . فالناس كلهم محرومون إلا العالمون ، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون ، والعالمون كلهم محرومون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

وكما أن من خرب بيته وضع ماله ، وترك نفسه وعياله جياعا ، يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض في بيته الخرب ، يمد عند ذوى البصائر من الحق والمفرورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنوب ، غير سالك سبيل المغفرة ، يمد عند أرباب القلوب من المعتوهين

والمعجب من عقل هذا المعتوه ، وترويقه حماقته في صيغة حسنة ، إذ يقول . إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثلى ، ومعصيتي ليست تضره . ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأوعار في طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس بضررك ، فاجلس في بيتك فمساها يرزقك من حيث لا تحسب فيستجق قائل هذا الكلام ويستهر به ، ويقول . ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وإعما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، ولا تبديل لسنة الله . ولا يعلم المفرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل

لهافيهما جميعا . وأنه قد أخبر إذ قال ( وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى <sup>(١)</sup> ) فكيف  
يمتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا . وكيف يقول . ليس مقتضى الكرم  
الفتور عن كسب المال ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن  
ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في  
غالب الأمر في الدنيا . وينسي قوله تعالى ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ <sup>(٢)</sup> )  
فنعوذ بالله من العمى والضلال . فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس ، وانغماس في ظلمات  
الجهل : وصاحب هذا جدير بأن يكون داخل تحت قوله تعالى ( وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ  
نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا <sup>(٣)</sup> ) أى أبصرنا  
أنك صدقت إذ قلت ( وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى <sup>(١)</sup> ) فارجعنا نسعى . وعند ذلك  
لا يمكن من الانقلاب ، ويحقق عليه المذاب : فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب  
السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب

## بيان

ما ينبغي أن يبادر إليه الثائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبية أو عن إمام بحكم الانفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة ، والندم ، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده ، كما ذكرنا  
طريقه . فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين  
قلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني ، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليجوها ، فيكون بمن خلط  
عملا صالحا وآخر سيئا ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب ، وإما باللسان ، وإما بالجوارح .

ولتكن الحسنة في محل السيئة ، وفيما يتعلق بأسبابها

فأما بالقلب ، فيكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل بتذلل العبد  
الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد ، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . فما للعبد  
الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد . وكذلك يضمم بقلبه الخيرات للمسلمين ،  
والعزم على الطاعات

(١) النجم : ٣٩ (٢) الذاريات : ٢٢ (٣) السجدة : ١٢

وأما باللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي . وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ، كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار وأما بالجوارح ، فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات . وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا تبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا . أربعة من أعمال القلوب ، وهي التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله بعدها سبعين مرة ، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوماً . وفي بعض الآثار <sup>(١)</sup> : تسبع الوضوء ، وتدخل المسجد وتصلي ركعتين . وفي بعض الأخبار <sup>(٢)</sup> : تصلي أربع ركعات . وفي الخبر <sup>(٣)</sup> « إِذَا عَمَلْتَ سَيِّئَةً فَاتَّبِعْهَا حَسَنَةً تُكَفِّرْهَا السَّرُّ بِالسَّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ » ولذلك قيل : صدقة السر تكفر ذنوب الليل ، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار .

وفي الخبر الصحيح <sup>(٤)</sup> ، أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنى عاجلت امرأة

( ١ ) أنران من مكفرات الذنب أن تسبع الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين : أصحاب السنن من حديث

أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فعمل المصنف عبر بالأثر لارادة الموقف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي

( ٢ ) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات : ابن مردويه في الفسیر والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس

قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة - الحديث : وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فلما هو مثل الهدبة فقام نادماً فأتى النبي

صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفي النهار الآية وأسناده جيد

( ٣ ) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية : البيهقي في الشعب من حديث معاذ

وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر - الحديث :

( ٤ ) حديث أن رجلاً قال يا رسول الله إنى عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء - إلا اليسير - الحديث :

في نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن

حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم - الحديث :

فأصبت منها كل شيء إلا المسيس . فاقض على بحكم الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم  
 « أَوْ مَا صَلَّيْتَ مَعَنَا صَلَاةَ الْفَدَاةِ » قال بلى . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبُنَ  
 السَّيِّئَاتِ » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة . إذ جعل الصلاة كغفارة  
 له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ »  
 فملى الأحوال كلها، ينبى أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع سيئاته، ويجهتد في دفعها بالحسنات.  
 فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار ، وفي الخبر (١)  
 « الْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَأَلْسْتَهْرِيءَ بِآيَاتِ اللَّهِ » وكان بعضهم يقول:  
 أستغفر الله من قولي أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة  
 المدوية : استغفارتنا يحتاج إلى استغفار كثير

فاعلم : أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، ذكرناها في كتاب الأذكار  
 والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى ( وَمَا  
 كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) (١) فكان بعض  
 الصحابة (٢) يقول : كان لنا أمانان ، ذهب أحدهما . وهو كون الرسول فينا ، وبقي الاستغفار  
 معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون  
 للقلب فيه شركة . كما يقول الإنسان بحكم المادة وعن رأس الغفلة . أستغفر الله . وكما  
 يقول إذا سمع صفة النار . نموذ بالله منها . من غير أن يتأثر به قلبه . وهذا يرجع إلى مجرد  
 حركة اللسان ، ولا جدوى له . فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وابتهاله  
 في سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة ، فهذه حسنة في نفسها ، فتصلح

( ١ ) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى . آيات الله : ابن أبي الدنيا في التوبة من طريقه

البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزى . بره وسنده ضعيف

( ٢ ) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما

أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه أنزل الله علي أمانين - الحديث :

وصعقه وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس

لأن تدفع بها السيئة . وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار . حتى قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي أَيَّامِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وأوائلها لا تحلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لا بد للعبد في كل حال من مولاه . فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء : فإن عصي قال يارب استر علي . فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي . فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة . وإذا عمل قال يارب تقبل مني .

وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإجابة ، ثم التوبة . فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإجابة أعمال القلوب . والتوبة إقباله على مولاه ، بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الأفراد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم الفكر . ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاتة ثم محادثة السر ، وهو الخلة . ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتوكل صاحبه . ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش

وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ » فقال . إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ <sup>(١)</sup>) الآية . وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه

والمقصود أن للتوبة ثمنتين . إحداهما تكفير السيئات ، حتى يصير كمن لا ذنب له والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيبا . وللتكفير أيضا درجات : فبعضه نحو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتبدارك بالجنس ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات : فليس يخلو عن الفائدة أصلا . فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كمدبها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها ، أن قول الله تعالى (قَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ <sup>(٢)</sup>) صدق

(١) حديث ما أصر من استغفر - الحديث : تقدم في الدعوات

(٢) التوبة : ١١٢ (٢) الزلزال : ٧

وأنه لا تخلو ذرة من الخبير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر، لكانت الثانية مثلها، ولكن لا يرجح الميزان بأحمال الذرات. وذلك بالضرورة محال. بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيتها، وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء، تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غنى يحصل بخيط؟ وما وقع ذلك في الثياب؟ ولا تدرى المتوهمة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً. بل أقول الاستغفار باللسان أيضاً حسنة. إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم، أو فضول كلام. بل هو خير من السكوت عنه. فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه. وإعما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرءان وقلبي غافل، فقال: اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك في الخير، وعوده الذكر، ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق. فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع، يدفع جملة من المعاصي. فن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى مانوعه فقال: استغفر الله. ومن تعود الفضول، سبق لسانه إلى قول: ما أحقك، وما أوجب كذبك! ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير، قال بحكم سبق اللسان. نموذ بالله، وإذا تعود الفضول قال: لعمرك الله. فيعصى في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى. وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ<sup>(١)</sup>) ومعاني قوله تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(٢)</sup>) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك المادة شر العصيان بالغبية واللغو والفضول، وهذا تضييع في الدنيا لأدنى الطاعات: وتضييع الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون

(١) التوبة: ١٢٠ (٢) النساء: ٤٠



فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات ، فتفتقر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانتقم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات

أما السابق : فقال صدقت ياملعون ، ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب . فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه

وأما الظالم المغرور ، فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدققة ، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب ، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر ، فأضعف الشيطان ، وتدلّى بجبل غروره ، فتمت بينهما المشاركة والموافقة . كما قيل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه .

وأما المقتصد ، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل ، وتفطن لقصمان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب . ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول ، فاستمر عليه ، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير

فكان السابق كالحائك الذي ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً . والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً . والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياكة ، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس . فإذا عجزت عن الكتابة فلا تترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية . استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه . فإن سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً . احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد

فكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم ، وحمد ما يحمده ، وإلا جهلت معنى مقال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إصاوة . بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فعمل رضاه فيه .

وغيظه في معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل غيظه فيه . وخبياً ولايته في عبادته ، فلا تحقروا منهم أحداً ، فله ولي الله تعالى . وزاد وخبياً إجابته في دعائه ، فلا تتركوا الدعاء ، فربما كانت الإجابة فيه .

## الركن الرابع

في دواء التوبة ، وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس فسمان :

شاب لاصبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « تَعَجَّبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍ لَيْسَتْ لَهُ صَبُوءَةٌ \* » وهذا عزيز نادر والقسم الثاني : هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين . وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفع ، وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده : ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى ( وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ <sup>(١)</sup> ) فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ، ومرارة الصبر . وكما يجمع السكنجيين بين حلاوة السكر وحموضة الخلل ، ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما ، فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء ، فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار .

فإذاً لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولا بد من بيانهما فإن قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ . فاعلم أن المعلوم

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة : أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

\* ليست له صبوة : أي ميل إلى هوى

(١) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩

يحملها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يخص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :  
يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار ، على مارتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب . فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالملاج ، ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة ، وللشقاوة سببا هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الثانى : أنه لا بد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب - حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يلبس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان . ووزانه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا ككذب فيه ولا خلف

الثالث : أنه لا بد أن يصنى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يفلج عليه الخوف فى ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة على الاحتماء . ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترابة ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر ، الذى هو الركن الآخر فى العلاج

الرابع : أن يصنى إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ، ليُعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، وما كوله ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شىء ، ولا ينفعه كل دواء . بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص . ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص ، أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآفاتهما وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم

بكيفية تكفير ما سبق منها . فهذه علوم يختص بها أطباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . فالماضى إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدري أن ما ارتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك . وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة : أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز ما يضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم . ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه . بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه . فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا يتنادونهم في مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ، ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه ما لم يُعرفه غيره . وهذا فرض عين على العلماء كافة

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيه امتدينا ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا ، فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلاطين قوام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بما داواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكشف شره ، كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يحتسى ، أو الذى غلب عليه الجنون ، إلى القيم ليقبده بالسلاسل والأغلال ، ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس . وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرض الأبدان اثلاثا علل : إحداهما : أن المريض به لا يدري أنه مريض

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطباع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد في هذا العالم ، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى الإغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيد مرضا . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا

وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدرُوا على تحذير الخلق منه ، استنكافاً من أن يقال لهم . فما بالكُم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ، فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقْد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يفسحوا . وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا . وليتهم مسكتوا وما نطقوا . فإنهم إذا تكلموا لم يهتم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ، ويستميل قلوبهم . ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك أذ في الأسماع ، وأخف على الطباع . فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ، ومزيد ثقة بفضل الله . ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائفاً ، أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواآن ، ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه مالا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالكلية ، فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ، ليعود إلى الاعتدال .

وكذلك المصر على الذنوب ، المشتهى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم التنوُّط والياس استعظاماً لذنوبه التي سبقت ، يعالج أيضا بأسباب الرجاء ، حتى يطعم في قبول التوبة فيتوب فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهى معالجة المحرور بالمسل طلباً للشفاء . وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذا فساد الأطباء هي المعضلة الزباه التي لا تقبل الدواء أصلاً . فإن قلت : فاذا ذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك بطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهي أربعة أنواع الأول : أن يذكر مافي القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والمعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار . مثل قوله صلى الله عليه وسلم " « مَأْمِنُ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا لَيْلَةَ

( ١ ) حديث مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا ومكان يتحاوران بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا - الحديث : غريب لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمي في مستند الفردوس من حديث ابن عمر . بسند ضعيف ان لله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الاربعين زرع قد ذنا حصاده - الحديث : وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم ادخلوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا - الحديث :

غَابَ شَفَقُهَا إِلَّا وَمَلَكَانِ يَتَجَاوَبَانِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا يَا لَيْتَ هَذَا اخْتَلَقَ  
 لَمْ يُخْلَقُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ  
 إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا « وفي بعض الروايات « لَيْتَهُمْ بَجَالَسُوا  
 فَتَدَاكَّرُوا مَا عَلِمُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا عَلِمُوا تَابُوا مِمَّا عَمِلُوا »  
 وقال بعض السلف . إذا أذنب العبد ، أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير  
 عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات . فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه . وإن لم يستغفر  
 كتبها . وقال بعض السلف . مامن عبد يمضي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف  
 به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا . فيقول الله تعالى للأرض والسماء :  
 كُفَا عَنْ عَبْدِي وَأَمَلَاهُ فَإِن كَا لَمْ تَخْلَقَاهُ . ولو خلقتماه لرحمتماه . ولعله يتوب إلى فأغفر له .  
 ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات . فذلك معنى قوله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ <sup>(١)</sup> )

وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه <sup>(١)</sup> « الطَّايِعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا  
 انْتَهَكَتِ الْحُرْمَاتُ وَاسْتَحَلَّتِ الْمَحَارِمُ أَرْسَلَ اللَّهُ الطَّايِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا »  
 وفي حديث مجاهد <sup>(٢)</sup> « الْقَلْبُ مِثْلُ الْكِفِّ الْمَفْتُوحَةِ كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا انْقَبَضَتْ  
 أَصْبَعٌ حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا فَيُسَدَّ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ » وقال الحسن .  
 إن بين العبد وبين الله حدا من المعاصي مملوما ، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه ، فلم يوفقه بعدها خير  
 والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى . فينبغي أن يستكثر الواعظ  
 منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً ، إنما

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات - الحديث : ابن عدى وابن حبان  
 في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر

(٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال المصنف وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد  
 وكذا ذكره الفسرون من قوله وليس عرفوع وفد رويناه في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة

(٣) حديث انه صلى الله عليه وسلم ما خلف ديناراً ولا درهماً ما خلف العلم والحكمة : البخاري من حديث  
 عمرو بن الحارث قال مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً  
 ولا أمة وسلم من حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً  
 إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم - الحديث : وقد تقدم في العلم

خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق . مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه ، ومالقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتعقا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه . ونودي من فوق العرش . اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصائي . قال فالتفت آدم إلى حواء باكية وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب

وروي أن سليمان بن داود عليها السلام ، لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل . وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه ، فسلب ملكه أربعين يوما ، فهرب تائها على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطعم . فإذا قال أطعموني فأبى سليمان ابن داود شج ، وطرده ، وضرب ، وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز بكرة فيها بول فصبت على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت ، فلبسه بعد انقضاء الأربعين أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فمكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه . فقال لا أومئ فيما فلتتم من قبل ، ولا أحمكم في عذرکم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بدمنه . وروي في الإسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبتة بها ، فجاهدها واستعصم . قال فنبأه الله بركة تقواه ، فكان نبيا في بني اسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر

غلبه السلام . بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال بترك المعاصي لأجل الله تعالى وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام ، فنظر إلى قبضه نظرة ، وكان جديدا ، فكانه أعجبه . قال فوضعت الريح . فقال لم فعلت هذا ولم أمرك ؟ قالت إنما نطعمك إذا أطعت الله وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أندري لم فرقت بينك وبين ولدك

يوسف؟ قال لا. قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وتدرى لم رددته عليك؟ قال لا. قال لأنك رجوتني وقلت (عسى الله أن يأتي نبيهم جميعاً<sup>(١)</sup>) وبما قلت (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا<sup>(٢)</sup>) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (اذكرني عند ربك<sup>(٣)</sup>) قال الله تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربّه فللبت في السجن بضع سنين<sup>(٤)</sup>) وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر. ولم يزد بها القرءان والأخبار ورود الأسمار، بل الفرض بها الاعتبار والاستبصار، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار! نعم كانت سعادتهم في أن عوجوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة. والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر، فهذا أيضا مما ينبغى أن يكفر جنسه على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة

النوع الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته. فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة، ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله. فبئسنى أن يخوف به. فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شوئها في غالب الأمر. كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام. حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه. وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه. قال صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقال ابن مسعود. إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام<sup>(٢)</sup> «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه، ونقصاً في المال، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله

(١) حديث ابن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه: ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده والفاظ له الا أنه قال الرجل

بدل العبد من حديث ثوبان

(٢) حديث من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً: تقدم

(١) يوسف: ٨٣ (٢) يوسف: ٨٧ (٣) يوسف: ٤٢



او شر منه ، وهو كما قال . لان اللعنة هي الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير ، ويسر له الشر فقد أهدى . والحريمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من محاسبة العلماء المنكرين للذنوب ، ومن محاسبة الصالحين . بل يعقته الله تعالى ليمتته الصالحون . وحكي عن بعض المارفين أنه كان يمشى فى الوحل جامعا ثيابه ، محترزا عن زلقة رجله ، حتى زلقت رجله وسقط . فقام وهو يمشى فى وسط الوحل ويبيكى ويقول : هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويحاجبها ، حتى يقع فى ذنب وذنوبين ، فعندها يخوض فى الذنوب خوفا . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ، فذنوبك ورتبتك ذلك . وقال بعضهم : إني لأعرف عقوبة ذنبي فى سوء خلقى حمارى . وقال آخر : أعراف العقوبة حتى فى فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه ، فوفقت أنظر إليه ، فرأى ابن الجلاء الدمشقى ، فأخذ يدي فاستحييت منه . فقلت يا أبا عبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة المحكمة ، كيف خلقت للناس . فغمز يدي وقال : لتجدن عقوبتها بمد حين . قال فعوقبت بها بمد ثلاثين سنة ، وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال . لا يفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفى الخبر <sup>(١)</sup> « مَا أَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ فَبِمَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ » وفى الخبر <sup>(٢)</sup> « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ أَدْنَى مَا صُنِعَ بِالْعَبْدِ إِذَا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلَى طَاعَتِي أَنْ أُحْرِمَهُ لِيَذِمَّنَا جَانِي »

وحكى عن أبى عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها ، قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلى ، فغاصر قلبى هوى طاولته بفكرتى ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوقعت إلى الأرض ، واسود جسدى كله ، فاستترت فى البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعالج غسله فى الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا سودا ، حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد ، وكان

(١) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم : البيهقى فى الرهد من حديث أبى الدرداء . وقال غريب تفرد به هكذا المصنف وهو عبد الله بن هبان \* قلت هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم

روى عن أبيه أحاديث بواهيلى .

(٢) حديث يقول الله أن أدنى ما صنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لئلا يذمنا جاني : غريب لم أجده

قد وجه إلى فاشخصني من الرقة . فلما أتيت قال لي : أما استحييت من الله تعالى ؟ كنت قائما بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى ؟ فلولا أني دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فمجيبت كيف علم بذلك وهو ينفد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر . وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا ، من الفقر ، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفة . فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاؤه . وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر ، حتى يعاتب على كفرانه . وأما المطيع ، فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ، ويوفق لشكرها . وكل بلية كفارة لذنوبه ، وزيادة في درجاته النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ، والسرقه ، والقتل ، والغيبه ، والكبر ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غيرهاه وضع الدواء في غير موضعه . بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولاً بالنبض ، والسحنة ، ووجوده الحركات ، على العلل الباطنة . ويشتغل بعلاجها ، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، <sup>(١)</sup> حيث قال له واحد : أوصني يا رسول الله ولا تكثر علي . قال « لا تغضب » <sup>(٢)</sup> وقال له آخر : أوصني يا رسول الله ، فقال عليه السلام « عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْبُغْيُ وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعُ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْخَاضِرُ وَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدِرُ مِنْهُ » وقال رجل ل محمد بن واسع : أوصني . فقال : أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة . قال وكيف لي بذلك ؟ قال الزم الزهد في الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فمها عنه . وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . ومخايل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رحل لمعاذ

( ١ ) حديث قال رجل أوصني ولا تكثر علي قال لا تغضب : تقدم

( ٢ ) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس . الحديث من ابن ماجه والحاكم وقد تقدم

أوصنى . فقال : كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لإبراهيم بن آدم . أوصنى . فقال : إياك والناس ، وعليك بالناس ، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقي النسناس ، وما أراهم بالناس ، بل نهمسوا في ماء اليباس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة . وأخبر عما كان هو الغالب على جاله في وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل : وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ولا تكثرى . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(١)</sup> « مَنْ التَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَمَا هُوَ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ وَمَنْ التَمَسَ سَخَطَ اللَّهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ » والسلام عليك ، فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاية بصددها ، وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفلك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام فإذا على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية ، وتوسم الأحوال اللائقة ، ليكون اشتغاله بالمهم . فإن حكاية جميع مواضع الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان

فإن قلت . فإن كان الواعظ يتكلم في جمع ، أو سأل من لا يدري باطن حاله أن يعظه ، فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم ، وإما على الأكثر . فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلال . ومثاله ماروي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري . أوصنى . قال عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض ، وذكرك لك في أهل السماء . وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصنى . فقال ، أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه . يا بني ، زاحم العلماء بركتيك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ،

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس الحديث ، بالترمذى والحاكم وفي مستند الترمذى من لم يسم

وخذ من الدنيا بلاغك ، وآنفق فضول كسبك لاخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض  
 فتكون عيالا ، وعلى أعتاق الرجال كلاً ، وصم صوما يكسر شهوتك ، ولا تصم صوما يضر  
 بصلاتك ، فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفية ، ولا تخالط ذا الوجهين  
 وقال أيضا لابنه . يا بني ، لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عما  
 لا يعينك ، ولا تضع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت  
 يا بني ، إن من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغم ، ومن يقل الشر يأم  
 ومن لا يملك لسانه يندم . وقال رجل لأبي حازم أوصني . فقال كل مالو جاءك الموت عليه  
 فرأيت غنيمته فالزمه . وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه ، وقال موسى للخضر  
 عليهما السلام أوصني . فقال : كن بسّاما ولا تكن غضلبا . وكن نفاعا ولا تكن ضرارا :  
 وانزع عن اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير  
 الخطائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني . فقال :  
 اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك . وقال رجل لحامد اللفاف أوصني . فقال :  
 اجعل لديك غللا كما لاف المصحف أن تدنسه الآفات . قال وما غلاف الدين قال ترك طلب  
 الدنيا إلا ما لا بد منه ، وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه ، وترك مخالطة الناس إلا فيما  
 لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى . أما بعد ، نخف بما خوفك  
 الله ، واحذر مما حذر الله ، وخذ مما في يديك لما بين يديك ، فمعد الموت يأتيك الخبر  
 اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن بسأله أن يعظه ، فكتب إليه  
 أما بعد ، فإن الهول الأعظم والأمور المفضعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك  
 إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر  
 في العواقب نجأ ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ، ومن أمن اعتبر  
 ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع  
 وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن  
 عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يفتر من لا علم  
 عنده . فكن فيها يأمير المؤمنين كالمداوي جرحه ، بصبر على شدة الدوام لما يخاف من عاقبة الداء

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عذوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فتمتعهم . وأما أعداؤه فمقرتهم .  
وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم ، باقيا عليك . واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام  
فهيكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لا يدري خصوص واقعه . فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ المحسم باب الاتعاظ ، وغلبت المعاصي ، واستمرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجعا ، وينشدون آياتا ، ويتكفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارم ، ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب . بل القائل متصاف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مُدْبِرٌ ومتخلف . فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله الأصل الثاني : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما يتناول ذلك إما لنفسته عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته . فله سببان . فاذا ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لما كوله مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ، ثم بصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه ، فلا بد على كل حال من حرارة الصبر . فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي . كالشباب مثلا إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته . فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ،

ولا يبصر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار ، أو عن سماع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكير فيه لتمام الفهم . وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تسر بعموته الصبر ، وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى ، وانتظر الثواب ، وصدق بالحسنى ، فسيبسه الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسيبسه الله للعسرى ، فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما الله الآخرة والأولى

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكان من أصر على الذنب لم يُصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور . أحدها . أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال آخذة بالخلق .

وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والألف ، والعادة طبيعة خامسة ، والزروع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى ( كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ <sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> ) وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِحَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا فَتَنظُرْ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ قَدِ خَلَقَهَا فَحَفَّتْهَا

(١) حديث حففت الجنة بالمكاره - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الله خلق النار فقال لحبريل اذهب فانظر إليها - الحديث : أبو داود والترمذي والحاكم

ومخجه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

(١) التبيانة : ٣٠ (٢) الاطلى : ١٦

بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها وخلق الجنة فقال جبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفظها بالكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد . فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال ، وكون العقاب متأخر إلى المال ، سببان ظاهران في الاسترسال ، مع حصول أصل الإيعان . فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذبا بأصل الطب ، ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيهون عليه الألم المنتظر .

الثالث : أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة ، وتكفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجبره . إلا أن طول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوف التوبة والتكفير . فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيعان

الرابع : أنه مامن مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيعان . نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه ، وهو كونه شاكا في صدق الرسل ، وهذا هو الكفر . كالذى يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض . فإن كان المحذر ممن لا يمتقد فيه أنه عالم بالطب ، فيكذبه أو يشك فيه ، فلا يبالي به . فهذا هو الكفر

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ماهوات آت ، وأن غدا للناظرين قريب ، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شرك نعله ، فما يدريه لعل الساعة قريب . والمتأخر إذا وقع صار ناجزا . ويذكر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال . إذ يركب البحار ، ويقاسى الأسفار ، لأجل الريح الذى يظن أنه قد يحتاج إليه في تانى الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت أله لحظة إذا لم يخف مابعد ، ومفارقته للدنيا لا بد منها . فكيف نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا ؟ فليظن كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبعه ، فيقول . كيف يليق

بعقلي أنت يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي ، دون قول نصراني يدعى الطب  
لنفسه بلا معجزة على طبه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي  
أخف من عذاب المرض ، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا  
وبهذا التفكير بعينه يمالج اللذة الغالبة عليه ، ويكلف نفسه تركها ، ويقول إذا كنت لا أقدر على  
ترك لذاتي أيام المروهي أيام الازل ، فكيف أقدر على ذلك أبداً أبداً ، وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر ،  
فكيف أطيق ألم النار ! وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنقصها وامزاج صفوها  
بكدرها ، فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ! . وأما تسويف التوبة فيما لجه بالفكر في أن أكثر صياح  
أهل النار من التسويف ، لأن المسووف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعلة لا يبقى وإن بقي فلا  
يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة ؟ والشهوة  
ليست تفارقه غدا بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتقاد . فليست الشهوة التي أكدتها الإنسان  
بالعادة كالتى لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسووقون ، لأنهم يظنون الفرق بين المماثلين ولا يظنون  
أن الأيام منسابة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق ، ومماثل المسووف إلا مثال من احتاج إلى قلع  
شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بعشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن  
الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة في الدنيا  
أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا  
ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى ،  
فملاجه ما سبق . وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظر من فضل  
الله تعالى أن يرزقه المشور على كثر في أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا  
الإمكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده ، وترك ذخائر أمواله في صحن  
داره ، وقدر على دفعها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلم غفلة  
أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى داري ، أو إذا انتهى إلى داري مات على  
باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكي في الأسفار أن مثل ذلك وقع ، فأنا  
أنتظر من فضل الله مثله . فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ، ولكنه في غاية الحماقة والجهل ،  
إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر . وعلاجه الأسباب التي  
تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول ، ولكن يمكن أن يمالج بعلم قريب يليق بحمد عقله



فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن ؟ أو تقول أعلم أنه محال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ؟ فإن قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه ، وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء . وإن قال أنا شك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول ، عند تركك طعامك في البيت لحظة ، أنه وابت فيه حية ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان ألد الأطمعة ؟ فيقول أتركه لا محالة ، لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ما ظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أصناف العقلاء ، ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجهول ، لعل له غرضا فيما يقول ! فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر ؛ وأثبت ثوبا وعقبا ، وإن اختلفوا في كفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبق أبدا . وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره : فلا يبقى له توفيق إن كان عافا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد . بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقدرنا طائرا يلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها ، لفنيت الذرة ، ولم ينقص أبد الآباد شيئا . فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا ، لأجل سعادة تبقى أبدا . ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التوخي المعري

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليك

إن صح قولك فليست بخاسر أو صح فولى فالحسار عليكما

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكا : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعا ، وإلا فقد تخلصت وهلكت . أى العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جليلة ، ولكنها ليست تنال إلا بالفكر ، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته ، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر ، لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها ، وشدائدها ، وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم . وهذا فكر لدافع مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه ، ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة

والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله، ونفس من أنفاسه، شهوة قد تسلطت عليه واسترقتة، فصار عقله مسخرًا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة؟ والفكر يمنعه من ذلك . وأما علاج هذين المائمين ، فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده ، تألمًا بذكركه ، مع استحقار ألم مواعته . فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع ، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ، ومتألم به !

وأما الثاني وهو كون الفكر مفقوتًا للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم . فإنها لا آخر لها ، ولا كدورة فيها . ولذات الدنيا سريعة الدثور ، وهي مشوبة بالمكدرات . فافهم لذة صافية عن كدر . وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلهذ بمناجاة الله تعالى ، واستراحة يعرفته ، وطاعته ، وطول الأنس به ! ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من جلاوة الطاعة ، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيًا . فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ! نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ، ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة ، وقد صار الخير ديدنا ، كما كان الشر ديدنا . فالنفس قابلة ما عودتها تعود ، والخير عادة ، والشر لجابة

فإذًا هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات . ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ، وتنبهات تقع للقلب بأسباب تنفق لا تدخل في الحصر ، فيصير الفكر موافقًا للطبع ، فيميل القلب إليه . ويمبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق . إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روي في حديث طويل ، أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين ، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُني فقال علي رضي الله عنه : بني على أربع دعائم . على الجفاء ، والمعنى ، والغفلة ، والشك . فمن جفا احتقر الحق ، وجهر بالباطل . ومقت العلماء . ومن عمي نسي الذكر . ومن غفل حاد عن الرشد . ومن شك غزته الأمانى : فأخذته الحسرة والندامة ، وبداله من الله ما لم يكن يحسب . فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكير . وهذا القدر في التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة . فلا بد من بيان الصبر ، فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى

كتاب الصبر والشكر

## كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد بربداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والملاء ، المرئد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء ، والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى أصحابه سادة الأصفياء ، وعلى آله قادة البررة الأتقياء ، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانتقضاء

أما بعد : فإن الإيمان نصفان . نصف صبر ونصف شكر ، كما وردت به الآثار ، وشهدت له الأخبار <sup>(١)</sup> . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى ، واسمان من أسمائه الحسنی ، إذ سمى نفسه صبورا وشكورا . فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن . ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان . وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مابه الإيمان ، ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان ، وعن إدراك مابه الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لا ارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى .

## الشرط الأول

في الصبر

وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان ، وبيان اختلاف أساميهِ باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى

( كتاب الصبر والشكر )

( ١ ) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من روايته يزيد الرقائسي عن أنس ويزيد ضعيف

## بيان

### فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا. وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له. فقال عز من قائل ( وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّةً ثَيْنٍ بِمَا صَبَرُوا <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ <sup>(٥)</sup> ) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر، وأنه نصف الصبر، قال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزى به. فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات. ووعدا الصابرين بأنه معهم فقال تعالى ( وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ <sup>(٦)</sup> ) وعلق النصر على الصبر فقال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَتَوَقَّوْا وَيَأْتِكُمْ مِّنْ فَوْزِهِمْ هَذَا يُعَدُّ لَكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مَسْوُومِينَ <sup>(٧)</sup> ) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى ( أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ <sup>(٨)</sup> ) فالهدى، والرحمة، والصلوات، مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار. فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ» على ما سيأتي وجه كونه نصفاً. وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «مِنَ أَقَلِّ مَا أُوتِيَتْهُمُ الْيَقِينُ وَعَزِيْمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ وَلَا أَنْ تَصْبِرُوا عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُؤَافِيَنِي كُلُّ امْرِئٍ مِّنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ

(١) حديث الصبر نصف الإيمان: أبو نعيم والحطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم

(٢) حديث من أقل ما أوتيتهم اليقين وعزيمة الصبر - الحديث بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله

(١) السجدة: (٢) الأعراف: ١٢٧ (٣) النمل: ٩٦ (٤) القصص: ٥٤ (٥) الزمر: ١٠ (٦) الأنفال: ٤٦

(٧) آل عمران: ١٢٥ (٨) البقرة: ١٥٧

وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكَرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَيُنْكَرُ كُمْ أَهْلُ  
السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفَرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ « ثم قرأ قوله تعالى ( مَا عِنْدَكُمْ  
يَنْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ »<sup>(١)</sup> الآية

وروى<sup>(١)</sup> جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصَّبْرُ وَالسَّمَا حَةٌ » وقال  
أيضا<sup>(٢)</sup> « الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ »<sup>(٣)</sup> وسئل مرة ما الإيمان ؟ فقال « الصَّبْرُ » وهذا  
يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الْحُجُّ عَرَفَةٌ »<sup>(٤)</sup> معناه معظم الحج عرفة . وقال أيضا صلى الله  
عليه وسلم<sup>(٥)</sup> « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النَّفُوسُ »

وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، تخلق بأخلاقى ، وإن من أخلاقى أنى أنا  
الصبور .<sup>(٥)</sup> وفي حديث عطاء عن ابن عباس ، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على  
الأنصار فقال « أُمُومِنُونَ أَأَنْتُمْ » فسكتوا . فقال عمر نعم يا رسول . قال « وَمَا عَلَامَةُ  
إِيمَانِكُمْ » قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم  
« مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكُفَّةِ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> « فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ  
خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركون ما محبوبون إلا بصبركم على ما تكرهون .  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٧)</sup> « لَوْ كَانَ الصَّبْرُ رَجُلًا لَكَانَ كَرِيمًا وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الصَّابِرِينَ » والأخبار فى هذا لا تحصى

( ١ ) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسماحة : الطبراني فى مكارم الأخلاق واسحان فى الصغافه  
وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني فى الكبير من رواية عبد الله بن عبيد  
ابن عمير عن أبيه عن جده

( ٢ ) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة : غريب لم أجده

( ٣ ) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر : أبو منصور الديلمي فى مسند الفردوس . من رواية يزيد الرقاشي  
عن أنس مرفوعا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وي زيد ضعيف

( ٤ ) حديث الحج عرفة : تقدم فى الحج

( ٥ ) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس : لأصل له مرفوعا وانما هو من قول عمر بن عبد العزيز  
هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسن النفس

( ٦ ) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال أُمُومِنُونَ أَأَنْتُمْ فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله  
الحديث : الطبراني فى الأوسط من رواية يوسف بن يعقوب وهو منكر . الحديث عن عطاء

( ٧ ) حديث فى الصبر على ما تكره خير كثير : الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

( ٨ ) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما : الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي

وأما الآثار ، فقد وحد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أنى موسى الأشعري : عليك بالصبر . واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر . الصبر فى المصيدات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان ، وذلك بأن التقوى أفضل البر ، والتقوى بالصبر . وقال على كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم اليقين ، والصبر ، والجهد ، والمدل . وقال أيضا : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له

وكان عمر رضى الله عنه يقول : نعم المدلان ، ونعمت الملاوة للصابرين . يعنى بالمدلين الصلاة والرحمة ، وبالملاوة الهدى . والملاوة ما يحمل فوق المدلين على البمير وأشار به إلى قوله تعالى ( وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ <sup>(١)</sup> ) وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية ( إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ <sup>(٢)</sup> ) بكى وقال : واعجابه أعطى وأثنى . أى هو الممطى للصبر وهو المثنى وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل . وأما من حيث النظر بعين الاعتبار ، فلا تفهم إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه ، وبالله التوفيق :

## بيان

حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل السالكين . وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف هي الأصول ، وهى تورت الأحوال . والأحوال تنمر الأعمال . فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل ، كما ذكرناه فى اختلاف اسم الإيمان والإسلام فى كتاب قواعد المقائد . وكذلك الصبر ، لا يتم إلا بمعرفة سابقة ، وبمجالاة قائمة

(١) البقرة : ١٥٧ (٢) ص : ٤٤

فالصبر على التحقيق عبارة عنها . والعمل هو كالثمره يصدر عنها . ولا يعرف هذا إلا بعمره  
كيفية الترتيب بين الملائكة ، والإنس ، والبهائم ، فإن الصبر خاصية الإنس . ولا يتصور ذلك  
في البهائم والملائكة . أما في البهائم فلتنقصانها ، وأما في الملائكة فلكلها  
وبيانه أن البهائم مهملطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها ، فلا باعث لها على الحركة  
والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك  
القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام . فإنهم جردوا للشوق  
إلى حضرة الربوبية ، والاتباع بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادرة عنها  
حتى تحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف  
وأما الإنسان فإنه ~~خلق~~ في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا الشهوة الغداء  
الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب  
وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال  
بينهما ، لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم . ولكن  
الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم بنى آدم ، ورفع درجاتهم عن درجة البهائم ، فوكل به  
عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ، أحدهما يهديه ، والآخر يقويه . فتميز بمعونة  
الملكين عن البهائم ، واختص بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة  
المصالح المتعلقة بالعواقب . وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة  
لا معرفة لها ، ولا هداية إلى مصلحة العواقب ، بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط .  
فلذلك لا تطالب إلا اللذيذ : وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال ، فلا تطالبه ولا تعرفه  
فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن  
لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر . فكم من مضر يعرفه الإنسان  
كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه . فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر  
الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه . فوكل الله تعالى به ملكا  
آخر يسدده ، ويؤيده ويقويه بجند لم تروها . وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة . فتارة  
يضعف هذا الجند وتارة يقوى . وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد . كما أن نور



الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر . فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا . ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة ، فقد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تحاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها ، التحق باتباع الشياطين . فإذا ترك الأفعال المشتهة عمل يثمره حال يسمى الصبر . وهو ثبات باعث الدين الذى هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بمداوة الشهوات ، ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى ، قوى ثبات باعث الدين . وإذا قوى ثباته ، تمت الأفعال على خلاف ما تنقاضه الشهوة . فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقمح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما . وهما من الكرام الكاتبين . وهما الملكان الموكلان بكل شخص من آدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين الذى هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ، ينبغى أن يكون مساهله ، فهو إذا صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال . وللعبد طوران في الغفلة والفكر ، وفي الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه ، فيكتب إعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن ، فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه ، فهو به مسيء إليه ، فيثبت عليه سيئة . وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما . فلذلك سميا كراما كاتبين . أما الكرام ، فلا تنفع العبد بكرمهما ، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة . وأما الكاتبون ، فلا تثباتهما الحسنات

والسيآت. وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب، ومطوية عن سر القلب، حتى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنهما، وكتبتهما، وخطهما، وصحائفهما، وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت، لا من عالم الشهادة. وكل شيء من عالم الملكوت لا تدرکه الأبصار في هذا العالم. ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرى، ومرة في القيامة الكبرى. وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ<sup>(٢)</sup>) وفيها يقال (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا<sup>(٣)</sup>) أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق، فلا يكون وحده. بل ربما يحاسب على ملا من الخلق. وفيها يساق المتقون إلى الجنة، والمجرمون إلى النار صرًا آحادًا. والهول الأول هو هول القيامة الصغرى. ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى، مثل زلزلة الأرض مثلاً، فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها. بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه، لا بزلزلة مسكن غيره. فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان. واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب. وحظك الخاص من التراب بدنك فقط. فأما بدن غيرك فليس بحظك. والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان. وإنما تخاف من زلزه أن يتزلزل بدنك بسببه. وإلا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه. إذ ليس يتزلزل به بدنك. فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك سماء أرضك، وقابك شمس أرضك، وسمك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك، ومفيض العرق من بدنك ببحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك. فإذا انهدم بالموت أركان بدنك، فقد زلزلت الأرض زلزالها. فإذا انفصلت

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته: ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أسد بسند ضعيف

(٢) الانعام: ٩٣ (٢) الاسراء: ١٤

العظام من اللحوم ، فقد حملت الأرض والجبال فدكتنا دكة واحدة . فإذا رمت العظام ، فقد نسفت الجبال نسفا . فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا . فإذا بطل سمك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا . فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا . فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك ، فقد عطلت المشار تعطيلًا . فإذا فارقت الروح الجسد ، فقد حملت الأرض فدت ، حتى ألتقت ما فيها وتخلت

ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال . ولكنى أقول : بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتشرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ؟ والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها : فالانجلاء بعد ذلك حصته غيره . ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماؤه فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟

فهذه هي القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر . وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، ونمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها ، فإننا لم نذكر عشر عشر أوصافها . وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى . فإن للإنسان ولادتين : إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار ، من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى ، كنسبة سمة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى ، فاخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى . بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين .

وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وَنَنْشِئُكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> )

فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة، وموقن بالملك والملكوت: والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالمين الموراء إلى أحد العالمين . وذلك هو الجهل والضلال ، والافتداء بالأعور الدجال فأعظم غفلتك يامسكين، وكلا ذلك المسكين، وبين يديك هذه الأهوال . فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال ، أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء <sup>(١)</sup> « كَفَى بِالْمُوتِ وَاعِظًا » أو ما سمعت بكبريه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ مُحَمَّدَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ » أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين، الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون ؟ فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن . أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون ؟ أو لم يروا كم أهلكتنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟ أم يحسبون أن الموت سافروا من عندهم فهم معدومون ؟ كلا . إن كل لما جميع لدينا محضرون . ولكن ماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ولنرجع إلى الغرض ، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين . ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما ، والسيئة في الإعراض عنهما ، ومال للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة، فلا يتصور منهما إقبال وإعراض

(١) حديث كنى بالموت واعظا : البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربع بن بدر ضعيف ورواه

الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد

(٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت : الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه

من حديث عائشة بلفظ اللهم أعنى على سكرات الموت

وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس . ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا . فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا، ولا يعاقب على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة . بل على القيم العدل ، والولي البر الشفيق ، إن كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل ولي هذا سمته في حق الصبي ، فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها في حق الصبي ، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة ، فيكون مع النبيين ، والمقربين ، والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَنَا وَكَأْفِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

## بيان

كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يخص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليهما جميعا . وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب . ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها ، كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العابدات ، ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا ، فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر . والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين : البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم

عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين . إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة . ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ أَلْيَقِينَ وَهَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث إلى آخره

الاعتبار الثاني : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لأعلى المعارف . وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الإيمان نصفان نصف صبر ، ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة ، و باعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيق ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا . فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فكذا ينبغي أن نفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ، ونسبها إلى الإيمان . والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان ، فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة

## بيان

الاسمى التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع . ولكن الحمد التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج ، سمي عفة

وإن كان عن احتمال مكروه ، اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت ، وضرب الحدود ، وشق الجيوب وغيرها . وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ، ويضاده الجبن . وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حاما ، ويضاده التذمر . وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، ويضاده الشره . فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال « هُوَ الصَّبْرُ » لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال (١) « الْحُجَّ عَرَفَةٌ » وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ) (١) (أى المصيبة ، وَالضَّرَّاءِ) (٢) (أى الفقر ،) (وَحِينَ الْبَأْسِ) (٣) (أى المحاربة) (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (٤)

فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها . ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها ، من حيث رأى الأسامي مختلفة . والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله ، يلحظ المعاني أولا ، فيطالع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني . فالمعاني هي الأصول ، والألفاظ هي التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى (أَفَنُ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٥) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

(١) حديث الحج عرفة : أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وثقه في الحج

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) البقره : ١٧٧ (٥) الملك : ٢٢

## بيان

أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة . ويتوصل إليه بدوام الصبر . وعند هذا يقال . من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون . فلا جرم هم الصديقون المقربون ، الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى بأيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية

الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى ، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد لياسه من المجاهدة . وهؤلاء هم الغافلون . وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم ، فحكوا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى ، وأمر من أمور الله . وإلهم الإشارة بقوله تعالى ( وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ <sup>(١)</sup> ) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فضسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم ( فَأَعْرَضَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ <sup>(٢)</sup> ) وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والفرور بالأمانى ، وهو غاية الحق . كما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَعَتَّى عَلَى اللَّهِ » وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي ، فلست أطمع فيها . أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ، ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم ، فلا حاجة به إلى توبتي . وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته . فقد صار

( ١ ) حديث الكيس من دان نفسه - الحديث : تقدم في ذم الفرور

( ٢ ) الحجته : ١٣ ( ٢ ) الحجم : ٢٩



عقله في يد شهواته كسليم أسير في أيدي الكفار، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير، وحفظ  
 الخمر وحملها، ومجمله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار، ويجمله أسيرا  
 عندهم . لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ما حقه  
 أن لا يتسلط عليه . وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين  
 وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين . وحق  
 المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب  
 الله وجند الملائكة ، للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى ، كان  
 كمن أرق مسلما لكافر ، بل هو كمن قصد الملك النعم عليه ، فأخذ أعزّ أولاده وسلمه إلى أبيض  
 أعدائه . فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته ، واستيغابته لنعمته ، لأن الهوى أبيض إله عبيد  
 في الأرض عند الله تعالى ، والمقل أعز موجود خلق على وجه الأرض

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجلا بين الجندين فتارة له اليد عليها ، وتارة لها عليه .  
 وهذا من المجاهدين يمد مثله لامن الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا  
 وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم . هذا باعتبار القوة والضعف

ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصر عنه . فإنه إما أن يغلب جميع  
 الشهوات ، أو لا يغلب شيئا منها ، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى  
 ( خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا <sup>(١)</sup> ) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى  
 والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام ، بل هم أضل سبيلا . إذ البهيمة  
 لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات . وهذا قد خلق ذلك له وعطله ،  
 فهو الناقص حقا ، المدبر يقينا . ولذلك قيل

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنعق القادرين على التمام  
 وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر واليسر . إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه  
 إلا بجهد جهيد ، وتمب شديد ، ويسمى ذلك تصبرا ، وإلى ما يكون من غير شدة تمب  
 بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ، ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى ، وقوى

التصديق بما في العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر . ولذلك قال تعالى ( فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى  
 وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى <sup>(١)</sup> ) ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره . فإن  
 الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة ، بحيث لا يلقاه في  
 مصارعة إعياء ولا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر . ولا يقوى على أن يصرع  
 الشديد إلا بتعب ومزيد جهد ، وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين  
 و باعث الهوى . فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة و جنود الشياطين . ومهما  
 أذغنت الشهوات و اتعمت ، وتسلب باعث الدين واستولى ، وتيسر الصبر بطول المواظبة  
 أورت ذلك مقام الرضا كما سيأتى في كتاب الرضا . فالرضا أعلى من الصبر . ولذلك قال  
 صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اَعْبُدِ اللَّهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ  
 خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك  
 الشهوة ، وهذه درجة التائبين : وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها  
 المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين . وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة  
 أعلى من مقام الرضا ؛ كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكان هذا الانقسام يجرى في  
 صبر خاص ، وهو الصبر على المصائب والبلايا

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ، ونفل ، ومكروه ، ومحرم . فالصبر  
 عن المحظورات فرض . وعلى المكروه نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور . كمن  
 تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا ، وكن يقصد حرمة بشهوة محظورة ،  
 فهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ، فهذا الصبر محرم  
 والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع . فليكن الشرع  
 محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه  
 محمود . بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

(١) حديث عبد الله على الرضا فان لم تستطع في الصبر على ما تكره كثير: الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

## بيان

مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلحق العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين: أحدهما: هو الذي يوافق هواه، والآخر: هو الذي لا يوافق بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما . وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحدهذين النوعين، أو عن كليهما . فهو إذاً لا يستغنى قط عن الصبر النوع الأول : ما يوافق الهوى، وهو الصحة، والسلامة، والمال، والجاه وكثرة العشيبة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار . وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور . فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها، والانهماك في ملاذها المباحة منها، أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان . فإن الإنسان ليطنى، أن رآه استغنى . حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا الصديق . وقال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا . ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال، والزوج، والولد، فقال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ <sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ <sup>(٢)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجِينَةٌ مَحْزَنَةٌ » <sup>(٢)</sup> ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قيصه، نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صَدَقَ اللَّهُ »، ( إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ <sup>(٣)</sup> ) ( إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنَ بَنِي بَتَعَثُ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ أَخَذْتَهُ » في ذلك عبرة لأولي الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب . وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع، واللذة، واللهو، واللعب . وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإتفاق

(١) حديث الولد عبنة مبخلة محزنة: أبو يعلى اللؤلؤي من حديث أبي سعيد وتقدم

(٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قيصه نزل عن المنبر - الحديث: أصحاب السنن من حديث

بريدة وقالوا الحسين والحسين وقال الترمذي حسن غريب

(١) الناقلين: ٩ (٢) الثناين: ١٤ (٣) الثناين: ١٥

وفي بدنه يبذل المونة للخلق ، وفي لسانه يبذل الصدق . وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتي . وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة . ومن العصمة أن لا تقدر . والصبر على الحجابة والفصد إذا تولاها غيرك ، أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك . والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها . فلهذا عظمت فتنة السراء النوع الثاني : ما لا يوافق الهوى والطبع . وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد ، كالطاعات والمعاصي ، أو لا يرتبط باختياره ، كالمصائب والنوائب ، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته ، كالنشي من المؤذي بالانتقام منه . فهذه ثلاثة أقسام :  
القسم الأول : ما يرتبط باختياره ، وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية . وهما ضربان .

الضرب الأول : الطاعة . والعبد يحتاج إلى الصبر عليها . فالصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية ، وتشتهي الربوبية . ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ( أَنَارَ بِكُمْ الْأَعْلَى <sup>(١)</sup> ) ولكن فرعون وجدله مجالا وقبولا فأظهره ، إذ استخف قومه فأطاعوه . وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده ، وخادمه ، وأتباعه ، وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره . فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته ، واستبعاده ذلك ، ليس يصدر إلا عن إضرار الكبر ، ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء ، فإذا العبودية شاقة على النفس مطلقاً . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب النخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال .

الأولى . قبل الطاعة ، وذلك في تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية ، والإخلاص ، وآفات الرياء ، ومكاييد النفس وقد نبه عليه ، صلوات الله عليه إذ قال " <sup>(٢)</sup> دَ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى ، وقال تعالى

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات : متفق عليه من حديث عمر . وقد تقدم

(٢) النازعات : ٣٢

( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ <sup>(١)</sup> ) ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى ( إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ <sup>(٢)</sup> )

الحالة الثانية : حالة العمل ، كي لا يففل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير . فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ . وهذا أيضا من شدائد الصبر . ولعله المراد بقوله تعالى ( نِمَّ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا <sup>(٣)</sup> ) أى صبروا إلى تمام العمل

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء . والصبر عن النظر إليه بعين العجب ، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره . كما قال تعالى ( وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ <sup>(٤)</sup> ) وكما قال تعالى ( لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى <sup>(٥)</sup> ) فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونقل . وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعها الله تعالى فى قوله ( إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى <sup>(٦)</sup> ) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر

الضرب الثانى المعاصى ، فإحوج العبد إلى الصبر عنها . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ( وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ <sup>(٧)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٨)</sup> « الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ » والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر التى صارت مألوفة بالعادة . فإن العادة طبيعة خامسة . فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدين على قمعها . ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله ، كان الصبر عنه أثقل على النفس . كالصبر عن معاصى اللسان من النية ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تمريضا وتصريحا ، وأنواع المزح المؤذى للقلوب ، وضروب الكلمات التى

( ١ ) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه : ابن ماجه بالشرط الاول والنسائى فى الكبرى بالشرط الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسنادين جيدين وقد تقدم

( ١ ) البينة : ٥ ( ٢ ) هود : ١١ ( ٣ ) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩ ( ٤ ) محمد : ٣٣ ( ٥ ) البقرة : ٢٦٤

( ٦ ، ٧ ) النحل : ٩٠

يقصد بها الإزراء والاستحقار ، وذكر الموتى ، والقدح فيهم ، وفي علومهم ، وسيرهم ، ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة ، وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان . إحداهما نفي الغير ، والأخرى إثبات نفسه . وبها تم له الربوية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية . ولاجماع الشهوتين ، وتيسر تحريك اللسان ، ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات ، حتى بطل استنكارها واستباحها من القلوب لكثرة تكريرها ، وعموم الأتس بها . فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا ، فيستبعد غاية الاستبعاد ، ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ، ولا يستنكر ذلك ، مع ما ورد في الخبر <sup>(١)</sup> من أن الغيبة أشد من الزنا . ومن لم يملك لسانه في المحاورات ، ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب عليه العزلة والانفراد ، فلا ينجيه غيره . فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة . وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوسواس . فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه أصلا ، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستفرقه . كمن أصبح وهمومه هم واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه

القسم الثاني : ما لا يرتبط هجومه باختياره ، وله اختيار في دفعه ، كالأذى بفعل أو قول ، وجنى عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا ، وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم . ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى ( وَانصبرن على ما آذيتننا وعلى الله قلن كلن الملتون ككونن ) <sup>(٢)</sup> وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال لبعض الأعراب من المسلمين . هذه قسمة ما أريد به وجه الله . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحمرت وجنتاه ثم قال « يرحم الله أخي موسى لقد أؤذى بأكثر من هذا فصبر » وقال تعالى ( ودع أذاهم

(١) حديث أن الغيبة أشد من الزنا : تقدم في آفات اللسان

(٢) حديث قسمة ما أريد به وجه الله . الحديث : متفق عليه

من حديث ابن مسعود وقد تقدم

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (١) وقال تعالى (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (٢))  
 وقال تعالى (وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ مَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (٣))  
 الآية، وقال تعالى (وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا  
 أَذَى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ (٤)) أى تصبروا عن  
 المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصص وغيره ، فقال تعالى  
 (وَإِن عَاقَبْتُمْ فَمَا يُبَايِعُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (٥))  
 وقال صلى الله عليه وسلم (١) « صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْفُ عَمَّنْ  
 ظَلَمَكَ » ورأيت في الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام : لقد قيل لكم من قبل  
 إن السن بالسن والأنف بالأنف . وأنا أقول لكم . لا تقاوموا الشر بالشر . بل من ضرب  
 خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر . ومن أخذ رداك فأعطه إزارك . ومن سخرك  
 لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى  
 الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والنضب جميعا  
 القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب . مثل موت  
 الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء وبالجملة  
 سائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما  
 الصبر في القراءة على ثلاثة أوجه . صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر  
 عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة  
 درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل ، على ما قبلها وهي من الفرائض ، لأن  
 كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء  
 لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢)  
 « أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا يُهَوِّنُ عَلَيَّ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا » فهذا صبر مستنده حسن اليقين

(١) حديث صل من قطعك - الحديث : تقدم

(٢) حديث أسألك من اليقين ما يهون علي مصائب الدنيا : الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث

ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات

(١) الاحزاب : ٤٨ (٢) الزمل : ١٠ (٣) الحجر : ٩٧ (٤) آل عمران : ١٨٦ (٥) النحل : ١٢٦

وقال أبو سليمان . والله ما نصبر على ما نحب ، فكيف نصبر على ما نكره ! وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنْ تَطَارَ الْفَرَجُ بِالصَّبْرِ عِبَادَةَ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » <sup>(٤)</sup> « اللَّهُمَّ أَوْجِرْ لِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعِزَّنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ » . وقال أنس . حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> أن الله عز وجل قال . « يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سُلِبَتْ كَرَمَتُهُ قَالَ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ تَعَالَى جَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِيَلَاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عَوَادِهِ أَبَدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتَهُ أَبْرَأْتَهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي »

( ١ ) حديث قال الله اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او ولده او ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل

الحديث : ابن سدى من حديث أنس بسند ضعيف

( ٢ ) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة : القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن ابي الدنيا

فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد المالبينى فى مسند

الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة

انتظار الفرج وتقديم فى الدعوات

( ٣ ) حديث ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إن الله وإننا إليه راجعون - الحديث : مسلم من حديث أم سلمة

( ٤ ) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كرمته - الحديث : الطبرانى فى الأوسط من رواية

أبى ظلال القسحلى واسمها هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ ان الله عز وجل

قال اذا ابتليت عبدى بحبيته فصرعوضته منها الجنة رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ اذا أخذت

كرمتى عبدى لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يا رسول الله وان كانت واحدة قال وان كانت

واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف

( ٥ ) حديث يقول الله اذا ابتليت عبدى بيلاء فصر ولم يشكنى الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه - الحديث :

مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه

البيهقى وقفا على أبى هريرة



وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته . ما أنعم الله على عبد نعمة فأنزعهها منه وعوضه منها الصبر ، إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنزعه منه . وقرأ ( إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ <sup>(١)</sup> )

وسئل فضيل عن الصبر فقال . هو الرضا بقضاء الله . قيل وكيف ذلك؟ قال الراضي لا يتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان ، فدخل عليه جماعة فقال من أنتم؟ قالوا أحباؤك جاؤك زائرين . فأخذ يرهبهم بالحجارة . فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها ( وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا <sup>(٢)</sup> )

ويقال إن امرأة فتحت الموصلي عثرت ، فانقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها أما تجدين الوجع؟ فقالت إن لذة ثوابه أزلت عن قلبي مرارة وجمعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَمْعِكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتِكَ » . ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كفه صرة ، فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كفه . فقال بارك الله له فيها ، لعله أحوج إليها مني . وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رmq . فقلت له أسقيك ماء ، فقال . جُرّني قليلا إلى العدو ، واجعل الماء في الترس ، فإني صائم ، فإن عشت إلى الليل شربته ، فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى . فإن قلت فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب ، وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة ، فذلك غير داخل في الاختيار . فأعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ،

(١) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجمعك ولا تذكر مصيبتك : لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في الرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تذكرك بنفسك

(٢) الزمر : ١٠ الطور : ٤٨

وشق الجيوب ، وضرب الحدود ، والمبالغة في الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس ، والمفرش ، والمطعم . وهذه الأمور داخلية تحت اختياره ، فينبغي أن يحتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، كما روي <sup>(١)</sup> عن الرميضاء أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي ، وزوجي أبو طلحة غائب . فقممت فسجّيته في ناحية البيت . فقدم أبو طلحة . فقممت فيها له إفطاره ، فجعل يأكل . فقال كيف الصبي؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه ، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة . ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك ، حتى أصاب مني حاجته . ثم قلت . ألا تعجب من جيراننا؟ قال مالهم؟ قلت أعيروا عارية ، فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ! فقال بشئ ما صنعوا . فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى ، وإن الله قد قبضه إليه . فحمد الله واسترجع . ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال . « اللَّهُمَّ بَارِكْ لهُمَا فِي لَيْلَتِهِمَا » قال الراوي . فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة ، كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرَّمِيْضَاءِ امْرَأَةٍ ابْنِي طَلْحَةَ» وقد قيل . الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره . ولا يخرج من حد الصابرين توجع القلب ، ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت ، فإن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت . ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه ، فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال « إِنْ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا . فالمقدم على الحجامة والقصد راض به ، وهو متألم بسببه لا محالة ، وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه . وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجيب يعزى بعض الخلفاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه ، من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له

واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك ، والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه . فإذا مهما دفع الكراهة

( ١ ) حديث الرميضاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقممت فسجّيته في ناحية البيت - الحديث :

طب ومن طريقه ابو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف

بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب ، نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان  
 المرض ، والفقر ، وسائر المصائب . وقد قيل . من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة  
 فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال . فإن  
 الذي كُفي الشهوات كلها ، واعتزل وحده ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا  
 وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثر جولان  
 الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أوفى مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر  
 فهو كيفما كان تضييع زمان . وآلة العبد قلبه ، وبضاعته عمره . فإذا غفل القلب في نفس واحد  
 عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى ، أو عن فِكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ، ليستفيد  
 بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون . هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه .  
 ولا يكون ذلك غالبا . بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع كل  
 من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه  
 بظهور أمارته له منه . بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه ، حتى في أهله وولده ، ويتوهم  
 مخالفتهم له ، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية تهرمهم ، وجوابهم ، عما يتعللون به  
 في مخالفتهم . ولا يزال في شغل دائم ، فلا شيطان جندان . جند يطير وجند يسير ، والوسواس  
 عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان  
 خلق من النار ، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار . والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين  
 والطين طبيعته السكون ، والنار طبيعتها الحركة . فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك . بل  
 لا تزال تتحرك بطبيعتها . وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ، ساجدا  
 لما خلق الله من الطين ، فأبى واستكبر واستعصى ، وعبر عن سبب استعصائه بأن قال  
 ( خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ) . فإذا حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم  
 صلوات الله عليه وسلامه ، فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده . ومهما كلف من  
 القلب ووسواسه وعدوانه ، وطيرانه وجولانه ، فقد أظهرت قيادته وإذعانه واتباعه بالإذعان  
 سجود منه . فهو روح السجود . وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه ، وعلامته الدالة عليه

بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح ، لتصور ذلك . كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يري استخفافا بالعادة .

فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر ، وقالب الروح عن الروح ، وقشر اللب عن اللب ، فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب . وتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين ، إلا أن تصبح وهو موكم واحد ؛ فتشغل قلبك بالله وحده ، فلا يجرد الملعون مجالا فيك . فمعد ذلك تكون من عباد الله المخلصين ، الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ . بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم . وسيلانه مثل الهواء في القدرح . فإنك إن أردت أن يخلو القدرح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره ، فقد طمعت في غير مطعم . بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة .

فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين ، يخلو عن جولان الشيطان . وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة ، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى ( وَمَنْ يَعْمُرْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمَنِ يُغَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ) وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إن الله تعالى يغيض الشاب الفارغ » وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه ، كان ظاهره فارغا ، ولم يبق قلبه فارغا . بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ . ثم تردوج أفراخه أيضا ، وتبيض مرة أخرى وتفرخ . وهكذا يتوالد نسل الشيطان توادا أسرع من تواد سائر الحيوانات ، لأن طبعه من النار . وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر تواده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ، ولا تنقطع البتة . بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال . فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب ، فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة

فإذا إذا تأملت ، علمت أن أعدى عدوك شهوتك ، وهي صفة نفسك . ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج ، حين كان يصلب ، وقد سئل عن التصوف ما هو فقال : هي نفسك

(١) حديث إن الله يغيض الشاب الفارغ : لم أجده

(١) الزخرف : ٣٦

إن لم تشغلها شغلتك . فإذا حقيقة الصبر وكماله الصبرُ عن كل حركة مذمومة . وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك . وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت ، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

## بيان

دواء الصبر ودا يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء بالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً ، فتحصيله ممكن بمجموع العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الأخطا التي منها تتركب الأدوية لأعراض القلوب كلها . ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر . وكما أن أقسام الصبر مختلفة ، فأقسام العلل المانعة منه مختلفة . وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج . إذ معنى العلاج مضادة العلة وقعها . واستيفاء ذلك مما يطول ، ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة فنقول :

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً ، وقد غلبت عليه الشهوة ، بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه ، إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوات ، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول . قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى . وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر ، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر . فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الشهوة . فأما باعث الشهوة ، فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدها : أن ننظر إلى مادة قوتها ، وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها . فلا بد من قطعها بالصوم الدائم ، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام

قليل في نفسه ، ضعيف في جنسه . فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة

الثاني : قطع أسبابه المهيجة في الحال . فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة . إذ النظر يحرك القلب ، والقلب يحرك الشهوة . وهذا يحصل بالفزلة ، والاختراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهة ، والفرار منها بالسكينة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ ، وَهُوَ سَهْمٌ يَسُدُّهُ الْمَمُونُ وَلَا رَسٌّ يَمْنَعُ مِنْهُ إِلَّا تَغْمِيزُ الْأَجْفَانِ ، أَوْ الْهَرْبُ مِنْ صَوْبِ رَمِيهِ . فَإِنَّهُ إِنَّمَا يرمى هَذَا السَّهْمُ عَنْ قَوْمِ الصُّورِ . فَإِذَا انْقَلَبَتْ عَنْ صَوْبِ الصُّورِ لَمْ يَصْبِكْ سَهْمُهُ

الثالث : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشبهه . وذلك بالنكاح فإن كل ما يشبهه الطبع في المباحات من جنسه ما يفتنى عن المحظورات منه . وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر . فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يجمع الشهوة في حق أكثر الرجال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) « عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءٌ » ، فهذه ثلاثة أسباب . فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح ، وعن الكلب الضارى ، ليضعف فتسقط قوته . والثانى يضاهى تفتيب اللحم عن الكلب ، وتفتيب الشمير عن البهيمة ، حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشيء قليل مما يعيل إليه طبعها ، حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين ، فإنما تكون بطريقتين :

أحدهما : إطعامه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر ، وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثران ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة ، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا في نفيس ، فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال . وهذا من باب المعارف ، وهو من الإيمان . فتارة يضمف ، وتارة يقوى . فإن قوي قوي باعث الدين ، وهيجه تهيجا شديدا . وإن ضعف ضعفه ، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين ، وهو المحرك لعرصة الصبر . وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر

والثانى : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا ، قليلا قليلا ، حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيستجريء عليها ، وتقوى منتهى في مصارعتها . فإن الاعتياد والممارسة للأعمال

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام إبليس : تقدم غير مرة

(٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم - الحديث : تقدم في الكاح

الشاقة ، تؤكد القوى التى تصدر منها تلك الأعمال . ولذلك تزيد قوة المحالين ، والفلاحين ، والمقاتلين . وبالجملة ففوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين ، والمطارين ، والفقهاء ، والصالحين . وذلك لأن قوام لم تتأكد بالممارسة

فالملاج الأول يضاهاى إطماع المصارع بالخلمة عند الغلبة ، ووعده بأنواع الكرامة ، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال ( وَإِنَّا نَكُفُّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُتَّقَرِّبِينَ <sup>(١)</sup> ) والثانى يضاهاى تمويد الصبي الذى يراد منه المصارعة والمقاتلة ، بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ، ويستجرب عليه ، وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين . ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت . ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها معها أراد فهذا من هاج الملاج فى جميع أنواع الصبر . ولا يمكن استيفاؤه . وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس . وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له ، بأثقع الشهوات الظاهرة ، وآثر العزلة ، وجلس المراقبة والذكر والفكر فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له ألبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهر أو باطن ، بالفرار عن الأهل ، والولد ، والمال ، والجاه ، والرفقاء ، والأصدقاء . ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت ، وبعد القناعة به . ثم كل ذلك لا يكفى ما لم تصرف الهموم هيا واحدا ، وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفى ذلك ما لم يكن له مجال فى الفكر ، وسير بالباطن فى ملكوت السموات والأرض ، ومعجائب صنع الله تعالى ، وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك بجاذبة الشيطان ووسواسه . وإن لم يكن له سير بالباطن ، فلا ينجبه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة من القراءة ، والأذكار ، والصلوات . ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور . فإن الفكر بالباطن هو الذى يستترق القلب دون الأوراد الظاهرة . ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو فى جميع أوقانه عن حوادث تتجدد ، فتشغله عن الفكر والذكر من مرض ، وخوف ، وإيذاء من إنسان ، وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يفينه فى بعض أسباب المعيشة ، فهذا أحد الأنواع الشاغلة

وأما النوع الثاني : فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول ، وهو اشتغاله بالمطعم ، والملبس ، وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا توجب إلى شغل ، إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم لها أكثر الأوقات ، إن لم تهجم به ملة أو واقعة . وفى تلك الأوقات يصفو القلب ، ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى ، فى ملكوت السموات والأرض ، ما لا يقدر على عشر عشره فى زمان طويل ، لو كان مشغول القلب بالعلائق . والانتهاى إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد

فأما مقادير ما ينكشف . ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى فى الأحوال والأعمال ، فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويحل الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الحظ . والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ، فإنها توازى أعمال الثقلين . وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا . فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها . فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَّا تَقْتَمِرَّصُوا لَهَا ، وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية ، إذ قال الله تعالى ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ <sup>(١)</sup> ) وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا ، فلا ندري متى يسر الله تعالى أسباب الرزق . فما علينا إلا تفرغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض ، وينقيها من الحشيش ، ويث البذر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا مطر . ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلى سنة عن مطر . فكذلك فلما تحلوسنة ، وشهر ، ويوم ، عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة . كما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع ، وعند ظهور الغيم ، فيقوى انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهمم

(١) الناريات : ٢٢



وتساعد القلوب ، كما في يوم عرفة . ويوم الجمعة . وأيام رمضان . فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته ، حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت . أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء ، واستجرار الفيوم من أنظار الجبال والبحار . بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب ، فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بمحفر القنى أسهل وأقرب من استرسال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا في القلب ، ومنسبيا بالشغل عنه ، سمي الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا فقال تعالى ( إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَلَيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ <sup>(٣)</sup> ) فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل ، وهو آخر درجات الصبر . وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله . السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن ، وهجران الخلق في حب الحق شديد . والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ، ثم شدة هجران الخلق . وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه ، فإن لذة الرياسة ، والغلبة ، والاستعلاء ، والاستتباع ، أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء . وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ، والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب ، لما فيه من المناسبة لأموال الربوبية . وعنه العبارة بقوله تعالى ( قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي <sup>(٤)</sup> )

وليس القلب مذموما على حبه ذلك ، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين ، المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالم الأمر ، فأضله وأغواه . وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ! فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه ، وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكالا لا نقصان فيه . وهذه كلها من أوصاف الربوبية

(١) الحجر : ٩ (٢) إبراهيم : ٥٢ (٣) القمر : ١٧ (٤) الإسراء : ٨٥

وليس مذموما على طلب ذلك . بل حق كل عبد أن يطلب مُلِكا عظيما لا آخر له : وطالب الملك طالب للعلو ، والعز ، والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان . ملك مشوب بأنواع الآلام ، وملحوق بسرعة الانصرام ، ولكنه عاجل ، وهو في الدنيا ، وملك غلد دائم ، لا يشوبه كدر ولا ألم ، ولا يقطعه قاطع ، ولكنه آجل . وقد خلق الإنسان عجولا راغبا في العاجلة . فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة المجلة التي في طبعه ، فاستفواه بالعاجلة ، وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحق ، فوعده بالمرور في الآخرة ، ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْإِمَانِي » فأنخدع المخدول بفروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم يتدل الموفق بمجل غروره ، إذ علم مداخل مكره ، فأعرض عن العاجلة . فعبّر عن المخدولين بقوله تعالى ( كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَتَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ <sup>(٣)</sup> )

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق ، أرسل الله الملائكة إلى الرسل ، وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك المدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي ، الذي لأصل له إنسلم ، ولادوام له أصلا ، فنادوا فيهم ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا تَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(٤)</sup> )

فالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، ووصف موسى وإبراهيم ، وكل كتاب منزل ، ما نزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم الخلد . والمراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ، ملوكا في الآخرة . أما ملك الدنيا فالزهد فيها ، والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لافناء فيه ، وعزا لا ذل فيه ، وقررة عين أخفيت في هذا العالم ، لاتملها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا ، لعله بأن ملك الآخرة يفوت به . إذ الدنيا والآخرة ضربتان . ولعله بأن الدنيا لاتسلم له أيضا

(١) النيامة : ٢٠ (٢) الدهر : ٢٧ (٣) النجم : ٢٩ ، ٣٠ (٤) التوبة

ولو كانت تسلم له اكان يحسده أيضا . ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المازعات والمكدرات ، وطول المعموم فى التدبيرات . وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقضى العمر ( حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزانت وظن أهلها أنهم قادرون عنيها أتاهم أمرنا ناليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم ننن بالأمس <sup>(١)</sup> ) فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال تعالى ( وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاجتلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح <sup>(٢)</sup> ) . والزهد فى الدنيا لما أن كان ملكاً حاضراً ، حسده الشيطان عليه ، فصدته عنه . ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان . وهذا ملك بالاستحقاق . إذ به بصير صاحبه حراً . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخراً مثل البهيمة ، مما لوكا يستجره زمام الشهوة آخذاً بتختفه إلى حيث يريد ويهوى . فذاً أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكاً وينال الربوبية بأن يصير عبداً . ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً فى الدنيا ، منكوساً فى الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف اطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ! فقال كيف ؟ قال من أنت عبده فهو عبدلى فقال كيف ذلك ؟ قال أنت عبد شهوتك ، وغضبك ، وفرجك ، وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدلى . فهذا إذا هو الملك فى الدنيا . وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخرة فالخذوعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً . والذين وقفوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ، ومدخل الغلط فى ذلك ، وكيفية تعمية الشيطان وتليسه ، يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته . إذ تصير بتركه ملكاً فى الحال وترجو به ملكاً فى الآخرة . ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه ، فلا يكفيه فى العلاج مجرد العلم والكشف . بل لابد وأن يضيف إليه العمل ويعمله فى ثلاثة أمور :

أحدها : أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه ، فيعسر عليه الصبر مع

(١) يونس : ٢٤ (٢) الكهف : ٤٥

الأسباب . كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض ، إذ قال تعالى . ( أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا <sup>(١)</sup> )  
 الثاني : أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده . فيبدل التكلف بالتبذل ،  
 وزى الحشمة بزى التواضع . وكذلك كل هيئة ، وحال ، وفعل ، في مسكن ، وملبس ،  
 ومطعم ، وقيام ، وعود كان يمتاده ، وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بتقائضها ، حتى  
 يرسخ باعتياد ذلك ضد مارسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة

الثالث : أن يراعي في ذلك التلطف والتدرج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى  
 من التبذل ، فإن الطبع نفور ، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج . فيترك البعض ويسلي  
 نفسه بالبعض . ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداء بترك البعض من ذلك البعض إلى أن  
 يقنع بالبقية ، وهكذا يفعل شيئا فشيئا ، إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه . وإلى  
 هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ  
 بِرَفْقٍ وَلَا تَبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ فَإِنَّ الْأُمْنِيَّةَ لَأَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى ،  
 وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ <sup>(٢)</sup> « لَا تُشَادُوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادَهُ يَغْلِبْهُ »

فإذا ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس ، وعن الشهوة ، وعن الجاه ، أضفه إلى  
 ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات ، فاتخذ  
 دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل . فإن تفصيل الآحاد  
 يطول . ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه ، كما كان  
 يشق عليه الصبر معه ، فتعكس أموره ، فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا ، وما كان مكروها  
 عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق . وله نظير في العادات  
 فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع العلم  
 حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم ، انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم ،

( ١ ) حديث ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق - الحديث : أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث

جابر وتقدم في الاوراد

( ٢ ) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه : تقدم فيه

(١) النساء: ٩٧

والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض المارفين أنه سئئ الشبلى  
عن الصبر ، أليه أشد ؟ فقال : الصبر في الله تعالى . فقال لا . فقال الصبر لله . فقال لا . فقال  
الصبر مع الله . فقال لا . فقال فإيش ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشبلى صرخة كادت  
روحه تلتف . وقد قيل في معنى قوله تعالى ( اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَآبِطُوا <sup>(١)</sup> ) ( اصبروا في الله  
وصابروا بالله ، وربطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله  
وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل في معناه

والصبر عنك فذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر يجعل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجعل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأساره

## الشرط الثاني

من الكتاب في الشكر وله ثلاثة أركان

الأول : في فضيلة الشكر وحقيقته ، وأقسامه وأحكامه الثاني : في حقيقة النعمة  
وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : في بيان الأفضل من الشكر والصبر

## الركن الأول

في نفس الشكر

## بيان

فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله في كتابه مع أنه قال ( وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ <sup>(٢)</sup> )  
فقال تعالى ( فَأَذْكُرُوا لِي إِذْ كُرْتُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ <sup>(٣)</sup> ) وقال الله تعالى  
( مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ <sup>(٥)</sup> )

<sup>(١)</sup> آل عمران : ٢٠٠ <sup>(٢)</sup> التكبوت : ٤٥ <sup>(٣)</sup> البقرة : ١٥٣ <sup>(٤)</sup> النساء : ١٤٧ <sup>(٥)</sup> آل عمران : ١٤٥

وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ<sup>(١)</sup>) قيل هو طريق الشكر ، واملو رتبة الشكر ، طعن اللعين في الخلق فقال ( وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى ( وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ<sup>(٣)</sup>) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ( لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ<sup>(٤)</sup>) واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة فقال تعالى ( فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنِ شَاءَ<sup>(٥)</sup>) وقال ( فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنِ شَاءَ<sup>(٦)</sup>) وقال ( يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ<sup>(٧)</sup>) وقال ( وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ<sup>(٨)</sup>) وقال ( وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ<sup>(٩)</sup>) وهو خلق من أخلاق الربوبية ، إذ قال تعالى ( وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ<sup>(١٠)</sup>) وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى ( وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ<sup>(١١)</sup>) وقال ( وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(١٢)</sup>) . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ » وروي عن<sup>(٢)</sup> عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها ، فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجيباً ؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي ، أو قالت في لحافي ، حتى مس جلدي جلده ، ثم قال « يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ذَرِينِي أَنْعَبِدُ لِرَبِّي » قالت قلت إنني أحب قربك لكنني أوتر هوالك . فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء ، فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي ، فبكي حتى سالت

( ١ ) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنان وفي إسناده اختلاف ( ٢ ) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجيباً - الحديث : في بكانه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجيباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرًا على آخر الحديث :

(١) الاعراف : ١٦ (٢) الاعراف : ١٧ (٣) سبأ : ١٣ (٤) ابراهيم : ٧ (٥) التوبة : ٢٨ (٦) الأنعام : ٤١

(٧) البقرة : ٢١٢ (٨) النساء : ٤٨ (٩) التوبة : ١٥ (١٠) التغابن : ١٧ (١١) الزمر : ٧٤ (١٢) يونس : ١٠

دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة . فقلت يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال « أَفَلَا أكونُ عَبْدًا شَكُورًا وَلَمْ لَأَفْعَلْ ذَلِكَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ » (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ<sup>(١)</sup>) الآية . وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ماروي أنه مر بمض الأنبياء بحجر صنير يخرج منه ماء كثير ، فتمعجب منه . فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى (وَتُؤَدُّهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ<sup>(٢)</sup>) فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيره من النار ، فأجاره . ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك . فقال لم تبكي الآن؟ فقال ذلك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور . وقاب العبد كالحجارة أو أشد قسوة . ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال<sup>(٣)</sup> « يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَقُمْ الْحَمَادُونَ فَتَقُومُ زُمَرَةٌ فَيُنْصَبُ لَهُمْ لُؤَالٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » قيل ومن الحمادون؟ قال « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ » وفي لفظ آخر « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « الْحَمْدُ رِذَاءُ الرَّحْمَنِ » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ، في كلام طويل . وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين : إن دارهم دار السلام ، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر ، وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، بالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه : أي المال تتخذ؟ فقال عليه السلام<sup>(٥)</sup> « لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَا كِرَامٍ وَقَلْبًا شَاكِرًا » فأمر بابتناء القلب الشاكر بدلا عن المال . وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان

(١) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون - الحديث : الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث

ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة الحمادون - الحديث : وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور

(٢) حديث الحمد رداء الرحمن : لم أجده أصلًا في الصحيح من حديث أبي هريرة الكبير رداؤه - الحديث :

وتقدم في العلم

(٣) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانًا ذا كرام وقلبا شاكرًا - الحديث : تقدم في الكلام

(٤) البقرة : ١٧٤ (٢) البقرة : ٢٤

## بيان

حد الشكر وحقيقته

أعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين . وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل . فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال . والحال يورث العمل . فأما العلم ، فهو معرفة النعمة من المنعم . والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان . ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر . فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه فالأصل الأول : العلم . وهو علم بثلاثة أمور . بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقه وبذات المنعم ، ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ، ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة . فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا في حق غير الله تعالى . فأما في حق الله تعالى ، فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله ، وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته . وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس . إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة ، فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد ، وما عداه غير مقدس ، وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة ، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال <sup>(١)</sup> « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَلَهُ عَشْرُونَ حَسَنَةً وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَلَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » وقال <sup>(٣)</sup> « لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ الْأَذْكَارِ يُضَاعَفُ مَا يُضَاعَفُ الْحَمْدُ لِلَّهِ »

( ١ ) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات - الحديث : تقدم في الدعوات

( ٢ ) حديث أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله : الترمذى وحسه والنسائى في اليوم والليلة

وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر

( ٣ ) حديث ليس شئ من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله : لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا

في كتاب الشكر عن ابراهيم النخعي يقال ان الحمد أكثر الكلام تضاعفا



ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات، من غير حصول معانيها في القلب. فسبحان الله كلمة تدل على التقديس. ولا إله إلا الله، كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال. فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيضاله إليه، فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه. بل منه بوجه، ومن غيره بوجه: فيتوزع فرحه عليهما، فلا يكون موحدا في حق الملك. نعم لا ينص من توحيد في حق الملك وكال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه، وبالكاغد الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما، بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك في الإيصال، وأنه لورد الأمر إليه، ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته، لما سلم إليه شيئا. فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل، كنظره إلى القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركا في توحيد من إضافة النعمة إلى الملك. وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله، علم أن الشمس، والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، كالقلم مثل في يد الكاتب. وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها. فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت. كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك، ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده. فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده، فهو مضطر، إذ ساط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي، وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به. وبمد أن خالق الله له هذا الاعتقاد، لا يجد سبيلا إلى تركه. فهو إذاً إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك. ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك. ولو لم يعلم أن منفعتك في منفعتك لما أعطاك فهو إذاً إنما يعطيك لنفسه بنفسك، فليس منعمًا عليك. بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها. وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك، وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات

ما صار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك ، فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا ، وقدرت على شكره . بل كنت بهذه المعرفة بمجرد ما شاكر . ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي خلقت آدم بيديك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل . اعلم أن كل ذلك مني ، فكانت معرفته شيكرا . فإذا لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه . فإن خالجت ريب في هذا لم تكن حارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده ، بل وبغيره . فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح ، وبنقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل

الأصل الثاني : الحال . المستمدة من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع . وهو أيضا في نفسه شكر على تجرده ، كما أن المعرفة شكر . ولكن إنما يكون شيكرا إذا كان حاويا بشرطه ، وبشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإلزام . ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه ، فنضرب لك مثلا فنقول . الملك الذي يريد الخروج إلى سفر ، فأنعم بفرس على إنسان ، يتصور أن يفرح بالمنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه .

أحدها : أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس ، وأنه مال ينتفع به ، ومركوب يوافق غرضه ، وأنه جواد نفيس . وهذا فرح من لاحظ له في الملك ، بل غرضه الفرس فقط . ولو وجدته في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح

الوجه الثاني : أن يفرح به لامن حيث أنه فرس ، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به ، وشفقته عليه ، واهتمامه بجانبه . حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء ، أو أعطاه غير الملك ، لكان لا يفرح به أصلا ، لاستغنائاه عن الفرس أصلا ، أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك . الوجه الثالث : أن يفرح به ليركبه ، ليخرج في خدمة الملك ، ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه . وربما يرتقى إلى درجة الوزارة ، من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرسا ، ويعتق به هذا القدر من العناية . بل هو مطالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطة ثم أنه ليس يريد من الوزارة للوزارة أيضا ، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب ، لا يختار القرب .

فهذه ثلاث درجات . فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً ، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ، وفرحه بالفرس لا بالمعطى . وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه ، فهو بعيد عن معنى الشكر . والثانية: داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ، ولكن لا من حيث ذاته ، بل من حيث معرفة عنايته التى تستحقه على الإناعام فى المستقبل . وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكروونه ، خوفاً من عقابه ، ورجاءً لثوابه . وإنما الشكر التام فى الفرح الثالث : وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى ، والنزول فى جواره ، والنظر إلى وجهه على الدوام . فهذا هو الرتبة العليا . وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ، ويمينه عليها . ويجزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذیذة ، كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج ، بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك ، حتى تدوم مشاهدته له ، وقربه منه . ولذلك قال الشبلى رحمه الله . الشكر رؤية المنعم لأروية النعمة . وقال الخواص رحمه الله

شكر العامة على المطعم والملبس والمشرّب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب  
وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن ، والفرح ، ومدركات  
الحواس من الألوان والأصوات ، وخلا عن لذة القلب . فإن القلب لا يلتذ فى حال الصحة  
إلا بذكر الله تعالى . ومعرفة ، ولقائه . وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات ، كما يلتذ بعض  
الناس بأكل الطين ، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الجلوة ، ويستحل الأشياء المرة ، كما قيل

ومن يك ذاقم مرمرىض يجنّ صرا به الماء الزلالا

فإذا هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى . فإن لم تكن إبل فعزى . فإن لم يكن هذا فالدرجة  
الثانية . أما الأولى فنخارجة عن كل حساب . فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ، ومن  
يريد الفرس للملك . وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه ، وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه  
الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق  
بالقلب ، وباللسان . وبالحوارج . أما بالقلب ، فمقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان  
فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالحوارج ، فاستعمال نعم الله تعالى فى

طاعته ، والتوقى من الاستماتة بها على معصيته . حتى أن شكر العيين أن تستر كل عيب تراه لمسلم . وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه . فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء . والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى ، وهو مأمور به . فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لرجل » كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » قال بخير . فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره . فقال صلى الله عليه وسلم « هَذَا الَّذِى أَرَدْتُ مِنْكَ » وكان السلف يتساءلون وينتهم استخراج الشكر لله تعالى ، لىكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا . وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق . وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر ، أو يشكو ، أو يسكت . فالشكر طاعة . والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين . وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ، وييده كل شيء ، إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ! فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء ، وأفضى به الضعف إلى الشكوى ، أن تكون شكواه إلى الله تعالى . فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز . والشكوى إلى غيره ذل . وإظهار النذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ <sup>(١)</sup>) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ <sup>(٢)</sup>) فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب لىتكلم ، فقال عمر . الكبر الكبر . فقال يأمير المؤمنين ، لو كان الأمر بالسن لكان فى المسامين من هو أسن منك . فقال تكلم . فقال . لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة . أما الرغبة ، فقد أوصلها إلينا فضلك . وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك . وإيمانحن وفد الشكر ، جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هى أصول معانى الشكر ،

( ١ ) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذى أردت منك : الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال فى الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه فى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو لىس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله اليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك فى الموطأ متوقفا على عمر باسناد صحيح

(١) العنكبوت ١٧. (٢) الاعتراف : ١٩٤

المحيطة بمجموع حقيقته . فاما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال ، إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل : إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، جامع لأكثر معاني الشكر ، لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيليا إشارة إلى أن المعرفة من معاني الشكر فقط . وقول الجنيدى . الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة ، إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص . وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم . فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تنفق . ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم ، اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم . أو يتكلمون بما يرونه لا تقابح السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه . فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم ، وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التى شرحناها كانوا يذكرونها . بل لا يظن ذلك بما قل أصلا ، إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ ، فى أن إسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ، أم يتناول بعضها مقصودا ، وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه . ولسنا نقصد فى هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات ، فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شيء ، والله الموفق برحمته

## بيان

طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر . فإننا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلمهم فى القلوب ، ويظهر كرمهم عند الناس ، فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التى هي إعانة لهم على بعض أغراضهم . أو بالثول بين أيديهم فى صورة الخدم ، وذلك تكثير سوادهم ، وسبب لزيادة جاههم . فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشئ من ذلك . وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين . أحدهما : أن الله تعالى منزّه عن الخطو وظو الأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإماتة ، وعن نشر الجاه والخشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين

يديه ركعاً سجداً . فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه ، يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا ، أو نسجد أو نركع ، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ، ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها . الوجه الثاني : أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا . إذ جوارحنا ، وقدرتنا ، وإرادتنا ، وداعتنا ، وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا من خالق الله تعالى ونعمته . فكيف نشكر نعمة بنعمة ! وأعطانا الملك مركوباً ، فأخذنا مركوباً آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوباً آخر ، لم يكن الثاني شكراً للآخر منا ، بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول . ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالاً في حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك في الأمرين جميعاً . والشرع قد ورد به . فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام ، فقال : يارب كيف أشكرك ؟ وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفي لفظ آخر . وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك . فأوحى الله تعالى إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكراً . فإن قلت : فقد فهمت السؤال ، وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم ، فإنني أعلم استحالة الشكر لله تعالى . فأما كون العلم باستحالة الشكر شكراً فلا أفهمه . فإن هذا العلم أيضاً نعمة منه . فكيف صار شكراً ؟ وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر . وأن قبول الخلة الثانية من الملك شكراً للخلة الأولى . والفهم قاصر عن درك السرفيه . فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم : أن هذا قرع باب من المعارف ، وهي أعلى من علوم المعاملة . ولكننا نشير منها إلى ملامح وتقول . ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض ، وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر ، وأنه المشكور ، وأنه المحب ، وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً . لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام . ومثل هذا الغير لا وجود له ، بل هو محال أن يوجد . إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه . وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود . بل هو قائم بغيره ، فهو موجود بغيره . فإن

اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره ، لم يكن له وجود ألبتة . وإنما الموجود هو القائم بنفسه .  
والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقي موجودا . فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم  
بوجوده وجود غيره ، فهو قيوم . ولا قيوم إلا واحد . ولا يتصور أن يكون غير ذلك  
فإذا أليس فى الوجود غير الحي القيوم ، وهو الواحد الصمد . فإذا نظرت من هذا المقام ،  
عرفت أن الكل منه مصدره ، وإليه مرجعه . فهو الشاكر ، وهو المشكور . وهو المحب  
وهو المحبوب . ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قال ( إنا وجدناه صابراً ثم  
التبّد لأنه أوّاب<sup>(١)</sup> ) فقال . واعجبا ! أعطى وأثنى . إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه  
فعلى نفسه أثنى . فهو المثنى وهو المثنى عليه . ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث  
قرىء بين يديه ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ<sup>(٢)</sup> ) فقال : لعمري يحبهم ، ودعه يحبهم ، فبحق يحبهم  
لأنه إنما يحب نفسه . أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب . وهذه رتبة عالية لا تفهمها  
إلا عثال على حد عقلك . فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه ، فقد أحب نفسه ،  
والصانع إذا أحب صنغته ، فقد أحب نفسه . والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده ،  
فقد أحب نفسه . وكل ما فى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله وصنغته . فإن أحبه  
فما أحب إلا نفسه . وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب . وهذا كله نظر بعين  
التوحيد . وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بقاء النفس . أي قبي عن نفسه وعن غير الله ، فلم  
ير إلا الله تعالى . فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول . كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع !  
ولعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز ؟ فيضحك عليهم الجهال ، لجهلهم بعماني كلامهم  
وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين . وإليه الإشارة بقوله تعالى ( إن الذين  
أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى  
أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين<sup>(٣)</sup> )  
ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم ، إذ قال تعالى ( فاليوم الذين آمنوا من الكفار  
يضحكون على الآراءئك ينظرون<sup>(٤)</sup> ) وكذلك أمة نوح عليه السلام ، كانوا يضحكون  
عليه عند اشتغاله بعمل السفينة ( قال إن تسخروا مثا فإنا نسخر منكم كما تسخرون<sup>(٥)</sup> )

(١) ص : ٤٤ (٢) المائة : ٥٤ (٣) (٤٣) (٤) اللطيفين : ٢٩ ، ٣٥ (٥) هود : ٢٨

فهذا حد النظرين. النظر الثاني: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه. وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا  
إلا وجود أنفسهم، وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد. وهؤلاء هم العميان المنكوسون  
وعمام في كلتا العينين، لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا، وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه  
وقائم على كل نفس بما كسبت، وكل قائم فقام به. ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا  
أنفسهم. ولو عرفوا العلموا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم، ولا وجود لهم. وإنما وجودهم  
من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا. وفرق بين الموجود وبين الموجد. وليس في الوجود  
إلا موجود واحد، وموجد. فالموجود حق، والموجد باطل من حيث هو هو. والموجود  
قائم وقيوم، والموجد هالك وفان. وإذا كان (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) فلا يبقى إلا وجه  
ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثاني: ليس بهم عمى، ولكن بهم عور. لأنهم  
يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق، فلا ينكرونه. والعين الأخرى إن تم  
عماهم يبصر بها فناء غير الموجود الحق. فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى. وهذا مشرك  
تحقيقا، كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا. فإن جاوز حد العمى إلى العمش، أدرك تفاوتنا بين  
الموجودين، فأثبت عبدا وربا. فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر  
داخل في حد التوحيد. ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه. وبقدر ما يزيد في  
بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى. فإن بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به  
النقصان إلى المحو، فيمنحى عن رؤية ما سوى الله، فلا يرى إلا الله. فيكون قد بلغ كماله  
التوحيد. وحيث أدرك نقصان وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد.  
وبينهما درجات لا تحصى. فهذا تفاوت درجات الموحدين. وكتب الله المنزلة على السنة  
رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار. والأنبياء هم الكحالون. وقد جاءوا داعين  
إلى التوحيد المحض، وترجمته قول لا إله إلا الله. ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق.  
والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون. والجاحدون والمشركون أيضا قليلون. وهم على  
الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد. إذ عبدة الأوثان - قالوا ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا  
إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ) فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضيقا. والمتوسطون



هم الأكثرون ، وفيهم من تفتح بصيرته في بعض الأحوال ، فتلوح له حقائق التوحيد ، ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ، ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز لكل إلى شأو الملا حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب ، فقبل له ( وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ <sup>(١)</sup> ) قال في سجوده « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستماذ بفعله من فعله . ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات ، فقال « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ » وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا في التوحيد ، فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفه ، ولكنه رأى نفسه فارا منه إليه ، ومستعيذا ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه ، إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال « لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « لَا أَحْصِي » خبر عن فناء نفسه ، وخروج عن مشاهدتها . وقوله « أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ » يان أنه المثنى والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وأن « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ <sup>(٢)</sup> » فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموجدين ، وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل . فالنظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بمداب الإضافة إلى الثانية . فكان يستغفر الله من الأولى . ويرى ذلك نقصا في سلوكه وتقصيرا في مقامه

(١) حديث قال في سجوده أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ - الحديث : مسلم من حديث عائشة أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِعَافَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ - الحديث .

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى اسْتَغْفِرَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما ، بعضها فوق البعض ، وأولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ، ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها . فكان استغفاره لذلك <sup>(٢)</sup> ولما قالت عائشة رضي الله عنها . أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فإلهذا البكاء في السجود ، وما هذا الجهد الشديد ؟ قال «أَفَلَا أكونُ عَبْدًا مَشْكُورًا ، معناه أفلا أكون طالبا للمزيد في المقامات ، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) <sup>(١)</sup> . وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، ولترجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا الدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه . ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة ، وعقبات شديدة . وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة ، وقطع تلك العقبات . وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر ، فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر ، والشاكر ، والمشكور . ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول . يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بدمته مركوبا ، وملبوسا ، وتقدا ، لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ، ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان . إحداهما : أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ، ويكون له عناية في خدمته ، والثانية : أن لا يكون للملك حظ في العبد ، ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد في ملكه ، لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء . وغيبته لا تنقص من ملكه . فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد ، أن يحظى العبد بالقرب منه ، وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه ، لا لينتفع الملك به وبانتفاعه . فنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى . فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال

(١) حديث أبي يعان على قلبي - الحديث : تقدم في التوبة وقوله في الدعوات

(٢) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء - الحديث : رواه أبو الشيخ

وهو بقرينة حديث عطاء عنها للتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عورة

عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبه

(١) إبراهيم : ٧

ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى ، بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ، ما لم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية : فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا . ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا وكافرا . ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه . وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه ، بأن يعطله ، أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ، فهما لبث العبد الثوب ، وركب الفرس ، ولم ينفق الزاد إلا في الطريق ، فقد شكره مولاه ، إذ استعمل نعمته في محبته ، أي فيما أحبه لعبد له لا لنفسه . وإن ركب واستدبر حضرته ، وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته ، أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبد له لا لنفسه . وإن جلس ولم يركب ، لافى طلب القرب ولا في طلب البعد ، فقد كفر أيضا نعمته ، إذ أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه . فكذلك خلق الله سبحانه الخلق ، وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات ، لتكمل بها أبدانهم ، فيبعدون بها عن حضرته ، وإنما سعادتهم في القرب منه . فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال ( لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا <sup>(١)</sup> ) الآية فإذا نعم الله تعالى آتات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة ، فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه ، وبين أن يستعملها في معصيته ، فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له . فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية ، فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ، ونيل القرب من الله تعالى ، فسكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال ، أو عاص استعملها في طريق البعد ، فهو ، كافر جار في غير محبة الله تعالى ، فالمعصية والطاعة تشملها المشيئة ، ولكن لاتشملها المحبة والكرهية ، بل رب مراد محبوب ، ورب مراد مكروه ، ووزراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه ، وقد أحل بهذا

(١) التين : ٤ ، ٥ ، ٦

الإشكال الأول . وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر .  
وهذا أيضا ينحل الثاني . فإننا لم نمن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله .  
فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله ، فقد حصل المراد . وفعلك عطاء من الله تعالى  
ومن حيث أنت محله فقد أتى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك . فهو الذي أعطى ،  
وهو الذي أتى . وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته . فله الشكر على  
كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر ، بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه ،  
لا بمعنى أنك موأجد له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم ، لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجد  
ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك . فوصفك بأنك شاكر إثبات  
شيئية إليك ، وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا . وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت  
ظانا لنفسك شيئا من ذاتك . فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء أشياء ، فأنت شيء  
إذ جعلك شيئا . فإن قطع النظر عن جملة كنت لاشيء تحقيقا . وإلى هذا أشار صلى الله  
عليه وسلم حيث قال <sup>(١)</sup> « اَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » لما قيل له : يا رسول الله ففيم  
العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟

فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى . ومحل أفعاله ، وإن كانوا هم أيضا من أفعاله  
ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اَعْمَلُوا » وإن كان جاريا على لسان الرسول  
صلى الله عليه وسلم ، فهو فعل من أفعاله . وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم  
فعل من أفعال الله تعالى . والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة . وانبعاث  
الداعية أيضا من أفعال الله تعالى . وهو سبب لحركة الأعضاء ، وهي أيضا من أفعال الله تعالى  
ولكن بعض أفعاله سبب للبعض . أى الأول شرط للثاني ، كما كان خلق الجسم سببا لخلق  
العرض ، إذ لا يخلق العرض قبله . وخلق الحياة شرط لخلق العلم . وخلق العلم شرط لخلق  
الإرادة . والسكل من أفعال الله تعالى ، وبعضها سبب للبعض . أى هو شرط ومعنى كونه  
شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ، ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ؛  
ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم . فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى ، لا بمعنى أن بعض أفعاله  
موجد لغيره ، بل ممد شرط الحصول لغيره . وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له : متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين

فإن قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأتهم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم ؟ وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا . والاعتقاد سبب لهيجان الخوف . وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الفرور . وذلك سبب للوصول إلى جوار الله ، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها . فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذا لأسباب ، حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة . ويعبر عن مثله بأن كلاميسر لما خلق له . ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام العلماء ، فإذا لم يسمع لم يعلم . وإذا لم يعلم لم يخف . وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا . وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدم أجمعين . فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل . فامن أحد إلا وهر مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم والخوف عليه . وامن مخذول إلا وهو مقود إلى النار بسلاسل ، وهو تسليط الغفلة والأمن والفرور عليه . فالمتقون يسافون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا . ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ، ولا قادر إلا الملك الجبار . وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشهدوا الأمر كذلك ، سمعوا عند ذلك نداء المنادى (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم ، لذلك اليوم على الخصوص . ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم . فهو نأعما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال ، حيث لا ينفعهم الكشف . فنعمو بالله الحليم الحكيم من الجهل والعمى ، فإنه أصل أسباب الهلاك

## بيان

تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بعرفة ما يحبه الله تعالى مما يكرهه . إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في مجابهة ، ومعنى الكفر تقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال

أو باستعمالها في مكارمه . ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان . أحدهما : السمع ،  
ومستنده الآيات والأخبار ، والثاني : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار . وهذا  
الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز . فلذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطريق  
على الخلق . ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد . فمن لا يطلع  
على أحكام الشرع في جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا .

وأما الثاني : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود  
خلقه . إذ ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود  
هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية ، فكالملم بأن الحكمة في  
خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا ، والليل لباسا  
فتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار . فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل  
الحكم فيها . بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة . وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول  
الأمطار ، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع الثبات مطعما للخلق ، ومرعى للأتعام . وقد  
انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحملها أفهام الخلق ، دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه  
إذ قال تعالى (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَابًا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا<sup>(١)</sup>) الآية  
وأما الحكمة في سائر الكواكب ، السيارة منها والثوابت ، فخفية لا يطلع عليها كافة  
المخلق . والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء ، لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار  
إليه قوله تعالى (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ<sup>(٢)</sup>) . فجميع أجزاء العالم ، سماؤه  
وكواكبه ، ورياحه ، وبحاره ، وجباله ، ومعادنه ، ونباته ، وحيواناته ، وأعضاء حيواناته  
لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة ، من حكمة واحدة ، إلى عشرة ، إلى ألف ، إلى عشرة آلاف  
وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها ، كالملم بأن العين للإبصار واللبطش ،  
واليد للبطش والمشى ، والرجل للمشي لا للشم . فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء ، والمرارة  
والكبد ، والكلى ، وآحاد المروق ، والأعصاب ، والعضلات ، وما فيها من التجاويف ،  
والالتفاف ، والاشتباك ، والانحراف ، والدقة ، والغلظ ، وسائر الصفات ، فلا يعرف

(١) عبس : من ٢٥ إلى ٢٨ (٢) الصفات : ٦

الحكمة فيها سائر الناس . والذين يعرفونها لا يعرفون منها الاقدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى ( وَمَا أُرِيدُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(١)</sup> ) . فإذا كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ، ولا على الوجه الذي أريد به ، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى . فن ضرب غيره بيده ، فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه . لالهلك بها غيره . ومن نظر إلى وجه غير المحرم ، فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليصير بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتق بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملهما في غير ما أريدتا به . وهذا لأن المراد من خلق الخلق ، وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا ، والتجاني عن غرور الدنيا . ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض ، والماء ، والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض ، وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً . فكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ <sup>(٢)</sup> ) الآية فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولتذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء ، حتى تعتبر بها ، وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول :

من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير . وبهما قوام الدنيا ، وهما حجران لامنفعة في أعيانها ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه ، وملبسه ، وسائر حاجاته . وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك الزعفران ، مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جملة . بكل مقدار من الزعفران . ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشتري داراً بثياب ، أو عبداً بخنجر ، أو دقيقتاً

بجمار ، فهذه الأشياء لاتناسب فيها ، فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعران ، فتعذر المعاملات جدا . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها ، يحكم فيها بحكم عدل ، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته . حتى إذا تقررت المنازل ، وترتبت الرتب ، علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي ، فخلق الله تعالى الدنانير والدرام حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال هذا الجمل يسوى مائة دينار ، وهذا القدر من الزعران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذاً متساويان . وإنما أمكن التعديل بالنقدين ، إذ لاغرض في أعيانها . ولو كان في أعيانها غرض ، ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ، ولم يقتض ذلك في حق من لاغرض له ، فلا ينتظم الأمر . فإذا خلقهما الله تعالى لتداولهما الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل . ولحكمة أخرى ، وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء ، لأنهما عاززان في أنفسهما ، ولا غرض في أعيانها . ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة . فن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء هو صورته كأنه ليس بشيء ، وهو معناه كأنه كل الأشياء . والشئ إنما تستوى نسبته إلى المختلفات ، إذ لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها . كالرأة لالون لها . وتحكى كل لون . فكذلك النقد لاغرض فيه ، وهو وسيلة إلى كل غرض . وكالحرف لا معنى له في نفسه ؛ وتظهر به المعاني في غيره . فهذه هي الحكمة الثانية . وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها . فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم ، بل يخالف القرض المقصود بالحكم ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما . فإذا من كنزها فقد ظلمها ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ، ولا يحصل القرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ، إذ لاغرض للأحد في أعيانها ، فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتداولهما الأيدي ، فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة معرفة للمقادير ، مقومة للمراتب . فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية ، المكتوبة على صفحات الموجودات



بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ، أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى ( وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ <sup>(١)</sup> ) . وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة ، فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالا ممن كثر . لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة ، والمكس ، والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس : والحبس أهون منه . وذلك أن الخرف ، والرصاص ، والنحاس ، تنوب متاب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد . وإنما الأواني لحفظ المائعات . ولا يكتفى الخرف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود . فن لم ينكشف له هذا ، انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له <sup>(١)</sup> « مَنْ شَرِبَ فِي آتِيَةِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَكَأَنَّمَا يُجْرُجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ ، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما ختقا لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما . فإذا آجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا تقدمه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد ، فيتوصل به إلى مقصوده ، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانها . وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون : إن الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره . وموقع المرأة من الألوان فأما من معه نقد ، فلو جازله أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله ، فيبقى النقد مقيدا عنده ، وينزل منزلة المسكنوز . وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم . فلامعنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للاذخار ، وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز يبيع أحد التقدين بالآخر ؟ ولم جاز يبيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد

( ١ ) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة لم يصرح الصنف بكونه حديثا .

التقديرن يخالف الآخر في مقصود التوصل . إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا . ففي المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم يمثله فجائز ، من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما نساويا ولا يشتغل به تاجر ، فإنه عبث مجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانحاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا ننع مما لا تشوق النفس إليه ، إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر . وذلك أيضا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء ، فلا ينتظم المقدم . وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده ، فلا جرم نمنه منه ، ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه . ومالا غرض في عينه فلا ينبغى أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته . وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب التقود مختلفة في الجودة والرداءة ، حتى صارت مقصودة في أعيانها ، وحقها أن لا تقصد

وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة ، فإنما لم يجوز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسمح قاصد للإحسان ، ففي القرض وهو مكرمة مندوحة عنه ، لتبقى صورة المسامحة ، فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر . فهو أيضا ظلم ، لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعاوضة . وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها ، أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف عن جهتها . فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ، ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له . فما خاق الله الطعام إلا ليؤكل . والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ، ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ؟ ولم يجعله بضاعة تجارة ؟ وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه . ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر ، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب

نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في الفرض ، وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ، ولكنه عابث ، فلا يحتاج إلى منم ، لأن النفوس لا تسمح به

إلا عند التفاوت في الجودة ، ومقابلة الجيد بثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد .  
وأما جيد برديئين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأظعمة من الضروريات ، والجيد يساوى  
الرديء في أصل الفائدة ، ويخالفه في وجوه التنعم ، أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام  
فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه ،  
فلنلحق هذا بفن الفقهيات ، فإنه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات

وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأظعمة دون المكيلات  
إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول . ولولا الملح لكان مذهب  
مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه ، إذ خصه بالأقوات . ولكن كل معنى يراه الشرع  
فلا بد أن يضبط بحد ، وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت ، وكان ممكنا بالمطعم ، فرأى الشرع  
التحديد بجنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء . وتحديدات الشرع قد تحيط  
بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم . ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة  
ولو لم يجد لتحجير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص . فمعين  
المعنى بكال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فيكون الحد ضروريا . فلذلك  
قال الله تعالى ( وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ <sup>(١)</sup> ) ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف  
فيها الشرائع . وإنما تختلف في وجوه التحديد ، كما يجد شرع عيسى بن مريم عليه السلام  
تحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر ، لأن قليله يدعو إلى كثيره  
والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس ، كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية

فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقيدين . فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها  
بهذا المثال . فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها . ولا يعرف هذا إلا من قد  
عرف الحكمة ( وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا <sup>(٢)</sup> ) ولكن لاتصادف  
جواهر الحكم في قلوب هي مزايل الشهوات ، وملاعب الشياطين . بل لا يتذكر إلا أولوا  
الآبَاب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَوْ لَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَمْحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ

( ١ ) حديث لولان الشياطين يحومون على بن آدم انظروا الى ملكوت السموات : تقدم في الصوم

( ٢ ) الطلاق : ١ (٢) البقرة : ٢٦٩

بَنَى آدَمَ لِنَظَرُوا إِلَى مَلَكَوَاتِ السَّمَاءِ » . وإذا عرفت هذا المثل فقس عليه حركتك وسكونك ، ونطقك وسكوتك . وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر . إذ لا يتصور أن ينفك عنهما . وبمض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكرامة ، وبمضه بالحظر . وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمن فقد كفرت نعمة الدين ، إذ خلق الله لك اليدين ، وجعل إحداها أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل . وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر إلا بالعدل . ثم أحوك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة . فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزات النجاسة باليمن ، فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ، ففضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل . وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة ، أو استقبلتها في قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سمة العالم ، لأنه خلق الجهات لتكون متمسك في حركتك ، وقسم الجهات إلى مالم يشرفها ، وإلى ماشرفها بأن وضع فيها يتا أضافه إلى نفسه ، استمالة لقلبك إليه ، ليتقيد به قلبك ، فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك . وكذلك انقسمت أفعالك إلى ماهي شريفة كالطاعات ، وإلى ماهي خسيسة كقضاء الحاجة ، ورمي البصاق . فإذا رميت بصفاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها ، وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة ، التي بوضعها كمال عبادتك . وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لأن الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداة في الحظوظ ينبى أن تكون بالأشرف ، فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقويضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل . وهذا عند العارفين كبيرة ، وإن سماه الفقيه مكروها . حتى أن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الخنطة ، وكان يتصدق بها ، فمثل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا ، فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام ، وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها . فقبیح أن يقال الذي شرب الخمر ، وأخذ القدح

بيساره ، فقد تعدى من وجهين . أحدهما : الشرب ، والآخر : الأخذ باليسار . ومن باع خيرا في وقت النداء يوم الجمعة ، فقيح أن يقال خان من وجهين . أحدهما : بيع الخمر ، والآخر : البيع في وقت النداء . ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة ، فقيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة ، من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه . فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض ، فينمحق بعضها في جانب البعض . فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه . ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده ، لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه . فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب ، وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام ، فسببه هذه الضرورة . وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل ، وكفران للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغه للعبد إلى درجات القرب . نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالسكينة عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين . وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد ، فإنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة والأعمال المينة على الطاعة . وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالى ، وخلق له العروق ، وساق إليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ، ليلبغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده ، مخالفه لمقصود الحكمة ، وعدول عن العدل . فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جملا فداء لا غراض الإنسان فإنهما جميعا فانيان هالكان . فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة متأقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَائِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ<sup>(١)</sup>) . نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا . لأن كل شجرة بمنها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم ، بل تفي بحاجة واحدة . ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما ، فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضع في الأرض وساق إليه الماء ، وقام بالتمهد ، فهو أولي به من غيره ، فيرتجح جهانه بذلك . فإن نبت ذلك

في موات الأرض ، لابسعي آدمي اختص بغيرسه أو بغيرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر ، وهو السبق إلى أخذه . فللسابق خاصية السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به . وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض . إذ لا ملك إلا لملك المملوك ، الذي له ماني السموات والأرض . وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه ! بل هو ملك غيره . نعم الخلق عباد الله ، والأرض مائدة الله . وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم . كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها برأجه ، فجاء عبد آخر وأراد اتزاعها من يده ، لم يمكن منه ، لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد ، فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ، ولكن إذا كانت كل لقمة بيمينها لا تنفي بحاجة كل العبيد ، فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفر دبه العبد ، فنزع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته . فمكذبا ينفي أن تفهم أمر الله في عباده . ولذلك تقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته ، وكثره وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه ، فهو ظالم وهو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله . وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم ، وترتفع حاجاتهم . نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه ؛ لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة . فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار ، والتؤدة ، والسكوت عن كل كلام غير مهم . وهو بحكم تقصانهم لا يطيقونه . فتركنا الاعتراض عليهم في اللب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم ، لا يدل على أن اللهو واللعب حق

فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال ، والاقتصار في الإتفاق على قدر الزكاة ، لضرورة ما جبلوا عليه من البخل ، لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القراءن إليه إذ قال تعالى ( **إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا** <sup>(١)</sup> ) بل الحق الذي لا كدورة فيه ، والعدل الذي لا ظلم فيه ، أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الركب . فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان ، إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ، ثم منعه عن ركب

آخر محتاج إليه ، فهو ظالم تارك للعدل ، وخارج عن مقصود الحكمة ، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرءان ، والرسول ، والعقل ، وسائر الأسباب التى بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة . فن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات ، قدر على القيام بوظيفة الشكر . واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ، ثم لاني إلا بالقليل . وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى ( وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ <sup>(١)</sup> ) وفرح إبليس لعنة الله بقوله ( وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ <sup>(٢)</sup> ) فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله ، وأموراً آخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مبادئها . فأما تفسير الآية ومعنى لفظها ، فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة فى كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتام تلك الحكمة ، وبلوغها غاية المراد منها ، وجعل بعض أفعالهم مانعاً من تمام الحكمة . فكل فعل وافق مقتضى الحكمة ، حتى انسأقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر . وكل ماخالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران . وهذا كله مفهوم . ولكن الإشكال باق وهو أن فعل العبد المنتقسم إلى ما يتمم الحكمة ، وإلى ما يرفعها ، هو أيضاً من فعل الله تعالى . فأين العبد فى البين حتى يكون شاكر أمرة وكافر أخرى ؟

فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقدر مرنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها . ونحن الآن نعبر بمبارة وجيزة عن آخرها وغايتها ، يفهمها من عرف منطق الطير ، ويحجدها من عجز عن الإيضاح فى السير ، فضلاً عن أن يجول فى جو الملكوت جولان الطير . فنقول : إن لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع . وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة ، حتى يعبر عنها بمبارة تدل على كنهه جلالها ، وخصوص حقيقتها . فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها ، وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يتمدطف فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم ، كما تنخفض أبصار الخفايش عن نور

(١) سبأ : ١٣ (٢) الاعراف : ١٧

الشمس ، لا لغموض في نور الشمس ، ولكن لضعف في أبصار الخفافيش . فاضطر  
الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها ، إلى أن يستهروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات  
عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا . فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب  
استعارتهم على النطق ، فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق والاختراع  
ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام ، وخصوص صفات ومصادر انقسام هذه الأقسام  
واختصاصها بخصوص صفاتها ، صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت ، عبارة  
المشيئة . فهي توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات ، التي هي حروف وأصوات المتفاهمين  
بها . وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها ، كتصور لفظ القدرة  
ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المتسهي الذي هو غاية حكمتها  
وإلى ما يقف دون الغاية . وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة ، لرجوعها إلى الاختصاصات  
التي بها تم القسمة والاختلافات . فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة  
الواقف دون غايته عبارة الكراهة : وقيل إنهما جميعا داخلان في وصف المشيئة ، ولكن  
لكل واحد خاصية أخرى في النسبة ، يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند  
طالب الفهم من الألفاظ واللغات . ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه  
إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك  
قهرًا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم ، وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم  
لسيافة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور . فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة  
خاصة . فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف  
بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل  
وقف الحكمة به دون غايتها ، فلستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة  
في النكال . وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له  
عبارة الشكر ، وأردف بخلمة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال  
فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله  
أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ، ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تم زينته قال يا جميل



ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ! فيكون بالحقيقة هو الجميل ، وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يشن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الشناء من حيث الظاهر والصورة . فهكذا كانت الأمور فى الأزل ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب . ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث ، بل عن إرادة ، وحكمة ، وحكم حق ، وأمر جزم ، واستعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلعج بالبصر أو هو أقرب . ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم ، بما سبق به التقدير ، فاستهبر لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد السكلى ، ولفظ القدر بإزاء التعميل المتماهى إلى غير نهاية . وقيل إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر . فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل . وكان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر ، والاحتواء على مجامعه ، فألجأوا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع . وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

وامتلات مشكاة بمعنىهم نورا مقتبساً من نور الله تعالى فى السموات والأرض ، وكان ريتهم أولاً صافياً يكاد يضىء ولو لم تمسه نار ، فسته نار ، فاشتمل نورا على نور ، فأشرفت أقطار الملوكوت بين أيديهم بنور رها ، فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه ، فقيل لهم : تأدبوا بأداب الله تعالى واسكتوا ، " وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، فإن للحيطان آذاناً ، وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش ، فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتحلقوا بأخلاق الله تعالى ، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ، ليأنس بكم الضعفاء ، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل ، فيجابه حياة محتلمها شخصه وحاله ، وإن كان لا يجابه به حياة المترددين فى كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شراباً طيباً عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضله وللأرض من كأس الكرام نصيب

( ١ ) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا : الطبرانى من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم ولم يصرح

المنصف بكونه حديثاً

فكذا كان أول هذا الأمر وآخره . ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له . وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك . والأعمى ممكن أن يقاد ، ولكن إلى حد ما . فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، قدر الطائر على أن يطير عليه ، ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى . وإذا دق المجال ، واطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه ، وربما يقدر على أن يستجر وراءه آخر . فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو مجال جماهير الخلق ، كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض . والسباحة يمكن أن تتعلم ، فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم ، بل ينال بقوة اليقين . ولذلك <sup>(١)</sup> قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن عيسى عليه السلام يقال أنه مشي على الماء . فقال صلى الله عليه وسلم « لو ازداد يقيناً لمشي على الهواء » فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة ، والرضا والغضب ، والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها . وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أنهام الخلق إذ عرف أنه ما خاق الجن والإنس إلا لعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم . ثم أخبر أن له عبيد ، يجب أحدهما واسمه جبريل ، وروح القدس ، والأمين ، وهو عنده محبوب ، مطاع ، أمين ، مكين ، ويبغض الآخر واسمه ابليس ، وهو اللعين ، المنظر إلى يوم الدين . ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ( قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ <sup>(٣)</sup> ) وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ( لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ <sup>(٤)</sup> ) والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة . فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه . والإرشاد سياقه لهم

( ١ ) حديث قيل له يقال أن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء هذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال فقد الحواريون نبهم فقبل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشى على الماء فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروي أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث

معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور وتزالت بدعائكم الجبال

إلى الغاية . فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه . وعندك في العادة له مثال . فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب ، وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات ، وكان له عبدان ، فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أحبهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما ، وأكملها ، وأحبها إليه . ولا ينبغي أن تقول هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ، فإنك أخطأت ، إذ أضفت ذلك إلى نفسك . بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه ، والفعل المحبوب بالشخص المحبوب ، إتماما للعدل . فإن عدله تارة يتم بأمر لا مدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك . فإنك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك ، وعلمك ، وعملك ، وسائر أسباب حركاتك ، في التعبير هو فعله ، الذي رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لا ترى إلا نفسك ، فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لعب الشمعد ، الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص ، وترعق ، وتقوم ، وتقع ، وهي مؤلمة من خرق لا تحرك بأنفسها ، وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ، ورؤوسها في يد الشمعد ، وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون ، لظنهم أن تلك الخرق ترقص ، وتلعب وتقوم وتقع . وأما العقلاء ، فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله . والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه الشمعد الذي الأمر إليه والجازبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا . والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء . ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة ، فيحيلون عليها . والعلماء يعلمون أنهم محركون ، إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك ، وهم الأكثرون ، إلا المارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية ، بل أدق منها بكثير ، معلقة من السماء ، متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض ، لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها . وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحرّكين للسماوات . وشاهدوا أيضا ملائكة السماوات

مصروفة إلى حملة العرش ، ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن فقيل ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ <sup>(١)</sup> ) وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل ( خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا <sup>(٢)</sup> ) وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتماها أفهام الخلق ، حيث قرأ قوله تعالى ( يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ <sup>(٣)</sup> ) فقال : لو ذكرت ما عرفه من معنى هذه الآية لرجعتوني وفي لفظ آخر لقلتم إنه كافر . ولنتصر على هذا القدر ، فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار، وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه ، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول

إذا رجع حقيقة الشكر إلى قول العبد مستعملا في إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه . وأقربهم إلى الله للملائكة ، ولهم أيضا ترتيب . وما منهم إلا وله مقام معلوم . وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام . وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام . وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض . ويلي درجتهم درجة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم أختيار ، وقد هدى الله بهم سائر الخلق ، وتم بهم حكمته . وأعلام رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ، إذ أكل الله به الدين . وختم به النبيين . ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره . ثم يليهم السلاطين بالعدل ، لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولاجل اجتماع الدين ، والملك والسلطنة ، لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان أفضل من سائر الأنبياء . فإنهم أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم . ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء . ثم يلي العلماء والسلاطين ، الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم . ومن علما هؤلاء فهمج رعاع

(١) الهياوت : ٢٣ (٣٠٢) الطلاق : ١٢ .

واعلم أن السلطان به قوام الدين ، فلا ينبغي أن يستحقروا إن كان ظلما فاسقا ، قال عمرو ابن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنه تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرُ فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمْ الْأَجْرُ وَعَلَيْكُمْ الشُّكْرُ وَإِنْ أَسَاؤُوا فَعَلَيْهِمُ الْوِزْرُ وَعَلَيْكُمْ الصَّبْرُ » وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق . ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع . ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير ؟ فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان ! فقال مهلا ، إن لله تعالى كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع في صحيفته فيفقرله جميع ذنبه وكان يقول : الخسبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصا يقصون .

## الركن الثاني

من أركان الشكر ، ما عليه الشكر

وهو النعمة . فلنذكر فيه حقيقه النعمة ، وأقسامها . ودرجاتها ، وأصنافها ، وبجانبها فيما يخص ويعم . فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى ( وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ) (١) فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين في معرفة النعم ، ثم نستغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر - الحديث : مسلم من حديث أم سلمة يسعمل عليكم أمراء معروفون وتكفرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبخاري بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أحده هذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أسكروا صيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله اسبروا فإن جورا ما مكتم خمسين سنة خير من هرح شهر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثا والأملة الفاجرة خير من المرح رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به

# بيان

## حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة . ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية . وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط ، وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تمين على الآخرة نعمة ، فإن ذلك غلط محض . وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق . فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها ، إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق ، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة ، واللذات المسماة نعمة ، نشرحها بتقسيمات . القسمة الأولى أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا ، كالعلم وحسن الخلق ، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا ، كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع في الحال وبضر في المآل ، كالتلذذ بتباع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل ، كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا . كالعلم وحسن الخلق . والضرار فيها من البلاء تحقيقا ، وهو ضدهما . والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة . ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم ، فإنه يمدده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه . والضرار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال . ومثاله الدواء البشع في الحال مذكاه ، إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة . فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يمدده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ، ويقربه منه ، ويهيئ له أسبابه . ولذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة ، والأب يدعوها إليها ، فإن الأب لكال عقله يلمع العاقبة ، والأم لفرط حبيها ونصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ، ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوآله . ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطنا في صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل .

وكل إنسان فإنه صديق نفسه ، ولكنه صديق جاهل . فلهذا تعمل به مالا يعمل به المدور . قسمة ثانية . اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة ، قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال ، والأهل ، والولد ، والأقارب ، والجاه ، وسائر الأسباب . ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضرره ، كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص ، كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما يكافئ ضرره نفعه . وهذه أمور تختلف بالأشخاص . فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثرت ، فينفقه في سبيل الله ، ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقه . ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا ، إذ لا يزال مستصغرا له ، شاكيا من ربه ، طالبا الزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه

قسمة ثالثة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول : ما يؤثر لذاته لا لغيره ككثرة النظر إلى وجه الله تعالى ، وسعادة لقاءه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا تقضاء لها ، فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها

الثاني : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته ، كالدرهم والدنانير ، فإن الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة . ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات ، سرية الإيصال إليها ، صارت عند الجهال محبوبة في نفسها ، حتى يجمعوها ويكثروها ، ويتصارفوا عليها بالربا ، ويظنون أنها مقصودة . ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا . فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ، ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل ، فيعرض عنه طول عمره ، ولا يزال مشغولا بتمهيد الرسول ومراعاته وتفقدته ، وهو غاية الجهل والضلال .

الثالث : ما يقصد لذاته ولغيره ، كالصحة والسلامة ، فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصولين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا . وتقصد أيضا لذاتها ، فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله ، فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة . فإذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة الحقيقية ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما ما يؤثر إلا لغيره كالنقدين

فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ، ومعها الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عنده الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغل وجودهما عن الفكر والعبادة ، فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة . قسمه رابعة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ، ولذيذ ، وجميل . فالذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المآل ؛ والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشرورا أيضا تنقسم إلى ضار ، وقبيح ومؤلم . وكل واحد من القسمين ضربان . مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة ، أما في الخير فكالعلم والحكمة ، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة . وأما في الشر فكالجهل ، فإنه ضار وقبيح ومؤلم . وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ، ويرى نفسه جاهلا ، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنعه الحسد ، والكبر . والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاوزه متضادان ، فيعظم ألمه . فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات ، أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة والضرب الثاني : المقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض . فرب نافع مؤلم ، كقطع الأصبع المتأكلة ، والسلعة الخارجة من البدن . ورب نافع قبيح كالحق ، فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له ، فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه . ورب نافع من وجه ضار من وجه ، كإلقاء المال في البحر عند خوف العرق ، فإنه ضار للمال ، نافع للنفس في نجاتها والنافع قسما : ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأغنى بهما العلم والعمل ، إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما ، وإلى مالا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء ، فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه

قصة خامسة : اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ . واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض



الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلاذة العلم والحكمة . إذ ليس يستلذها السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب ، لاخصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل . وهذه أقل اللذات وجودا ، وهى أشرفها . أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم ، والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لاتزول أبدا ، لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، ودائمة لا تمل . فالطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يفرغ منها فنستقل ، والعلم والحكمة فظ لا يتصور أن تمل وتستنقل . ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد ، إذا رضي بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد ، فهو مصاب فى عقله ، محروم لشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظه ، بخلاف المال . إذ العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال . والعلم يزيد بالإففاق ، والمال يتقص بالإففاق ، والمال يسرق ، والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ، ولا أيدي السلاطين بالزول ، فيكون صاحبه فى روح الأمن أبدا ، وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا . ثم العلم نافع ، ولذيذ ، وجميل ، فى كل حال أبدا . والمال تارة يجذب إلى الهلاك ، وتارة يجذب إلى النجاة . ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن فى مواضع ، وإن سماه خيرا فى مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم ، وإما لعدم الذوق ، فن لم يذق لم يعرف ولم يشفق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإما لفساد أمزجتهم ، ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمرضى الذى لا يدرك حلوة العسل ويراه مررا ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ، ولا يستلذ إلا اللبن . وذلك لا يدل على أنها ليست لذيفة ، ولا استطابته اللبن يدل على أنه ألد الأشياء . فالتقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة : إما من لم يحي باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات . وقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ<sup>(١)</sup>) إشارة إلى مرض المقول . وقوله عز وجل (لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا<sup>(٢)</sup>) إشارة إلى من لم يحي

(١) القرة : ١٠ : (٢) يس : ٧٠

حياة باطنة . وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى ، وإن كان عند الجهال من الأحياء . ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ، وإن كانوا موتى بالأبدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات ، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة : ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا ، وهي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة ، وهو أشدها التصاقا ، بالمتنافلين . فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة ، فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب . وآخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون . وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون . فأما قمها بالسكية حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال ، فيشبهه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر ، بل تعتريه الفترات ، فتعود إليه الصفات البشرية ، فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل

وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام . قلب لا يحب إلا الله تعالى ، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لا يدري مالذة المعرفة ، وما معنى الأُنس بالله ، وإنما لذته بالجاء ، والرياسة . والمال ، وسائر الشهوات البدنية ، وقلب أغلب أحواله الأُنس بالله سبحانه ، والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ، ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد .

وأما الثاني : فالدنيا طالحة به . وأما الثالث والرابع : فهو جودان ، ولكن على غاية الندور . ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا . وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرتة في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام . فلا يزال يزداد

المهد طولا ، وترداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة ، والملك عزيز ، والملوك لا يكثر ، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا ، وأكثر الناس من دونهم ، فكذا في ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة ، والآخرة عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود ، فإنها أولى في حق رؤيتك . فإنك لا ترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أولا ، فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة . فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة ، وانقلب المتأخر متقدما . وهذا نوع من الانعكاس . ولكن الانعكاس والانعكاس ضرورة هذا العالم . فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت . فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال ( فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ <sup>(١)</sup> ) . ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة ، وسينفتح إلى حبسه أبواب جهنم . وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفتدة ، إلا أن بينه وبين إدراك أمها حجابا . فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك . وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق ، فقالوا . الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين . وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ، ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين . فلذلك قال الله تعالى ( كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ <sup>(٢)</sup> ) أي في الدنيا ( ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ <sup>(٣)</sup> ) أي في الآخرة ، فإذا قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة ، لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا . فسمعة سادسة : حارية للجامع النعم . اعلم أن النعم تنقسم إلى ماهي غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ماهي مطلوبة لأجل الغاية . أما الغاية فإنها سمادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، ونهي لا فقر بعده ، وهي النعمة

(١) الحشر : ٣ (٢) التكاثر : ٥ (٣) التكاثر : ٧

الحقيقية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ » وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس ، وذلك في وقت <sup>(١)</sup> حمر الخندق في شدة الضر . وقال ذلك مرة في السرور منما للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ، وذلك ، عند إحداق الناس به <sup>(٢)</sup> في حجة الوداع . وقال رجل : <sup>(٣)</sup> اللهم إني أسألك تمام النعمة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَأْتُمُّ النَّعْمَةَ ؟ » قال لا قال « تَأْتُمُّ النَّعْمَةَ دُحُولُ الْخَنَةِ »  
وأما الوسائل فننقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن ، وهو الثاني ، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن ، كالأسباب المطيفة بالبدن من المال ، والأهل والعشيرة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية . فهي إذاً أربعة أنواع النوع الأول : وهو الأخص . الفضائل النفسية . ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة ، وهو العلم بالله تعالى ، وصفاته وملائكته ، ورسله ، وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب ، واسمه العفة ، ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يتنع أصلاً ، ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى ( أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ <sup>(١)</sup> ) فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر ، فقد أخسر الميزان . ومن انتهك في شهوة البطن والفرج ، فقد طغى في الميزان . وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران ، فتعتدل به كفتا الميزان فإذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة . علم مكاشفة ، وعلم معاملة ،

( ١ ) حديث قوله عند حمر الخندق لا عيش الا عيش الآخرة : متفق عليه من حديث أنس  
( ٢ ) حديث قوله في حجة الوداع لا عيش الا عيش الآخرة : الشافعي - رسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم في الحج  
( ٣ ) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة - الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن

وعفة ، وعدالة ولا يتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى . وهو الفضائل البدنية ، وهى أربعة . الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ولا تنبأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث ، وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن ، وهى أربعة : المال ، والأهل ، والجاه ، وكرم المشيرة . ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع ، وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة ، وهى أربعة : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأنيده . فمجموع هذه النعم ستة عشر ، إذ قسمناها إلى أربعة ، وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة . وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض ، إما حاجة ضرورية ، أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق ، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى ، وليس لأحد فى الآخرة إلا ما تزود من الدنيا . فكذلك حاجة للفضائل النفسية تكسب هذه العلوم ، وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى . وأما الحاجة النافعة على الجملة ، فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة ، مثل المال ، والعز ، والأهل فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال ، والأهل ، والجاه والمشيرة ؟ فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ ، والآلة المسهلة للمقصود . أما المال ، فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية ، كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ( نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ) وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْمَالُ » وكيف لا . ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب الأقوات ، وفى تهيئة اللباس ، والمسكن ، وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ، ولا تندفع إلا بسلاح المال .

( ١ ) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد

( ٢ ) حديث نعم العون على تقوى الله المال : أبو منصور الديلى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن

المتكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن التكدز مرسلًا ومن طريقه رواه

القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلًا

ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج ، والزكاة ، والصدقات ، وإفاضة الخيرات . وقال بعض الحكماء ؛ وقد قيل له ما النعيم ؟ فقال الغنى ، فإني رأيت الفقير لا يعيش له . قيل زدنا . قال الأيمن فإني رأيت الخائف لا يعيش له . قيل زدنا . قال العافية . فإني رأيت المريض لا يعيش له . قيل زدنا . قال الشباب . فإني رأيت الهرم لا يعيش له . وكان ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ، ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة . لذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ أَصْبَحَ مُعَاتَى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرِّهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّهَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِمِحْدَا فِيرِهَا »  
وأما الأهل والولد الصالح ، فلا يخفى وجه الحاجة إليهما . إذ قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « نِعْمَ أَلْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد <sup>(٣)</sup> « إِذَا مَاتَ التَّمْبِذُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فهما أكثر أولاد الرجل وأقاربه ، كانوا له مثل الأعين والأيدي ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ، ما لو انفرد به لبطال شغله ، وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذاً نعمة وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضم ، ولا يستغنى عنه مسام ، فإنه لا يتفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يشوش عليه عمله ، وعمله ، وفراغه ، ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه . ولذلك قيل . الدين والسلطان توأمان . قال تعالى (وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ <sup>(١)</sup>) ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم . ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه . فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر ، ووجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه . وعلى هذا القصد كان

( ١ ) حديث من أصبح معاتى في بدنه آمنا في سره - الحديث : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث

عبيد الله بن محسن الانصارى وقد تقدم

( ٢ ) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة : لم أجده اسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو والدنيا

متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة

( ٣ ) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح

(١) البقرة : ٥٢١

الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة ، يراعون السلاطين ، ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين . لا على قصد التناول من خزائهم ، والاستنثار والاستكثار في الدنيا بما يتبعهم . ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث نصره وأكمل دينه ، وأظهره على جميع أعدائه ، ومكن في القلوب حبه ، حتى اتسع عزه وجاهه ، كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة .<sup>(١)</sup>

فإن قلت : كرم المشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « الأئمة من قريش » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام . وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ الْأَكْمَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدَّمَنِ » فقيل وما خضراء

(١) حديث ماناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد بلال الحديث : وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد . ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذوكيد الاثني يواريه ابط بلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال والبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه . الحديث والبخارى وأبو يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلسكم أقتلون رجلا أن يقول ربي الله واسناده صحيح على شرط مسلم

(٢) حديث الأئمة من قريش النسائي والحاكم من حديث أنس باسناد صحيح

(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث وائلة بن الأتقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبى وداعة وحسنه أن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس ما بال أقوام يتنلون أصلى فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا

(٤) حديث تخيروا نطفكم : ابن ماجه من حديث عائشة : وتقدم فى النكاح

(٥) إياكم وخضراء الدمن : تقدم فيه أيضا

الدمن؟ قال « الْمَرْأَةُ أَحْسَنُهَا فِي التَّمَنُّبِ السُّوءِ ، فهذا أيضا من النعم . ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء ، وإلى الصالحين والأبرار ، المتوسمين بالعلم والعمل

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية؟ فأقول لاخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة ، وإلى طول العمر ، إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طَوْلُ الْمُعْمَرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى » وإنما يستحقر من جملة أمر الجمال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات . ولعمري الجمال قليل الغناء ، ولكنه من الخيرات أيضا . أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها . وأما في الآخرة فمن وجهين . أحدهما أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة . وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح . وكل معين على قضاء حاجات الدنيا معين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس ، لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فللمنظر والمخبر كثيرا ما يتلا زمان ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن ، فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنعم . ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس . وقيل مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال . الروح إذا أشرفت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « اطلبوا الخيرَ عِنْدَ صَبَاحِ الْوُجُوهِ » ، وقال عمر رضی الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه ، حسن الاسم . وقال الفقهاء إذا نسأت

( ١ ) حديث أصل العادة طول العمر في عبادة الله : غريب بهذا اللفظ ولا ترمذى من حديث أبي بكر

أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح

( ٢ ) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه : أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد

ابن ثابت بن سبلع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لأعراف حالمها ورواه ابن حبان من وجه

آخر في الضعفاء واليهيقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة



درجات المصلين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة . وقال تعالى ممتنا بذلك ( وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسْمِ <sup>(١)</sup> ) ولسنا نغنى بالجمال ما يحرك الشهوة ، فإن ذلك أنوثة . وإعاننى به ارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال فى اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناصف خلقة الوجه ، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه . فإن قلت فقد أدخلت المال ، والجاه ، والنسب والأهل ، والولد فى حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> ، وكذا العلماء ، قال تعالى ( إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ <sup>(٣)</sup> ) وقال عز وجل ( إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ <sup>(٤)</sup> ) وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرئ ما يحسنه . وقيل . المرء بنفسه لأبائه . فامعنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة ، والعمومات المخصصة ، كان الضلال عليه أغلب ، ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ماهي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها ، بالتأويل مرة ، وبالتخصيص أخرى . فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها . إلا أن فيها فتنا ومخاوف . فشال المال مثال الحية التى فيها تريباق نافع ، وسم نافع . فإن أصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها ، وطريق استخراج تريباقها النافع ، كانت نعمة . وإن أصابها السوادى الفير ، فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر والآلآء ، فمن ظفر بالبحر ، فإن كان عالما بالسباحة ، وطريق الفوص ، وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر ، فقد ظفر بنعمه . وإن خاضه جاهلا بذلك ، فقد هلك . فلذلك مدح الله تعالى المال وسمه خيرا . ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الْمَالُ » وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله ، وحببه فى قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه . ولكن المنقول فى مدحها قليل ، والمنقول فى ذم المال والجاه كثير . وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ، ومعنى الجاه ملك القلوب . وإنما كثر هذا وقل ذلك

(١) حديث ذم المال والجاه : الترمذى من حديث كعب بن مالك ماديبان جاثعان أرسلوا فى غم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه : وقد تقدم فى دم المال والبخل

(١) البقرة : ٢٤٧ (٢) التغابن : ١٤ (٣) التغابن : ١٥

لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال ، وطريق الفوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم ، فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره . ولو كانا في أعيانها مذمومين بالإضافة إلى كل أحد ، لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك ، كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى ، كما كان لسليمان عليه السلام .

فالناس كلهم صبيان ، والأموال حيات ، والأنبياء والعارفون معزومون . فتتديضر الصبي ما لا يضر المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه ، وقد وجد حية ، وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده ، وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك ، فله غرض في الترياق ، وله غرض في حفظ الولد . فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد . فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ، ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ، ويمظم ضرره بهلاكه ، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ، ويشير على الصبي بالهرب ، ويقبح صورتها في عينه ، ويعرفه أن فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدته أصلا بما فيها من نفع الترياق ، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك النواص ، إذا علم أنه لو غاص في البحر برأى من ولده لا تبعه وهلك ، فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينجو الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل ، فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ، ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ » ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّكُمْ تَهَافَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافَتَ الْفَرَّاشِ وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك . وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت . وما فضل فلم يمسكوه ، بل أنفقوه . فإن

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده : مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم  
(٢) حديث إنكم تهافتون على النار تهافت الفرّاش وأنا آخذ بحجركم : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلي ومثل الناس وقال مسلم ومثل أمي كمثل رجل استوقد ناراً فجمعت الدواب والفرّاش يقعن فيه فأنا آخذ بحجركم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجركم عن النار وأنتم تفتلون من يدي

الإتفاق فيه الترياق ، وفي الإمساك السم . ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه ،  
 لمالوا إلى سم الإمساك ، ورغبوا عن ترياق الإتفاق . فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به  
 تقبيح إمساكها ، والحرص عليها للاستكثار منها ، والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون  
 إلى الدنيا ولذاتها . فأما أخذها بقدر الكفاية ، وصرف الفائض إلى الخيرات ، فليس بمذموم  
 وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر ، إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله  
 فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام ، وتوسيع الزاد على الرقباء ، فلا بأس بالاستكثار .  
 وقوله عليه السلام <sup>(١)</sup> « لَيْكُنْ بِلَاغٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّائِبِ » ، معناه لأنفسكم  
 خاصة . وإلا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به ، من يأخذ مائة ألف درهم في موضع  
 واحد ، ويفرقها في موضعه ، ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة ، <sup>(٢)</sup> استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن  
 يخرج عن جميع ما يملكه ، فأذن له . فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين  
 ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، الحديث

فإذا للنعم الدنيوية مشوبة . قد امتزج دواؤها بدائها ، وصرجوها بخوفها ، ونفعا  
 بضرها . فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته ، فله أن يقرب منها متقيا داءها ، ومستخر جادواها  
 ومن لا يثق بها ، فالبعد البعد ، والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تمدل بالسلامة  
 شيئا في حق هؤلاء ، وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه  
 فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية ، والرشد ، والتأييد ، والتسديد ؟  
 فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد . وهو عبارة عن التأليف والتفريق بين إرادة العبد  
 وبين قضاء الله وقدره . وهذا يشمل الخير والشر ، وما هو سعادة وما هو شقاوة .  
 ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره

( ١ ) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب : ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظا لهما  
 وقال بلغة وقال مثل زاد راكب وقال صحيح الأستاد \* قلت هو من رواية أبي سفيان عن  
 أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفي أحدكم مثل زاد راكب  
 ( ٢ ) حديث استئذنان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون  
 الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مره أن يطعم المسكين - الحديث : الحاكم من حديث  
 عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الأستاد \* قلت كلا فيه ناله بن أبي مالك ضعيف جدا

كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق . ولذلك قيل

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ، ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحاً ، فنأين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فلا فائدة في الإرادة ، والقدرة ، والأسباب ، إلا بعد الهداية . ولذلك قال تعالى ( رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَكَلَّمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ اتَّبِعُوا أَمْرًا قَدِيمًا وَمِنْهُ لَعْنَةُ الْكَاذِبِينَ وَاتَّبِعُوا أَمْرًا قَدِيمًا وَمِنْهُ لَعْنَةُ الْكَاذِبِينَ وَاتَّبِعُوا أَمْرًا قَدِيمًا وَمِنْهُ لَعْنَةُ الْكَاذِبِينَ ) وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَيُّ بَهْدَايْتِهِ قَبِيلٌ وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ « وَلَا أَنَا » . ولهداية ثلاث منازل

الأولى : معرفة طريق الخير والشر ، المشار إليه بقوله تعالى ( وَهَدَىٰ بَنَاهُ النَّجْدَيْنِ <sup>(٣)</sup> ) وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده ، بعباده ، وبمضه بالعقل ، وبمضه على لسان الرسل . ولذلك قال تعالى ( وَأَمَّا نُمُودٌ فَمَا هِيَ بِإِيمَانِهِمْ فَاسْتَجَبُوا لِقَوْلِي عَلَى الْهُدَى <sup>(٤)</sup> ) فأسباب الهدى هي الكتب ، والرسل وبصائر العقول . وهي مبذولة . ولا يمنع منها إلا الحسد ، والكبر ، وحب الدنيا ، والأسباب التي تعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الأبصار . قال تعالى ( فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ <sup>(٥)</sup> ) . ومن جملة المعميات الإلف والعادة ، وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى ( إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ <sup>(٦)</sup> ) الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى ( وَقَالُوا لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْآنِ عَظِيمٍ <sup>(٧)</sup> ) وقوله تعالى ( أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ <sup>(٨)</sup> ) فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء والهداية

(١) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله : منفق عليه من حديث أبي هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا لا أن يتغمدني : الله بفضل منه ورحمة وفي رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة - الحديث : واتفقا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم

(١) طه : ٥٠ (٢) النور : ٢١ (٣) البلد : ١٠ (٤) فصلات : ١٧ (٥) الحج : ٤٦ (٦) الزخرف : ٢٢

(٧) الزخرف : ٣١ (٨) القمر : ٢٤

الثانية: وراء هذه الهداية العامة ، وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة ، حيث قال تعالى ( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا <sup>(١)</sup> ) وهو المراد بقوله تعالى ( وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى <sup>(٢)</sup> ) . والهداية الثالثة وراء الثانية ، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيهدى بها إلى ما لا يهدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم . وهو الهدى المطلق ، وماعداً حجاب له ومقدمات . وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه ، وإن كان السكل من جهته تعالى ، فقال تعالى ( قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَبَسَ <sup>(٣)</sup> ) وهو المسمى حياة في قوله تعالى ( أَوْ مَن كَانَ مَبْتَئاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ <sup>(٤)</sup> ) والمعنى بقوله تعالى ( أَقْنِ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ <sup>(٥)</sup> ) . وأما الرشد ، فنغني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده ، فتقويه على ما فيه صلاحه ، وتفقره عما فيه فساده . ويكون ذلك من الباطن ، كما قال تعالى ( وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ <sup>(٦)</sup> ) فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ، محركة إليها . فالصبي إذا بلغ خيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستثناء ، ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستثناء ، لا يسمى رشيداً ، إلا لعدم هدايته ، بل لقصور هدايته عن محرك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم إنه يضره ، فقد أعطى الهداية ، وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ، ولكن ما أعطى الرشد : فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال ، وهي نعمة عظيمة .

وأما التسديد ، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب ، وتيسرها عليه ، ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت . فإن الهداية بمجرد ما لا تكفي . بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد . والرشد لا يكفي ، بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتسديق وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتجريك الأعضاء في صوب السداد .

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) محمد : ١٧ (٣) البقرة : ١٢٠ (٤) الأنعام : ١٢٢ (٥) الزمر : ٢٢ (٦) الأنبياء : ٥١

وأما التأيد، فكأنه جامع للكل . وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج . وهو المراد بقوله عز وجل ( إِذْ أَيْدَتْكَ رُوحُ الْقُدُسِ <sup>(١)</sup> ) وتقرب منه العصمة . وهي عبارة عن وجود إلهي بسبح في الباطن، يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس . وإياه عني بقوله تعالى ( وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ <sup>(٢)</sup> )

فهذه هي مجامع النعم . ولن تثبت إلا بما يحوله الله من الفهم الصافي الثاقب ، والسمع الواعي ، والقلب البصير المتواضع المراعى ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته ، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرتة . والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء . ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا ، إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين، وملجأ المضطرين ؛ وذلك رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يهتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها ، فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ( وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا <sup>(٣)</sup> ) وبالله التوفيق

## بيان

وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا . وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة . فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم تقدر عليها . ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل ، فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة . ولا بد من إرادة للحركة ، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له . ولا بد للأكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه . فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

(١) المائدة : ١١٠ (٢) يوسف : ٢٤ (٣) إبراهيم : ٣٤

## الطرف الأول

في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات ، وهو أكمل وجودا من الحجر ، والمدر ، والحديد ، والنحاس ، وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغذى ، فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض ، وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء ، وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تنشعب ، ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة ، حتى تغيب عن البصر ، إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ، ويمس أصله ، جف وييس ، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر . فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب ، وبالانتقال إليه . والنبات عاجز عن ذلك . فمن نعمة الله تعالى عليك ، أن خلق لك آلات الإحساس ، وآلة الحركة في طلب الغذاء . فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس ، التي هي آلة الإدراك . فأولها : حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة ، أو سيف جارح ، تحس به فتهرب منه . وهذا أول حس يخلق للحيوان . ولا يتصور حيوان إلا ويكوز له هذا الحس ، لأنه إن لم يحس أصلا فليس بحيوان . وأتقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويمسه . فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة . وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التي في الطين ، فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات . فإن النبات يقطع فلا ينقبض ، إذ لا يحس بالقطع . إلا أنك لو لم يخاق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة ، لا تقدر على طاب الغذاء من حيث يبعد عنك . بل ما لمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط . فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك . فخلق لك الشم . إلا أنك تدرك به الرائحة ، ولا تدري أنها جاءت من أى ناحية . فحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب ، فربما تغثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تغثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا . فخلق لك البصر ، لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته ، فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا

لكنت ناقصا ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدواً لا حجاب بينك وبينه . وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو ، فتعجز عن الهرب . فخلق لك السمع ، حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً . وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات ، تدرك بحس السمع . فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك أذنك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات . وكل ذلك ما كان يفنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف ، فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه ورعاً يكون ذلك سبب جفافها . ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر ، يسمى حسامشتركا ، تتأدى إليه هذه المحسوسات الحس ، وتجتمع فيه . ولولا لطل الأمر عليك . فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً ، فوجدته مرا مخالفاً لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ مضر مالم تذوقه ثانياً ، لولا الحس المشترك . إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ؟ والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر ، فيمتنع عن تناوله ثانياً . وهذا كله تشارك فيه الحيوانات . إذ للشاة هذه الحواس كلها ، فلوم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ ، فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها ، وكيف تتخلص إذا قيدت . وقد تلتقي نفسها في بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها . ولذلك قد تأكل البهيمة ما تسنذه في الحال ، ويضرها في ثانی الحال ، فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر . فأما إدراك العواقب فلا . فيترك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من السكل ، وهو العقل . فيه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك ، وهو أحسن فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه . بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة الحكمة في عالمه . وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس



في حثك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي  
 المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به . فواحدة منها بأخبار الألوان ،  
 والأخرى بأخبار الأصوات ، والأخرى بأخبار الروائح ، والأخرى بأخبار الطعوم ،  
 والأخرى بأخبار الحر ، والبرد ، والخشونة ، والملاسة ، واللين ، والصلابة ، وغيرها . وهذه  
 البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها إلى الحس المشترك .  
 والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك ،  
 يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي محتومة ويسلمها ، إذ ليس  
 له إلا أخذها ، وجمعها ، وحفظها . فأما معرفة حقائق ما فيها فلا . ولكن إذا صادف  
 القلب العاقل ، الذي هو الأمير والملك ، سلم إليها آت إليه محتومة ، فيفتشها الملك ،  
 ويطلع منها على أسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا  
 المقام . وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود ، وهي الأعضاء ، مرة في  
 الطلب ، ومرة في الهرب ، ومرة في إتمام التدبيرات التي تعين له . فهذه سبابة نعمة الله  
 عليك في الإدراكات . ولا تظن أنا استوفيناها . فإن الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات  
 والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركب العين من عشر طبقات  
 مختلفة ، بعضها رطوبات وبعضها أغشية . وبعض الأغشية كأنها نسيج المنكبوت ، وبعضها  
 كالشميمة . وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض ، وبعضها كأنه الجمد . ولكل واحدة  
 من هذه الطبقات العشر صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وعرض ، وتدوير ، وتركيب لو اختلفت  
 طبقة واحدة من جملة العشر ، أو صفة واحدة من صفات كل طبقة ، لاختلف البصر ، وعجز  
 عنه الأطباء والكحالون كلهم

فهذا في حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس . بل لا يمكن أن تستوفي  
 حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة ، مع أن جلته لا تزيد  
 على جوزة صغيرة . فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه ومجائبه ، فهذه مرامز  
 إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

## الطرف الثاني

في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ، ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه ، وشهوة له تستحثك على الحركة ، لكان البصر معطلا . فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه . فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك ، يسمى شهوة ، ونفرة عما يخالفك ، تسمى كراهة ، لتطلب بالشهوة ، وتهرب بالكراهة . فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام ، وسلطها عليك ، ووكّلها بك ، كالتقاضى الذى يضطرك إلى تناول ، حتى تتناول وتفتدى ، فتبقى بالغذاء . وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة ، أسرفت وأهلكت نفسك . فخلق الله لك الكراهة عند الشبع ، لتترك الأكل بها ، لا كالزرع ، فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد ، فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى . وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك ، خلق لك شهوة الجماع ، حتى تجامع فيبقى به نسلك . ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم ، وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض ، وكيفية خلق الأثنيين والمروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة المروق ، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور ؛ وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغعة وعلقة ، ثم عظام ولحما ودماء ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ، ويد ، ورجل وبطن ، وظهر ، وسائر الأعضاء ، لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب ، فضلا عما تراه الآن . ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام فإذا شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يسفئك ، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب . فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت عرضة للإفات ، ولأخدمتك كل ما حصلته من الغذاء . فإن كل واحد يشهى ما في يديك ، فتحتاج

إلى داعية في دفعه ومقاتلته ، وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك ، إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال . وأما في المال ، فلا تكفي فيه هذه الإرادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى ، مسخرة تحت إشارة العقل المعرف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة ، قم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرك لا يفنيك في الاحتراز عنها ، ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة . وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم ، كما أفردت بعرفة العواقب . وقد سمينا هذه الإرادة اعثا دينيا ، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا

## الطرف الثالث

في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب . وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب . فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه ، مدرك له ، ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناول له لفقد يده ، أو لقاج وخدر فيهما . فلا بد من آلات للحركة ، وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً ، وبمقتضى الكراهية هرباً . فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها . فمنها ما هو للطلب والهرب ، كالرجل للإنسان ، والجنح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان . وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة ، فخلق له الجناح ليطير بسرعة . ومنها ما خلق له أربع قوائم . ومنها ما له رجلان . ومنها ما يدب . وذكر ذلك يطول . فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ، ليقاس عليها غيرها فنقول . رؤيتك الطعام من بُعد ، وحركتك إليه لا تكفي ، ما لم تتمكن من أن تأخذه . فافتقرت إلى آلة باطشة ، فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين ، وهما طرفان ممتدان إلى الأشياء ، ومشملمان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات ، وتمتد وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة . ثم جعل رأس اليد عريضا

بخلق الكف . ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع . وجعلها في صفيين . بحيث يكون الإبهام في جانب . ويدور على الأربعة الباقية . ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك . فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة ، وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتهما كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض . ثم خلق لها أظفارا ، وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تنفتت ، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك . ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين ، فمن أين يكفيك هذا ، ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر دهايز إليها ، حتى يدخل الطعام منه . فجعل الفم منفذا إلى المعدة ، مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة ، فلا يتيسر ابتلاعه ، فحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنًا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة إلى القطع . ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك . فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس . وإلى حادة قواطع كالرباعيات . وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب . ثم جعل مفصل اللحيين متخللا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر ، حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى . ولولا ذلك لما تيسر لإضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحي الأسفل متحركا حركة دورية واللحي الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجب صنع الله تعالى ، فإن كل رحى صنع الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنع الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى . فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فناء الفم ، فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان ، أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها ، أو كيف يتصرف باليد في داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالجرفة التي ترد الطعام إلى الرسى . هذا مع ما فيه من فائدة الذوق . وعجائب قوة النطق . والحكم التي لسانا نطلب بذكرها . ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته

وهو يابس ، فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها ، وينصب بقدر الحاجة ، حتى ينعجن به الطعام . فانظر كيف سخرها لهذا الأمر ، فإنك ترى الطعام من بعد ، فيثور الحنكان للخدمة ، وينصب اللعاب حتى تتحلب أشدافك ، والطعام بعد بعيد عنك . ثم هذا الطعام المطحون المنعجن ، من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ، ولا تقدر على أن تدفعه باليد ، ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام . فانظر كيف هيا الله تعالى المريء والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ، ثم تنطبق وتنضبط حتى يتقلب الطعام بضغطه ، فيهورى إلى المعدة في دهليز المريء . فإذا ورد الطعام على المعدة ، وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة ، بل لا بد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه . فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر ، فيقع فيها الطعام ، فتحوى عليه ، وتعلق عليه الأبواب ، فلا يزال لا يثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ، ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب ، فتتبدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب ، حتى ينطبخ الطعام ويصير مائما متشابهها ، يصلح للنفوذ في تجاويف العروق . وعند ذلك يشبه ماء الشمير في تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق ، وجعل لها فوهات كثيرة ، حتى ينصب الطعام فيها ، فينتهى إلى الكبد .

والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد ، فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ، وينتشر في أجزائها ، حتى تستولى عليه قوة الكبد ، فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ، ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح اغذاء الأعضاء . إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم . فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ ، إحداهما شبيهة بالدردي والمكر وهو الخلط السوداوى ، والأخرى شبيهة بالرغوة ، وهي الصفراء . ولولم تفصل عنها

الفضلتان فند مزاج الأعضاء . فخلق الله تعالى المرارة والطحال ، وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد ، داخل في تجويفه . فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ، ويجذب الطحال العكر السوداء . فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة ، لما فيه من المائية . ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ، ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين ، وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخل في تجويف الكبد ، بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد ، حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد . إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق . فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث ، تقيا من كل ما يفسد الغذاء . ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجري الدم الصافي فيها ، ويصل إلى سائر الأعضاء ، حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار ، بحيث لا تدرك بالأبصار ، فيصل منها الغذاء بالشرح إلى سائر الأعضاء . ولوحلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم ، وحصل منه الأمراض الصفراوية ، كاليرقان والبثور والحمرة . وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداء ، حدثت الأمراض السوداء ، كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها . وإن لم تندفع المائية نحو الكلا حدثت الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم ، كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة ، أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقها ، وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ، ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلفة ، ويحدث في الأمعاء لدفع محركها للدفع ، فتتضغظ حتى يندفع الثفل وينزاق ، وتكون صفرة لذلك وأما الطحال فإنه يجلب تلك الفضلة لإحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها في كل يوم شيئا إلى فم المعدة ، فيحرك الشهوة بحموضته ، وينبهها ويثيرها ، ويخرج الباقي مع الثفل وأما الكلى فإنها تقتذى بما في تلك المائية من دم ، وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء

الرئيسة إلى صاحبه ، وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن ، وبواسطتها يصل الحس ، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركيب الأعضاء ، وعدد عظامها ، وعضلاتها ، وعروقها وأوتارها ، ورباطاتها ، وغضاريفها ، ورطوباتها ، لطال الكلام . وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه . بل في الآدي آف من المضلات ، والعروق ، والأعصاب . مختلفة بالصغر ، والكبر ، والدقة والغلاظ ، وكثيرة الانقسام وقتله ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان ، أو ثلاث ، أو أربع ، إلى عشر وزيادة . وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك ، لو سكن من جاتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت بامسكين . فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا ، لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أحسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والجمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ، ويتعب فينام ، ويشتهي فيجامع ، ويستنفض فينفض ويرمح . فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرفه الجمار ، فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك . وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط . فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل . وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى ، أقل من قطرة من بحر . إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من ممانى قوله تعالى ( وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا <sup>(١)</sup> ) . ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء ، وقوام منافعها وإدراكها وقواها ببخار لطيف ، يتصاعد من الأخلط الأربعة ، ومستقره القلب ، ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك ، وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذى يدار في أطراف البيت ، فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت ، من خلق الله تعالى واختراعه ، وليكنه جعل السراج سبباً له بحكمته . وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ، ومحل القلب : ومثاله جرم نار السراج ، والقلب له كالمسرجة ، والدم الأسود

الذى فى باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء  
البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت . وكما أن السراج إذا انقطع زيتة انطفأ ،  
فسراج الروح أيضا ينطفئ . مهما انقطع غذاؤه . وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا  
بمحيط لا تقبل الزيت ، فينطفئ السراج مع كثرة الزيت ، فكذلك الدم الذى تشبث به هذا  
البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب ، فينطفئ مع وجود الغذاء ، فإنه لا يقبل  
الغذاء الذى يبقى به الروح . كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تشبث النار به .

وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه ، وتارة بسبب من خارج  
كريح عاصف ، فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل - وتارة بسبب من خارج  
وهو القتل . وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت ، أو بفساد الفتيلة ، أو بريح عاصف ، أو بإطفاء  
إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدره فى علم الله مرتبة ؛ ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك  
انطفاء الروح . وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده ، فيكون ذلك أجله الذى أجل  
له فى أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله  
فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقت أنواره التى كان يستفيدها من الروح ، وهى أنوار  
الإحساسات ، والقدر ، والإرادات ، وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة

فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعته وحكمته ،  
ليعلم أنه لو كانت البحر مددا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى عز وجل  
فتبسم لمن كفر بالله تعسا ، وسحقا لمن كفر نعمته سحقا

فإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم (١) سئل عن  
الروح فلم يزد عن أن قال ( قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ) (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه ،  
فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح . فإن الروح يطلق لسان كثيرة لانطول  
بذكرها . ونحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا . وقد عرفوا صفة

(١) حديث انه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربى : متفق عليه من حديث ابن  
مسعود وقد تقدم فى شرح عجائب القلب .



ووجوده ، وكيفية سريانه في الأعضاء ، وكيفية حصول الإحساس واتقون في الاعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجري هذا الروح ، فلا يعالجون موضع الخدر ، بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ، ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب ، وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء ، وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل

وأما الروح التي هي الأصل ، وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني ، كما قال تعالى ( قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي <sup>(١)</sup> ) والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها ، بل تحبير فيها عقول أكثر الخلق . وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتزلزل في ذكر مبادئ وصفها معاهد العقول المقيدة بالجواهر والعرض المحبوسة في مضيقتها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه ، بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ، نسبتته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا . فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها ، لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . وإنه لمقام شريف ، ومشرب عذب ، ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شربة لكل وارد ، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد . وجناب الحق صدر ، وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني . فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ، ولا لحافظ العتبة مشاهدة ، استحال أن يصل الميدان . فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية ! ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا في خزانة الأطباء ! ومن أين للطبيب أن يلاحظه ! بل للمعنى المسمى روحا عند الطبيب ، بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني ، كالكرة التي يجرها صولجان الملك . بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني ، كان كمن رأى الكرة التي يجرها صولجان الملك ، فظن أنه رأى الملك . ولا يشك في أن خطأه فاجش . وهذا الخطأ أفحش

منه جدا . ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف، وبها تدرك مصالح الدنيا، عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر ، لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، لكن ذكر نسبته وفعله ، ولم يذكر ذاته . أما نسبته في قوله تعالى ( مِنْ أَمْرِ رَبِّي <sup>(١)</sup> ) وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى ( يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي <sup>(٢)</sup> ) ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل

## الطرف الرابع

في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الآدي بعد ذلك بصنعتهم ، اعلم أن الأطعمة كثيرة ، والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، وأسباب متوالية لا تنهاى . وذكر ذلك في كل طعام مما يطول . فإن الأطعمة إما أدوية ، وإما فواكه ، وإما أغذية . فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل ، ولنأخذ من جعلتها حبة من البر ، ولنضع سائر الأغذية فنقول :

إذا وجدت حبة أو حبات ، فلو أكلتها فנית وبقيت جائعا . فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها ، وتزيد وتتضاعف ، حتى تفي بتمام حاجتك . فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يقتضى به كما خلق فيك . فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ، ولا يخالفك في الاعتداء ، لأنه يتغذى بالماء ، ويحتذب إلى باطنه بواسطة العروق ، كما تقتضى أنت وتحتذب . ولسنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لا يغذيك ، بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تقتضى بكل شيء ، بل تحتاج إلى شيء مخصوص . بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد ، لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، ومجرد الهواء لا يصلح

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الفجر : ٢٧ - ٢٩

لغذائها . ولو تركتها فى الماء لم تزد . ولو تركها فى أرض لأماء فيها لم تزد . بل لا بد من أرض فيها ماء ، يمزج ماؤها بالأرض فيصير طينا . وإليه الإشارة بقوله تعالى ( فَالْيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا<sup>(١)</sup> ) ثم لا يكتفى الماء والتراب . إذ لو تركت فى أرض ندية ، صلبة متراكمة . لم تنبت لفقد الهواء . فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة ، يتغلغل الهواء إليها . ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ<sup>(١)</sup> ) وإنما إلقاها فى إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم كل ذلك لا يفنى لو كان فى برد مفرط ، وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف . فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة . فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد . إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار ، والعيون ، والأهوار ، والسواقي . فانظر كيف خلق الله البحار ، وفجر العيون ، وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة ، والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى اليوم وكيف ساطت الرياح عليها التسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض ، وهي سحب ثقيل حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأرض فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة . وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه ، تتفجر منها العيون تدريجا . فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشى . ونعم الله فى الجبال ، والسحاب ، والبحار ، والأهوار ، لا يمكن إحصاؤها . وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض ، وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخر الشمس ، وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر . فهذه إحدى حكم الشمس . والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان فى الفواكه انقضاء وصلابة ، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم . ولذلك لو كانت الأشجار فى ظل يمنع شروق

(١) عبس . ٣٢ - ٢٩ (٢) الحجر : ٢٢

الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها ، فكانت فاسدة ناقصة ، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة . وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل ، فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام . فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا . ولا تطول فيما لا مطمع في استقصائه ، بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب . فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تقي قوة البشر بإحصائها . ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ، ولم يصح قوله تعالى ( رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا <sup>(١)</sup> ) وقوله عز وجل ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ <sup>(٢)</sup> ) وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضواً إلا لفائدة ، فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك . وشرح ذلك يطول . ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع ، لما ورد فيه من <sup>(١)</sup> النهي عن تصديق المنجمين ، وعن علم النجوم . بل المنهي عنه في النجوم أمران :

أحدهما : أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها ، مستقلة بها ، وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها ، وهذا كفر . والثاني : تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل . فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ . فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بمخاق الله تعالى في الأرض ، وفي النبات ، وفي الحيوان ليس قادحا في الدين . بل هو حق .

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم : أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السجزي ما زاد وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمسكوا واسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يارسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي السكبان قال فلا تأتوا السكبان الحديث

ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين . ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه ، فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء ، لا يلزمك تكذيبه ، ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغير وجه الإنسان ، فقال قرعتي الشمس في الطريق فاسود وجهي ، لم يلزمك تكذيبه بذلك . وقس بهذا سائر الآثار .

إلا أن الآثار بعضها معلوم ، وبعضها مجهول . فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بمضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر . فإذا الكواكب ما خلقت عبثاً ، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء <sup>(١)</sup> وقرأ قوله تعالى ( رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ <sup>(١)</sup> ) ثم قال صلى الله عليه وسلم « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبْلَتَهُ » ومعناه أن يقرأ ويترك للتأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب . وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً . فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته . فله تعالى في ملكوت السموات ، والآفاق ، والأنفس ، والحيوانات ، عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالماً فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ، ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حياً له . فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم كله من تصنيفه ، بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنّفه بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته ، وتسديده ، وتعريفه . كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب ، فإنها خرق محرّكة لا متحرّكة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ

(١) حديث قرأ قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ، أي ترك تأملها : الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ ولم يفكر فيها وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف

الحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار . فإذا المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء ، والهواء ، والشمس ، والقمر ، والكواكب . ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركزية فيها . ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها . ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه ، ولنتقصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات

## الطرف الخامس

في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان ، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض . والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ، ويحول بينهم وبينها البحار والبراري . فانظر كيف سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح ، مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء ، بل يجمعون ، فإما أن تفرق بها السفن ، أو تنهبها قطاع الطريق ، أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف ساط الله الجهل والنفلة عليهم ، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ، ويركبوا الأخطار ، وينفروا بالأرواح في ركوب البحر ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك . وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن ، وكيفية الركوب فيها . وانظر كيف خلق الحيوانات ، وسخرها للركوب والحمل في البراري . وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس وكيف امتدت بسرعة الحركة ، وإلى الخمار كيف جعل صبورا على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش . وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج . وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها ، وأدواتها ، وعلفها ، وما تحتاج إليه السفن ، فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة . وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن . ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للابحار

## الطرف السادس

في إصلاح الأظعمة

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات، وما يخلق من الحيوانات، لا يمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك. بل لابد في كل واحد من إصلاح، وطبخ، وتركيب، وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض، إلى أمور آخر لا تحصى. واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعمين رغيفا واحدا، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض. فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يشير الأرض والقدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التمهيد بسقى الماء مدة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحصاد، ثم الفك والتنقية، ثم الطحن ثم المعجن، ثم الخبز. فتأمل عدده هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد، والخشب، والحجر وغيره، وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة، والطحن، والخبز، من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد، والرصاص، والنحاس، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال، والأحجار، والمعادن، وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة. فإن قنشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع. فابتدىء من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء، إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة، حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان. فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع، كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق. ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك، لا تكمل صورتها من حديدية تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمسا وعشرين مرة، ويتعاطى في كل مرة منها عملا. فلولم يجمع الله تعالى البلاد، ولم يسخر العباد، وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تصمد به البرمثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه. أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قدرة، لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة

والصنائع الغريبة . فانظر إلى المقرض مثلا ، وهما جامان متطابقان ، ينطبق أحدهما على الآخر ،  
 فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة . ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا  
 وافترقنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ، ثم إلى استخراج الحديد من الحجر ، وإلى تحصيل  
 الآلات التي بها يعمل المقرض ، وعمر الواحد منا عمر نوح ، وأوتى أكمل العقول ، لتقصر  
 عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها ، فضلا عن غيرها : فسبحان من  
 ألحق ذوى الأبصار بالعميان ، وسبحان من منع التبیین مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا  
 بلدك عن الطحان مثلا ، أو عن الحداد . أو عن الحجام الذى هو أخس المال ، أو عن الخائك  
 أو عن واحد من جملة الصناع ، ماذا يصيبك من الأذى ، وكيف تضطرب عليك أمورك  
 كلها . فسبحان من سخر بعض العباد لبعض ، حتى نفذت به مشيئته ، وتمت به حكته  
 ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضا ، فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء

## الطرف السابع

في إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها ، لو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم  
 تنافر طباع الوحش ، لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش  
 لا يحويهم مكان واحد ، ولا يجمعهم غرض واحد . فانظر كيف ألفت الله بين قلوبهم ، ووسط  
 الأنس والمحبة عليهم ( لَوْ أَنفَقْتَ مِثْقَالَ مِثْقَالٍ مِّنَ الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَقْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
 أَلْفَ يَبْنِيهِمْ <sup>(١)</sup> ) فلاجل الألف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا ، وبنوا المدن والبلاد  
 ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف  
 البقاع مما يطول إحصاؤه . ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ، ويتنافسون  
 فيها . ففي جبلة الإنسان الفيض ، والحسد ، والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر  
 فانظر كيف ساط الله تعالى السلاطين ، وأمدم بالقوة والعدة والأسباب ، وألقى رعبهم في  
 قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها . وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح  
 البلاد ، حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد ، تتعاون على غرض واحد ، ينتفع

(١) الأنفال : ٦٣



البعض منها ببعض . فرتبوا الرؤساء ، والقضاة ، والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل ، وأزموهم التساعد والتعاون ، حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب ، والخباز ، وسائر أهل البلد ، وكلهم ينتفعون بالحداد . وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد ، بسبب ترتيبهم ، واجتماعهم ، وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه : كما يتعارن جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض

وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا الصلاطين المصلحين للرعايا ، وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق ، وقوانين السياسة في ضبطهم ، وكشفوا من أحكام الإمامة ، والسلطنة ، وأحكام الفقه ما هتدوا به إلى إصلاح الدنيا ، فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين . وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة ، وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض ، إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين ، والطحسان يصلح الحب بالطحن ، والحراث يصلحه بالحصاد ، والحداد يصلح آلات الحراثمة ، والنجار يصلح آلات الحداد ، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة ، والسلطان يصلح الصناع ، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورتبهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الأنبياء ، إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وكل ذلك نعم من رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى ( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا <sup>(١)</sup> ) لما هتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى . ولولا عزله إيانا عن أن نطمع بعين الطمع إلى الإحاطة بكنهه نعمه ، لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء . ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة ، فقال تعالى ( وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا <sup>(٢)</sup> ) فَإِنْ تَكَلَّمْنَا بِمَا ذَنَّبْنَا انبسطنا ، وإن نسكتنا فبقهره انقبضنا ، إذ لامعنى لما منع ، ولا مانع لما أعطى ، لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ( لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ <sup>(٣)</sup> ) فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار ، وأسمعنا هذا النداء قبل انقبضنا بالأعمار

(١) الشكوت : ٦٩ (٢) النحل : ١٨ (٣) غافر : ١٦

## الطرف الثامن

في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم ، وتبليغ الوحي إليهم . ولاتظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر . بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية ، والسماوية ، وحملة العرش . فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه ، دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرها واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك ، بل من أجزاء النبات ، لا يفتنى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة ، إلى مائة إلى ما وراء ذلك . وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دما في آخر الأمر ، ثم يصير لحما وعظما . وإذا صار لحما وعظما تم اغتداؤك . والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهي لا تتحرك بأنفسها ، ولا تتغير بأنفسها ، وعجز الطبع لا يكتفي في تردها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ، ثم عجينا ، ثم خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصناع . فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً ، وعظماً ، وعروفاً ، وعصياً إلا بصناع . والصناع في الباطن هم الملائكة . كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد . وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة فأقول : لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جواره اللحم والعظم ، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم . ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلمص ما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة اللحم باللحم ، حتى لا يكون منفصلاً . ولا بد من سابع يرعى المقادير في الاصاق ، فيلمص بالمستدير ما لا يبطل استدارته ، وبالعريض ما لا يزيد عرضه ، وبالجوف ما لا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذة لكبر أنفه ، وبطل تجويفه ، وتشوهت صورته وخلقه ، بل ينبغي

أن يسوق إلى الأجنان مع رقتها ، وإلى الحدقة مع صفائها ، وإلى الانفخام مع غلظها ، وإلى العظيم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع ، وضعفت بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك المدل في القسمة والتقسيم . فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا ، لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر ، وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا ضخامة رجل ، وله رجل واحدة كأنها رجل صبي ، فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فراعة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن يحيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول . فهذه هي الملائكة الأرضية ، وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح ، وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ، ولا خبر لك منهم ، وذلك في كل جزء من أجزاءك الذي لا يتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز . والملائكة الأرضية مددوم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى . ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش . والمنعم على جملتهم بالتأييد، والهداية والتسديد المهيمن القدوس، المنفرد بالملك والملكوت، والعرزة والجبروت جبار السموات والأرض، مالك الملك ذو الجلال والإكرام<sup>(١)</sup> والأخبار الواردة في الملائكة

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل فطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب انتهى ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جيريل لحازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها افتح ... الحديث : ولهما من حديث أبي هريرة أن الله ملائكة سياحين يلغون عن أمتي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبديليل فناداني ملك الجبال ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - الحديث : ولهما من حديث أنس أن الله وكل بالرحم ملكا - الحديث : وروى أبو المنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الإسدي ما من نبت ينبت إلا وتحتة ملك موكل حتى يمحصه - الحديث : وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو عمر البكر أوى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف ان الله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون السكالك عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس ولترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة استق حديقه فلان فتحنى ذلك السحاب فأفرغ مائه في حرة - الحديث

الموكلين بالسموات والأرض ، وأجزاء النباتات والحيوانات ، حتى كل قطرة من المطر ، وكل سحب ينجر من جانب إلى جانب ، أكثر من أن تحصى ، فذلك تركنا الاستشهاد به . فإن قلت : فهلا فوّضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ، ولم أفتقر إلى سبعة أملاك ؟ والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً ، ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً ، ثم إلى من يعجن رابعاً ، ثم إلى من يقطعها كرات مدورة خامساً ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادساً ، ثم إلى من يلصقها بالتنوير سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ، يستقل به ، فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس . وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لسكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ( وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ <sup>(١)</sup> ) فذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثلهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس . فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ، ولا الشم يزاحمها ، ولاهما ينازعان الشم . وليس كاليد والرجل . فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً ، فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب . ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن ، والمعجن ، والخبز ، فإن هذانوع من الأعوجاج والعدول عن العدل ، سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس واحداني الصفة فلم يكن وحداني . الفعل . ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى ، لاختلاف دواعيه وصفاته . وذلك غير ممكن في طباع الملائكة . بل هم مجبولون على الطاعة ، لا مجال للمعصية في حقهم ، فلا جرم لا يمضون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وبسبحون الليل والنهار لا يفترون . والراكع منهم راكم أبداً ، والساجد منهم ساجد أبداً ، والقائم قائم أبداً لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولسكل واحد مقام معلوم لا يتعداه .

وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم ، يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك . فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان ، لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف

(١) الصافات : ١٦٤

فى طاعتك مرة ، ومعصيتك أخرى . بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ، يفتتح ، وينطبق متصلا بإشارتك . فهذا يشبهه من وجه . لكن بخالفه من وجه إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحاو إطباقا ، والملائكة أحياء عالمون بما يعملون . فإذا هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الأرضية والسموية ، وحاجتك إليها فى غرض الأكل فقط ، دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها ، فإننا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ، ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات !

فإذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال (وَذُرُوا ظَاهِرَ الْأَيْمِ وَبَاطِنَهُ<sup>(١)</sup>) فترك باطن الأيم مما لا يعرفه الخلق من الحمد ، وسوء الظن ، والبدعة ، واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب ، هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الأيم الظاهر بالجوارح ، شكر للنعمة الظاهرة . بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر ، فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والأرض وما بينهما . فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة ، والسموات والأرض والحيوانات والنبات ، بجملته نعمة على كل واحد من العباد ، قد تم به انتفاعه ، وإن انتفع غيره أيضا به ، فإن لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ ، بهيتم انخفاض الجفن الأعلى ، وارتفاع الجفن الأسفل ، وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى فى سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء ، والسواد يجمعه ، ونعمة الله فى ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الديدب إلى باطن العين ، ومتشبها للأقذاء التى تتناثر فى الهواء ، وله فى كل شعرة منهما نعمتان من حيث لين أصلها ، ومع اللين قوام نصبها ، وله فى اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ، وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ، ولو طبق لم يبصره فيجمع الأجبان مقدار ما تتشابك الأهداب . فينظر من وراء شبك الشعر ، فيكون شبك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج ، وغير مانع من امتداد البصر من داخل .

ثم إن أصاب الحدقة غبار ، فقد خلق أطراف الأجنان خادمة منطبقة على الحدقة ، كالمصقلة للمرأة ، فيطبقها مرة أو مرتين ، وقد انصقلت الحدقة من الغبار ، وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجنان . والذباب لما لم يكن لحدقته جفن ، خلق له يدين فتراه على الدوام يسبح بهما حدقته ليصقلها من الغبار . وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لاقتناره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق ، نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول :

من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجنان . ولا تقوم الأجنان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالماء ، والأرض ، والهواء ، والمطر ، والنعيم ، والشمس ، والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن السكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض . فإذا قد كفر كل نعمة في الوجود ، من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى ، فلم يبق فلك ولا ملك ، ولا حيوان ، ولا نبات ، ولا جاد إلا ويلدنه . ولذلك ورد في الأخبار <sup>(١)</sup> أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلغهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم . وكذلك ورد <sup>(٢)</sup> أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر <sup>(٣)</sup> وأن الملائكة يلغنون العصاة ، في ألقاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها . وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملكوت ، وقد أهلك نفسه ، إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عايبه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . يا أيوب ، ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكات ، فإذا شكرني على نعمائي قال الملك اللهم زده نعماً على نعم فإنك أهل الحمد والشكر ، فسكن من الشاكرين قريبا ، فكفى بالشاكرين علو رتبة عندي أرى أشكر شكرهم ، وملائكتي يدعون لهم ، والبقاع تمجدهم ، والآثار تبكي عليهم .

(١) حديث أن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلغهم أو تستغفر لهم : لم أجد له أصلا

(٢) حديث أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر : تقدم في العلم

(٣) حديث أن الملائكة يلغنون العصاة : مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلغن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بمديدة وإن كان أحاه لأبيه وأمة

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعمة كثيرة ، فاعلم أن في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولولم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ، ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة ، وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك ، بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ولما انكشف لموسي عليه السلام حقيقة قوله تعالى ( وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا <sup>(١)</sup> ) قال . إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان ، أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها وكذا ورد في الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه ، فقد قل علمه ، وحضر عذابه ، وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب ، فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل ، فإنه طمع في غير مطعم

## بيان

السبب الصارف للخلق عن الشكر

إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجاهل والغفلة . فإنهم منعو بالجهل والغفلة عن معرفة النعم . ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها . ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه . الحمد لله ، الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أرادت بها ، وهي طاعة الله عز وجل . فلا ينعم من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب . وأحد أسبابها أن الناس يجهلهم لا يمدون ما يعين الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة . فذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبدولة لهم في جميع أحوالهم . فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به ، فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح

الهواء، ولو أخذ بمختنتهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء، ماتوا غمًا. فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا، ربما قدر ذلك نعمة، وشكر الله عليها. وهذا غاية الجهل. إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد عليهم في بعض الأحوال. والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها. فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره، وعده نعمة. ولما كانت رحمة الله واسعة، وعم الخلق، وبذل لهم في جميع الأحوال، فلم يعد الجاهل نعمة. وهذا الجاهل مثل العبد السوء، حقه أن يضرب دائمًا، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة. فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر، وترك الشكر: فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما شكوا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر، وأظهر شدة اغتمامه به، فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا. فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا. فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ فقال لا. فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا. فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً. وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً فرأى في المنام كأن قائلًا يقول له تود أنا أنسيناك من القراء إن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار؟ قال لا. قال فسورة هود؟ قال لا. قال فسورة يوسف؟ قال لا. فمدد عليه سوراً ثم قال. فعمك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو! فأصبح وقد سرى عنه. ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه. فقال له: عطني. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا يبذل جميع أموالك، وإلا بقيت عطشان، فهل كنت تعطيه؟ قال نعم. فقال أولم تعط إلا بملكك كله، فهل كنت تتركه؟ قال نعم. قال: فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء. فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من مالك الأرض كلها. وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة؛ وقد ذكرنا النعم العامة، فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول. مامن عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله، رأي من الله



نعمة أو نعماء كثيرة تخصه ، لا يشاركه فيها الناس كافة ، بل يشاركه عدد يسير من الناس ، وربما لا يشاركه فيها أحد . وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور : فى العقل ، والخلق ، والعلم . أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل . وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه ، كما يفرح به المتصف به . فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس ، فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه ، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فببقي فرحه بحسب اعتقاده ، ويبقى شكره ، لأنه فى حقه كالباقى . وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، وإعماً يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها . فإذا لم يشتغل بدم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى ، إذ حسن خلقه ، وابتلى غيره بالخلق السيء .

وأما العلم ، فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه ، وخفايا أفكاره . ما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح . فكيف لو اطلع الناس كافة ! فأذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله . فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجميل وستر القبيح ، وأخفى ذلك عن أعين الناس ، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد . فهذه ثلاثة من النعم خاصة ، يعترف بها كل عبد ، إما مطلقاً ، وإما فى بعض الأمور . فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً فنقول . ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته ، أو شخصه أو أخلاقه ، أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه ، أو بيلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو عزه ، أو جاهه ، أو فى سائر محايه أموراً لو سلب ذلك منه ، وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به . وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحيماً لا جامداً ، وإنساناً لا بهيمة وذكر الأنتى ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معييباً ، فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضاً . فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها . بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضاً . وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق ، أو لا يبدله بما خص به الأكثر . فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره ، فإذا حاله أحسن من حال

غيره . وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه ، إما على الجملة ، وإما في أمر خاص ، فإذا الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء . وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض ، فليُنظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه . فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى ديناه بدينه . أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها ، يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة ، فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ؟ فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه ، وحاله في الدنيا خيرا من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر ! ولهذا قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونُهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللَّهُ صَابِرًا وَشَاكِرًا وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا شَاكِرًا ، فَإِذَا كَلَّ مِنْ أَعْتَبَرَ حَالَ نَفْسِهِ ، وَفَتَشَّ عَمَّا خَصَّ بِهِ ، وَجَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ نِعْمًا كَثِيرَةً لَأَسِيًّا مِنْ خَصَّ بِالسَّنَةِ ، وَالْإِيمَانِ ، وَالْعِلْمِ ، وَالْقِرَاءَانِ ، ثُمَّ الْفِرَاقِ ، وَالصَّحَّةِ ، وَالْأَمْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلِذَلِكَ قِيلَ :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به في دينه ثم في دنياه إقبالا

فليُنظرن إلى من فوقه ورعا وليُنظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ لَمْ يَسْتَعْنِ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَا أَعْنَاهُ اللَّهُ » وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « إِنْ الْقُرْءَانَ هُوَ الْغَنَى الَّذِي لَا غِنَى بَعْدَهُ وَلَا فَقْرَ مَعَهُ » وقال عليه السلام <sup>(٤)</sup> « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْءَانَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى مِنْهُ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللَّهِ »

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا

الحديث : الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف

(٢) حديث من لم يستعن بآيات الله فلا أعناه الله : لم أجده بهذا اللفظ

(٣) حديث ان القرءان هو الغناء الذى لا غنى بعده ولا فقر معه : أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس

بسند ضعيف بلفظ أن القرءان غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطنى رواه

أبو معاوية عن الاعمش عن يزيد الرقائشى عن الحسن مرسلا وهو اشبه بالصواب

(٤) حديث من آتاه الله القرءان فظن ان أحدا اغنى منه فقد استهزأ بآيات الله : البخارى فى التاريخ من

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ « وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى » . وقال بعض السلف . يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة إن عبداً أغنيته عن ثلاثة ، لقد أتممت عليه نعمتى ، عن سلطان يأتبه ، وطبيب يداويه ، وعماً في يد أخيه . وعبر الشاعر عن هذا فقال

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أها حزن فلا فارقك الحزن

بل أرسق العبارات وأفصح الكلمات ، كلام أفصح من نطق بالضاد ، حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال <sup>(٣)</sup> « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَاتِي فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّهَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا مَحْذًا فِيرَهَا » . ومهما تأملت الناس كلهم ، وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم ، ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذى به ووصلهم إلى النعيم المقيم ، والملك العظيم . بل البصير ينمى أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان . بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب ، من أموال وأتباع ، وأبصار ، وقيل له خذها عوصاً عن علمك ، بل عن عشر عشر علمك ، لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى فى الآخرة . بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله ، فخذ هذه اللذات فى الدنيا ، بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وباقية لا يسرق ، ولا تعصب ، ولا ينافس فيها ، وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة ، مكدره ، مشوشة لا يبنى مرجوها بخوفها ، ولا لذتها بألمها ، ولا فرحها بنعمها . هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا

حديث رجاء الفسوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن ان احدا أوتى افضل مما أوتى

فقد صر أعظم النعم وقد تقدم فى فضل القرءان ورجاء مختلف فى صحبته رورده من حديث

عبد الله بن عمرو وجابر والبراء عوه وكلها ضعيفة

( ١ ) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرءان : تقدم فى آداب التلاوة

( ٢ ) حديث كفى باليقين غنى : الطبرانى من حديث عتبة بن عامر ورواه ابن أبى الدنيا فى القناعة

موقوفا عليه وقد تقدم

( ٣ ) حديث من اصبح آمنا فى سر به : الحديث تقدم غير مرة

تكون ما بقى الزمان ، إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلبب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها ، أبت عليها واستعمت . كالمرأة الجليل ظاهرها ، تزين للشباب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيدها قلبه استعمت عليه واحتجبت عنه ، فلا يزال معها في تعب قائم ، وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة . ولو عقل وغض البصر ، واستهان بتلك اللذة ، سلم جميع عمره . فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها . ولا ينبغي أن نقول إن المرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها . فإن المقبل عليها ، أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها ، وتحصيلها ، ودفع اللصوص عنها . وتألم المرض يفضى إلى لذة في الآخرة ، وتألم المقبل يفضى إلى الألم في الآخرة . فليقر المرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ( وَلَا تَهَيَّؤُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ) ، فإذا إمعنا أنسد طريق الشكر على الخلق لجلبهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة ، والخاصة والعامة

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة ؟ حتى تشعر بنعم الله تعالى فمساها تشكر . فأقول : أما القلوب البصيرة ، فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التي لا تمد النعمة نعمة إلا إذا خصتها ، أو شعرت بالبلاء معها فسيبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى ، والمقابر ، والمواضع التي تقام فيها الحدود . فكان يحضر دار المرضى يشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ، ثم يتأمل في صحته وسلامته ، فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ، ويشكر الله تعالى . ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ، يشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ، ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن وبحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله فليستدركه ، وأما من أطاع فليزد في طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن . فالطبع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات ، فما أعظم غنبي إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات . وأما المعاصي فغيبه ظاهر فإذا شاهد المقابر ، وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقى له ،

فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ، ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس . وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله ، وهو التزود من الدنيا للآخرة .

فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر . وقد كان الربيع ابن خيثم مع تمام استبصاره ، يستعين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة . فكان قد حفر في داره قبراً ، فكان يضع غلافه عنقه ، ونام في لحده ثم يقول : ( رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا <sup>(١)</sup> ) ثم يقوم ويقول : ياربيع ، قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بلازمة الشكر على النعم ، فقل نعمت زالت عن قوم فعادت إليهم : وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدها بالشكر . وفي الخبر <sup>(٢)</sup> ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمنها ومنهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ <sup>(٣)</sup> ) فهذا تمام هذا الركن

## الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

## بيان

وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعمرك تقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً . فما معنى الصبر إذاً ؟ وإن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء ، فضلاً عن الشكر على النعمة ،

(١) حديث ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه - الحديث : ابن عدى وابن حبان في الصغفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ الاعظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث : ورواه ابن حبان في الصغفاء ، من حديث ابن عباس وقال انه موضوع على حجاج الأعرور

(٢) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٢) الرعد : ١١

فكيف يتصور الشكر على البلاء؟ وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعى الماء، والشكر يستدعى فرحا، وهما يتضادان؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ . فاعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة، يوجب القول بإثبات البلاء، لأنهما متضادان. ففقد البلاء نعمة، وفقد النعمة بلاء. ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه، أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليها، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه، كاللحم الذي يصلح الدين من وجه ويفسد من وجه. فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة، فالعبد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا. وأما في الدنيا، فالكفر والمعصية، وسوء الخلق، وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق. وأما المقيد فكالفقر، والمرض، والخوف، وسائر أنواع البلاء التي لا تكون في بلاء الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة. وأما البلاء المطلق في الدنيا، فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء، ولا معنى للصبر عليه: وكذا المعصية. بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي. نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر، فيكون كمن به علة، وهو لا يتألم بسبب غشمية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاص، فعليه ترك المعصية. بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه. فلو ترك الإنسان المساء مع طول العطش، حتى عظم تألمه، فلا يؤمر بالصبر عليه، بل يؤمر بإزالة الألم. وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته. فإذا يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه. فذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر. فإن الفنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الإنسان، حتى يقصد بسبب ماله، فيقتل وتقتل أولاده. والصحة أيضا كذلك. فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء، ولكن بالإضافة إليه. فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة، ولكن بالإضافة إلى حاله. فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله

لبطر وبغى . قال الله تعالى ( وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ <sup>(٢)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنَّ اللَّهَ لَيَجْعَلِي عَبْدَهُ، مُلْؤًا مِنْ مَنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يُحِبُّ أَحَدَكُمْ مَرِيضُهُ، وَكَذَلِكَ الزَّرْجَةُ، وَالْوَلَدُ، وَالْقَرِيبُ وَكُلُّ مَا ذَكَرْنَا فِي الْأَنْسَامِ السِّتَّةِ عَشْرٍ مِنَ النِّعَمِ، سِوَى الْإِيمَانِ وَحَسَنِ الْخَلْقِ، فَإِنَّهَا يَتَصَوَّرُ أَنَّ تَسْكُونَ بِلَاءَ فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ، فَتَكُونُ أَسْدَادَهَا إِذَا نَعِمًا فِي حَقِّهِمْ، إِذْ قَدْ سَبِقَ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ كَمَالٌ وَنِعْمَةٌ، فَإِنَّهَا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ عَلَى الْعَبْدِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ بِلَاءٌ، وَيَكُونُ فَقْدُهَا نِعْمَةً. مِثَالُهُ جَهْلُ الْإِنْسَانِ بِأَجَلِهِ، فَإِنَّهُ نِعْمَةٌ عَلَيْهِ. إِذْ لَوْ عَرَفَهُ رَبَّمَا تَنَعَّصَ عَلَيْهِ الْعَيْشَ، وَطَالَ بِذَلِكَ غَمُّهُ . وَكَذَلِكَ جَهْلُهُ بِمَا يَضُرُّهُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ مَعَارِفِهِ وَأَقَارِبِهِ نِعْمَةٌ عَلَيْهِ، إِذْ لَوْ رَفَعَ السِّتْرَ وَأَطَّلَعَ عَلَيْهِ، لَطَالَ أَلَمَهُ وَحَقْدَهُ وَحَسَدَهُ وَاشْتِغَالَهُ بِالْإِنْتِقَامِ . وَكَذَلِكَ جَهْلُهُ بِالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مِنْ غَيْرِهِ نِعْمَةٌ عَلَيْهِ، إِذْ لَوْ عَرَفَهَا أَبْفَضَهُ وَأَذَاهُ، وَكَانَ ذَلِكَ وَبِالْعَالِيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . بَلْ جَهْلُهُ بِالْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ فِي غَيْرِهِ قَدْ يَكُونُ نِعْمَةٌ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ رَبَّمَا يَكُونُ وَلِيَّ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يَضْطَرُّ إِلَى إِبْذَانِهِ وَإِهَاتِهِ، وَلَوْ عَرَفَ ذَلِكَ وَآذَى كَانَ إِعْمَهُ لِأَحْمَالَةِ أَعْظَمَ، فَلَيْسَ مِنْ آذَى نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ أَوْ يَمِينٍ كَمَنْ آذَى وَهُوَ لَا يَعْرِفُ وَمِنْهَا إِهَامُ اللَّهِ تَعَالَى أَمْرَ الْقِيَامَةِ، وَإِهَامُهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَسَاعَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَإِهَامُهُ بِبَعْضِ الْكِبَائِرِ، فَكُلُّ ذَلِكَ نِعْمَةٌ، لِأَنَّ هَذَا الْجَهْلَ يُوَفِّرُ دَوَاعِيكَ عَلَى الطَّلَبِ وَالْاجْتِهَادِ . فَهَذِهِ وَجُوهُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْجَهْلِ فَكَيْفَ فِي الْعِلْمِ . وَحَيْثُ قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ مَوْجُودٍ نِعْمَةٌ فَهُوَ حَقٌّ وَذَلِكَ مَطْرُودٌ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يَسْتَنِي عَنْهُ بِالظَّنِّ إِلَّا الْآلَامُ الَّتِي يَخْلُقُهَا فِي بَعْضِ النَّاسِ، وَهِيَ أَيْضًا قَدْ تَكُونُ نِعْمَةٌ فِي حَقِّ سَائِلٍ بِهَا فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نِعْمَةً فِي حَقِّهِ، كَالْأَلَمِ الْحَاصِلِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، كَقَطْعَةِ يَدِ نَفْسِهِ، وَوَشْمِهِ بِشِرْتِهِ، فَإِنَّهُ يَتَأَلَّمُ بِهِ وَهُوَ عَاصٍ بِهِ . وَأَلَمُ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ فَهُوَ أَيْضًا نِعْمَةٌ، وَلَكِنْ فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعِبَادِ لِأَنَّ فِي حَقِّهِمْ، لِأَنَّ مَصَائِبَ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ . وَلَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَذَابَ، وَعَذَّبَ بِهِ طَائِفَةً، لَمَا عَرَفَ الْمُتَنَعِّمُونَ قَدْرَ نِعْمِهِ، وَلَا كَثْرَ فَرْحِهِمْ بِهَا . فَفَرِحَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِنَّمَا يَتَضَاعَفُ إِذَا تَفَكَّرُوا

( ١ ) حديث ان الله ليحمني عبده الدنيا - الحديث : الترمذي وحسنه الحاكم وصححه وقد تقدم

( ٢ ) التورى : ٢٧ ( ٣ ) العلق : ٦

في آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها ، من حيث إنها عامّة مبدولة . ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء ، وهي أحسن من كل لستان لهم في الأرض يمتهدون في عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها : فإذا قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة ، إما على جميع عبادته ، أو على بعضهم . فإذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غير المبتلى . فإذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطاق ، ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على المهد وظيفتان ، الصبر والشكر جميعاً . فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم . ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يفتن به من وجه ، ويفرح به من وجه آخر . فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفي كل فقر ، ومرض ، وخوف ، وبلاء في الدنيا خمسة أمور ، ينبغي أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها . أحدها : أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها . إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعه الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويحجزه فليشكر . إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا .

الثاني : أنه كان يمكن أن تكون مصيبتته في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتي وأخذ متاعى . فقال : اشكر الله تعالى . لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال . اللهم لا تجعل مصيبتى في دينى . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن في دينى ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال اشكر الله . فجىء بمجوسى فحبس عنده ، وكان مبطوناً ، فقيده وجعل حلقة من قيده في رجله . وحلقه في رجل المجوسى : فأرسل إليه ، فقال اشكر الله . فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات ، وهو يحتاج أن يقوم معه ، ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال اشكر الله ، فقال إلى متى هذا ؟ وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال



لوجعل الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ . فإذا ما من إنسان قد أصيب ببلاء ، إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه ، لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وأجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط ، فاقصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر . ومن استحق عليك أن يقطع يديك ، فترك إحداها ، فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع ، فصب على رأسه طشت من رماد . فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له ما هذه السجدة ؟ فقال كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالأقتصار على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم . ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ؟ فقال أتم تستبطئون المطر وأنا أستبطن الحجر .

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ، ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خبيء له ما هو أكثر . وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ، ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى ( إِنَّمَا عَلَىٰ لَهْمٍ لَّيَزِدَادُوا إِثْمًا )<sup>(١)</sup> . وأما المعاصي ، فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ؟ ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته ، أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح . ولذلك قال تعالى في مثله ( وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ )<sup>(٢)</sup> فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ؟ ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة ، وعجلت عقوبتك في الدنيا . فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك ؟ وهذا هو الوجه الثالث في الشكر ، وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة ، فيخف وقعها . ومصيبة الآخرة تدوم . وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي ، إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكيفية في الآخرة عن المعذبين . ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَصَابَتْهُ شِدَّةٌ

(١) حديث ابن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا: الترمذي وابن ماجه من حديث علي من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده - الحديث: لفظ ابن ماجه وقال الترمذي من أصاب جدا فعجل عقوبته في الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له - الحديث :

(١) آل عمران : ١٧٨ (٢) النور : ٤٥

أَوْ بِلَايَةٍ فِي الدُّنْيَا فَالْتَّاءُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذَّبَهُ تَائِبًا ،

الرابع : أن هذه المصيبة والبليّة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب ، وكان لا بد من وصولها إليه ، وقد وصلت ، ووقع الفراغ ، واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة

الخامس : أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين :

أحدهما : الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ، ويكون المنع من أسباب اللب نعمة في حق الصبي . فإنه لو خلى واللعب كان ينمعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره . فكذلك المال ، والأهل ، والأقارب ، والأعضاء ، حتى العين التي هي أعز الأشياء ، قد تكون سببا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال . بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه . فاللحمة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى . فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية . فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ، ويقدر فيه الخيرة ، ويشكره عليه . فإن حكمة الله واسعة ، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلياء إذا رأوا ثواب الله على البلياء ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب . والبلاء من الله تعالى تأديب ، وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روي <sup>(١)</sup> أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال « لَا تَتَّهِمِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ » <sup>(٢)</sup> ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك ، فسئل فقال « عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ قَضَى لَهُ بِالشَّرِّاءِ رِضِي وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالشَّرِّاءِ رِضِي وَكَانَ خَيْرًا لَهُ »

الوجه الثاني : أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا . ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب

( ١ ) حديث قال له رجل أوصني قال لا تتهم الله في شيء قضاه عليك أحمد : والطبراني من حديث عبادة بن زيادة في أوله وفي اسناده ابن لهيعة

( ٢ ) حديث نظر إلى السماء فضحك فسئل فقال عجب لِقَضَاءِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ - الحديث : مسلم من حديث ضهيب دون نظره إلى السماء ، وضحك محبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته شراة شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراة صبر فكان خيرا له والنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجب من رضاه الله للمؤمن إن أصابه خير حمديره وشكره الحديث :

عن دار الغرور . ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، توزت طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها ، وأنسه بها ، حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها : وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ، ولم يسكن إليها ، ولم يأنس بها ، وصارت سجناً عليه ، وكانت نجاة منها غاية اللذة كالخلاص من السجن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ورضى بها ، واطمأن إليها . والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا ، شديد الحنين إلى الخروج منها . والكفر بمضه ظاهر وبمضه خفي . وبقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي . بل الموحّد المطلق هو الذي لا يجب إلا الواحد الحق . فإذا في البلاء نعم من هذا الوجه ، فيجب الفرح به . وأما التأم فهو ضروري . وذلك بضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجابة بمن يتولى حجاتك مجانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشما مجانا . فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكره على سبب الفرح . فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال ، وينفع في المآل . بل من دخل دار ملك للنضارة ، وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار ، كان ذلك وبالا وبلاء عليه ، لأنه يورثه الأناس بمنزل لا يمكنه المقام فيه . ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه ، فأصابه ما يكرهه حتى نفره عن المقام ، كان ذلك نعمة عليه . والدنيا منزل ، وقد دخلها الناس من باب الرحم ، وهم خارجون عنها من باب اللحد ، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة . فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلاء . ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر ، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وحكي أن أعرايا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

إصبر نكن بك صابرين فأبما      صبر الرعية بعد صبر الراس  
خيز من العباس أجرك بمده      والله خسير منك للعباس

( ١ ) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

فقال ابن عباس : ما عزاني أحد أحسن من تعزيتي . والأخبار الواردة في الصبر على  
المصائب كثيرة . قال رسول الله صلى الله عليه <sup>(١)</sup> وسلم « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ »  
وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ  
أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ  
لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال عليه السلام « مَا مِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا  
أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى ( إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ) <sup>(٢)</sup> اللَّهُمَّ اجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا  
مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ سَلَبْتُ  
كَرِيمَتَهُ فَجَزَّأُوهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ » . وروى <sup>(٣)</sup> أن رجلاً قال  
يا رسول الله ، ذهب مالي وسقم جسمي . فقال صلى الله عليه وسلم « لِأَخْيَرٍ فِي عَبْدٍ  
لَا يَذْهَبُ مَالُهُ وَلَا يَسْقَمُ جِسْمُهُ إِنْ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ وَإِذَا ابْتَلَاهُ صَرَّهُ »  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إِنْ الرَّجُلُ لَتَكُونَ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَبْلُغُهَا  
يَعْمَلُ حَتَّى يُبْتَلَى بِبِتْلَاءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُهَا بِذَلِكَ » وعن <sup>(٥)</sup> خباب بن الأرت قال أتينا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكونا إليه ، فقلنا يا رسول  
الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمراً لونه ثم قال « إِنْ مِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ

( ١ ) حديث من رد الله محيراً يصب منه : البخاري من حديث أبي هريرة

( ٢ ) حديث أن رجلاً قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه وإذا ابتلاه صرَّه . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الرخص والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين

( ٣ ) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبلى ملاء في جسده فيبلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العميد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية اللؤلؤي ورواه أحمد وأبو يعلى والطراي من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو الملقح الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عنه خالد الأبي محمد وذكر أبو يعين أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فأنه أعلم وعلى هذا فإنه خالد بن اللجلاج هو غير خالد بن اللجلاج العامري ذلك المشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو يعين وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فأنه أعلم

( ٤ ) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه - الحديث : تقدم

(١) البقرة : ١٥٦ (٢) الزمر : ١٠

فِيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ حُفْرَةٌ وَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجَعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَا يَضْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ . . . وعن علي كرم الله وجهه قال . أيا رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد . وإن ضربه فمات فهو شهيد ، وقال عليه السلام « مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَمَكَ وَلَا تَذْكُرُ مُصِيبَتَكَ » وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه . تولدون للموت ، وتممرون للخراب ، وتحرسون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى .

ألا حبذا المسكروهات الثلاث ، الفقر ، والمرض ، والموت ، . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ صَبًّا وَمَجَّهَ عَلَيْهِ نَجْمًا فَإِذَا دَعَاهُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانِيًا فَقَالَ يَا رَبُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَتَبَيْتَ عَبْدِي وَسَعَدَيْكَ لِأَنْتَ لِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَدْخَرْتُ لَكَ عِنْدِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِيءَ بِأَهْلِ الْأَعْمَالِ فَوُفُوا أَعْمَالَهُمْ بِأَلْيَازَانِ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيْوَانٌ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا كَمَا كَانَ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ صَبًّا فَيُؤَدُّ أَهْلُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُفْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالْمَقَارِضِ لِمَا يَرَوْنَ مَا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الثَّوَابِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ <sup>(٢)</sup>) . . . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال . سكانبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه ، فقال يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويحتجب معاصيك ، تزوي عنه الدنيا ، وتعرض له البلاء . ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويحتريء عليك وعلى معاصيك ، تزوي عنه البلاء ، وتبسط له الدنيا . فأوحى الله تعالى إليه ، إن العباد لي ، والبلاء لي ، وكل يسبح بحمدي . فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا وأراد أن يصابه صبا عليه البلاء صبا - الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن زيد الرقاشي عن أنس اخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف

عنه الدنيا ، وأعرض له البلاء ، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له الحسنات ، فأبسط له في الرزق ، وأزوي عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته . وروى أنه <sup>(١)</sup> لما نزل قوله تعالى ( مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ) <sup>(٢)</sup> قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه . كيف الفرح بعد هذه الآية ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ - أَلَسْتَ تَعْرِضُ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الْأَذَى أَلَسْتَ تَحْزَنُ فِهَذَا مِمَّا يُجْزَوْنَ بِهِ » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وعن عقبة بن عامر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللَّهُ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ » ثم قرأ قوله تعالى ( فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ) <sup>(٣)</sup> يعني لما تركوا أمر وابه ، فتحننا عليهم أبواب الخير ، ( حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ) <sup>(٤)</sup> أي بما أعطوا من الخير ( أَخَذْنَاَهُمْ بَغْتَةً ) <sup>(٥)</sup> وعن <sup>(٦)</sup> الحسن البصرى رحمه الله ، أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية . فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى ، فصدمه حائط فأتى وجهه ، فأنى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا » . وقال على كرم الله وجهه . ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا بلى . فقرأ عليهم ( وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

(١) حديث لما نزل قوله تعالى من يعمل سوءا يجز به : قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألسنت تعرض - الحديث : من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذى من وجه آخر بلط آجر وضعه قال ولبس له اسناد صحيح وقال الدار قطنى وروى أيضا من حديث عمرو بن عبد الله بن مكرم قال ولبس فيها شئ بنت (٢) حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث : أحمد والطبرانى والبيهقى في الشعب بسند حسن

(٣) حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط الحديث : وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا أحمد والطبرانى بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبرانى أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذى وابن ماجه الرفوع منه من حديث أس وحسنه الترمذى

وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ<sup>(١)</sup> فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً، وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن<sup>(١)</sup> أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ تَغِيظُ رَدَّهَا بِحِلْمٍ وَجُرْعَةٍ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا وَلَا قَطْرَةٌ قَطْرَةٌ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةٍ دَمٍ أَهْرِيقتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ قَطْرَةٌ دَمَعٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطْوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ وَخَطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الرَّحِمِ »

وعن أبي الدرداء قال: توفي ابن سليمان بن داود عليهم السلام، فوجد عليه وجداً شديداً، فأتاه ملكان، فجلسا بين يديه في زى الخصوم. فقال أحدهما. بذرت بذراً فلما استحصدمرت به هذا فأفسده. فقال للآخر ما تقول؟ فقال. أخذت الجادة، فأثبت على زرع، فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق؟ أما علمت أن لا بد للناس من الطريق؟ قال فلم تحزن على ولدك؟ أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه، ولم يجزع على ولده بعد ذلك. ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض، فقال: يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال يا أبت، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قدساقه الله. ثم نزل فصلي ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى. قال تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ<sup>(٢)</sup>) وعن ابن المبارك أنه مات له ابن، فمزاه مجوسى يعرفه فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها - الحديث: أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر - الحديث: وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مستند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطرف في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل - الحديث: وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث:

اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . فقال ابن المبارك . اكتبوا عنه هذه  
وقال بعض العلماء . إن الله ليبتلّي العبد بالبلاء بعد البلاء ، حتى يمشی على الأرض وماله ذنب  
وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير  
وقال حاتم الأصم : إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة  
أجناس . على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ؛ وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى  
بأيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار  
من بني اسرائيل ، واختفى في الشجرة ، فعرفوا ذلك ، فجئء بالمنشار ، فنشرت الشجرة حتى  
بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأن منه آفة ، فأوحى الله تعالى إليه ، يا زكريا لئن صعدت منك  
آفة ثانية لأخونك من ديوان النبوة . فعرض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين  
وقال أبو مسعود الباهلي : من أصيب بمصيبة فزق ثوبا ، أو ضرب صدرا ، فسكأنما  
أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه . يا بني ، إن الذهب  
يجرب بالنار ، والعبد الصالح يجرب بالبلاء . فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله  
الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى  
ضرسى ، فقلت لعمرى : ما نمت البارحة من وجع الضرس ، حتى قاما ثلاثا . فقال : لقد  
أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة ، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد  
وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام ، إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلقى ،  
واشك إلى ، كما لا أشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضائك . نسأل الله  
من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة

## بيان

فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟  
فأقول لا وجه لذلك ، لما روي عن رسول الله <sup>(١)</sup> صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يستعيز

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة : أحمد من حديث بشر بن



في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة<sup>(١)</sup> . وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ( رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً )<sup>(٢)</sup> وكانوا يستميذون من شماتة الأعداء وغيرها<sup>(٣)</sup> . وقال علي كرم الله وجهه . اللهم إني أسألك الصبر . فقال صلى الله عليه وسلم قد سألته الله بالبلاء فأسأله العافية<sup>(٤)</sup> . وروى<sup>(٥)</sup> الصديق رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سألوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك . فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله . الخير الذي لا شرف فيه ، العافية مع الشكر . فكم من منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله . لأن أعاني فأشكر أحب إلي من أن أتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> في دعائه « وَعَافِيَتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد . وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما : بالإضافة إلى ما هو أكثر منه ، إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر : بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب . فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة في الدنيا ، ودفع ما فوَّقه من البلاء ،

أبي اطرابة بلفظ أجرا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة واسناده جيد ولأبي داود من حديث عائشة اللهم انى أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقبه وهو مدلس ورواه بالمنعنة ( ١ ) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخارى ومسلم من حديث أس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا في الدنيا - الحديث . ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركبتين ربنا آتنا - الحديث

( ٢ ) حديث كان يستعيذ من شماتة الأعداء : تقدم في الدعوات

( ٣ ) حديث قال علي رضي الله عنه اللهم انى أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فله العافية : الترمذى من حديث معاذ في أثناء حديث وحسه ولم يسم عليا وإنما قال سمع برجلوه وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي كنت ساكنا فمربى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول - الحديث . وفيه فإن كان بلاء فصبرني فضر به برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح ( ٤ ) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية - الحديث . ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة

باستناد جيد وقد تقدم

( ٥ ) حديث وعافيتك أحب إلي : ذكره ابن اسحاق في السيرة في دعائه يوم خرج الى الطائف بلفظ وعافيتك أو سمع لى وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل

ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمة ، فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر . فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسراً على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا في النار ، وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني .

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء . فاعلم أنه حكى عن سمنون المحب رحمه الله أنه يُبلى بعد هذا البيت بملة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان . ادعوا لعكم الكذاب . وأما حجة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فقير بممكنة ولكن قد تغاب المحبة على القلب ، حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك . فمن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام . ولو زايه سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها . فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبههم وكلام العشاق يستلذ سماعه ، ولا يعول عليه . كما حكى أن فاختة كان يرأودها زوجها ففنته ، فقال ما الذي يملك عني ؟ ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك . فسمعه سليمان عليه السلام ، فاستدعاه وعاتبه ، فقال ، يا نبي الله ، كلام العشاق لا يحكى . وهو كما قال . وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجرى فأتارك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أني أريد ما لا يريد ، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذي لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين . أحدهما : أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى مراد الوصال في الاستقبال ، فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا ، والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة . فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما في درهمن ، فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال . الثاني : أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث أنه رضاه فقط ، ويكون له لذة في استشعاره وضا محبوبة به منه ، تريد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته . فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضاه الله منهم ، أكثر من لذتهم في المافية من غير شعور الرضا . فهو لاء إذا قدروا رضاه في البلاء

صار البلاء أحب إليهم من العافية . وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ، ولكنها لا تثبت . وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة ، أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه . وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء ، فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه ، النفوس والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، لنا ولجميع المسلمين

## بيان

الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك . فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر ، وقال آخرون الشكر أفضل ، وقال آخرون هما سياتان ، وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب ، بعيد عن التحصيل ، فلامعنى للتطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول في بيان ذلك مقامان . المقام الأول: البيان على سبيل التساهل . وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ، ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته . وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق ، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة . وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يتمده الوعاظ . إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم . والظن المشفقة لا ينبغى أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلوات ، بل باللبن اللطيف . وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوته ، ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيته . فنقول هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل ، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفصيل الصبر . فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر ، كانت فضائل الصبر أكثر . بل فيه أفاضل صريحة فى التفضيل ، كقوله صلى الله عليه وسلم

(١) « مِنْ أَفْضَلِ مَا أُوتِيَتْهُمُ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » وفى الخبر (٢) « يُؤْتَى بِأَشْكَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ

(١) حديث من أفضل ما أوتيتهم اليقين وعزيمة الصبر تقدم

(٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض

الحديث : لم أجده له أصلاً

فَيَجْزِيهِ اللَّهُ جَزَاءَ الشَّاكِرِينَ وَيُؤْتِي بِالصَّابِرِ أَهْلَ الْأَرْضِ فَيُقَالُ لَهُ أَمَا تَرْضَى أَنْ  
 تُجْزِيَكَ كَمَا جَزَيْنَا هَذَا الشَّاكِرَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبِّ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَلَّا أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ  
 فَشَكَرَ وَابْتَلَيْتُكَ فَصَبَرْتَ لِأَضْعَفِنَ لَكَ الْأَجْرَ عَلَيْهِ فَيُعْطَى أَضْعَافَ جَزَاءِ الشَّاكِرِينَ «  
 وقد قال الله تعالى ( إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ <sup>(١)</sup> ) . وأما قوله <sup>(٢)</sup>  
 « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ » فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر ، إذ ذكر  
 ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته . ولولا أنه  
 فهم من الشرع علو درجة الصبر . لما كان إخلق الشكر به مبالغة في الشكر . وهو كقوله  
 صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « الْجُمُعَةُ حَيْجُ الْمَسَاكِينِ وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعْلِ » وكقوله  
 صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « شَارِبُ الْخَمْرِ كَمَا بَدِ الْوَتْنِ » وأبدأ المشبه به ينبغي أن يكون  
 أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » لا يدل على أن  
 للشكر مثله وهو كقوله عليه السلام « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » فإن كل ما ينقسم قسمين  
 يسمى أحدهما نصفاً ، وإن كان بينهما تفاوت . كما يقال الإيمان هو العلم والعمل . فالعمل هو  
 نصف الإيمان . فلا يدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه  
 وسلم <sup>(٥)</sup> « آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ دُخُولًا الْجَنَّةِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانٍ مَلَكَهُ

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر: الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل: الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشرط

الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف  
 أيضا أن امرأة قالت كتبت لله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة  
 قال طاعة أزواجهن وفي رواية ما جزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج . وفيه القاسم  
 ابن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات

(٣) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه  
 بلفظ شارب الخمر بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمرو كلاهما ضعيف وقال ابن عدى

إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهاني

(٤) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن  
 ابن عوف لمكان غناه: الطبراني في الاوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل

وَأَخْرَجَ أَصْحَابِي دُخُولَ الْجَنَّةِ عِنْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ لِمَكَانٍ غَنَاءُ ، وَفِي خَيْرِ آخِرٍ ﴿١﴾  
 « يَدْخُلُ سُلَيْمَانُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » وَفِي الْخَبَرِ ﴿٢﴾ « أَبْوَابُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا  
 مِصْرَاعَاتُ إِلَّا بَابَ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ الْبَلَاءِ  
 أَمَامَهُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ »

وكل ماورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ، لأن الصبر حال الفسير ،  
 والشكر حال الغنى : فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ، ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم .  
 والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثاني : هو البيان الذي تقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بمحققات الأمور ،  
 بطريق الكشف والإيضاح ، فنقول فيه . كل أمر بين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما  
 مع الأبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما . وكل مكشوف يشتمل على أقسام ،  
 لا يمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان ،  
 والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة ، فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع  
 الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنظم من أمور ثلاثة ، علوم ، وأحوال ،  
 وأعمال . والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك . وهذه الثلاثة . إذا وزن البعض منها  
 بالبعض ، لاح للناظرين في الظواهر أن المعلوم تراد الأحوال ، والأحوال تراد للأعمال  
 والأعمال هي الأفضل . وأما أرباب البصائر ، فالأمر عندهم بالعكس من ذلك . فإن الأعمال

داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة وروى البراز  
 من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبد الرحمن بن عوف وفيه أغلب بن عجم ضعيف  
 (١) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا تقدم حديث معاذ بن رواه أبو منصور الديلمي  
 في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الجبشي أحد الكتابين  
 على أنس والحديث منكر

(٢) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد - الحديث : لم أجده أصلا ولا في الأحاديث  
 الواردة في مصارع أبواب الجنة تفرقة فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس  
 محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة لكما بين مكة وهدجر أو كما بين مكة وبصرى  
 وفق الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان وقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصارع الجنة مسيرة  
 أربعين سنة والباقي عليه يوم وهو كظيم من الرحام

تراد للأحوال ، والأحوال تراد للملوم ، فالأفضل الملوم ، ثم الأحوال ، ثم الأعمال ، لأن كل مراد لغيره ، فذلك الغير لا محالة أفضل منه ، وأما آحاد هذه الثلاثة ، فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض . وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف . وأفضل المعارف علوم المكاشفة ، وهي أرفع من علوم المعاملة . بل علوم المعاملة دون المعاملة ، لأنها تراد للمعاملة ، ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد ، إذا كان علمه مما يعم نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر . فنقول . فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب . وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته ، وصفاته وأفعاله . فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها . بل هي عين السعادة . ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة ، وإنما يشعر بها في الآخرة ففي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها ، فلا تتقيد بغيرها ، وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها ، ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ، فإن بعض المعارف يفضى إلى بعض ، إما بواسطة أو بوسائط كثيرة . فكما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل ، فهي أفضل . وأما الأحوال ، فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق ، فإذا فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب ، وتطهيره ، وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة . وكما أن تصقل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال المرآة ، بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب . فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود . وهكذا ترتيب الأعمال ، فإن تأثيرها في تأكيده صفاء القلب وجلب الأحوال إليه . وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة ، موجبة لظلمة القلب ، جاذبة إلى زخارف الدنيا . وإما أن يجلب إليه حالة مهينة للمكاشفة ، موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه ، واسم الأول المعصية ، واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة . وكذا الطاعات في تنوير

القلب وتصفيته . فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها ذلك يختلف باختلاف الأحوال . وذلك أنا بالقول المطابق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره . ولكن التحقيق فيه أن الغني الذي معه مال ، وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه ، فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليالٍ وصيام أيام ؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع . فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال ، فليس يستضر شهوة بطنه ، ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه . فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره . وهو كالريض الذي يشكو وجع البطن ، إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به . بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه . والشح المطاع من جملة المهلكات ، ولا يزال صيام مائة سنة ، وقيام ألف ليلة منه ذرة . بل لا يزاله إلا إخراج المال . فعليه أن يتصدق بما معه . وتفصيل هذا ما ذكرناه في ربيع المهلكات ، فليرجع إليه فإذا باعتبار هذه الأحوال يختلف . وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ . إذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء ، لم يكن فيه جواب حق ، إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للمطشان أفضل . فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب . فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان . وكذا إذا قيل السكنجيين أفضل أم شراب اللينوفر ، لم يصح الجواب عنه مطلقاً أصلاً . نعم لو قيل لنا السكنجيين أفضل أم عدم الصفراء ، فنقول عدم الصفراء ، لأن السكنجيين مراد به ، وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة . فإذا في بذل المال عمل ، وهو الإنفاق ، ويحصل به حال ، وهو زوال البخل ، وخروج حب الدنيا من القلب . ويتهبأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى ووجهه . فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال ، وبالغ في ذكر فضلها . حتى طلب الصدقات بقوله ( مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ) <sup>(٢)</sup> فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ . فاعلم أن الطيبس إذا أثنى على الدواء لم يدل على

لأن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً . فهو كبرص على وجه من لامرأة معه ، فإنه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به ، والسبيل معه المبالغة في الشاء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً ، إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثة فرط الشاء على المواظبة عليه ، فيزول مرضه . فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ، ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه : ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العليم والقراءة ، وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظاً لقال إنه محفوظ ، ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً ، وكان له عبيد ، فأمر الولد بتعليم العبيد ، ووعده على ذلك بالجميل ، لتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم . فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القراءة ، وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجلّ منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعاليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به ، وأعلم أنه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد ، فضلاً عن عدم علمهم بالقراءة . فربما يتكاسل هذا المسكين ، فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه ، وعلى كرمه في المغوعنه ، فينسى العلم والقراءة ، ويبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري . وقد اتخذ بمثل هذا الخيال طائفة ، وسلكوا طريق الإباحة . وقالوا إن الله تعالى غني عن عبادتنا ، وعن أن يستقرض منا ، فأبي معنى لقوله ( مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا <sup>(١)</sup> ) ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم ، فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا بِمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ <sup>(٢)</sup> ) وقالوا أيضاً ( لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا <sup>(٣)</sup> ) فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم ، وكيف هلكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل . يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً فهو لاءلاً ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والقراء ، أو لأجل الله تعالى ، ثم قالوا

(١) البقرة ٢٤٥ (٢) يس ٤٧ (٣) الانعام : ١٤٨



لاحظ لنا في المساكين ، ولاحظ الله فينا وفي أموالنا ، سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه ، وتأكد في قلبه ، حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته . فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق . فإذا المسكين الآخذ للمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك ، فهو كالحجام ، يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك . فالحجام خادم لك ، لأنك خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادماً ، بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدم . ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ، ومزكية لها عن خباثت الصفات ، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها ، وانتهى عنها<sup>(١)</sup> كما نهى عن كسب الحجام<sup>(٢)</sup> وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها .

والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة . فهذا هو القول الكلي ، والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال ، والأحوال ، والمعارف . ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول : في كل واحد منها معرفة وحال . وعمل . فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر . بل يقابل

كل واحد منها بنظيره ، حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ، رجعاً إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلاً من الله تعالى ، ومعرفة الصابر أن يرى العسر من الله ومهما معرفتان متلازمتان متساويتان . هذا إن اعتبرنا في البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة ، وعن المعصية . وفيهما يتحد الصبر والشكر . لأن الصبر

(١) حديث النهي عن كسب الحجام: تقدم

(٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها : مسلم من حديث عبدالمطلب بن ربيعة أن هذه الصدقة لآلنا إنما هي أوساخ القوم وإنما لآلنا محمد ولآلنا

محمد وفي رواية له أوساخ الناس

على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين . فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذاً يبحث الدين إنما خلق لهذه الحكمة ، وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، فقد صرفه إلى مقصود الحكمة . فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه ! فإذا مجازى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء . وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية وأما البلاء ، فهو عبارة عن فقد نعمة . والنعمة إما أن تقع ضرورة كالعينين مثلا ، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال . أما العينان ، فصبرا الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي . وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين . أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة . وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها . والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كأن شاكر النعمة العينين ، وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين ، فقد دخل الصبر في شكره : وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة ، فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة . ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ، ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شبيب عليه السلام مثلا ، وقد كان ضريرا ، من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام ، وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا : وكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ، ويترك كلحم على وضم ، وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين ، يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين . وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين . وذلك لا يكون إلا بصبر . وأما ما يقع في محل الحاجة ، كالزيادة على الكفاية من المال ، فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة ، وهو محتاج إلى ما وراءه ، ففي الصبر عنه مجاهدة ، وهو جهاد الفقر . ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل في المعصية .

فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة ، فالشكر أفضل . لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التمتع المباح . وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل . إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها .

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية ، بل بصرفه إلى التمتع المباح ، فالصبر ههنا أفضل من الشكر . والفقير الصابر أفضل من الغني المسك ماله ، الصارف إياه إلى المباحات ، لامن النبي الصارف ماله إلى الخيرات . لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى . وهذه الحالة تستدعي لمحالة قوة . والغني أتبع نهمته ، وأطاع شهوته ، ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير ، أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التمتع على المباح . والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها . فإن الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة في الإيمان فهو أفضل لمحالة

و جميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص . لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ، ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها إلى الطاعة . فإذا الصبر أفضل من الشكر ، أي الصبر الذي تفهمه العامة ، أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة . وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيّد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ، ولا مدح الفقير بالعدم ؛ وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما . فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء ثلاث صفة وتقبضها وترجمها . فإذا كان الإيمان قائمًا لله تعالى بشرط ماعليهما ، كان الذي ألم صفة وأزعمها أتم حالًا ممن تمتع صفة ونعمها . والأمر على ما قاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر

في القسم الأخير الذي ذكرناه . وهو لم يرد سواه . ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال : الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر . فدعا عليه الجنيد ، فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده ، وإتلاف أمواله ، وزوال عقله أربع عشرة سنة . فكان يقول دعوة الجنيد أصابتنى . ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها ، علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال . فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر . وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لا يمكك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، والباقي يصرفه إلى الخيرات ، أو يمكك على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها . ثم إذا صرف لم يصرفه لطاب جاه وصيت ، ولا لتقليد منة ، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس ، والفقير يثقل عليه الفقر ، لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر . فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بليته في القدرة على الإنفاق فاعلم أن الذي نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس ، أكل حالاً ممن ينفقه وهو يخيل به ، وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في إيلام النفس ليس مطلوباً لعينه ، بل لتأديبها . وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد . والكلب المتأدب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب ، وإن كان صابراً على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ، ولا يحتاج إليهما في النهاية . بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذياً عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذياً . وقد كان مؤلماً له أولاً ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأفلين في البداية ، بل قبل البداية بكثير ، كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل . وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فإذا كنت لا تفصل الجواب . وتطلقه لإرادة الأكثر ، فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر ، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام . فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا ، وهو مقام وراء الصبر ،

وراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بالآلم فيه ولا فرح ،  
والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به . وكذلك الشكر درجات كثيرة ، ذكرنا  
أقصاها ، ويدخل في جملتها أمور دونها ، فإن حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ،  
ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم  
الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر  
والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر . وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها  
شكر ، وشكر الوسائط شكر ، إذ قال عليه السلام <sup>(١)</sup> « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ  
اللَّهَ » وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين  
يدي المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال  
والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر أحدها ، وهي درجات مختلفة ، فكيف  
يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ، إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام ،  
كما ورد في الأخبار والآثار :

وقد روي عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن ،  
فسألته عن حاله فقال : إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي ، وهي كذلك كانت تهواني ،  
فاتفق أنها زوجت مني ، فليلة زفافها . قلت تعالى حتى نحیی هذه الليلة شكراً لله تعالى على  
ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ، فاما كانت الليلة الثانية فلنا مثل ذلك ،  
فصلينا طول الليل ، فنذسبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك بإفلانة ؟  
قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما  
وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل .  
فاذا لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفصيل كما سبق ، والله أعلم .

(١) حديث من لم يشكر الله: تقدم في الزكاة



كتاب الخوف والرجاء

## كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، والخوف مكره وعقابه ، الذي عمر قلوب أوياته بروح رجائه حتى ساقهم بطائف آلائه إل النزول بفنائنه ، والمدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه ، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المرصين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصددهم عن التمرض لأئمته ، والتهدف لسخطه ونقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر . والعنف ، وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة على محمد سيدا نبيا نه وخير خليفته ، وعلى آله وأصحابه وعترته . أما بعد : فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان ، مع كونه بهما الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوف بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه محفوفاً بطائف الشهوات وعجائب اللذات لإسباط التخويف وسطوات التعنيف . فلا بد إذاً من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما ، وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تصادهما وتعاونهما ، ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين : الشطر الأول في الرجاء ، والشطر الثاني في الخوف : أما الشطر الأول ، فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء ، وبيان دواء الرجاء ، والطريق الذي يجتلب به الرجاء .

## بيان

حقيقة الرجاء

إعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين ، وأحوال الطالبين . وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال . وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع ، وإلى ما هو بينهما كصفرة



المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً ؛ لأنه يحول على القرب . وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب . وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضاً يتم من حال ، وعلم ، وعمل ، فالعلم سبب يشمر الحال ، والحال يقتضى العمل . وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة . ويبيانه أن كل ما يلائقك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال ، وإلى موجود فيما مضى ، وإلى منتظر في الاستقبال . فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً . وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمي وجداً ، وذوقاً ، وإدراكاً ، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك . وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال ، وغلب ذلك على قلبك ، سمي انتظاراً وتوقماً . فإن كان المنتظر مكروهاً ، حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً . وإن كان محبوباً ، حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح ، سمي ذلك الارتياح رجاء . فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده .

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب . فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق . وإن كان ذلك انتظاراً مع انحرام أسبابه واضطرانها فاسم الغرور والحرق عليه أصدق من اسم الرجاء . وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء ، فاسم التمني أصدق على انتظاره ، لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا . إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع ، وأخاف غروبها وقت الغروب . لأن ذلك مقطوع به نعم : يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها ، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يجصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، ولما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه . كما لا ينمو بذر في أرض سبخة . فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع . فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده

بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سمي انتظاره رجاء : وإن بث البذر في أرض صلبة مبنخة ، مرتفعة لا ينصب إليها الماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حمقا وغرورا لارجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة ، لكن لاماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمنع أيضا ، سمي انتظاره تمنيا لارجاء .

فإذا اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسدات . فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بقاء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المنفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا ، محمودا في نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت . وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بقاء الطاعات . أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ » وقال تعالى ( تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَا خُدُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا <sup>(٣)</sup> ) وذم الله تعالى صاحب البستان ، إذ دخل جنته وقال ما أظن أن تبدي هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا

فإذا العبد المجتهد في الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة ، وأما المعاصي ، فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه

( كتاب الرجاء والخوف )

( ١ ) حديث الأحمق من أتبع نفسه هواها - الحديث : تقدم غير مرة

( ٢ ) مريم : ٥٩ ( ٣ ) الاعراف : ١٦٩

من تقصير ، فحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية ، تسوء السيئة ، وتسره الحسنة ، وهو يذم نفسه ويلومها ويشقى التوبة ويشتاق إليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة ، يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب . ولذلك قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ <sup>(١)</sup> ) معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله . وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهك فيها يكرهه الله تعالى ، ولا يذم نفسه عليه ، ولا يعزم على التوبة والرجوع برفجائه المغفرة بحق ، كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعمده بسقى ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب ، مع رجاء المفوم غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته ، فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بمرجان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة ثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره ، وطابت أرضه ، وغزر ماؤه ، صدق رجائه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعمدها ، وتنحية كل حشيش ينبت فيها . فلا يفترعن تعمدها أصلا إلى وقت الحصاد . وهذا لأن الرجاء يضاذه اليأس ، واليأس يمنع من التعمد . فمن عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء معوز ، وأن البذر لا ينبت فيتترك لاجمالة تفقد الأرض والتمب فى تعمدها والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم ، وهو ضده ، لأنه ضارف عن العمل . والخوف ليس بضد للرجاء ، بل هو رفيق له كما سياتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة ، كما أن الرجاء باعث بطريق الرقبة . فإذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى

والتنعم بعبادته ، والتلطف في التملق له ، فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك . أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى . فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء ، والنزول في حضيض الغرور والتمنى . فهذا هو البيان لحال الرجاء ، ولما أثمره من العلم ، ولما استثمر منه من العمل . ويدل على إيمانه لهذه الأعمال حديث <sup>(١)</sup> زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد . فقال « كَيْفَ أَصْبَحْتَ » قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه ، وأيقنت بثوابه . وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه ، وحننت إليه فقال « هَذِهِ عَلَامَةُ اللَّهِ فِيْمَنْ يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكَ لِلْآخِرَىٰ هَيْئًا كَلِهَاتِمٌ لَا يَبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَّتَيْهَا هَلَكْتَ » فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير . فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

## بيان

فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف . لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفا من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه . ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب ، لاسبغ في وقت الموت . قال تعالى ( لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ) <sup>(١)</sup> فحرم أصل اليأس . وفي أخبار يعقوب عليه السلام ، أن الله تعالى أوحى إليه . أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجى : ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى »

( ١ ) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد - الحديث :

الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه انه قال له أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماء النبي صلى الله عليه وسلم الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى

بقام زيد الخير فقال يا رسول الله - الحديث : سمعت أبي يقول ذلك

( ٢ ) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله : مسلم من حديث جابر

وقال صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ <sup>(١)</sup> أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيُظَنِّ بِي مَا شَاءَ » <sup>(٢)</sup> ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزاع فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » فقال أجدني أخاف ذنوبي ، وأرجو رحمة ربي . فقال صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أُعْطَاهُ اللَّهُ مَا رَجَا وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ » .

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان . من أذنب ذنباً فعمل أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال لأن الله عز وجل غير قوما فقال ( وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا <sup>(٢)</sup> )

وقال صلى الله عليه وسلم « <sup>(٣)</sup> إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ فَإِنَّ لِقَنَةَ اللَّهِ حُجَّتَهُ قَالَ رَبِّ رَجَوْتُكَ وَحِفْتُ النَّاسَ قَالَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ غَفَرْتُهُ لَكَ » وفي الخبر الصحيح <sup>(٤)</sup> « أَنْ رَجُلًا كَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيُسَامِحُهُمْ أَلْفَنِي وَيَتَجَاوَزُهُ عَنِ الْمُعْسِرِ فَلَقِيَ اللَّهَ وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنَّا » فعفا عنه لحسن ظنه ، ورجائه أن يعفو عنه ، مع إفلاسه عن الطاعات .

وقال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ <sup>(٥)</sup> ) ولما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٦)</sup> « لَوْ تَعْلَمُونَ

( ١ ) حديث أناعندظن عبدى بى فليظن بى ماشاء : ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو فى الصحيحين

من حديث أبى هريرة دون قوله فليظن بى ماشاء

( ٢ ) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزاع فقال كيف تجدك - الحديث : الترمذى وقال

غريب والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النورى اسناده جيد

( ٣ ) حديث ان الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك اذ رأيت المنكر ان تنكره - الحديث : ابن ماجه من حديث

أبى سعيد الخدرى باسناد جيد وقد تقدم فى الأمر بالمعروف

( ٤ ) حديث ان رجلا كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر - الحديث : مسلم من حديث أبى مسعود

حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء الا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا

فكان يأمر غلمانة أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك بما جاوزوا عنه

وانفقوا عليه من حديث حذيفة وأبى هريرة بنحوه

( ٥ ) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا - الحديث : تولى به فهدى جبريل - الحديث : ابن حبان

( ١ ) فصلت : ٢٣ ( ٢ ) الفتح : ١٢ ( ٣ ) فاطر : ٢٩

مَا عَلَّمْتُ لَصَاحِبِكُمْ قَلِيلًا وَ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَ لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَلْدُمُونَ صُدُورَكُمْ وَ تَجَارُونَ إِلَى رَبِّكُمْ ، فَهبط جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم . وفي الخبر <sup>(١)</sup> ، إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : أحبني ، وأحب من يحبني ، وحببني إلى خلقي . فقال : يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال اذكرني بالحسن الجميل ، واذكر آلائي وإحساني ، وذكركم ذلك ، فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل وروى أبان بن أبي عياش في النوم ، وكانت يكثر ذكر أبواب الرجاء ، فقال : أوقفني الله تعالى بين يديه ، فقال ما الذي حملك على ذلك ؟ فقلت أردت أن أحبيك إلى خلقك . فقال قد غفرت لك ، وروى يحيى بن أكرم بعد موته في النوم ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفني الله بين يديه ، وقال يا شيخ السوء ، فعلت وفعلت ، قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله . ثم قلت يارب ، ما هكذا حدثت عنك . فقال وما حدثت عني ؟ فقلت حدثني عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن أنس ، عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام ، أنك قلت أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء . وكنت أظن بك أن لاتعذبني . فقال الله عز وجل : صدق جبريل ، وصدق نبيي ، وصدق أنس ، وصدق الزهري ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق ، وصدقت ، قال فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة ، فقلت يالها من فرحة . وفي الخبر <sup>(٢)</sup> أن رجلا من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنَّ رَجُلًا يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمُوتُ فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِي يَا حَتَّانُ يَا مَنَانُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ اذْهَبْ فَأَتِنِي بِعَبْدِي قَالَ فَيَجِيءُ بِهِ فَيُؤَقِّفُهُ

في صححه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليهم من حديث أنس ورواه زيادة وخرجتم إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم

( ١ ) حديث ان الله تعالى أوحى الى عبده داود عليه السلام أحب من يحبني وأحب من يحبني - الحديث : لم أجده أصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذي قبله

( ٢ ) حديث ان رجلا من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم - الحديث : رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعا

( ٣ ) حديث ان رجلا يدخل النار فيموت فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان - الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس

عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ؟ فَيَقُولُ شَرٌّ مَكَانٍ قَالَ فَيَقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ قَالَ فَيَمْسِي وَيَلْتَفِتُ إِلَى وَرَائِهِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَلْتَفِتُ؟ فَيَقُولُ لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لَا تُعِيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ إِذْ أُخْرِجْتَنِي مِنْهَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ ، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بطلعه وكرمه

## بيان

دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حاك الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة ، حتى أضر بنفسه وأهله . وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال . فأما العاصي الممرور المتمنى على الله ، مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي ، فأدوية الرجاء تنقلب سمو ما مهلكة في حقه ، وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سيم مهلك لمن غلب عليه الحرارة . بل الممرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف ، والأسباب المهيجة له . فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع الملل ، معالجا لكل علة بما يضادها ، لا بما يزيد فيها . فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها ، وخير الأمور أوسطها . فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين ، عولج بما يردّه إلى الوسط ، لا بما يزيد في ميله عن الوسط . وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب . فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية . ولكنها لما كانت أخف على القلوب ، وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب ، واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا ، مالوا إلى الرجاء ، حتى ازداد الفساد فسادا ، وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديا . قال علي كرم الله وجهه : إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ولا يؤمنهم من مكر الله ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنهما مشتعلان على الخوف

والرجاء جميعا ، لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة ، استعمال الطبيب الحاذق ، لاستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان وحال الرجاء يغلب بشيئين : أحدهما الاعتبار ، والآخر استقرار الآيات والأخبار والآثار أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر ، حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا . ومعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود . كآلات الغذاء . وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظافر ، وما هو زينة له . كاستقواس الحاجبين ، واختلاف ألوان العينين ، وجمرة الشفتين ، وغير ذلك مما كان لا ينثم بفقدته غرض مقصود ، وإنما كان يفوت به مزينة جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق ، حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة ، كيف يرضى بسياقتهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا ، علم أن أكثر الخلق قدهيء له أسباب السعادة في الدنيا ، حتى أنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداء مثلا ، أو لا يحشر أصلا . فليست كراهمهم للمدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لامحالة . وإنما الذي يتشنى الموت نادر . ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة ، وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة ، فسنة الله لا تجد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون ، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد ، وهو غفور رحيم ، لطيف بعباده ، متعطف عليهم . فهذا إذا توؤمّل حق التأمل قوي به أسباب الرجاء . ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا ، ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقيل له وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ، ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه ، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه !

الفن الثاني : استقرار الآيات والأخبار ، فما ورد في الرجاء خارج عن المحصر



أما الآيات ، فقد قال تعالى ( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ <sup>(١)</sup> ) وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « وَلَا يُبَالِي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وقال تعالى ( وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ <sup>(٢)</sup> ) وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه ، فقال ( لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى <sup>(٥)</sup> ) وقال عز وجل ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ <sup>(٦)</sup> )

ويقال <sup>(٢)</sup> إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ <sup>(٧)</sup> )؟ وفي تفسير قوله تعالى ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى <sup>(٨)</sup> ) قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله ( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ <sup>(٩)</sup> ) الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى <sup>(١٠)</sup> ) . وأما الأخبار <sup>(١١)</sup> فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنْ أُمَّتِي رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَلِيلٌ

( ١ ) حديث قرا فل يعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى : الترمذى من حديث اسماء بنت يزيد وقال حسن غريب

( ٢ ) حديث ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له اما ترضى وقد أنزل عليك وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم : لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والعلبي في تفسيرهما

من رواية على بن يزيد بن جعدان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحدا العيش - الحديث :

( ٣ ) حديث أبي موسى أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن . الحديث :

( ٩٠١ ) الزمر : ٥٣ ( ٢ ) الشورى : ٥ ( ٣ ) الزمر : ١٦ ( ٤ ) آل عمران : ١٣٩ ( ٥ ) الليل : ١٤ ( ٦ )

( ٧ ) الرعد : ٦ ( ٨ ) الضحى : ٥

هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ « وفي لفظ آخره <sup>(١)</sup> » يَا نِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ  
أَوْ نَصْرَانِيٌّ إِلَى جَهَنَّمَ فَيَقُولُ هَذَا فِدَائِي مِنَ النَّارِ فَيُلْقَى فِيهَا «

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْحَمَى مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ وَهِيَ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ »  
وروي في تفسير قوله تعالى (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ <sup>(٣)</sup>) (١) « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
أَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، أَنِّي أَجْعَلُ حِسَابَ أُمَّتِكَ إِلَيْكَ ، قَالَ لَا يَارَبُّ ، أَنْتَ  
أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي : فَقَالَ إِذَا لَانْخِزِيكَ فِيهِمْ . وَرَوَى عَنْ <sup>(٤)</sup> أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ سَأَلَ رَبَّهُ فِي ذُنُوبِ أُمَّتِهِ ، فَقَالَ « يَا رَبُّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَيَّ لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَيَّ  
مَسَاوِيَهُمْ غَيْرِي » فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، هُمْ أُمَّتِكَ ، وَهُمْ عِبَادِي وَأَنَا أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْكَ ، لَا أَجْعَلُ  
حِسَابَهُمْ إِلَيَّ غَيْرِي لِئَلَّا تَنْظُرَ إِلَيَّ مَسَاوِيَهُمْ أَنْتَ وَلَا غَيْرِكَ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
« حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ أُمَّ حَيَاتِي فَأَسْنُ لَكُمْ السُّنَنَ وَأَشْرَعُ لَكُمْ  
الشَّرَائِعَ وَأُمَّ مَوْتِي فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَنًا تَحَدَّثُ اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئًا اسْتَعْفَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى لَكُمْ »

- أبي داود دون قوله فاذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف  
وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه
- (١) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم - الحديث : مسلم من حديث أبي موسى  
إذا كانت يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار  
وفي رواية له لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا
- (٢) حديث الحمى من فتح جهنم وهي حظ المؤمن من النار : أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة  
وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه
- (٣) حديث أنت الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت  
خير لهم مني - الحديث : في تفسير قوله تعالى يوم لا يخزي الله النبي ابن أبي الدنيا  
في كتاب حسن الظن بالله
- (٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى  
الحديث : لم أقف له على أصل
- (٥) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم - الحديث : البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله  
رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود وأن أخرج له مسلم ووثقه  
ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث  
أنس بنحوه باسناد ضعيف

(١) وقال صلى الله عليه وسلم يوماً « يَا كَرِيمَ الْعَفْوِ » فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ما تفسير يا كريم العفو؟ هو إن عفان السيئات برحمته، بدلها حسنات بكرمه (٢) وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: اللهم انى أسألك عام النعمة فقال « هَلْ تَدْرِي مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ؟ » قال لا. قال « دُخُولُ الْجَنَّةِ » قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا، إذ قال تعالى (وَأَنعمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (١))

وفي الخبر (٢) « إِذَا أَذنبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا فَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ انظُرُوا إِلَى عَبْدِي أَذنبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَأْخُذُ بِالذُّنُوبِ أَشْهَدُ كُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ ». وفي الخبر (٤) « لَوْ أَذنبَ الْعَبْدُ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ غَفَرْتُهَا لَهُ مَا اسْتَغْفَرَنِي وَرَجَانِي ». وفي الخبر (٥) « لَوْ لَقِيتُنِي عَبْدِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ ذُنُوبًا لَقِيتُهُ بِقَرَابِ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً ». وفي الحديث (٦) « إِنَّ الْمَلَكَ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ عَنِ الْعَبْدِ إِذَا أَذنبَ سِتَّ سَاعَاتٍ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهُ عَلَيْهِ وَإِلَّا كَتَبَهَا سَيِّئَةً »

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً يا كريم العفو فقال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم العفو. الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره

(٢) حديث سمع رجلاً يقول اللهم انى أسألك تمام النعمة - الحديث تقدم

(٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً فعمل أن لرباً يغفر الذنب - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ أن عبداً أصاب ذنباً فقال أى رب أذنبت ذنباً فاستغفرلى - الحديث : وفي رواية أذنب عبد ذنباً فقال - الحديث :

(٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء - الحديث : الترمذى من حديث أنس بن آدم وبلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك وقال حسن

(٥) حديث لوليتنى عبدى بقرباب الأرض ذنوباً لقيته بقربابها مغفرة: مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيت بقرباب الأرض حطية لا يشرك بى شيئاً لقيته بمثلها مغفرة وللترمذى من حديث أنس الذى

قله يا ابن آدم لوليتنى - الحديث :

(٦) حديث أن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه - الحديث قال وفى ولفظه آخر فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب العيون لصاحب الشاه وهو أمير عليه أنى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تصفيف العنبر - الحديث : البيهقي فى الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه ابن باللفظ الأول ورواه أيضا بطول منه وفيه أن صاحب العيون

وفي لفظ آخر « فَإِذَا كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَعَمَلَ حَسَنَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشَّمَالِ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَيْهِ أَلْتَقِ هَذِهِ السَّيِّئَةَ حَتَّى أَلْتَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً تَضَعُفُ الْعَشْرَ وَأَرْفَعُ لَهُ تِسْعَ حَسَنَاتٍ فَتُلْتَقِ عَنْهُ السَّيِّئَةُ » . وروى <sup>(١)</sup> أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا كُتِبَ بِعَمَلِهِ » فقال أعرابي : وإن تاب عنه؟ قال « مُحِيَّ عَنْهُ » قال فإن عاد؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُكْتَبُ عَلَيْهِ » قال الأعرابي فإن تاب؟ قال « مُحِيَّ مِنْ صِحْفَتِهِ » قال إلى متى؟ قال « إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ مِنَ الْغَفْرَةِ حَتَّى يَمَلَّ الْعَبْدُ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ فَإِذَا هُمُ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ حَسَنَةً قَبْلَ أَنْ يَمْعَلَهَا فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعَفُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَمَّالَى إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ وَإِذَا هُمْ بِمَخْطِئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِذَا عَمَلَهَا كُتِبَتْ خَطِيئَتُهُ وَاحِدَةً وَوَزَّاءُهَا حُسْنٌ عَفْوُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » <sup>(٢)</sup> . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ، ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها ، وليس لله في مالي صدقة ، ولا حج ، ولا تطوع ، أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نَعَمْ مَعِيَ إِذَا حَفِظْتَ قَلْبَكَ مِنَ اثْنَتَيْنِ .

أمر على صاحب الشمال وأيس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بالفداء السيئة حتى ياتي من حسناته واحدة ولم أجد لذلك أصلا

(١) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابي فان تاب عنه قال محي عنه قال فان عاد الحديث وفيه أن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار الحديث : البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل فقال يا رسول الله اني اذنبت ذنبا قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود قال فاذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعا قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحذور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر - الحديث : وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر لأجدنا يذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويناب عايه قل فيه ودس الحديث وفيه ولا يمل الله حتى تموا وأليس في الحديثين قوله في آخره فاذا هم العبد بمحنة ألح وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الي سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وان هم بسية فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها فعملها كتبها الله سية واحدة زاد مسلم في رواية أو عماها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولها نحوه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث جاء رجل فقال يا رسول الله أبي لا أصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وأليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع - الحديث : تقدم

الغل والحسد وليسآئك من اثنتين الغيبة والكذب وعينيك من اثنتين النظر إلى ما حرم الله وأن تزدري بهما مسلماً دخلت معي الجنة على راحتي هاتين . وفي الحديث (١) الطويل لأنس ، أن الأعرابي قال يارسول الله ، من بلى حساب الخلق؟ فقال « الله تبارك وتعالى » قال هو بنفسه؟ قال « نعم » فنبسم الأعرابي . فقال صلى الله عليه وسلم « من صحكت يا أعرابي » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سماح . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . « صدق الأعرابي ألا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين » ثم قال « فقه الأعرابي » وفيه أيضاً إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمتها ولو أن عبداً هدماً حجراً حجراً ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى قال الأعرابي . ومن أولياء الله تعالى؟ قال « المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قول الله عز وجل ( الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ) (١) وفي بعض الأخبار (٢) « المؤمن أفضل من الكعبة » (٣) « والمؤمن طيب طاهر » (٤) « والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة » . وفي الخبر (٥) « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطاً يسوق الله به عباده إلى الجنة » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل (٦) إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لاربح »

(١) حديث أنس الطويل قال أعرابي يارسول الله من بلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه

ال نعم فنبسم الاعرابى .. الحديث : لم أجده أصلاً

(٢) حديث المؤمن أفضل من الكعبة : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمتك وأعظم حرمتك والذي

نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به الاخرى وشيخه نصر بن محمد

ابن سليمان الحمضى ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن طيب طاهر : لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس

(٤) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة : ابن ماجه من رواية أبي الهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة

بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو الهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه

ابن حبان في الضعفاء والبيهقى في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف

(٥) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة : لم أجده هكذا ويفى عنه ما رواه

البخارى من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاهونهم إلى الجنة في السلاسل

(٦) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لاربح عليهم : لم أقصده على أصله

عَلَيْهِمْ» . وفي حديث <sup>(١)</sup> أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
« مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ وَجَعَلَ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ » ، وفي الخبر  
المشهور <sup>(٢)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ  
غَضَبِي » : وعن <sup>(٣)</sup> معاذ بن جبل ، وأنس بن مالك ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ  
قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » <sup>(٤)</sup> « وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَمْ تَمَسَّهُ  
النَّارُ » <sup>(٥)</sup> « وَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ » <sup>(٦)</sup> « وَلَا يَدْخُلُهَا مَنْ  
فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ » وفي خبر آخر <sup>(٧)</sup> « لَوْ عَلِمَ الْكَافِرُ سِعَةَ رَحْمَةِ  
اللَّهِ مَا أَيْسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » <sup>(٨)</sup> ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى

( ١ ) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه : أبو الشيخ ابن حبان في الثواب

وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب اليزان ليس بواه ولا بمجهول

( ٢ ) حديث ان الله كتب على نفسه بنفسه قبل ان يخلق الخلق ان رحمتي تغلب غضبي : متفق عليه من

حديث أبي هريرة وقد تقدم

( ٣ ) حديث معاذ وأنس من قال لا اله الا الله دخل الجنة : الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم

من حديث معاذ وهو في اليوم والليلة وللنساء بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث

معاذ ومن حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار

( ٤ ) حديث من كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تمسه النار : أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة

( ٥ ) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار : الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم

قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله الا حرمه الله على النار وزاد

البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث

معاذ بلفظ جعله الله في الجنة وللنساء من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال

أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبديؤ من بهما الا حجب عن النار يوم القيامة

( ٦ ) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان : أحمد من حديث سهل ابن بيضاء من شهد أن لا اله الا الله

حرمة الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان اني لأعلم كلمة ولاية ولها عبد حقا

من قلبه الا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الاخلاص واسناده صحيح ولكن هذا

ونحوه شاذ يخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من المؤمنين النار واخراجهم

بالشفاعة نعم لا يبق في النار من في قلبه وزن ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه

فمن وجدتم في قلبه ميثقال ذرة من إيمان فأخرجوه وقال مسلم من خير بدل من إيمان .

( ٧ ) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة

( ٨ ) حديث لما تلا - انزلت الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا - الحديث : الترمذي من حديث

( إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ <sup>(١)</sup> ) قال « أَتَذَرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ هَذَا يَوْمٌ يُقَالُ لَأَدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُمْ فَأَبْمَثْ بَعَثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ كَيْفَ؟ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ » قال فأبلس القوم، وجعلوا يبكون وتمطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « مَا لَكُمْ لَا تَعْمَلُونَ؟ » فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا؟ فقال « كَمْ أَنْتُمْ فِي الْأُمَمِ أَيْنَ تَأْوِيلُ وَتَارِيْسُ وَمَنْسِكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَّمٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي سَائِرِ الْأُمَّمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَكَالْقُرَّةِ فِي ذِرَاعِ الدَّائِبَةِ » فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف، ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى، إذ سافهم بسياط الخوف أولا، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس، داوام بدواء الرجاء، وردداهم إلى الاعتدال والقصد. والآخر لم يكن منافضا للأول، ولكن ذكر في الأول ما رآه سببا للشقاء، واتفق عليه، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر: فلي الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ، فيتألف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة، بعد ملاحظة الملل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه.

وفي الخبر <sup>(١)</sup> « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يَذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » وفي لفظ آخر « وَذَهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يَذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبِ » قيل وما هو؟ قال « الْعُجْبُ » . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ »

عمران بن حصين وقال حسن صحيح قلت هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد

(١) حديث لولم تذنبا خلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم وفي لفظ لذهب بكم - الحديث : مسلم من حديث أبي أيوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه

(٢) حديث لولم تذنبا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب: البرار وابن جبان في الضعفاء واليبقى في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب

(٣) حديث والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشقيقة بولدها: متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب

مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا « وفي الخبر <sup>(١)</sup> » لَيَغْفِرَنَّ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً مَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ حَتَّى أَنْ يُبَلِّسَ لِيَتَطَاوَلَ لَهَا رَجَاءً أَنْ تُصِيبَهُ « وفي الخبر <sup>(٢)</sup> » إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَدْخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَأَّحُمُ الْخَلْقُ فَتَجِنُّ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَتَعَطِفُ الْبَهِيمَةُ عَلَى وَلَدِهَا فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التَّسْعِ وَالتَّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَكُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طَبَاقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ فَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا هَالِكٌ « وفي الخبر <sup>(٣)</sup> » مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ « قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ « وقال عليه أفضل الصلاة والسلام <sup>(٤)</sup> » اَعْمَلُوا وَابْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْجِهِ عَمَلُهُ «

. وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « إِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي أُرْوَاهَا لِلْمُطِيعِينَ الْمُتَّقِينَ بَلْ هِيَ لِلْمُتَلَوِّثِينَ الْمُخْلِطِينَ « وقال عليه الصلاة والسلام <sup>(٦)</sup> « يُبْعَثُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ «

وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفي <sup>(٧)</sup> « أَحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّ فِي دِينِنَا سَمَاحَةً « ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

( ١ ) حديث يغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد - الحديث : ابن أبي الدنيا

في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف

( ٢ ) حديث ان الله تعالى مائة رحمة - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

( ٣ ) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

( ٤ ) حديث اعملوا وابتشروا واعلموا ان أحدا لن ينجيه عمله : تقدم أيضا

( ٥ ) حديث اني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي - الحديث : الشيخان من حديث أبي هريرة لكل

نبي دعوة وابتشروا دعوتى شفاعت لأمى ورواه مسلم من حديث أنس ولترمزنى من حديثه

وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ولا بن ماجه من حديث

أبى موسى ولأحمد من حديث ابن عمر خیرت بین الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى

الجنة فاخترت الشفاعة لانها أعم وأكفى أترونها للمتقين - الحديث : وفيه من لم يسم

( ٦ ) حديث بعثت بالحنيفية السمحة السهلة : أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله

وللطبرانى من حديث ابن عباس أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحاق ورواه بالعمنة

( ٧ ) حديث أحب ان يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة : أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد



إِصْرًا<sup>(١)</sup> وقال تعالى ( وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ )<sup>(٢)</sup> وروى<sup>(٣)</sup> محمد بن الحنفية ، عن علي رضي الله تعالى عنها أنه قال لما نزل قوله تعالى ( فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ )<sup>(٤)</sup> قال « يَا جَبْرِيلُ وَمَا الصَّفْحُ الْجَمِيلُ » قال عليه السلام . إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال « يَا جَبْرِيلُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَاتَبَ مِنْ عِقَابَتِهِ » فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرئكما السلام ويقول . كيف أعاتب من عفوت عنه ؟ هذا ما لا يشبه كرمي والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه . من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا ، فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة . ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا ، فالله تعالى أعدل من أن يتي عقوبته على عبده في الآخرة ، وقال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي ، لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة ، كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه ، فرفع يديه يدعو يقول ياربني ، حجببت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة . حتى إذا قال الرابعة ياربني ، قال الله تعالى حتى متى تحجبون عني صوت عبدي ؟ قد علم عبدي أنه ليس له رب ينفرد الذنوب غيري . أشهدكم أنني قد غفرت له

وقال ابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه : خلا لي الطواف ليلة ، وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقف في الملتزم عند الباب ، فقلت ياربني اعصمني حتى لا أعصيك أبدا . فهتف بي هاتف من البيت ، يا ابراهيم ، أنت تسألني العصمة ، وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك فإذا عصمتهم فعلى من أفضل ؟ ولمن أغفر ؟ . وكان الحسن يقول . لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ، ولكن الله تعالى قمعته بالذنوب .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين .  
ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له . إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال يا أبا يحيى ،

(١) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفح الصفح الجميل - قال جبريل وما الصفح الجميل قال إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه - الحديث : ابن مردويه في تفسيره مع قوله تعالى على من مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث : وفي استاده نظره

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) الاعراف : ١٥٧ (٣) الحجر : ٨٥

إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح .  
 وفي حديث ربي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد  
 الموت . قال : لما مات أخى سجي بثوبه ، وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه  
 واستوى قاعدا وقال : إني لقيت ربي عزوجل ، فخياني بروح وريحان ، وربى غير غضبان ،  
 وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون ، فلا تفتروا ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ينظرني وأصحابه  
 حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه ، فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه  
 وفي الحديث <sup>(١)</sup> « أن رجُلين من بني إسرائيل توأخيا في الله تعالى فكان أحدهما  
 يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويترجمه فكان يقول دعني وربى  
 أبعثت على رقيباً حتى رآه ذات يوم على كبرة فغضب فقال لا يفر الله لك قال  
 فيقول الله تعالى يوم القيامة أيسطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي اذهب أنت  
 فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده  
 لقد تكلم بكلمة أهلك دنياه وآخرته »

وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة ، قر عليه عيسى  
 عليه السلام ، وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين . فقال اللص في نفسه : هذا  
 نبي الله عيسى ، وإلى جنبه حواريه ، لو نزلت فكنت معهما ثالثاً . قال فزل ، فجعل يريد أن يدنو  
 من الحوارى ، وبزدرى نفسه تعظيماً للحواري ، ويقول في نفسه مثلى لا يعيشى إلى جنب هذا  
 العابد ! قال وأحسن الحوارى به ، فقال في نفسه هذا يعيشى إلى جانبي ! فضم نفسه ومشى إلى  
 عيسى عليه الصلاة والسلام ، فشى بجنبه ، فبقي اللص خلفه . فأوحى الله تعالى إلى عيسى  
 عليه الصلاة والسلام : قل لهما ليستأنفا العمل ، فقد أحببت ما سلف من أعمالهما . أما  
 الحوارى ، فقد أحببت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر ، فقد أحببت سيئاته بما ازدرى  
 على نفسه فأخبرها بذلك ، وضم اللص إليه في سياحته ، وجمله من حواريه .

وروى عن مسروق أنه أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً ، فوطئ عتقه بمض المصاة ، حتى

(١) حديث أن رجُلين من بني إسرائيل توأخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر

عابداً للرب ، والآخر من حواريه .

ألزق الحصى بجميته . قال فرجع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا ، فقال اذهب فلن يغفر الله لك : فأوحى الله تعالى إليه : تتألى عليّ في عبادي اإني قد غفرت له .

ويقرب من هذا ما روى عن <sup>(١)</sup> ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ، ويلعنهم في صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى ( لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ <sup>(٢)</sup> ) الآية فترك الدعاء عليهم ، وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام . وروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين ، متساويين في العبادة ، قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة ، فرفعته عليّ في عليين ؟ فيقول الله سبحانه . إنه كان يسأني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسأني النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله . وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف . فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه ، وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « سَلُّوا اللَّهَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فَإِنَّمَا تَسْأَلُونَ كَرِيماً » وقال <sup>(٤)</sup> « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَعْظِمُوا الرَّغْبَةَ وَاسْأَلُوا الْفَرْدَوْسَ الْأَعْلَى فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ » وقال بكر بن سليم الصواف . دخلنا على مالك بن أنس في العشية

( ١ ) حديث ابن عباس كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شيء فترك الدعاء عليهم - الحديث : البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول مع الله بن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل ليس لك من الأمر شيء إلى قوله فانهم ظالمون ورواه الترمذي وسماه أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد كتاب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسلمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن صحيح

( ٢ ) حديث سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يستل وقال هكذا روى حماد بن واقدو ليس بالحافظ ( ٣ ) حديث إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة وسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطم شيء : مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي ان شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة . فإن الله عز وجل لا يتعاطم شيء أعطاه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه اوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

التي قبض فيها ، فقلنا يا أبا عبد الله ، كيف تجردك . قال لا أدري ما أقول لكم ، إلا إنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب . ثم ما برحنا حتى أغمضناه

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب ، يعلب رجائي إياك مع الأعمال لأنني اعتمد في الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف . وأجدني في الذنوب اعتمد على عفوك ، وكيف لا تنفرها وأنت بالجوهر موصوف . . . وقيل إن مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فقال إن أسأمت أضفتك ، فمر المجوسى ، فأوحى الله تعالى إليه . يا ابراهيم ، لم تطعمه إلا بتغيير دينه ، ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؟ فمر ابراهيم يسمى خلف المجوسى ، فرده وأضافه ، فقال له المجوسى . ما السبب فيما بدالك ؟ فذكر له . فقال له المجوسى . أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال اعرض على الإسلام . فأسلم . ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام ، وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له كيف حالك . فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا ، ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقال له يا أستاذ بم نلت هذا ؟ فقال بحسن ظنى برى . . . وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى ، رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول . أين العلماء ؟ قال فجأوا . ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا يارب قصرنا وأسأنا . قال . فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تنفر ما دونه . فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم . ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل كان رجل شريف جمع قوما من ندمائه ، ودفع إلى غلامه أربعة دراهم ، وأمره أن يشتري شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إليّ أربعة دراهم دعوت نه أربع دعوات . قال فدفع الغلام إليه الدرهم فقال منصور . ما الذى تريد أن أدعوك ؟ فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى ؟ فقال أن يخلف الله على دارهمى ، فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ فقال أن ينفق الله لى ولسيدى ولك وللقوم . فدعا منصور فرجع الغلام ، فقال له سيده : لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة . قال وبم دعا ؟ فقال سألت

لنفسى العتق . فقال له اذهب فانت حر . قال وإيش الثانى ؟ قال أن يخلف الله علىّ الدرهم  
قال لك أربعة آلاف درهم . وإيش الثالث ؟ قال أن يتوب الله عليك . قال تبنت إلى الله تعالى  
قال وإيش الرابع ؟ قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر . قال هذا الواحد ليس إلى .  
فلما بات تلك الليلة : رأى فى المنام كأن قائلاً يقول له . أنت فعلت ما كان إليك ، أجمين  
أنى لا أفعل ما إلى ؟ قد غفرت لك ، وللغلام ، وللمصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين أقرى  
وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال ، رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة  
يحمون جنازة قال فأخذت مكان المرأة ، وذهبنا إلى المقبرة ، وصلينا عليها ، ودفنا الميت .  
فقلت للمرأة من كان هذا الميت منك ؟ قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى  
ولكن صغروا أمره . قلت وإيش كان هذا ؟ قالت مخنثا . قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى  
وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا . قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر  
وعليه ثياب بيض ، فجعل يتشكرنى . فقلت من أنت ؟ فقال : المخنث الذى دفتمونى اليوم ،  
رحمنى ربى باحتقار الناس إياى . وقال ابراهيم الأطروش . كنا قعودا ببغداد مع معروف  
الكرخي على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق ، يضربون بالدف ويشربون ويلعبون .  
فقالوا لمعرف : أما تراه يعصون الله مجاهرين ؟ ادع الله عليهم : فرفع يديه وقال إلهى كما  
فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة . فقال القوم ، إنما سألتك أن تدعو عليهم . فقال إذا  
فرحهم فى الآخرة تاب عليهم . وكان بمض السلف يقول فى دعائه - يارب ، وأى أهل  
دهر لم يعصوك ، ثم كانت نعمتك عليهم سابقة ، ورزقتك عليهم دارا . سبحانك ما أحملك  
وعزتك إنك لتحصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق ، حتى كأنك ياربنا لا تغضب .  
فهذه هى الأسباب التى بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين . فأما  
الحمقى المغرورون ، فلا ينبغى أن يسمعوها شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب  
الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء ، والصبي العرم ، لا يستقيم  
إلا بالسوط والعصا ، وإظهار الخشونة فى الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح  
فى الدين والدنيا



## فهرست الجزء الثانى عشر

صفحة	صفحة
	٢١٣٩ بيان أقسام العباد في دوام التوبة
	توبة ذى النفس المطمئنة
٢١٨١	٢١٤٠ توبة ذى النفس اللوامة
	٢١٤١ توبة ذى النفس السائلة
٢١٨٢	٢١٤٢ توبة النفس الأمانة
	بيان ما ينبغى أن يبادر اليه التائب ان
	جرى عليه ذنب اما عن قصد
٢١٨٣	وشهوة غالبية او عن المام بحكم
	الاتفاق
	٢١٤٤ استغفار العبد امان له
٢١٨٤	٢١٤٦ ثمرة التوبة
	٢١٤٧
	الركن الرابع في دواء التوبة وطريق
٢١٨٥	٢١٥٠ العلاج لحل عقدة الاصرار
	٢١٥١ الايمان بأصل الشرع
٢١٨٦	الوقوف بالرسول صلى الله عليه وسلم
	الاصفاء الى وعيد الله وتحذيره
٢١٨٧	طلب العلم ونشره
	٢١٥٢ علة اكثرية مرض القلوب على مرضى
	الابدان
٢١٩٠	٢١٥٣ طريق الوعظ
	ذكر الآيات والأخبار المخوفة
	٢١٥٥ ذكر حكايات ذنوب الأنبياء والأولياء
٢١٩٣	٢١٥٦ ذكر تعجيل عقوبة الذنوب في الدنيا
	ذكر حدود الذنوب والنفوس
٢١٩٤	٢١٥٨ في الوجوه
٢٢٠١	٢١٦٢ اسباب الوقوع في المعاصى
	٢١٦٣ الفكر الحقيقي دواء الوقوع في المعاصى
	٢١٦٨ كتاب الصبر والشكر
٢٢٠٤	الشرط الأول في الصبر
	بيان فضيلة الصبر
٢٢٠٦	٢١٦٩ بيان حقيقة الصبر ومعناه
٢٢٠٧	٢١٧١ بيان كون الصبر نصف الايمان
	٢١٧٧ بيان الأسامى التى تتجدد للصبر
٢٢٠٩	٢١٧٨ بالإضافة الى مانع الصبر
	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف
٢٢١٧	٢١٨٠ القوة والضعف

صفحة		صفحة	
	فائدة الرياح فائدة الشمس فائدة القمر		<b>بيان تمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه</b>
٢٢٦٣	القمر	٢٢١٨	ما من مخلوق الا وفيه حكمة
٢٢٦٤	فائدة النجوم	٢٢٢٠	حكمة التقدين والتعامل بهما
	<b>الطرف الخامس</b> في نعم الله تعالى في	٢٢٢٣	حكمة تحريم الربا
٢٢٦٦	الاسباب الموصلة للأطعمة اليك	٢٢٢٩	وجوب التأدب عند حدود الله تعالى
	<b>الطرف السادس</b> في اصلاح الاطعمة		<b>الركن الثاني</b> من اركان الشكر ، ما عليه
٢٢٦٧	ما يحتاجه الرغيف حتى يصلح للأكل	٢٢٣٣	الشكر
٢٢٦٨	<b>الطرف السابع</b> في اصلاح المصلحين	٢٢٣٤	<b>بيان حقيقة النعمة واقسامها</b>
٢٢٦٩	الانسان مدنى بطبعه		تقسيم الامور بالنسبة اليها
	<b>الطرف الثامن</b> في بيان نعمة الله تعالى	٢٢٣٥	تقسيم الخيرات باعتبار التأثير
٢٢٧٠	في خلق الملائكة عليهم السلام	٢٢٣٧	مقارنة بين العلم والمال
	طبقات الملائكة	٢٢٣٩	تقسيم النعم باعتبار غايتها
٢٢٧٢	الملائكة وحدانيو الصفات	٢٢٤٠	الفضائل النفسية
	المعصية التافهة كفر بجميع نعم الله تعالى		وجهة احتياج طريق الآخرة للمال
٢٢٧٣	بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر	٢٢٤١	وغيره من النعم الخارجية
٢٢٧٥	الفلة الالهية واسبابها	٢٢٤٤	الفضائل المنسوبة ومعناها
	النعم الخاصة بكل عبد	٢٢٤٥	وجهة ان المال نعمة مع انه ذم شرعا
٢٢٧٦	<b>الركن الثالث</b> من كتاب الصبر والشكر	٢٢٤٨	منازل الهداية
٢٢٨١	<b>بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد</b>		<b>بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء</b>
٢٢٨٢	البلاء المطلق - البلاء المقيد	٢٢٥٠	<b>الطرف الأول</b> في نعم الله تعالى في خلق
٢٢٨٤	مواضع الشكر في البلاء	٢٢٥١	اسباب الادراك
٢٢٩٢	<b>بيان فضل النعمة على البلاء</b>		<b>الطرف الثاني</b> في اصناف النعم في
٢٢٩٥	<b>بيان الافضل من الصبر والشكر</b>	٢٢٥٤	خلق الارادات
٢٣٠١	تلازم معرفتى الشكر والصبر		<b>الطرف الثالث</b> في نعم الله تعالى في خلق
٢٣٠٤	الافضلية بين الفنى الشاكر أو الفقير الصابر	٢٢٥٥	القدرة وآلات الحركة
٢٣٠٨ *	<b>كتاب الخوف والرجاء</b>		وظيفة اليد
	<b>بيان حقيقة الرجاء</b>	٢٢٥٦	وظيفة الفم ووظيفة الاسنان
٢٣١٢	<b>بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه</b>	٢٢٥٧	وظيفة اللعاب ووظيفة المرىء والحنجرة
	<b>بيان دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حلال الرجاء ويغلب</b>	٢٢٥٨	وظيفة المعدة ووظيفة الكبد
٢٣١٥	ما يغلب به الرجاء		وظيفة المرارة ووظيفة الكليتين
٢٣١٧	الآيات في الرجاء	٢٢٥٩	وظيفة الصفراء
	الأخبار في الرجاء	٢٢٦٢	الروح
			<b>الطرف الرابع</b> في نعم الله تعالى في
			الاصول التى يحصل منها الاطعمة